العلم الأعجمي في القرآن مفسرًا بالقرآن

من إعجاز القرآن

في أعجمي القرآن

وجه في إعجاز القرآن جديد

الجزء الأول



تأليف

محمود رؤوف عبد الحميد أبو سعدة

تقديم بقلم الدكتور

محمود محمد الطناحي



للنشر والتوزيع

العلم الأعجمي في القرآن مفسرا بالقرآن

من إعجاز القرآن

في أعجمي القرآن

وجه في إعجاز القرآن جديد

تأليف

محمود رؤوف عبد الحميد أبو سعدة

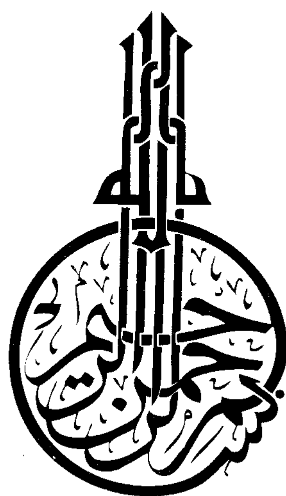
قدم له

الدكتور
محمود محمد الطناحي

الجزء الأول



للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

مِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ

فِي أَعْجَمِيِّ الْقُرْآنِ

١

© دار الميمان للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبو سعدة ، محمود رؤوف عبدالحميد
من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن. / محمود رؤوف عبدالحميد
أبو سعدة.- الرياض ، ١٤٣١ هـ
٢ مج.
ردمك: ٦-٤٨-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)
٣-٤٩-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج١)

١- القرآن - إعجاز ٢- القرآن - ألفاظ أ. العنوان
ديوي ٢٢٩,٩ ١٤٣١/٧١٧٤

رقم الإيداع: ١٤٣١/٧١٧٤
ردمك: ٦-٤٨-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)
٣-٤٩-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج١)

دار الميمان للنشر والتوزيع - الرياض
الطبعة الأولى ١٤٣٢هجري - ٢٠١١م

دار الميمان للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الرياض ١١٦١٣ ص.ب ٩٠٠٢٠
الموقع: *www.arabia-it.com*
البريد الإلكتروني: *info@arabia-it.com*
هاتف: ٤٦٢٧٣٣٦ (٠١) فاكس: ٤٦١٢١٦٣ (٠١)

الصف والإخراج الطباعي وتصميم الغلاف: دار الميمان للنشر والتوزيع

مِن إعجاز القرآن

في أعجمي القرآن

تقديم بقلم الدكتور

محمود محمد الطناحي

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا. لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجميٌّ وهذا لسان عربي مبين. والصلاة والسلام على خير خلق الله سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله، الذي أُوتيَ الكتابَ ومثلَه معه، ثم أوتيَ الحكمة وفصلَ الخطاب، فبالبيان القرآني المحكم، وبالفصاحة والبلاغة النبوية تضوَّأتْ تلك اللغة العربية الشريفة، واستكملت أسباب جلالها وبهائها.

ثم أما بعد:

فإن من علوم القرآن التي اعتنى بها الأئمة، وأفردوها بالتصنيف علم إعجاز القرآن، وقد بدأ الكلام في هذا العلم شذراتٍ ونتفًا في كتب التفسير، كشفًا لمواطن الكمال والجلال في كلام ربنا عز وجل.

وقد دخل المفسرون إلى الإعجاز من طريق تلك الآيات التي أمر بها المولى - تباركت أسماؤه - رسوله الأمين ﷺ أن يطلب من مشركي قريش الإتيان بمثل ما أنزل عليه، تدرجًا وتنزلًا، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[2] ثم قضى عليهم بالعجز وأيأسهم أن يأتوا بشيء من ذلك، فقال عز من قائل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟

(١) سورة هود، الآية: ١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

ومعلوم أن مشركي قريش الذين سمعوا كلام الله يتلى على لسان رسوله الأمين كانوا أرباب فصاحة وبيان، وكانوا يعرفون مواقع الكلام وحلاوة البيان، ولذلك أدهشهم القرآن حين سمعوه، ودلَّه عقولهم بعظمة بيانه وروعة معانيه، ودقة نظمه واتساقه، وحين لم يجدوا في الطعن إليه سبيلًا لم يسعهم إلا أن يقولوا: إنه شعر، وإنه سحر، وإنه أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ فهي تُملى عليه بكرة وأصيلًا، وهذا كله إقرار بعظمة ما سمعوا، وإذعان؛ لأنه كلامٌ مباين لكلام البشر، لكن ما انغمسوا فيه من العناد والمكابرة صدهم عن الاعتراف بأنه وحي يوحى، نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى المختار ليخرج الناس به من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور الإيمان وصفاء التوحيد.

ثم كان أن هدى الله بهذا القرآن العظيم أقوامًا، فأقبلوا على تلاوته، وتدبر أغراضه ومراميه، وتمثلوا أوامره. وانتهوا عن نواهيه. وكان هو كتابهم الذي يعتصمون به ويلجئون إليه فيما دقَّ وجلَّ من أمورهم.

وبقيت طائفة – ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة – لم تهتد ولم تذعن، وظل عداؤها للقرآن قائمًا، فأخذت تنقر وتنقب؛ التماسًا للمعابة في هذا الكتاب المحكم، باتباع متشابهه، وتحريف كلم عن مواضعه، وتخيل فساد نظم، أو لحن أسلوب، أو تناقض معنى. وقد أخذت هذه الطائفة تدب دبيبًا في القرنين الأولين، تستخفي بآرائها مرة، وتصحر بها أخرى، لكنها في كلتا حالتيها لم تترك أثرًا يذكر، إذ لم تكن لها شوكة، وكانت العقيدة على صفائها، لم تكدرها مقولات المتكلمين، ولا خلافات المتأولين، ثم كان اللسان العربي لا يزال صحيحًا محروسًا لم يتداخله الخلل، ولم يتطرق إليه الزلل، لكن الصغير يكبَر ويشِب، والزرع الضعيف يستحصد ويقوى، وتأتي أيام كالحات، تنجم فيها الفتن بدواعٍ كثيرة: منها اختلاط اللسان العربي بغيره من الألسنة، وانتشار الكتب المترجمة بغثها وسمينها، وتغلغل أهل المذاهب والنحل الأخرى في صلب العقيدة الإسلامية، وإغرائها

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

بالجدل وعلم الكلام، وأصحر أهل العداء القديم بآرائهم، وإذا الذي كان بالأمس همسًا ونجوى يصبح اليوم وله دوي وصليل، فأخذت المجالس وحلقات الدرس تموج بتلك الآراء وتضطرب، وإذا بالذي كان مشافهة ومسامرة يُسطر ويكتب وتتعاوره الأيدي.

ولم يكد المسلمون يدخلون في النصف الثاني من القرن الثالث[1] حتى انكشف كل خبيء

(١) نعم يكاد يجمع أهل النظر والبصر بتاريخ هذه الأمة أن بداية الخلاف والنزاع والجذب في ثقافة الأمة العربية الإسلامية قد كانت مع هذا الوقت: أواخر القرن الثالث الهجري للأسباب التي أوجزت الإشارة إليها.

على أنه من حسن الحظ، بل قل إنه من حفظ الله لهذه الأمة أن أصول علومنا قد وضعت كاملة قبل هذا الخلل الذي طرأ على المجتمع العربي المسلم في القرن الثالث، أي قبل فساد الزمان وتغير الأحوال. وحسبنا ههنا أن نذكر أن المسلمين كانوا قد فرغوا في القرنين الأولين من نقط المصحف وشكله، وضبط القراءات القرآنية رواية ودراية، وتدوين الحديث. فإن أصحاب الكتب الصحاح الستة كانوا كلهم في ذلك الوقت، وكذلك الإمام أحمد صاحب **المسند** إلا ما كان من أمر الإمام النسائي، فقد نصوا على أنه كان أطول أصحاب (السنن) سنًّا، فقد ولد سنة ٢١٥، وتوفي سنة ٣٠٣.

وفي ذلك الزمان أيضًا كانت كتب الأئمة الأربعة في الفقه، ووضع الشافعي من بينهم علم أصول الفقه، وكتب فيه (الرسالة).

وفي ذلك الزمان المتقدم من تاريخنا أيضًا وضع الخليل بن أحمد أول معجم عربي **العين**، ثم وضع علم (العروض) غير مسبوق ولا مشارك، وثنى تلميذه سيبويه بوضع **الكتاب** في علم النحو. وكذلك رأينا طبقات العلماء الرواة الثقات جامعي اللغة والشعر، من أمثال خلف الأحمر، والمفضل، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة، وأبي عبيد، وأبي عمرو بن العلاء، وأبي عمرو الشيباني، وابن الأعرابي، وابن حبيب، وابن سلام الجمحي، وأبي حاتم السجستاني، والسكري، والمبرد، وثعلب، وأبي العباس الأحول.

ولأمر حكيم وقف علماء اللغة الأقدمون بقبول الرواية في الأمصار عند نهاية القرن الثاني.

ومعلوم أن الذي وصل إلينا من علم هؤلاء الأوائل قليل، ولو سلم لنا كله لرأينا العجب العجيب، على نحو ما قال أبو عمرو بن العلاء: (ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم لجاءكم علم وافر وشعر كثير). لكن القدر الذي وصل إلينا من علومهم كافٍ - بحمد الله - في الدلالة على أن أصول علومنا وضعت وعرفت حدودها ومعالمها في هذين القرنين الأولين وشطر كبير من الثالث. أعني في ذلك الزمان الرخي المستقر. قبل أن تهب رياح الخلاف وتكدر الموارد الصافية.=

وظهر كل مكنون، واستعلن العداء للقرآن وللعربية مُلففًا في ثياب الخلاف الفلسفي والكلامي، ثم ما جر إليه كل ذلك من القول بفتنة خلق القرآن وأشباه لها من الكوائن والطامات.

لكن الله الذي تكفل بحفظ كتابه وفق طائفة من عباده ذادة منافحين، قاموا لهذه المطاعن والشبهات، وألقوا بحججهم وبراهينهم فإذا هي تلقف ما يأفكون. ولعل أول حامل لهذا اللواء هو الإمام الجليل أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، خطيب أهل السنة، المولود سنة ٢١٣ هـ، والمتوفى سنة ٢٧٦ هـ، فقد انتدب لهذه الشكوك والمطاعن التي تثار حول القرآن، فجمعها ثم سدد إليها سهامه وأعمل فيها معاوله، فاقتلعها من جذورها، وكان مجلى ذلك كتابه العظيم **تأويل مشكل القرآن**، إلى ما نثره في كتبه الأخرى، مثل **تأويل مختلف الحديث**.

ثم ظهرت مسألة إعجاز القرآن مبحثًا قائمًا بذاته، يقصد إليه قصدًا، وكانت تلك المسألة من أبرز المسائل التي تعاورها العلماء بالبحث في أثناء تفسيرهم للقرآن، وردهم على منكري النبوة، وخوضهم في علم الكلام، كعلي بن ربن كاتب المتوكل في كتاب **الدين والدولة**، وكأبي جعفر الطبري في تفسيره **جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن**، وكأبي الحسن الأشعري في **مقالات الإسلاميين**، وأبي عثمان الجاحظ في كتابه **الحجة في تثبيت النبوة**. وكان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام في إعجاز القرآن، فقد ذهب النظام – من بينهم – إلى أن القرآن نفسه غير معجز، وإنما كان إعجازه بالصرفة، وقال: (إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك، وسلب علومهم به)، وذهب هشام الفُوَطِي، وعباد بن سليمان إلى أن القرآن لم يجعل علمًا للنبي، وهو عرض من الأعراض، والأعراض لا يدل شيء منها على الله ولا على نبوة النبي، وكان ذلك وغيره من

= وأيضًا فإن جمهور أهل الملة الذين جاءوا بعد ذلك كانوا حراسًا أمناء حفظة، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة.

فليهدأ هؤلاء الذين يقولون: إن الخلاف والنزاع كانا معنا من أول الطريق.. واللهم لا.

أقوال أئمتهما منبعًا غزيرًا للقول في إعجاز القرآن، وقد انبرى كثير منهم للرد على من أنكر إعجازه جملة، كأبي الحسين الخياط وأبي علي الجبائي، اللذين نقضا على (ابن الراوندي) كتابه **الدامغ** الذي طعن فيه على نظم القرآن وما يحتويه من المعاني وقال: إن فيه سفهًا وكذبًا. وكذلك رد كثير منهم على من خالف عن قول جماعتهم بأن تأليف القرآن ونظمه معجز، وأنه علم لرسول الله ﷺ، كالجاحظ الذي رد على النظام رأيه في الصرفة، في كتاب: **نظم القرآن**[1].

ثم أفرد علم إعجاز القرآن بالتصنيف، ومن أشهر ما صُنف فيه مما هو مطبوع ومتداول:

١- **النكت في إعجاز القرآن**، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٦.

٢- **بيان إعجاز القرآن**، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي المتوفى سنة ٣٨٨.

٣- **إعجاز القرآن** لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣.

٤- **الرسالة الشافية**، للشيخ أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١، وهو صاحب **دلائل الإعجاز** و**أسرار البلاغة**[2].

ويعد كتاب أبي بكر الباقلاني من أوعب ما ألف في هذا العلم. قال ابن العربي: (ولم يصنف مثله)[3].

على أن بعض أهل العلم قد عالجوا إعجاز القرآن في ثنايا مؤلفاتهم القرآنية أو البلاغية،

---

(١) مقدمة تحقيق إعجاز القرآن للباقلاني ص ٧، ٨ للشيخ العلامة السيد أحمد صقر، رحمه الله ورضي عنه. وانظر بقية كلامه، فإنه عالٍ نفيس!

(٢) نشرت رسائل الرماني والخطابي والجرجاني معًا، باسم: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.
وقد نشر شيخنا أبو فهر محمود محمد شاكر - حفظه الله - الرسالة الشافية بآخر الطبعة التي قرأها وعلق عليها من دلائل الإعجاز.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/ ٩٠.

كالذي تراه في **البرهان في علوم القرآن** للزركشي، وكتابي ابن الزملكاني: **التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن**، و**البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن**، و**نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**[1] لفخر الدين الرازي، و**بديع القرآن**، و**تحرير التحبير**، كلاهما لابن أبي الإصبع المصري، و**الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** لأمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي اليمني.

ولا يزال الناس بعد الباقلاني إلى يوم الناس هذا، يعتادون هذا العلم الشريف، ويعالجونه، وقد اختلفت كتاباتهم فيه شرعة ومنهاجًا، إلى أن رأينا في عصرنا الحديث من نَحَوْا بالإعجاز القرآني منحى جديدًا، وهو ما يسمونه:

الإعجاز العلمي في القرآن، وبرغم ما انتهى إليه بعضهم من نتائج تسر الناظرين، فإنه طريق مخوف، ومنهج محفوف بالمخاطر، للذي علمته من تغير الظواهر العلمية واختلاف النظر إليها والحكم عليها. ولذلك حديث آخر.

* * * * *

(١) وله أيضًا: الإشارة إلى الايجاز في بعض أنواع المجاز. وقد أقامه كله على القرآن العزيز.

هذا الكتاب

ويأتي كتابنا هذا في علم إعجاز القرآن نمطًا وحده؛ فقد أداره مؤلفه على وجه من إعجاز القرآن جديد، لم يسبقه إليه سابق ولم يفطن إليه باحث، وكأن كعب بن زهير، رضي الله عنه، لم يكن مصيبًا حين قال:

ما أرانا نقول إلا مُعارًا ... أو مُعادًا من قولنا مكرورًا[1]

إلا أن يكون أراد الشعر وحده!

فقد يفتح الله على الأواخر بما لم يفتح به على الأوائل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا أيضًا وجه من وجوه إعجاز القرآن، وأنت ترى هذا من نفسك، فقد تتلو الآية أو السورة في صلاتك، أو في مغداك ومراحك، وعند أخذ مضجعك، وتمر عليها مرًّا، ثم تتلوها نفسها في ساعة أخرى من ساعاتك، وفي حالة مباينة من حالاتك، أو تسمعها من قارئٍ غيرك، فإذا هي تهزك هزًّا، وإذا هي تملأ كل ما حولك بهجة وضياء، ثم تفجر أمامك ينابيع من الحكمة والهدى لم يكن لك بهما عهد، وتعجب، كيف غيب عنك كل هذا الخير فيما سلف لك من أيام!

وكل الكلام يُملُّ إلا كلام ربنا عز وجل، وصدق رسول الله ﷺ في وصفه وهو المنزل

---

(١) هكذا يستشهد به أهل المعاني والأدب. انظر مثلًا العقد الفريد ٥/ ٣٣٨، لكن الرواية في ديوانه ص ١٥٤:

ما أرانا نقول إلا رجيعًا ... ومعادًا من قولنا مكرورًا

عليه: (ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه)[١].

* * * * *

وهذا الوجه من الإعجاز القرآني الذي قام له المؤلف ونهض به، وجه قاطع بات، لا تصح فيه لجاجة، ولا تسوغ معه مخالفة، لأنه قائم على قواعد اللغة، ومستند إلى أحكام التاريخ، وليس للهوى فيه حظ أو نصيب.

وعنوان الكتاب كما ترى **من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن - العلم الأعجمي في القرآن مفسرًا بالقرآن** - وهو عنوان دال على موضوعه صراحة، متجه إليه مباشرة، ومنهج الوضوح دائر في هذا الكتاب كله، فالمؤلف يمضي إلى قضاياه ويعالجها دون ثرثرة أو تلكؤ أو فضول.

يقرر المؤلف أن القرآن يفسر في ثنايا الآيات المعنى الدقيق لكل اسم أعجمي عَلَمٍ ورد في القرآن، أيًا كانت اللغة المشتق منها هذا الاسم الأعجمي العَلَم، وإن كانت لغة منقرضة يجهلها الخلق أجمعون عصر نزوله.

وأسلوب القرآن في ذلك - كما يقول المؤلف - (المجانسة على الاسم العلم بما يفسر معناه أبين تفسير)، ومثال ذلك ما ذكره في تفسير اسم (زكريا) عليه السلام: يقول ربنا عز وجل: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[٢]، ويقول المؤلف: زكريا في اللسان العبراني معناه حرفيًّا. (ذاكر الله) ثم يدعوك المؤلف إلى أن تتأمل المجانسة بين قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وبين (ذاكر الله)، وكأنه عز وجل يقول - وهو أعلم بما يريد - ذكر الله ذاكر الله، أو: ذكر الله فذكره الله، أو: ذكر الله فذكرته رحمة الله.

وقد يأتي تفسير العلم الأعجمي في القرآن بذكر المرادف العربي لمعناه بغير العربي:

(١) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، لأبي بكر بن العربي - أبواب فضائل القرآن ١١/ ٣١، وسنن الدارمي - فضائل القرآن ٢/ ٤٣١.

(٢) سورة مريم، الآية: ٢.

ومن ذلك أن معنى (جبريل) في العبرية: الشديد القوي، وجاء التعبير عنه في القرآن بذلك، قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾[1]، والمِرَّة بكسر الميم وتشديد الراء: بمعنى القوة أيضًا. وكذلك قوله تعالى عن جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[2].

ومثل ذلك ما انتهى إليه المؤلف في أمر (نوح) عليه السلام، فقد رده بعض مفسري القرآن إلى (النواح) فقالوا: هو من ناح ينوح، وجاء المؤلف فطبق عليه منهجه فرده - اعتمادًا على قواعد اللغة العبرية - إلى معنى التلبث والإقامة، ثم فسره بالسياق القرآني الكاشف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾[4]، وقوله تباركت أسماؤه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[5].

وثالثة: يذكر المؤلف أن (إسماعيل) ينطق في العبرية (يشمعيل) ومعناه: سمِع الله، أو سميع الله، ثم التمس هذا المعنى في سياق القرآن الكريم، فوجده في قوله عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[6]، وفي قوله عز وجل على لسان الخليل أيضًا وابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[7].

وهكذا يمضي المؤلف بهذا المنهج في تفسير أسماء الأعلام الأعجمية وما يشبهها من أسماء الأجناس والمواضع، وقد أحصى في ذلك واحدًا وستين عَلَمًا أعجميًا أو مختلفًا في

(١) سورة النجم، الآيتان: ٥، ٦.
(٢) سورة التكوير، الآيتان: ١٩، ٢٠.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ١٤.
(٤) سورة يونس، الآية: ٧١.
(٥) سورة الصافات، الآية: ٧٧.
(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

عجمته في القرآن، فسرها من القرآن نفسه - تعالى منزله - ثم ذكر أن القرآن لا يفعل هذا فقط، ولكنه يصحح أيضًا لعلماء العبرية وعلماء التوراة، وقت نزوله وإلى يوم الناس هذا، تفسيراتهم اللغوية لمعنى هذا العلم العبراني أو ذاك، من مثل أسماء بني إسرائيل الواردة في القرآن وغيرها من أسماء المواقع، مثل (مدين) فيخطئ أصحاب اللغة ويصيب القرآن.

* * * * *

فهذا هو عمود صورة الكتاب، كما أقامه مؤلفه، وكما أراد له أن يكون، ولكنه من وراء ذلك ومن قدامه قد استطرد إلى قضايا كثيرة؛ عقيدية ولغوية وتاريخية.

ومن أنفس ما في هذا الكتاب - وكله نفيس إن شاء الله - ما ذكره المؤلف حول تاريخ كتابة التوراة والإنجيل، وأن نص التوراة مستنسخ من الذاكرة بعد نحو ثمانية قرون من وفاة موسى عليه السلام، وكذلك الأناجيل الأربعة المتداولة لم يخطها عيسى عليه السلام بيده، ولم يملها على حوارييه، وبهذا تكون سلسلة السند في التوراة والإنجيل منقطعة، وليس كذلك القرآن.

ومما يتصل بالتوراة: ما سجله المؤلف من قصورها وتقصيرها في ذكر الأنبياء الذين هم من قبل إبراهيم عليه السلام، فتكون بذلك (توراة بني إسرائيل) ليس غير.

وقد أفضى ذلك بالمؤلف إلى أن طعن كثيرًا في (سفر التكوين) الذي بين أيدينا الآن، وكذلك شنَّع على كتاب التوراة، وكشف تدليسه وكذبه في أكثر من موضع، بل إنه نبه على تناقضه مع نحو اللغة العبرية ومعجمها.

أما بنوة عيسى لآدم عليهما السلام، وعبوديته لله عز وجل فقد عالجها المؤلف في غير مكان من الكتاب.

* * * * *

والكتاب في تسعة فصول، خصص المؤلف الفصول الثلاثة الأولى منها لما يمكن أن نسميه تسمية علماء القراءات: الأصول، والفصول الستة الباقية جعلها لما يسمى عندهم

الفرش، وهو تنزيل الكلام على أسماء الأعلام: عَلَمًا عَلَمًا، كما ينزل الكلام في اختلاف القراء على سور القرآن سورة سورة:

أما الأصول فقد أدار المؤلف عليها كلامًا عاليًا شريفًا، حول أصناف الملاحدة ومناقشتهم، ثم تكلم عن خصائص اللسان العربي وعبقرية العربية وقدمها، وأوجه التقابل والتغاير بينها وبين العبرية، ليجيب بعد ذلك: لماذا كانت العربية هي أم الساميَّات جميعًا؟

وأشار إلى لغات العالم المعروفة وقت نزول القرآن، ثم أورد كلامًا عزيزًا عن القرآن، وأورد اجتهادات في لغة آدم، عليه السلام، التي تكلم بها على الأرض مهبطه من الجنة.

وتحدث عن استعارة معاني الأفعال، وحدود الأخذ، والاستعارة من اللغات الأخرى.

ولهذا المؤلف اجتهادات جيدة في الاشتقاق، وتأصيل عربية بعض ما يظنه الناس أعجميًّا، مثل (جهنم) وتخطئة بعض اللغويين العرب في أصل (إبليس) واشتقاقه.

* * * * *

وهناك أمر لا يزال المؤلف يعتاده ويلم به كثيرًا، وهو الرد على المستشرقين ومن إليهم من متحذلقة الأساتيذ في هذا القرن، الذين أدركتهم عجمة العلم واللسان.. أو كما قال. وقد رد على المستشرقين في طعنهم على القرآن، وأنه وحي من الله يوحى على خاتم الأنبياء ﷺ.

وكان أكثر المستشرقين حظًّا من الرد والتعقيب المستشرق الألماني جوزيف هورڤيتس، المولود سنة ١٨٧٤م، والمتوفى سنة ١٩٣١م[1].

* * * * *

ولعل أغنى بحث فيما وقع لي من أصول هذا الكتاب: هو الكلام على اسم أبي إبراهيم عليه السلام، وهو (آزر) في القرآن، و(تارح) في التوراة، وقد تختلف مع المؤلف في بعض

(١) انظر ترجمته وآثاره في: المستشرقون، للأستاذ نجيب العقيقي ٢/ ٤٣٢، ٤٣٣، الطبعة الرابعة.

ما انتهى إليه من الربط بين (آزر) و(تارح)، ولكنك تكبر فيه صدق الجهد وقوة الحجة.

* * * * *

ومن أطرف ما قرأته في هذا الكتاب تنبه المؤلف لما يصنعه بعض الأدباء والشعراء في هذا الزمان - الذين يزعمون أنهم يوظفون التراث في أعمالهم الأدبية - من تمجيد (إبليس) رمزًا للبطولة في محنة السجود لآدم، وأنه أول من قال: لا، فهذا سخف من القول. فيقول المؤلف: (والذي يجب التنصيص عليه في هذا السياق، هو النعي على أهل التفسير والسير، وأيضًا على أهل الفن والفكر والأدب، الذين تناقلوا ما دسه إبليس على أوليائه من أساطير وتهاويل لا يخلو منها (أدب الخرافة) في كل الشعوب، تتحدث عن (أمجاد) إبليس قبل أن يبلس، تريد تفخيمه وتعظيمه وغرس المهابة منه في صدور الناس، حتى خصوه بأضوأ كوكب في السماء الدنيا، كوكب الصبح، أي كوكب (الزُّهَرة)، وجعله بعضهم ندًّا لله، وجعله بعضهم شهيد البطولة في محنة السجود لآدم، وأول من قال: (لا)، ليس التنكر للخالق عز وجل بطولة، لا صحيحة ولا زائفة، وإنما هو وضاعة، هذا كله فسوق وصغار، لا يجوز لمؤمن تجميل ما قبحه الله، ولا يجوز لمؤمن إعلاء ما وضعه الله أسفل سافلين، ولا يجوز لمؤمن تمجيد ما رذله الله، ولا يجوز لمؤمن تعظيم من لعنه الله، ناهيك بموالاة عدو الله، بل لا يجوز لعاقل موالاة من أقسم ليجرنه وراءه إلى قاع جهنم).

* * * * *

وهكذا تتوالى القضايا في هذا الكتاب النفيس، على أني أحب أن أسجل ههنا أن كلام هذا الكاتب - وأنا لا أعرفه - لا تستطيع أن تفرق فيه بين أصل وحاشية، بل إن كثيرًا من حواشيه ينبغي أن تنقل إلى صلب الكتاب أو متنه، وتأمل مثلًا حاشيته في الفصل الأول، عند حديثه عن صور المغايرة بين العربية والعبرية، في توجيهه لتسميته ﷺ (محمدًا) ومظهر الحمد فيه، وما تلا ذلك من حديثه عن (الموآبية) والمقارنة أو الموازنة بين (ساذج) و(سادة)، و(كيسر)

المعرب إلى (قيصر)، والاسم الإسباني (رذريجو) المعرب إلى (لذريق)، وغير ذلك كثير من العلم المنثور في حواشي الكتاب.

ومع غزارة هذه المعارف التي يقدمها لنا الكاتب، ونفاستها، فهو لا يُدِلُّ بها على قارئه، ولا يسوقها في موكب تتقدمه الخيَّالة، ويحف به راكبو الدراجات، وتكتنفه دقات الطبول، كما يفعل كثير من الكتاب الآن، وإنما يأتيك كلامه سهلًا رهوًا، يتهادى في إهاب الكرامة والتواضع والإسماح، وعليه من العلم بهاؤه، ومن الجد أماراته، بأسلوب عذب مصفى، أسلوب كاتب يحترم عقل قارئه، ويريد إمتاعه لا التعالي عليه. يقول في الفصل الثاني - الأعجمي المعنوي والأعجمي العلم - في مناقشة المفسرين الذين اعتمدوا في تفسير أسماء أنبياء بني إسرائيل على المعجم العربي وحده، يقول: (وأنا أيها القارئ العزيز - إن كنت لا تعرف عبرية التوراة أو يونانية الأناجيل، بما في هذه وتلك من أعلام آرامية، بل ومصرية أحيانًا - لا أريد لك أن يفوتك شيء من حلاوة بحث أريد أن أحبره لك تحبيرًا: أريد منك أن تشترط عليَّ توثيق ما أحدثك به، فلا أكيل لك القول جزافًا آمنًا ألا تكشف زيفى، لأنك لا تعلم شيئًا من أمر تلك اللغات التي ذكرت لك. ليس هذا من العلم في شيء، وإنما هو من التدليس).

وقوله: (أحبره لك تحبيرًا) انتزعه - محسنًا - من قول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وقد أخبره ﷺ أنه استمع لقراءته القرآن، فقال: (أما إني لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيرًا)[1].

وهذا الاقتباس الذي جرى على قلم الكاتب ترى له أشباهًا ونظائر في غير هذا الموضع من كتابه، وهو يدلك على انتماء أسلوب الكاتب لذلك النمط العالي من البيان المشرق الوضيء، الذي هو السمة الغالبة على أسلوب علمائنا الأوائل، ليس في كتب الأدب فقط، بل تراه في كل ما كتبوه، حتى في علوم الفقه والأصول والتاريخ والأنساب والبلدانيات (الجغرافيا) والطب والفلك والفلاحة (الزراعة)، فنحن أمة بيان وفصاحة، وإن أريد لنا أن

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٩/ ٩٣ - باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، من كتاب فضائل القرآن.

نفرغ من هذا كله، وأن نعايش الواقع ونعانق لغة العصر - هكذا يقولون - لنضيق الفجوة بين ما يقرؤه التلاميذ في الكتب وبين ما يسمعونه في الشارع والبيت. لقد أفضى ذلك العبث كله إلى هجر الكلام العالي، والتردي في هوة العجمة والسوقية. إن كثيرًا من أساليب الكتاب الآن تمضي تتخبط في طريق مظلم كئيب، وتدور تسعى في فلك ألفاظ مستهلكة مستبردة، مما كان يوصف قديمًا بالكلام المغسول[١].

وقد صدهم عن حسن البيان وجمال العبارة وهم خادع وظن كذوب؛ أن العناية بتحسين العبارة أصباغ وزخارف، وأن التفكير العلمي والموضوعي يأبيان ذلك ويرفضانه... وهذا حديث طويل، لا ينبغي أن يشغلنا عن ذلك الكتاب الذي حبّره مؤلفه تحبيرًا، وزينه تزيينًا[٢].

إن في هذا الكتاب علمًا كثيرًا، وإن فيه خيرًا كثيرًا، وإن عليه نورًا كثيرًا، وما أظن ذلك كله قد كان إلا لأن مؤلفه قد تغيا به غايات نبيلة: هي خدمة كتاب الله، بالكشف عن نواحي إعجاز جديدة فيه، والأمور بمقاصدها. يقول تاج الدين السبكي: (ولقد حصل أبو زرعة على أمر عظيم ببركة حفظه للحديث، وهكذا رأينا من لزم بابًا من الخير فتح عليه غالبًا منه)[٣].

ويقول عبد اللطيف البغدادي: (اعلم أن للدين عبقة وعَرفًا ينادي على صاحبه، ونورًا وضيئًا يشرف عليه ويدل عليه)[٤].

(١) شرحه جار الله الزمخشري، في أساس البلاغة، فقال: (وكلام فلان مغسول، ليس بمعسول، كما تقول: عريان وساذج: الذي لا ينكت فيه قائله، كأنما غسل من النكت والفقَر غسلًا، أو من حقه أن يغسل ويطمس).

(٢) اقرأ قوله عن (يعقوب) عليه السلام وبنيه: (وبنوه هؤلاء الذين فجعوه بيوسف ليخلو لهم وجه أبيهم، ها هم أولاء يغدون ويروحون أمامه، تتضح أعينهم بما فعلوه، فلا يخلو لهم منه إلا وجه كسيف، ولسان لا يفتأ يذكر يوسف: ترى أين أنت الآن يا يوسف؟ أطعمت؟ أدفئت؟ أي ذئب آخر يترصدك؟).
هذا كاتب يكتب وهو منشرح الصدر، وقد أنبأنا في قصة (يوسف) عليه السلام، أنه يستمتع بما يكتب، ويحب لنا أن نستمتع نحن أيضًا.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١/ ٦٥.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٢/ ٣٢٢.

ويقول أبو الحسن العامري: (إن الدين كريم الصحبة، يعز من لجأ إليه، ويستر عيوب من اتصل به، مع ما يُذْخَر له في عاقبته من الغبطة الأبدية)[1].

قلت: وقد رأينا كثيرًا ممن تطاولوا على الدين وهزأوا به وسخروا منه في مجالسهم، أو في أعمالهم الأدبية - شعرًا أو نثرًا - قد انتهى أمرهم إلى خسارٍ وبوار، بل إن منهم من رأى فقره بين عينيه، ورأى عافيته تتفلت من بين يديه، مع ما تراه من ظلام في وجوههم ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[2].

* * * * *

ولما كان كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب ذلك القبر الشريف، المعصوم ﷺ: فإن لي مع المؤلف الفاضل وقفات فيما وقع لي من أصول الكتاب، ولم أسعد بقراءته كله، وإني أعتقد أن من تحية أي بحث والاحتفال به مناقشته ومفاتشته:

أولًا: استصحب المؤلف تفسيرًا واحدًا من تفاسير القرآن العزيز، وهو تفسير الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الأندلسي القرطبي، المتوفى بمنية ابن خصيب شمالي أسيوط بصعيد مصر، سنة ٦٧١هـ، ويرى المؤلف أن هذا التفسير هو أوسع وأشمل تفاسير القرآن الكريم. وتفسير **القرطبي** على جلالته ونباوة محله ليس هو أوسع التفاسير ولا هو أشملها، فإن أوسع التفاسير المطبوعة وأشملها هو تفسير شهاب الدين أبي الثناء السيد محمود الآلوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ، وهو المسمى: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**.

ولو كان تفسير القرطبي هو أوسع التفاسير وأشملها فليس بمغن عن سواه من التفاسير، سابقة أو لاحقة، وذلك أنه في تاريخنا وثقافتنا (لا يغني كتاب عن كتاب) قل هذا في علم التفسير، وقله في سائر علومنا. ولقد كان من أخطر ما صد الناس عن أبواب العلم، وزهَّدهم

(١) الإعلام بمناقب الإسلام ص ١٢٩.
(٢) سورة الحج: ١٨.

في الاستقصاء والتتبع والصبر على تكاليف العلم: الزعم بأن كتبنا تتشابه، وأن غاية اللاحق أن يدخل على السابق، يردد ما قال دون أن يضيف إليه شيئًا، إلا شيئًا لا يُعبأ به، وهو زعم باطل وخلف من القول، ورده ودفعه في غير هذا المكان.

على أن ذلك التشابه الذي يظن بكتبنا، عند من لم يحسن النظر والتأمل، يذكرنا بأهل الصين واليابان، تنظر إلى سحنتهم فتراهم على نمط واحد، ومن بابة واحدة، فتظنهم جميعًا شخصًا واحدًا، ولكنهم عند أنفسهم مختلفون جدًّا، وبينهم من الفروق وأوجه الخلاف ما هو واضح عندهم وضوحًا لا يدخله شك.

ثانيًا: من المباحث التي عالجها الكتاب: الترتيب التاريخي للأنبياء، والمدد التي بينهم، كالزمن الذي بين آدم ونوح، والذي بين نوح وإبراهيم عليه السلام، ولم يستفد المؤلف - فيما رأيتُ - من المصادر العربية التي عالجت هذا الموضوع، مثل **المحبَّر** لابن حبيب (٢٤٥هـ)، و**المعارف** لابن قتيبة (٢٧٦هـ)، و**تاريخ الطبري** (٣١٠هـ)، و**مروج الذهب** للمسعودي (٣٤٦هـ)، و**قصص الأنبياء** لابن كثير (٧٧٤هـ) الذي هو جزء من كتابه: **البداية والنهاية**.

ولئن كان المؤلف يخالف هؤلاء المؤرخين - لأني أعتقد أنه لا يخفى عليه مكانهم، ولا يجهل مؤلفاتهم - فقد كان ينبغي الإشارة إليهم، والاستئناس بهم.

ثالثًا: ذكر المؤلف الخلاف في تعيين اسم (الذبيح) وهل هو إسماعيل أم إسحاق؟ وأورد كلامًا جيدًا، لكنه لم يرجع إلى المصادر الأولى - فيما ظهر لي - ولم يستفد مما كتبه أهل العلم، ولو فعل لما قال: إن المفسرين تهيبوا تكذيب التوراة في قولها: إن الذبيح كان إسحاق بالاسم، لا إسماعيل، فلم يروا بأسًا من متابعة التوراة على هذا القول.

فهذا التعميم غير صحيح، فإن الحافظ ابن كثير - وهو من أئمة التفسير - وكتابه عمدة في التفسير - ذكر الرأيين، وانتصر للرأي القائل بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٣ - ٣٠ (سورة الصافات).

وقال ابن قيم الجوزية: (وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهًا، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيده. ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غر أصحاب هذا القول في التوراة التي بأيديهم، اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة، إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[1] فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد. وهذا ظاهر الكلام وسياقه)[2].

أرأيت أيها الكاتب الفاضل تصديق كلامك عند الأقدمين؟ وأنت عليم أن مثل هذه القضايا لا تلتمس من كتب التفسير وحدها، فكتب العربية آخذ بعضها برقاب بعض.

رابعًا: هذا كتاب جيد، مرجو منه الخير والنفع إن شاء الله، ومثله أعلى من أن تذكر فيه الأحاديث الشريفة بمعناها دون لفظها: ومن ذلك ما ذكره المؤلف في مبحث (إبليس) عليه لعائن الله تترى، قال: (وقد روي عن الصادق المصدوق ﷺ ما معناه (ثوروا القرآن)، أي: ابحثوا وتمعنوا)، ولفظ الحديث: «**من أراد العلم فليثور القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين**»[3].

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٧٠، ٧١.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/ ٧١-٧٢، وانظر بقية كلامه ففيه تحقيق جيد.

(٣) أخرجه الحافظ نور الدين الهيثمي، من حديث عبد الله بن مسعود، في مجمع الزوائد ٧/ ١٦٥ (باب في فضل القرآن ومن قرأه)، وكذلك رواه ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر =

قال شمر بن حمدويه: (تثوير القرآن: قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه).

وروى أبو منصور الأزهري[1]، رواية أخرى، من حديث ابن مسعود أيضًا: «**أثيروا القرآن؛ فإن فيه خبر الأولين والآخرين**»، وذكر الروايتين أبو عبيد الهروي[2]، وكذلك عبد اللطيف البغدادي[3].

ويتصل بالحديث الشريف أيضًا ما ذكره المؤلف - في أثناء الكلام على (آزر) أبي إبراهيم عليه السلام - من قوله ﷺ للنسوة اللائي خرجن لتشييع الجنازة «**ارجعن مأزورات غير مأجورات**»[4]. و(مأزورات) اسم مفعول من الوزر، وهو الإثم، وقياسه: (موزورات) من وَزَرَ يَزِرُ، قال عزَّ من قائل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[5]، وغيرها من الكتاب العزيز، وجاء على الأصل في كلام علي رضي الله عنه: (إن صبَرت جرى عليك القدرُ وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت موزور)[6].

وإنما قال ﷺ: «**مأزورات**» للازدواج بمأجورات، فقلب الواو ههنا همزة، ليس قلبًا صرفيًّا، على أنهما لغتان شائعتان مستعملتان، مثل أكَّد ووكَّد، والتأكيد والتوكيد، ولكنه قلب لغاية صوتية، هي ما يسمونها الازدواج أو المزاوجة.

فتنظير المؤلف لتعاقب الهمزة والواو بهذا الحديث غير صحيح، وإنما ينظر بالشائع المطرد

= ١/ ٢٢٩، والقرطبي في تفسيره ١/ ٤٤٦.

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ١١٠.

(٢) الغريبين ١/ ٣٠٦، ٣٠٧.

(٣) المجرد للغة الحديث ١/ ٢٦٢.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه ١/ ٥٠٣ (باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز، من كتاب الجنائز).

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٦) نهاية الأرب للنويري ٥/ ١٦٧، قاله علي رضي الله عنه للأشعث بن قيس، يعزيه عن ابنه، في كلام بليغ شريف، لكنه جاء بالهمز (مأزور) في التعازي للمدائني ص ٦٧، والتعازي والمراثي للمبرد ص٢٠٦ - وتأمل حاشيته ففيها من نسخة: (موزور) - وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩/ ١٩٢.

المنقاس، مثل أكد ووكد، وأقتت ووقتت[1]، ووجوه وأجوه، ووشاح وإشاح، ووعاء وإعاء[2].

والمزاوجة أو الازدواج ظاهرة صوتية، يراد بها الانسجام والتوافق الصوتي، وهذه الظاهرة سماعية، أي أنها مرتبطة بنصوص بعينها، مثل الحديث السابق، ومثل ما جاء في حديث القبر: «**لا دريت ولا تليت**»، وإنما هو: تلوت. وإنما قلبوا الواو ياء ليزدوج الكلام، وكذلك قولهم: (إني لآتيه بالغدايا والعشايا)، فجمعوا الغداة: غدايا، لتزدوج بالعشايا، وحقها أن تجمع على: غدوات. وكذلك قولهم: (الحير العين)، وإنما هي: الحور.

وهذا كله قلب غير منقاس، ولذلك ذكره ابن قتيبة تحت عنوان: (باب شواذ التصريف) - أدب الكاتب ص ٦٠٠.

خامسًا: في حديث المؤلف عن (إبراهيم) عليه السلام، خطأ المفسرين واللغويين الذين ذهبوا إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[3]: معناه الجامع لخصال الخير، ثم ذكر أن تفسير لفظ (أمة) بذلك لا يساعد عليه أصل المادة، ورأى من عند نفسه أن المعنى الدقيق لاسم إبراهيم هو: (إمام الناس).

قلت: هذا الذي انتهى إليه المؤلف الفاضل باجتهاده واستخراجه هو ما قاله بلفظه الإمام اللغوي ابن فارس، المتوفى سنة ٣٩٥، في كتابه الفذ: **معجم مقاييس اللغة ١/ ٢٧**، قال: (وقيل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إمامًا يهتدى به)، لكني قلت من قبل: إن المؤلف لم يستفد من الكتب الأولى، واللغة تؤخذ من كتب العربية كلها، أعني من فنونها ومعارفها كلها، ومن كل ما كتبه أهل العلم، ما دقّ منه وما جلّ، وقد كانت آفة بعض الذين كتبوا عن اللغة العربية أنهم التمسوها من كتب اللغة فقط[4].. وليس الطريق هنالك!

---

(١) قرأ أبو عمرو: (وإذا الرسل وقتت) [المرسلات: ١١]، السبعة لابن مجاهد ص ٦٦٦.

(٢) قرأ سعيد بن جبير: (ثم استخرجها من إعاء أخيه) [يوسف: ٧٦]، المحتسب لابن جني ١/ ٣٤٨.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٤) وكذلك الذين كتبوا عن (النحو) التمسوه من كتب النحو فقط، وفي هذا ما فيه. وقد كتبت في ذلك كثيرًا.

سادسًا: ذكر المؤلف في الفصل الثاني، قال: (ومن خصائص الاسم العلم أنه لا يوصف إلا على الخبر أو على البدل، ولا يوصف على النعت، لأن النعت يخصص والاسم العلم متخصص بذات علميته، لا يحتاج إلى مخصص، ثم استشهد للوصف على البدل بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فما بعد لفظ الجلالة كله مجرور على البدل.

وهذا كلام خرج من باب الاجتهاد ليس غير، وقواعد النحو على خلافه، لأن النعت كما يخصص النكرة يوضح المعرفة التي منها الاسم العلم، مثال نعت المعرفة: جاء زيد التاجر، أو التاجر أبوه، فهذا توضيح للمعرفة، ومثال نعت النكرة: جاءني رجل تاجر، أو تاجر أبوه، فهذا تخصيص للنكرة(١).

أما إعراب ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقد أعربها جمهور النحاة والمفسرين نعتًا للفظ الجلالة، لمجرد المدح، لا على التوضيح ولا على التخصيص الذي أراد المؤلف الفاضل أن يفر منه مع لفظ الجلالة، ولكن على إرادة مجرد المدح، وقد نبه على هذا أبو حيان، فقال: (الرحمن الرحيم... هما مع قوله: رب العالمين، صفات مدح؛ لأن ما قبلهما علمٌ لم يعرض في التسمية به اشتراك فيخصص)(٢).

إذن قول المؤلف: (إن الاسم العلم متخصص بذاته) ليس على الإطلاق والتعميم، وإنما هو فقط في حق المولى جلت صفاته (الله) المعبود بحق الذي لا شريك له.

ونعم ذكر بعض معربي القرآن أن (رب) يجر على النعت لله، أو البدل منه(٣)، لكن الأكثر على أنه نعت لمجرد المدح كما ذكرت.

---

(١) أوضح المسالك لابن هشام ٣/ ٣٠٠، وغيره من كتب النحو، على أن النعت قد يأتي لغير التوضيح والتخصيص، بأن يأتي لمجرد المدح أو الذم، أو التعميم أو الترحم، أو الإبهام، أو التوكيد كما هو مذكور في المطولات.

(٢) البحر المحيط ١/ ١٩.

(٣) التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١/ ٥، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ١/ ٤٥.

سابعًا: عرض المؤلف في أثناء حديثه عن (يوسف) عليه السلام لإعراب قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾[1]، فقال في حاشيته: (تنصب ﴿بَشَرًا﴾ هنا على نزع الخافض، وهو الباء المؤكدة للنفي، فالأصل: ما هذا ببشر! باتة قاطعة، والقاعدة في المجرور بحرف أنك إن نزعت حرف الجر منه نصب، وهذا يغنيك عن تعللات علماء النحو في هذه الآية، ومنهم أئمة، الذين أجهدوا أنفسهم وأجهدوا تلاميذهم، في جمع الشواهد على أن من العرب من يجعل لـ (ما) حكم ليس).

قلت: إن إيراد الكلام على هذا النحو يوحي للقارئ غير المتخصص: أن هذا الإعراب إنما خرج من كيس المؤلف الفاضل، وأنه لم يسبقه إليه سابق، وآية ذلك أسلوب التعميم في قوله: (وهذا يغنيك عن تعللات علماء النحو في هذه الآية).

وهذا الذي ذكره المؤلف ونصره إنما هو قول الكوفيين - الفريق الثاني من علماء النحو - وهذا موضع من مواضع الخلاف بينهم وبين البصريين، وقد ذكره أبو جعفر النحاس، وأبو البركات الأنباري وغيرهما من النحاة[2].

وتبقى بعد ذلك كلمة:

لقد قلت من قبل: إن أسلوب هذا الكاتب عذب مصفى، واللهم نعم! لكن شاب هذا الصفاء، وعكر هذه العذوبة بعض أوشاب[3] مما يخالط الأساليب الشريفة، تتسلل إليها لِواذًا، وكأنها العدوى المهلكة، تتخلل ذرات الهواء، لا تحس بها إلا وقد داهمتك في خلايا بدنك - عافاك الله - فلا تستطيع لها دفعًا ولا مردًّا.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣١.

(٢) راجع إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٩، والإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري ١/ ١٦٥، والتبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين للعكبري ص ٣٢٤، ثم انظر معاني القرآن لأبي زكريا الفراء الكوفي ٢/ ٤٢.

(٣) هذا وصف علمي، وليس ذمًّا - إن شاء الله - وهو بلاء يصيبنا جميعًا فيما نعالج من أساليب الكتابة والبيان. بتأثير ما يغشانا من طوارق ومصائب ما نقرأ وما نسمع والملجأ الله!

ومن ذلك ما جاء في كلام المؤلف الفاضل من هذا التركيب (موسيقى القرآن)، وهو تركيب رخو لين، لا يليق بجلال القرآن وبهائه، ولا تقل: لا بأس علينا من تقارض مصطلحات العلوم؛ لأن فيه إثراء للغة. لا تقل هذا ولا تغتر به؛ لأنه مدخل لبلاء عظيم، ولو فتحنا هذا الباب لفسد علينا كل شيء، فإن للكلام حدودًا ومعالم ينتهي إليها، أنسيت أن منا من قال: إن القرآن رسم لوحة صفتها كيت وكيت؟ فجعل المولى عز وجل فنانًا تشكيليًّا يحمل فرشاة يغمسها في ألوان، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

لقد غيروا (النظم القرآني واتساقه) فجعلوه (موسيقى القرآن)، ثم غيروا (العَرُوض) فجعلوه (موسيقى الشعر)، ثم غيروا (علم الصرف) فسموه (علم الصوتيات)[1]، وثم وثم وثم، وبالله نستدفع البلايا!

وبعد: فهذا بحث جيد جدًّا، احتشد له مؤلفه احتشادًا، وأحكم بناءه إحكامًا، ولم يبق إلا أن أخلي بينك وبينه، لا أجاذبك الحكم عليه أو الرضا عنه، فهذا لك، أما أنا فإني أرفعه وأمدحه، وهذا لي، لكني من باب النصح للمسلمين والبر بهم: أوصيك أيها القارئ العزيز بتأمل هذا الكتاب ومدارسته، فخل له سَرْبَك، وشد عليه يد الضنانة، ثم أغر به من حولك. جعلك الله لكل خير سببًا، وأذاقك حلاوة الإنصاف، وثبت نعمه لديك، وأوزعك شكرها. وجزى الله مؤلف الكتاب خير ما يجزى به مسلم يوقر كتابه، ويكشف عن مظاهر الكمال والجلال فيه، وجعل كل ما قدمه من جهد واجتهاد في موازينه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[2]. والحمد لله في الأولى والآخرة،،،

وكتبه الدكتور

محمود محمد الطناحي

(١) وإن تعجب فعجب أن هذه التسمية الآن بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف، ورحم الله الشيخ محمد علي النجار، والشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، والشيخ إبراهيم حمروش، والشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، شيوخ هذه الكلية الأجلاء.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

تصدير

القرآن كلام الله عز وجل معجز للخلق أجمعين، لا يأتون بمثله، هكذا وصفه منزله جل شأنه، وهكذا هو، وتلك هي عقيدة المسلم.

وعقيدة المسلم في هذا الإعجاز مترتبة ابتداءً على إيمانه بأن القرآن كلام من الله عز وجل، خطاب لخلقه، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ.

والمسلم أيضًا - عربيًّا وغير عربي - يسلم بإعجاز القرآن تصديقًا لقول الحق سبحانه:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[2] ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3]

وقد مضى على نزول القرآن أربعة عشر قرنًا دون أن ينهض لهذا التحدِّي أحد، وما كان لأحدٍ أن يفعل من بعد وقد عجز معاصروه المنكرون عليه وهم أصحاب اللغة.

وليس القرآن معجزًا بلغته فقط، أي بمحض لفظه وعبارته، وإن كان قمة الإعجاز اللغوي

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

لأهل العربية في كل العصور، مسلمهم وغير مسلمهم على السواء، ولكنه معجز للناطقين بكل اللغات، لأنه معجز بموضوعه. معجز بمعانيه، معجز بهيمنته على ما سبقه من الكتب، وكلها غير عربي، يصدقها فَـتَصْدُق، ويخالفها فيصدق هو.

والقرآن معجز أيضًا بقائله، أي بصدوره مباشرة عن الله تبارك وتعالى، فهو سبحانه في كل القرآن القائل المخاطب المحدث الراوي. وليس لهذا نظير في الكتب السابقة التي بين يديك: فيها من قول الله، وفيها من غير قول الله. فيها من قول النبي أو الرسول وأكثرها حديث الرواة عن النبي أو الرسول. إنها أشبه بالتواريخ والسير، العهدة فيها على الراوي، لا على النبي أو الرسول. يستبين لك هذا مباشرة من مجرد القراءة في تلك الكتب، غير محتاج في إثباته إلى دليل من خارجها، بل إن أصحاب تلك الكتب لا يجادلونك في هذا، وإنما يسلمونه: التوراة كتابة الربانيين والأحبار بعد قرون من وفاة موسى عليه السلام، والأناجيل منسوبة إلى الحواريين والآخذين عنهم بعد رفع المسيح عليه السلام. وهم يسلمونه أيضًا؛ لأنه بين من عبارة الكاتب، الذي يقول لك في التوراة (كتاب موسى): وقال الله لموسى... وذهب موسى... ومات موسى... إلخ، كما يقول لك في الإنجيل (كتاب عيسى): وتهلل يسوع بالروح... وانطلق يسوع... وعلمهم أن يقولوا في صلواتهم... إلخ، وهذا أشبه بالسيرة النبوية وكتب الحديث، لا تسلم إلا بعد تمحيص وتدقيق. وأنت لا تجد في القرآن عبارات من مثل: (جاء محمد)، و(ذهب محمد) صلوات الله عليه، تجد مثل هذا في السيرة النبوية، ولا تجده في القرآن، ولكن أصحاب الكتب السابقة يؤمنون بأن كتبة التوراة والأناجيل كتبوا ما كتبوه بإلهام من الله وبوحي من الروح القدس. وأنت قد تسلم بالوحي للنبي، ولكنك لا تسلمه قط للرواة. فهم لم يدعوه، بل أنت تقرأ في (إنجيل لوقا) أن الكاتب يقول لك: إنه لم يكتب ما كتب إلا بعد جمع وتمحيص وتدقيق.

وقد أراد الله للقرآن أن يكون المعجزة الكبرى لخاتم النبيين. وقد أرادها عز وجل معجزة خاتمة خالدة، تليق بعموم الرسالة في المكان وخلودها في الزمان، فهي رسالة لكل الناس في كل العصور. كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات مرئية، يعاينها من شهدها، فهي

حجة على الشاهد وليست حجة على الغائب. الحدث المعاين ينقضي بتمام حدوثه فيطويه التاريخ. أنت لا تستطيع أن تقول: (ههنا انشق البحر لموسى)، فقد عاد البحر كما كان. ولا تستطيع أن تقول: (هو ذا لعازر الذي مات بالأمس قد أحياه المسيح)، فقد مات لعازر من بعد، ورفع المسيح. أما المعجزة السمعية، أما القول الفصل، أما الآية من القرآن، فهي الشاهد الناطق أبد الدهر. فالحدث ينقضي بتمام حدوثه، والكلمة تولد بالفراغ من نطقه فلا تموت، وقد أثبت الله عز وجل للقرآن صفة المعجزة الشافية الكافية، فأنكر على من سألوا محمدًا ﷺ معجزة مرئية كمعجزات من سبقوه، ولم يكتفوا بالقرآن. قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[1].

أراد الله عز وجل للقرآن - والحق من أسمائه جل وعلا - أن يكون دالًّا بذاته على مصدره، فكان القرآن محض الحق، نزل من الحق بالحق: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[2]. ليكون لنبيه محمد ﷺ، في كل العصور، الحجة الساطعة القاطعة الخالدة، ولا أقطع من كلمة الحق، ولا أبقى.

* * * *

والمسلم، عربيًّا وغير عربي، الذي يسلم ابتداء بإعجاز القرآن لمجرد إيمانه بصدوره عن الخالق جل وعلا، مأمور أيضًا بالتأمل في إعجاز الخالق فيما خلق.

قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[3]، وقال أيضًا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[4].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.
(٤) سورة الملك، الآيات: ٣، ٤.

وهذا من دقيق القرآن: خسأ البصر وحسر، أي كلَّ وأُعيي، فارتد منعكسًا في القلب، فيتطامن القلب ويخشع، قد غشيته السكينة، وتغشاه الجلال، وانقلب البصر بصيرة. تلك هي لحظة الإيمان الخالص واليقين المطلق. إنه ليس إدراك فهم، فهو قد آمن من قبل، وإنما هو إدراك حضور، تلك اللحظة هي التي طلبها إبراهيم عليه السلام من ربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾[1]. أي يتطامن، يستضيء بنور الله، ويستروح جلال الله، ويغيب في كنف الله. تلك هي لحظة الوجود الحق، وتلك في هذه الدنيا هي جنة المؤمن: إنه في هذه اللحظة دانٍ قريب، في حضرة ذي الجلال، لم يدن هو، وإنما تفضل المنعم فأدناه، وهو عز وجل لا يتجلى لخلقه بنور ذاته، إذن لصعقوا، ولكنه عز وجل يتجلى لهم في دقيق خلقه، ولطيف صنعه، وحكيم إبداعه. قال ﷺ: **«تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذات الله»**.

والتفكر في خلق الله وفي إعجاز الله عبادة ذكر وتسبيح، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾[2].

❋ ❋ ❋ ❋

والقارئ في كتاب الله، المتدبر في آي القرآن، قارئ في كتاب الكون كله، ما كان ويكون، دق أو عظم، تعلق بأذيال النجوم، أو تخفى في دبيب النفس.

إنه القارئ السامع الرائي.

وغيره أعمى وأصم.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[3].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠، ١٩١.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٤.

وقد شغل المسلمون في كل العصور بتدبر القرآن، يستظهرون معانيه، ويستجلون وجوه إعجازه، فلم يستقصوه، ولن يستقصوه حتى تقوم الساعة، فالإعجاز مستمر، والقرآن لكل القرون، لا يجد للخليقة علم إلا وقد سبقت إليه بالقول الفصل في القرآن إشارة.

وهذا هو الإعجاز الأكبر: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1].

* * * *

وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن جديد، لم أقع عليه فيما كتب المفسرون، أردت وقد هداني الله إليه بفضل منه ونعمة أن أشركك معي فيه أيها القارئ العزيز.

إن تك مسلمًا، فسبح. وإن تك غير مسلم فتأمل. والله يهدي إليه من ينيب.

* * * *

اللهم يا منزل الكتاب خذ بيدي، أنر بصيرتي، وسدد قلمي، ارزقني الصواب، واجنبني الزلل، لك وحدك الفضل والمن، ومنك وبك التوفيق.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

مقدمة

يتوقف الإيمان بصدق الرسالة - أي رسالة - على سبق الإيمان بصدق الرسول. فأنت لا تستطيع مثلا تكذيب التوراة (كتاب موسى عليه السلام)، إلا وقد كذبت موسى من قبل، شأن فرعون وقومه، في دعواه الوحي من الله تبارك وتعالى، ولا تستطيع تكذيب الإنجيل (كتاب عيسى عليه السلام) إلا وقد كذبت عيسى من قبل في دعواه البلاغ عن ربه عز وجل، شأن آباء اليهود في عصر المسيح، وأنت لا تستطيع بالمثل إنكار الوحي على القرآن (الكتاب المنزل على محمد ﷺ) إلا وقد كذبت محمدًا من قبل في دعواه النبوة والرسالة.

المكذب بالرسالة مكذب أصلًا بالرسول، والمكذب بالرسول مكذب ضمنًا بالرسالة. عكس هذا، المصدق بالرسول، المسلم بأن الوحي من الله، فهو لا يستدرك على رسل الله، وإنما يأخذ ما يلقون إليه من رسالات ربه أخذ المذعن المتبع، المنصت الواعي، يستمع القول فيتبع أحسنه، شاكرًا أنعم الله أن حباه بالمنة الكبرى فأسفر إليه يدعوه، ويخاطبه عن طريق رسله بكلام.



أما (أهل الكتاب)، أصحاب التوراة والإنجيل، فقد صدق اليهود بموسى فآمنوا بالتوراة، وصدق النصارى بعيسى وموسى فآمنوا بالتوراة والإنجيل. أما المسلمون - أصحاب القرآن - فقد صدقوا بمحمد خاتم النبيين المصدق لما بين يديه من كتاب، صلوات الله وسلامه عليه وعلى رسله أجمعين، فآمنوا بالتوراة والإنجيل والقرآن.

والتصديق والتكذيب هنا أو هناك يدوران على التسليم بالوحي للرسول، أو إنكار الوحي على الرسول: سلم اليهود بالوحي لموسى وأنكروه على عيسى ومحمد، وسلم النصارى بالوحي لعيسى وموسى وأنكروه على محمد، صلوات الله عليهم أجمعين، وسلم المسلمون بالوحي لرسل الله جميعًا لا يفرقون بين أحد من رسله.

لماذا آمنت طائفة ببعض وكفرت ببعض؟ لماذا يكذب السابق اللاحق، والموحي واحد جل جلاله؟!

هل يرون أن رسالات الله ختمت بنبيهم؟ فأين النص[1] على مثل هذا في كتبهم كما تجده في القرآن على من ختمت به النبوة والرسالة؟

أم اكتفوا بكلمة الله على رسولهم فلم تعد بهم حاجة إلى من يليه؟ فهل أمروا بذلك، أم أمروا بعكسه؟ كيف إذن توالت النبوات تترى على بني إسرائيل من بعد موسى؟ ولماذا آمن اليهود لموسى وقد آمنوا من قبل بكل من سبقوه، من نوح إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب وبنيه؟ وكيف آمن النصارى لعيسى وقد سبقه موسى بالتوراة فيها هدى ونور؟

أم أن التسليم بالوحي للنبي يحتاج إلى معجزة بينة يجريها الله على يديه، ويذعن لها المكابر والمعاند؟

فهل أكبر من انشقاق البحر لموسى، يمشي فيه يبسًا، ومن ورائه فرعون لا يذعن للآية الكبرى حتى ينطبق البحر عليه؟

تلك معجزة كونية عظمى، لا يكابر فيها ممن عاينها إلا هالك: لم يضحل البحر لموسى يخوض في مائه، حتى يسوغ احتجاج المكابر بمد أو جزر، وإنما انحسر البحر بآخر قطرة في باطن قاعه عن يابسة صلد [طه: ٧٧، ٧٨]، يجتازها موسى وقومه، ويتبعهم فرعون، تدرُج

(١) النص في القرآن على خاتم النبيين (الأحزاب: ٤٠) نص بات أيضًا على أنه ﷺ خاتم الرسل، ولا يكون الرسول إلا نبيًّا، وليس كل نبي رسولًا، فالرسول أخص من النبي، ومن ختمت به النبوة فقد ختمت به النبوة والرسالة.

عليها عجلاته وتدقها سنابك خيله.

وهل أبين من انشقاق القبر عن (لعازر)، قد أحياه الله لعيسى، فيخرج على أعين الناس يدب على قدميه، مدرجًا في أكفانه؟

كلتا المعجزتين أعظم من أختها، لا يستطيعهما إلا رب الكون ومحيي الموتى: لم يحي عيسى الميت، كما لم يشق موسى البحر، وإنما صنع هذا رب موسى وعيسى، ورب البحر ورب لعازر، إنه سبحانه لا يحتاج في شق البحر إلى ضربة من عصا موسى، ولا يحتاج في إحياء لعازر إلى عيسى يناديه: لعازر! هلم خارجًا! ولكنه عز وجل قرن هذا بذاك، كي يستبين للمكابر المعاند أن الذي يخاطب البحر بموسى، والذي يخاطب لعازر بعيسى، جمادًا وأمواتًا، هو الذي يخاطبه بموسى وعيسى، هلما فاسمعا، كما سمع البحر وسمع لعازر.

ليست الآية للنبي تكريمًا وتشريفًا، وإنما هي خاتم الرسالة والسفارة.

فما ظنك بمن يعاينون ولا يؤمنون؟ ما ظنك بفرعون، لا يأتيه موسى بآية إلا هي أكبر من أختها؟ وما ظنك بيهود جحدوا عيسى، يمشي بينهم لعازر، الميت الحي؟

وما بال قوم آمنوا قبل أن يعاينوا؟ ما بال ذلك النفر من قوم موسى الذين آمنوا له أول من آمن، لم يروا معه أول ما رأى النار المقدسة في البقعة المباركة من الشجرة، ولم يسمعوا الله يكلمه جهرة، أو يشهدوا معه يدًا سمراء تخرج من جيبه بيضاء من غير سوء، وعصا ككل العصي تنقلب ثعبانًا لتعود سيرتها الأولى؟

وما شأن أوائل الحواريين الذين آمنوا لعيسى أول من آمن، أومأ لهم فاتبعوه من قبل أن تجري على يديه معجزة ولا آية؟

ما سر الإيمان للرسول؟ أهو نور يقذف في القلب؟ بل المكذب بالرسول مكذب في الأصل بمن أرسله.

لا يؤمنن أحد بالله، ثم يحيل عليه أن يصطفي من عباده من يشاء بشرًا رسولًا، إن شككت فتثبت، فلن تعدم في الوحي الذي ألقي إليك آية.

على أن من الناس من ينكر مبدأ الوحي جملة، وهم أنواع: فريق غير مؤله البتة، ينكر الخالق ويؤمن بالمخلوق، أي يؤمن بأن هذا الكون بكل ما فيه موجود ليس له موجد، منظوم ليس له ناظم، محكوم بغير مسخر، مرزوق بغير مدبر، ولا وحي ثَمَّ، لأنه ليس ثَمَّ البتة من إله.

ولا منطق في هذا القول ولا علم: الموجود بذاته لا يحتاج إلى غيره في استمرار وجوده، ولا تحكم وجوده قوانين من خارجه. الموجود بذاته لا قبل له ولا بعد، وإلا فقد كان بعد أن لم يكن، أو وجد ليزول. الموجود بذاته لا يتبعض ولا يتذرى، وإلا فأي أبعاضه الجامع لشتاته، الحافظ لمتفرقه؟ وهل في آحاد الكائنات جرم لا يتبعض ولا يتذرى، سواء أكان نوية أم خلية، أم كان بعض أجرام الفلك؟

يزعم غير المؤله أن هذا الكون لا يحتاج في تبرير وجوده إلى علة إيجاد من خارجه، فإن حاججته فحججته، ظن أنه أفحمك بسذاجته: إذا كان لا بد لهذا الكون من موجد، فمن ذا الذي أوجده؟ يجعل الموجود بذاته كالموجود بغيره، فيشترط علة للخالق، وهو لم يشترط علة للمخلوق، فصار محجوجًا بذات منطقه. تعالى الواحد الأحد: الواحد لا إله معه، الأحد في ذاته لا يتبعض ولا ينقسم. تلك الأحدية هي أدل صفاته، الموجود بذاته، الغني عما سواه، وتلك بعض معاني قوله عز وجل متحدثًا عن نفسه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾[1].

بل الكون دال بذاته على مبدعه ومدبره، ولو أنصف طالبو المعجزات لأدركوا أنهم يسبحون في بحر إعجاز دائم، ولما كانت بهم إلى الرسل من حاجة، لولا فضل من الله ونعمة، يذكر الناسي، فينتبه الغافل، ويزدجر العابث اللاهي.

ثمة أيضًا فريق ثان يتفلسف فيتكئ في كرسيه ويقول لك: نعم، لهذا الكون موجد، نعتبره ضرورة منطقية تفرض نفيها علة للإيجاد من خارج الزمان والمكان. إنه عندنا مبدئ هذا الوجود، أوجد هذا الكون وبث فيه قوانينه، ثم تركه وانصرف لبعض شأنه، لا حاجة به

(١) سورة الإخلاص، الآية: ١.

إلينا، ولا حاجة بنا إليه، فالكون آلة صنعها صانع ما، وأدارها فدارت، ولا تزال تدور، وهي مبرمجة بقوانين مبثوثة في هذا الكون منذ بدأ، لا يتدخل فيها أحد إلا انفرط نظامه، ولا يملك الصانع نفسه تعديلها إلا بعد أن يوقف الآلة عن الدوران. ونحن نعيش هذا الكون ما دام لنا، وما دمنا فيه لا يعنينا ما يكون من بعد، فلن نشهد النهاية، إن كان ثم نهاية. فما معنى الوحي إذن؟

ولا منطق أيضًا في هذا القول ولا علم: الصانع رقيب حافظ. وفي هذا الكون طائع، ذلول، مسخر، وفيه أيضًا عاص، مارد، متأبٍّ، وكلاهما مقهور. يضع هذا القائل نفسه خارج الكون، يشهد له بالصنعة، وينبهر بالنظام، وينسى نفسه، وفي خلقه هو نفسه الشاهد البين: ألا يعتل منه عضو فيطببه؟ ألا تهيج به نزوة فيكبتها؟ ألا يُبْتر له ساق قاحت أو غدة تورمت؟ ألا ينهى النفس عن الهوى إن غوت؟ ألا يؤدب ابنا عصى؟ ألا يرد إلى سواء الصراط مجرمًا عن الصراط خرج؟

على أن قضاء الله في كونه نافذ، واعتلال هذا القائل بثبات القوانين الكونية مقبول، والمعجزة تدل عليه ولا تنفيه: ليست المعجزة تعطيلًا لقوانين الكون وإلا لانفرط نظامه، وليست مجرد تعطيل لقانون كوني ما في نقطة ما من الزمان والمكان مع ثباته في غيرها: انشق البحر لموسى في موضع ما، برهة ما، ثم عاد كما كان، وانشق قبر ما، عن (لعازر) بعينه، الذي عاد فمات. ليست المعجزة سلبًا محضًا يشل القانون الكوني أو يعادله فيبطله، ولكنها (فعل محض): لم تخمد جاذبية الأرض فينداح الماء عن موضعه، ولكنه جبذ ورفع، كل فرق كالطود العظيم، ولم ينهدم القبر فوق لعازر، وإنما انشق عنه، لم يسكن النفَس في صدر لعازر، وإنما أعيد إليه. المعجزة فعل محض، والقوانين الكونية قوى مأمورة، في ثباتها آية، وفي قهرها آية، وفي خرقها دليل الحضور، ودليل الهيمنة، ودليل القدرة.

لمثل هذا القائل تنصب الآيات والنذر، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[1].

أما الفريق الثالث، فهو فريق متعالم ينكر الوحي جملة؛ لأنه ينكر من منطلق (علمي) أن

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

يكون للطبيعة (فوق). تلك عنده تهاويم وخيالات، ومن ثم فلا وجود عنده إلا لما هو مادي تدركه الحواس. أما إن كان ثمة غير مادي وغير محسوس لم نكتشفه بعد، فلن ينكشف لنا؛ لأن الصلة بين المادي وغير المادي مقطوعة، لا يتواصلان، ولا يؤثر هذا في ذاك لاختلاف الطبيعة والتكوين، فالوحي إذن محال.

وقد أفلس هذا الفريق (علميًّا) منذ قرن في المعامل والمختبرات، وكان جديرًا به أن يفلس منذ قرون لولا تفيهق الآخذين عن فلاسفة اليونان: انحلت نواة المادة إلى (طاقة) بحت، أي أن المادة إن فنيت تلد الطاقة. فالمادة إذن طاقة (تشيأت)، أي صارت (بالمشيئة) شيئًا ماديًّا ما. وليس صحيحًا، بل العكس هو الصحيح الثابت المشاهد المختبر، ما يقال من أن غير المادي لا يعمل في المادي، بل المادي لا يتأثر إلا بغير المادي، أي بالطاقة، والطاقة قوة، والقوة هي تعريفنا القاصر لفعل غير مسمى الفاعل، نلمس فعله، ولا نلمسه هو، ليس المادي المتشيئ هو وحده الموجود، وإنما كان قبل أن يتشيأ هو عين الوجود، أي من أمر الله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

لماذا أعضلت (مسألة الوحي) على هذا الجاهل المتعالم، يدعي (العلمية) ولا يتابع كشوف العلم الحديث؟

لماذا يعجب (للوحي) ولله المثل الأعلى، ولا يعجب لرسائل صوتية أو مرئية تنتقل إليه عبر مويجات أثير تسبح في أجواء الفضاء؟

والمويجات - وقد علمت - طاقة.

أما إن تعمقت، فقد علمت أن ذرات المادة - أية مادة - ليست بمادة، وإنما هي فحسب مجموعات قوى ومقاومات، رتبت على نسق ما، وعدد ما، لا تفترق مادة عن مادة إلا بهذا العدد وهذا الترتيب، ذهبًا كانت أو حديدًا.

إنها حتى في صورتها المادية طاقة.

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

انهدمت (المادية) على رءوس أصحابها، فهل بقيت للمتنطع حجة؟

في تفجير الذرة آية.

* * * *

أما المؤمنون بالله، فهم يسلمون بوحي الله على رسله، ولكنهم يطلبون الآية. ومن يطلب الآية فقد لزمته الآية.

ثمة من يطلبون الآيات تعجيزًا، فإن جاءتهم الآيات كفروا بها: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾[1]

وثمة من يطلبون الآيات تصديقًا، فلما جاءتهم الآيات زادتهم الآيات إيمانًا: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾[2].

ومن الناس أيضًا من يستجيبون للرسول لحظة يدعوهم، ولم يروا الآية: إنهم نواة الدعوة، ومعدن الرسالة. أولئك يقذف الإيمان في قلوبهم وكأنه وحي يوحى، كما قال عز وجل في شأن الحواريين: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[3].

ربما طلبوا الآية بعد ذلك، ولكنهم يطلبونها تصديقًا وتثبيتًا، ثم يكونون عليها من الشاهدين، كما قال الحواريون عندما سألوا الله مائدة من السماء على يد عيسى: ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[4].

طلبوا الآية فلزمتهم الآية، لا عذر من بعدها ولا معذرة، كما تجد في قوله عز وجل لحظة نزول المائدة من السماء: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٣.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١١٥.

لزمت المعجزة من طلبها ومن عاينها.

وبقى التصديق بالمعجزات امتحانًا لصدق إيمان من لم يطلب ولم يعاين، شهد عصر الرسالة، أو جاء بعد من شهدوه.

وهو امتحان عسير لمن لم يشهد ولم يعاين.

حتى جاء رحمة الله للعالمين، محمد ﷺ، بالآية الدائمة التي يستوي فيها الشاهد والغائب، فلزمت الخلق أجمعين حتى قيام الساعة.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ليس بعد القرآن آية.

* * * *

لم يمتحن الله عز وجل الناس بالمعجزات على يدي خاتم النبيين، وإنما امتحنهم على يديه بالحق: الصدق والتصديق.

لم يكن ﷺ يصنع الآيات، وأنما كان يتلوها.

حتى معجزته الكونية الكبرى، رحلته ما بين مكة وبيت المقدس إلى سدرة المنتهى في مدة من الليل، لم تكن معجزة على أعين الناس، وإنما كانت معجزة بينه وبين ربه، ليريه هو من آياته الكبرى.

أراد الله لختام رسالاته الإعجاز الدائم، فاختار له (الكلمة). والكلمة تسمعها، وتتصفحها، وتعود إليها: إنها معك في كل حين، تدوي في أذنك، ماثلة في سمعك. تستطيع أن تقول: لا أومن لأنني لم أر موسى يشق البحر، ولم أر عيسى يحيي الميت. ولكنك لا تستطيع أن تقول: لا أومن لأنني لم أر محمدًا يتلو هذا القرآن، فهذا هو القرآن أمامك، لا شأن لك بمن قاله، اسمعه، تصفحه، امتحنه! إنه الحق، ومن الحق نزل.

(١) سورة المرسلات، الآية: ٥٠.

استجاب الله بمحمد دعوة أبيه إبراهيم عليهما أزكى الصلاة وأتم التسليم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾(1).

سأل إبراهيم ربه أن يبعث في المؤمنين رسولًا لا يصنع الآيات، وإنما يتلوها.

ولأمر ما سمى الله الجملة من القرآن آية: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾(2).

هذا (الحق) هو لب إعجاز القرآن ومادته: لا تقرأ في القرآن إلا حقًّا، ولا تجد فيه إلا الحق أخبر عنه أو أنبأ به، ما كان وما يكون.إنه الصادق المصدوق في كل حال.

والحق المطلق يقتضي العلم المحيط، علم المبدأ والمنتهى، علم من لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، علم من هو بكل خلق عليم.

وليس إلا الحق جل جلاله، بكل شيء عليم.

ولكن لماذا خاطب القرآن الناس بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله؟ لماذا يصف لهم السحاب بأنه جبال في السماء من برد [النور: ٤٣]، ولم يركبوا بعد طائرة تحاذي السحاب الثقال ليروه كما قال؟ لماذا يتحدث عن تزامن الليل والنهار على سطح الأرض، نصف مظلم ونصف مضيء، تأتي الناس الساعة بغتة فتصيب المُنهر والمُليل(3) [يونس: ٢٤]؟ لماذا يرى الناس السماء سقفًا ككل السقوف ويقول لهم إنها غاز وسديم ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾(4)؟

لماذا يخوض في حقائق الكون ولا يتكشف للناس منها - يومًا بعد يوم - إلا النزر اليسير؟

(1) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(2) سورة الرعد، الآية: ١.

(3) أنهر القوم: صاروا نهارًا. وألالوا: عكسه، أي: صاروا ليلاً.

(4) سورة فصلت، الآية: ١١.

أليس لأن المنكرين الوحي على القرآن يتحداهم القرآن بالعلم؟

فهل تحقق لهم في الكون بالدليل الثابت علم يعارض حقائق القرآن؟

هل سبقوا القرآن، أم سبقهم القرآن بالقول الثابت؟

أليس تصديق المنكر بعد تكذيب يقتضي أن يتحقق له - عصرًا بعد عصر - علم جديد يعاجز به القرآن فيعجزه القرآن؟

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[1] ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

وهذا هو الإعجاز الدائم.

****

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾[3]، وقال أيضًا: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾[4]، وقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[5]، وقالوا: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾[6].

وكل ما لفقه أدعياء الاستشراق في تكذيب القرآن يدور حول هذه النقاط الثلاث:

(١) محمد حالم مخلط أو مصروع، تهيج به الخيالات والرؤى يحسبها وحيًا من السماء ألقي إليه.

(٢) ما زاد محمد في أساطير قرآنه على ما كان يتناقله في زمنه رواة الأخبار والأساطير.

(١) سورة يونس، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٧.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٥.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٥.
(٦) سورة الدخان، الآية: ١٤.

(٣) استعان محمد في كتابة قرآنه بمن سبقوه، وخاصة أهل الكتاب، أصحاب التوراة والإنجيل.

وتعجب لأدعياء العلم هؤلاء كيف كتبوا ما كتبوه، وكيف يجوز على عاقل أو مجنون؟ أكتبوا ما كتبوه دون أن يقرأوا حرفًا من القرآن؟ أم كتبوا ما كتبوه تضليلًا لمن لا يقرءون؟

وهل يحلم المصروع؟ هل يلقن المجنون؟ وكيف يأتي بأعظم مما لقنوه؟ كيف لقنوه ما ليس لهم به علم ولا لآبائهم الأولين؟ كيف يكتتب الأساطير وهو الناعي على رواة الأساطير؟ كيف يلقنه أهل الكتاب ما يعارض به التوراة والإنجيل فيخطئان ويصيب؟

أين القرآن من كلام حالم أو مصروع؟ أين القرآن من أحاديث الرواة؟ أين القرآن من كل ما بين يديه من كتاب؟

القرآن معجز بذاته، وكل مقارنة بينه وبين الكتب التي سبقته ظلم ظلوم، وجهل مبين.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[١].

ليس هذا بحثًا في وجوه إعجاز القرآن، فوجوه إعجاز القرآن بحر لا يدرك ساحله، وإنما هو مبحث وجيز في وجه من وجوه إعجاز القرآن جديد، لم أقع عليه فيما كتب المفسرون.

إنه العلم الأعجمي في القرآن مفسرًا بالقرآن.

والقرآن يفعل هذا غير مسبوق، لأنه يفسر ما يفسره على علم، وغيره يخطئ ويصيب.

وهو يفعله فعل الواثق المتمكن مما يقول، وإن خالف نصوص أهل الكتاب وأقوال شراح التوراة والإنجيل.

وهو يفعله أيضًا غير محتاج إليه، يلزم نفسه ما لا يلزمه، ويتصدى لما ليس من شأنه، فيزج بنفسه في مزالق الزلل كما وهم خصومه المنكرون عليه.

ما حاجته إلى تسمية أبي إبراهيم، فيسميه (آزر) وهو في التوراة (تارح) أو (تيرح) (بكسر

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

التاء وإمالة الياء)[1] في لفظه العبري الآخر؟

لماذا يقول: (عيسى)، والمسيح في الإنجيل (يسوع)؟

لماذا ينص على (إدريس)، وسميه في التوراة (أخنوخ)، (أو حنوخ قبل تعريبها إلى أخنوخ)؟

لماذا يقول (يحيى)، وهو يريد (يوحنا)؟

يفعل القرآن هذا لأنه المصدق المهيمن، يصدق ما صدق في التوراة والإنجيل، ويفصل فيما كانوا فيه يختلفون.

* * * *

أما كيف يفسر القرآن أعلامه الأعجمية، ومعظمها عبراني، فهذه هي مادة البحث الذي أضعه بين يديك راجيًا من الله التوفيق.

وأما كيف تسنى للقرآن تفسير ما يرد فيه من الأعلام الأعجمية؛ فهذا لأن منزله عز وجل هو العليم الخبير القائل بكل اللغات، الذي علم آدم الأسماء كلها، الذي اختلاف ألسنة الناس من آياته، الذي أنطق بها خلقه، إنه واضعها وملهمها.

وأما كيف هداني الله إلى موضوع هذا البحث، فهي بارقة إلهام، ليس لي فيها من فضل، وإنما الفضل كله لله سبحانه، يؤتيه من يشاء حين يشاء.

اللهم اهدنا واهد بنا، وزدنا ولا تنقصنا.

ربما استوقفك - كما استوقفني مرارًا - ذلك الجرس الجميل، والنغم العذب، من قوله عز وجل في مفتتح سورة مريم: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[2].

(١) إمالة الياء يعني إسقاطها نطقًا والاستعاضة عنها بمد كسرة ما قبلها، كما في (ليش) و(ليه) العاميتين. وعلماء القراءات يسمونها ألفًا ممالة، ترسم في المصحف ياء بدلًا من الألف، يكسر ما قبلها بعد أن كان مفتوحًا وتمد كسرته، كما في (مجريها ومرساها).

(٢) سورة مريم، الآيتان: ١ - ٢.

أرأيت إلى تلك المشاكلة بين (ذكر) العربية، وبين ذلك الاسم الأعجمي العبراني، اسم النبي زكريا عليه السلام.

أهو مجرد جناس لفظي يراد به التناغم الذي تلحظه في كل القرآن؟

أهو الجرس الفخم الذي لا تفوت أذنك موسيقاه في القرآن المكي خاصة والذي يأخذ بلب السامع المنفتح القلب والأذن أيًّا كانت عقيدته في القرآن؟

أم هي مصادفة بحتة؟

كلا، ليس ثَمَّ مصادفات في القرآن، إنه يريد المعنى فيختار الكلمة والحرف. لن تستطيع مهما حاولت إبدال كلمة بكلمة أو حرف بحرف. ولن تستطيع تقديم أو تأخير لفظ، إذن لاختل المعنى وانفرط النظم. وهذا من وجوه إعجاز القرآن. النسق القرآني نسيج وحده، لا يستطيعه إلا منزله عز وجل. وكل كلام منسوق على غير نسقه ليس بقرآن.

إن أردت الدليل فهاكه: كان محمد ﷺ ألهج الناس بالقرآن، ولكنك تستطيع دون عناء أيًّا كان حظك من القرآن أن تميز على الفور بين (الحديث النبوي) وبين الآية من القرآن. و(الحديث القدسي) حديث من الله عز وجل، ليس بعبارة القرآن وليس على نسق القرآن. وفي التوراة والإنجيل كلام من الله عز وجل غير منسوق على نسق القرآن، أريد للقرآن أن يكون (قرآنًا) وكل ما عداه أيًّا كان قائله ليس بقرآن.

هذا النسق القرآني ليس مرادًا لذاته فحسب، ولكنه مراد بموسيقاه، مراد بمعناه.

ترى ما معنى اسم ذلك الشيخ الجليل، (زكريا) عليه السلام، في اللسان العبراني؟ لا بد لهذا الجناس الجميل بين (ذكر) العربية و(زكريا) العبرية من معنى.

وكان لا بد لي من دراسة اللغة العبرية لهذا الغرض بالذات، فماذا وجدت؟

(زكريا) في اللسان العبراني معناها حرفيًّا (ذاكر الله)!

وكأنه عز وجل يقول: ذكرَ اللهُ ذاكرَ اللهِ، أو ذَكَرَ اللهَ فذكره، أو ذكرَ اللهَ فذكرته رحمةُ اللهِ!

ليس الجناس اللفظي وحده هو المقصود، بل تلك المقابلة التي تفتق لك بحور المعاني.

ليس بعد هذا الجمال جمال.

* * * *

ولمعت في خاطري بارقة إلهام: في هذه الآية الكريمة آية!

أيفسر القرآن أعلامه الأعجمية بإيراد معناها على التجاور في ثنايا الآية؟

وكانت المفاجأة الكبرى: نعم! هذا يطرد في كل القرآن، لا يكاد يخلو علم أعجمي في القرآن من النص على ترجمة معناه في سياق الآية ترجمة دقيقة مطابقة، ولكنك تمر عليها دون أن تفطن لها؛ لأن العبارة التي تعطيك معنى الاسم الأعجمي عبارة من نسيج الآية، معناها مطلوب لذات الآية، والترجمة إضافة، تظنها جاءت عرضًا، وهي دليل العلم ودليل القدرة.

وكان هذا الكتاب.

* * * *

على أن تفاسير القرآن الكريم - وأوسعُها وأشملُها تفسير الإمام القرطبي **الجامع لأحكام القرآن** - لا تخلو من محاولة تفسير معاني الأعلام الأعجمية في القرآن، وأخصها أسماء الأنبياء من آدم إلى عيسى عليهم وعلى نبينا أزكى الصلاة وأتم التسليم. ولكن المحاولة لم توفق لأن المفسرين كانوا يبنون على افتراض الأصل العربي لأسماء الأنبياء جميعًا، فيزِنُون هذه الأسماء على الوزن العربي، ويشتقون من جذر عربي، فيخلصون إلى نتائج أبعد ما تكون عن معنى الاسم الأعجمي في لغته. خذ مثلًا اسم النبي (يونس) عليه السلام: قد تظن أن السين فيه أصلية، فتحسبه من (ونِس)، وكأنها لغة في (أنس)، فتنتهي إلى أن (يونس) ربما تعني (مؤنس) أو شيئًا قريبًا من هذا. ولكنك متى علمت أن السين في (يونس) زائدة،

وأنها علامة الرفع في اليونانية، لغة الأناجيل، وأن (يونس) أصلها (يونا)، ومعناه الشائع في العبرية (حمامة)، أدركت على الفور أن الفرق بين المعنيين بعيد.

ولكنك لا تستطيع مهما حاولت أن تغمط حق هؤلاء الجهابذة الأعلام فيما بذلوه من جهد يعز نظيره في البحث والجمع والتمحيص. ربما ابتسمت إشفاقًا وأنت تقرأ في تفسير القرطبي ما يروى من أن فرعون موسى كان اسمه (الوليد بن الريان)، فتظن الرعونة بهذا الراوي الذي يستخف بعقلك فينتحل لك أسماء عربية لفراعنة مصر. ولكنك لا بد ينفثئ غلك حين تعلم أن (فرعون) الذي يعنيه الرواة هو (رعمسس)، (أو رمسيس كما نكتبها نحن الآن)، وأن (رعمسس) اسم مركب: رع + مسس، وأن (مسس) في المصرية القديمة تعني (وِلْد) أو (وليد) أو (ابن)، أما (رَعْ) فهي الإله (رَعْ) رمز الشمس أي أن رعمسس المصرية القديمة تعني حرفيًّا: ولد رع، ولم يبعد الراوي حين عرب (مسس) إلى (وليد) وحرَّف (رع) إلى (الريان)، أما (ابن) في (الوليد بن الريان) فهي حشو. وليس كل ما قال الرواة محض عبث، وإنما عليك باستصفاء الذهب من التبر. كان رمسيس إذن هو فرعون موسى فيما تناقله الرواة إلى عصر القرطبي. وكما نرجح نحن الآن.

ولم توفق أيضًا محاولة المفسرين تفسير الأعلام الأعجمية في القرآن؛ لأنه قل من كان منهم يتقن اللغة العبرية التي اشتقت منها غالبية العلم الأعجمي في القرآن، ناهيك بالمصرية القديمة التي وردت منها ألفاظ في القرآن مثل (فرعون)، بل و(موسى) عليه السلام، كما سترى في هذا الكتاب، كان المفسرون يعتمدون على أمانة من نقلوا عنهم من أهل الكتاب، وقليل منهم من حمل الأمانة فأداها على وجهها، أما أكثرهم فكانوا كما وصفهم عز وجل: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[1].

على أن الجديد الذي وفقني الله إليه في هذا الكتاب الذي بين يديك ليس هو ترجمة معاني الأعلام الأعجمية في القرآن من معاجم اللغات الأعجمية، هذا جهد يستطيعه من يحاوله، بل هو مبسوط منثور في بطون الكتب.

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

الجديد في هذا الكتاب الذي نكتب هو ترجمة معاني تلك الأعلام، من القرآن بالقرآن، وتصويب معاني تلك الأعلام لدى أصحابها، من القرآن بالقرآن.

وهذا هو السند الأعلى. ولله الفضل من قبل ومن بعد.

المؤلف

محمود رؤوف عبد الحميد أبو سعدة

الفصل الأول

أعجميٌّ وعربيٌّ

(١)

هل وردت في القرآن ألفاظ أعجمية؟

كيف، والمنزل عليه القرآن عربي، والمنزل إليهم القرآن عرب؟

أليس تبعث الرسل كل بلسان قومه؟ فكيف يفهمون عنه؟ كيف يتم البلاغ؟ كيف يصح التكليف؟ أيمشي الرسول غريبًا في قومه، يتوكأ على مترجم يفسر ما يقوله للناس؟

قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1]، أي كما أنزلنا التوراة عبرانية على موسى العبراني فكذلك القرآن، عربيًّا على عربي.

وكأن من أهل الكتاب من تعاظمه أن يخاطب الله الخلق بغير العبرية، لغة التوراة، فقال جل شأنه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[2].

* * * *

أما أن القرآن عربي، فهذا عين الحق، ليس هذا فحسب، بل إن عربية القرآن شاهد على عربية العرب، لا العكس، لا يصح لها فصيح متفق عليه إلا الوجه الذي نزل به.

وأما أنه قد وردت في القرآن ألفاظ أعجمية، فهذا حق أيضًا، ولكنه لا ينتقص شيئًا من عربية القرآن، وإنما هو يجليها، كما سترى في مباحث هذا الكتاب.

* * * *

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

وليس القرآن عربيًّا فحسب، وإنما هو عربي مبين، تجد النص على هذا في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1].

ولفظ (المبين) حيثما ورد في كل القرآن - وقد ورد لفظه نعتًا للمعرفة والنكرة ١١٩ مرة[2] - لا يعني الإفصاح والإبانة، وإنما يعني حيث ورد، تأكيد اكتمال تحقق الصفة في الموصوف. إليك بعض الأمثلة، وعليك بالباقي في مواضعه من المصحف:

- ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[3]، أي ثعبان حق، لا شك في ثعبانيته.
- ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[4]، أي هو العدو يقينًا، لا خفاء لعداوته.
- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[5]، أي أن صلح الحديبية وإن تجهمه أول الأمر بعض أجلاء الصحابة، ليس فتحًا فحسب، وإنما هو فتح حق، ليس له إلا هذا الاسم.
- ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾[6]، يصف نفسه تباركت أسماؤه، أي هو عين الحق جل جلاله، لا يماري فيه أحد.

من هنا تدرك أن وصف لغة القرآن بأنها لسان عربي مبين، يعني أنه بلسان عربي بَيِّن العربية، أو هو حق العربية، لا يماري في عربيته إلا جاهل بالعربية نفسها.

* * * *

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢ - ١٩٥.

(٢) راجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي، طيب الله ثراه، وأجزل ثوابه، بما قدم لدارسي القرآن الكريم.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٠٧.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٥) سورة الفتح، الآية: ١.

(٦) سورة النور، الآية: ٢٥.

وليس القرآن عربيًّا مبينًا فحسب، وإنما هو القول الفصل: قمة البيان، وذروة الإبانة.

والإبانة شرط لا بد منه لتمام البلاغ والتبليغ.

وهي بالذات شرط لا بد منه لبلاغ خاتم، كمل به وحي السماء، ليس بعده مستدرك.

وهي أيضًا شرط لا بد منه لرسالة تخاطب الكافة، لا مكان فيها لمُتنطِّس أو متحنث، ولا تعويل فيها على كهنوت أو كهانة.

وهي أخيرًا شرط لا بد منه لرسالة لا تطلب التصديق فحسب، وإنما هي بالدرجة الأولى رسالة تطلب العمل على مقتضى هذا التصديق.

ولا يصح تكليف بغير إبانة.

لهذا فقد برئ القرآن من العجمة والعوج.

والالتفات إلى هذه النعمة واجب، وشكرها أوجب.

فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[١]، كما علمنا الحق أن نقول، جل ثناؤه.

* * * *

وقد امتن الله على العرب بالقرآن، وأكرم بها منة أن يكون لسان القرآن لسانهم.

قال عز وجل يقسم بالقرآن: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[٢].

وقال جل شأنه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣].

وقال أيضًا تباركت أسماؤه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[٤].

(١) سورة الكهف، الآية: ١.
(٢) سورة ص، الآية: ١.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

والذكر في هذه المواضع الثلاثة جميعًا يعني (الشرف).

نعم، شرفت العربية بالقرآن، وشرف أهلها.

والشرف أمانة، أداؤها أن تعرف حقها، وإلا فأنت بها مأخوذ. كما قال عز وجل: ﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ في الآية التي قرأت توًّا.

* * * *

وقد تتساءل: كيف استحقت العربية هذا الشرف؟

لا يكفي أن تقول نزل القرآن عربيًّا لمجرد أن المنزل عليه القرآن عربي والمنزل إليهم القرآن عرب.

بل هو تقدير العليم الخبير، الذي لا يمضي أمرًا إلا أحكمه.

إنه عز وجل يصطفي لرسالته الرسول، ويصطفي لرسوله الجيل الذي يحمل الرسالة، ويصطفي لخاتم رسله البقعة التي تنطلق منها الرسالة إلى أقاصي الأرض.

وهو أيضًا جل شأنه يصطفي لرسالته الأداة، وأداة الإسلام هي هذا القرآن الناطق بالعربية.

فكيف وسعت العربية هذا القرآن؟ كيف حملت وقره؟ ما تلك الحضارة التي أنضجت تلك اللغة، واللغة كما تعلم هي نضاج الحضارة؟ وهل كانت للعرب قبل القرآن حضارة؟ فمتى اكتمل لها نحوها وصرفها وإعرابها؟ متى تهيأ لها شعراؤها وخطباؤها وفصحاؤها؟ بل كيف فهم العرب عنه؟ كيف تذوقوا حلاوته؟ كيف سلموا بإعجازه؟

الحق أن العربية هيئت تهيئة لتلقي هذا القرآن، وزينت تزيينًا لتليق به، وأنضجت إنضاجًا لتكون وعاءه، وأحكمت إحكامًا لتعبر عنه، فما نزل القرآن إلا وقد تهيأ لها هذا كله ضد منطق التاريخ ومنطق الحضارة.

وتلك وحدها معجزة، وليس شيء على الله بعزيز.

لم تكن العربية وقت نزول القرآن، بمستواها هذا الفني المحكم، لغة كتابة، فقد أريد للقرآن أن يكون (قرآنًا).

كانت العربية وقت نزول القرآن، بمستواها هذا الفني المحكم، لغة الخطاب اليومي، لا لغة يصطنعها فحسب أهل الفكر والفن والأدب، ولم تكن بمستواها هذا الفني المحكم لغة الخطاب لدى الصفوة من سادة قريش فحسب، بل كانت هي لغة الخاصة والعامة.

وهذا هو أصلًا معنى اللغة: لا تلتمس في المدونات وبطون الكتب، ولا تهمهم بها الأقلام وتحبر الصحف، وإنما اللغة هي التي ينطلق بها اللسان سجية، فتبصر بها العين، وتسمع الأذن.

وكان هذا - كما مر بك - ضروريًّا لرسالة تخاطب الكافة، لا تعويل فيها على متحنث أو متكهن.

* * * *

على أن في العربية خصائص لغوية وبيانية وموسيقية، قل أن تجتمع لسواها.

إنها لغة الإيجاز البليغ، والسلم الموسيقي الكامل.

لغة اجتمعت لها كل الحروف، وصحت المخارج: لا تندغم في الحلق، ولا تتآكل على أطراف اللسان، ولا تتحور في ذبذبات اللهاة. فيها ما يقرع السمع عنيفًا، وفيها الدمث اللين، وما بين بين.

لغة غَنِيت حروفًا، فغنيت جذورًا، لا تعرف اللواصق من رواكب وروادف، وفي غيرها ينوء جذر اللفظ بأوزاره، فيغيم المعنى في ضباباته. أما هي، فتنحت الألفاظ والأوزان للمعنى وضده، وللمعنى وقريبه، وللمعنى والمشتق منه، وللمعنى والمتداخل معه. ما إن يقع بصرك على اللفظ حتى يستعلن لك بكل معناه ودلالاته.

لغة تفننتْ في أوزانها، ونوعت في تراكيبها طرائق شتى. تمد بالإعراب أواخر الكلم،

تَهمِز وتُسهِّل، وتصل وتقف، وتنون وترخم، فما استعصى عليها نغم.

وتلك كلها خصائص قرآنية.

* * * *

وقد أفاد القرآن من العربية، وأفادت العربية من القرآن. ولكن الذي أفادته العربية من القرآن أضعاف الذي أفاد القرآن:

جمع مادتها، وأحكم نحوها وصرفها وإعرابها، ورسم لها نموذجها الأعلى. ليس هذا فحسب، بل تكفل الله بحفظ القرآن، فكفل لها القرآن حياتها، ونماءها، وبقاءها.

وقد مضى على نزول القرآن بالعربية أربعة عشر قرنًا، بادت خلالها لغات وتحورت لغات، ولا تزال العربية وحدها تعيش، بنصاعتها الأولى.

وليس لهذا - كما يعرف أهل العلم - نظير في كل اللغات قديمها وحديثها.

وأما الذي أفاده القرآن من العربية فهو - كما مر بك - أنها اللغة التي هيئت له، لا يصلح إلا لها.

ولسنا هنا في مقام المفاضلة بين لغة ولغة، فاللغات كلها من آيات الله سبحانه.

ولكن الذي لا يتوقف عنده كثيرون، وربما قل من يفطنون إليه، هو أن اللغة العربية - عصر بدء نزول القرآن في مطلع القرن السابع للميلاد، على قلة الناطقين بها يومذاك - كانت هي دون منازع أرقى لغات العالم القديم، ليس فحسب أرقاها بلاغة وفصاحة وجمالًا، وإنما أيضًا، وبالمقياس اللغوي البحت، أرقاها دقة وكمالًا.

لم يكن ينقصها لتصبح اللغة العالمية الأولى يومذاك، إلا أن تتجاوز حدودها الجغرافية السياسية الضيقة، فتشيع بين الناس في المشارق والمغارب.

وقد تكفل القرآن بذلك.

(٢)

بدأ نزول القرآن على خاتم النبيين ﷺ ليلة القدر من رمضان عام ١٣ قبل الهجرة (٦٠٩م) مطلع القرن السابع للميلاد، قبيل انقضاء ستة قرون على رفع المسيح عليه السلام[١]. ليس بينهما نبي.

كانت حضارات العالم القديم كلها آنذاك قد تهاوت، وآذنت الدنيا بميلاد جديد.

وهي قد تهاوت لأن العمالقة أكل بعضهم بعضًا، وكانت ساحة الصراع هي هذا الشرق الأدنى القديم.

لم يكن الصراع يدور على فكر أو على خطة لحياة، فقد تداخلت الأفكار والمذاهب، وتشاكلت الضلالات هنا وهناك، وإنما كان الصراع يدور على الأسلاب والغنائم، وكان الأسلاب والغنائم هم أهل هذا الشرق الأدنى القديم.

لم يكن لدى الغزاة شيء يفتحون به على أهل الأقطار المغلوبة، ولم يبق لدى المغلوبين شيء يقدمونه للغزاة.

ولكن الصراع بين العمالقة الآريين الثلاثة: الفرس والإغريق والرومان، أو اختصارًا بين الفرس والروم، لا ينفك يدور، لا تضع الحرب أوزارها إلا لالتقاط الأنفاس بضع سنين. وهي حرب عبث، سواء على التاريخ قامت أم لم تقم، فالغالب اليوم مغلوب غدًا، لا يعنيك أي الفريقين أدال من الآخر، ولمن كانت الدائرة في الحرب اليوم، فالدائرة على الجميع: إنهم يخربون بيوتهم بأيديهم ويأتون على ما بقي من أطلال حضارتهم. لا تهتم، فعلى الأنقاض

(١) ولد المسيح عليه السلام سنة - ٤ م على القول الراجح، ورفع وسنه ثلاثة وثلاثون، عام ٢٩م.

سيبنى صرح جديد. تجد إشارة إلى هذا في قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1][2].

احتدم الصراع بين الفرس والروم على ما بقي من أطلال الشرق الأدنى القديم قرونًا، بين كرٍّ وفرٍّ، حتى أجهز عليهم المسلمون في أواسط القرن السابع. ومن قبل أثخن الروم - إغريقًا ورومانًا - بعضهم في بعض، وأتى القوطُ والجرمان على القياصرة في روما، فارتحلوا شرقًا إلى بيزنطة قبل قرنين اثنين من ظهور الإسلام.

اختلط الحابل بالنابل في هذه المنطقة من العالم التي شهدت مولد حضارات البشر، ولم يعد هناك فكر جامع تستند إليه حضارة جامعة جديرة بالبقاء. لم تعد ثم - رغم ما قد تسمعه من شهيق وزفير - إلا حضارة ماتت أو أوشكت أن تموت. ولم يعد ثم - رغم ما قد تسمعه بين الفينة والفينة من هدير وزئير - إلا أسدٌ هرم، تسلخ جلده، وتثرمت أسنانه. وعشي بصره، يرجو رحمة ربه في ضربة إجهاز تريحه من عذابه.

وكان أن أتى أمر الله.

---

(١) سورة الروم، الآيات: ١ - ٦.

(٢) أما لماذا يفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله، وقد أجهز المسلمون من بعد على الفرس ولم يفلتوا الروم، ولماذا يعد الله المؤمنين بهذا مؤكدًا أنه لا يخلف الله وعده، فليس هذا إيثارًا لأهل كتاب على مجوس، ولا اهتمامًا لشأن المعارك بين الفرس والروم، وإنما هي بشرى للمسلمين بيوم بدر (٢هـ- ٦٢٤م) الذي توافق مع كرة الروم على الفرس (٦٢٤م). في الآيات الست إذن نبوءتان: انتصار الروم على الفرس، وانتصار المسلمين على قريش في بدر. كانت النبوءة الأولى توقيتًا لتحقق النبوءة الثانية، لا أكثر ولا أقل، ولكن المفسرين احتفلوا للأولى، ولم يفطنوا للثانية، وبها وحدها تفهم الآيات الست فهمًا متكاملًا. أما (أدنى الأرض) المشار إليها في الآيات، فهي ترجمة قرآنية دقيقة لعبارة (أرض كنعان)، وهي فلسطين؛ حيث كانت المعارك المعنية بين الفرس والروم. (راجع في المعجم العربي مادة كنع، وهي نفسها (كنع) العبرية الآرامية)، ولم يلتفت إلى هذه الترجمة أحد.

أما اللغة – موضوعنا في هذا الجزء من الكتاب – فأنت تعرف بالطبع العلاقة بين موات الحضارة وموات اللغة، فما بادت حضارة قوم إلا بادت لغتهم، أو ذابت في لغة السادة لتعيش بعضًا من حياة، أو تحورت إلى رطانة شائهة هجينة لا تكاد تبين.

متى لم يعد للحضارة فكر تعبر عنه وتعيش عليه، ومثل تدعو إليها وتجاهد من أجلها، فقد خرست الحضارة ولم يعد لديها ما تقول.

إلى هذا آلت اللغات في هذه المنطقة من العالم: تهاوت الحضارة فتهاوت اللغة، ولم يكن في أي من تلك اللغات جميعًا كتاب في عظمة القرآن يعصمها أن تزول.

* * * *

في مطلع القرن السابع للميلاد كانت اليونانية الفصحى التي تغنى بها من قبل شعراء الإلياذة، وكتب بها أمثال أفلاطون وسوفوكل، وخطب بها أمثال بريكليس وديموستين، قد آذنت من قبل بالأفول حوالي مطلع القرن الثالث، ولم يأت القرن السابع إلا وقد آلت إلى يونانية دارجة هجينة، لا على ألسنة العامة فحسب، وإنما أيضًا في الفن والفكر والأدب.

أما اللاتينية الفصحى التي كتبت بها مدونات الفقه الروماني، ونظمت بها إنيادة فرجيل، وخطب بها أمثال شيشرون وقيصر، فقد حذت حذو أختها اليونانية بنفس الترتيب الزمني أو تكاد، فلم يأت القرن السابع إلا وقد تحورت إلى لاتينية دارجة هجينة، بل قل: إلى لاتينيات دارجة هجينة، يلدن من بعد لغات أوربية تقرأ لها الآن، لم يكتمل لها نموها إلا في نحو تسعمائة سنة من نزول القرآن.

لم يبق من اليونانية واللاتينية مطلع القرن السابع للميلاد إلّا أثارة من أطلال مجد قديم، تليق بحضارة ذوت، ولا تتسع لحضارة باذخة توشك أن تولد لتعيش.

تلك الحضارة الباذخة الوليدة كان القرآن شهادة ميلادها، وهو إلى الآن عمود حياتها، وما أوشكت أن تتصدع في مراحل من عمرها إلا لأن أصحاب القرآن أنسوه.

فالحذر الحذر ممن يرفضونه اليوم دستور حياة.

بل في المسلمين اليوم من يعاجزون القرآن، ويختصمونه، ويجادلون فيه، ويحرضون عليه.

بل فيهم - لعنوا بما قالوا - من يشاقون الله ويسبون رسوله.

بل فيهم - ويا للعار - من لا تحمر له أنف، وإنما يسخر قلمه للدفاع عن هؤلاء وهؤلاء بدعوى حرية الرأي والفكر.

ولو شاء الله لمسخهم على مكانتهم[1].

كفاهم نقمة - بحربهم القرآن - أنهم حرموه.

وكفاهم ذلة أن طمس الله على عقولهم وبصائرهم فلا يرون ما آلوا إليه بذنبهم: رد الله وجوههم في أقفيتهم، وجعل منهم الببغاء والقردة.

ولكن هذا حديث آخر، نتصدى له في كتاب آخر، ليس موضعه هذا الكتاب.

* * * *

أما في الشرق الأدنى القديم ما بين مصر وفارس، مهبط الرسالات، وموئل الحضارات التي سبقت الفرس والروم، فقد اختلط الحابل بالنابل:

في مصر تصدعت - بانهيار دولة الرعامسة[2] حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد - حضارة شامخة زهت نحو ألفي سنة (٣٢٠٠ ق م - ١٢٠٠ ق م)، وآذنت بأفول لا رجعة منه؛ تعاور مصر الغزاة من شرق وغرب، ومن شمال وجنوب، نهبًا للرائح والغادي، جائزة لمن غلب، إلا هبَّات هنا أو هناك، وجذوة خامدة تريد أن تتوهج وسرعان ما تنطفئ،

(١) على مكانتهم: يعني وهم في مكانهم لم يبرحوه، أي: من فورهم ولحظتهم.

(٢) الرعامسة جمع رعمس، أو رمسيس كما نكتبها نحن الآن.

حتى غدت مصر ولاية فارسية منذ ٥٢٥ ق م على يدي قمبيز وخلفائه، ثم إقطاعة يونانية لخلفاء الإسكندر (٣٣٣ ق م)، ثم ولاية رومانية (٣٠ م) للقياصرة في روما، ارتحلت تبعيتها معهم إلى بيزنطة (٣٩٥م)، ولم يبق من المصريين إلا الحجر، وإلا مياه النيل تجري تهمهم بما كان.

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾[١].

ترى هل بقيت للمصريين في مطلع القرن السابع للميلاد أثارة من لغة حضارتهم الأولى التي درست؟ هي بقي لديهم شيء من تلك اللغة الفصحى التي ترنم بها أخناتون من قبل ابتهالات وتسابيح؟ هل بقي لديهم شيء من تلك اللغة الفصحى التي حاور بها فرعون موسى وهارون؟[٢] وهي لم تكن لغة أهل البلاط فحسب، وإنما كانت هي نفسها اللغة التي قرع بها السحرة أسماع فرعون وملئه[٣]، يستعلنون بإيمانهم على رغمه، فيودعون الدنيا ويستقبلون الآخرة بخطبة بليغة تقشعر لها الجلود وتخشع الأسماع والأبصار؟

أنت بالطبع تعرف الجواب: باندثار الحضارة تندثر اللغة، لم يبق من المصريين في مطلع القرن السابع من يتكلم المصرية الفصحى، ناهيك بمن يفك رموزها، فضلًا عن أن يكتب بها، وإنما آلت المصرية الفصحى إلى قبطية دارجة هجينة، تكتب كلها أو تكاد بأحرف يونانية ابتدع رسومها الفينيقيون من قبل، وتنضح برطانة تعرف فيها آثار ألسنة الغزاة: الإغريق فالرومان، ومسحة من آرامية[٤] فارسية انتقلت إليها مع جيوش قمبيز.

(١) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ - ٢٩.

(٢) كانت الفصاحة شرطًا في هذا الحوار البليغ، يدلك على هذا استنصار موسى بهارون: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤].

(٣) الملأ يعني علية القوم، الذين تمتلئ منهم العين مهابة.

(٤) الآرامية هي لغة أهل آرام (إرم في القرآن). كانت تطلق على ما نسميه نحن (سورية) بالمعنى العام. سماها أهلها كذلك تحنانًا إلى موطنهم القديم (آرام نهريم)، أي: آرام ما بين النهرين، وهناك كانت (إرم ذات العماد) التي عناها القرآن، وسيأتي الحديث عنها في موضعه حين الكلام عن (عاد قوم=

أما فارس التي بلغت أقصى اتساعها على عهد الأخمينيين (القرن السادس ق م) - (القرن الرابع ق م). فشملت إمبراطوريتهم منذ القرن الخامس قبل الميلاد الشرق الأدنى القديم كله من فارس إلى مصر، ومن بابل وما بين النهرين إلى سواحل البحر الأبيض في سورية وفلسطين، واكتسحوا اليونان في آسيا الصغرى وألزموهم عقر دارهم في شبه جزيرتهم... فارس هذه، ماذا بقي منها؟

كر عليهم الإسكندر فقوض ملكهم من تخوم الهند إلى مصر (٣٣٣ ق م)، وورث إمبراطوريتهم الشاسعة جميعها، ليتوزعها خلفاؤه من بعده، وليبدأ في الشرق الأدنى كله العصر (الهليني)[1] أو (المتهلين)، أي المصطبغ بالصبغة اليونانية فكرًا ولغة وحضارة، وهو تعبير غير دقيق، وربما كان مضللًا أحيانًا؛ لأنه يغلب العنصر اليوناني الوافد إلى حضارات الشرق الأدنى القديم، ويغفل مردود هذه الحضارات نفسها على أرض اليونان الأم، حتى باتت اليونان نفسها بعد الإسكندر (هلينية) فكرًا وحضارة.

لم تكن جحافل الإسكندر يونانية خالصة، وإنما كانت تستمد في سيرها المدد من أهل الأقطار المفتوحة، حتى انتهت (غارة) الإسكندر. واستقر الغزاة بعد الفتح في مواقعهم، يموج بعضهم في بعض، تتمازج الدماء، وتختلط الألسنة، وتتلاقح الثقافات والفلسفات والعقائد.

= هود). وكانت الآرامية هي اللغة الغالبة في ربوع الشرق الأدنى القديم، فاستبقاها الفرس لغة رسمية في إمبراطوريتهم، وبها اكتشفت في مصر مخطوطات ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، عصر مجيء قمبيز، تستند إليها الدراسات الحديثة في محاولة فهم الآرامية البائدة وتقعيد نحوها وصرفها. وللآرامية أيضًا اسمان آخران، هما (الكلدانية) و(السريانية)، أما الكلدانية فهي تسمية خطأ، عدل عنها اليوم علماء اللغات المحققون، وأما السريانية فهي الآرامية نفسها أو ما آلت إليه الآرامية منذ القرن الثالث الميلادي، وما زالت السريانية تعيش إلى اليوم على بعض الألسنة. وبهذه الآرامية نفسها كان يتحدث المسيح إلى عشيرته وحوارييه، وبها كان إنجيله الذي لا تجد له اليوم إلا أصولًا كتبها أصحابها بيونانية متأخرة تعرف باليونانية الكنسية.

(١) (هليني) لفظة يونانية، صفة من هلاس، اسم لليونان قديم.

ولك أن تتصور تأثير هذا كله على اللغة الفارسية في موطنها الأصلي، كما رأيت من قبل تأثيره على لغة شعراء الإلياذة وأفلاطون وسوفوكل؛ جمدت الفارسية القديمة على الألسنة ولم يعد يستدل عليها إلا من نقوش كتبت ما بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد، وحلت محلها الفارسية (الفهلوية) التي كتبت بها نصوص (زرادشت) في القرن الثالث الميلادي، وآلت إلى (الأفستية)، (أي: لغة النص الأصلي)، فعاشت في المعابد والأذكار، وبقيت منها فارسية تزهو حينًا وتتحامل على نفسها حينًا، تنوء بأوزار ما تهجنت به، حتى أجهز عليها الفتح الإسلامي في القرن السابع، فصارت همهمة يغمغم بها أمثال البرامكة في بلاط الرشيد. ولكن تلك الهمهمة التي طالت، قضت على ما بقي من أصالة اللغة، فلم يستعد الفرس سلطانهم في أواخر الدولة العباسية إلا وقد آلت الفارسية إلى رطانة ثلثها على الأقل عربي، هي تلك الفارسية الحديثة التي تقرأ لها الآن.

* * * *

لم يبق من الحديث عن لغات الشرق الأدنى القديم إلا الآرامية والعبرية، ومنهما كانت غالبية العلم الأعجمي الذي نتناوله في هذا الكتاب.

ولكن الحديث عن الآرامية والعبرية يقتضي الحديث أولًا عن اللغات المسماة بالسامية - وأمها جميعًا (العربية) - تقريرًا لأصالة العربية عليهما قبل نزول القرآن، وهذا ما ننتقل إليه الآن.

* * * *

(٣)

تستطيع أن تصنف لغات البشر إلى سلالات عرقية، أو جغرافية - تاريخية، تنسبها إلى موطن أقدم من يظن أنهم تكلموا بها قبل أن ينساحوا في الأرض، فتنشعب ألسنتهم لهجات فلغات، فتقول مثلًا: اللغات الآرية[1]، ومنها السنسكريتية في الهند، والفارسية في إيران، واليونانية واللاتينية والجرمانية في أوربا، وما تفرع عن هذه وتلك من لغات تقرأ لها الآن. أو تقول مثلًا اللغات السامية والحامية والكوشية، ومنها العربية والعبرية والمصرية والحبشية، بقي منها ما بقي، وباد ما باد، والسامية والحامية نسبة إلى سام وحام ابني نوح، والكوشية نسبة إلى كوش بن حام.

وليس لك بالطبع أن تتساءل: بم كان يكلم نوح أباه؟ وبم كان يتفاهم نوح مع ابنيه سام وحام؟ ولم شذ حام عن أخيه سام، فاصطنع لنفسه لغة انفرد بها لم ترق لابنه كوش فعدل عنها إلى غيرها؟ تلك على الأرجح - إن صحت التسمية - ليست أسماء أشخاص، وإنما هي أسماء قبائل وشعوب تفرقوا في البلاد، فتفارقت الألسنة.

أما إن ترجح لديك - وأنت اللبيب العاقل - وحدة الأصل الإنساني، فلا مفر لك من أن ترد لغات أهل الأرض جميعًا إلى أصل واحد، هو تلك اللغة الأولى التي تكلم بها أبو البشر وأمهم، بعد مهبطهما من الجنة.

---

(١) (آريا) لفظة سنسكريتية بمعنى الشريف النبيل الأمثل، وصف بها الهنود لغة السادة الغزاة، وبها سميت (إيران) (آريا -نام) على الراجح، أي أرض الأماثل. ومن (آريا) لفظة (أرستو) اليونانية بمعنى الأمثل، وبها صيغت (أرستو - كراتيا) (الأرستوقراطية)، أي: حكومة الصفوة أو الأماثل.

على أن افتراض لغة أولى تفرعت عنها كل اللغات، وهو فرض علمي لا غبار عليه - إن لم يكن الفرض المنطقي الراجح - ربما يغريك ببحث عقيم عن أي اللغات كان الأول. ولكنك مهما بذلت من جهد - وأيضًا من افتعال - فقصاراك أن تقنع بفرض واحد مؤكد، وهو أن اللغة التي تكلمها آدم بعد مهبطه من الجنة لم يعد يتكلمها اليوم أحد من أهل الأرض، وإنما هي تفرقت في لغات البشر جميعًا: لكل منهم فيها نصيب، قل أو كثر.

لهذا عدل اللغويون الآن عن تلك التسميات العرقية الجغرافية - التاريخية التي قد توهمك بوجود لغة أو لغات أولى تنتمي إليها الأسرة اللغوية التي يتكلمها البشر اليوم. عدل اللغويون عن ذلك الآن، وأصبحوا ينسبون الأسر اللغوية إلى الأرض التي يعيش عليها في عصرنا هذا من يتكلمونها اليوم، أو عاش عليها أسلاف لهم سبقوا، تكلموا لغة تلمح أصولها في اللغات المعاصرة، أو عثر فيها على نقوش أو مخطوطات عفا عليها الدهر، يعكف عليها اللغويون بغية حل رموزها، وفك طلاسمها، وردها إلى أسرة لغوية ولدت فيها، ثم تحورت أو بادت. فيقولون مثلًا: اللغات (الهندية - الأوروبية) ما بقي منها وما باد. ويقولون مثلًا: اللغات (الإفريقية - الآسيوية)، يعنون تلك الأسرة اللغوية بفصائلها (السامية) و(الحامية) و(الكوشية)... إلخ، المتقاربة جذور مفرداتها ودلالات ألفاظها ومخارج أصواتها، التي يتكلمها في آسيا، أو تكلمها في آسيا يومًا ما، عرب شبه الجزيرة من أقصى اليمن إلى أقصى الشام، كما يتكلمها في إفريقيا، أو تكلمها في إفريقيا يومًا ما، أهل الضفة المقابلة من البحر الأحمر: المصريون والسودان والأحباش.

****

أما الخصائص التي يستند إليها اللغويون في تقسيم لغات البشر إلى مجموعات لغوية، أو أسر لغوية، فهي تنقسم بدورها إلى فصائل لغوية داخل الأسرة الواحدة، فأهم هذه الخصائص ما يلي:

١ - مخارج الأصوات:

أي انفراد فصائل الأسرة اللغوية المعينة بنطق أحرف، أي أصوات، لا تنطقها غيرها. من ذلك انفراد اللغات الإفريقية - الآسيوية بنطق الحاء، وانعدام هذا الصوت - على سبيل المثال - في اللغات الهندية - الأوروبية. وليست العبرة في هذا السياق بصورة الحرف، أي بشكله المكتوب، أي بالخط الذي تصطنعه اللغة في الكتابة، وإنما العبرة بالصوت الموضوع له الحرف.

٢ - دلالات الألفاظ:

تتقارب في لغات الفصيلة الواحدة، تقاربًا واضحًا، بل وتتطابق أحيانًا، بنية اللفظ الموضوع لنفس المعنى، من ذلك لفظة (عين) الموضوعة لأداة الإبصار، وعين الماء... إلخ، في اللغات العربية والآرامية والعبرية على السواء.. ومن ذلك أيضًا مادة الفعل (كتب) بنفس المعنى في هذه اللغات السامية الثلاثة.

٣- بناء الألفاظ:

من اللغات صرفي وغروي. فأما اللغات الغروية، ومنها أسرة اللغات الهندية - الأوروبية، كالسنسكريتية والفارسية، وكاليونانية واللاتينية وبناتها الأوروبيات، فهي اللغات التي تستعين في اشتقاق المعنى الموسع من المعنى البسيط بإضافة اللواصق من خلف ومن قدام، فيبدو لك اللفظ منحوتًا من كلمة واحدة نطقًا وكتابة، وهو من بضعة أجزاء موصولة، وكأنما شد بعضها إلى بعض بغراء. من ذلك في اللاتينية مثلا كلمة *emancipio* بمختلف صورها في اللغات الأوروبية الحديثة، ومعناها العتق والانعتاق: تظنها من كلمة واحدة، وهي من ثلاثة أجزاء شدت إلى بعض *(e) + (man) + (cipio)*، الجزء الأول *(e)* بمعنى (خارجًا)، والثاني *(man)* بمعنى (اليد)، والثالث *(cipio)* بمعنى (الأخذ)، فهي إذن ليست كلمة وإنما هي جملة أو شبه جملة، معناها الحرفي (الإخراج من أخذ اليد)، أو (الإخراج من ملك اليمين).

وأما اللغات الصرفية، ومنها على سبيل المثال العربية والآرامية والعبرية في الفصيلة السامية المنتمية إلى أسرة اللغات الإفريقية - الآسيوية، فهي لا تستعين في اشتقاق المعنى الموسع من المعنى البسيط بإضافة اللواصق أو بتجميع أجزاء الكلام، وإنما هي تنحت جذور الألفاظ لجذور المعاني، ثم تشتق الموسع من البسيط (بالتصرف) في بنية الجذر الأصلي وفق أوزان ثابتة، لكل منها معناها التوسعي المحدد، بغض النظر عن جذر اللفظ الأصلي. من ذلك في العربية فَعَلَ وفَعَّل وتفَعَّل وانفعل واستفعل وفاعَلَ وتَفَاعَلَ.. إلخ. وليست أحرف الزيادة التي تلحظها وسط الجذر كتضعيف العين في فعّل، والمد بالألف في فاعَل، أو المضافة في أول الجذر مثل الهمزة والنون في انفعل، والهمزة والسين والتاء في استفعل، كاللواصق في اللغات الهندية - الأوروبية؛ لأن أحرف الزيادة هذه ليس لها في ذاتها معنى كما هو الحال في لواصق اللغات الهندية - الأوروبية، وإنما لها وظيفة صرفية، تصرف جذر اللفظ عن معناه البسيط إلى معناه الموسع.

وأيا كانت ميزة الصرفي على الغروي، مما لا نتصدى له الآن، فهي عند اللغويين سمة فارقة حاسمة بين المجموعات اللغوية.

* * * *

وأما الفوارق بين لغة ولغة من نفس الفصيلة، كفوارق ما بين العربية والعبرية من الفصيلة السامية، والتي تجعل منهما لغتين مختلفتين بحيث تعتجم العبرية على السامع العربي - كما تعتجم العربية على السامع العبري - فلا يفهم أحدهما شيئًا من لغة الآخر حتى يترجم له، فمن هذه الفوارق بين العربية والعبرية على سبيل المثال[1] القلب والإبدال. أما القلب فهو

(١) اخترنا المقارنة بين العربية والعبرية مثالًا في هذا السياق لقرب ما بين هاتين اللغتين، تيسيرًا على القارئ العربي غير المتخصص، ولأغراض هذا التيسير أيضًا التزمنا في هذا الكتاب رسم الألفاظ العبرية (والآرامية أيضًا) بالخط العربي، لا بالخط العبري - الآرامي. ولن تستعصي القراءة الصحيحة لتلك الألفاظ العبرية الآرامية برسمها العربي على من يجيدون العبرية والآرامية من قراء هذا الكتاب، فقد ضبطناها بالشكل والنقط أقرب ما تكون إلى نطقها العبري أو الآرامي.

تغيير ترتيب أحرف الكلمة مع اتحاد المعنى، ومثاله من العربية نفسها الجذران (جذب) (جبذ)، بمعنى شد في كليهما، وغيرهما كثير. وأما الإبدال فهو تغيير حرف بحرف آخر قريب من مخرجه، مع بقاء المعنى، ومثاله من العربية نفسها (سراط)، (صراط)، بمعنى الطريق في كليهما. ومن الإبدال أيضًا، المبادلة بين أحرف المد، كإبدال المد بالواو مدا بالياء، ومثال هذا من العربية نفسها (ساع / يسوع)، (ساع / يسيع)، وكلتاهما بمعنى ضاع وهلك.

ويتفاقم أمر القلب والإبدال ما بين العربية والعبرية حين يكون لصورة اللفظ المتحور في إحدى اللغتين بالقلب والإبدال معنى مغاير تمامًا لمعناه في اللغة الأخرى. من ذلك أن (نِجِب) العبرية (ومعناها الجنوب) ليست من (النجابة)، وإنما هي مقلوب الجذر العربي (جنب). أما (جنب) عبريًّا فليست من الجنوب في شيء، وإنما هي بمعنى (سرق). ومن ذلك أيضًا أن (صنم) العربية (مفرد أصنام) تصبح (صِلِم) في العبرية. ولكن صلم عربيًّا (باللام) تعني قطع واستأصل (وغلبت في الأنف والأذن)، فلا تفهم أي المعنيين يريد ذلك العبراني الذي يحدثك. ويزداد الأمر سوءًا حين تعلم أن (صِلِم) العبرانية تفيد أيضًا الظلام والظلمة (من أظلم العربي أبدلت ظاؤها صادًا)، أما (الظلم) نقيض العدل فهو في العبرية بالطاء (طلم)، (وطلمه) عربيًّا يعني ضربه بكفه مبسوطة، وهو أيضًا وسخ الأسنان من إهمال تنظيفها، ليس له بالظلم صلة). أما (صنم) عبرانيًّا فلا صلة له بالأصنام، وإنما هو من النضج والإنضاج. وقس على هذا الكثير الذي لا يحصى بين هاتين اللغتين.

وإلى جانب القلب والإبدال، تفتقر العبرية إلى ستة أحرف أصلية موجودة في العربية، هي بترتيبها على أحرف الهجاء العربية: الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين. أما الضاد والظاء فلا وجود لهما مطلقًا في العبرية نطقًا وكتابة، فما كان بالضاد في العربية انقلب غالبًا إلى صاد في العبرية، مثل (ضحك) العربية التي تنقلب إلى (صحق) في العبرية (أبدلت أيضًا كافها قافًا)، ومنه اسم نبي الله إسحاق كما سترى، وما كان بالظاء انقلب غالبًا إلى طاء أو زاي، وربما إلى صاد، مثل (ظبي) التي تصبح (صبي) في العبرية. أما الأحرف الأربعة الأخرى (ث – خ – ذ – غ)، فلا وجود لها في العبرية أيضًا، أي في الكتابة، ولكنك تسمعها

في مواضع مخصوصة من محدثك العبراني الذي ينطق لك التاء ثاء، والكاف خاء، والدال ذالا، والجيم غينًا، حين يتحرك - أو يعتل - ما قبلها (حين يكون لها قبلُ)، شريطة ألا تضعف هي. من ذلك أن (بيت) العبرية (وهي بيت العربية) تنطق (بَيْت)، و(مِلِك) (وهي مَلِك العربية) تنطق (مِلِخ)، (ولكن المؤنث منها وهو ملكة تسكن لامه قبل الكاف فتنطق الكاف على أصلها). من ذلك أيضًا (يِهود) التي تنطق (يِهوذ)، ومثله أيضًا (رجم) العبرية التي تنطق (رغم) لتحرك الراء قبل الجيم فصارت جميعها في النطق غينًا[1]. ولعلك لاحظت أن التفاوت في نطق هذه الأحرف العبرية الأربعة في مواضع مخصوصة مع نطق الحرف على أصله في غيرها، هذا التفاوت لا يضيف جذرًا جديدًا إلى تلك اللغة، وإنما هو مجرد (لهجة) في نطقه في مواضع مخصوصة لا تغير من أصل معناه. ولعلك لاحظت في هذا السياق أيضًا، أن زيادة الأبجدية العربية (٢٨ حرفًا ليس من بينها اللام ألف) بستة أحرف أصلية على الأبجدية العبرية (٢٢ حرفًا) تثري العربية بكم هائل من الجذور الثلاثية لا تستطيعه العبرية، ذلك أن الحرف الواحد مجموعًا إلى حرفين اثنين فقط من حروف الأبجدية (ولتكن ض - ب - ر) يعطيك عشرة جذور ثلاثية ممكنة: بض - ضب - رض - ضر - ضبر - ضرب - رضب - ربض - برض - بضر، كلها مستعمل مسموع في العربية عدا الجذرين الأخيرين (برض) و(بضر) الباقيين في خزائنها، تستطيع استخراجهما حين تشاء[2]. وقس على هذا اجتماع الضاد مع باقي الحروف.

من جهة أخرى تفتقر العربية إلى صوتين في العبرية، هما الـپاء *(P)* الثقيلة، والباء المرققة التي تخف وتسيل فتصبح ڤاء *(V)*، ولكن هذين الصوتين غير أصيلين في العبرية، وإنما هما نفساهما الفاء والباء: تنطق الفاء باء ثقيلة (پاء) حين لا يتحرك أو يعتل ما قبلها، (أو لا يكون لها قبل)، أو حين تضعف (مثل پَرْعُو العبرية بمعنى فرعون)، وتنطق كالفاء العربية فيما عدا ذلك. أما الباء العبرية فتنطق كالباء العربية حين لا يتحرك أو يعتل ما قبلها، (أو حين لا يكون

(١) المعني به في هذا الكتاب هو عبرية التوراة، لا العبرية المعاصرة.

(٢) هذا باب واسع غفل عنه (المعربون)، يتيح (اختراع) الألفاظ لمستحدثات الحضارة.

لها قبل)، أو حين تضعف، وتنطق باء مرققة سائلة (ڤاء) فيما عدا ذلك، مثل (آف) (*AV*) العبرية يعني: أب، وعكسه (با) العبرية ومعناها (جاء). وهذا أيضًا لا يضيف إلى العبرية جذورًا جديدة تتميز بها على العربية، وإنما هو مجرد لهجة في نطق الحرف في مواضع مخصوصة، لا تغير من أصل معنى الجذر الذي يحتويه، مع نطق الحرف على أصله في غيرها. من ذلك الفعل (كفر) المشترك بين العربية والعبرية معنًى ونطقًا وكتابة، ولكن الفاء فيه حين تضعف، تنطق في العبرية پاء ثقيلة (*P*)، كما في (يُوم كِپُّور) أي (يوم الكفارة). ومثله أيضًا الاسم العبراني (أيوب)، الذي ينطق في العبرية (إيوڤ)، رققت باؤه وأسيلت لاعتلال ما قبلها (الواو) فنطقت باؤه ڤاء. ومثله أيضًا (أبراهام) (إبراهيم) الذي ينطقه العبرانيون (أڤراهام)؛ لتحرك الهمزة قبل الباء.

من وجوه المغايرة الصوتية أيضًا بين العربية والعبرية، اصطناع العبرية (المد بالكسر) (أي إطالة زمن نطق الكسرة دون انقلابها ياءً ثقيلة)، وقرينه (المد بالضم) (أي إطالة زمن نطق الضمة دون انقلابها واوًا ثقيلة)، ولا وجود لهما أصلًا في العربية الفصحى[1]، وإن كانا موجودين في العربية العامية، مثلما ترى في كلمة (بيت) العربية التي تنطق في العامية مكسورة الباء ممدودة الكسرة (بِيت)، ومثل كلمة (يوم) التي تنطق (يُوم). والفرق بين المد بالكسر وبين المد بالياء أن الكسر في المد بالياء ثقيل، تحتشد له عضلات الفم واللسان، كما في كلمة (عيد) بينما هو في المد بالكسر مخفف مرقق، كما في كلمة (ليش) (بمعنى لأي شيء) العربية العامية، ترتخي فيه عضلات الفم واللسان. وهكذا أيضًا الفرق بين المد بالضم وبين المد بالواو في مثل (عُود) و(يُوم) وإذا لاحظت أن العبرية - شأنها شأن العربية العامية - تصنع ذلك كلما كان الأصل في العربية الفصحى الوقوف بعد فتح على الواو والياء، في مثل (يَوْم) و(رَيْب)، والوقوف عليهما ثقيل، بدت لك العبرية وكأنما تنشد التسهيل، كما تفعل العربية العامية، وكما فعلت الإنجليزية المعاصرة مثلًا بالحرفين (*au*)

(١) باستثناء حالات (الألف الممالة) التي تثبت سماعًا عن أصحاب القراءات في مثل ياء (مجريها ومرساها). وإمالة الألف هي نفسها المد بالكسر.

(آو) و(*ai*) (آي) اللذين سهلتهما الإنجليزية المعاصرة، والفرنسية المعاصرة أيضًا دون سائر أخواتها اللاتينيات، إلى (أوه) و(إيه) على الترتيب.

هناك أيضًا مغايرة بين العربية والعبرية في النحو والصرف، لا توجد في العبرية علامات (إعراب)، وإنما الأصل (البناء)، أي بقاء اللفظ على حاله وصورته أيًّا كان موضعه من الإعراب رفعًا ونصبًا وجرًّا وجزمًا كما تفعل العربية العامية، وكما آلت إليه الإنجليزية والفرنسية بين أمهات اللغات الأوروبية الحديثة. وليس في العبرية صيغة للمثنى، وإنما هو الجمع لا غير. عدا استثناءات قليلة منقرضة من مثل (عَيْنَيْم) مثنى (عين) (أداة الإبصار)، ومثل (نَهْرَيْم) مثنى (نهر) (في عبارة (آرام نهريم)، أي آرام ما بين النهرين). ولا وجود لجمع التكسير في العبرية، وإنما هو الجمع السالم لا غير، وصورته البناء على الياء بعدها ميم (لا نون كما في العربية والآرامية) في جمع المذكر، مثل (بنيم) (يعني (بنون) العربية) والمد بالضم بعدها تاء ساكنة (لا المد بالألف بعدها تاء كما في العربية والآرامية) في جمع المؤنث، مثل (بنوت) (يعني (بنات) العربية). كما تفتقر العبرية إلى صيغة (أفعل التفضيل) مثل (أكبر) و(أصغر) وما إلى ذلك، فتحتال عليها بصيغ مخصوصة من مثل (الابن الكبير) في موضع أكبر الأبناء، وهلم جرًّا.

ومن أمثلة المغايرة بين العربية والعبرية في موازين الصرف، أن العبرية تضع الوزن (فُعِيل) (مدًّا بالكسر) لزنة اسم الفاعل، والوزن (فَعُول) (مدًّا بالواو) لزنة اسم المفعول، وأحيانًا كثيرة الوزن (فَعُول) (مدًّا بالضم لا بالواو) لزنة مصدر الثلاثي المجرد. من ذلك (حُميذ) بمعنى حامد، و(حموذ) بمعنى محمود، و(حموذ) (مدًّا بالضم) بمعنى الحمد... إلخ.

أما أخطر وجوه التغاير بين العربية والعبرية، وأدلها أيضًا على أصالة العربية وسبقها للعبرية (وللآرامية أيضًا) في الزمان والمكان، فمنها تفوق العربية تفوقًا ساحقًا بوفرة المادة اللفظية الأصلية (الجذر الثلاثي) بما لا يقاس على العبرية والآرامية ليس فقط بسبب زيادة الأبجدية العربية بستة أحرف أصلية (ث - خ - ذ - ض - ظ - غ) كما مر بك، فتستطيع الإتيان مثلًا بالجذرين (خرج) و(حرج) كلًّا بمعنى، ولا تستطيع العبرية إلا الثاني وحده

بمعنى (ضاق) وغير هذا أكثر من أن يحصى، وإنما أيضًا لكون العربية أوفر أوزانًا وأضبط وأقيس، تستطيع الإتيان بالطريف المعجب دون زيادة في أحرف الجذر، وإنما فقط بتغيير حركة عينه. من ذلك الفعل (صنَع) أي كان صانعًا شيئًا ما، سفسف فيه أو أتقنه، و(صنِع)، أي: كان حاذقًا ماهر الصنعة، وغيره كثير.

ومن وجوه الأصالة والتفوق أيضًا أن العربية تستنفد من الجذر الأصلي كل معانيه - الرئيسي والمترتب عليه - على حين تقتصر العبرية والآرامية غالبًا على وجه واحد تجمدان عليه. من ذلك الفعل (حمد)، فهو في العربية بمعان يتسلسل بعضها من بعض: حمدته يعني رضيته وأعجبت به، وحمدته أيضًا يعني ذكرت محاسنه فمدحته بما هو أهله، وحمدت له أمرًا يعني استحسنت له، وحمدته أيضًا يعني ذكرت له نعمة فشكرتها وأثنيت عليها لجوده بها. أما العبرية فتقتصر من (الحمد) على وجه واحد، هو الرضا والإعجاب: حمدته العبرية تعني أعجبني وحلا لي[1].

---

(١) هذا عندي هو الوجه المنعوت به ﷺ بمقتضى تسميته (محمدًا)، أي الحميد الخَلْق والخُلُق، الحميد الأفعال والصفات. وهو أيضًا - وهذا جديد نفيس لم تقرأه من قبل - الذي جاء في العهد القديم نبوءة بمبعثه ﷺ على لسان حجاي النبي: ((وبا حِمْدَت كل هَجويم)) (سفر حجاي: ٢/ ٧)، يعني: ((ويجيء حِمدة كل الأمم))، أي: الذي تحمده كل الأمم، يعني يحمده كل من نطق باسمه، وإن جحده وأنكر نبوته...

والنصارى يسقطون هذه النبوءة على المسيح عليه السلام، وليس بشيء، لأن المسيح لا يحمده من جحده وأنكره، ومنهم اليهود على الأقل.

وهذا أيضًا بعض معنى قوله عز وجل: ﴿... ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي نبي كل الأمم، الموصوف بنعته في التوراة والإنجيل اللذين بين أيديهم عصر نزول القرآن وإلى الآن.

ومن أسف أن تراجمة العهد القديم يترجمون عبارة ((حمدة كل الأمم)) بعبارة ((مشتهى كل الأمم))، ربما لطمس معنى (الحمد) في النبوءة. ولو أنصفوا لاستبقوا لفظ (الحمد) في النص العربي على الأقل - بصورته المشتركة بين العربية والعبرية.

ربما اعتذرت لهم بأنهم لو سلموا بهذه النبوءة لسلموا بنبوة محمد ﷺ، وربما ظننت أيضًا أنهم=

أما أكثر أوجه المغايرة دلالة على أصالة العربية وسبقها فهو أن العربية لا يوجد فيها لفظ مشتق إلا وهي تستخدم ثلاثيه المجرد في أصل المعنى الموضوع له، أما العبرية فيكثر فيها المشتق الذي لا جذر له. معنى ذلك أن العبرية تأخذ اللفظ المشتق على صورته عند أصحابه دون فهم أصل معناه في جذره الثلاثي. والجذر بالطبع أسبق وجودًا من اللفظ المشتق منه. العبرية إذن ناقلة عن العربية، ولا يتصور العكس.

من ذلك أن الفعل العربي (نجل) بمعنى قطع وطعن - ومنه (المنجل) أداة الحصاد - لا وجود له في العبرية، ولكن الموجود في العبرية من مادة الجذر العربي (نجل) اللفظ (مَجَّال) (وأصلها (منجال)) أي المنجل، استعارت العبرية (المنجل) ولم تستعر (النجل).

هذا يفسر لك لماذا يلجأ اللغويون إلى المعجم العربي لمحاولة فهم غوامض العبرية والآرامية وبوائدهما، مثلما يفعلون لمحاولة فهم غوامض غيرهما من بوائد الساميات.

لهذا صح عند اللغويين الأثبات أن العربية هي أم الساميات جميعًا، لأنها الخزانة اللغوية التي تغترف منها سائر لغات الفصيلة ولا تنضب هي، بل لديها دائمًا المزيد، وربما ترجح عند بعضهم أنها أيضًا الأصل البعيد الذي انشقت عنه وتحورت سائر لغات المجموعة الإفريقية - الآسيوية، ومنها المصرية والحبشية.

ولكنك في أقل القليل تستطيع أن تؤكد - مصيبًا غير مخطئ - أن اللغة العربية - أيًّا كان الشكل الذي تطورت منه إلى الشكل الذي نزل به القرآن في مطلع المائة السابعة لميلاد المسيح - كانت هي نفسها في عصرٍ ما غير بالغ القدم اللغة السائدة بين سكان شبه الجزيرة من أقصى اليمن إلى أقصى الشام، وأن الآرامية التي ارتحل بها آباء إبراهيم من العراق إلى

= لا يسلمون بالاشتراك بين (حَمَد) العربي و(حَمَد) العبراني، ولكن آباءهم في الأندلس كانوا يسلمون بهذا الاشتراك، بدليل نطقهم اسم النبي لنصارى الإسبان والفرنسيس لا على زنة مفعَّل العربي - أي مُحَمَّد - وإنما على زنة نظيره العبري مِفُعَّل - أي مِحُمَّد - بنفس المعنى عبريًّا، ومن هنا قال الإسبان *Mahoma* وقال الفرنسيون *Mahomet* اللتين تحار في تعليل تحريفهما، وربما أسأت الظن فحسبت أنها (ما حُمِّد) نفيًا للحمد عنه ﷺ.

سورية، والعبرية التي ارتحل بها إلى مصر يعقوب وبنوه، وعاد بها بنو إسرائيل إلى جنوبي فلسطين بغير الوجه الذي ذهبت به فتعاجموا بها على إخوانهم الموآبين[1] - هذه وتلك وسائر ما تكلم به أهل الشرق الأدنى القديم في شبه الجزيرة - ليست إلا لهجات قبلية متحورة عن هذه العربية نفسها، تهجنت بها ألسنتهم بتأثير الغزو اللغوي الحضاري الذي توالى على أطراف شبه الجزيرة، شرقيها وشماليها، وسلم منه قلبها في الحجاز، وإلى حد بعيد جنوبيها في اليمن.

على أنك إزاء هذا المستوى الفني الرائع الذي ارتقت إليه تلك اللغة الفذة نحوًا وصرفًا وإعرابًا - ضد منطق التاريخ ومنطق الحضارة - والذي تلمسه قبيل نزول القرآن - فيما صحت نسبته إلى الجاهليين من شعر - لا بد يخايلك إحساس مبهم بأن تلك اللغة لا ريب سليلة حضارة موغلة في القدم سبقت عصر الطوفان وسبقت عصر التصحر والجفاف في شبه الجزيرة، ثم ضاعت في ضباب التاريخ.

ولكننا لا نخوض بك في تاريخ ما قبل التاريخ، فلا علاقة لموضوعنا بهذا الفن، ولسنا نحن أيضًا من رجاله.



(١) الموآبية هي أقرب اللهجات إلى العبرية. والتسمية عبرانية (مو + آب) أي ماء أبينا، أي الذين يجمعنا بهم أب واحد وتفرقت بنا العلات. ومن أشنع أباطيل سفر التكوين الذي بين يديك قولهم: إن الموآبيين هم أبناء لوط من ابنتيه: خلتا به بعد أن أسكرتاه الواحدة بعد الأخرى ليكون له منهما نسل، وكأنما عدمت الأرض رجالها ونساءها بعد خراب سدوم، وكأنما لوط في فراره بابنتيه من القرية التي كانت تعمل الخبائث، كان يفر من الرمضاء إلى النار. بل النار مثوى الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون: هذا من عند الله!

(٤)

تحدثنا فيما سبق عن أوجه التقابل والتغاير بين العربية والعبرية داخل الفصيلة السامية، وما ذكرناه بشأن العربية والعبرية ينطبق في جملته، مع بعض تفاوت، على ما بين العربية والآرامية، وعلى ما بين الآرامية والعبرية؛ تلك اللغات السامية الثلاث الألصق بموضوع هذا الكتاب. ما أردناه هو التمثيل لوجوه التقابل والتغاير بين أفراد الفصيلة اللغوية الواحدة، التي تجعل إحداها كلامًا أعجميًا في سمع أهل اللغة الأخرى من نفس الفصيلة، وفيما ذكرناه كفاية. بل قد أطنبنا إطنابًا نعتذر لك عنه أيها القارئ العزيز، وعذرنا أن الإفاضة بعض الشيء في المقارنة بين العربية والعبرية بالذات، تفيدنا في استجلاء (عجمة) العلم العبراني الذي نتصدى له فيما يلي من فصول الكتاب.

* * * *

هذا التقارب، والتغاير أيضًا، بين أفراد فصيلة لغوية معينة، ولتكن الفصيلة السامية، داخل أسرة لغوية معينة، ولتكن أسرة اللغات الإفريقية – الآسيوية، يدلان على أن التقارب قد كان منشؤه التجاور في الزمان والمكان حقبة من الدهر بين أبناء الفصيلة اللغوية الواحدة؛ لأن اللغات تتعلم بالمحاكاة والتقليد، وهذا لا يتسنى إلا في بيئة معيشية مشتركة.

على أن التقارب – وهو دون التطابق – يفيد بذاته وجود مغايرة بقدرٍ ما بين اللغتين من ذات الفصيلة، لا يمكن تفسيره إلا بحدوث انفصال بيئي، بنفس القدر، بين أبناء هاتين اللغتين تعرضت إحداهما خلاله – بالمحاكاة والتقليد أيضًا – لتأثيرات لغوية من حضارات مجاورة، أو غزوات لغوية – حضارية شنها أقوام يتحدثون غير اللغة. ليس هذا فحسب، بل إن هذا

الانفصال البيئي ربما صاحبه انفصال حضاري في اتجاه مغاير، استتبع تطور اللغة في اتجاه مغاير لتطور اللغة التي انشقت منها، فتتباعدان إلى حد التعاجم.

ذلك أن اللغات، بغض النظر عن الغزو اللغوي - الحضاري، لا تثبت قط على حال، بل تنمو وتتحور أيضًا، لا بفعل المؤثرات الخارجية وحدها، وإنما أيضًا بفعل ارتقاء - أو ارتكاس - الحضارة الذاتية لأبناء اللغة: تنتعش الحضارة فتغنى اللغة، وينضب معين الحضارة فتذوي اللغة أو تموت. والأصل في هذا أن الألفاظ أوعية المعاني، تمامًا كما أن الجسد وعاء الروح؛ لا يولد في اللغة لفظ جديد إلا متلبسًا بمعنى جَدَّ لأهل اللغة.

والحضارة التي يصيبها العقم فلا تتطور ولا تبدع ولا تبتكر، تعقم لغة أهلها أيضًا فلا تولد فيها ألفاظ جديدة لمعان ومسميات جديدة سبقهم إلى الوقوع عليها أبناء الحضارة الغالبة، أصحاب الحق الأول في تسمية ما يكتشفونه ويبتدعونه. وبقدر ما تتهجن الحضارات التوابع، تتهجن اللغة، لأن اللغة التي عقمت بعقم حضارة أهلها لا تجمد مفرداتها فحسب على ما جمدت عليه حضارتهم، ولا تضمر مفرداتها فحسب وتشيخ، وإنما يهجرها أهلها أيضًا إلى ألفاظ (أعجمية) تلتوي بها ألسنتهم، هي تلك الألفاظ التي اصطنعها أصحاب الحضارة الغالبة لما استحدثوه أو تطوروا إليه من أنماط حياة وأدوات حياة.

وعيب اللفظ المنقول على أصله الأعجمي إلى اللغة المستعيرة أنه ليس دالًّا بذاته على أصل معناه في لغة المنقول عنهم، فيلتبس على غير المتخصص من أبناء اللغة المستعيرة، وربما استخدم في غير ما وضع له. يحدث هذا بالتحديد في ألفاظ (المعاني)، أي الألفاظ الدالة على الفعل وهيئة الفعل، من مثل (الاستراتيجية) و(الديمقراطية)... إلخ، في اللغات المعاصرة، مما ليس له مقابل مادي خارج الذهن، يوضحه ويجليه ويذكر به، أكثر مما يحدث في أسماء الأشياء والمنتجات والمصنوعات والعدد والآلات والمكتشفات والمخترعات التي سبقت إليها الحضارة الغالبة مثل (الرادار) وغيره، مما له خارج الذهن مقابل مادي يوضحه ويجليه ويذكر به.

أما اللغة التي تستعير من غيرها معاني الأفعال وأسماء الأفعال، فهي لغة قد عقم تفكير أهلها وضحل، ينتظرون من غيرهم أن يفكر لهم، ثم يأخذوا عنه أخذ الببغاء والقردة، فيزدادون تبعية ويمعنون ارتكاسًا، لغة أهل الحضارة الغالبة هي المثل على تطور اللغة بتطور الحضارة الذاتية لأبناء اللغة، ولغة الحضارة التابعة هي المثل على تحور اللغة بتأثير الغزو اللغوي - الحضاري.

ولأن الألفاظ هي أوعية المعاني، تمامًا كما أن الجسد وعاء الروح، تستطيع أن تقول: إن المعاني يتوالد بعضها من بعض بقدر ما تتوالد الألفاظ بعضها من بعض، أي: بقدر ما تكون اللغة قادرة على نحت الألفاظ واشتقاق اللفظ من اللفظ.

وتستطيع أن ترتب على هذا - مصيبًا غير مخطئ - أن اللغة الأغزر ألفاظًا أو الأقدر على نحت جذور الألفاظ، هي اللغة الأقدر على توليد المعاني، وأنها اللغة الأدق عبارة، الأوضح فكرة، الأطوع لتشقيق المعاني، الأقوى على التخيل والإبداع، الأملك لعنان الفكر، الأثبت في وجه الغزو اللغوي - الحضاري.

ولأن الحروف - أي الأصوات - هي لبنات الألفاظ، تستطيع أن تقول: إن اللغة الأقدر على نحت جذور الألفاظ، هي اللغة الأكثر احتواء لكافة الأصوات المفردة الممكنة، أي: الأوفر أصواتًا وحروف نطق.

وتستطيع أن تضيف إلى هذا أن اللغات الصرفية ذوات الأوزان، كما هو الحال في اللغات السامية وأمها العربية، هي وحدها - دون اللغات الغروية - الأقدر على تمثيل الألفاظ الأعجمية وهضمها؛ لأنها - وبالذات اللغة العربية - لا تقبل اللفظ الأعجمي على صورته في لغته، وإنما تعربه فتجانس بين حروفه على مقتضى مخارج أصواتها، ثم تقولبه في قوالبها وتصبه في أوزانها، ثم تشتق منه، وتتصرف فيه، حتى يبدو اللفظ الأعجمي لغير المتخصص وكأنما ولد عربيًا لأب عربي.

واللغة العربية في هذا كله - دون سائر اللغات - فرس لا يداني؛ لأنها الأكثر حروفًا،

الأغزر جذورًا، الأوفر أوزانًا، الأضبط نحوًا وموازين صرف، ولكنها أيضًا - ولنفس الأسباب - اللغة الأقمن باشتباه الأعجمي فيها بالعربي؛ لأن اللفظ المنقول إليها ذابت عجمة معناه في عروبة صورته بعد تعريبه[1].

* * * *

على أن النقلة العرب في العصر الحديث، لا سيما في نصف هذا القرن الأخير، لم يلتزموا قواعد التعريب التي تقتضيها أوزان اللغة العربية ومخارج أصواتها: عربوا (الخط) ولم يعربوا (اللفظ)، فأساءوا ولم يحسنوا. وقد مهد لهذا - رغم جهود محو الأمية ونشر التعليم في عصرنا - شيوع العامية وتراجع الفصحى على الألسنة، لا في لغة الحديث اليومي فحسب، بل وفي الخطابة وفي الإذاعة والتلفزة، حتى استجازتها الصحف فتسللت إلى أقلام أهل الفكر والفن والأدب، وحتى أصبح استيعاب قواعد النحو والصرف والإعراب وتعلمها وتعليمها، على بساطتها في العربية وانضباطها، مشكلة كبرى لجمهرة المثقفين أنفسهم، فما بالك بغيرهم؟

بمثل هذا - وقد بدأ بالفعل - تستحيل اللغة رطانة شائهة هجينة، تعتجم على القائل والسامع. والذي تَشُوه لغته وتعجم لا يحسن القول ولا يحسن الفكر، ومن ثم لا يحسن التلقي ولا يحسن العمل؛ لأن اللغة ليست أداة التعبير فحسب، ولكنها أيضًا - وبالدرجة الأولى - أداة العقل والفكر[2].

(١) قارن في هذا السياق (ساذج) المعربة عن الفارسية (ساده) بمعنى النقي الخالص، وأيضًا الاسم اللاتيني (كيسر) المعرب إلى (قيصر)، والاسم الإسباني (رذريجو) المعرب إلى (لذريق)، وغيرها كثير. ومن متحذلقة (الأساتيذ) في هذا القرن الذين أدركتهم عجمة العلم واللسان من عاب على القدماء، فرماهم بالجهل أو ظن بهم الخطأ، ولا يدري أنه مقصود.

(٢) أولى بمن لا يحسن التفكير والتعبير بلغته ألا يحسن التفكير والتعبير بغيرها. من ذلك ما تسمعه من محدثك في الإذاعة والتلفزة الذي يردف لك اللفظ العربي بما يظنه المقابل الأعجمي، وكأنما يريد أن يثبت المعنى في ذهنه وذهنك.

والغريب أن دعاة (التحضر) في هذا العصر، لا يعيرون هذه (القضية الحضارية) التفاتًا. والأعجب أن دعاة القومية (العربية) في هذا العصر - واللغة العربية عنصرها الأول والأهم - هم دعاة (التغريب) أيضًا. ويا له من تناقض!

على أن اللغة العربية - والقرآن كافلها وكفيلها - أكرم على الله عز وجل من أن تهان، وأسمى من أن تبتذل، وأقوى من أن تهزم، وأخلد من أن تبيد.

تلك كبوة حضارية عابرة، ليست القاصمة. وكم صادف أهل القرآن كلما تنكبوا صراط القرآن كبوات.

لن تقوم الساعة حتى يتلى القرآن عربيًّا فلا يفهم، ويدعى به فلا يستجاب.

فهل آن لأهل القرآن أن ينتبهوا من غفلتهم، فيردعوا سفهاءهم؟

قال ﷺ يأمر أهل القبلة: «**أيها الناس، إن لكم معالم، فانتهوا إلى معالمكم!**».

نعم. لا علاج لهذه القضية الحضارية إلا العلاج الحضري الشامل. وهو لهذه الأمة - كما كان لها في كل زمن - عودة أهل القبلة إلى قبلتهم، أي ثوبان المسلمين إلى قرآنهم الذي اتخذوه اليوم وراءهم ظهريًّا..

فالآن الآن... وإلا فلا.

أما كيف السبيل وما المنهج، فالحديث في هذا يطول، ليس موضعه بالطبع هذا الكتاب، وإنما عليك به في كتاب آخر، مدققًا مفصلًا، ولنرجع نحن الآن إلى ما كنا فيه قبل هذا الاستطراد، لنصل ما انقطع.



(٥)

مر بك أن اللغات يلقح بعضها بعضًا، ويستعير بعضها من بعض، وهو تلاقح محمود، فوق أنه محتوم.

وهو محتوم لا مناص منه؛ لأنه ناشئ عن احتكاك القبائل والشعوب بعضها ببعض سلمًا أو حربًا، يموج بعضهم في بعض، ويجوس بعضهم في ديار بعض، فيعرفون وينكرون[١]: يعرفون ما ألفوا له مثيلًا في قومهم، وينكرون ما لم يسبق لهم به عهد، حسن أو قبح، ويعود كل إلى أهله بما رأى وسمع.

هب أنك عربي عاش في قرون خلت، زرت الصين فقدم لك أهلها شرابًا قوي النكهة، حسوته فاستطبته، فسألت عنه، فقالوا لك: هذا شا![٢] فقلت في نفسك: ما أطيب هذا الـ (شا)! وما عتمت أن رجعت إلى أهلك وفي جرابك بعض من هذا النبت العجيب، تغلي لهم ورقه، وتديره على جلسائك، يحتسونه ويستطيبونه، كما استطبته أنت من قبل، ويسألونك عنه فتقول: هذا (شاي)! أضفت الياء من عندك ليستقيم لك الوزن العربي الذي مرن عليه لسانك. على هذا النحو أو قريب منه عرف العرب (الشاي)، الاسم والمسمى. وقس في المقابل على الشاي ما شئت من مثل (جمل) العربية التي صارت *Kamelos* في

---

(١) نكِرت الشيء يعني انبهم عليك فلا تدري ما هو، ومنه تنكر بمعنى تخفي وتجهل، لا يريد أن يتعرف لك، أي لا يريد أن يبدو منه ما (تعرفه) به. ومن هذين أيضًا (المعروف والمنكر): المعروف هو المأنوس الذي طابق العادة والإلف، والمنكر هو المرذول الذي خرق العادة والإلف.

(٢) تنطق أيضًا شينُها تاء في حوالي ١٠ في المائة من اللهجات الصينية، ومن هذه جاءت *Tea* الإنجليزية و*The* الفرنسية... إلخ.

اليونانية و *Camelus* في اللاتينية، و*chameau* في الفرنسية و*Camel* في الإنجليزية... إلى آخره. من هذا أيضًا أن اليونان ما كان لهم أن يسموا (الواحة) قبل أن يروا الصحراء، وما كان لهم أن يروا الصحراء قبل أن يزوروا مصر، ومن هنا (*Oasis*) اليونانية التي انتقلت بنصها إلى اللاتينية وبناتها والآخذات عنها، وهي في الأصل مصرية قبطية.

هذا التلاقح اللغوي المحتوم، محمود أيضًا؛ لأنه يثري اللغة المستعيرة بما يحتاج أهلها إلى اصطناعه، مما ليس لديهم، اسمًا ومسمى، وهو مقبول مشكور بالذات في أسامي النبات والحيوان والجماد، مما سبقك غيرك إلى تسميته، ومثلها أسامي الأطعمة والألبسة والعدد والأجهزة... إلخ، متى اصطنعت المسمى فلا بأس عليك من استعارة التسمية. التوقف في هذا عقيم مرذول، فوق أنه تنطع ونفاق: كيف تأنف من تسمية (الفالوذج) فارسيًّا معربًا وأنت تسرطه سرطًا[1]؟ وكيف تأنف من قول (رابوت) تعريبًا على وزن (تابوت) تلك اللفظة التشيكوسلوفاكية *Robot*، (التي لم يأنف من استعارتها أصحاب الحضارة الغالبة)، ولا تخجل من تشوفك إلى استخدام (الروابيت) في مصنعك، تريد (الروبتة) ولا تريد (الرابوت)؟ لو أردت الترجمة بالمعنى – و *Robot* التشيكوسلوفاكية معناها (الخادم) – لابتعدت عن ذلك اللفظ السقيم المركب – الإنسان الآلي – (الخَيْشُبان) في قصصك الشعبي – لأن (الرابوت) ليس بإنسان وليس بالضرورة على شكل إنسان – ولقلت مثلًا: (العفريت) (خادم الخاتم في قصصك الشعبي). ولكن هذا وذلك لا يصلحان لأنهما كليهما يشتبهان بمعان أخرى في لغتك، فلا يؤمن الخطأ واللبس على السامع والقائل، كما قلت في (التليفون): (الهاتف)، ولو شهده العرب القدماء لقالوا فيه: (طلفان)، ولاشتقوا منه فعلًا ومصدرًا (طلفن – طلفنة)، يبدلون من التاء في الجذر طاء كيلا يشتبه بمادة الجذر(تلف). هذه هي شروط (التعريب) الجيد المقبول في العربية:

(١) اختزال أحرف اللفظ الأعجمي إلى جذر رباعي – على الأكثر – كي يتاح الاشتقاق منه.

---

(١) سرط الطعام يعني التهمه.

(٢) تهذيب أصواته، أي حروفه، على مقتضى مخارج الأصوات العربية.

(٣) تجنب اشتباهه بجذر لفظ أصيل في لغتك.

إن لم يتسن لك ذلك كله مجتمعًا، فالترجمة أولى.

أما السقيم المقبوح، فهو استعارة أهل اللغة من أصحاب الحضارة الغالبة لفظًا أعجميًّا لا يحتاجون إليه، وعندهم مثله، كمن أراد العدول عن تحية الإسلام إلى تحية الجاهلية، فقال: (بُنْجُور *Bonjour* الفرنسية)، ولديه في لغته: (عِمْ صباحًا)، (وأصلها نعمت صباحًا)، وهي طبق الأصل من تلك، وتستطيع أن تجزم - كما أجزم - بأن هذا القائل بغير لغته في (بنچور) وأمثالها هو نفسه الذي يقول لك: لا مشكلة! (*No problem!*)، يريد: لا بأس! وهو في الحالتين - الرطانة والترجمة - ببغاء يهرف بما لا يعرف.

على أن الحديث عن أسباب هذا (التعريب) الببغاوي ونتائجه، ليس من مقاصد هذا الكتاب، وإنما الذي نعنى به هو ذلك التلاقح المحمود المحتوم بين اللغات، قديمها وحديثها.

* * * *

في التقليح والاستلقاح دلالة تاريخية - حضارية لا تخفى، ليست هي في كل حال أخذ التابع عن المتبوع، والمغلوب عن الغالب، فقد يأخذ الغالب عن المغلوب، والمتبوع عن التابع (كما في (بطاطة) التي استعارها الغزاة الأوروبيون عن أهل الأمريكتين، وكما (تفلسف) الرومان اللاتينيون على أيدي أرقائهم اليونان، مثلما أخذ اليونان عن القبط، والعرب عن الصين على ما مر بك). بل قد تتجاور الحضارات على استواء تجاور الأنداد، فيفضي بعضهم إلى بعض، دون استعلاء أو غضاضة، مثلما تجاور الفرس واليونان، والهند والصين، وآشور ومصر. الدلالة التاريخية - الحضارية للتلقيح والاستلقاح في اللغات، أي: دلالة السبق إلى المعنى بدليل السبق إلى اللفظ، لا سيما في المعاني المجردة مثل (تفلسف)،

وأسامي العدد والأدوات مثل (المنجل)، هي دلالة الأقدم وجودًا، الأسبق ارتقاء، الأفعل تطورًا: إنها دلالة الأستاذية أو التلمذة.

وإذا جاز لعلماء التاريخ ومؤرخي الحضارات الاستعانة في تأصيل مقولاتهم بهذا الشاهد اللغوي في جملة ما يتاح لهم من شواهد الأحافير والنقوش والمخطوطات، فليس من شأن اللغوي المحقق أن يفعل العكس، فيستدل بسبق حضاري مزعوم على سبق لغوي مفترض، بل عليه أن يترك لمؤرخي الحضارات مهمتهم، ويستقل هو بمهمته، فيبني مقولاته استنادًا إلى مباحثه اللغوية وحدها، غير متأثر بمقولات المتخصصين في غيرها؛ صحيحها ومنحولها، مغرضها وبريئها.

أصالة اللفظ في اللغة تبنى، أول ما تبنى، على وجود جذر أسبق منه، يستخدم فيها بمعان متعددة متقاربة يتوالد بعضها من بعض، نحت منها اللفظ المختلف عليه مادته.

من ذلك، مادة الجذر (قلم) بمعنى قطع وبرى. إنها الأصل العربي لأداة الكتابة الموصوفة في القرآن بالقلم [العلق: ٤]، فالقلم هو المقطوع المبري، أي: المحدد طرفه، والقلم أيضًا من أسماء (الزلم)، أي: العود يستقسم به، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[1]، وزلمه يعني قطعه، والقالم يعني العزب المنقطع عن الزواج. والقلامة هي ما يقطع من طرف الظفر والحافر والعود. وقلم الشجرة يعني أخذ من أطرافها لتقوى، فالقلم أيضًا بمعنى الغصن أو العود المقطوع من أمه، ولا شك أنه قبل اصطناع المداد، كان القلم من هذه العيدان، لا من القصب واليراع[2]، هو أول ما كتب به على عسيب النخيل ولحاء الشجر، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾[3].

لفظ القلم إذن، الذي وصفت به أداة الكتابة في السورة التي سميت باسمه ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[4]، وأداة العلم والتعلم في أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

(٢) اليراع هو مطلق القصب (نبات القصب)، أو هو رقاق القصب.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٤) سورة القلم، الآيتان: ١، ٢.

ﭐلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[1]، لفظ عربي أصيل، منحوت من جذر عربي أصيل (ق - ل - م)، تدور معانيه على القطع والقط، وليس من حذاق اللغويين من توهم أن لفظة قلم الموضوعة في العربية لمطلق أداة الكتابة أيًا كان شكله ومادته - أي اسم جنس لكل ما يكتب به - لفظة مستعارة من اليونانية (كلمس) *Kalamos* لمجرد التشابه بين اللفظتين:

أولًا: لأن (كلمس) هذه في اليونانية لا تعني القلم بالذات، أي ليست هي في اليونانية اسم جنس لمطلق القلم، وإنما هي تعني القصبة واليراعة، ولا شك أن الناس قبل اصطناعهم القلم من القصب - والعرب بعض الناس - كتبوا بكل ما ينحت وينقش ويخط، بل كتب المصريون القدماء بالأزميل، وكتب الإنسان أول ما كتب بإصبعه مجردًا، وليس اليونان أول من كتب، بل إنهم تعلموا فن الكتابة من عرب الشمال (الفينيقيين)[2]، بدلالة لغوية قاطعة، وهي اصطناعهم الأبجدية الفينيقية برسومها وأسامي حروفها. والذي ينتحل الخط لا يبعد أن يستعير من أستاذه القلم.

وثانيًا: لأن العرب حين اتخذوا القلم من القصب بعد عصر القرآن سموا هذا النوع من الأقلام باسمه النوعي: (اليراعة)، وما كان لهم أن يستعيروا اسمه النوعي من اليونانية (كلمس) بمعنى القصبة أو اليراعة، ولديهم المقابل العربي الأصيل، إلا إذا زعمت أن العرب بالمعنى العام، أي سكان شبه الجزيرة، لم يعرفوا القصب - ذلك النبت الأنبوبي الذي يفشو في المناقع ومجاري الأنهار - قبل أن يعرفه اليونان، والعرب بالسبق إليه أشبه، وبالتعرف عليه عند أصحابه - جيرانهم المصريين - أولى.

وثالثًا: لأن اليونان حين اتخذوا العصي من كبار القصب، لم يسموا تلك العصا (كلمس) - أي القصبة - ولكنهم سموها (كنا) *Kanna*، أخذًا عن الفينيقية (قَنُو)، وهي نفسها (قنا) العربية، اسم جنس مفرده (قناة).

---

(١) سورة العلق، الآيات: ٣ - ٥.

(٢) فينيقيا هو الاسم الذي أطلقه اليونان قديمًا على من في قبالتهم من أهل الشام، وهي من (فوينوس) *Phoinos* اليونانية بمعنى الأحمر الداكن، ومن هذه *Phoinikas* اليونانية بمعنى (النخلة). فكأن الفينيقيين عند اليونان هم (أصحاب النخيل) أو هم (السمر في حمرة)، وكأنها من (أدومي) العبرية (جيران لبني إسرائيل)، قارن: (آدم) العربية، بمعنى الشديد السمرة، وهذا نفيس، فتأمله.

ومن هذه العصا ذات (العقل) اتخذ اليونان المقاس الذي تقاس به الأطوال[1]، وتوسعوا فقالوا *Kanon*، أي القانون الذي يقاس به ويقاس عليه. ها أنت ترى أن (القانون) لفظة عربية الجذر يونانية الاشتقاق فحسب، ولو كانت (كلمس)، بمعنى القصبة، أسبق وجودًا في اليونانية لقالوا في معنى القانون: (كلمون) *Kalamon* ولما قالوا (كنون) *Kanon*، بل لما استعاروا (قنو) الفينيقية أصلًا.

كان هذا بحثًا لغويًا مجردًا، أردناه مثالًا لكيفية التدليل على عجمة لفظة ما أو أصالته في لغة بعينها، لا نستطرد منه الآن إلى أمثال (الصراط)[2] و(القسطاس) و(إبليس)... إلخ، عند من قال بعجمتها في عربية القرآن من أدعياء الاستشراق المتطفلين على مباحث اللغة، الذين خبطوا في القرآن خبط عشواء - بعد أن أنكروا على القرآن أن يكون من عند الله، واستعظموا في الوقت ذاته على محمد ﷺ أن يستقل (بصنعه) دون أن يعينه عليه قوم آخرون - فخاضوا على غير علم في إثبات عجمة العديد من ألفاظه، استدلالًا بعجمة اللفظ على عجمة الفكر، فما أثبتوا إلا جهلهم وجهالتهم، وماتوا بغيظهم، وقد تابعهم للأسف أشياع لهم مسلمون عرب فيهم من تجله وتوقره، بل من لا تشك في علمه وإسلامه وعروبته، فلا تملك إلا أن تستغفر الله لهم.

وإذا كنا نعيب هذا التخبط وهذا الإسراف، فنحن لا نقصد إلى تنزيه العربية عن الاقتباس من غيرها، وقد مر بك أن التلاقح بين اللغات أمر محتوم، فوق أنه محمود مقبول حين تدعو

(١) عرف العرب (القصبة) مقاسًا للأطوال، وعرفها العبرانيون أيضًا، ولكنهم اشتقوها من (قني) العبرية - وهي (قنا) العربية - فقالوا: ((قَنِي هَمِّدا)) أي قصبة القياس (هَمِّدا = المدى). انظر أسفار العهد القديم في نصها العبراني: حزقيال ٤٠/ ٣ على سبيل المثال.

(٢) السِّراط (صراط في القرآن) مأخوذ من الجذر العربي (سرط)، و... انسرط الطعام في الحلق: لان وسهل فمرَّ سريعًا، فالسراط هو الطريق الواضح، لا عوج فيه ولا أمت، تسلكه ذلولًا مذللًا، وقريب منه اشتقاق (السبيل) فهو الرخي المرسل. وليس (الصراط) من ستراتا *Strata* الرومية اللاتينية (ومعناها (المرصوفة) أي الطريق المرصوفة *strata Via*)، فلم يعرف العرب الطريق المرصوفة حتى يصطنعوا لها اسمًا، وليست السهولة في (صراط) العربية من الرصف، بل من الاستواء والاستقامة.

إليه الحاجة. بل لا تخلو معاجم أي لغة من ألفاظ أعجمية الأصل. وليست العربية بدعًا بين اللغات. فلا غضاضة في هذا على العربية أو على غيرها.

ونحن ابتداء - ولنفس السبب - لا نحيل على القرآن أن يصطنع اللفظ (الأعجمي المعرب)، فليس هذا مما يقدح في عربية القرآن، وإنما هو يجليها؛ لأن الأعجمي المعرب بمجرد سيرورته على اللسان وإيناسه في الأذن، تنفك بالتعريب عجمته، وتستبين دلالته، فيصير (عربيًا)، أي يفهمه العربي القح مباشرة، لحظة يقرع مسمعه. أما (الأعجمي الأعجم) الذي يقع في سمع العربي غريبًا بجرسه، مستغلقًا بمعناه، لا يفهمه إلا أن يترجم له، فمحال وقوعه في القرآن، دع عنك سماعه في أي قول فصيح.

ونحن كذلك - ولنفس السبب - نحيل على القرآن (اختراع) ألفاظ أعجمية لا سابقة بها للعرب ولا عهد، يلتقطها من الأعاجم ويعربها للعرب، فالأعجمي المعرب يظل أعجميًا أعجم حتى تنفك عجمته بطول الاستعمال.

ثم.. ما حاجة القرآن إلى التعاجم على العرب بألفاظ من مثل الصراط والقسطاس[1]، ولديه في الفصحى جم وفير من الألفاظ في معنى (الطريق) ومعنى (العدل والميزان)؟ وإذا كانت (الصراط) و(القسطاس) من محدثات القرآن - وهما كذلك بالفعل - فهل اعتجمتا على العرب، أم فهموا على الفور أن الأولى من السراط والثانية من القسط؟ أم ظل العرب قرونًا لا يفهمون معنى القسطاس على سبيل المثال حتى فسرها لهم ذلك الدعي المستشرق[2]؟

---

(١) مر بك اشتقاق الصراط. أما القسطاس فهو من القسط، كررت فيه السين تفخيمًا وتغليظًا. والقسطاس أيضًا اسم جنس للميزان العدل لا جمع له، وإنما يجمع - على المعنى - بعبارة الموازين القسط، كما في قوله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. والجذر (قسط) أصيل في العربية، تجد له في الفصيلة السامية قرينًا من العبرية، وهو (قشط) الذي اشتقت منه (قاشاط) العبرية بمعنى الميزان.

(٢) ظنها الشقي من *Justus* اللاتينية نعتًا لما هو حق وعدل، وتندهش كيف خفي عليه أنها تبدأ بالحرف *J* الذي ينطقه اللاتين ياء، فهي عندهم (يستس) لا (جستس) التي تحورت ياؤها جيمًا الآن في الإنجليزية والفرنسية والإيطالية.

بل قد فهم العرب هذا وأمثاله منذ أن تلي عليهم؛ لأنه على جدته في الأذن - عربي الاشتقاق، يرده العربي سليقة، فور سماعه، إلى جذره المشتق منه. ولو كان لفظًا أعجميًّا اخترعه القرآن في كلام العرب - لم تتحقق له سيرورة الأعجمي المعرب - بده أسماعهم، لما فهموه قط إلا أن يترجم لهم.

ثم... ماذا يريد ذلك الدعي المستشرق وأضرابه وأشياعهم؟ أينعون على القرآن أن أعيته العربية فتَسقَّط كلام العجم، أم يعيبون على العرب أن جهلوا معاني الصراط والقسطاس حتى ساروا في (صراط) بروما أو ابتاعوا بالموازين (القسط) في أسواقها؟

ألا ما أسخف هذا الكلام وما أحمقه!

ما أكثر ما خاض كفار قريش في مقام النبوة، وكم سفهوا وتسافهوا. ولكنهم ما جرؤوا في لدادتهم أن يمسوا القرآن بسوء، لا تقصيرًا ولا تعففًا. بل لو وجدوا في القرآن مغمزًا لما عفوا وما أقصروا. ولكن القرآن أعجزهم أن ينالوه بسوء، ولو ادعوا عليه العجمة لافتضحوا بين العرب.

بل ما أكثر ما قالوا - وقال الذين لا يعلمون مثل قولهم -: إنما يعلمه بشر. ما قالوه إلا إعظامًا لشأن القرآن - الذي أنكروا عليه الوحي - أن يعلم علمه عربي من العرب، ولكنهم سقطوا وأفحموا. قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[1]، أي لم تكتفوا بإنكار الوحي على القرآن، وإنما استكثرتم على النبي العربي أن تنحلوه إياه، فكيف بعيي أعجمي يلقنه كتابًا هو لب العربية ولبابها؟

هذه القدرة الفذة المذهلة على تعريب أعجمي القرآن وتفسيره بأدق معانيه - كما سترى - وهذا العلم المحيط في لغات درست بألفاظ يحار فيها إلى اليوم علماء اللغات وأحبارها، وهذا التصويب المعجز - كما سترى - لما وقر في وهم كتاب الأسفار وشراحها، أنى لبعض هذا أن يعلمه بشر؟

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

ولكن من دهاقنة هؤلاء الأدعياء من يدس لك السم في العسل، وربما استهواك العجب زهوًا بنبيك، واستخلفك الشيطان فطربت وانتشيت وهو يطري لك خير البرية دون أن يصليَ عليه: كان محمد أفصح العرب، وأحفظهم لما يسمع. كان محمد أبصر الناس بصيرة، وأقدر مصلح اجتماعي على صنع التغيير. كان محمد أعظم من قاد مسيرة التاريخ.. كان محمد عبقريًّا بين البشر!

نعم، كان ﷺ - بفضل من الله ونعمة - العبقري الفذ في تاريخ البشر.

ولكن.. حذار! لعبقرية البشر حدود، تتقاصر - مهما تطاولت - دون قطوف عظمة هذا القرآن وأكنافها.

أنت بإزاء عظمة هذا الكتاب المعجز أمام أمرين اثنين:

إما أن تصدق محمدًا في دعواه لوحي من الله، أو تؤله محمدًا!

ولكنك إن ألهته - معاذ الله - فقد كذبته، واستصغرته وتقمأته؛ كيف تؤله من ادعيت عليه الكذب؟

تلك هي المعضلة الكبرى أمام كل خائض في هذا القرآن، وهذا النبي.

وهي بذاتها أيضًا - ولله على عباده الحجة البالغة - وجه من وجوه إعجاز هذا القرآن، لمن أراد أن يتأمله.



الفصل الثاني

الأعجمي المعنوي والأعجمي العلم

(١)

الأعجم أصل معناها (الأعوج)، من عجمه يعني لواه، ومنه عجم عوده، أي ثناه، يختبر صلابته. واعتجم عليك الكلام، واعتجم عليك اللفظ، أي التوى، فلا يستقيم له معنى عندك. ومنه أيضًا (العجماوات)، أي البهائم، التي تعتجم عليك أصواتها، أي تنبهم، فلا تفهم عنها ما تريد، ولا تعي ما تحاول هي أن تفصح عنه، فتظن بها البله، أو تظن بها الحبسة، وهي تتكلم بكلام لا يفهمه إلا بنات جنسها وحدهن[١]، كما لا تفهم أنت إلا كلام بني أمتك، إلا أن تتعلم لغة غير لغة أهلك. وصدق الحق سبحانه إذ يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾[٢]، ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾[٣]، ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾[٤].

وسمي (الأجنبي) أعجميًّا، لأنه يتكلم لغة لا تفهمها. أنت أيضًا (أعجمي) عنده لأنك لا تفهم ما يقول، أو لأنك تقول ما لا يفهمه هو.

واللفظ (الأعجمي) هو اللفظ بلغة أعجمية، لا تفهم معناه، إلا أن تتعلم تلك اللغة، وهو أعجمي أيضًا لأنه يلتوي به لسانك. إنه في الغالب الأعم لفظ لا تستطيع النطق به على أصل وضعه عند أصحابه: ربما ثقل عليك وزنه، وربما حوى أحرفًا لا مقابل لها

---

(١) يكفيك في هذا قوله عز وجل: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ [النمل: ١٨]، وأيضًا قوله عز وجل على لسان سليمان بن داود عليهما السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: ١٦].

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٣) سورة النور، الآية: ٤١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

في أصوات لغتك، فتحتال على نطقه قدر ما تستطيع، ولكنك لا تستطيع الاستمرار في المحاكاة والتقليد فتعود إلى سليقتك، وتنطقه محرفًا، بعد أن تهذبه وتنقح فيه، حتى يستقيم لك نطقه على وزن (عربي) بأصوات (عربية): ربما أسقطت حرفًا أو حركة، وربما زدت فيه أو أبدلت منه.

والأعجمي المنقح على هذا النحو - أي المصبوب في قوالب العربية وأوزانها، يسميه اللغويون (الأعجمي المعرب). وفي هذه التسمية إشارة إلى أن الأعجمي المعرب يظل أعجميًّا أيضًا بعد تعريبه، لا بحكم ما كان عليه؛ فقد استعرب لك، ولا بحكم دلالته على مسماه؛ فقد استبان المسمى، ولا بصورته؛ فقد استقامت على موازين العربية ومخارج أصواتها، وإنما هو يظل أعجميًّا بمادته، أي بجذره الأعجمي المشتق منه في لغة أصحابه، وهو جذر لا مفهوم له عندك. بل أنت تدرك من الأعجمي المعرب معناه في مجمله، ولا تدري مم نحت لفظه، أو تركب كي يؤدي هذا المعنى.

خذ مثلًا لفظة (سجيل)، ذلك الرجز الذي وقع على أبرهة وجيشه: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ [1] كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[2]، وعلى قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[3]. أنت في (سجيل) تقف عند المعنى العام. ولكنك لو أخذت برأي من قال: إن (سجيل) معربة عن الفارسية (سكيل)، بمعنى الطين المتحجر (سك = جاف، كِيل = طين) لأدركت ماهية السجيل ومادته في أصل معناه.

---

(١) أي السجيل جعلهم، لا الحجارة، بدلالة بناء الفعل للمفرد المذكر، السجيل إذن شيء ماديٌّ ما يرمى به، وليس واديًا في جهنم، أو سجل عذاب الكفار، كما تقرأ لبعض المفسرين، ربما استطعت إسناد هذا الفعل المفرد المذكر إلى ﴿رَبُّكَ﴾ في أول سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ...﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ ...﴾، ولكن ما قولك في ﴿سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ في الآية ٨٢ من سورة هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾؟ لا يوصف الوادي بأنه منضود، والسجيل كذلك.

(٢) سورة الفيل، الآيات: ٣ - ٥.

(٣) سورة هود، الآيتان: ٨٢ - ٨٣.

ومن طرائف الأعجمي المعرب أنه يعتجم على أصحابه الأصلاء حين ترد إليهم بضاعتهم (منكرة) متحورة: هب مثلًا أنك ممن يرون أن (المقوقس)، عظيم القبط، معربة عن اليونانية (مِجِسْتُس) *Megistos* (ومعناها (الأعظم)). وهبك أيضًا كلفت بترجمة رسالة النبي ﷺ إلى ذلك اليوناني المتمصر، أفتترك في ترجمتك اليونانية لفظ المقوقس على حاله أم ترده إلى أصله اليوناني (مجستس)؟ إن لم تفعل فلن يفهم عنك المقوقس ما تقول. وهبك كلفت بترجمة رد المقوقس على النبي، أفتقول في ترجمتك العربية: من (مجستس) إلى محمد ﷺ؟ إن فعلت فلن يفقه قارئك العربي ما تريد. وقل مثل هذا في رسالته ﷺ إلى عظيم الروم (هرقل)، وأصلها بالرومية هركليوس *Heraclius*، إمبراطور بيزنطة آنذاك، وإن كان المخاطب بها في واقع الأمر والي هرقل على الشام.

من هنا ترى أن اللفظ الأصيل في بلده حين يرتحل غريبًا في غيرها، يعود إلى أهله - حين يعود - بغير الوجه الذي ذهب به فينكرونه. شأن المغترب في مهاجره، يطول مكثه فتغيره السنون، قلقًا في مهاجره، قلقًا في أهله.

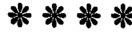
استعرب الأعجمي إذن للعرب، فاستعجم على أهله حين اهتجن.

على أن المستعرب يغدو عربيًا بالتقادم، والأعجمي في اللغة يغدو بعد ذهاب لكنته أصيلًا أو كالأصيل في مفرداتها، يخفى على غير المتخصص أصل منبته، كما ترى في لفظة (المهندس)، المأخوذة من الفارسية (هنداز) بمعنى القدر والحد، وكما رأيت من قبل في (ساذج) و(سجيل) و(المقوقس) و(هرقل) وأمثالها: الأعجمي المعنوي، والأعجمي العلم.

وهذا هو شأن أعجمي القرآن كله: معنويه وأعلامه.

والذي يستوقف النظر أن القرآن لم يسم أحدًا من معاصريه، لم يسم كسرى ولا قيصر أو غيرهما من العجم. وإنما الذي ورد في القرآن من أعلام عصره ثلاثة أسماء لا غير، كلها عربي: محمد ﷺ، ومولاه زيد رضي الله عنه، والذي تب وتبت يداه أبو لهب.

كانت الأولى فيما نرى - وقد وردت في القرآن خمس مرات إحداها بلفظ (أحمد) - تشريفًا - للنبي، وكانت الثانية تنصيصًا على دخول زيد بن حارثة بزينب بنت جحش رضي الله عنهما، وحلها من بعده للنبي تأكيدًا لبطلان بنوة المتبنى[1]، وكانت سورة المسد حكمًا قاطعًا بالتباب والخسران على شخص بعينه، وعلى امرأته حمالة الحطب، وامتناع قبول التوبة منهما، وأريد إعلان هذا الحكم لأبي لهب وقومه في هذه الدنيا، فكان لا بد من تسميته بالاسم، كيلا يختلف فيه أحد.



(١) راجع الآيات ٣٧ إلى ٤٠ من سورة الأحزاب.

(٢)

أما الذي نعنيه بالاسم المعنوي - بعيدًا عن مواضعات أهل النحو والصرف - فهو الاسم المشترك الدال بذاته على معنى ما يجتمع فيه كل أفراده لا يشذ منهم أحد، نكرة ما لم يعرف بالإضافة أو بالألف واللام، عام لا يتخصص إلا بالإضافة أو النعت، يقبل بطبيعته الإفراد والتثنية والجمع، إنه بالتحديد أسماء الأفعال والصفات، وأسماء الجنس: أحيائه وجماده.

من ذلك أن لفظة (إنسان) تصدق على كل فرد من بني آدم. أما إن عرفتها بالألف واللام فهي مطلق (الإنسان). وتستطيع أيضًا تعريفها بالإضافة فتقول مثلًا: (إنسان العين)، تعني (بؤبؤها)، أعني صورة ذلك الإنسان التي يطل بها عليك محدثك كلما حدقت في عينيه، وهي صورتك أنت انعكست على بلورية عيني أخيك. وتستطيع أيضًا أن تثني وتجمع، فتقول: (إنسانان) وتقول: (ناس) و(أناسي). وقس على ذلك أمثال الزهرة والسنبلة، والنملة والهدهد، والصخر والحديد، والسندس، والإبريسم، والديباج، والأسد، والقسورة، والبحر والجبل، والشيخ والصبي، والغني والفقير، والصغير والكبير، وقس على ذلك أيضًا أسماء الأفعال من مثل (فلسفة) التي تجمع على فلسفات، أو (تعب) التي تجمع على أتعاب ومتاعب.

لكل من الألفاظ التي ذكرت، وأشباهها، كما ترى، معنى محدد في ذهنك وذهن محدثك، إن تحدثت به إليه فإنما تريد هذا المعنى بالذات، ولا تريد (شخص) من اتصف به أو وقع عليه، فكل الجبال جبل، وكل الآساد أسد، وكل الأثرياء ثري، وكل ما كان من الجمال بوجه فهو جميل.

بل حتى إن خصصت فقلت: هذا الأسد، فقد خصصت (أسدًا) ما بالإشارة، ولم تزد على أن سميته باسمه (المشترك) بين سائر بني جنسه.

وليس هكذا أمثال (زيد) أو (عمرو).

الاسم (المعنوي) يريد المعنى ولا يريد الشخص.

والاسم (العلم)، على النقيض من هذا كما سترى، يريد الشخص ولا يريد المعنى.

* * * *

يطلق الاسم (العلم) لا يراد منه معناه، وإنما يراد منه شخص المسمى ذاته، ناسبه الاسم أو تناقض معه.

خذ مثلًا ذلك الصديق الذي لم يُرَ قَطُّ عبوسًا، بل تلقاه دائمًا أبدًا منفرج الأسارير متهلل الوجه، ولكنك لا تنفك تناديه بما سماه به أبوه، فتقول: يا عباس! أو ذلك الشيخ الذي تمادى به العمر، وهو وليد. بل كم من عبلة عجفاء، وهيفاء ليست بهيفاء، أو خديجة لم يخدج بها[1].

ورب عمرو لم يعمر، أو زيد ولا زيد ثم ولا فضل. وليست (القاهرة) لمجرد اسمها وحده بالتي تقهر دائمًا الغزاة، وإنما سميت عاصمة مصر بهذا الاسم تيمنًا فحسب.

الاسم ههنا (علم) على ذات صاحبه، والعلم من العلامة، إنه مجرد رمز ترمز به إلى شخص أو شعب أو بلدة أو موضع، يلخص في ذهنك كل ما (تعرفه) عن ذلك الشخص أو الشعب أو البلدة أو الموضع، تعلم هذا أو ذاك بتلك العلامة التي اصطلحت مع محدثك عليها كيلا تختلط عليكما الأشخاص والأماكن، مثلما يعلم الأب أبناءه بتلك الأسامي التي يطلقها عليهم، لا يريد من التسمية إلا هذا، ولو سميت ابنك عمرًا بزيد وسميت زيدًا بعمرو، أو خالفوا في التسمية بين بغداد والقاهرة، لجاز، ولكنك متى سميت، فقد خرج الأمر من يدك لا تملك له تبديلًا؛ لصقت التسمية بالمسمى وانتهى الأمر.

(١) الخداج، النقص. وأخدجت الحامل: ألقت بولدها قبل تمام أيامه، وإن كان تام الخلق، فهو خديج.

الاسم العلم إذن هو اسم (الذات) مجردة من الصفات، لا معنى له - مهما كان أصل وضعه واشتقاقه - إلا تلك (الذات) التي يدل عليها في ذهنك وذهن محدثك، لا تختلط بغيرها.

ربما ثنيت فقلت (العمران)، ولكنك عندئذ تريد أبا بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ولا تريد أي أبي بكر وأي عمر.

بل ربما جمعت فقلت (المناذرة)، ولكنك تريد (آل المنذر) ملوك الحيرة، لا كل (منذر).

ومع أن الاسم العلم يطلق على كثيرين؛ أي يطلق نفس الاسم على (ذوات) متعددة، متجاورة أو متباعدة في الزمان والمكان، وربما تكرر اسم جد الحفيد، بل في مصر (إسكندرية)، وفي الولايات المتحدة صنوها، (وفي قرى مصر) (باريس) غير (باريس) عاصمة فرنسا، إلا أنك حين تتحدث بالاسم العلم فإنما تتحدث عن واحد بعينه، لا عن كل من تسموا باسمه، تريد الشخص أو الموضع، ولا تريد (سميه).

لهذا كان الاسم العلم (معرفة) بذاته، لا يتعرف بالإضافة إلى معرفة، ولا يتعرف بالألف واللام، وإنما يتعرف بالعلمية؛ لأن الإبهام لا يرد عليه، والمقصود منه (واحد)، ربما وقعت فيه الألف واللام، ولكن هذا مجرد حشو، كما في أمثال (القاهرة) أو (الحسن)، فأنت تعني في الأولى عاصمة مصر، لا اسم الفاعل المؤنث من (القهر)، ولا تقصد من الثانية صفة (الحسن)، وإنما تريد الحسن بن علي رضي الله عنهما، وربما جازت الإضافة في الاسم العلم، كما في (نيل مصر)، ولكنك تريد ذلك (النهر) الذي في (مصر)، فلا (نيل) في غيرها. كما تقول: (قاهرة المعز)، ولا (قاهرة) في ذهنك وذهن محدثك إلا هي.

من خصائص الاسم العلم أنه لا يوصف إلا على الخبر أو على البدل، ولا يوصف على النعت، لأن النعت يخصص، والاسم العلم متخصص بذات (علميته) لا يحتاج إلى مخصص. من ذلك قولك: (الله أكبر)، على الخبر، تنزه ذات الله عز وجل عن المثيل

والند، ولا تقول: (الله الأكبر) على النعت؛ لأن معنى هذا أن ثمة آلهة الله أكبرهم، وهو لغو أو تجديف، بل زلة ينقطع دونها اللسان، أشبهت بها عبدة الأوثان والأقانيم. أما الوصف على البدل فمنه قوله عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1]، أي: الحمد لله الذي هو رب العالمين، الذي هو الرحمن، الذي هو الرحيم... إلخ. فالله علم على ذاته تباركت أسماؤه، وسائرها بدل منه. ينطبق هذا بتمامه على قولك: زيد وفي، على الخبر، تنبئ محدثك بصفة لمستها في (زيد)، ومثله قولك: زيد الوفي، على البدل لا على النعت، وكأنك قلت: زيد، هذا الوفي... إلخ. متى نعت فقد لقبت على البدل من المنعوت، تؤكد لمحدثك ذاتية زيد الذي تعنيه، كيلا يختلط (الأزياد) عليه، كما في (محمد الفاتح) أو (الحسن البصري)، وكما في (الحسن بن علي) رضي الله عنهما. كل هذا على البدل لا على النعت.

على أن للاسم العلم - فوق اختصاصه بالدلالة على ذات صاحبه - معنى ما كان بالتأكيد وراء اختياره علمًا على أول من تسمى به، ثم جرى من بعد في أسماء الناس؛ ربما لمعناه، وربما لجرسه، وربما إعزازًا لعزيز تسمى به أو عظيم في أمتك ذي شأن. ربما جال بخاطرك هذا كله أو بعضه وأنت تختار اسمًا لمولود ولد لك.

ولكنه يمحي تمامًا من ذهنك بعدما اخترت وسميت، فلا يبقى لديك من معنى الاسم إلا جرسه، وإلا دلالته في سمعك وسمع محدثك على (ذات) المسمى، أي لا يبقى من الاسم إلا ذلك (الصوت) الذي تطلقه فيستجيب المنادى به، وكأنك حين تقول: يا زيد! لا تعني إلا (يا هذا)، لا أكثر ولا أقل.

وهذا يفسر لك لماذا تنبهم على كثير من الناس - بل وعلى أصحابها أحيانًا - معاني الأسماء الأعلام؛ إما لأنهم يطلقون الاسم ولا يتعمقون معناه، وإما لأن الاسم قديم موروث ولا يستعلن بمعناه إلا للباحث العكوف المتخصص. كم من زينب لا تعرف ما الزينب[2]،

---

(١) سورة الفاتحة، الآيات: ١ - ٣.

(٢) شجر حسن المنظر طيب الرائحة. راجع في معجمك العربي مادة (زنب).

وكم من خديجة ولا تدري أنها من الخداج. بل قد يكون الاسم من أصل أعجمي يفوت معناه على صاحبه، بل وعلى أبيه الذي سماه به، لا يدري من أي لغة هو وعلام يدل؛ لأنه لم يرد المعنى أصلًا، وإنما أراد الجرس، أو أراد شخصًا عزيزًا أو بطلًا، وربما أراد شخص نبي أو أراد ملكًا، كما في جبرائيل وميخائيل (جبريل وميكال في القرآن)، وكما في يونس ويوسف ونوح وإبراهيم، صلوات الله وسلامه على ملائكته وأنبيائه، ثم تمضي القرون، وتتكرر التسمية في أجيال وأجيال، ويذوب المعنى في الجرس فينسى، ثم يندثر.

وليس هذا وقفًا على العربية وحدها، ولكنه شائع ذائع في كل اللغات: كم فرنسية تعلم أن هنرييت[١] معناها (ست الدار)؟ وكم من جورج[٢] (جرجس في مصر) يعلم أن معناها (الحارث)؟ وكم من كلود[٣] (قلدس وأقلاديوس في مصر) يعتزي فخورًا إلى قيصر تسمى به (كلاوديوس) ولا يدري أن معناها (الأعرج) أو العرجى؟ بل كم من مارك[٤] (مرقص في مصر) يدري أنها (المريخي) المزاج، أي الغضوب أو (الحربي) وأن مؤنثه مارسيل كذلك؟ وكم من راشيل (راحيل العبرية) تعلم أن معنى الاسم في العبرية هو (النعجة) أنثى الغنم؟ ربما لو توقف الناس عند معنى الاسم العلم لترددوا في التسمية، ولكنهم لا يتوقفون؛ إما لأن المعنى لا يعنيهم، وإما لأنهم جهلوه أو أنسوه.

وهذا يفسر لك أيضًا لماذا لا تجوز ترجمة الاسم العلم إلى معناها في اللغة المنقول إليها، وإنما الجائز فقط هو (تعريبه)، أي تهذيبه على مقتضى مخارج أصوات اللغة وأوزانها: يجوز لك تعريب (جيورجيوس) اليونانية إلى (جرجس)، ولا يجوز لك ترجمتها إلى (الحارث) أو الفلاح، لا تجوز لك ترجمة الاسم العلم إلا إذا كنيت وأبهمت، أو تظارفت، فقلت في

(١) *Henrieue* مؤنث *Henri* على التصغير من الجرمانية *HEINRICH* المركبة من *HEIN* بمعنى الدار، *RICH* بمعنى السيد.

(٢) جيورجيوس اليونانية المشتقة على التركيب من *GEO+ERGOS* (البادئة بمعنى الأرض واللاحقة بمعنى العامل) والمعنى: العامل في الأرض، وهو الحارث أو الفلاح.

(٣) من *CLAUDUS* اللاتينية ومعناها الأعرج. ومن هذه *CLAUDIUS* أي العرجى.

(٤) *MARCUS* نسبة إلى *MARS* أي كوكب المريخ ،إله الحرب عند الرومان.

معلقة (الحارث بن حلزة): قالها جورج بن حلزة! أو ناديت صديقك (رمسيس) (رع + مسيس المصرية القديمة) بقولك: ابن الشمس! أو أردت كمصري - مطلع هذا القرن - أن تخوض في (جورج الخامس) ملك إنجلترا التي كانت تستعمر مصر آنذاك، فقلت: الفلاح ابن الفلاح! تكني وتبهم، تخشى على نفسك سلطانه وحوارييه، وعيونه وأعوانه.

وكما لا تجوز ترجمة الأعجمي العلم إلى معناه في اللغة المنقول إليها، لا يجوز أيضًا الإبدال منه بمرادف من نفس اللغة في ذات معناه، كأن تنادي صاحبك زيدًا بقولك: يا فضل! ثق أن (زيدًا) لن يسمع منك، وإن سمع فلن يستجيب؛ ذاتيته هي (زيد) لا (فضل)، وإن تطابق المعنى.

وهذا يفسر لك أخيرًا - وهو بيت القصيد في كل ما سبق - ضرورة احتواء القرآن هذا الشطر من اللفظ الأعجمي، أي الأعجمي العلم، ضربة لازب، وهو يحدث بأخبار من لا تشك قط في عجمته ويقص عليك نبأ القرون الأولى، منذ بدء الخلق بآدم. ناهيك بالملأ الأعلى، وناهيك بيأجوج ومأجوج، وهاروت وماروت، وإبليس وفرعون، وعاد وثمود، وقوم لوط وأصحاب مدين.

وإذا كان قد وجد من علماء القرآن من ينكر البتة احتواء القرآن لفظًا أعجميًّا واحدًا، ولو كان من الأعجمي المعرب أمثال سندس وسرادق وإستبرق وقسورة. وبذلوا من الجهد، وأيضًا من الافتعال الشديد الوعر فيما يحسبونه ذودًا عن القرآن بإثبات أصالة هذا اللفظ أو ذاك في العربية ونفي عجمته، إذا كان هذا هو موقف بعض علماء القرآن من أعجمي القرآن، فهذا كله في باب الأعجمي (المعنوي)، لا في باب الأعجمي العلم، لأن العلم الأعجمي لا يصح فيه جدل.

ونحن لا نبتغي جدال هذا الفريق من العلماء في موقفهم من الأعجمي المعنوي في القرآن، وإن ألممنا به في سياق ما نكتب، لأننا في المقام الأول لا نريد أن نخوض بك في جدل يذهب بحلاوة ما هدانا الله إليه بفضل منه ونعمة، وهو تفسير أعجمي القرآن بالقرآن،

وثانيًا لأنه يخالف المقصد الأساسي لهذا الكتاب؛ لأن تفسير القرآن لأعجميه المعنوي - إن وجد - ليس فيه علم ولا إعجاز، وقد عرفها العرب (معربة) قبل القرآن لا تحتاج إلى تفسير.

وإنما الإعجاز كل الإعجاز أن تفسر في لغات شتى - بعضها دارس - علمًا أعجميًّا يفوت معناه على صاحبه، ويجهله أبوه، ناهيك بأساليب القرآن في هذا التفسير، كما سترى.

ربما خالف القرآن مبدأ عدم جواز ترجمة العلم الأعجمي كما ذكرنا آنفًا، أعني إسقاط الأصل الأعجمي جملة والإتيان به مترجمًا، على نحو ما فعل القرآن في أمثال (إدريس) و(ذي الكفل)، مما نتناوله فيما يلي من فصول هذا الكتاب.

ولكن هذه أيضًا من إعجاز القرآن. وسيأتي.



(٣)

يكثر في العبرية - كما في الآرامية - التسمية بالفعل المضارع مسندًا إلى المفرد الغائب، لا يعنون منها الفعل، وإنما يقصدون منها اسم الفاعل، وكأن (يقول) بمعنى (قائل) و(يسمع) بمعنى (سامع). ومن هنا كثرة العلم العبراني المبدوء بياء المضارعة، ومثال ذلك (يصحاق)[١] (إسحاق في القرآن) مضارع الفعل العبراني (صحق) (وهي ضحك العربية)، التي لا يقصد منها الفعل (يضحك)، وإنما يقصد منها اسم الفاعل من (ضحك)، أي (الضاحك)، وهذا هو اسم نبي الله إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وقد سمى العرب بمعناه على المبالغة، فقالوا: (الضحاك).

وللتسمية بالفعل المضارع نظير باق في العربية، تجده في أمثال (يزيد) و(يثرب) و(ينبع). والأصل في هذا أن الفعل المضارع يتضمن معنى الاستمرار، فيصلح للحال كما يصلح للاستقبال، والتسمية به تسمية على التيمن والتفاؤل، أي (يضحك) وسيظل، فهو ضاحك وضحوك.

وقس على ذلك أمثال (يعقوب) ومعناه العاقب، و(يوسف) بمعنى يزيد.



(١) الصاد السامية، كالصاد العربية، ينطقها يهود العراق صادًا على أصلها، وهو الصحيح. ودع عنك ما تسمعه في العبرية المعاصرة من مثل نطق هذه الصاد بالحرفين ت س، كما في (يتسحاق شامير). تلك (صاد) تحورت عند يهود الشتات بالنطق الجرماني للحرف Z *(tset)*. قارن أيضًا (إيزاك) **Isaac** الفرنسية بمعنى إسحاق.

والذي يستوقف النظر هو سكوت (علماء بني إسرائيل) الذين عاصروا القرآن وعايشوا مفسريه إبان الدولتين الأموية والعباسية عن (تصويب) ما وقع فيه بعض هؤلاء المفسرين الذين تصدوا بغير علم - ولا سند من قرآن أو سنة - لتفسير معاني الأعلام الأعجمية في القرآن - وخاصة أعلام أنبياء بني إسرائيل وكلها عبراني - بالعربية وحدها، فقالوا على سبيل المثال: إن إسحاق من (السحق)، ويوسف من (الأسف)، ويونس من (الإيناس)، في حين أن أبسط علم بالعبرية - ناهيك بيهودي من أهلها- يكفي كي تعرف أن يونس يعني حمامة، وأن يوسف يعني يزيد، وأن إسحاق يعني ضحوك، لا سحق ثَمَّ ولا انسحاق.

وربما بلغ بك العجب وقد علمت أن من علماء بني إسرائيل هؤلاء من أسلم على عصر الرسول حقًّا وصدقًا فحسن إسلامه، بل ومنهم من زكاه الحق تبارك وتعالى فقال فيه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾[1]، كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[2].

فكيف سكت أمثال هؤلاء عن هذا العبث، وهم من هم في العلم بالعبرية التي يتدارسون بها التوراة؟

يدفع هذا الاعتراض أن تفسير أسماء الأنبياء لم يثر على عهده ﷺ، ولم يؤثر عنه في المسألة حديث صحيح، وإذن فلم يكن بأمثال ابن سلام ومن في طبقته ورتبته حاجة إلى الرد أو إلى التصويب.

أما من جاءوا من بعدهم من يهود أسلموا فحسن إسلامهم، أو يهود أسلموا تقية ولما يدخل الإسلام في قلوبهم، أو يهود ظلوا على يهوديتهم، فهؤلاء وأولئك فرق: الفرقة الأولى مسلم حسن إسلامه فانقطعت صلته بتوراته وعبريته، والثانية يهودي أسلم على دخل يريد أن يترك وشأنه لا يُزَنُّ بريبة فيبرأ من توراته ومن عبريته، لا يسمع له في المسألة

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٠.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٩٧.

قول وإن علم، والثالثة يهودي في دار إسلام انقطعت صلته بالعبرية ولم تنقطع بالتوراة، ولكنه لا يعلم التوراة إلا (أماني)، أي: تلاوة فحسب، لا يفقه كثيرًا مما يردده في صلواته وأذكاره، شأن مسلم فلبيني لا يعرف من العربية إلا (الفاتحة) التي لقنها في طفولته ليقرأ بها في صلاته، أو شأن قبطي في مطلع القرن الرابع الهجري لا يفهم إلا العربية وحدها يقرأ في صلواته من إنجيله اليوناني، مثل هذا ينأى بنفسه عن مواطن الزلل فيحاذر الخوض فيما لم يعد له به علم.

أما الفرقة الرابعة، المعنية باللوم، أو المعنية بالتساؤل، فهم أحبار اليهود ورؤساء الملة، المتضلعون من العبرية ومن التوراة، المتقنون العربية كأبنائها ومثقفيها. لماذا سكتوا؟

أفلم يكن من بينهم من يعلم أن يوسف ليست من الأسف وإنما هي بمعنى (يزيد)؟ أوليس تفسير اسم يوسف واردًا بنصه العبراني على لسان والدته (راحيل) حين وضعته: (وتِقْرا إتْ - شِمُو يُوسِف لِيمُرْ يُوسِفْ يِهْوَا لِي بِنْ أَحِير)، (يعني) ودعت اسمه يوسف قائلة: يزيدني يهوا ابنا آخر. (أي سميته يزيد ويزيدني الله ابنًا آخر)؟[1].

هل سكتوا يأسًا أن يصدقهم أولئك المفسرون وقد وصم القرآن آباءهم من قبل بالكذب على التوراة؟

أم سكتوا ضنًّا بعلمهم أن يُعِينوا أولئك المفسرين على تصويب أخطائهم؟ أي: سكتوا ضغنًا على الإسلام وأهله أن يمنعوا من اللغو في قرآنهم؟

أم لم تكن لمفسري القرآن وأصحاب السير صلة بأحبار يهود؟

كيف وقد نقلوا عنهم ما نقلوه من (إسرائيليات) واضحة الزيف، ليس أقلها ما يروى عن (كعب الأحبار) من قوله في سورة (آل عمران): اسمها في التوراة طيبة! فلا تدري - وليس في التوراة من هذا شيء - أساءت طوية كعب فقالها تملقًا وتدليسًا، أم قالها تعالمًا بما لا يعلم؟

(١) تكوين ٣٠/ ٢٤

قل في هذا أو ذاك ما شئت، فقد كان من هؤلاء الأحبار مخلص ليهوديته، باق على وهمه، القرآن عنده مدسوس كله على الله عز وجل، حبذا لو لغا فيه بعض أهله، ولكنه يئس من مناطحة القرآن بالتوراة أو لعله جبن، فانصرف إلى توراته لا يسمع منه قول في غيرها. وكان منهم أيضًا الذي كاد للقرآن وأهله، بكتمان ما علمه الله، أو بالتزييف على التوراة، آمنًا ألا يفضحه مسلم يجهل العبرية ويصدف عن مطالعة التوراة. وكان من هؤلاء الأحبار أيضًا - لا نشك في هذا - أولئك الذين وصفهم الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[1].

أما الذي يجب أن تعلمه أنت وتطمئن إليه، فهو أن التوراة عصر تصنيف تفاسير القرآن، بل وإلى عصر جد متأخر، لم تحظ ببحث لغوي نقدي تحليلي جدير بهذا الوصف، وأن الذين ضربوا بسهم موفور في هذا البحث كانوا - على عكس ما قد تظن - مسيحيين مؤمنين أو ملحدين يرون جميعًا أن التوراة جزء لا يتجزأ من كتابهم المقدس، على خلاف ما بينهم في التفسير بالهوى أو بالعقيدة.

ولكن القرآن سبق ففصل.

ليس (يوسف) من الأسف، وليس بالضرورة (يزيد). القرآن يدلك على معنى آخر لاسم هذا النبي الكريم، الذي ائتمر به إخوته فكان (ضيف) الله في (الجب)، وكادت له النسوة والتي هو في بيتها فكان (ضيف) الله في (السجن). وشاء عز وجل - بيوسف - أن يوطئ لبني إسرائيل في مصر كي يخرج من بينهم - وليس شيء على الله بعزيز - من ينشأ في بلاط طاغوت علا في الأرض، يتخذه ولدًا ليكون له من بعد عدوًّا وحزنًا، يلتقط موسى من اليم ليدسه موسى في ظلمات اليم الأعظم بعد أن أقام الله عليه الحجة. ما كان لرسالة موسى عليه السلام أن تولد في قصر فرعون لو لم يأت الله بيوسف من قبل (ضيفًا) على مصر عند ملك يستخلصه لنفسه فيقيمه على خزائن الأرض، ويستأذن يوسف الملك فيأذن له في الإتيان بأهله إلى مصر جميعًا، ليتم الدور المقدور لهذا النبي الكريم: (إيواء) بني إسرائيل أو (حضانتهم) في مصر إلى حين؛ فتنة لفرعون سيأتي حينه، وإرصادًا له بنبي مصري، من

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

ذرية إبراهيم الآرامي - العبراني، عبر إسحاق، كما سيحدث بعد نحو ألفي سنة أو أقل، بنبي عربي من ذرية إبراهيم أيضًا، عبر إسماعيل، صلوات الله وسلامه على رسله وأنبيائه، يهدم به الله الطواغيت أجمع، على فارق في مدى ما بين الرسالتين عظيم.

نعم، كان يوسف عليه السلام (ضيف) الله في مصر، وكان عليه السلام أيضًا لبني إسرائيل في مصر (الآوي) المضيف[1].

وتندهش إذ تعلم - كما سترى - أن اسم النبي يوسف عليه السلام الذي ينطق في العبرية بكسر السين، يعني أيضًا، بنفس النطق في العبرية، (الآوي) المضيف.

فأي إعجاز، وأي علم!

* * * *

على أنك قد تلتمس العذر لأولئك المفسرين الذين اعتمدوا في تفسير أسماء أنبياء بني إسرائيل على المعجم العربي وحده، فالتشابه القوي بين جذور اللغتين من نفس الفصيلة - أي بين العربية والعبرية على ما مر بك - قمين بالأشباه، إن تصب مرة فقد أخطأت مرات، لا يكفي أن تكون لفظة (عين) العربية هي نفسها (عين) العبرية - الآرامية كي تقرر دون تثبت، ودون الرجوع إلى المعاجم العبرية - الآرامية، أن اسم زوج إبراهيم عليهما السلام (سارة) من السرور، أو أن اسم نبي الله (نوح) عليه السلام من النواح، أو أن اسم (يوسف) عليه السلام مشتق من الأسف على نحو ما قال بعضهم، كما مر بك. نعم، قد أصابوا في أن (يعقوب) من العاقبة، وهو صحيح، ولكن ما كل مرة تسلم الجرة كما يقول المثل.

وأنا أيها القارئ العزيز - إن كنت لا تعرف عبرية التوراة أو يونانية الأناجيل بما في هذه وتلك من أعلام آرامية، بل ومصرية أحيانًا - لا أريد لك أن يفوتك شيء من حلاوة بحث أريد أن أحبره لك تحبيرًا، أريد منك أن تشترط عليَّ توثيق ما أحدثك به، فلا أكيل

(١) الفعل (أوى يأوي أويًا) فعل لازم ومتعد، يصلح أيضًا بمعنى آواه إيواء، أي استضافه، وهو المقصود هنا.

لك القول جزافًا آمنًا ألا تكشف زيفي؛ لأنك لا تعلم شيئًا من أمر تلك اللغات التي ذكرت لك. ليس هذا من العلم في شيء، وإنما هو من التدليس، كمن قال لك: إن (إبراهيم) تعني (الأب الرحيم) لمجرد أنه يرى أن (رحيم) العربية تقابل (رهيم) في الآرامية، ولا تملك أن ترد عليه، فهي كما قال، لأنك لا تدري ما الخطأ وما الصواب في لغة لا تفهمها، ولا علم لك بأن (رهيم) هذه لا وجود لها في الآرامية، ولا في العبرية كذلك، وأن (الرحمة) في هذه وتلك جميعًا بالحاء لا بالهاء، كالعربية تمامًا. كان على مثل هذا القائل أن يدلك علام استند في اشتقاق تلك اللفظة التي ابتدعها في الآرامية، أو على معجم آرامي وجد جذرها فيه، أو على موضع في التوراة (أو ترجمتها العربية) يفسر معنى (إبراهيم) بالأب الرحيم. مثل هذا القائل الذي لا يحترم عقلك لا يصح أن توليه ثقتك، بل عليك أن تكون منه دائمًا على حذر في كل ما يقوله لك، بل ما أدراك أن (إسحاق) هي (يِصْحَاق) أو أن (يِصْحَاق) تعني (الضَّحوك)، أو أن (يونس) هي (يونا) وأن (يونا) يعني (حمامة)، إلى آخر ما دبجته لك أنا فيما سبق وأمثاله مما سوف يلي؟ لا تقبله مني إلا إذا وثقته لك، ورجعت بك معي إلى مراجعي فيه.

فأنا لا أرضى لك متابعتي متابعة صماء فيما أحدثك به، فتسلم لي بكل ما أقول، تاركًا العهدة علي فيما أقصه عليك، ولا أرضى لك أيضًا أن تقفز على التفاصيل سريعًا إلى نتيجة تشبع لديك فضولًا ربما استثاره عنوان هذا الكتاب، أي إلى معرفة مجملة لمعنى العلم الأعجمي في القرآن - أشخاصًا ومواضع - غير مبال بالاشتقاق والتأصيل وكأن هذا أو ذاك لا يعنيك. إن فعلت، فسوف يفوتك الكثير؛ لأن هذه التفاصيل لا تخلو من أسرار هذا اللون من إعجاز القرآن الذي أريد أن أدلك عليه.

ثق أنني لن أشق عليك بعون الله. عليك فقط بالتؤدة والأناة، وأنا ضامن لك بإذن الله ألا تمل.



على أن القرآن لا يكتفي بتفسير أعلامه الأعجمية - موضوعنا في هذا الكتاب - ولكنه يفسر أيضًا اللفظ العربي الأصيل المجعول في حكم العلم من مثل (الملك) واحد الملائكة صلوات الله عليهم، أو من مثل (الشيطان) إبليس اللعين، مما تفاوت اللغويون العرب في تحديد أصل اشتقاقه في العربية، ومن ثم تفاوتوا في تأصيل معناه لا يقطعون فيه بيقين. ولكن القرآن سبق فحسم الخلاف وأصّل المعنى.

من ذلك ما تلاحظه من تردد المعجم العربي في اشتقاق لفظة (الملك) واحد الملائكة، أو مطلق جنس الملائكة، هل هو من (الملك) و(الملكوت)، أم هو من (الإلاكة) و(الملأكة)؟ إن كانت الأولى فهو المِلْك المملوك، وإن كانت الثانية فهو الرسول المرسل.

أما (الملك) في القرآن فهي تسمية بالمصدر الميمي (مفعل) من الجذر لأك ومقلوبه ألك[1]، فهو (الملأك) على المصدر، بمعنى الرسالة والرسول، سهلت فيها الهمزة فصارت (الملك). وهي نفسها على التطابق في الآرامية والعبرية، بل وفي الحبشية أيضًا، ملاك، بإثبات الهمزة وتسهيلها، وتنطق في الآرامية والعبرية بالخاء: (ملآخ) و(ملاخ) لتحرك ما قبل الكاف كما مر بك. وعبرية التوراة لا تفرق بين (ملآخ) بمعنى (المَلَك) وبين (ملآخ) بمعنى (الرسول). وإنما هما فيها واحد، كما تجد في سفر حجاي: (وَيُّمِرْ حَجَّاي مَلآخ يِهْوَا بملأخوتْ يهوا)، أي: ((وقال حجاي رسول الله برسالة الله))[2] فتفهم أن (ملآخ) و(ملأخوت) العبريتين بمعنى الرسول والرسالة، لا (المَلَك) أو (الملكوت).

الملك والرسول إذن واحد في أصل معناهما، ولكن عربية القرآن تخصص لفظ الملك لرسل الله من أهل السماء؛ تفرقة بينهم وبين رسل الله من أهل الأرض، صلوات الله وسلامه على ملائكته وأنبيائه. ولعلك تلمس هنا الدقة البالغة لهذا القرآن من نصه في سورة الأحزاب على (خاتم النبيين) ولا يقول (خاتم الرسل)، ليس فقط اكتفاء بدلالة العام على الخاص كما

(١) لأك ومقلوبه ألك - بنفس المعنى - يعني أرسله برسالة.

(٢) حجاي ١١:٣.

مر بك[1]، وإنما وبالأخص لأن محمدًا ﷺ إنما ختمت به الرسل من أهل الأرض فحسب، ولا ختام لرسل الله من أهل السماء، أي: الملائكة صلوات الله عليهم؛ لأن الرسالة بهم في ملكوت السماوات والأرض لا تنقطع.

أما أسلوب القرآن في النص على أن (الملك) معناها (الرسول)، فهو التفسير بالترادف على التجاور، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[2] في مقابل قوله عز وجل: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[3]، وقس على ذلك قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[4]، وإبدال (الرسل) من الملائكة مطلقًا، أي إثبات (الرسل) في موضع الملائكة، في مثل قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[5]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[6]، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾[7]، ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾[8]... إلخ، والرسل في هذا كله تعني الملائكة بلا خلاف.

أما لفظة (الشيطان) علمًا على إبليس اللعين، فقد اختلف اللغويون والمفسرون في نونه هل هي زائدة فتكون (شيطان) على وزن (فعلان) من شاط يشيط شيطًا أي احترق، حكمًا على الرجيم بمآله، أم هي أصلية فتكون (شيطان) على وزن (فيعال) من شطن يشطن شطونًا، أي بعد فهو الخاسئ المبعد، أو شطنه شطنًا أي ناوأه وخالفه في القصد والوجهة، فهو المناوئ المعاند؟

---

(١) راجع في مقدمة هذا الكتاب الحاشية الأولى.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.
(٤) سورة الحج، الآية: ٧٥.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٦) سورة يونس، الآية: ٢١.
(٧) سورة هود، الآية: ٦٩.
(٨) سورة هود، الآية: ٧٧.

والصحيح - بمقتضى (النحو) وحده - أنها (فيعال) من شطن، وليست (فعلان) من شاط؛ لأن (فعلان) كما تعلم يمتنع تنوينه، و(شيطان) مصروفة في كل القرآن، منونة بالألف نصبًا، في مثل قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[1]، فهو الخاسئُ المُبْعَدُ المناوئُ المعاندُ.

أما (سَطَنَ) العبرية - الآرامية، ومنها (ساطان)، أي (شيطان) العربية، فهي في العبرية - الآرامية بمعنى المناوئ المخاصِم، أي العدو، والعداوة في العربية من المعاداة، أي المباعدة والمناوأة والمخالفة، ومنها (العُدْوَة) أي شاطئُ الوادي وجانبه، تقف فيه قُبالة الواقف في (العُدْوَةِ) الأخرى.

ولأن (الشيطان) عند الجاهليين لم يكن علمًا على إبليس اللعين، وإنما كان مرتبطًا في ذهنهم الوثني بنقيض معناه اللغوي، فكان عندهم بمعنى المُوالي المعين على الإتيان بالأمر العبقري أو الطريف المُعْجِبِ، كما تجد في مثل (شيطان) الشعر وغيره[2]، فقد رده القرآن إلى أصل معناه في اللغة، أي العدو المناوئ المخالف.

أما أسلوب القرآن في تفسير الشيطان بالعدو، فهو إيراد اللفظتين على التجاور في أكثر من آية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[3]، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[4]، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[5]، ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[6]، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[7]، ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[8]،

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

(٢) قارن في اللغات الأوروبية الحديثة *Demon* و *Diable* الفرنسيتين، الأولى بالمعنى الحميد، كشيطان الشعر وغيره، والثانية الشيطان نفسه.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٦٨، ٢٠٨.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٦) سورة القصص، الآية: ١٥.

(٧) سورة فاطر، الآية ٦.

(٨) سورة يس، الآية: ٦٠.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1] وغيره كثير.

لو التفت اللغويون والمفسرون إلى هذا التنصيص القرآني على معنى (المَلَكِ) ومعنى (الشيطان) لما ترددت فيهما المعاجم، ولما تخبط المتحذلقون المتفيهقون.

ولكن.. لم يَفْطِنْ إلى هذا من اللغويين والمفسرين أحد.

هذا الجناس المعنوي المفسِّر، إعجازٌ مقصود.

وكما فات هذا الإعجاز مفسري القرآن من أهلِهِ، فقد اعتجم أيضًا على أدعياء الاستشراق المتطفلين على مباحث اللغة، الذين وهموا أن القرآن - على أصالة لفظي (المَلَك) و(الشيطان) في العربية - استعارهما رأسًا من (التوراة) على العلمية المجردة من المعنى في (ملآخ) و(ساطان).

ولكنك لا تستكثر شيئًا على مرضى الهوى والغرض. أما إن أضفت الجهل والجهالة فحدث ولا حرج. قد قالوا مثله[2] في (فُرقان) و(صِدِّيق) و(طهارة) و(صدقات) و(زكاة)، بل وفي (سُلَّم)! ناهيك برب العالمين! هذا كله صَغَارٌ يُضلون به القارئين لهم، وما يضلون إلا أنفسهم، فأَوْلَى لهم، ثم أَوْلى لهم.



(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٢.

(٢) *Joseph Horovitz. JEWISH PROPER NAMES AND DERIVATIVES IN THE KORAN. Georg Olms Verbuchhandlung. Hildesheim. 1964.*

(٤)

مر بك أننا نكتفي في هذا الكتاب بتفسير العلم الأعجمي في القرآن، لا نتجاوزه إلى أعجميه المعنوي - إن سلمت بوجوده - لأن مقصد الكتاب هو استجلاء إعجاز القرآن في تفسير المختلف فيه الذي لا علم للعرب بمعناه، لا الأعجمي المعنوي الذي عربوه من قبل وتكلموا به.

أما لب هذا الوجه من إعجاز القرآن، فمداره أيضًا على (العِلْمِ). القرآن يعلِّم علماء التوراة والإنجيل، أحبار الآرامية والعبرية على عصر النبي ﷺ وفي كل عصر، السابق واللاحق، والخائضين في أسرار اللغة المصرية القديمة منذ القرن الماضي فحسب، علم ما لم يعلموه أو ترددوا فيه؛ جهلوه أو أنسوه.

ولعلك تذكر أن كفار قريش وأهل الكتاب في يثرب ونجران، شأنهم شأن أدعياء الاستشراق في هذا العصر، اتهموا القرآن بالأخذ من الكتب السابقة، وبالنقل عن الأحبار والرهبان من يهود ونصارى، قالوا حين يتفق القرآن مع التوراة والإنجيل: سمع فأدَّى، ما أحفظه وما أوعاه! وقالوا عكس هذا تمامًا حين يعارض القرآن كتبهم التي بين أيديهم: تشوشت في ذهنه الأمور، واختلطت الرؤى والأحلام، وتحرفت عليه الوقائع والمواقع والأعلام! فما (آزر) هذا الذي يسميه أبًا لإبراهيم وهو (تارح)؟ أليس قد تحرف عليه اسم (لعازر) خادم إبراهيم فظنه أباه؟ وما (طالوت) تلك التي يسمى بها (شاءول) ملك بني إسرائيل؟ وما (مريم) أخت موسى وهارون التي يخلط بينها وبين (مريم) أم عيسى؟ أين ذهبت حافظته؟ أين إتقانه؟ وما شأن ذلك السامري الذي صنع العجل من ذهب لبني إسرائيل في التيه؟ ألم يلقنه الأحبار أن الذي صنع العجل هارون؟ وما باله ينكر الصلب على (عيسى) ويثبت تشريف الله إياه برفعه

إليه؟ أغاية همه تبرئة الطبقة التي ينتسب إليها - الأنبياء بزعمه - من الدنية والنقيصة[1]، كما فعل في (سليمان) الذي أسجدته زوجته الوثنية للصنم فسجد، وأبى عليه هو ذلك، فقال في (قرآنه): ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾[2]؟ إلى آخر ما قالوه، فخبُّوا وأوضعوا.

ولعلك تذكر أيضًا رد القرآن على هؤلاء الخائنين أنفسهم؛ جادلهم في دعوى النقل بمحض عربية القرآن، الذي تحدى العرب أنفسهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، فكيف بعيي أعجمي يلقنه إياه؟

ولعلك تعلم أيضًا أن التوراة والإنجيل لم يترجما إلى العربية إلا بعد قرون من نزول القرآن، فمن أين أوتي العلم بهما؟ بله ما كان يقرأ قبله من كتاب.

ومن أين له العلم بالعبرية واليونانية وهو يلحن في أسماء الأعلام ويخلط بين خادم إبراهيم وأبيه؟ كيف يسمعها (لعازر) وتتحرف علية إلى (آزر)؟ أثمة عربي لا يحسن نطق العين؟ أم إنجليزي هو أو فرنسي تتحرف عليه (لعازر) إلى (لازار)؟

والقرآن لا يلتفت إلى هذا الهراء، ولكنه صفع المكابر المتعنت المتعالم بالقاطعة الباترة من قوله عز وجل: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

وقد كان من بين الذي علمه الله ولم يعلموه - (آزر) هذه نفسها التي يحاجون بها القرآن، كما سترى.

---

(١) قالها همزة لمزة، أبعده الله، يتفكه بها على الصادق المصدوق ﷺ، فتعجب له وهو الفيلسوف الملحد (برتراند رسل)، يعلى رواية الإنجيل عن صلب المسيح على قول القرآن: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] وكلا الكتابين بزعمه أساطير رواة، ولكن مسيحيته التي يتنكر لها غلبت عليه. إنه الانتماء لا الإيمان. لا يبرأ من هذا ملحد من أبناء أي دين. راجع قوله هذا في كتابه: *BERTRAND RUSSELL. «History of Western Philosophy», George Allen & Unwin, London, 6th impression, 1957, P. 345.*

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٦.

أما الذي لا يعلمه كثيرون فهو أن علماء الآرامية والعبرية الذين عابوا (آزر) على القرآن، لا يعرفون إلى اليوم معنى (تارح) اسم أبي إبراهيم في التوراة، لا يهتدون إلى الجذر المشتق منه في الآرامية والعبرية، ولا يتفقون على معنى (إسرائيل) شهرة يعقوب عليه السلام، ويسيئون فهم معنى اسم (موسى) عليه السلام بإصرارهم على تفسيره بالعبرية (موشيه) على زنة الفاعل في العبرية من (مشا)، (ومقابلها في العربية مسا / يمسو بمعنى سل، أي أخرج، ومنه مسا الناقة يعني أخرج الولد من بطنها ميتًا)، فيخطئون النحو العبري؛ لأن مرادهم من التسمية أنه (المَمْسُوُّ) (من الماء، إشارة إلى التقاط آل فرعون إياه من اليم) لا (الماسي)، (والماسي هو فرعون وآله لا موسى)، والتسمية بالفاعل على قصد المفعول غير واردة في العبرية، فالتفسير مفتعل. وهم أيضًا لا يقطعون برأي في معنى (هارون) (أهارون في العبرية) اسم أخي موسى عليهما السلام، هل هو من الخفة والنشاط (من الجذر (أَرَنْ))؟ أم هو من العلو والاستكبار والنفخ (من الجذر (يَهَرْ))؟ إلى آخر ما نعرض له فيما يلي من فصول هذا الكتاب، استكشافًا لمعنى العلم العبراني في القرآن[1].

والذي يجب أن تعرفه أيضًا، وبالأخص، أن أقدم نسخة للتوراة التي بين يديك لم تكتب على عصر موسى وخلفائه، ولم تكتب على عصر داود وسليمان، وإنما كتبت (من الذاكرة) بعد هدم الهيكل وعودة اليهود من سبي بابل، وأيًا ما قلت في أمانة الكاتب وحفظه وتقواه، فأنت لا تحيل عليه الخطأ في الحرف والكلمة؛ آية ذلك ما تجده في حواشي التوراة العبرانية تعليقًا على صحة النطق في بعض الكلمات بعبارة: (كِتِيف...: قِري...) (أي: كُتِبَتْ كذا وتُقْرَأُ كذا). ومن ذلك أيضًا التردد في هجاء بعض الأعلام، من مثل (يوسف)، التي كتبت (يِهُوسِفْ) مرة واحدة لم يعلق عليها أحد.

والذي يجب أن تعرفه أيضًا أن النص العبراني للتوراة التي بين يديك، والذي مر بك أنه

---

(١) راجع في هذا وأمثاله معجمهم التحليلي العبري – الآرامي لألفاظ التوراة.

Benjamin Davidon. The Analytical Hebrew & Chaldee Lexicom. Regency Reference Library. Zondervan Publishing House. Grand Rapids. Michigan. 49506.

مستنسخ من الذاكرة إثر عودة بني إسرائيل من سبي بابل بعد حوالي ثمانية قرون من وفاة موسى عليه السلام، ظل أيضًا نصًّا غير معجم، أي غير مقيد بالشكل والنقط، يلحن فيه قارئه، مثقفًا وغير مثقف[1]، لا سيما بعد تراجع العبرية على الألسنة وحلول الآرامية محلها في ربوع فلسطين منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وقد تصدى لتحقيق النص بالنقط والشكل والتعليق على صحة النطق، في مدى ثمانية قرون، من القرن الثاني الميلادي إلى القرن العاشر، طائفة يدعون (بَعَلِي مَاسورا)، أي: (أهل الأثر)، حفاظ المأثور المتلقن.

ولك أن تتصور ماذا يمكن أن يحدث لنص أعيدت كتابته من الذاكرة بعد وفاة موسى عليه السلام بحوالي ثمانية قرون، غير مضبوط بالشكل والنقط، وظل كذلك إلى القرن الثاني لميلاد المسيح، واستغرق (تحقيقه) بالشكل والنقط والتعقيب ثمانية قرون أخرى، فما اكتمل إلا في القرن العاشر الميلادي.

هذا وذاك يقوي لديك شبهة وقوع الإضافة والحذف في النص الذي بين يديك. أما الحذف، فهذا ما لا سبيل لك اليوم إلى إثباته، وأما الإضافة، فإثباتها هين بين، تحفظ المسيحيون من قبل على بعضها بالنسبة إلى أسفار برمتها سموها (أبوكريفا) أي المنحولة، وتستطيع أنت التحفظ على كثير مما تضمنه صلب أسفار موسى الخمسة نفسها من سفاسف وشناعات لا يقبل ورودها في نص إلهي مقدس، ليس أشنعها زنا بنتي لوط بأبيهما ليكون له منهما (نسل) كما مر بك، وهو يقوي لديك أيضًا شبهة صرف النص في بعض مواضعه - بمجرد النقط والشكل - عن أصل معناه. وهو يقوي لديك أخيرًا - وهنا بيت القصيد في مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب - احتمال وقوع التحريف في نطق الأسماء الأعلام.

وتستطيع أن تقول الشيء نفسه - أو قريبًا منه - في الأناجيل الأربعة المتداولة، التي لم

(١) الخط العربي يهمل حروف العلة في الكتابة حين تقصر، ويثبتها حين تطول، ويهمل أيضًا تكرار الحرف المضعف، وعلاج هذا النقط والشكل، وهما ألزم للخط العبري الذي يهمل أحيانًا كثيرة حروف المد: الألف والواو والياء، بالإضافة إلى ما يهمله الخط العربي.

يخطها عيسى عليه السلام بيده، كما خط موسى عليه السلام بإزميله في الألواح، لولا أن أصحاب هذه الأناجيل لا ينسبونها ابتداء إليه، أي إلى عيسى عليه السلام: لم يُمْلِها عليهم، ولم يراجعوها عليه، وإنما هم ينسبونها إلى ذات أنفسهم، كتبوها من الذاكرة أيضًا بعدما تمادت بهم السن. أو كتبها آخذون عنهم لم يروا المسيح ولم يسمعوا منه. وهؤلاء وأولئك لم يكتبوا ما نطق به المسيح بلغته (الآرامية – العبرية)، وإنما ترجموا ما وعوه إلى لغة ليسوا من أهلها (اليونانية)، لا تستثني (لوقا) الطبيب اليوناني؛ لأنه بنى إنجيله على ما سمعه منهم مترجمًا إلى اليونانية من قبل. وهذا يفسر لك بعض أخطائهم في الترجمة، سواء في ترجمة ما استشهدوا به من التوراة العبرية في الأناجيل اليونانية[١]، أو في اختيار اللفظ اليوناني المناسب للمقابل العبري أو الآرامي: ظنوا (باتر) *Pater* اليونانية (أي (الأب) الوالد لا غير) تصلح ترجمة للفظة (آب) العبرية – الآرامية حيثما وردت، على بون ما بينهما في مجاز اللغات السامية، ومنه معنى الفاطر المنشئ البارئ. وظنوا باسيليا *Basileia* اليونانية (وهي المُلك والمملكة) تصلح دائمًا أبدًا لترجمة اللفظين العبريين الآراميين (مَلْخُوت) و(مَلَخُوت) على السواء، الأولى بمعنى المُلك والملكوت، والثانية بمعنى الرسالة والرسول (على ما مر بك في مقابلهما العربي)، فيتجافى بك المنطق أن تفهم عبارة من مثل: ((من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهم))[٢]، إلا أن يكون أصلها: ((من يسمع كلام الرسول)). أو مثل عبارة: ((فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي

(١) هذا هين إثباته، ما عليك إلا أن تطابق اقتباسات الأناجيل من (العهد القديم) على التوراة التي بين يديك، من ذلك ما تجد في سفر ملاخي من قوله: ((ها أنذا أرسل ملاكي يهيئ الطريق أمامي)) (ملاخي ٣/ ١)، المقتبسة في الأناجيل بعبارة: ((ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك)) (لوقا ٧/ ٢٧)، مع تحفظنا على ترجمة ملاخي في هذا النص إلى ملاكي العربية، التي يعني بها المقتبسُ، يوحنا (أي يحيى عليه السلام) نفسه، ويوحنا رسول أو نبي باتفاق لا ملك أو ملاك. على أن الاقتباس ضعيف في أصله؛ لأن ملاخي النبي كان يعني بها نفسه في النص التوراتي؛ لأن اسمه العبري هو نفسه نطقًا وكتابة (ملاخي) التي تعني في العربية (ملاكي) أو (رسولي)، ومثلها (أنجلوس) *Angelos* اليونانية في الاقتباس الإنجيلي.

(٢) متى ١٣/ ١٩.

في السموات! ليتقدس اسمك! ليأت ملكوتك))![1] التي تقرؤها فيأخذك العجب: وهل ملكوت الله عز وجل إلا حاضر في كل آن؟ أليس قد قال عليه السلام في تلك الأناجيل نفسها: ((ملكوت الله فيكم))[2] يعني نفسه؛ أي الرسول والرسالة؟ إذن فما معنى طلبهم في صلواتهم: ((ليأت ملكوتك!))؟ أليس الأرجح أن يكون معناها: ((ليأت رسولك!))؟ يعني محمدًا ﷺ الذي بشر به عيسى عليه السلام مصداقًا لما جاء في القرآن على لسانه: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[3]. نعم، قد استفاد من هذا - وغيره كثير - بطاركةٌ يونانيو اللسان ذهبوا إلى (مجمع نيقية) عام ٣٢٥م[4] لإقرار ألوهية المسيح، على نحو ما تعرف من عقيدة التثليث، أو (الثلاثة في واحد)، التي يدين بها المسيحيون إلى اليوم، ولكنه وضع مترجمي الأناجيل إلى مختلف اللغات - ومنها العربية بالطبع، ناهيك بالمفسرين - في عسر شديد. من ذلك عبارة ((وبعدما أُسْلِمَ يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يَكْرِزُ ببشارة ملكوت الله))[5]، وأصل عبارة ((يكرز ببشارة ملكوت)) في إنجيل مرقس اليوناني: *Kerusson to euaggelion tou theou*، ومعناها بنفس ترتيبها اليوناني: ((مبشرًا بإنجيل الله))، ليس فيها (ملكوت)، وليس فيها أيضًا (بشارة). أضاف المترجم (ملكوت) من عنده ليمنع إضافة البشارة إلى الله، وترجم *euaggelion* (وتنطق إيفانجليون) إلى (بشارة). أما (يكرز) في النص العربي فليست عربية، (وبمعنى أدق: ليست هي يكرز العربية بمعنى يلجأ ويعتصم)، وليست هي أيضًا عبرية، بل ليست سامية، وإنما هي آرامية منحولة عن الفارسية التي جاءت منها *Kerussein* اليونانية بمعنى يعلن ويبشر، (قارن *Herald* الإنجليزية)، ولكن المترجم العربي اضطر إلى استعمال تلك اللفظة الآرامية المنحولة كراهية التكرار في النص العربي، كأن يقول: ((يبشر ببشارة))

---

(١) متى ٦/ ٩ و١٠.

(٢) لوقا ١٧/ ٢١.

(٣) سورة الصف، الآية: ٦.

(٤) راجع بالعربية تفاصيل وقائع (مجمع نيقية) في مصنف الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله: محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي.

(٥) مرقس ١/ ١٤.

وهو ممجوج... العبارة إذن في النص اليوناني ليست ((يكرز ببشارة ملكوت الله))، وإنما هي ببساطة ((يبشر بإنجيل الله)). ولكن إضافة الإنجيل إلى الله تسبب مشاكل لا تخفى؛ إذ ما هي تلك البشارة التي هي لله؟ إنها الإنجيل نفسه، أي (إيفانجليون) اليونانية، التي يفسرونها بالخبر السار أو البشارة، ومن قال: إن (*eu + angelion*) اليونانية تعني الخبر السار؟ أليس (أنجليون) *angelion* اليونانية معناها الرسالة والرسول مثلها مثل (ملآخوت) الآرامية - العبرية، ومنها (أنجلوس) *angelos* يعني المَلَك؛ أي الرسول؟ إلا إذا ظننت أن اليونان يسمون المَلَك (المُخْبِر)، وهذا غير صحيح بالطبع. ومن قال إن المقطع اليوناني eu يعني (السار)؟ ليس له بالسرور أدنى صلة، وإنما معناها حين تكون بادئة في الكلمة: (المرضي المحمود)، كما في (*eu legein*) اليونانية، بمعنى حمده وأثنى عليه. ولو ترجمت (إيفانجليون) اليونانية إلى العبرية (وأنت تعلم أن أنجليون تعني الرسالة) لقلت (ملآخوت حِمِد)[١]. أفيكون المعنى (رسالة أحمد)؟ ربما.

ليس لديك الدليل في هذه أو في غيرها، ليس لديك النص الأصلي لأقوال المسيح عليه السلام بلغته ولغة قومه (العبرية - الآرامية). وإنما لديك ترجمة يونانية لعبارات ربما قالها عليه السلام، ولكنك لا تقطع بصحة الترجمة إلا أن تطابقها على الأصل العبري - الآرامي، وهو غير موجود للأسف. ومهما سلمت بأن رسل الله جميعا قادرون على الحديث بكل لغة يلهمون الحديث بها، فأنت تحيل على المسيح عليه السلام أن يتحدث مع المرسل إليهم وإلى أهله وعشيرته وحوارييه بلغة يونانية لا يفهمونها، لا سيما حين يتحدث في صلب الرسالة والعقيدة. من ذلك حديثه عليه السلام عن الذي يأتي بعده، الذي إن لم يذهب لا يجيء، أعني (الفرقليط) (*Parakletos* في الأناجيل اليونانية) غير الموجودة أصلًا في لغة اليونان قبل عصر المسيح، والتي حار في فهمها تراجمة الأناجيل إلى مختلف اللغات، هل هي المعزِّي أم الناصر أم الشفيع أم المحامي. والأصوب أن يقال[٢] إنها عبرية آرامية، تركت

(١) (حِمِد) العبرية وصف على المصدر من حمد، يوصف به مبنيا على المفرد المذكر كل ما أعجبك وحسن لديك.

(٢) هذا جديد نفيس، فتأمله، عسى أن تكون به الإصابة والهداية. ولكنك لن تسلمه لي؛ لأنه ليس=

في إنجيل يوحنا اليوناني على أصلها بعد تهذيبها إلى صورتها اليونانية *Parakletos* نحوًا ونطقًا. إنها إذن اسم مزجي مركب (فرق + ليط) (التي تنطق فاؤها البادئة في العبرية - الآرامية باء ثقيلة (*P*) كما مر بك) فهي (پرقليط) آراميًا وعبريًا. الشق الأول (فرق) جذر آرامي - عبري بمعنى حط عنه ووضع، أي حط عنه الذنب أو الخطيئة، (قارن (فرك) العربي بمعنى حكه ليزيل عنه وسخًا علق به). والشق الثاني من الجذر العبري الآرامي (لاط / يلوط) بمعنى ستره وحجبه وغطاه، (قارن (لاط / يلوط)، (لط / يلط) العربيتين بمعنى ستره وأخفاه)، أو هي بمعنى لزق به وعلق (وهي (لط) العربية أيضًا) كما يعلق الذنب وتعلق الخطيئة. الشق الأول (پرق) ينطق (پارق) (بإطالة مد كسرة الراء) زنة الفاعل آراميًا من (پرق) فهو الحاطّ الواضع الكاشف، والشق الثاني (لاط) ينطق (لايِط) بإطالة مد كسرة الياء)، زنة الفاعل آراميًا أيضًا من (لاط). فهو في الأصل (پارِق + لايِط)، يعني (كاشف الحجاب)، أي: (كاشف الغشاوة)، (والكاشف من أسمائه ﷺ)، أو هو (واضع الذنب والإصر)، ولكن المزجية أحالت النطق إلى (پرقليط) (مدًّا بالكسر لا بالياء). يقوى هذا الفهم بشاهد من أهلها: وجود (پرقليط) هذه (مدًّا بالياء لا بالكسر) في العبرية المعاصرة بمعنى المحامي الذي يقف إلى جانبك يحاول (إسقاط) التهمة عنك، والتهمة هي مظنة الخطأ والذنب. (الفرقليط) إذن هو (واضع الإصر) أي محمد ﷺ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(1). والإصر من معانيه (الذنب) كما تقرأ في تفسير القرطبي رحمه الله.

وتستطيع أن تقول الشيء نفسه في لفظة (إنجيل). لم لا تكون آرامية - عبرية في أصلها؟ أليست اسمًا علمًا على الكتاب المنزل على عيسى عليه السلام؟ أفيحتاج المسيح إلى تسميته باليونانية (إيفانجليون) على معنى البشارة ولديه في لغته المقابل العبري (بِسُورا)؟ وإذا افترضت أن أصحاب الأناجيل اليونانية ترجموا (بِسُورا) العبرية إلى اليونانية (إيفانجليون)

= لديك ولا لدي إنجيل عبري - آرامي تطابقه عليه.

(1) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

التي لم ينطق بها اليونان قبل عصر المسيح، أما كان أمامهم في اليونانية لفظ يفيد معنى (البشارة) سوى ذاك اللفظ المركب *(eu + angelion)*؟ أليس في اليونانية الفعل (كروسين) بمعنى يعلن ويبشر (*Herald* الإنجليزية) المنقول في اليونانية الكنسية إلى معنى (يعظ) و(يدعو)، منعًا للخلط بين (الكرازة) والبشارة وهما واحد؟

تستطيع أن تقول هذا أو بعضه، ولكننا لا نستطرد بك إليه، وإنما نرجئ الحديث عنه إلى فصل تال في تفسير القرآن لأعجمية العلم، ومنه لفظة (إنجيل).



انقطعت سلسلة السند إذن في التوراة وفي الإنجيل. ولكن الانقطاع في الإنجيل أفدح. لأن القائل في الإنجيل رواة يتحدثون غير اللغة. يزيد من فداحة هذا أن الأناجيل كثيرة، قاربت فيما يروى ثلاثمائة إنجيل تتفق وتختلف، اعتمدت منها الكنيسة بعد استقرار عقيدة التثليث تلك الأناجيل الأربعة التي بين يديك، لا سبيل لك اليوم إلى ما كان في غيرها، فقد حرمت وطوردت وأعدمت. بل حتى ما ظهر منها بعد ذلك، كالإنجيل المسمى (برنابا) المكتشف حوالي القرن الثامن عشر بلغة إيطالية تسكانية، مهما اتفقت كمسلم مع الكاتب في مضمونه، لا تستطيع الارتفاع بنسبة ما جاء فيه يقينًا إلى المسيح عليه السلام، لا لشيء إلا لكونه مكتوبًا - على الترجمة - بلغة غير لغته عليه السلام، شأنه شأن الأناجيل الأربعة المتداولة نفسها، لا أكثر ولا أقل.

وليس كذلك (القرآن) المقطوع من الخصم ومن الصديق على السواء بنسبة تلاوته إلى محمد ﷺ بنصه (العربي) الذي بين يديك الآن، لا خلاف على حرفه ولفظه، المكتمل نزوله حوالي سنة ٦٣٢م، وتلا ﷺ الآية بعد الآية، والسورة بعد السورة، على الكاتبين من صحابته، يكتبون ويراجعون عليه ما كتبوا، والمجموع في المصحف الذي بين يديك مراجعًا على حفاظه وكتبته ولما ينقض عقدان على وفاته ﷺ. نعم، لم يكن (المصحف الأم) مصحف عثمان مضبوطًا بالشكل والنقط، ولكنه (مقروء) عليه هو نفسه ﷺ بقراءة أقرها، كل

ما عداها مردود، ولم يظل (مصحف عثمان) غير مقيد بالشكل والنقط حوالي ٢٢٠٠ سنة كما وقع لتوراة موسى عليه السلام[1]، وإنما ضبط بالشكل والنقط على عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ولما تنقض سبعون سنة على وفاة النبي ﷺ. وهو لم يضبط بالشكل والنقط على عصر اضمحلال الفصحى وتراجعها على الألسنة، كما وقع لعبرية التوراة منذ القرن الثالث قبل الميلاد بعد حوالي ألف سنة من نزول التوراة، ولكنه ضبط بالشكل والنقط وعربية القرآن هي لغة الخاصة والعامة، بل وهي مقياس عربية العرب.

نعم، يستطيع المكابر المعاند أن ينكر الوحي على القرآن، شأن كل كافر بوحي السماء، ولكنه لا يستطيع التسليم بالوحي لما بين يديه من الكتب السابقة وهو ينكر الوحي على القرآن؛ لأن إنكار الوحي على القرآن إبطال لدعوى الوحي كله. قد ضاعت أدلة الوحي الأول بضياع معجزات الأنبياء السابقين، وبقي القرآن - المعجزة بذاته - شاهدًا أوحد على معجزات كل من سبقوه.

وتستطيع أيضًا - منصفًا غير متعنت - أن تدفع بانقطاع السند في التوراة والإنجيل اللذين بين يديك. وتستطيع أيضًا - مصيبًا غير مخطئ - أن تدفع بضياع الأصل الآرامي - العبري الذي ترجمت عنه أقوال المسيح عليه السلام في تلك الأناجيل اليونانية الأربعة، بل وفي إنجيل برنابا أيضًا. ولكنك لا تستطيع أن تفعل هذا أو بعضه مع القرآن إلا وأنت موتور متعنت غير مصيب. لا مشاحة في حرف واحد من حروف القرآن: الأصل، واللغة، والسند.

من هنا تفهم قوله عز وجل في وصف القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[2] يعني القرآن يصدق (ما صدق) في التوراة والإنجيل، أي

(١) إذا رجحت معي أن (فرعون الخروج) هو رمسيس الثاني الذي كان مهلكه حوالي ١٢٢٥ ق م، وأضفت سنوات التيه الأربعين، ترجح لديك اكتمال نزول التوراة حوالي مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد استغرق ضبطها بالشكل والنقط على أيدي (أهل المأثور) (بَعَلِي مَاسورا) ثمانية قرون في ظل المسيحية ثم في ظل القرآن، فلم يكتمل إلا في القرن العاشر الميلادي، والفرق اثنان وعشرون قرنا، أما إن ارتفعت بفرعون الخروج إلى تاريخ أسبق فقد ازداد البون شسوعًا.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

هو الشاهد لهما بالصواب حين الإصابة، أما عند الاختلاف فالقرآن هو المصوِّب الفيصل البات، (قوله الحق).

وتستطيع أن ترتب على هذا أيضًا أن القرآن لا يحاج بما في التوراة والإنجيل، ولكنهما هما اللذان يحاجان به عند الاختلاف.

ولكن لا تتوقع مني أن أقول لك: قد قالها القرآن (آزر) فهي كما قال! وعلى الذين يريدون لأبي إبراهيم اسمًا آخر أن يعودوا إلى معاجمهم يبحثون عن جذر عبري أو آرامي يشتقون منه (تارح) أو يهتدون إلى وجه في هجائه ومعناه، وليتخبطوا كما يتخبطون في أمثال (موسى)، (هارون) بل مثل ما يجدفون في (إسرائيل) ((يسرئيل) في عبرية التوراة) التي استنفج بعضهم ففسرها بأنها مُصارِع الله، واستخذى بعضهم فقال: بل هي (أمير مع الله)! وكلتاهما شهرة يفرق من انتحالها إبليس نفسه، فكيف بعبد الله يعقوب، النبي ابن النبي أبي الأنبياء؟

لا تنتظر مني أن أقولها، وإلا ما كان هذا الكتاب.

على أني لا أكتب لهؤلاء، وإنما أكتب لك أنت، كي نستبين معًا كيف علم القرآن ما جهلوا، وكيف أخطأ هؤلاء وأصاب.

ولكنك لا تهزم ملاكمًا بأن تطرده من الحلبة، وإنما تستدعيه إليها لتصرعه على أرضها، ولا تستدنيه إليك لتباغته بالقاضية على أم رأسه، ولكنك تصاوله حتى يسلم لك بالقاضية (الفنية).

قال عز وجل: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾(1).

وإني بها ملتزم بعون الله فيما بقي من فصول هذا الكتاب.

وبعد، ثق أنني لا أبتغي بما أكتب وجه الجدل ولا يستهويني النزال. فليست الشحناء من طبعي. بل (حلاوة الإعجاز) هي كل ما نبغي: نور الحق، ينبوع الجمال.

(1) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

الفصل الثالث

العلم الأعجمي في القرآن

(١)

يجيء العَلَم الأعجمي في القرآن على ثلاثة أنواع: عَلَم الذات، وعَلَم الجنس، وعَلَم الموضع.

* * * *

أما (عَلَم الذات) فهو أسماء الأشخاص: ملائكة وأنبياء وصديقين، وملوكًا وجبابرة وطواغيت. وربما أضفت (إبليس) اللعين - هامة العصاة - إن سلمت بعجمة (إبليس)، وسيأتي.

وأما (عَلَم الجنس) فهو أسامي القبائل، منها بائد كعاد وثمود، ومنها الذي غيبه الغيب كيأجوج ومأجوج، وأسامي الشعوب ورد منها في القرآن (الروم). وربما أضفت أهل الملل على النسب. اليهود، والنصارى، والصابئين، والمجوس. ولكنك تضيف حتمًا تحت (عَلَم الجنس) أسامي كتب ثلاثة: التوراة والزبور والإنجيل، على خلاف في عجمة الزبور.

أما (عَلَم الموضع) فأسامي الأماكن والبلدان، أمثال مصر ومدين وإرم (ذات العماد). وربما جازت إضافة (فردوس) و(عدن) استقصاء لشبهة عجمتهما، وربما أيضًا (جهنم) (المقول بأنها (جِي - هِنُّوم) العبرية). ولكنك لن تجري وراء كل منْ هب ودب من أدعياء الاستشراق تبحث عجمة ألفاظ بينة العربية من أمثال (عليين) و(سجين)؛ فليس العبث من مقاصد هذا الكتاب.

* * * *

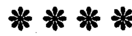
في باب العَلَم على الذات، تندرج أسامي الملائكة رضوان الله عليهم، وقد سمى القرآن منهم خمسة: جبريل، ميكال، مالك، هاروت، ماروت، ولا يعلم جنود ربك إلا هو.

تندرج في باب العلم على الذات أيضًا أسامي الأنبياء والصديقين رضي الله عنهم ورضوا عنه، بدءًا بآدم أبي البشر وانتهاء بعيسى المبشر بخاتم النبيين، صلوات الله وسلامه على رسله وأنبيائه، وهم: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، شعيب، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب (وشهرته إسرائيل)، يوسف، موسى، هارون، داود، سليمان، إلياس، اليسع، ذو الكفل، يونس، أيوب، عزير، لقمان، زكريا، يحيى، مريم، عيسى. فهؤلاء سبعة وعشرون شخصًا عَلَمًا، على خلاف في نبوة بعض وصديقية بعض، وفي عجمة الاسم وعربيته، تزداد إلى ثمانية وعشرين بإضافة (إسرائيل) شهرة يعقوب عليه السلام.

أما الملوك والجبابرة فمن أعجميها في القرآن اثنان: طالوت ملك بني إسرائيل (شاءول في التوراة)، جالوت جبار الفلسطينيين (وهو في التوراة جليات).

وأما المقبوحون في الدنيا والآخرة، الكفرة البغاة الطغاة، فقد سمى القرآن منهم أعلامًا أربعة: آزر، فرعون، هامان، قارون، وربما أضفت رأس الضلالة إبليس اللعين؛ استقصاء لعجمته، فيكون مجموعهم خمسة أعلام.

أما أسامي الأصنام في القرآن، فنحن نضرب الصفح عنها استخفافًا، فلا ذات لها، فضلًا عن أن القرآن لا يفسرها للعرب؛ لأنها عربية الأصل والاشتقاق[1].



(١) وهي تسعة أصنام: اللات والعزة ومناة، وكانت لعرب الجاهلية، والبعل، وكان لضلال من بني إسرائيل دعا فيهم إلياس عليه السلام كما يذكر القرآن، ثم وَدّ وسُوَاع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر، وكانت لقوم نوح كما يذكر القرآن، وعبد العرب بعضها في الجاهلية، لا يغمض من هذا على عربي إلا سُوَاع، وهو من التوسعة والفرج والنصرة، ومقلوبها في العبرية الآرامية (شُوَع). أما اللات فلغة في الآلهة. وأما مناة فهي التي يراق عندها الدم، ومن هذه (منى) التي يذبح فيها الحجاج. ومَنَاهُ يعني أراقه، ومنه (المني).

وأما العَلَم على الجنس في أعجمي القرآن، فمن القبائل أربعة: عاد، ثمود، مدين، يأجوج ومأجوج. ومن الشعوب واحد: الروم. ومن الكتب ثلاثة: التوراة، الزبور، الإنجيل (وإن كانت الزبور عربية كما سترى). وربما أضفت على النسب أهل الملل الأربع: اليهود، النصارى، الصابئين، المجوس، فيكون مجموع هذا الصنف اثنى عشر عَلَمًا.

ولم نذكر في علم الجنس (سَبَأ)، كما لم نذكر في علم الذات (تُبَّع) ملوك اليمن؛ لعربية هذين العلمين بلا خلاف.

* * * *

أما عَلَم الموضع، أي أسامي الأماكن والمواقع، والمنازل والقرى والبلدان، فمن الأماكن والقرى والبلدان أربعة: بابل، إرم، مصر، سيناء. ومن المواقع واحد: الجودي (مرسى نوح). ومن المنازل ثلاثة: (الفردوس، عدن، جعلنا الله من أهلهما بمنه وفضله، و... جهنم، أعاذنا الله منها. فيكون مجموع هذا الصنف ثمانية أعلام).

* * * *

ومن هنا ترى أن العلم الأعجمي - الذي تتبعناه في القرآن، ولا يستقصي على الله عز وجل أحدٌ - ستون اسمًا علمًا، أو في حكم العَلَم كالأعلام على النسب من أهل الملل، سوف تتناولها بإذن الله مباحث هذا الكتاب. ومن هذه الأعلام مقطوع بعجمته، ومنها المقول بعربيته. ومنها أيضًا العربي في صورته وهو محض ترجمة كما سترى.

* * * *

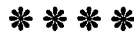
ويلاحظ أنه لم يرد في القرآن من أعلام النساء سوى اسم واحد، هو مريم أم عيسى عليهما السلام (لا أخت موسى وإن تشابه الاسمان).

ولكن القرآن أشار إلى نساء أخريات على النسب إلى الابن أو الزوج، وهن خمس: ثلاث

فُضْلَيَات: أم موسى، امرأة فرعون، امرأة عمران (جد عيسى، وليس أبا موسى وإن تشابه الاسمان). وثنتان من الخائنات: امرأة نوح، امرأة لوط.

وليس في المنسوب إليه عَلَم جديد يضاف إلى ما ذكرناه سوى عمران جد المسيح صلوات الله عليه وعلى رسل الله أجمعين.

وهذا يرتفع بالعلم الأعجمي أو المقول بعجمة أصله، الذي نعرض له في هذا الكتاب، إلى واحد وستين اسمًا علمًا.



(٢)

الأعلام الأعجمية المذكورة في القرآن ورد أغلبها على أصل لفظه الأعجمي في أسفار اليهود والنصارى، أو - اختصارًا - في التوراة والإنجيل.

وقد ضم المسيحيون أسفارهم إلى أسفار اليهود (على خلاف بينهم في إنكار بعض وإضافة بعض) في مجلد واحد من جزءين هما (العهد القديم) (التوراة) و(العهد الجديد) (الإنجيل) تحت اسم (الكتاب المقدس)[١]، سلموا لهما جميعًا بالوحي من الله، ليس فقط لأن اللاحق يبني على السابق فحسب كما مر بك، وإنما أيضًا وبالأخص اتباعًا لقول المسيح عليه السلام في الأناجيل: ما جئت لأهدم الناموس (أي التوراة)، وإنما جئت لأُكَمِّل (أي بالإنجيل).

أما اليهود فهم بالطبع لا يسلِّمون بالوحي لكتابات (العهد الجديد)، وإلا لما بقوا على يهوديتهم. وهم لا يسلمون بالوحي أيضًا لأسفار أضافتها الكنائس المسيحية إلى أسفارهم المعتبرة عندهم (على خلاف في هذا بين الكنائس المسيحية)[٢].

وقد توقفت (النبوات) في بني إسرائيل قبل قرون من مولد عيسى عليه السلام. ومن هنا يفهم خلو أسفار التوراة من النص على أعلام المسيحية الأربعة: زكريا، يحيى (يوحنا)، مريم، عيسى، عليهم السلام، ولم تذكر أيضًا عمران جد عيسى.



(١) لذا خص القرآن أهل الملتين باسم (أهل الكتاب) لا يَدخُل فيه غيرهم. وسيأتي.

(٢) ومثاله سفر (يشوع بن سيراخ) الذي ينكره اليهود وتعتبره الكنيسة الكاثوليكية، ولا تعتبره الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

ويلاحظ أن أسفار (العهد القديم) (أي التوراة) مكتوبة كلها بالعبرية، ما عدا أجزاء قليلة كتبت بالآرامية رأسًا أو متأثرة بها، منها عبارات في سفر التكوين نفسه، أول أسفار العهد القديم، ومنها بعض إصحاحات متفرقة في أسفار ثلاثة هي أسفار إرميا، ودانيال، وعزرا (عزير في القرآن). وإذا علمت أن عزرا كاتب (شريعة الله) بعد سبي بابل - كان من أعلام القرن الخامس قبل الميلاد، فقد علمت مدى طغيان هذه الآرامية على ألسنة الناس، حتى حلت تمامًا - أو تكاد - محل العبرية في ربوع فلسطين منذ ثلاثمائة سنة على الأقل سبقت مولد المسيح، فكان بها جل كلامه عليه السلام.

ولكن أسفار (العهد الجديد) لم تكتب بالآرامية أو العبرية أو بمزيج من هذه و تلك، وإنما الموجود منها بين يديك الآن مكتوب كله - عدا بضع كلمات آرامية أو عبرية - بلغة (يونانية) متأخرة تعرف باليونانية (الكنسية)؛ لاصطناعها ألفاظًا وتراكيب لم تسمع في اليونانية قبل عصر المسيح. ومهما قيل من أن إنجيل (متى) وبعض رسائل الحواريين والآخذين عنهم قد كان لها أصل عبراني ترجمت منه إلى تلك (الأصول) اليونانية التي بين يديك، فهذا الأصل (العبراني) مفقود، لا سبيل لك إليه لتطابقها عليه. ليس لديك من (العهد الجديد) سوى هذه الأصول اليونانية التي بين يديك، وترجمات منها مباشرة إلى مختلف اللغات.

* * * *

ولئن كان موضوع (العهد الجديد) هو رسالة عيسى عليه السلام، آخر رسل الله إلى بني إسرائيل، فهو لا يسمي فقط أعلام المسيحية المذكورين في القرآن، ولكنه يتحدث أيضًا بالتوراة فيذكر بعضًا من أعلامها الذين سماهم القرآن. ولأن (العهد الجديد) يوناني اللسان، فهو حين يذكر أعلامًا من التوراة يسميهم بالطبع على اللفظ اليوناني، لا اللفظ الآرامي - العبري. ومن هنا اختلاف نطق العلم (الإنجيلي) عن سميه في التوراة.

من ذلك أن اليونان لا ينطقون الشين، فأبدلوا كل شينات التوراة سينًا[1]. واليونان أيضًا

(١) عربية القرآن أيضًا تبدل شينات التوراة سينًا، لا عن ضرورة كما فعل كتبة الأناجيل، وإنما رجوعًا=

لا يستطيعون نطق الحاء والعين ويهمسون الهاء، فأهملوها جملة، إلا أن تكون الحاء والعين بادئتين فتبدل منهما الهمزة[1]، وفي اليونانية كذلك علاماتُ (إعراب)، منها إضافة السين للرفع وإضافة النون للنصب، فتظهران هذه أو تلك في نهاية الاسم العَلَم بحسب موقعه من (الإعراب) في الجملة، ويظنها من لا يعرف أصل الاسم جزءًا منه. فعلوا هذا في أعلام التوراة وفي أعلام الإنجيل.

من ذلك (يونا) (يونس في القرآن): يونانيتها (يوناس) *Ionas* (السين للرفع)، وهي نفسها (يونان) التي تقرؤها في الترجمات العربية للعهد الجديد أخذوها بصورة الاسم منصوبًا. من ذلك أيضًا (يوحنا) (يحيى في القرآن): ذهبت حاؤه وأضيفت سين الرفع فصار *Ioannes*، أي (يُوَنِّس). ناهيك بالاسم العلم الأكبر في المسيحية: عيسى عليه السلام، وأصله العبري (يشوع) فصار (يِسُوس) في الرفع، و(يِسُون) في النصب، و(يِسُو) في غير ذلك.

ورغم أن (مسيحيي المشرق) ساميون يستطيعون نطق أعلام الإنجيل على أصل لفظها العبري - الآرامي، فقد التزموا في حالات كثيرة الاقتراب من رسمها اليوناني في العهد الجديد، ضاربين صفحًا عن أصلها العبري - الآرامي وإن خالف الرسم اليوناني أصل الاسم في التوراة. وما كان لك أن تتوقع غير هذا وهم يقرءون في صلواتهم من إنجيل يوناني، يحتاج فهمه وتدارسه إلى عِلْم كاف بتلك اللغة. وقد كانت اليونانية هي اللغة (الرسمية) للكنيسة طوال قرون المسيحية الأولى: بها كتبت مباحث اللاهوت، وبها دارت المناظرات واحتدم الجدل. أضف إلى هذا - بل قل قبل هذا - الرغبة في (التبرك) الناشئ عن التقديس: المسيحيُّ يؤمن بأن (العهد الجديد) كلام مُوحًى به من الله، أو من الروح القدس، على كتبة الأناجيل، وهو يرتب على هذا أن الله هكذا تكلم، أو هكذا أوحى، بتلك الأعلام في لفظها اليوناني وبرسمها المكتوب في تلك الأناجيل اليونانية، أو في أقل القليل أن الإنجيلي (كاتب الوحي) كتب ما كتب و(روح القدس) عليه إنه إذن كلام مقدس لا بمصدره فحسب،

= بجذر اللفظ العلم إلى جذره العربي.

(١) ربما أبدل اليونان من الحاء العبرية خاء.

وإنما بأصل لفظه أيضًا في رسمه اليوناني الذي جرى به قلم الكاتب.

ولعلك تعلم أيضًا أن أسفار (العهد القديم)، أي أسفار التوراة، قد كانت لها قبل عصر المسيح ترجمات إلى اليونانية أشهرها قاطبة الترجمة السبعينية[1]، التي سبقت مولد المسيح بنحو ثلاثة قرون، موجهة إلى يهود الإسكندرية ومتهوديها، وإلى من (تأغرق) منهم في غيرها، الذين أنسوا عبرية التوراة. وقد تضمنت الترجمة بالطبع تحويل صورة العلم التوراتي عن أصله العبري - الآرامي إلى (صورة) يونانية جرت بالتأكيد على (ألسنة متأغرقي) اليهود، لا في أوربا فقط، بل وفي مصر والشام أيضًا.

وتستطيع أن تقول - مصيبًا غير مخطئ -: إن كتبة الأناجيل اليونانية استفادوا من هذا الرسم اليوناني (الجاهز) في الترجمة السبعينية فنسجوا على منواله في (العهد الجديد). وتستطيع أن تقول أيضًا: إن كتبة الإنجيل - حين اقتبسوا من التوراة نصوصًا يستشهدون بها في العهد الجديد - لم يرجعوا إلى أصل التوراة العبراني، وإنما رجعوا رأسًا إلى تلك (السبعينية)، يستقون منها ترجمتهم اليونانية لما أرادوا اقتباسه من التوراة، وهذا يفسر لك سببًا من أسباب عدم تطابق بعض تلك الاقتباسات مع أصلها في التوراة، كما مر بك، لأن في (السبعينية) أخطاء استدركت بعد عصر المسيح بقرون.

ولأنك - مسيحيًا كنت أو مسلمًا - تحيل على المسيح صلوات الله عليه أن يخطئ في الاقتباس من التوراة في عبارات نسبت الأناجيل اقتباسها إليه، فليس أمامك إلا التسليم بأن كتبة الأناجيل اليونانية كتبوا ما كتبوه بوحي من ذاكرة تسعف وتخون، أو رجعوا إلى الأصل العبراني ولكنهم لم يحسنوا الفهم أو الترجمة، أو تعجلوا فاستخدموا ترجمات يونانية جاهزة شاعت من قبل، أو أنهم كتبوا لجمهور يوناني اللسان، جادلوه بما يقرأ من ترجمات يونانية للتوراة في السبعينية أو في غيرها. وربما اشتطت بك الغُلَوَاءُ فقلت: إن كتبة الأناجيل اليونانية الأربعة أو معظمهم، وبالذات لوقا ويوحنا، ما كانوا يتقنون العبرية شأنهم شأن يهود

(١) يروى أنها أعدت لملك مصر بطليموس الثاني (٣٠٩-٢٤٦ ق.م)، أعدها ٧٢ حبرًا من يهود فلسطين في ٧٠ أو ٧٢ يومًا، ومن هنا تسميتها بالسبعينية.

مصر والشام على عصر المسيح، وما كانوا بالتالي يقرءون من توراة عبرية، بل من ترجمات لها. هذا وذاك أبرأ لدينك من أن تقول: أصاب كتبة الأناجيل وأخطأ المسيح - معاذ الله - ناهيك بروح القدس جبريل، صلوات الله وسلامه على جميع ملائكته وأنبيائه.

* * * *

على أننا - في مقاصد هذا الكتاب على الأقل - لا يعنينا هذا أو ذاك - وإنما الذي أردنا التنبيه إليه هو شيوع الرسم اليوناني والنطق اليوناني قبل نزول القرآن بقرون - لا لأعلام المسيحية فحسب، وإنما أيضًا لأعلام ذكرت في التوراة بلفظها العبري وتأغرقت في الأناجيل - بين مسيحيي المشرق ومن سمعوا منهم أو اتصلوا بهم من العرب.

هذا يفسر لك لماذا عرب القرآن أعلامًا من التوراة على رسمها الذي شاع بين الناس، أي: على رسمها اليوناني لا العبري. من ذلك (إلياس) المعربة لا عن العبرية (إِيلِيًّا)، وإنما عن اليونانية (إيلياس)، وأيضًا (يونس) المعربة لا عن العبرية (يونا)، وإنما عن اليونانية (يوناس)، بإضافة سين الرفع اليونانية في اللفظين.

نخلص من هذا إلى أن التعريب القرآني لأعلام المسيحية لا ينظر إلى (التوراة) التي لم تنص بداهة عليهم، وإنما ينظر إلى رسمها اليوناني الوارد في (العهد الجديد)، أما أعلام التوراة المذكورة في الأناجيل، فهو يعربها غير ناظر بالضرورة إلى رسمها العبري في التوراة، إنما يعربها على لفظها الشائع عصر نزوله - أي المتأثر بالرسم اليوناني - وإن خالف أصلها في التوراة.

ولكن القرآن - وهذا إعجازه - (يعلم) الذي كان، فيفسر العلم الأعجمي المطموس معناه في رسمه اليوناني، بأصله في لغة المتسمى به من أعلام التوراة - أيًّا كانت لغته - متقدمًا بقرون وقرون على (تفاسير) لعلماء تلك اللغات بدأت ولم تنته بعد، أو توقفت دون القطع بيقين.

* * * *

(٣)

يحدثك سفر التكوين - أول أسفار التوراة - عما كان من شأن آدم عليه السلام وزوجته في الملأ الأعلى، وعن الجنة التي (أزلهما الشيطان عنها) فأهبطوا إلى الأرض جميعًا. كما يحدثك عما كان من شأن (قاين) و(هِبِل) (قابيل وهابيل في المراجع الإسلامية) ابني آدم الأولين، ويسمي (شيث) ابنه الثالث وذريته إلى نوح وإبراهيم، ثم يمضي على عمود النسب حريصًا عليه كل الحرص، لا يترك عَلَمًا من أعلامه إلا ويصعد به إلى آدم أبي البشر. وقد ورث (العهدُ الجديد) هذا الحرص[1]، تنصيصًا على موضع المسيح من عمود النسب الذي يصعد به إلى (آدم ابن الله)[2].

والذي يستوقف النظر - في مقاصد هذا الكتاب على الأقل - أن الأعلام على عمود النسب من آدم إلى نوح (وهم ليسوا عبرانيين بالقطع) - ناهيك بالملأ الأعلى - هي في التوراة أعلام عبرية - آرامية. والتوراة لا تقف عند إيراد الاسم عبرانيًا - آراميًا، وإنما هي

(١) راجع الإصحاح الأول من متى والإصحاح الثالث من لوقا.

(٢) هكذا كتب لوقا في إنجيليه: آدم ابن الله! (لوقا ٣:٢٨)، وقوفًا بعمود نسب المسيح عند آدم لا يتجاوزه إلى الله - عز وجل - الذي لم يلد آدم بالطبع، وإنما صنعه (بيديه) كما تنص التوراة. ومن قبل قال كتبة التوراة: ((أبناء الله)) (تكوين ٦: ١ و ٤). وهذا كله لا يؤخذ على أصله، وإنما يؤخذ بمجازه المقصود منه في اللغات السامية ومنها الآرامية والعبرية، ولم يفطن إليه في (مجمع نيقية) بطاركةُ يُونَانِيُّو الفكر واللسان: الأب مجاز على الأصل والمنشأ، أي: الله المبدع الفاطر البارئ، والابن مجاز على النسب إلى الصانع (الباني). مصداق هذا (راجع المعجم التحليلي العبري - الآرامي المذكور في حواشي هذا الكتاب) أن لفظة (بِنْ) العبرية - الآرامية منحوتة على المفعولية من جذر الفعل العبري - الآرامي (بنا) (وهي بنى/ يبني العربية)، ولكنك لا تهدي من أحببت!

أحيانًا كثيرة تفسره بالعبرية، لا على الترجمة؛ فالاسم الذي تفسره عبراني - آرامي في أصله، وإنما على البيان؛ أي: أنها تدلك على مناسبة التسمية وسببها. بعض هذه التفاسير مقبول وبعضها مفتعل، من مثل: ((ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي))[1]، وحواء كما تعلم ليست (أم كل حي) بإطلاق، وإنما هي أم كل حي من البشر فحسب، باستثناء (آدم) بالطبع.

والأكثر استيقافًا للنظر - لا سيما في آدم والملائكة من مثل جبريل وميكال رضوان الله عليهم - أن القرآن يتابع التوراة على تسمياتها هذه لهؤلاء الأعلام الثلاثة، بل قد أثبت القرآن لآدم اسمه هذا العبري - الآرامي على النداء من الله عز وجل: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[2].

أفكان آدم رجلًا عبرانيًّا أو آراميًّا؟ كيف وهو أبو كل البشر؟

أفكانت العبرية أو الآرامية هي اللغة التي عُلِّمَ بها آدم (الأسماء) كلها؟ أكانت هذه أو تلك هي لغة الملأ الأعلى؟ أكانت هذه أو تلك هي اللغة الأولى التي هبط بها آدم من الجنة؟

ليس لك أن تخوض في لغة الملأ الأعلى. هذا من غيب الله. ليس لك أن تفترض ضرورة وجود (لغة) لفظية - صوتية ما، أيًّا كانت، أداة للتلقي والفهم والخطاب فيما بين الملأ الأعلى. ليس لك أن تخوض فيما لم يعلمك الله.

أما لغة آدم التي تكلم بها على الأرض مهبطه من الجنة، فالراجح عندي - ولا ألزمك إياه - أنها هي نفسها اللغة التي علم بها آدم الأسماء في الملأ الأعلى، لا سيما اسمه هو نفسه الذي خاطبه به الله في الجنة، وثبت له عَلَمًا في الأرض بين زوجته وبنيه. والذي أقطع به - ويلزمك المنطق الصرف إياه - أن ثبوت العلمية لأبي البشر في الجنة وعلى الأرض - وكذلك لجبريل وميكال - بأسماء لا تفسر إلا بجذور ألفاظ تستخدمها اللغات السامية إلى الآن يعني أن لغة أبي البشر آدم كانت لغة سامية ما، بل قد كانت هي أم اللغات السامية جميعًا،

(١) تكوين ٣: ٢٠

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩.

أو أن اللغات السامية - دون سائر اللغات - هي الأحفظ لما بقي من لغة آدم بعدما تفرقت في لغات البشر. لا أقول لك - وإن كنت أُرَجِّحُ - أن العربية الأولى - قبل أن تتطور إلى اللغة التي نزل بها القرآن - قد كانت هي لغة آدم. يكفى العربية فخرًا أن قد كان بها ختام كلام الله إلى أهل الأرض، يكفي العربية فخرًا قرآنها.

أما لماذا يتابع القرآن التوراة في تسمياتها العبرية - الآرامية - وإن تعلقت بذوات غير آرامية وغير عبرية البتة، من مثل الملائكة رضوان الله عليهم، ومن مثل الأنبياء من آدم إلى نوح - فيعرِّب صورتها الآرامية - العبرية على نحو ما وردت في الصحف الأولى، ولا يُعَرِّبها عن الصورة المجهولة لنا الآن التي كانت عليها في لغة أصحابها قبل مولد هاتين اللغتين الآرامية والعبرية، فهذا هو منطق (العَلَمِيَّة) كما مر بك؟ قد سبق الوحي الأول بتلك الأعلام على صورتها في التوراة فثبتت، أي صارت علمًا على الذات التاريخية لأصحابها، إن عَدَّلتْهَا ولو بقصد التصحيح فقد حرفت وصحفت، بل لما جاز، قد ضللت سامعك إذن، ونكَّرت عليه شخص الذي تعني.

ولكن القرآن في تفسيره الفذ لأعلامه الأعجمية يعمد أحيانًا إلى التفسير بالتعريب وحده، كما سترى في (ميكال) صلوات الله عليه، فيجمع بين المعنى وبين الصورة التي استقر عليها الاسم العلم، في مزيج جل من أوحى.

* * * *

من خصائص العربية التنوين في الأسماء، أي الوقوف بالاسم - في اللفظ لا في الرسم - على نون ساكنة تلي حركة الإعراب، ولعلماء العربية وعلماء الصوتيات أيضًا وجوه في (تعليل) التنوين، ليس موضعها هذا الكتاب.

وقد شذت كما تعلم صور وأوزان وأعلام منع تنوينها. والاسم الذي يقبل حركة الإعراب ويمتنع تنوينه يسميه النحاة (الممنوع من الصرف).

والاسم الممنوع من الصرف - الاسم المعنوي والاسم العلم - لا يمتنع تنوينه فحسب حيث يجب التنوين، وإنما أيضًا يجر بالفتح في موضع الكسر.

ولأن الأصل في (العلم الأعجمي) منعه من الصرف (للعجمة)، فما كان أيسر عليك أن تحصي العلم الأعجمي في القرآن استنادًا إلى هذه القاعدة وحدها، فتسلم بعجمة تلك الأعلام التي امتنع تنوينها حيث يجب التنوين، أو جرت بالفتح في موضع الكسر، ثم ترفض دعوى العجمة في غيرها.

ولكنك لا تستطيع الاستناد إلى هذه القاعدة وحدها في التسليم بدعوى العجمة أو رفضها، فقد (صرف) العرب - أي نونوا وجروا بالكسر - أعلامًا أعجمية لخفة أوزانها، تجد منها في القرآن (نوحًا)، (لوطًا) المقطوع بعجمتهما، ومنعوا من الصرف في المقابل أعلامًا مقطوعًا بعربيتها مثل (أحمد) لمجيئه على وزن (أفعل) الممنوع من الصرف. تجد على هذا الوزن في القرآن (آدم)، (آزر) الممنوعين من الصرف في كل القرآن، فلا تدري أمنعا من الصرف للعجمة أم للوزن.

كذلك يمنع من الصرف في العربية للعلمية والتأنيث، أي العلم المؤنث مثل (فاطمة)، (زينب)، عربيًّا كان الاسم العلم أم أعجميًّا، ومثاله من الأعجمي المؤنث في القرآن الاسم (مريم)، الممنوع من الصرف في كل القرآن للعلمية والتأنيث قبل العجمة، فلا تقطع بعجمته مستندًا إلى منعه من الصرف فحسب، وإنما تنتظر حتى تؤصل الاسم في لغة صاحبه.

يمنع من الصرف أيضًا للعلمية والتأنيث قبل العجمة أسامي القبائل، إلا إذا أردت (القبيلة) أي القوم، ولم ترد (الحي) أي الموضع. من هذا في القرآن أمثال (ثمود)، (مدين) الممنوعتين من الصرف في القرآن. ولكن (ثمود)، (مدين) لا يمنعان من الصرف في القرآن على الموضع فحسب، وإنما هما ممنوعان من الصرف في كل القرآن حتى حين يراد منهما (القبيلة) صراحة، أي القوم، بدلالة ورودهما على جمع المذكر صريحًا، في مثل قوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾[1]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ

(١) سورة هود، الآية: ٦١.

أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[1]، فتستدل من هذا على أن (ثمود)، (مدين) لفظان أعجميان منعا من الصرف للعجمة. أما (عاد) فصرفت لخفة الوزن فحسب. إلى غير ذلك من موانع الصرف وشواذه مما لا نستطرد بك إليه؛ لأن مرادنا التمثيل فقط.

على أن كثرة الشواذ في القاعدة لا تبطل حكمها متى راعيت إعمالها بضوابطها. مثال ذلك أن تنعدم في الاسم كافة موانع الصرف إلا العجمة، كأن يكون اسمًا علمًا مذكرًا، من مقطعين فأكثر، على زنة لا يجوز فيها إلا الصرف، عندئذ تكون العجمة هي الوجه الوحيد لامتناع صرفه. من هذا اسم النبي (صالح) المصروف في كل القرآن، فتقطع لهذا السبب وحده بعربية هذا الاسم غير منازع.

ولكن عربية الاسم لا تعني عربية (صاحبه) بدليل عجمة من أرسل إليهم: ثمود. لأن (ثمود) - أو بالأحرى (قرى صالح) - لم تكن جغرافيًّا على عصر صالح عليه السلام من منازل العرب الناطقين بالعربية التي نزل بها القرآن. كان صالح النبي آراميًّا من قوم آراميين، ولكن اسمه الآرامي (صاليح) (والمد فيها بعد اللام مد بالكسر لا مد بالياء)، تواطأ لفظه ومعناه مع (صالح) العربية في القرآن، فصرف لخفة وزنه. وربما كانت (صالح) أبين الأمثلة على أسلوب القرآن في التفسير بالتعريب، وسيأتي هذا في موضعه.

وردت في التوراة أعلام أنبياء لم يذكرهم القرآن، مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[2]. وبالمثل، سمى القرآن أنبياء ثلاثة لم تذكرهم التوراة، ولم تذكرهم أيضًا الأناجيل، وهم (هود)، (صالح)، (شعيب).

وسمى القرآن أيضًا (إبليس) المختلف في عجمته، ولم ترد في التوراة إلا (ساطان) (شيطان)، المترجمة في الأناجيل اليونانية إلى (ذِيَبُلُس) *Dialbolos* وإن كانت الترجمة اليونانية غير دقيقة، لأن (ذيبلس) تعني (الرجيم)، لا العدو أو المناوئ - الذي تعنيه (ساطان)

(١) سورة هود، الآية: ٨٤.
(٢) سورة غافر، الآية: ٧٨.

العبرية - الآرامية. ويزعم أدعياء الاستشراق[١]، وتابعهم للأسف علماء عرب[٢]، أن القرآن نحت (إبليسه) من ذيبلس اليونانية هذه، كما عرب من قبل (ساطان) العبرية إلى (شيطان)، دون أن يدري أن الأولى ترجمة للثانية، لا أكثر ولا أقل.

والملاحظ أن (إبليس) ممنوعة من الصرف في كل القرآن، لا يلحقها قط التنوين، ولا تجر إلا بالفتح، والمنع من الصرف كما تعلم من دلائل العجمة، ولكنه ليس بدليل كاف في (إبليس) بالذات؛ لمجيئه على زنة (إفعيل) وهو وزن نادر في العربية، واقترنت الندرة بالعلمية فأشبه الأعجمي، فمنع صرفه.

والرأي في (إبليس) وأمثالها مما أخبر به الله عز وجل في القرآن على غير سابقة في التوراة والإنجيل - ومنه من الأنبياء هود وصالح وشعيب، أو من الملائكة: مالك وهاروت وماروت، صلوات الله وسلامه على ملائكته وأنبيائه - أنها من أنباء الغيب غير المتحدث به في التوراة والإنجيل اللذين بين يديك اليوم، وأن القرآن الذي لا يُحَاجُّ بما في التوراة والإنجيل، لا يُحَاجُّ من باب أولى بما ليس فيهما.

على أن لنا في (إبليس) رأيًا آخر يأتي في موضعه.

* * * *

أما ما جاء من أعلام القرآن على المخالفة الصريحة لنظرائها في التوراة والإنجيل، فمنها مرسى سفينة نوح عليه السلام: (الجودي)، وهي في التوراة (آراراط)، ومنها اسم أبي إبراهيم عليه السلام: (آزر) الذي سمته التوراة (تيرح) (بإمالة الألف في (تارح)) وحرفته الأناجيل اليونانية إلى (ثارا) *Thara*[٣]. ومنها أيضًا (طالوت) المسمى في التوراة (شاءول). ومنها

(١) منهم على سبيل المثال *Joseph Horovitz*، المرجع السابق.

(٢) أبرزهم (مجمع اللغة العربية) الذي يكفك في المعجم الوسيط عن اشتقاق إبليس من (أبلس) في باب الباء من (بلس)، ويحيلك إليه في موضعه من باب الهمزة بوصفه من الأعجمي المعرب الذي لا اشتقاق له في العربية.

(٣) انظر النص اليوناني الأصلي لإنجيل لوقا ٣: ٣٤.

(يحيى) - عليه السلام - المرسوم في النص اليوناني للأناجيل بالرسم (يُوَنِّس) *Ioannes* على أصل عبري مظنون هو (يوحنان)، أو آراميِّه (يوحنا)، أبدلت حاؤه همزة (سهلت لكونها غير بادئة)، وختم - على خلاف صورته الآرامية - بالكسر لا بالفتح، وأضيفت سين الرفع. وأخيرًا عَلَم المسيحية الأكبر عيسى - عليه السلام - المرسوم في الأناجيل اليونانية (يِسُوس) *Iesous* على الرفع، (يِسُون) على النصب، (يِسُو) في غير ذلك، وكأنها من (يِشُوَع) العبرانية؛ ذهبت عينها وأبدلت شينها سينًا.

هذا الاختلاف البين في تلك الأعلام الخمسة بين رسمها في القرآن ورسمها في التوراة والإنجيل، ليس - كما ترى - ناشئًا عن مجرد (التعريب)، وإنما هو خلاف في جذر الاسم نفسه، رغم أن القرآن ينص تنصيصًا على أنه يعني على القطع بأعلامه هذه نفس مسماها في التوراة والإنجيل، فالجودي هو نفسه مرسى سفينة نوح، وآزر هو أبو إبراهيم وجد إسماعيل وإسحاق، وطالوت هو الملك شاءول الذي خرج داود من عسكره لمبارزة جالوت، ويحيى هو نفسه يوحنا بن زكريا المصدق بالذي هو (كلمة من الله)، عيسى هو نفسه المولود من عذراء، الذي أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الميت.

أتظن أن القرآن - الذي يقص عليك بدقة مذهلة وعلم محيط أنباء أولئك وهؤلاء - يخفى عليه أسماء أبطال (قَصَصِهِ) في رسمها الآخر، وهو شائع ذائع بين معاصريه من أهل الملتين: يهود يثرب، ونصارى نجران؟ كيف يدقق في النبأ ويخطئ في البطل؟ كيف يذكر لك من أنباء الطوفان ما سكتت التوراة عنه[1]، ثم (يخترع) لمُرسى السفينة اسمًا مخالفًا

(١) لم تتحدث التوراة عن امرأة نوح التي خانته، ولا عن ابنه الذي اعتصم من الماء بجبل ولا عاصم، ولم تتحدث عن جدال نوح ربه فيه. والملاحظ على التوراة التي بين يديك أنها تجتزئ اجتزاء مخلًّا بالنسبة لأنباء ما قبل إبراهيم عليه السلام، لا هَمَّ لها إلا عمود النسب من آدم إلى إبراهيم، ثم هي لا تقص عليك شيئًا من نبوة إبراهيم ورسالته إلى قومه، وتحطيمه الأصنام، وتحريقه في النار، ولا عن جدال إبراهيم أباه، الذي لم يهجره إبراهيم وإنما ((هاجر معه)) كما تقرأ في سفر التكوين، وكأنما كل أهمية إبراهيم ليست في أنه نبي رسول، وإنما في أنه (البطريرك) (أبراهام أبينو)، وصاحب (الموعد) الذي رسم لليهود حدودهم الجغرافية - السياسية. أما باقي التوراة فكله حديث عن =

لما سمته التوراة؟ ألم يقع في سمع محمد ﷺ من أحبار يهود أسلموا أن اسم أبي إبراهيم في التوراة هو تيرح، فلماذا يصر على تسميته آزر؟ كيف يسمي داود وجالوت فيصيب، ثم (يفقد الذاكرة) فجأة في شاءول فيسميه طالوت؟ ألم يحاوره أساقفة نجران ثلاث ليال في مسجده بيثرب وهو يعرض عليهم الإسلام، أفجادلوه بيوحنا ويسوع؟ أم جادلوه بيحيى وعيسى؟ أيتقن في (قرآنه) كل هذا الإتقان، ثم يسفسف ويخلط في أعلام خمسة؟ أما كانت له في (الناسخ والمنسوخ) مندوحة فيصوب (أخطاءه) في أعلام التوراة والإنجيل برجال أسلموا من أهلهما؛ أمثال ابن سلام اليهودي وصهيب الرومي؟ أم هو يتحدى بالخطأ ويصر عليه؟

لا يظن هذا من خصوم القرآن إلا هازل. ولكنَّ من علمائهم وأحبارهم من فعلوه.

كان أحرى بهؤلاء وأولئك ألا يطيلوا الوقوف عند أوجه التطابق بين (كتابهم المقدس) وبين القرآن مطنطنين بدعوى النقل والاستنساخ: إن صح لهم الوحي فالمُوحِي واحد بنص القرآن، وقد تابع الإنجيل التوراة ولم يعيبوا عليه. بل كان عليهم أن يتوقفوا فيطيلوا الوقوف حقًّا عند نقاط مخالفة القرآن الصريحة - عامدًا متعمدًا - لمحفوظ مأثور، مسجل في كتبهم؛ ليتبينوا أي الوجهين أصوب وأدق؟ ولكنهم لم يفعلوا.

بل من خصوم القرآن هؤلاء ملحدون يدعون اصطناع المنهج العلمي في مقارنة (الأديان)، يستوي عندهم - في بطلان دعوى الوحي - التوراة والإنجيل والقرآن جميعًا، فتندهش كيف استباحوا مجادلة القرآن - ثابت الأصل والسند باعترافهم هم أنفسهم - بتوراة مقطوعة السند عندهم قالوا: إنها كتبت من الذاكرة بعد صاحبها بعدة قرون؟ أو بأناجيل أو ترجمات أناجيل يقولون: إن أصلها العبراني المفترض مفقود، لا تدري أين أخطأ المترجم أو أصاب، إلا أن تسلم بالوحي لكتبة الأناجيل اليونانية - كما ارتأت الكنيسة من قبل؟ الملحد والمتعالم ينكر الوحي على كائن من كان.

ولكنك تعلم أن هؤلاء ليسوا بعلماء، وإنما هم (خدام سياسة)، والهوى والغرض - كما تعلم - داءٌ عضال لا يرجى منه بُرْء.

= الذي ورث (الموعد): يعقوب وبنوه. إنها (توراة بني إسرائيل).

أما علماء الملتين فما أنصفوا وما سددوا. القرآن هو السند الأوحد لرأب ما انقطع سنده في التوراة والإنجيل، وهو سند أي سند!

بل ماذا ينكرون من القرآن وقد جاءهم القرآن بالخلق والبعث وبالتوحيد (الخالص) غير ملبوس وغير مهموس؟

ألأنه جاء (بالنبي) الخاتم من نسل إسماعيل لا من نسل إسحاق؟ أليس كلاهما نسل إبراهيم؟

ألأنه وقد أله الواحد، أثبت لعيسى وجبريل عليهما السلام الربانية والملأكة[1]، ونزههما عن دعوى الربوبية والتأله؟ وهل يؤمن في قرارة قلبه حقًّا بتعدد الآلهة أحد؟

أليس أبلغ في تكريم المسيح عليه السلام - وقد شرفه الله برفعه إياه إليه - أن يستجيب الله لابتهالات نبيه[2]، فيخلصه من كيد الذين كفروا، ويجيز عنه (الكأس) فلا يوقع الصلب عليه؟

أيهما أبين في الإعجاز، وأيهما أنبل وأشرف، أن يولد (ابن الإنسان)[3] بشرًا من عذراء؟

---

(١) أي الملأكة لجبريل والربانية لعيسى عليهما السلام. أما (رباني) (وهي ربي، وربوني العبرية) فليست ياؤها ياء الملك (أي ربي أنا) وإنما هي ياء النسب، أي المنسوب إلى الرب، الذي يَعْلَم ما للرب ويُعَلِّمه، وهكذا كان اليهود يسمون الدارسين الحافظين للتوراة، الذين يعلمونها للناس، وهكذا لقَّب المسيح حواريوه الذين عرفوه بهذه الصفة أول ما عرفوه، حتى بعد أن آمنوا به رسولًا إلى بني إسرائيل. وقد حذر القرآن من الخلط بين الربوبية والربانية في قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠]. لم يقل المسيح هذا بالطبع حتى في الأناجيل التي بين يديك، وإنما قالته (مجامع) انعقد أولها بعد رفعه بنحو ثلاثة قرون.

(٢) انظر على سبيل المثال إنجيل مرقس (١٤: ٣٦).

(٣) (ابن الإنسان) بالعبرية هي (بن أدام) أي ابن آدم لا ابن الله. وما فتئ المسيح يسمي نفسه في الأناجيل بابن الإنسان حتى رفع. فتأمل.

أم أن يتأنس الإله ويتأله الإنسان؟

ما ضرهم لو آمنوا بالقرآن مصدقًا لما معهم، محققًا، مصوبًا، مهيمنًا؟

ولكن.. لا أحد يلزمه في عقيدته أحد. بل يهدي الله لنوره من يشاء..

* * * *

أما الوجه الذي خالف به القرآن كلًّا من التوراة والإنجيل في تلك الأعلام الخمسة، فالحديث عنه يأتي بإذن الله في موضعه، عندما نتناول بالتحليل أعلام القرآن المعنية في هذا الكتاب عَلَمًا عَلَمًا.

لم يبق من هذا الفصل إلا الحديث عن (أساليب القرآن) في تفسير علمه الأعجمي، وعن خطة البحث فيما بقي من فصول الكتاب. وهذا هو ما ننتقل إليه الآن بعد تمهيد ليس منه بد.

* * * *

(٤)

استعرضنا في الفصل الأول من هذا الكتاب الفوارق الأساسية التي تفصل ما بين العربية وبين أختيها العبرية والآرامية، على رغم اتحاد الجذور وتقارب مخارج الأصوات، وعللنا إسهابنا هناك بأنه يفيد في استجلاء معنى العَلَم العبراني في التوراة والإنجيل. ونحن نضيف هنا فوارق أخرى بين العربية والعبرية يتعين الإلمام بها قبل المضي في البحث، كي يسهل على القارئ الذي لا يعرف تلك اللغة متابعة المقابلة بين لفظ العَلَم العبراني في التوراة والإنجيل وبين صورته الواردة في القرآن.

وسنقتصر بالطبع من تلك الفوارق على الضروري منها لمباحث هذا الكتاب دون أن نغفل فوارق ما بين العبرية والآرامية حال ضرورتها لما نتحدث عنه.

١ - أداة التعريف

أداة التعريف في العبرية ليست هي الألف واللام (الـ)، وإنما هي الهاء والألف (ها). وعلماء العبرية يقولون: إن أصلها قد كان الهاء واللام (هل). وكأنها هي نفسها (الـ) العربية أبدلت ألفها هاء. والعبرية أيضًا تسقط الحرف الثاني من أداة التعريف (ها)، أي ألف المد، وتستعيض عنه بتضعيف أول الاسم المعرف. من ذلك، (هاتُورا) (أي التوراة)، التي تصبح (هَتُّورا)، حذف ألف (ها) وضعفت التاء. يستثنى من ذلك أن يبدأ الاسم بأحد أحرف خمسة: أ - هـ - حـ - عـ - ر، عندئذ تظل (ها) ممدودة على أصلها ولا يضعف ما بعدها، كما في (ها أرِص) (أي: الأرض). وهذا يذكرك بما يسمى (اللام الشمسية)، (اللام القمرية) في العربية.

أما أداة التعريف في الآرامية فليست (الـ) العربية، ولا (ها) العبرية، وإنما هي ألف مد، يختتم بها الاسم ولا تَبْدَؤه، وكأنها - كما يقول علماء الآرامية - أثارة من ألف تنوين المنصوب في العربية سقطت نون تنوينه عند الوقف عليه في مثل: (وبالوالدين إحسانا)، لا يظهر التنوين في (إحسانا)، وإن بقيت علامته في النطق ألفًا ممدودة في آخر الاسم؛ لوقوفك على رأس آية وانتهاء الكلام. من ذلك في الآرامية (مَلْكَا) (أي: الملك)، عرفت بزيادة ألف ممدودة في آخرها.

وأداة التعريف الآرامية، وكذلك العبرية، تصلح أيضًا أداة للنداء، من ذلك في الآرامية قول عيسى عليه السلام للصبية التي حسبت ميتة: ((طاليثا قومي!))[١]، أي: ((قومي يا طلوة))[٢]، وأصلها (طاليث) زيدت بألف التعريف على النداء في آخرها. ومنه أيضًا في الآرامية (أَبّا)، وأصلها (آب) زيدت بألف التعريف الممدودة في آخرها على النداء، وضعفت الباء بديلًا من تقصير مد الألف البادئة، فأصبح معناها (أيها الأب!). تجد (أبا) هذه على لسان المسيح في الأصول اليونانية (مرقس ١٤/ ٣٦) في عبارة *o Abba pater* اليونانية. أضاف مرقس *Pater* اليونانية على التكرار ليترجم (أبا) الآرامية لقارئه اليوناني. وإن لم يقلها المسيح بالطبع، الذي اكتفى بـ (أبا) الآرامية التي لا يفهم غيرها حواريوه، لا يحتاجون أن يترجمها لهم المسيح، ناهيك بأن يترجمها لربه الذي يناجيه[٣]. ولكن المترجم العربي لم يرد أن يسقط حرفًا مما قاله مرقس في إنجيله اليوناني، فترجم عبارة مرقس اليونانية هكذا: ((يا أبا الآب!))، فأعضلت على القارئ العربي. صحيح أن (أبا) عربيًّا لغة في (أب) كما يقول المعجم العربي، ولكن ما الداعي للمجيء بلفظة (الآب) بعدها؟ أيترجم عربيًّا

(١) مرقس ٥/ ٤١.

(٢) طلوة العربية يعني الصغير من كل شيء، أي: قومي يا صبية! ورغم عدم شيوع طلوة العربية، فهي مكافئ (طاليث) الآرامية، اخترت الترجمة بها تدليلًا على قوة التقارب بين العربية والآرامية، ناهيك بـ (قومي)! وهي في اللغتين بنفس النطق والمعنى.

(٣) مر بك أن (آب) العبرية الآرامية تعني الأب المعروف، كما تعني الفاطر المبدع البارئ. كان المسيح يناجي (ربه) كما ترى، ولكن هكذا كان.

بعربي؟ ألا يخشى على القارئ المتعجل الذي يفوته الشكل والنقط أن يفهمها على المنادى المضاف إلى (الآب)، وكأن المسيح يناجي بها أبًا للآب؟ إن أراد التبرك بلفظ المسيح (أبا) فاستبقاه على آراميته، لكان يجمل به أن يقول: ((أبّا! أيها الآب!)) كما فعل مرقس في إنجيله اليوناني. أو لقال على الترجمة: ((أبّا!)) (يعني: أيها الأب).

٢- ألف التحلية[1]

يحدث في العبرية إضافة ألف في أول بعض الأسماء، لا لمعنى، ولا لوزن أو اشتقاق، وإنما للاسمية فقط، فهي الألف الزائدة للتحلية. ويحدث هذا في الاسم المعنوي، كما يحدث في الاسم العلم. من ذلك في الاسم المعنوي أمثال (أكزاب) (وتنطق كافها خاء لتحرك الهمزة قبلها كما مر بك)، وأصلها (كِزاب) يعني (كذوب)، تطلق على الجدول الذي يغيض ماؤه. ومنها أيضًا (أدون) يعني (سيد)، وأصلها (دون) تسمية بالمصدر من دان / يدون العبري (وهو دان / يدين العربي). ومن ذلك في الاسم العلم أمثال (أهارون) وهي (هارون) في القرآن، وسيأتي.

٣- المزيد بالنون

يُزاد بالألف والنون في العربية لمعان: منها الصفة مثل غضبان، ومنها النسب مثل إنسان (المنسوب إلى الإنس)، أو دعامة للنسب مثل رباني (المنسوب إلى الرب)، ومنها المصدر واسم الفعل مثل غفران وعصيان وغليان وطوفان، ومنها مجرد الاسم مثل عقربان (ذكر العقرب)، وثعبان، وعثمان (فرخ الثعبان أو فرخ (الحبارى) الطائر المعروف). وقد تقع الزيادة أيضًا في العربية بالواو والنون وصفًا على المبالغة، كما في ميسون، وحيزبون، وهو قليل.

والأكثر في العبرية هو وقوع الزيادة بالواو والنون، وتجيء أيضًا لمعان منها إفادة التصغير مثل (إيشون) مصغر (إيش) (إيش = إنسان) أي (أُنَيْسان)، ومنها المبالغة مثل (عِلْيُون)

---

(١) التسمية من عندي للتوضيح، ترجمة للإنجليزية *Prosthetic Aleph* لأن المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، الذي أحلتك إليه فيما سبق، معجم موضوع بالإنجليزية.

على المبالغة في العلو، ومثل (شِمْرُون) (شَمَر = حَفِظ) فهو (حفيظ)، ومنها الصفة على النسب مثل (إِشْتُون) (إِشِت = امرأة)، فهو (المتأنث) الذي يحاكي النساء، ومنها الصفة على الفاعلية مثل (حارون) (حَرَا = حمي أو احترَّ) فهو الحميُّ أو الحرور والمحتر، ومنها كذلك المصدرية واسم الفعل مثل (هِرْيُون) (هَرَا = حبلت المرأة) فهو الحَمْل والحَبَل.

على أن العبرية لا تخلو أيضًا من الزيادة بالألف والنون، والأمثلة كثيرة، منها (هاران) اسم أخ لإبراهيم (هار = جبل) فهو (الجبلي) المنسوب إلى الجبال، ومنها (زِمْران) (زَمَر = غنى) أي (المغني)، ومنها (كوشان) يعني الحبشي (نسبة إلى (كوش) بن نوح)... إلخ.

وأحيانًا تضع العبرية الميم موضع النون في هذا وذاك، فتقول: (فِدْيُوم) تريد (فِدْيُون) يعني (الفدية). وتقول: (مِرْيَام) والأصل (مريان) مصدرًا من (مَرَا) العبري بمعنى المراء والتمري، وهو قول علماء العبرية وعلماء التوراة في تفسير معنى اسم أخت موسى وهارون (مريام) وسيأتي. وربما قلت إن (عَمْرَام) اسم أبي موسى في التوراة هو نفسه (عِمْرَان) الذي في القرآن أبدلت نونه ميمًا.

ويحدث في العبرية أيضًا حذف النون جملة، استخفافًا، كما تجد في (يِثْرُو) اسم حَمِي موسى في التوراة، من الثراء والثروة والتنعم، وأصلها (يِثْرُون)، وكما تجد في (شْلُومُو) وهو سليمان بن داود عليهما السلام، وأصلها (شْلُومُون).

وكما تحذف العبرية النون أحيانًا من الوزن (فعلون)، تحذف أيضًا ياءه البادئة استخفافًا حين تكون مادة الجذر مبدوءة بالياء، في مثل (يَشَر) العبري بمعنى الاستواء والاستقامة، فتقول (يَشَرُون)، ثم تخففها فتقول (شارون) أي السوي المستقيم. وهذا أحد وجوه تفسير الاسم (هارون)، تأخذه من (يَهَر) العبري بمعنى علا، فتقول: أولًا (يَهَرون)، ثم تخففها إلى (هارون)، ثم تضيف ألف التحلية، فتصبح (أهارون) كما تقرؤها في التوراة العبرانية. ومن هذا أيضًا (قارون) التي في القرآن - كما نرجح نحن - صيغت على حذف الياء من يَقَر العبري (وهو (وقر) العربي) فقيل (قارون) أي (المُوقر غِنًى). وسيأتي.

٤- المبادلة بالأحرف والأصوات

تتألف الأبجدية العبرية (وهي نفسها الأبجدية الآرامية) من ٢٢ حرفًا يجمعها قولك: أبجد - هوز - حطي - كلمن - سعفص - قرشت، ليس فيها المجموعتان (ثخذ - ضظغ) اللتان تختص بهما العربية وحدها. وقد أدى افتقاد العبرية والآرامية هذه الأحرف الستة الموجودة في العربية (ث - خ - ذ - ض - ظ - غ) إلى مغايرة بين العربية وبين هاتين اللغتين في أحرف الجذر المشترك، حين يدخل في أصله العربي واحد من أحرف المجموعتين (ثخذ - ضظغ)، فَتُبْدِلُ منه العبرية والآرامية حرفًا آخر قريبًا من مخرجه. وقد مر بك من هذا (ضحك) العربية، (صحق) العبرية بنفس المعنى، كما مر بك (ظَبْي) العربية التي تقابلها (صَبْي) في العبرية، وهلم جرًّا. من ذلك أيضًا (غَدَن) العربية بمعنى استرخى ولان، ومنه (اغدودن) بمعنى طال والتف، أو كان ناعمًا متثنيًا، واغدودن النبت أي اخضرَّ حتى مال إلى السواد من شدة ريه: ليس في العبرية أو الآرامية (غين)، فتستعملان (العين) (غير منقوطة) موضع الغين في (غدن) العربية، فتصبح (عدن)، وهو اسم جنة عدن في التوراة بمعنى (جنة النعيم)، فلا تدري هل عرب القرآن (عِدِن) العبرية إلى (عَدْنٍ)، أم أن القرآن يريد المعنى الآخر من (عَدَن) العربية بمعنى (أقام)، وتكون (جنات عَدْنٍ) جنات إقامة؟ وسيأتي. كذلك ليس في العبرية والآرامية خاء أصلية، وحين تشتركان مع العربية في جذر تدخل فيه الخاء، يتحول توًّا في العبرية والآرامية إلى حاء (غير منقوطة)، فتصبح (خلق) العربية مثلًا (حَلَق) في العبرية والآرامية، أما ما كان أصلًا في العربية بالحاء فيظل على أصله العربي، فلا تدري هل اسم نوح عليه السلام في التوراة (وينطق (نُوَح)) من النواح، أم هو من الإناخة والتنوُّخ، أي البُقْيَا والتلبث، وقد فصل القرآن في هذا كما سترى، ولكن المفسرين لم يفطنوا إليه، وسيأتي. وقس على ذلك باقي الحروف الستة المشار إليها، مما يأتي في موضعه حين الحاجة إليه.

٥- التحورات في الجذر الثلاثي

لا تكتفي العبرية والآرامية بمغايرة العربية لضرورة أملاها افتقارهما إلى تلك الأحرف

الستة التي ذكرت لك، ولكن العبرية (والآرامية أيضًا) تغاير العربية بتنويعات في أحرف الجذر الثلاثي رغم وجود نفس الأحرف في الأبجدية العبرية - الآرامية. وهي تنويعات لا بد أن تتوقعها في لغات من نفس الفصيلة، وإلا لما اختلفت. من ذلك أن الفعل العربي (نصر) بمعنى أيد وأعان، لا وجود له في العبرية بهذا المعنى رغم امتلاك العبرية لهذه الأحرف الثلاثة، وإنما (نصر) العبري هو بمعنى (نطر) العربي، أي حفظ وراقب ومنه النواطير في بيت المتنبي: (نامت نواطير مصر عن ثعالبها)، أي الرقباء الحراس الحفاظ، (أو حراس الكرم خاصة)، أما الجذر العبري (نطر) فهو ليس نطر العربي، وإنما معناه احتجز، ومنه (مَطَّارَا) (وأصلها (مَنْطَارَا)) بمعنى (السِّجن). هذا وغيره كثير يجعلك تلتزم الحذر في تفسير العبري بالعربي عند تطابق الحروف، بل لا بد لك من استشارة المعجم العبري.

من ذلك أيضًا أن السين العربية تنقلب شينًا في العبرية، ومن ثم تفهم أن (يسوع) أصلها العبري (يشوع)، والخاء العبرية أصلها كاف في العبرية، فتفهم لماذا أصبحت (ميخائيل) ميكائيل (ميكال في القرآن).

كل هذا وما جرى مجراه يسمى الإبدال، أي وضع حرف مكان حرف، سواء تطابق المعنى أو تفاوت. ومن أهم أنواع الإبدال التي تغاير العبرية بها العربية وضع الياء موضع الواو البادئة في الجذر العربي، (وهي قاعدة لا تتخلف في العبرية والآرامية). من ذلك أن (وَسُع) العربية تصبح (يَشَع)، ولكنه في العبرية بمعنى (نجا) أي أُوسِع له وَفُرِّجَ عنه. ومنه اسم عيسى عليه السلام كما سترى. أما الفعل العربي المعتل الآخر بالألف (وقد ترسم في الخط العربي ياء مثل (جرى)) فهو في العبرية ينتهي أيضًا في النطق بالألف الممدودة، ولكنه يرسم ألفًا في النادر ويرسم غالبًا بالهاء، ولكنها هاء خاملة لا صوت لها إلا المد، ولكننا سنلتزم في هذا الكتاب رسمها دومًا بالألف منعًا للخلط بينها وبين الجذر العربي. من ذلك (ورى) العربية تصبح (يَرَا)، ومنها اشتقت (هَتُّورَا) (أي: التوراة)، وسيأتي. والمهم أن تلاحظ أن هذه الياء في (يَرَا)، (يَشَع) وأمثالهما ليست ياء المضارعة، وإنما هي ياء فعل ماض بدئ جذره بالياء، مثل (يَسَرَ) العربية بمعنى سَهُل وأمكن.

ومن الفوارق أيضًا في تصريف الأفعال وصيغ الفعل، أن صيغة (أفعل) التي يسميها النحاة (صيغة التعدية بالهمزة)، تصبح في العبرية (هِفْعِيل) بتغيير الهمزة هاء، وتظهر الهاء في المصدر (إفعال في العربية) أيضًا، مثل (هُوشِيَع) أي (إيساع) العربية، من التوسعة، وهي في العبرية بمعنى الإنجاء والتخليص والنصرة، (وهُوشِيَعْ اسم نبي لبني إسرائيل). ومن ذلك أيضًا صيغة (اِنْفَعَلَ) (المسمى بصيغة المطاوعة من (فَعَلَ))، وهي في العبرية (نِفْعَل) بحذف الهمزة تمامًا وإسقاط كسرتها على النون. وتظهر هذه النون في اسم الفاعل، فيصبح (نُوشَع) بمعنى (منصور) أو (منتصر).

ونحن نكتفي بهذا القدر على سبيل التمهيد لما سنوضحه بالنسبة لكل عَلَمَ عبراني نتناوله بالتحليل في موضعه.

في اللغة العربية - كما في غيرها من اللغات - جذور أميتت، أعني خرجت من نطاق الاستعمال كفعل يشتق منه ويتصرف فيه، وتبقى منها فقط في الاستعمال صيغ جامدة يعكف اللغويون على ردها إلى أصل مفترض، مستعينين بالسياق الذي تستخدم فيه، فيقتربون من الصواب، ولكنهم لا يحسمون.

أما اللغويون الأثبات فهم يلجئون إلى أداة أكثر حسمًا وأقمن بالإصابة، فيبحثون عن الجذر المفقود في لغة من ذات الفصيلة، وقد يتسعون فيلتمسون الجذر المفقود في جميع لغات الأسرة اللغوية بكل فصائلها. وهم يستندون في هذا إلى حقيقة ثابتة: الجذر الممات في لغة ما قد يظل حيًّا في أخواتها وفي بنات عمومتها.

والجذور التي أميتت في العبرية والآرامية وبقيت حية نابضة في لغتنا العربية كَمٌّ ضخم. أما الذي أميت في العربية وبقى حيًّا في العبرية والآرامية فهو نزر قليل. والذي يعنينا من هذا النزر القليل في مقاصد هذا الكتاب لفظتان اثنتان: (لَيْسَ)، (وَيْب).

أما النحاة فيقولون لك: إن (ليس) فعل جامد (ناقص) لا مضارع له ولا مصدر ولا اسم فاعل، يستفاد منه نفي المضارعة من الفعل (كان)، أي أن (ليس) تفيد نفي الكينونة، نفي

الوجود، نفي الحدوث، ونفي التحقق. ولكن مم اشتقت (ليس)؟ أصح ما قيل في هذا: إنها لفظ مزجي مركب من شقين (لا + أيس) أي هي نفي (أيس).

ولكن ما (أيس) هذه؟ إنها صيغة مماتة الجذر أيضًا، يقول لك المعجم العربي: إنها ضد (ليس) بدليل عبارة وقعت في كلام العرب: ائت به من حيث أيس وليس. أي ائت به على كل حال، من حيث وجد أم لم يوجد. لم تقع (أيس) في كلام العرب إلا في هذه العبارة، على التضاد من (ليس). وإذا كانت (ليس) موضوعة لنفي الصفة والحال، ونفي الوجود والتحقق، فلا بد أن تكون (أيس) لإثبات الصفة والحال، وإثبات الوجود والتحقق. أفتكون (أيس) بمعنى الوجود و(ليس) بمعنى العدم؟

ولكن (أيس) أميتت، وبقيت (ليس).

على أن (أيس) لم تمت في الآرامية والعبرية. فهي في العبرية يِشْ بمعنى التحقق والوجود، ومنها عبارة يِشْ لي، أي يوجد لدي، ومنها أيضًا عبارة بَرَا يِشْ مِئَيْن؛ أي برأ الوجود من عدم، تقولها متحدثًا عن الباري عز وجل. ولكن (ليس) هي التي أميتت في العبرية، وحلت محلها إِين (على الإمالة) وهي التي في مِئَين في برا يش مئين، وأصلها (مِنْ + إِين). أما في الآرامية فقد عاشت (أيس) وعاشت (ليس) كلتاهما، ولكن بالتاء المنطوقة ثاء، فهما إِيث ولِيث، الأولى لإثبات الوجود والصفة، والثانية لنفي الوجود والصفة. وتجيء (ليث) الآرامية أيضًا اسمًا بمعنى البطلان والعدم.

هذا الاتتناس بالجذر الحي في لغة من ذات الفصيلة يجلي فهمك (أيس) بمعنى الوجود والتحقق، ويجلي فهمك (ليس) بمعنى الانتفاء والبطلان واللاوجود.

أفتكون (إبليس) من (ليس)، أي (أبو ليس) بمعنى (أبو الباطل)، مركبة من (أب + ليس) - وهي في الآرامية آب + ليث - كنية صارت عليه علمًا لحظة فسق اللعين عن أمر ربه؟ ألأنه أول من تأبى على خالقه واستن به بعده كل العصاة؟ ألأنه أول من قال: لا. لمولاه؟ ألأن عصيانه بدأ بقوله حين أمر بالسجود لآدم: لست بساجد! (وهي بالآرامية ليث أنا يِسجد)؟ إن صح هذا، كانت إبليس اسمًا مزجيًا (أب + ليس) صيغ على زنة نادرة في العربية (إفعيل).

ولأن الاسم المزجي يمنع من الصرف وجوبًا، مثل حضرموت ومعد يكرب وتأبط شرًّا، فربما كانت إبليس ممنوعة من الصرف في القرآن لهذا السبب وحده، لا لعجمتها.

هذا ما لم تكن إبليس عربية من الإبلاس كما قال بعض المفسرين. ولنا في هذا كلام يأتي بإذن الله في موضعه من هذا الكتاب عند تحليل اسم إبليس.

ولا عليك الآن من (وَيْب) بمعنى الويل والضر والمكروه، فقد فهمت ما أعني.

****

من أعلام التوراة والإنجيل ما يجيء على النبوءة، وكأن الذي سماه يتنبأ له بما سيصير إليه، فيصدق. وهذا سائغ مقبول إذا كان المسمي هو الله تبارك وتعالى. أي بوحي منه عز وجل. من ذلك قوله تباركت أسماؤه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[1] تنصيصًا على تسميته من الله عز وجل باسمه هذا الذي تقرؤه في الأناجيل اليونانية (يِسُوس) كما تقرؤه في الترجمات العربية (يَسُوع)، تأصيلًا على جذر عبري هو يَشَع / يِيشَع أو شاع / يشوع (مقلوب الجذر العربي (وسع)) من السعة والفرج، أي الذي يوسع له ويفرج عنه، فيخلص وينجو، فهو الناجي الذي يخلصه الله من كيد شانئيه ومبغضيه وطالبي دمه، فيرفعه إليه، فكان كما سماه الله عز وجل.

أما أن يجيء الاسم العلم على النبوءة من غير الله عز وجل، أي بغير وحي منه تبارك وتعالى، ثم تصدق النبوءة بحذافيرها في المسمى، فهذا رجم بالغيب لا يصح أن تفترضه في المسمي، ولا يليق بك أن تظن به القدرة عليه وإن صدف. قد يولد لك ابن فتسميه باسم (صادق) فيكون أو لا يكون. أما أن يولد لك ابن فتسميه يوم مولده (السقا)، وإذا هو يَشُبُّ فيمتهن السقاية بالفعل، فهذا بعيد وغير مقبول. الصحيح أن أصحاب تلك الأسماء وأمثالها لم يتسموا بها يوم ولدوا، وإنما هم شهروا بها بعد تحقق الصفة والحال. من ذلك اسم (أيوب) عليه السلام، حين تشتقه – لا من الأوب والتوب كما فعل المفسرون

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

الذين افترضوا عربية هذا الاسم - وإنما من الوَيْب بمعنى الويل والضر والمكروه كما يفعل العبرانيون الذين يشتقونه من جذر عبري غير ممات هو أَيَب العبري بمعنى ضار / يَضِير أو ضرَّ / يضر، فهو (الضرير) المبتلى، أي ذو الضر، كما تجده في القرآن مفسرًا بهذا المعنى ذاته: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1]، فلا تكاد تشك لحظة في أن أبا أيوب لم يسم ابنه بهذا الاسم يوم مولده (تيمنًا) بما سيقع لابنه من صنوف الضر والبلوى، بل ترجح أن (أيوب) شهرة شهر بها إمام المبتلين بعد أن تأيب.

وغير أيوب من الأعلام كثير، حتى لتظن أن من أعلام التوراة والإنجيل من لم يسموا حتى أسنوا، ولكنها ألقاب وأسماء شهرة كما مر بك.

على أن الشهرة كالاسم تمامًا، عَلَم على صاحبها عرف به. وهذا يوضح لك لماذا يفسر القرآن أحيانًا العلم المقصود بشهرة صاحبه، فيظن الجاهل أن القرآن أخطأ ولم يصب، كما في شاءول وطالوت، ولكن القرآن المعجز لا يترك مثل هذا الجاهل على وهمه، وإنما هو يُلِمُّ في ثنايا الآيات بما ظن الجاهل أنه جهله أو غفل عنه، فيصوره لك بمعناه، حتى ليخيل إليك أنه ينص عليه نصًا. بل ربما شخص لك القرآن العلم المقصود دون أن يتقدم له ذكر في سياق الآيات، وكأنه يكني عنه، فتفهم اسم من ذا الذي يعني.

ولكن هذا بعض أساليب القرآن في تفسير أعلامه الأعجمية، تلك الأساليب التي ننتقل إليها الآن.



(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

(٥)

للقرآن في تفسير عَلَمه الأعجمي طرائق شتى، وقع لي بفضل من الله ونعمة استظهار ست منها وهي:

التفسير بالتعريب (ومثاله ميكال) - التفسير بالترجمة (ومثاله ذو الكفل) - التفسير بالمرادف (ومثاله موسى) -التفسير بالمشاكلة (ومثاله زكريا) - التفسير بالمقابلة (ومثاله عاد) - التفسير بالسياق العام (ومثاله لوط).

وقد تجتمع في تفسير عَلَم واحد أكثر من أداة، فيفسر مرة بالترادف، ويفسر أخرى بالسياق العام... إلخ، بنفس المعنى أو بقريب منه.

*** * * ***

أما التفسير بالتعريب فهو تعريب العلم الأعجمي على وزن عربي يفيد بذاته أصل معناه في لغته.

من ذلك أن القرآن في (ميكائيل) (وتنطق كافها في العبرية خاء لتقدم الياء عليها كما مر بك) لا يعربها على (مكئال)، ولا على (مكئيل)، ولا على (مئكال)، وإنما يعربها على (ميكال)، فيصيب التعريب ويصيب المعنى في آن واحد، كما سترى.

وشرط إمكان التفسير بالتعريب، اتحاد الجذر في اللفظين: الأعجمي والمعرب. ولا يتسنى هذا إلا في لغتين من نفس الأسرة اللغوية، كما هو الحال في اللغتين العربية والعبرية.

ويتعين التنبيه إلى أن التفسير بالتعريب ليس هو التفسير بالترجمة. التعريب - كما مر بك - هو استبقاء اللفظ الأعجمي في صورته الأعجمية بعد تهذيبه على مقتضى مخارج أصوات العربية وأوزانها، من مثل جيورجيوس التي عربت إلى جرجس، باستبقاء أحرف الاسم الصحيحة (ج - ر - ج - س) والاستغناء عما عداها، فاستقام نطقه على وزن عربي، أي أصبح الاسم الأعجمي عربيًّا بصورته، وإن بقي أعجميًّا بمعناه؛ إذ لا معنى للفظ جرجس في العربية؛ لأن اللغتين اليونانية والعربية ليستا من نفس الأسرة اللغوية، فلا تفهم معنى جرجس إلا أن يقال لك إن أصلها في اليونانية (جيورجيوس) وأن معنى (جيورجيوس) هذه في اليونانية (الحارث)، أعني أنك في التعريب تبقى محتاجًا إلى من يترجم لك، أما إن ترجمت الاسم العلم إلى معناه في لغتك، غير عابئ بأصل صورته في لغته، كأن تسمي جيورجيوس باسم الحارث مباشرة فقد أصبت المعنى وفاتك المبنى، وينتج عن هذا أن من يسمعك تقول: الحارث، لا يدري إن كنت تقصد رجلًا عربيًّا اسمه الحارث، أم تقصد رجلًا يونانيًّا اسمه جيورجيوس ترجمت أنت معناه إلى الحارث.

من ذلك في القرآن ذو الكفل الذي لا خلاف على عربيته مبنًى ومعنًى، ولا مجال لاشتقاقه من العبرية أو الآرامية، فتتوقف فيه: هل هو نبي عربي لم تتحدث عنه التوراة؟ أم هو علم من أعلام التوراة نص القرآن على معناه، ولم ينص على مبناه؟ وسيأتي.

أما لماذا يعمد القرآن أحيانًا إلى الترجمة ويهمل التعريب، فهذا إعجاز من ثلاثة أوجه: الوجه الأول العِلْم أصل كل إعجاز في القرآن. والوجه الثاني تحاشي التعريب حين تفيد الصورة التي يُعرَّب عليها الاسم عكس معناه في لغته، مثل يِشُوَع بمعنى الناجي في العبرية (عيسى في القرآن) المعدول عن تعريبها يَسُوع (كما فعل المترجم العربي في الأناجيل اليونانية)؛ لأن يسوع معناها في العربية الهالك[1]. وأما الوجه الثالث فهو خِصِّيْصَة من

(١) راجع في معجمك العربي مادة ساع/ يسوع، ساع/ يسيع، وكلتاهما بمعنى ضاع وهلك، وقد صحت في العربية التسمية بالفعل المضارع المفرد الغائب، يقصد بها اسم الفاعل، كما في يزيد على الفاعلية من زاد/ يزيد. فـ (يسوع) بمعنى السائع.

خصائص لغة القرآن: تحاشي الوحشي وتحري الجمال. ولو علمت أصل ذي الكفل في التوراة لأدركت ما أعني، ولما جَوَّزت فيه إلا الترجمة. وسيأتي.

التفسير بالتعريب والتفسير بالترجمة، هو كما ترى مُتَضَمَّن في بنية الاسم ذاته، معرَّبًا أو مترجمًا، لا يحتاج من ثم إلى مزيد بيان، فلا يفسر بغيرهما من أدوات التفسير الست في القرآن: الترادف، والمشاكلة، والمقابلة، والسياق العام.

* * * *

أما التفسير بالمرادف فهو الإتيان بالعلم الأعجمي على التجاور مع مرادف له في العربية يفيد معناه في لغة المتسمى به، كما رأيت من قبل في (ملك / رسول)، وكما رأيت في (شيطان / عدو). ولا يشترط في المرادف العربي أن يأتي على صيغة اسمية تفسر معنى العلم الأعجمي، كما في موسى، ومعناها في المصرية القديمة وليد، تجدها في: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[1]، وإنما قد يأتي المرادف أيضًا على صيغة جملة اسمية أو فعلية، كما في: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[2]، والمقصود في الحالتين موسى، المحذوف لدلالة السياق عليه، وسيأتي. من ذلك أيضًا إسحاق في قوله عز وجل: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾[3]، وفي ميلاد مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[4]، وكما في قوله عز وجل: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾[5]، وسيأتي بيان هذا كله في موضعه إن شاء الله.

وليس التفسير بالمرادف كالتفسير بالترجمة - كما لعلك حَدَسْت -: في التفسير بالمرادف يظهر العلم الأعجمي إلى جوار مرادفه العربي الدال على معناه. أما في التفسير بالترجمة

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٩.

(٣) سورة هود، الآية: ٧١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

فالعلم الأعجمي يختفي تمامًا في كل القرآن، ولا يظهر في القرآن إلا باسمه العربي ترجمة، كما سترى في ذي الكفل.

أما التفسير بالمشاكلة فهو ذلك الجناس المعجب الذي مر بك من قبل في قوله عز وجل: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[1] بين زِكر العبرية، ذِكر العربية، لا فرق بينهما إلا إبدال الزاي العبرية ذالًا، مع اتحاد المعنى. إنه فرع من التفسير بالمرادف - ولكنه ليس هو - لاتفاق المرادف العربي مع مرادفه العبري في اللفظ والمعنى، لا في المعنى فقط. والتفسير بالمشاكلة ليس هو أيضًا التفسير بالتعريب؛ لأن المُفَسَّر بالتعريب لا يظهر في القرآن إلا بصورته المُعَرَّبة، كما في ميكال، أما المفسر بالمشاكلة مثل زكريا فيظهر بصورته المعربة هذه مفسرًا بغيرها.

وأما التفسير بالمقابلة - والمقابلة هي الطباق عند أهل البديع - فهي الإتيان بالعلم الأعجمي مقابلًا بعكس معناه، أي أنها عكس الترادف تمامًا. من ذلك في القرآن عاد قوم هود، وهي في العبرية - الآرامية من الأبد: الخلود، و(عُدْنِي) عبريًّا بمعنى ما زلت وما أزال. ولكن القرآن يقول: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾[2]، أي أنه سبحانه أزال الباقية الخالدة التي لا تزول، فيفسرها بما آلت إليه. وسيأتي.

أما التفسير بالسياق العام فهو أنك تستخلص من سياق الآيات وصفًا لبطل الحدث المروي في القرآن، يلابسه ويلازمه حتى تكاد تسميه به، وإذا هو نفسه معنى اسمه العلم في التوراة.

من ذلك اسم لوط، ومعناه بالعبرية محجوب، الذي تجده مفسرًا بالمقابلة في قوله عز وجل: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾[3][4]. ولكنك تجده

(١) سورة مريم، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٥٠، ٥١.

(٣) سورة الحجر، الآيتان: ٦٧، ٦٨.

(٤) فضحه أصلها بمعنى كشف ستره وعراه، ومنه افتضاح السر الذي لم يعد سرًّا، ثم غلبت في =

أيضًا مفسرًا بالسياق العام أو الجو العام الذي توحي به إليك الآيات التي تصور لك لوطا وهو يراود عن ضيفه ولا يملك ما يدافع به إلا أن يفتدي ببناته فلا يقبل منه، ويهمون به ليبطشوا به إلا أن يخلي بينهم وبين ضيفه هؤلاء ليفعلوا بهم ما أرادوا، ويجزع لوط أشد الجزع وقد غُلب على ضيفه فيتوجع: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]، ولكن ضيفه يهونون عليه: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾[2]، ولكن الملائكة المكْرَمين لا يحاجزون عن لوط، ولا يبطشون بالكفرة الفجرة، فلم تحن بعد ساعتهم، بل يضربون بينه وبينهم بحجاب، فتغشى الذين ظلموا الظلمة: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾[3]، فيحتجب منهم لوط كما تحتجب الملائكة، ويضرب الليل بأستاره على القرية المجرمة، ويمضي لوط في ساتر الليل متبعًا ما أمر به: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[4]، لينجو بسحر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾[5]، ولا ينجلي الليل عن القرية إلا وقد صبحهم عذاب مستقر: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾[6]، وهلك الظَّلَمة رَدْمًا وعُمْيانًا: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[7]. هذا الحجاب المضروب على لوط في إفلاته من بطش الذين كفروا، وفي فراره من القرية الظالم أهلها، حجاب باطنه من قبله الرحمة، وظاهره من ورائه العذاب، ولذلك قيل له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾[8]، أي النجاء أمامك، وكل ما وراءك هالك، فاجعل القوم وراءك ولا تلتفت.

= التحدث بالمعايب والمثالب، وهو غير المقصود في الآيات.

(١) سورة هود، الآية: ٨٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٨١.

(٣) سورة القمر، الآية: ٣٧.

(٤) سورة هود، الآية: ٨١.

(٥) سورة القمر، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

(٦) سورة القمر، الآية: ٣٨.

(٧) سورة الحجر، الآيات: ٧٢ – ٧٤.

(٨) سورة الحجر، الآية: ٦٥.

هذا الجو العام الذي توحيه الآيات، سمة يتفرد بها القصص القرآني من دون كل قصص. الحدث المروي في القرآن لا يسرد عليك كما يسرد الخبر، ولكنه - على خلاف ما تجد في التوراة والإنجيل - يُبْعَث لك من غياهب التاريخ حيًّا نابضًا مشخصًا، وإذا أنت في قلب الحدث تسمع وترى، وقد طويت المسافات واستدار الزمن. تجد قريبًا من هذا في قصة نوح مع قومه (الآيات ٢٥-٤٨ من سورة هود) حين يبلغ الحدث ذروته، فتحسب أنك من ركاب السفينة مع نوح وهي تجري بك في موج كالجبال، وربما اشتد بك (الحضور) فهممت بأن تمد يدك إلى قمة جبل حاذاها الماء، تريد أن تلتقط الابن العاق وهو يغرق، ولكن موجة عاتية تحول دونك، فتسترجع ويسترجع نوح، فقد نُهِيَ عن ذلك من قَبْلِك، ولا يفرخ روعك إلا بانتهاء المشهد وقيله عز وجل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾[1]. فتثوب إليك نفسك.

هذا لون من وجوه الإبداع الفني المعجز في القرآن، ولو كان موضوع كتابنا هو هذا الإبداع لزدناك، ولكنك تعلم منه ما أعلم، ولم أرد من هذا إلا التمثيل لأسلوب القرآن في التفسير بالسياق العام، أي التفسير بالتصوير.

* * * *

والذي يجب التنبيه إليه أن التفسير القرآني لأعلامه الأعجمية، أيًّا كانت أداة التفسير المستخدمة، تفسير به خفاء، ليس هو خفاء التطابق بين المفسَّر والمفسَّر به فالتطابق تام، ولكنه خفاء القصد؛ لأن النسيج القرآني نسيج محكم، بالغ الإيجاز، بريء من الحشو والافتعال، كل لفظ فيه موزون بميزان، معناه مطلوب لذات معنى الآية، واللفظة أو العبارة المفسِّرة لمعنى الاسم العلم جزء في هذا البنيان المتضام المتكامل، أو أداة لتصوير الحدث نفسه، لا لتفسير الاسم، فلا تفطن إن كنت لا تعرف لغة الاسم العلم لوجه التناسب بين المفسَّر والمفسَّر به، أو لوجه المشاكلة بين هذا وذاك، كما تجد في تفسير اسم إسحاق

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.

بقوله عز وجل: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾[1]، فالعبارة هنا تعطيك وقائع الحدث المروي عليك بالكلمة والصورة باختصار بليغ اقتضى من كتبة التوراة عدة أسطر، دون أن يُلِمَّ سفر التكوين[2] بكل ما ألمت به تلك الألفاظ الخمسة من سورة هود، فقد سقط منها على سبيل المثال اسم المبشر به إسحاق، فتنتظر إلى الإصحاح ٢١ (٢-٥) كي تعلم أن إبراهيم هو الذي سمى ابنه إسحاق، وأن امرأته سارة قالت في تفسير الاسم: قد صنع إليَّ الله ضحكًا. كل من يسمع يضحك لي. ولكنك أمام تلك الألفاظ الخمسة في القرآن بمحضر من مشهد متكامل: ترى سارة قائمة تخدم ضيف إبراهيم، وتفهم بغير كلام أن الضيف (وهم وفد من الملائكة صلوات الله عليهم) قالوا شيئًا ما يتعلق بسارة رضي الله عنها، ضحكت له عجبًا وحياء، فأعيد عليها القول، فتفهم أن الذي قالوه قد كان بشارة بالمحال وقوعه لعجوز عقيم أيأستها السنون، وكأن الملائكة قالوا: ضحكت يا أم ضحاك! تسمية من الملائكة للمولود المبشر به، ولكنك لا تفطن لوجه التناسب بين ضحكت وإسحاق؛ لأنك لا تعلم أن إسحاق هي ضحاك، كما لا تفطن لوجه المشاكلة في عبارة من مثل: أحسنت يا حسن! إن قيلت لك بالإنجليزية هكذا: *Well-done, Hassan!*.

ولكن علمك بلغة الاسم العلم لا يكفي - وإن كان شرطًا أول - لأن القرآن لا يفسر لك أعلامه الأعجمية بمثل تلك الصورة المباشرة الفجة: أحسنت يا حسن! فلا يقول لك مثلًا: وامرأته قائمة فضحكت ولذا سمينا إسحاق، حتى يستثار فضولك إلى معرفة معنى إسحاق في لغة إبراهيم وسارة، ولا يقصد إلى التفسير قصدًا كما فعل كتبة التوراة، فيخطئ الكاتب ويصيب، كما رأيت في تفسير اسم حواء الذي تصدى الكاتب لتفسيره فقال: ((ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي))[3]، يريد أن اسمها أخذ من الحياة: (وإن كان آدم أول الأحياء من البشر كما تعلم)[4]. القرآن لا يعلل لك تسمية إسحاق بضحك سارة، فضحكها واقع

(١) سورة هود، الآية: ٧١. (٢) تكوين ١٨/ ٩-١٥.

(٣) تكوين ٣/ ٢٠.

(٤) لا ينص القرآن على حواء ولكننا سنتناوله بإذن الله في تحليل اسم آدم، تصحيحًا لما ذكره كتبة =

وقع، وجزء لا يتجزأ من صور الحدث المروي عليك، ملتحم بالمعنى العام للآية، لا حشو ولا افتعال، ولا خروج عن القصد، بل تأتي العبارة سلسة، ويجيء إسحاق في موضعه غير مقحم، فتظن أنت أن التفسير عارض عرض - بعد علمك بأن إسحاق هي ضحاك - لا مدخل له البتة في مقصود الآية، فلا تلتفت إليه.

ولكن هذا الذي لا تلتفت إليه يتواتر في كل علم أعجمي مذكور باسمه أو بكنيته في القرآن. فتتساءل أمقصود هو أم غير مقصود؟ أم أنه الإعجاز البياني الذي يؤلف بين الألفاظ والصور على هذا النسق المتناغم المتجانس لا يراد منه إلا هذا؟

وأنا لا أقول لك: إن المقصود هو هذا أو ذاك، فلا يملك مخلوق تقييد مقاصد الخالق عز وجل، وإنما الذي أقوله لك هو أن لإعجاز القرآن وجوهًا هذا أحدها. إنه دليل العلم ودليل القدرة.

* * * *

ثمة محاذير في تفسير معنى العلم الأعجمي من القرآن وبالقرآن. وأهم هذه المحاذير ألا تقع فيما وقع فيه بعض قدامى المفسرين، كأن تقول: إن يوسف من الأسف، معتلا بالمشاكلة والتجاور بين اللفظين في قوله عز وجل على لسان يعقوب: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[1]، دون أن تمحص معنى يوسف من العبرية نفسها، وكأن يوسف أصلها يؤسف لأن يوسف كان سببًا في أسف أبيه. هذه تخريجات لا تفيدك شيئًا، لأن أسف العربية ليست بالضرورة جذرًا مشتركًا بين اللغتين، بل هي بالأحرى من جذر عربي آخر لحقه القلب والإبدال: إنها في العبرية من ضَفَا العربية بمعنى نما وكَثُر، وهي أيضًا من ضاف / يَضِيف العربية بمعنى أماله إليه وضمه وأضافه، وأيضًا آواه واستضافه. وهذا كله لا صلة له بالأسف الذي تعنيه مادة (أَسِفَ) العربية.

= التوراة من أن حواء من الحياة.

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

والذي أقصده من هذا ألا تتلمس معنى العلم الأعجمي مستدلًّا عليه بقرينة التجاور وحدها، فالتجاور ليس هو بالضرورة الترادف، وإلا خبطت خبط عشواء فظننت أن إسحاق بمعنى العِلْم في اللسان العبراني، مستدلًّا على ذلك بتواتر وصف إسحاق بالعلم في القرآن مرتين: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[1]، ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[2] - يريدون إسحاق. هذا عبث لا يليق ببحث جاد، ولغو لا يصح في كتاب الله عز وجل.

وإنما الصحيح أن تؤصل أولًا معنى العلم الأعجمي في لغته، ثم تتلمس هذا المعنى نفسه في الآيات من القرآن التي تتحدث عن هذا الاسم مصرحًا به، أو مكنًّى عنه، أو محذوفًا لدلالة السياق عليه، وأنا زعيم لك بأنك ستجد هذا المعنى في كل عَلَم مرة واحدة على الأقل، وهذا كاف. وحبذا لو تواتر هذا الترادف في أكثر من موضع[3]، إذن لاستبان لك أن هذا الترادف لم يأت عرضًا. وحبذا أيضًا لو أتيح لك ترجمة تلك الآية من القرآن إلى لغة ذلك الاسم العلم، كي يتجلى لك كالشمس سطوعًا تطابق اللفظين في تلك اللغة: الاسم العلم ومعناه. من ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾[4]، وترجمتها الحرفية بالعبرية هي: (وَيبُؤُو إِل يُوسِف ويُوسِف إلاوْ أَحِيو)، ومرة أخرى في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾[5]، وترجمتها العبرية هي: وَيُبُؤُو إِل يُوسِف ويُوسِف إلاوْ أَبُوتَاوْ. في الترجمة العبرية (والترجمة من عندي فلا ذكر لهذا في التوراة العبرانية) تجد لفظة (يُوسِفْ) مكررة على التلاصق - يُوسِفْ ويُوسِفْ[6] - الأولى هي الاسم العَلَم يوسف عليه السلام،

(١) سورة الحجر، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢٨.
(٣) هذا حادث بالفعل في القرآن، ولكننا في مباحث هذا الكتاب سنقتصر على أبرزها وأوضحها؛ قطعًا لكل جدل.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٦٩.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٩٩.
(٦) يوسف العبرية يعني يؤوي على المضارعة من آوى، ولكن العبرية تستعمل في الحكاية الزمن المضارع تريد به الزمن الماضي.

أما يوسف الثانية فهي فعله (ترجمة آوى: فلما دخلوا على يوسف آوى إليه) فتستخلص أن القرآن يدلك على معنى اسم يوسف عليه السلام بفعل صدر منه - الإيواء والاستضافة - كان بحق محور دوره عليه السلام في تاريخ بني إسرائيل، وكأن الاسم يلخص لك هذا الدور أصدق تلخيص: كان يوسف لبني إسرائيل في مصر نِعْمَ الآوي - المضيف.

ولكن علماء التوراة - وعلماء العبرية أيضًا - يرون أن يوسف مشتق من جذر عبري آخر هو يَسَفْ الذي يفيد الإضافة بمعنى الزيادة، ولا يفيد الإضافة بمعنى الضيافة، فهو عندهم بمعنى يزيد، ربما لأن أم يوسف قالت في سفر التكوين وهي تضعه: إنها سمته يوسف ويزيدها الله ابنًا آخر. نعم، قد استجيبت دعوة راحيل فولدت ليعقوب وهي تجود بنفسها ابنًا آخر هو بنيامين (أي ابن اليمن والسعد)، وكأنها وهي تسمي يوسف تريد معنى يزيد. وليس لنا بالطبع - ولا لعلماء التوراة أيضًا - ادعاء العلم بمقصد راحيل رضي الله عنها من تسمية مولودها يوسف - إن صح أنها هي التي سمته ولم يسمه أبوه[1] - وإنما الذي يعنينا من الاسم منطوقه ودلالته: النطق على المعنيين (يزيد، يستضيف) في العبرية واحد، ولم يَتَسَمَّ باسم يوسف من العبرانيين قبل يوسف بن يعقوب أحد، ودلالة الاسم على مسماه تصح بالمعنى الذي تستخلصه من القرآن (يستضيف) ولا تصح بالمعنى الذي يريده علماء التوراة (يزيد)، لأن يوسف لم يكن أكثر الأسباط الاثني عشر نسلًا، ولكنه كان وحده لبني إسرائيل جميعًا الآوي المضيف، والتسمية على قصد النبوءة فاشية كما تعلم في أعلام التوراة (أو في سفر التكوين على الأقل)، لا يكاد يخلو علم من النص على أن التسمية تنظر إلى ما سوف يئول إليه، والذي أفسر لك به اسم يوسف الآن مفيد لعلماء التوراة في هذا الباب، ولكنهم لم يفطنوا إليه.

والذي يعنينا في هذا المقام أن نسجل للقرآن هذه الأستاذية السامقة في فقه اللغة العبرية، فيستخلص الإيواء من يوسف التي تفيد أيضًا يزيد، فيصيب المنطوق والمعنى كما يصيب

(١) يستوقفك في سفر التكوين على الأقل اختصاص الأم بتسمية مولودها لحظة ميلاده، لا سيما في تسميات أبناء يعقوب الاثني عشر، لم يفلت منهم إلا بنيامين، الذي تعسرت ولادته فأرادت أمه تسميته - بن - أوني، أي: ابن شقوتي، ولكن راحيل جادت بنفسها وهي تضعه، فسوغ يعقوب لنفسه تسميته. (تكوين ٣٥/ ١٩).

الدلالة التاريخية ليوسف في بني إسرائيل، وسبحان العليم الخبير. وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله عند تحليل اسم يوسف في موضعه.

ويعنينا أيضًا في هذا المقام التنبيه على محذور ثان، وهو فرط الوثوق بما ورد في نصوص التوراة من تفاسير تبرر التسمية، فليست هذه التبريرات جزءًا من وحي الله على رسله، وإنما هي اجتهادات الكاتب الذي يخطئ ويصيب. بعض هذه الاجتهادات متناقض مع نحو اللغة، فتحيل على الله عز وجل أن يكون هو الموحي، وبعضه حشو مقحم يتعالم به الكاتب فيزل القلم، ويفتضح الجهل. من ذلك ما تقرؤه في سفر التكوين (تكوين ١١/ ١-٩) من تفسير الكاتب لاسم مدينة بابل، فيقول على لسان الله عز وجل: ((وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعي اسمها بابل. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض)). تصدى الكاتب هنا لما لا يعرف فتردى في أخطاء جسيمة لا تصح من كاتب وحي؛ أخطأ في حق التاريخ، فظن أن أهل بابل كفوا عن بناء المدينة فلم يكتمل بناؤها، والواقع التاريخي أنها بنيت وحسن بناؤها، بل وكانت من أعظم مدائن التاريخ. وأراد تفسير ظاهرة اختلاف لغات البشر، فوقع في خطأ علمي بيِّن؛ لأن الناس لا تتباين ألسنتهم فيتفرقون، وإنما يتفرقون فتتباين الألسنة. ولم يكتف بهذا بل افترى على الله عز وجل الغَيْرَة من عباده الذين أتقنوا الصنعة، فبدد شملهم كيلا يتموا ما بدأوه، كما افترى على الله من قبل (تكوين ٣/ ٢٢-٢٤) الخشية من أن يغافله آدم، الذي ((صار كواحد منا عارفًا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا (بعد أن أكل من شجرة المعرفة) ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخِذَ منها. فَطَرَدَ آدم[1] وأقام شرقي جنة عدن الكَرُوبِيمَ ولهيب

(١) تجدها فَطَرَدَ الإنسان في الترجمة العربية، ولكنها في الأصل العبراني أدام أي آدم. صحيح أنه يسوغ في العبرية التعبير عن مطلق جنس الإنسان بلفظ أدام، ولكنه لا يصح في هذا الموضع؛ لأن المطرود من الجنة ليس مطلق جنس الإنسان، بل أبوهم. أما إنسان في العبرية فهي إِنُوش (من =

سيف مُتَقَلِّبٍ لحراسة طريق شجرة الحياة)). وهذا كله أدخل في باب الأساطير والقصص الشعبي، لا يصح في جنب الله عز وجل، فتقطع بأن هذا النص من عند غير الله، لا يلزمك. أما خطأ الكاتب في جنب اللغة فقد توهم أن بابل من البلبلة، فبنى على هذا الوهم كل ما سبق. والصحيح أن بابل لفظة أكَّادية (أي بابلية - أشورية) أصلها باب + إيلو تحورت في الآرامية إلى باب + إيل، أي باب الله، وظنها الكاتب العبراني من الجذر العبري بَلَلْ بمعنى خلط واختلط، ضُعِّفَ كما في زلَّ، زلزل العربية، فصار بلبل، ولكن كيف تأتي بابل من بلبل؟ لا يستقيم هذا بالطبع في نحو اللغة، فيضطر علماء العبرية رغمًا عنهم من بعد هذا الكاتب إلى افتراض ما لا يصح افتراضه، وهو أن بابل كان أصلها بَلْبِلْ![1] كل هذا ولا يتوقف أحد ليتساءل: ولماذا يستعير البابليون اسمًا من العبرانية لمدينتهم؟

عليك أن تكون من هذه التخريجات وأمثالها على حذر، فليست لها حجية النصوص الموحى بها. تقطع بهذا آمنًا مطمئنًا؛ لأن نسبة الخطأ إلى الله عز وجل لا تصح. بل ينبغي لك أن تؤصل معنى العلم الأعجمي في لغة صاحبه غير متأثر بتفاسير ساذجة أو مغرضة، كما رأيت من قبل في اختراع قصة زنا لوط بابنتيه ليكون لهما نسل من ماء الأب (مو + آب) فيكون منه الموآبيون، تشنيعًا على قبائل الموآبيين بعد أن قهروا بني إسرائيل، رغم أن الموآبيين أسبق وجودًا على الأرض من لوط وابنتيه. أو بتفاسير أملتها العقيدة من بعد، كما تقرأ في إنجيل متى[2]: ((فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم. وهذا كله كان ليتم ما قيل من الرب بالنبي القائل: هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنًا يدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره: الله معنا)). فتفهم أن الكاتب يفسر لك هذا الاسم العبراني يِشُوَع بأن معناه المخلص، بل هل هذا هو ما تصر عليه كل المعاجم المسيحية، رغم تصادم الترجمة مع منطق اللغة العبرية، ولكنهم يقولون لك: إن أصلها يِهِي - يِهِي شُوَع[3] اختزلت إلى يِشُوَع،

= إِنْس العربية).

(١) راجع المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة المذكور في حواشي هذا الكتاب، صفحة ٨٧.

(٢) متى ١/ ٢١-٢٣.

(٣) المرجع نفسه، صفحة ٣٥٤. أما (يِهِي) العبرية فمعناها (يكون) أضيفت إليها (شُوَع) بمعنى =

فلا تفهم لماذا وكيف، ولا تفهم لماذا يتفرد عيسى عليه السلام بهذا التفسير المفتعل من دون كل يِشُوَع قبله في بني إسرائيل وقد تسمى به كثيرون، ولا تفهم أيضًا لماذا يستدل متى بنبوءة النبي القائل بأن العذراء تحبل وتلد ابنًا يدعون اسمه (عِمَّانُوئِيل) (الله معنا) وهو ينص في العبارة السابقة على أن اسم المولود سيكون يسوع، وقد كذبت النبوءة بهذا المفهوم؛ لأن ابن مريم عليهما السلام دعي بالفعل يسوع، ولم يدع عمانوئيل. أيريد متى أن يعرِّض بأن هذا المولود هو الله، صار جسدًا وحل بيننا كما قال يوحنا في إنجيله؟[1] وإذا كان هو الله فكيف يخلص شعبه كما قال متى آنفًا؟ أفلله شعب يختص به من دون البشر؟ إن صح هذا في عقيدة اليهود (شعب الله المختار) فهو لا يصح البتة في دين المسيح عليه السلام، الذي شدد النكير على دعوى اختصاص أبناء إبراهيم بالخلاص، فقال: إن الله عز وجل قادر على أن يخلق من الحجارة أبناء لإبراهيم، ولكن (متَّى) كما تعلم يهودي تنصر. إلى هذا ومثله يفضي التفسير بالهوى والتفسير بالعقيدة، أو التفسير بغير علم، وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله عند تحليل اسم عيسى عليه السلام في موضعه.

أما المحذور الثالث، فهو أن تظن أن أعلام التوراة والإنجيل جميعًا أعلام عبرانية تفسر بالعبرية وحدها، غير ملتفت إلى الإطار الجغرافي التاريخي لصاحب الاسم العلم. فأنت لا تتصور مثلًا أن يلتقط آل فرعون موسى من اليم، ثم يتكلفون تسميته تسمية عبرانية (مُوشِيه) بمعنى اللقيط (أو المَمْسُوّ من الماء)، وإنما المنطقي أن يتحدث آل فرعون فيما بينهم بالمصرية القديمة، فيسمون الذي عثروا عليه في التابوت باسم مشتق من لغتهم هم، ولا ينتظرون حتى تسميه أخته (التي قصته)، أو أمه التي صارت مرضعًا له. ولا تظن أيضًا أن أم موسى رضي الله عنها ألهمت تسميته (موشيه) يوم وضعته أو يوم قذفت به في اليم، تفاؤلًا بما سيكون من أمر التقاطه من الماء، لو صح هذا لما أخطأت التسمية، ولما قالت (موشيه) على الفاعلية (أي الماسي)، بل لقالت (مَاشُويْ) على المفعولية (أي الممسو)؛ كي لا يحار من بعدها علماء

= الخلاص والنصرة، والمعنى أنه سيكون خلاصًا أو يكون به الخلاص. ولو كان المراد التسمية على الفاعلية من الإنجاء والتخليص لكان الاسم يُوشَع أو يُوشِيَع دون حاجة إلى كل هذا الافتعال.

(١) يوحنا ١/ ١٤.

العبرية في تعليل سبب التسمية على زنة الفاعل، لا على زنة المفعول. عليك إذن أن تلتمس للفظ موسى معناه في لغة آل فرعون، وستجد أن أصله مسو ومعناها وليد. وسيأتي.

من ذلك أيضًا اسم مريم أم عيسى عليهما السلام، تجدها في أصول الأناجيل اليونانية مرسومة *MARIAM* بفتح الميم والياء(أي بنفس نطقها في القرآن). كما تجدها أيضًا في تلك الأناجيل اليونانية مرسومة أحيانا *MARIA* ماريا محذوفة الميم في آخرها، على غير علة من الإعراب في اللغة اليونانية. ولكن أحدًا لم يتوقف ليتساءل لماذا فتح كتبة الأناجيل اليونانية ميم مريم ولم يكسروها كما في (مِرْيَام) أخت موسى عليه السلام، بل أجمعوا على أن مريم أم عيسى عليهما السلام سمية (مِرْيَام) أخت موسى (مكسورة الميم) التي يفسرونها في العبرية من التمري، الامتراء. بل ذهب أدعياء الاستشراق إلى أن القرآن، بقوله في سورة مريم: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[1]، يخلط بين مريم أم عيسى ومريام أخت موسى وهارون، بدلالة تقريعهم إياها في القرآن بعبارة: يا أخت هارون! أي ما كان يليق بك هذا وأنت من أنت، أخت هارون! وسيأتي تفنيد هذا في موضعه إن شاء الله عند تحليل اسم مريم عليها السلام. ولكن أحدًا لم يلتفت إلى أن الجليل، موطن مريم عليها السلام شمالي فلسطين، لم يكن عصر المسيح وقبله بثلاثة قرون على الأقل يتكلم العبرية، بل كانت اللغة الفاشية على ألسنة الناس هي الآرامية، بعد أن توارت عبرية التوراة في كل فلسطين منذ القرن الخامس قبل الميلاد، فلا تسمع إلا من حبر أو رباني (وهي رَبُّونِي كما تقول الأناجيل) يقرأ من التوراة فلا يُفهم منه إلا أن يفسر ما يقرؤه. وقد مر بك أن إصحاحات كاملة من سفر عزرا (القرن الخامس قبل الميلاد) كتبت بالآرامية مباشرة. كما تقرأ في سفر نِحِميا (معاصر عزرا) ما يلي: ((وقرأوا في السفر في شريعة الله ببيان وفسروا المعنى وأفهموهم القراءة))[2]. وبهذه الآرامية نفسها كان كلام المسيح عليه السلام مع عشيرته وحوارييه. ولا بد أن تتوقع لهذه الآرامية تأثيرًا في

(١) سورة مريم، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(٢) نحميا: ٨/٨.

نطق الأسماء الأعلام، بل وفي صياغة الأسماء الأعلام، على الأقل بالنسبة لأعلام المسيحية الواردة في الأناجيل، فلا تستبعد أن تبتكر في بني إسرائيل - عصر غلبة الآرامية على ألسنة الناس - أعلام آرامية التركيب والصياغة يستشكل تفسيرها بالعبرية، ولا يفهم معناها إلا أن تُرَدَّ إلى الآرامية التي اشتقت منها. من ذلك اسم مريم بفتح الميم البادئة لا يصح أن تكون هي (مِرْيَام) العبرية مكسورة الميم البادئة، ممدودة الياء، إلا إذا خطأت كتبة الأناجيل اليونانية في رسمها مفتوحة الميم، والإنصاف يقتضي منك - وتوجب نزاهة البحث عليك - ألا تبادر إلى تخطئة كتبة الأناجيل في تهجئة الأسماء الأعلام خاصة، قبل أن تلتمس لهم العلة؛ فقد كانوا - ومنهم خلصاء المسيح وحواريوه - ينطقون تلك الأعلام على الوجه الذي به كتبت، لا سيما والخط اليوناني لا يحتاج إلى الشكل والنقط، بل تكتب مَرْيَم مثلًا: ما - رى - أم *MARIAM*، لا شبهة في فتح ميمها البادئة. فهي إذن غير مِرْيَام *MIRIAM* العبرية، أخت موسى وهارون، من المراء والمرية. ولا يجوز أيضًا افتراض جواز كسر الميم وفتحها في مريام العبرية، لأن هذا غير جائز في نحو تلك اللغة. ولا يصح افتراض أنهم لحنوا في نطق مريام العبرية بتأثير آرامي؛ لأن الآرامية لا تفتح مكسورًا في العبرية، وإلا لفتحوا ياء يِشُوَع اسم المسيح عليه السلام، وهو اسم عبري خالص، تسمى به قبله في بني إسرائيل أعداد لا تحصى. وإنما الذي يصح منك هو افتراض آرامية اسم مريم أم عيسى عليهما السلام، لا شأن لك بمريام أخت موسى وهارون.

ونحن في هذا البحث نفترض آرامية اسم مريم أم عيسى عليهما السلام، مفتوحَ الميم، لأنه لا يصح لدينا وجه في تفسير معناه إلا بافتراض آراميته. وهو عندنا اسم مزجي، مركب من عنصرين آراميين: ماري + أَمَا، سهلت همزته، ثم رُخِّم، فأصبح مارِيَ +م، أي مريم (قارن (فاطمة) العربية التي ترخم فاطم). أما ماري فمعناها بالآرامية الرب، أو رَبِّ! على النداء والمناجاة والابتهال، أما (أَمَ) الآرامية فهي نفسها أمة العربية، مؤنث العبد، فهي عليها السلام أمة الرب. والذي يستوقف النظر أنها عليها السلام فسرت اسمها بهذا المعنى نفسه فيما يرويه على لسانها لوقا في إنجيله، ولم يفطن إليه من قارئي هذا الإنجيل أحد:

((فقالت مريم هو ذا أنا أمة الرب. ليكن لي كقولك. فمضى من عندها الملاك))[1]. ولو ترجمت عبارة ((أنا أمة الرب)) إلى الآرامية لغة مريم وعشيرتها، لجاز لك أن تقول باللسان الآرامي: أنا لـ(ماري) أمَا[2]، أي أنا للرب أمة. أما القرآن فيقول: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ ﴾[3] ومعنى القنوت في العربية - كما يقول معجمك العربي - هو (الإقرار بالعبودية) لله، كما تقرأ في القرآن في مناسبة تسمية مريم قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾[4]. كانت أم مريم رضي الله عنهما في الآية ٣٥ من سورة آل عمران قد نذرت ما في بطنها للرب محررًا، أي خالصًا لعبادته عز وجل، أي للخدمة في المعبد، عابدًا متحنفًا، وكانت ترجوه ذكرًا تهبه لله، وسألته عز وجل أن (يتقبل منها). وتنبئك الآيتان ٣٦ و٣٧ بأن المولود جاء أنثى على خلاف رجائها، فخشيت ألا يصح نذرها بأنثى فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وكأنها حين فوجئت قالت: أمة يا رب أمة! وهي بالآرامية: ماري! أما! ولكن العالم بما وضعت تقبلها بقبول حسن، فهو عز وجل هكذا أراد وقدر، ليخرج منها عِلم للساعة[5]، عيسى عليه السلام، المولود لغير أب، مولودًا من عذراء لا تُزَنُّ بريبة، كما قال عز وجل: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[6].

* * * *

أظنك أيها القارئ العزيز قد تهيأت الآن لمصاحبتي فيما بقي من فصول هذا الكتاب،

---

(١) لوقا: ١/ ٣٨.

(٢) العبارة الآرامية: (أنا لـ(ماري) أما) تنحل عناصرها إلى العربية كما يلي: أنا = أنا، لـ = لـ، ماري = الرب، أما = أمة.

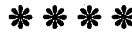
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٦ - ٣٧.

(٥) أي أنه عليه السلام من أشراط الساعة كما قال الصادق المصدوق ﷺ، وكما في القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ﴾ [الزخرف: ٦١].

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

لنحلل معا العلم الأعجمي في القرآن - عَلَمًا عَلَمًا - معناه في لغة أصحابه، قول مفسري القرآن فيه (إن وجد)، تفسيره من القرآن بالقرآن، وهو المقصد النهائي لهذا الكتاب الذي نكتب.



أما من حيث ترتيب تناولنا لتلك الأسماء الأعلام عَلَمًا عَلَمًا، فقد كانت أمامنا خيارات ثلاثة:

الخيار الأول: أن نتناولها بترتيب ألفبائي، أي بترتيب أوائلها على حروف المعجم العربي، فنبدأ (بإبراهيم) وننتهي (بيحيى) عليهما السلام مراعين ذات الترتيب في أحرف الاسم التالية للحرف الأول، فيجيء بعد (إبراهيم) (إبليس)، وبعد (إبليس) (آدم)، وبعد (آدم) (آزر)... إلخ.

الخيار الثاني: وهو تناول الأعلام بترتيب نوعها، كأن نبدأ بأعلام الذات، ونثني بأعلام الجنس، وننتهي بأعلام الموضع.

الخيار الثالث: وهو تناول تلك الأعلام بترتيبها التاريخي، فنبدأ بالملائكة و(آدم)، وننتهي بعيسى ابن مريم، صلوات الله وسلامه على ملائكته ورسله وأنبيائه، غير مفرقين بين علم الذات وعلم الجنس وعلم الموضع، بل يجيء كلٌّ في إطاره، فتجيء مثلًا التوراة ومصر مع موسى، ويجيء هود مع عاد، وثمود مع صالح، وشعيب مع مدين، والجودي مع نوح، والإنجيل مع المسيح ابن مريم.

وقد آثرنا في هذا الكتاب الأخذ بالخيار الثالث الذي يتناول الأسماء الأعلام بترتيبها التاريخي؛ لأن الخيار الأول - الألفبائي - وإن كان ييسر رجوع القارئ إلى الاسم العلم بترتيبه المفهرس، يعيبه أن ترتيب الأسماء الأعلام ترتيبًا أصم على حروف المعجم يقتطعها من إطارها الجغرافي - التاريخي - اللغوي، فتجيء توراة موسى العبرانية بعد إنجيل عيسى

الآرامي اليوناني، ويجيء عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل قبل نوح خليفة آدم، بل وقبل أمه مريم رضي الله عنها. أما الخيار الثاني الذي يفصل بين علم الذات وعلم الجنس وعلم الموضع، فيعيبه أنه يقطع مثلًا ما بين الإنجيل وصاحبه، وبين مدين ورسولهم، وبين فرعون ومصر.

أما الخيار الثالث الذي يحترم وحدة الأرض والتاريخ واللغة، ويراعي التسلسل التاريخي للأسماء الأعلام، فهو في رأينا أفضل الخيارات الثلاثة جميعًا؛ لأنه يضع الاسم العلم على أرضه، وبين معاصريه، حيًّا مشخصًا، يفسر بعضه بعضًا. وهو النهج الذي نلتزمه في أغراض هذا البحث.

أما الترتيب التاريخي فنحن نستدل عليه من القرآن حين ينص القرآن عليه، ضاربين صفحًا عما سواه، وإن خالفه وتعارض معه، ونستدل عليه من التوراة حين لا ينص عليه القرآن. أما أعلام الإنجيل الخمسة التي يتناولها البحث زكريا - يحيى - عمران - مريم - عيسى، فترتيبهم التاريخي منصوص عليه في القرآن الواحد بعد الآخر، ترتيبًا يتفق فيه الإنجيل مع القرآن.

ولأن الملائكة رضوان الله عليهم الذين يتناولهم هذا البحث: جبريل وميكال ومالك وهاروت وماروت، هم خارج الزمان والمكان، وكذلك الفردوس، عدن، جهنم، إبليس، فسوف نفتتح بحثنا بفصل يتناول هذه الأعلام التسعة مع آدم عليه السلام.

ولأنه ليس في القرآن - ما بين آدم إلى نوح - أعلام، باستثناء (إدريس) عليه السلام، الذي اختلف المفسرون في ترتيبه التاريخي على عمود الأنبياء: أهو قبل نوح أم بعده؟ وإن كانت الكثرة على أنه قبل نوح، فنحن نلحقه أيضًا بالفصل الذي يتحدث عن آدم، لا على وجه التسليم لرأي الجمهور، وإنما استدلالًا عليه باسمه في التوراة، لأن إدريس في رأينا ترجمة قرآنية دقيقة للفظة (أخنوخ) جد (لامك) أبي نوح، و(أخنوخ) أصلها العبراني (حَنُوك) (التي تنطق كافها خاءً لاعتلال ما قبلها)، ومعناها المحنك المحنوك، وسيأتي.

أما باقي الأعلام من نوح إلى عيسى عليهما السلام، فتجيء موزعة على خمسة فصول، بترتيبها التاريخي.

وكما لعلك حدست، سيأتي تفسير أعلام الجنس وأعلام الموضع في سياقها المناسب، أي في سياق تفسير أعلام الذوات المتصلة بها.

والله سبحانه ولي التوفيق.

* * * *

الفصل الرابع

آدم في الملأ الأعلى

تمهيد

يتناول هذا الفصل تفسير اثني عشر علمًا، هي: جبريل - ميكال - مالك - هاروت - ماروت - بابل - الفردوس - عدن - جهنم - إبليس - آدم - إدريس.

* * * *

يتقدم الملائكة، والجن أيضًا، في الخلق على آدم، أي كانوا قبل أن يوجد. تستدل على هذا بمثل قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

تستدل من هذا، ومثله في القرآن كثير، على أن الملائكة رضوان الله عليهم أسبق وجودًا من آدم؛ لأنهم نبئوا بخلقه من قبل أن يُخْلَق، وأمروا بالسجود له من قبل أن يشرع الله عز وجل في خلقه، وقبل أن يفرغ عز وجل من تسويته وينفخ فيه من روحه.

وتستدل منه أيضًا على أن (إبليس) كان موجودًا في الملأ الأعلى يوم فرغ الله عز وجل من خلق آدم، بدلالة توجه الأمر إليه بالسجود لآدم. وإبليس من الجن بمقتضى قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[2]. بل الجن أسبق

(١) سورة ص، الآيات: ٧١ – ٨٥.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

وجودًا من الإنس بنص قاطع في القرآن: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[1]، والجان هم الجن بلا خلاف.

وتستدل من هذا أيضًا على أن اسم (جهنم)، علمًا على النار التي يعذب بها العصاة والكفرة كان معلومًا لإبليس لحظة أن (فسق عن أمر ربه)؛ لأن الله عز وجل توعده بها هو ومن اتبعه، والوعيد لا يكون إلا بموجود معلوم، فدل هذا على أن جهنم أسبق وجودًا من آدم؛ لأن إبليس علم أمرها قبل أن يتأبى على السجود، أي قبل النفخ في آدم.

بل الجنة أيضًا - أعني (الفردوس)، (عدن) - أسبق وجودًا من آدم؛ لأن الحكم باللعن تضمن طرد إبليس منها لحظة تأبى على السجود: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾[2]، وقوله عز وجل عَقِيب هذا مباشرة لآدم: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3]. وهي نفسها الجنة التي أهبط منها آدم وزوجه بإتيان ما نهيا عنه استجابة لوسوسة إبليس. وهي نفسها أيضًا الجنة التي وعد بها المتقون يوم توفى كل نفس ما كسبت. وما (عدن) إلا نعت لتلك الجنة على الإضافة: لا (عدن) في كل القرآن إلا ولفظ الجنة مضاف إليها، منعوت بها. أما (الفردوس) التي وردت مرتين فقط في كل القرآن، فهي كما قال ﷺ: «**أوسط الجنة**». سيأتي بيان هذا في موضعه.

* * * *

ومن المفسرين[4] من غلبت عليه إسرائيلياته فظن أن (إبليس) لم يكن من الجن، وإنما كان من الملائكة[5]، بل كان رفيع الرتبة فيهم، فكان قائد جند الملائكة الذين حاربوا الجن

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩.
(٤) راجع في هذا ما حكاه القرطبي في تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة.
(٥) هذا هو قول أهل الكتاب في (إبليس) قبل أن يبلس. والقرآن على عكسه، كما سترى. ولم يؤثر عن النبي ﷺ فيه حديث، فليس في الحديث الصحيح ما يعارض القرآن.

حين أفسد الجن في الأرض قبل خلق آدم، فدخله من ذلك خيلاء وعجب أهلكاه حين أمر بالسجود لمن ظن أنه خير منه. ومنهم من قال: بل كان إبليس من الجن الذين حاربهم الملائكة فأسروه صغيرًا وربي فيهم، حتى أسجد الله الملائكة لآدم فشمله الأمر بالسجود. وهي تعلات لتبرير وجود إبليس في الملأ الأعلى يوم أمر الملائكة بالسجود لآدم ودخوله من ثم في جملة المأمورين بالسجود لآدم، أو لتبرير الاستثناء في قوله عز وجل: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ...﴾[1]. وهي في رأينا تعلات افتعلوها لحل إشكال ما كان لهم أن يفتعلوه، فقد نص القرآن على أن إبليس كان من الجن: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[2]. ولم يخبر القرآن ولا الحديث الصحيح بأن صنف الجن كانوا قبل زلة إبليس ممنوعين من دخول الجنة. أما القول بأن إبليس كان من الملائكة المأمورين بالسجود بدليل استثنائه بالحرف (إلا)، فليس بشيء. لأن (إلا) ههنا يتعين فهمها بمعنى (لكن) - وهذا من فصيح العربية - أي سجد الملائكة، لكن إبليس لم يسجد. يتعين هذا لأن النص القرآني المحكم، أي الذي لا يحتمل إلا معنى واحدًا فقط، يحكم النص القرآني الذي يحتمل معنيين فأكثر، وليس لعبارة (كان من الجن) إلا هذا المعنى القاطع[3].

أما دخول إبليس في جملة المأمورين بالسجود لآدم، رغم اتجاه الأمر بالسجود للملائكة وحدهم وليس إبليس منهم، فلك أن تفسره على أحد قولين:

الأول: - الذي نرجحه - أن الأمر للملائكة بالسجود يتجه إلى كل من شهده حتى النبت والشجر، فهو سجود الطاعة والإذعان لله عز وجل، لا لآدم، وإن كان مناسبة لتشريفه، وإشعارًا بما سيكون من شأنه. فلا يجوز لكائن من كان أن يحضر سجدة لله عز وجل في غير الصلاة ولا يسجد. ولا يجوز لكائن من كان أن يشهد الملائكة سُجَّدًا ولا يخر على جبهته.

(١) سورة ص، الآيتان: ٧٣ - ٧٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٣) من المفسرين (راجع (القرطبي) في نفس الموضع) من تظارف موفقًا بين النصين فقال: بل كان إبليس ملكًا من طائفة رفيعة القدر من الملائكة تدعى (الجِنَّة) وهو تظارف مموج.

وما يكون لك أن تتخيل الملائكة سُجَّدًا خُشَّعًا وإبليس منتصب في مكانه لا يخنع. وما كانت هذه لتفوت إبليس لولا أن الحقد أطغى قلبه، وأعمى بصيرته. لم تكن هذه السجدة امتحانًا للملائكة؛ فقد علم عز وجل أنهم لا يعصون له أمرًا، ولكنها كانت امتحانًا لإبليس، فكشف اللعين عن مكنونة نفسه. فأَثِمَ بها في حق الله، لا في حق آدم، وأصر عليها فلم يعتذر منها ولم يتب، بل استدرك على مولاه: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[1]، أي ليس لك أن تأمرني بهذا، فأنا أرفع منه. يحيل على خالقه عز وجل أن يحكم في ملكه كيفما شاء، ويؤصل حجته بما يفندها، فيقول: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[2]؛ مقرًا بأن الله خالقه، فكيف يعصيه؟

أما على القول الثاني فهو أن إبليس أمر بالسجود لآدم أمرًا مباشرًا لحظة إسجاد الملائكة لآدم، ولم ينص القرآن عليه اكتفاءً بدلالة ما تلاه من قوله عز وجل: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[3].

كيفما كان الأمر، فإبليس ليس بالقطع من الملائكة رضوان الله عليهم، فهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[4]. ولم يُسَوِّ القرآن بين الجن والملائكة، بل هو يضع الجن والإنس في زمرة واحدة، هي زمرة المبتلين بالطاعة والمعصية، من كليهما مؤمن وكافر، ومنهم الفاسق والبار، فريق في الجنة وفريق في السعير، مصداق هذا قوله عز وجل على لسان نفر من الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[5]، ومنه أيضًا سورة الرحمن التي تخاطب الإنس والجن على سواء، وفيها: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[6]، أي أبكار لأصحاب الجنة

(١) سورة الحجر، الآية: ٣٣.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٧.

(٥) سورة الجن، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٦) سورة الرحمن، الآية: ٥٦.

من الإنس لم يطمثهن إنس فيمن طمثوا من نساء الإنس، وأبكارًا لأصحاب الجنة من الجن لم يطمثهن جان فيمن طمثوا من نساء الجن[1].

وهذا يفسر لك بأجلى بيان قوله عز وجل: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[2]، التي تفهم على التفسير كما تفهم على الخبر، أي أنه لو لم يكن من الجن لما فسق عن أمر ربه، ولكنه كان في زمرة المبتلين بالطاعة والمعصية، فغلبته شقوته، وأهلكته كبرياؤه، ولا يظلم ربك أحدًا.

ولكن إبليس - وقد خرب آخرته بيديه - استمهل الله عز وجل ألا يزج به من فوره في دار العذاب ريثما ينتقم لنفسه من آدم وبنيه إلى قيام الساعة، متبجحًا على الله عز وجل بأن نسب إليه غوايته بآدم: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[3]. لم يطلب التوبة والمغفرة، بل آثر أن يزداد رجسًا إلى رجسه. لم يقل فأنظرني إلى يوم يبعثون أندم وأتب، بل قال: فلأضلنهم كما ضللت، ولأغوينهم كما غويت، فنكون في النار سواء: لا أهلك أنا وينجو آدم وبنوه. ولو تاب إبليس لتاب الله عليه، ولكنه الحسد الأسود، والحقد المهلك.

وليست زلة إبليس بالتي تعدل زلة آدم، لأن إبليس زين المعصية لآدم، فكان لإبليس كفل منها، وشرك فيها. أما إبليس فزل بنفسه، أزلته كبرياؤه، فقصد المعصية قصدًا، واستكبر بها استكبارًا.

كانت زلة آدم زلة الغافل الناسي: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ﴾[4]. وكانت زلة إبليس على علم، ولا أفدح من سقطة عالم.

---

(١) وليس كما يذهب إليه أهل الخرافة والشعوذة ورواة الأساطير عن إلمام رجال من الجن بنساء من الإنس، أو العكس.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦، ١٧.

(٤) سورة طه، الآية: ١١٥.

على أن الدرس المستفاد من الزلتين واحد: إنه درس الطاعة، أمرك مولاك فأطعه، لا تتمحك بطلب العلة، وكأنك مفوض في الطاعة والمعصية، أو كأن الطاعة والمعصية رهن باستحسانك.

****

ولا شك أن إبليس كان قبل أن (يبلس) في عداد الجن المؤمن، يعمل في طاعة الله عز وجل، بل سكن الجنة، وجاور الملائكة رضوان الله عليهم، بدليل طرده منها فور عصيانه: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾[1]. خرج منها الرجيم ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾[2] لإصراره على المعصية، كما خرج منها أيضًا آدم وزوجه حين استجابا لإغواء إبليس. ولكن آدم وزوجه اعترفا بذنبهما وسألا الله الرحمة والمغفرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[3]. طلبا التوبة فلقنهما الله عز وجل ما يسألان به التوبة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[4]. ولم يسألها إبليس؛ لأنه شغل بعداوته لآدم عما سواها، وإن كان فيها هلاكه هو ذات نفسه. وهذا هو الضلال المبين.

أخرج الله آدم وزوجه من الجنة تائبين، قد أخذ عليهما العهد أن يخلصا له الدين. وما الدنيا بكل ما عليها إلا تمحيص من الله عز وجل لعباده: أيهم باق على هذا العهد مخلص له الدين؟ وما كان آدم الذي شهد وعاين بالذي ينخدع مرة أخرى بإبليس، فيعصي الله في الأرض بعد زلته في الجنة، ولكن الاختبار لبنيه.

ولأن نسل آدم لم يشهد ولم يعاين: لم يشهد إسجاد الله الملائكة لآدم، ولم يشهد عصيان إبليس، ولم يشهد زلة آدم، ولم يسمع إبليس يستعلن له العداوة إلى يوم الدين، فما كان من العدل أن يتركوا في جهالتهم، يصول فيهم إبليس ويجول. بل شاء الله عز وجل - عدلًا منه

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

ورحمة - أن يودع فيهم دين الحق فطرة، فأشهدهم قبل الاختبار على أنفسهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾[1]، ووصى بها آدم حين مهبطه من الجنة، وقد أهبط معه إبليس عدوًّا: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[2]، فكان آدم عليه السلام أول الرسل والأنبياء، يقص ما كان: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[3]، وتتابعت الرسل تترى؛ كي لا تكون للناس على الله حجة من بعد الرسل، ومن ضل من بعد فإنما يضل عليها، وما ربك بظلام للعبيد.

* * * *

ويرى المفسرون بحق أن إبليس لم يسم (إبليس) إلا بعد أن أبلس، لأن هذا الاسم - إن اشتققته من العربية - فيه مذمة، والمذمة تكون بعد اجتراح الذنب لا قبله. وهي تكون مساوية للذنب، دالة عليه، أو صفة لصاحبه بما آل إليه. ويروي المفسرون أن إبليس قبل أن يبلس كان اسمه (عزازيل) ثم أبلس بعد، ولم يتعرض المفسرون لمعنى (عزازيل) هذه؛ لأنهم لا يعرفون العبرية التي يسهل اشتقاق هذا الاسم منها، فتفهم أن الرواية من أقاصيص أهل الكتاب، تصح أو لا تصح، فالله عز وجل أعلم بغيبه. ونحن في هذا الكتاب لا يعنينا في المقام الأول اسم إبليس قبل أن يبلس، لأننا لا نتعرض إلا للأعلام المنصوص عليها في القرآن، لا المروية في غيره.

ولكن الطريف أن (عزازيل) هذا اسم عبراني مركب (عَزَاز + إيل) يفسره علماء العبرية بمعنى (الذي أعزه الله)، فهو (العزيز بالله)، وهو علم وقعت التسمية به في العبرية، ومثله:

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) سورة طه، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(عُزِّيئيل) (عزي + إيل)، أي (عزة الله)، وكأن اللعين حين أقسم بعزة الله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1]، كان يُورِّي باسمه هو، يقسم بنفسه، لا بعزة الله عز وجل. والله بغيبه أعلم.

والذي يجب التنصيص عليه في هذا السياق، هو النعي على أهل التفسير والسِّيَر، وأيضًا على أهل الفن والفكر والأدب، الذين تناقلوا ما دسه إبليس على أوليائه من أساطير وتهاويل لا يخلوا منها (أدب الخرافة) في كل الشعوب، تتحدث عن (أمجاد) إبليس قبل أن يبلس، تريد تفخيمه وتعظيمه وغرس المهابة منه في صدور الناس، حتى خصوه بأضوأ كوكب في السماء الدنيا، كوكب الصبح! أي كوكب (الزهرة)، وجعله بعضهم ندًّا لله، وجعله بعضهم شهيد البطولة في محنة السجود لآدم، وأول من قال: (لا)! ليس التنكر للخالق عز وجل بطولة، لا صحيحة ولا زائفة، وإنما هو وضاعة. هذا كله فسوق وصغار. لا يجوز لمؤمن تجميل ما قبحه الله، ولا يجوز لمؤمن إعلاء ما وضعه الله أسفل سافلين. لا يجوز لمؤمن تمجيد ما رذله الله، ولا يجوز لمؤمن تعظيم من لعنه الله، ناهيك بموالاة عدو الله. بل لا يجوز لعاقل موالاة من أقسم ليجرنه وراءه إلى قاع جهنم.

أيًّا ما كان الأمر، وأيًّا ما كان حال إبليس قبل أن يبلس، فقد ضرب لك الله بإبليس المثل: لا يتعظمن أحد على الله، ولا يستكبرن أحد على طاعة الله، ولا يستنكفن أحد من الخضوع لله. وقد هلك بها إبليس أول هالك، فحذار أن تزل به، فتشركه المصير الذي اختار لنفسه.

لا يترحمن أحد على إبليس، وقد أقسم لا يرحمك. ولا يتباكين أحد على إبليس، فلم تدمع لإبليس عين. كان إبليس عدو نفسه، قبل أن يكون عدوك.

* * * *

أما الملائكة رضوان الله عليهم، ولا يعلم جنود ربك إلا هو، فقد سمى القرآن منهم خمسة: جبريل - ميكال - مالك - هاروت - ماروت.

(١) سورة ص، الآية: ٨٢.

والملائكة من غيب الله عز وجل. وغيب الله عز وجل حضور غير مشهود، إلا من ارتضى من نبي أو رسول. إنهم جند الله عز وجل العاملون بأمره، المتنزلون برسالاته، الساعون في قضائه. منهم حملة عرش ذي الجلال، ومنهم الحفظة الكتبة، ومنهم السفرة الكرام البررة. أثنى الله عليهم في القرآن الثناء الحسن، ونعتهم بكل جميل؛ امتدحهم بالإخبات والطاعة: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[1]، وضرب بهم المثل في القدر والقدرة: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ﴾[2]، وأنعم عليهم بالقرب: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾[3]، وخصهم بالجوار منه عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾[4]، وشرفهم بالمعية: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[5]، وبسط لهم في الخلق: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ﴾[6].

وهم رضي الله عنهم رتب ومراتب، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[7]، أعلاهم الروح الأمين، وأدناهم إليك رفيق عمرك، الحافظ الكاتب: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[8]. وهما اثنان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[9]، لا يتركانك حتى يسلماك إلى ما قدمت لنفسك: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[10].

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.
(٥) سورة الفجر، الآية: ٢٢.
(٦) سورة فاطر، الآية: ١.
(٧) سورة الحاقة، الآية: ١٧.
(٨) سورة الطارق، الآية: ٤.
(٩) سورة ق، الآيات: ١٦ - ١٨.
(١٠) سورة ق، الآية: ٢١.

كلهم من أمر الله، وبأمر الله، وفي أمر الله، محمود بالطاعة فيما أُمِرَ، سواء ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(1)، يمتدحهم بالغلظة والشدة في طاعته عز وجل، صدوعًا بأمره، وتحقيقًا لوعيده. ومنهم أيضًا - رضي الله عنهم - الذين يصلون عليك: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾(2)، ويستغفرون لكل من آمن: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(3). والملائكة الذين يستغفرون للذين آمنوا في هذه الدنيا، يتلقونهم في الجنة بالسلام، وقد استجاب الله دعاء الملائكة فيهم: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(4). والسلام - الذي هو تحية الملائكة، رضوان الله عليهم، لأهل الجنة - نشيد في الجنة دائم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾(5).

* * * *

ولأن الملائكة رضوان الله عليهم أقرب الخلق من الله عز وجل، فهم أعبد الخلق لله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾(6)، لا يملون ولا يسأمون: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ

(1) سورة التحريم، الآية: ٦.
(2) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.
(3) سورة غافر، الآيات: ٧ - ٩.
(4) سورة الرعد، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(5) سورة الواقعة، الآيتان: ٢٥، ٢٦.
(6) سورة الأنبياء، الآيتان: ١٩، ٢٠.

بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾[1]. ولأنهم رضي الله عنهم أعرف الخلق بالله عز وجل، فهم أخشاهم له: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾[2]، ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[3]. وهم على مكانتهم - رضي الله عنهم ورضوا عنه - لا يتجاوزون أقدارهم، فلا يسبقونه عز وجل بالقول، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾[4].

عصم الله الملائكة من أن يفتتنوا بأنفسهم، ولكن من الناس من افتتنوا بهم فعبدوهم، بل اتخذ بعضهم من الملائكة أصنامًا إناثًا آلهة، من مثل العزى واللات ومناة، وقد رد الملائكة على أولئك الذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾[5].

هذا قول الملائكة رضوان الله عليهم فيمن عبدوهم من أهل الجاهلية الأولى، وهو قولهم فيمن يعبدون إلى اليوم (روحَ القدس) جبريل عليه السلام: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾[6].

* * * *

ومن الملائكة أيضًا من جعله الله فتنة وابتلاء. ذكر الله من هؤلاء في القرآن اثنين: هاروت وماروت.

وشبيه بفتنة هاروت وماروت في بابل فتنة السامري الذي صنع لبني إسرائيل في التيه ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾. صنعه من ذهب القوم. أوقد عليه ثم ألقى فيه ﴿قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٤) سورة النجم، الآية: ٢٦.

(٥) سورة سبأ، الآيتان: ٤٠ - ٤١.

(٦) سورة مريم، الآية: ٨٢.

﴿ٱلرَّسُولِ﴾، أي: من جبريل الروح الأمين، فصارت به صورة من حياة، هي ذلك الخوار: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[1]. ضل السامري بما انكشف له، فأضل بني إسرائيل معه على علم: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾[2]، أي ذهب موسى لموعدة ربه في جانب الطور الأيمن، ناسيًا أن (العجل) الذي خلفه وراءه هو إلهه!

وشبيه بهذا أيضًا محنة داود - عليه السلام - حين افتتن بامرأة صاحب جنده، فضمها إلى نعاجه ولديه من قبل تسع وتسعون، فتَسوَّرَ عليه الملائكة المحراب؛ يضربون له المثل ويذكرونه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[3]. فَهِمَ داود عليه السلام أنه مدعوٌّ إلى الحكم في قضيته هو نفسه. أفتأخذه العزة بالإثم؟ كلا، بل تاب وأناب؛ أدان نفسه قبل أن تدان. وكانت فتنة الملائكة لداود تذكرة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[4].

والذي يجب التنبيه إليه أن الفتنة من الله عز وجل هي على أصل معناها في اللغة: تمحيص واختبار. ليست هي الغواية والإضلال، بل هذان هما عاقبة الفتنة حين يسوء المآل. إنها امتحان فرض عليك، وموقف زج بك فيه، تخرج منه إما إلى الهدى وإما إلى الضلال. وطوق النجاة ذكر الله عز وجل. إن ذكرته ذكرك فنجاك. وإن عميت فقد اخترت لنفسك.

---

(١) سورة طه، الآيتان: ٩٥، ٩٦.

(٢) سورة طه، الآية: ٨٨.

(٣) سورة ص، الآيات: ٢١ - ٢٥.

(٤) سورة ص، الآية: ٢٦.

وليست الفتنة بالملائكة كغواية إبليس. فتنة الملائكة تمكين وتعليم. ثم تنبيه وتحذير، كما تجد في قوله عز وجل على لسان هاروت وماروت: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[1]، أما غواية إبليس فإملاء واستدراج إلى الزيغ والضلال. إنه يُعمّي عليك أمره. لا يقول لك: أنا إبليس، جئت أضلك وأغويك! ولكنه يأتيك في ثوب الوسواس الخناس، يخامر عقلك، ويحدثك بلسانك، فتظنه حديث النفس. وربما ضبطته وهو يفسد قراءتك ويقطع عليك صلاتك. وهو حين يحدثك يجمل لك السيئة ويحسن القبيح، وربما أطراك فأرداك. وهو يقعد بك عن النهوض في طاعات الله عز وجل، ويهيجك إلى الفحشاء والمنكر والبغي. وهو لا يكتفي منك بمعصية الله خالقك، وإنما لا يزال بك حتى يُوئِسَك من رحمته، فتمعن ولا تبالي، وتصر على ما أنت فيه قد أخذتك العزة بالإثم، فيعمى البصر والبصيرة، ولا يُفْلِتُكَ حتى تنطق بكلمة الكفر، فيهوي بك معه في قاع جهنم، وكأن الله لم يحذرك وينذرك.

وقد تتساءل: أو لم يكف بني آدم الغواية بإبليس، حتى يفتنهم الله بالملائكة؟ لا عليك. هذا من تلبيس إبليس. الله عز وجل لا يفتنك بالملائكة فحسب، وإنما هو يفتنك بهذه الدنيا جميعًا خيرها وشرها: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[2]، لأن هذه الدنيا بكل ما عليها هي دار الفتنة، أي دار التمحيص والابتلاء، على أصل معنى الفتنة في اللغة كما مر بك. وإبليس يريد منك أن تنسى هذا، فتضيّع فرصتك، وتسقط في الامتحان. يريد منك أن تنسى الغاية الوحيدة من وجودك في هذه الدنيا، فتجعل الدنيا غايتك، وتظن أنه ليس بعد هذه الحياة حياة: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[3]. والله عز وجل لا يفتنك ليرديك، وإنما هو يفتنك ليكشف لك عن معدنك، ويشهدك على نفسك، وهو بها أعلم: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[4]. فكن منه عز وجل على ذكر لا يغيب، فلا تضل ولا تنسى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٩.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

وذكر الله عز وجل أكبر من العبادات كلها، وهو أكبر منها لأنه الغاية من ورائها جميعًا: الصلاة تريك نفسك في صورة العبد خمس مرات في اليوم والليلة، فتذكرك بمن أنت. والزكاة تدلك على أنك عامل في أرض الله بأمر الله، تؤدي خراجها في سبيله عز وجل وفق ما أمرك. والصوم يذكرك بأنك طاعم من رزق الله، إن شاء أطعمك، وإن شاء حرمك. والحج لمن استطاع إليه سبيلًا يذكرك بالمنتهى، في يوم مجموع له الناس، وقد تقطعت بهم الأسباب إلا من وجهه عز وجل، كلهم ضارع إليه يستغفره ويسأله ويستعينه. إن أحسنت الذكر أحسنت العمل، لا سبيل إلى هذا إلا بذاك. العبادات غايتها الذكر، والذكر غايته العمل، أي أن تعمل في هذه الدنيا بما ذكرت به في كتاب ربك وسنة نبيك: منهاجًا وتطبيقًا. هذه هي غايتك العظمى لا غاية بعدها؛ لأنها وحدها مدخلك إلى الجنة التي أهبط منها أبواك من قبل بإغواء إبليس، وتريد رغم أنفه أن تعود إليها.

أكرم العباد على الله أعبدهم، وأعبد العبد أعمله بما أُمِر. قد أصاب من قال: (العمل عبادة)، إن أراد هذا المعنى وحده، لا من أضله إبليس فقطع ما بين العبادة والعمل[١].

ولا يكتمل الحديث عن الملائكة رضوان الله عليهم إلا بالحديث عن (الرُوح)، وقد ورد لفظ (الرَوْح) بفتح الراء في القرآن ثلاث مرات، وورد لفظ (الرُوح) بضم الراء في القرآن عشرين مرة. وليست هذه كتلك، وإن اشتق اللفظان كلاهما من مادة لغوية واحدة، تدور معانيها على الحركة والخفة والانتشار.

أما (الرَوح) مفتوح الراء، فمن الراحة والترويح، أي الفرج وذهاب الهم والغم، وقد وردت في القرآن مرتين مضافة إلى الله عز وجل في قول يعقوب لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢]، وفسرت

(١) مثل هذا الضلال من يفصلون بين الدين والدنيا، وما الدنيا لمن أراد الآخرة إلا إعمال هذا الدين في كل أمر، أو من يفصلون بين الدين والسياسة، وما الدين في المجتمع المسلم إلا هذه السياسة بعينها.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

في الموضعين بمعنى (فرج الله)، وقيل: بل (رحمة الله)، وليس للرحمة هنا مكان من أصل معنى اللفظ في اللغة، ولكنه تفسير بمجمل المعنى المستفاد من السياق العام للآية، وقد درج على هذا كثير من المفسرين، فأقحموا على معاني المادة اللغوية في المعجم العربي (مجازات) لا داعي لها. لا شك أن فرج الله رحمة منه عز وجل، ولكنك هنا تفسر الشيء لا بماهيته وإنما بالدافع إليه. وهذا لا يصح في اللغة، إلا أن يقال لك إنه تأويل ارتآه بعض المفسرين لا أصل له من ذات مادة اللفظ، أرادوا به تقريب المعنى للقارئ، وغيره كثير. أما المرة الثالثة التي وردت فيها كلمة (الرَوح) مفتوحة الراء، فهي في سورة الواقعة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[1]، وهى على أصلها بمعنى الراحة والاسترواح، وإن تأولها بعض المفسرين على معنى النعمة والنعيم.

وليست كذلك (الرُوح) مضمومة الراء، وهى التي تعنينا هنا. (الرُوح) بضم الراء معناها النفس، أو ما تكون به حياة النفس. والنفس من النَفَس. هكذا هي في كل اللغات (قارن: *Psyche* اليونانية وأيضًا *Spiritus* و *Anima* اللاتينيتين وما اشتق منهما في اللغات الأوروبية الحديثة)، لأن الروح من (الرِّيح) أي الهواء إذا تحرك.

أما لماذا جاءت (النَّفس) من النَّفَس، واشتقت (الرُوح) من الرِّيح؛ فلأن الناس منذ أن وجدوا أدركوا أن النَّفَس والتنفس هما علامة بدء الحياة في الحي يوم ولد، وأن انقطاعهما علامة موته حين يموت. فاستنبطوا من هذا أن الحياة هي تلك النَّسْمَة التي بها قوام الجسد، إن دخلته حَيِيَ، وإن فارقته عاد كأن لم يكن. ولكنها خفيت ودقت كما تخفى النَّسْمَة وتدق، يحس أثرها ولا يرى شخصها. وهي تدخل أنف المولود رغم أنفه لحظة يولد، وتخرج منه رغم أنفه حين يموت، لا يملك استبقاءها، ولا يملك استرجاعها. فمن أين جاءت، وإلى أين تذهب؟ أما الجسد الذي خلفته وراءها فقد عرفوه، رأوه يفسد بذهابها، ثم ينحل ترابًا وكأنه من التراب جُبِلَ. أما هي فإلى أين صعدت؟ أمن العلاء جاءت وإلى العلاء تئوب؟ فمم هي؟ بل ما هي؟ قد كانت في الجسم هي صاحبة الأمر والفعل، وفارقته فلا حس ثَمَّ ولا كيان

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

ولا شأن. أتكون هي عين وجوده؟ أتكون هي هو؟ بل هي ذاته، اتخذته رداء تلبست به زمنًا، ثم انسلت منه.

وللروح في القرآن معنى آخر. فأنت تعلم مثلًا أن الملَك المُتنزِّل بالقرآن على محمد ﷺ هو جبريل عليه السلام: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]، كما تقرأ في مصحفك قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[2]، فتستدل من هذا على أن (روح القدس) هو جبريل بلا خلاف. وتقرأ في مصحفك أيضًا قوله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[3]، فتعلم أن جبريل هو (الروح الأمين)، أي أنه روح أو هو الروح. وهو أيضًا رسول الله إلى مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[4]، النافخ في التي تبتلت لله عز وجل: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[5]. وهو أيضًا روح القدس الذي أيد الله به عيسى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[6]، كرم الله جبريل عليه السلام بالإضافة إليه جل وعلا، كما رأيت في قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾. وكرمه أيضًا بإفراده بالذكر مع الملائكة: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[7]، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾[8]، ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾[9]. ولا يصح أن تقول في جبريل عليه السلام - بله في كائن من كان -: إنه (روح الله)؛ لأن في هذا شبهة الإلحاق بالذات، وذات الله عز وجل أعظم وأجل من أن يخوض فيها بالقول ذو علم، وإنما تقولها كما قال

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٩٣.
(٤) سورة مريم، الآية: ١٧.
(٥) سورة التحريم، الآية: ١٢.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.
(٧) سورة المعارج، الآية: ٤.
(٨) سورة النبأ، الآية: ٣٨.
(٩) سورة القدر، الآية: ٤.

القرآن مضافة إلى ضمير منه عز وجل، على التبعية والمِلْك، أو تقول كما قال القرآن: (روح من أمره) أو (روح منه).

ليست الروح إذن - في كل القرآن - هي تلك الذات المتلبسة بالجسد، فهو لا يستعمل في معنى تلك الذات إلا لفظ (النفس)، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[1]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾[2] ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[3]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾[4]، ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[5]، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[6]، فتقطع بأن النفس غير الجسد بدليل خطابها على حدة بعد خروجها منه، وتوقن أنها باقية بعد فنائه، لأنها تؤمر بالدخول فيه يوم النشور.

وليست الروح أيضًا هي القرآن، كما فسر بعض المفسرين قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[7] لأن الروح ههنا هو جبريل، وأوحينا إليك يعني أرسلنا إليك، تنسيقًا على قوله عز وجل في الآية السابقة مباشرة: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا.....﴾، والرسول هنا هو الملك بلا خلاف. ولكن هؤلاء المفسرين يتوسعون كما مر بك، فيأخذ عنهم أصحاب المعاجم، ويقحمون على المعجم العربي أن (الرُّوح) مضموم الراء من معانيه (القرآن)، كما أقحموا عليه من قبل أن (الرَّوْح) مفتوح الراء من بعض معانيه (الرحمة).

---

(١) سورة الشمس، الآية: ٧.
(٢) سورة الانفطار، الآية: ١٩.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.
(٥) سورة التكوير، الآية: ٧.
(٦) سورة الفجر، الآيات: ٢٧ - ٣٠.
(٧) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

أما قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[1]، فتفهم منه أن عيسى عليه السلام كلمة من الله عز وجل، أي كان بكلمة منه: قال له: كن! فكان، شأن الخلق أجمع. وأنه عليه السلام روح منه أي نفخة منه عز وجل، كنفخته في آدم أبي البشر، لا أب لآدم ولا أم، والنفخة في اللغة والنفثة والنفس أيضًا واحد، ومن هنا جاءت تسمية النَّفْس روحًا؛ لأنها كانت به.

أفكان النافخ جبريل عليه السلام بأمر منه عز وجل؟ قد تستظهر هذا من قوله تبارك وتعالى على لسان جبريل: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾[2]، وأسند فعل (النفخ) إلى الله عز وجل: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ لأنه تبارك وتعالى هو الآمر به، لا حول ولا فعل إلا بأمره، أي هي نفخة من الملك بأمر من مالك الملك.

وتستطيع أن تنسق على هذا قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾[3]، فتفهم أن جبريل روح من الله عز وجل، وأن النفخة في آدم كانت به كما كانت في عيسى عليه السلام، شأن الخلق أجمع. وربما قلت: إن جبريل عليه السلام هو الملك الموكل بنفث الحياة في الأحياء بأمر الله عز وجل، كما قيل: إن ميكال عليه السلام هو الملك الموكل بقبضها. هذا يفسر لك فتنة النصارى بجبريل عليه السلام، الذي أيد الله به عيسى حين صنع من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فصار طيرًا بإذن الله، كما أيده في إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الميت. ويروي بعض المفسرين أن جبريل عليه السلام ما وطئ ترابًا إلا صارت فيه نسمة من حياة. وهذا يفسر لك فتنة (السامري) بجبريل: بصر بما كان من أثره، فقبض قبضة منه، ونبذها في مصهر الذهب الذي صنع منه

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٩.

(٣) سورة ص، الآيتان: ٧١، ٧٢.

العجل، صنمًا ليس له من الحياة نصيب إلا هذا الخوار الذي كان فيه من أثر جبريل.

وإذا كان القرآن قد خص جبريل عليه السلام تخصيصًا باسم هو (روح القدس)، (الروح الأمين)، وبعبارة (روحنا) في قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، والمعني بها جبريل بلا خلاف فلك أن تقول: إن (الرُّوح) مضمومة الراء في القرآن معناها المَلَك، أو مَلَك رفيع الرتبة في ملائكة الله عز وجل، ولا يعلم جنود ربك إلا هو، لا تستطيع أن تخص بها جبريل وحده، فالله بغيبه أعلم. وربما جاز لك أن تقول إن (الروح) مضمومة الراء في القرآن هي تسمية على المصدر من (راح) بمعنى (ذهب)، أي الذاهب في أمر الله، فهي بمعنى الرسول، تمامًا كما تعنى لفظة (المَلَك).

ولكنك لا تخوض في غيب الله، فأنت مكفوف عن استقصاء ماهية (الروح) بمقتضى قوله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]. وسواء أكانت الروح المعنية هنا هي جبريل كما قال بعض المفسرين، أو هي النفس المتلبسة بالجسد كما قال أكثرهم، فأنت مَنْهِيٌّ عن الخوض في هذا أو ذاك، محجوب عنك في هذه الدنيا حقيقة هذا أو ذاك. ومن إعجاز الله في خلقه - إن كانت (النفس) هي المعنية في الآية - أن السائل يتساءل عن نفسه، لا يدري ما هي وهى ذاته، فما بالك بالخائضين في ذات الله عز وجل؟

نقول لهذا السائل وأمثاله من الخائضين فى (عالم الروح): لن تعلم النفس حقيقة ما هي حتى تغادر هذا الجسد في يوم جِدٍّ قريب؛ طال الأجل أم قصر - فسح الله لك في عمرك بالخير - فلا تتعجل.

* * * *

وقد جعل الله الإيمان بالملائكة رضوان الله عليهم فرعًا من الإيمان به عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[2]، وجعلهم شهوده: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾[1]، وجعل الكفر بهم فرعًا من الكفر به عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[2]، وجعل عداوتهم من عداوته سبحانه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

حسبك هذا في الملائكة رضوان الله عليهم، فليس بعده مزيد يقال.

* * * *

كان هذا أيها القارئ العزيز تمهيدًا لا بد منه للتعرف على أعلام هذا الفصل، التي نتناول إن شاء الله تفسير معناها من القرآن بالقرآن، وهي: جبريل - ميكال - مالك - هاروت - ماروت - الفردوس - عدن - جهنم - إبليس - آدم، نضيف إليها من عَلَم الذات نبي الله (إدريس) على افتراض تقدمه في الترتيب التاريخي على نبي الله نوح عليه السلام. كما نضيف من علم الموضع (بابل)، التي وقعت بها الفتنة بهاروت وماروت، ومجموع هذا وذاك اثنا عشر اسمًا علمًا.

ولأن الله عز وجل قدم جبريل، فنحن نبدأ به، متوكلين على الله عز وجل، نستلهمه الصواب، ونعوذ به من الجهل والجهالة، ونسأله الصفح والمغفرة إن نسينا أو أخطأنا.

* * * *

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(١)
جبريل

(جبريل) علم أعجمي بلا خلاف، إنه تعريب (جَبْرِيئيل) العبرية. وهو اسم (مزجى)، مركب من شقين عبريين: جَبْري + إيل.

أما الشق الأول، جَبْرِي، فأصلها (جِبِر) زيد بياء علامة على الإضافة إلى ما بعده[١]، وتحولت حركة حرفيه الأولين - بسبب الإضافة أيضًا - من كسرتين متتابعتين (جِبِر)، إلى فتح فسكون (جَبْر)[٢]. أما معناها في العبرية فهي اسم صفة على الفاعلية من الجذر العبري (جَبَرْ) بمعنى (قوي) و(اشتد)، فهو الشديد القوي، وهذا هو أصل معنى مادة جَبَرَ في لغتنا العربية، جمد في العبرية على أصله، وفرعت منه العربية معاني تدور - إن تمعنت - على هذا الأصل نفسه، من مثل (جبر عظمًا)، (جبر خاطرًا)، (جبر ناقصًا) (وهذا أصل معنى عِلْم الجَبْر)، ومنها أيضًا (أجبره) أي قهره وغلبه وألزمه، أي كان عليه مكينًا متمكنًا، (تَجَبَّر عليه) أي كان عليه (جَبَّارًا). (جِبِرْ) العبرية إذن من الشدة والقوة. لهذا تستخدم العبرية الاسم (جِبِرْ) بمعنى (رجل)، والمقصود منه تمام الرجولة، أي الفحولة، فتجيء (جِبِرْ) بمعنى الزوج والبعل، كما تجيء بمعنى السيد القِرْم الشجاع (وهى نفسها (جبار) العربية)، وتجيء أيضًا بمعنى الجندي الشديد المراس في الحرب أو البطل. وهذا كله لا يخرج باللفظ عن أصل معناه: (القوة والشدة والجبروت (جِبُورَ) العبرية). ويلاحظ أن الآرامية والعبرية في هذا كله - أو معظمه - سواء.

(١) تفعله العبرية أحيانًا ولكنها لا تلتزمه في كل حال.

(٢) كدأب العبرية في كل ما كان اسمًا أو صفة على وزن (فِعِل).

أما الشق الثاني من (جَبْرِئِيل) العبرية - الآرامية فهو (إيل) اسم الله عز وجل.

معنى (جَبْرِئِيل) إذن في العبرية - الآرامية هو (جَبَّار الله) أي مَلَك الله الشديد القوي.

ولا عليك ممن يترجمون (جَبْرِئيل) العبرية إلى الإنجليزية *God of Man* (رجل الله)، أو *God of Soldier* (جندي الله)، فهؤلاء لا يتعمقون أصل المادة في اللغات السامية: الملائكة كلهم (رجال) الله وجنده، والعلمية لقب للمنعوت يميزه بصفة فيه. الصحيح أن تترجم (جبرئيل) إلى الإنجليزية مثلًا هكذا: *The God of one mighty* أي (جبار الله).

وهذا هو نعت (جبريل) عليه السلام في القرآن: شديد القوى ذو المرة.

* * * *

أما مفسرو القرآن، الذين تصدوا لتفسير اسم (جبريل)، فمنهم الماوردي[1] الذي وَهِمَ أن (جبريل) تعني عبد الله، ينسبه إلى عبد الله بن عباس. وهذا لا يصح أيًا كان القائل والناقل، ناهيك بحبر في رتبة ابن عباس؛ لأن الافتعال واضح والخطأ بَيِّن. لا مجال لاشتقاق معنى (العبد) من (جبر) العربية، وما كان هذا ليفوت ابن عباس أو غير ابن عباس. أما (جِبرْ) العبرية - الآرامية معناها (العبد) فلا يقول هذا إلا جاهل بهاتين اللغتين، أو عابث يخبط خبط عشواء، آمنًا ألا يرد عليه أحد.

إن صحت الرواية عن ابن عباس أو غيره من أهل التفسير، فربما دسها عليه قوم من يهود لغوا في القرآن ونقل عنهم المفسرون دون تثبت. أو من يهود أبغضوا جبريل لمجرد تنزله بالقرآن على محمد ﷺ، فوصمهم القرآن بالكفر[2]. ظنوا أنهم ينالون من جبريل عليه السلام حين يفسرون اسمه للمسلمين بمعنى العبد، ولم يفطنوا إلى أن العبودية لله عز وجل ليست فحسب شرفًا لا يعدله شرف، وإنما هي تقرير لواقع الحال: الخلق كلهم عبيد الله، شريفهم ووضيعهم، مؤمنهم وكافرهم، وإن بطر وجحد.

---

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٩٧ من سورة البقرة.

(٢) راجع الآيتين ٩٧، ٩٨ من سورة البقرة.

على أن القرآن لم ينتظر من يفسرون له معنى اسم (جبريل)، بل سبق فنص على معناه بالمرادف في أكثر من موضع كما سترى.

* * * *

ورد اسم (جبريل) في القرآن ثلاث مرات فقط: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1]، ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[2]، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[3]. وليس في أي منها كما ترى تفسير لمعنى (جبريل).

ولكن اسم (جبريل) المحذوف لدلالة السياق عليه في سورتي (النجم)، (التكوير) يظهر بمرادفه الدال على معناه في قوله عز وجل: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[4]، وأيضًا في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[5]. أما ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ في السورتين فهو محمد ﷺ بلا خلاف، والذي (علمه)، أي تنزل عليه بالوحي، هو (جبريل) بلا خلاف أيضًا: إنه الذي دنا فتدلى، فأوحى إلى محمد ما أوحى الله لجبريل أن يوحيه إلى عبده ورسوله محمد ﷺ.

وليس أبلغ من تفسير معنى (جبريل) بأنه ذو قوة عند ذي العرش، فهي نفسها (جبار الله)، أي الجبار عند الله بتمكين الله إياه، المُمَكَّن فيما يكلف به من أمر الله، تستجيب له قوى الكون بأمر الله، وتطيعه الملائكة في أمر الله؛ لأنه الأمين على أمر الله. ولكنك لا تفطن

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٤) سورة النجم، الآيات: ١ – ١٠.

(٥) سورة التكوير، الآيات: ١٩ – ٢٣.

إلى هذا التفسير لأن السياق يوجبه، ولا تلمح (مقصودًا) آخر من ورائه، لأن عبارة (ذي قوة عند ذي العرش) - على متانتها - سلسة، والكلام في موضعه غير مقحم، بل هو وصف مطابق لمن هو (شديد القوى ذو مرة)، الذي استوى بالأفق الأعلى، وما أدراك ما الأفق الأعلى[1]، وهو مع ذلك يدنو ويتدلى، فيكون من محمد ﷺ في مكة قاب قوسين أو أدنى. إنه جبريل الذي رآه الصادق المصدوق في شعاب مكة يملأ الأفق بعدما جاءه بالوحي الأول في صورة إنسان، ورآه الصادق المصدوق ليلة المعراج نزلة أخرى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[2]. هذا التمكين من الله عز وجل لجبريل تمكين يهولك، ويملأ عليك أقطار نفسك فتذهل عما سواه، بل تهاب مجرد التفكير فيه، فتخشع النفس، ويخشع العقل، وتخشع المدارك.

ولإعجاز القرآن وجه آخر في تعريبه (جبرئيل) العبرية على (جبريل)، حين تنطقها بفتح الجيم - جبريل - وقد صحت بها قراءات. أنت تعلم من معجمك العربي أن (جَبْر) العربية وصف بالمصدر من (جَبَرَ)، والوصف بالمصدر يفيد بذاته المبالغة التي في (جَبَّار)، وتعلم من معجمك العربي أن العرب تكلموا، بـ (إيل) العبرية (وتكتب أيضا (إل)) عَلَمًا على الله عز وجل[3]، كما تجد في قول الصديق رضي الله عنه حين أُسْمِع قول مسيلمة الكذاب: هذا كلام لم يخرج من إل! أي ليس مصدره الله تبارك وتعالى. ومن هنا تدرك أن جبريل

(١) الأفق الأعلى يعني (الحافة العليا) لهذا الكون كله، أرضه وقمره وشمسه ونجمه ومجراته، ما علمنا منه وما لا نعلم، وما أقل ما نعلم! فتأمل.

(٢) سورة النجم، الآيات: ١٣ - ١٧.

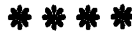
(٣) يفسر المعجم العربي لفظ الجلالة (الله) بأن أصله (الإله)، حذفت همزته وأدغمت لاماه. ولي تفسير آخر أطرحه عليك وأرجو أن أكون مصيبًا: إنه (أل) (أداة التعريف) دخلت على ضمير المفرد المذكر الغائب (هو)، أي (الـ + هُوَ)، أي الذي هُوَ هُوَ، وقد صحت (الـ) عند علماء العربية بمعنى الذي. وهذا على الراجح عندي هو أصل (إل)، (إيل) العبرية، وهو نفسه معنى (يِهْوَا) العبرية، أي الذي هو هو، أخذت من قوله عز وجل لموسى في التوراة (إِهْيِهِ أَشِر إِهْيِهِ) (الهاء فيها خاملة للوقف)، أي أنا الذي هو أنا! (قارن قوله عز وجل في القرآن: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤]، فهو الذي هو، جل جلاله، يكني بها الخلق عنه مهابة وتعظيمًا. والله باسمه الأعظم أعلم.

(جبر + إيل) تعنى بذاتها، عربيًّا، على المضاف والمضاف إليه، (جَبْرُ الله)، أي جبار الله (على ما مر بك من معنى (جبر) العربية كاسم صفة)، ولكنها مزجت، أي صارت اسمًا مزجيًّا، اتخذ وزنًا نادرًا في العربية هو (فِعليل) (مثل عِتريس)، فكسرت جيمه.

ومن ثم تكون (جبريل) ممنوعة من الصرف في كل القرآن للمزجية قبل العجمة، شأن حضرموت وأمثالها[1].

فسر القرآن (جبريل) بالمرادف كما فسرها بالتعريب، ولم يفطن إلى هذا أو ذاك من تصدوا لتفسير معنى هذا الاسم من مفسري القرآن؛ لأن النبي ﷺ لم يسمع منه فيه حديث، ولو شاء الله لحدث به. ولم يفطن إلى هذا أو ذاك أيضًا من لغوا في (جبريل) من خصوم القرآن أدعياء العربية وأدعياء الاستشراق على عصر النبي وإلى هذا العصر. وها قد رأيت أن القرآن كان أسبق من هؤلاء إلى صحيح معنى (جبريل)، وأفقه بالعبرية من أهلها على عصر النبي والى هذا العصر. وكفى بهذا – وغيره كثير كما سترى – ردًّا على دعوى التلقين، ودعوى النقل والاقتباس.

سلام الله على جبريل الروح الأمين، وصلوات الله وسلامه على جميع ملائكته ورسله وأنبيائه.



(١) حضرموت اسم مزجي أصله بالظاء، والمعنى (حظيرة الموت) أو (ساحة الموت). وهو في العبرية بالصاد (حصرموت) بنفس المعنى.

(٢)
ميكال

ميكال عليه السلام ملك مقرب، رفيع الرتبة في ملائكة الله عز وجل، أفرده الحق تبارك وتعالى بالذكر على التعظيم قرينًا لجبريل عليهما السلام في قوله عز من قائل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. ولم ترد (ميكال) في كل القرآن إلا مرة واحدة، وفي هذه الآية فحسب.

و (ميكال) تعريب (ميكائيل) العبرية، تكتب بالكاف في العبرية وتنطق بالخاء (ميخائيل)؛ لاعتلال ما قبلها على ما مر بك من قواعد النطق في تلك اللغة.

أما علماء العبرية، وعلماء التوراة أيضًا، فهم يفسرون (ميكائيل) بأنها اسم مزجي، يتكون من ثلاثة أجزاء: مي - كا - إيل (أي مَن - كَـ - الله)، وليست هي عندهم على التقرير، بل على الاستفهام، أو إن شئت على التعجب: (من كالله!)؛ لأن (مي) العبرية (والآرامية أيضًا) لا تصلح إلا لهذا، فلا تقع اسمًا موصولًا بمعنى (الذي) كما يحدث في (من) العربية[2].

ونحن لا نحيل على العبرية والآرامية اشتقاق الأسماء الأعلام من صيغ الاستفهام أو التعجب، فقد وقع هذا بالفعل لعبرية التوراة في تسمية (رِئُوبِن) (رأوبين في الترجمات العربية لسفر التكوين) ابن يعقوب البكر من زوجته (لِيئَة) التي صاحت فرحًا حين وضعت بكرها ذكرًا: رِئُو! بِنّ! (أي انظروا! ابن (ذكر)!) فسمي به رِئُو بِنّ. فلا يبعد أن يقع هذا في تسمية ميكال عليه السلام من كالله؟! أي (ميكائيل).

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(٢) تستخدم العبرية في معنى (الذي) أحد الحرفين: إما (شِ) وإما (أَشِرْ).

بل قد فعلناه نحن أيضًا كما مر بك في اشتقاقنا اسم (مريم) عليها السلام من قول والدتها حين فوجئت بها أنثى: ماري! أما! أي (أمة يا رب أمة!).

وربما قلت: إن (مِي) العبرية كانت قبل عصر التوراة - وميكائيل بالطبع أقدم ظهورًا لأنبياء الله ورسله من نزول التوراة على موسى - تصلح لكل ما تصلح له (من) العربية، فتجيء على الاستفهام أو التعجب، كما تجيء على الاسم الموصول بمعنى الذي، فيكون معنى (ميكائيل) الذي هو كالله، على التقرير، أي مُمَثِّل الله عز وجل، المفوض منه تبارك وتعالى. وهذا نفسه غاية ما يستفاد من قولها على الاستفهام أو التعجب: من كالله؟!

وتستطيع أن تقول أيضًا - وأنت هنا إلى الصواب أقرب -: إن الألف في الخط العبري، على خلاف الحال في الخط العربي، تكتب دائمًا غير مهموزة، وإنما هي تهمز نطقًا فحسب إن وقعت في أول الكلمة أو وقعت في وسطها مشكولة بإحدى حركات الفتح والكسر والضم والسكون، وتسهل فيما عدا ذلك فتنطق ألفًا لينة، أي مفتوحة ممدودة غير مهموزة. وتقول أيضًا: إن الشكل والنقط في النص العبراني لأسفار التوراة التي بين يديك ليست لهما حجية الشيء الموحى به، وإنما هما - كما مر بك - من صنع طائفة غَلَبُوا على أمرهم من أهل الأثر (بَعَلي ماسورا) ما بين القرن الثاني والقرن العاشر للميلاد في ظل المسيحية ثم في ظل القرآن، عصر اضمحلال عبرية التوراة وتراجعها على الألسنة والأقلام، لم يخل عملهم مع ذلك من نقد، وأنه لو خلي بينك وبين حروف ميكائيل بالخط العبري في التوراة دون شكل أو نقط (م - ي - ك - ا - ل) لجاز لك أن تنطقها (ميكال) كما نطقها القرآن، وتكون (ميكال) لا اسمًا مزجيًا مؤلفًا من ثلاثة أجزاء (من كالله؟!)، بل اسم وحيد الجذر، على زنة (مفعال) من الجذر العبري (يكُل)، وصفًا بالمصدر على المبالغة[1]، وهو جذر عبري مكافئ لـ (وَكَلَ) العربي في أصل معناه: أوكلت إليه الأمر، ووكلته إليه، فهو مُوكَل ووكيل،

(١) صح استخدام الوزن (مفعال) في العبرية بهذا المعنى: قارن (مِيشَاع) من (يشع) بمعنى الإيساع والتوسعة والفرج والنجاء والنصرة، (مِيطَاب) بمعنى الأمثل، من (يطَب) بمعنى طاب وجاد وحسن، وغيره كثير.

بمعنى فوضته فيه وخليت بينه وبينه، أصلها أمكنتهُ منه، وأقدرته عليه، فأصبح عليه قديرًا. هذا هو أصل المعنى الرئيسي للجذر العربي (وكل) - لازما غير متعد - بمعنى القدرة، وبه يكون التفسير الجيد لقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1]، أي قدير مقتدر. لم تَسْتَبْقِ العربية (وكل) - لازما غير متعد - بمعنى قدر وتمكن، ولكن هذا وحده هو المعنى الباقي في الجذر العبري (يَكُل) - لازمًا متعديًا باللام - بمعنى قدر عليه وتمكن منه. فيكون معنى (ميكال) - عبريًّا - الوكيل المُوكَل المفوض، بمعنى القدير الممكن.

وهذا هو نفسه معنى (ميكال) - عربيًا - وإن لم تُسمع من العرب، إن اشْتَقَقْتَهُ على (مفعال) من (وكل) - لازمًا غير متعد - بمعنى الوكيل، الذي يفيد القادر المقتدر، أو المُوكَل المفوض. وهكذا هو ميكال صلوات الله عليه وعلى من عنده عز وجل من الملائكة المقربين.

* * * *

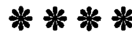
أما مفسرو القرآن الذين تصدوا لتفسير اسم (ميكائيل)، فأنت تذكر ما رواه الماوردي في تفسير اسم (جبريل) منسوبًا إلى عبد الله بن عباس[2]، وقد زاد فيه أن (ميكائيل) معناها في العبرية - الآرامية (عبيد الله)، كما قال من قبل إن (جبريل) معناها في هاتين اللغتين (عبد الله)، يريد أن (ميكال) هي تصغير (جبر)، أي تصغير (عَبْد)، فهو (عُبَيْد)، فلا تدري كيف استجاز أن تجيء تصغيرًا لـ (جبر) وهي من غير مادتها، بل لا وجود لـ (ميكا) هذه في العبرية - الآرامية أصلًا، ولا تدري - إن صحت الرواية - كيف استجاز الراوي لنفسه - دون سند من حديث صحيح - الخوض في لغات لا يعرف من أمرها شيئًا. إن أحسنت الظن بالراوي - وأنت بإحسان الظن في كل الأحوال مأمور - فربما تعللت له - كما تعللت له في (جبريل) - بأنها دست عليه من أهل كتاب تحسن بهم الظن أيضًا فتقول: إنهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني. ولكنك لا تعذر الراوي؛ كان عليه أن يتثبت قبل أن يُحَمِّلَ وزرها ابن عباس.

(١) سورة هود، الآية: ١٢.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآيتين ٩٧، ٩٨من سورة البقرة.

فسر القرآن كما ترى (ميكائيل) بالتعريب وحده، فأصاب المعنى وأصاب التعريب. وقطع أيضًا بعجمة هذا الاسم فجره بالفتح في موضع الكسر: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ معطوفًا بالواو على المجرور باللام في لله، ممنوعًا من الصرف غير منون، ولا علة لهذا إلا العجمة.

ومن إعجاز القرآن أنه يصحح لأهل العبرية نطق (ميكائيل)، ويصحح لهم أيضًا اشتقاقه. لا يَجْمُل اشتقاق (الوكيل) على المماثلة بالله عز وجل في عبارة (مي - كا - إيل) (من هو كالله) لا على الاستفهام، ولا على التعجب والإكبار، بل ولا على التقرير. إن جاز هذا لغة، وهو بعيد، فلا يصح البتة في أدب الحديث عن الله عز وجل.



(٣)
مالك

مالك - صلوات الله عليه وعلى ملائكته أجمعين - ملك كريم، شرفه الله عز وجل بتسميته في القرآن على غير سابقة في التوراة والإنجيل: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[1]، فتستدل من هذا على أن (مالكًا) رضي الله عنه وأرضاه هو خازن النار، أي الملك الموكل بعذاب من حق عليه العذاب. وتستدل من قوله رضي الله عنه ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ إن أسندته إليه كما هو السياق، على أنه يتحدث باسم الملائكة جميعًا، فهو ملك مقرب رفيع الرتبة في ملائكة الله عز وجل. وقد مر بك أن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب في رضوان الله سواء، وفي القرب منه عز وجل سواء، لا فرق بين المُنْفِذِين وعده والمُنْفِذِين وعيده.

وربما لبس عليك إبليس فأشفقت على ملائكة العذاب من جوار أهل النار: ماذا جنى مالك وأعوانه المكرمون، بل وزبانية النار، حتى يخلدوا مع الأشرار ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[2]؟ في حين أن خزنة الجنة رضوان الله عليهم مع أصحاب اليمين: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[3]؟

لا عليك. ليس الملائكة إنسًا ولا جنًّا. الملائكة لا ينعمون كالذي تنعم، ولا يألمون كالذي

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٧٤ - ٧٨.
(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٤٢ - ٤٤.
(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٢٨ - ٣٠.

تألم. لا يُلِذُّهم الذي تَلِذُّ له، ولا يَمُضُّهم الذي تَمُضُّ أنت به أو تَجْوَى. بل نعيمهم وعذابهم رضوان الله أو سخطه، وقد أعاذهم الله من سخطه بأن خلقهم - وليس بعد إنس،لا جان - على الطاعة، لا يعصون له أمرًا، فهم في رضوانه عز وجل منذ أن خلقوا، لأنهم في شغل بأمره عز وجل عما سواه. هذا ومن النار برد وسلام: قد ألقي بإبراهيم في جوف نار أكلت كل ما حوله، وهو في جوفها كمن في روضة من رياض الجنة. كانت هذه تكرمة لإبراهيم خليل الرحمن، وخزنة النار - رضوان الله عليهم - بهذه التكرمة أولى.

* * * *

ولفظ (مالك) علم عربي مقطوع بعربيته بلا خلاف، لا مدخل فيه لشبهة عجمة. ومن ثم فهو يقع خارج نطاق مباحث هذا الكتاب.

ولكنك تستنبط من عربية هذا الاسم أمرًا خطير الدلالة: العلم غير الموحى به في التوراة والإنجيل، ولا ذكر له في كتبهم وقصصهم، يجيء في القرآن على أصله عربيًا، على خلاف الأعلام التي ثبتت لها العلمية من قبل بغير لغة القرآن، فيعربها القرآن[1].

وربما استنبطت من هذا أيضًا - مستدلًا بقوله عز وجل: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[2] - أن ثبوت العلمية على النداء من أهل النار لمالك باسم عربي - وأهل النار أمم شتى يتفاوتون لغات وأجناسًا - يعني أن لسان الخلق أجمع سيرتد في الآخرة عربيًا. وهو نفس ما تستنبطه من قيل الملائكة: ﴿سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾[3] لأهل الجنة عربًا وغير عرب، فتفهم أن لسان أهل الجنة عربي، وقد روي بمعناه عن الصادق المصدوق ﷺ.

* * * *

(١) انظر *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص ٢٠، ٢١.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.
(٣) سورة الواقعة، الآية: ٢٦.

(٤) هاروت (٥) ماروت
(٦) بابل

ليس في التوراة والإنجيل (هاروت وماروت)، ولا ذكر في قصص أهل الكتاب لفتنة هاروت وماروت في بابل على نحو ما يقصه القرآن: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

ولم تأت (هاروت) و (ماروت) و (بابل) في كل القرآن إلا مرة واحدة فقط، هي هذه الآية.

* * * *

وقد حار المستشرقون المنكرون للوحي على القرآن في تفسير أصل (هاروت) و(ماروت)؛ لأنهم يبنون مقولاتهم في أعلام القرآن على فرض بات مسلَّمًا عندهم، لغوا به حتى حسبوه حقيقة: القرآن يتوكأ على التوراة والإنجيل، ولا علم له بما وراء أقاصيص أهل الكتاب. وقد خلت التوراة والإنجيل من ذكر (هاروت) و(ماروت)، فمن أين أتى القرآن بهما؟

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

قالوا: ربما أخذهما القرآن نقلًا عن الديانة الزرادشتية من (خُرْدَت)، (أَمُرْدَت) في الفارسية البهلوية ((هَرْفُوتَت))، (أَمُورتَت) في الفارسية الأفستية) ومعناها (الكمال)، (الخلود)، جائزة المتقين بعد الموت. ثم استدركوا على أنفسهم فقالوا: إن العرب الجاهليين لم يستقوا عقائدهم من الفرس، فضلًا عن أن التسمية بهذين الاسمين الفارسيين تشخيصًا لملكين هبطا من السماء إلى الأرض ليعملا عمل هاروت وماروت تسمية لا تنطبق، ومن ثم لا تصح.

وقالوا أيضًا: ربما أخذ القرآن (هاروت) و (ماروت) من كتاب ينسب إلى أخنوخ (إدريس في القرآن على ما نرجحه نحن)، ضاع أصله وبقيت منه ترجمة باللغة السلافية القديمة، وفيه أن ملكين أحدهما (أَرْيُوخ) والآخر (مَرْيوخ) أُمِرا بإغلاق الكتاب على نبوءات أخنوخ حتى تمام الدهور. وهي كما ترى ليست مهمة هاروت وماروت في بابل على نحو ما وصفها القرآن. ولكنهم وجدوا في كتاب بالحبشية ينسب إلى أخنوخ أيضًا، أن ثمة ملائكة هبطوا يعلمون الناس فنون السحر والشعوذة وقطع الأرحام، فربما أخذ القرآن التسمية من أخنوخ السّلافي، وأخذ الوظيفة من أخنوخ الحبشي. إلى آخر ما قالوا.

لم يهتد المستشرقون إذن إلى وجه في (هاروت وماروت) إلا هذا، وهو ركيك كما ترى، ولكنه يريك إلى أي مدى يتخبط أولئك المستشرقون المنكرون الوحي على القرآن: زعموا أن القرآن يتوكأ على معاصريه من أهل الكتاب فكيف علم القرآن ما جهلوه؟ كيف حفظ هو أخبار أخنوخ السلافي وأخنوخ الحبشي، وأضاع أصحاب التوراة الأصل العبري لسفر ينسب إلى أخنوخ. أكانت أنباء أخنوخ أخبارًا يتناقلها الرواة على عصر النبي، خفي أمرها على يهود اليمن والحجاز والشام؟ فكيف خفيت على مفسري القرآن وقد توقفوا في هاروت وماروت؟ ولماذا اختلفت رواية أخنوخ السلافي عن رواية أخنوخ الحبشي؟ أترجم المترجمان كل بمعزل عن (أخنوخ) واحدٍ؟ أم عن (أخنوخين) اثنين؟ فكيف أخذ القرآن نتفة من هنا ونتفة من هناك؟ كيف تسنى له الجمع بين هاتين الروايتين في نسيج واحد؟ أفقد اطلع القرآن على الترجمتين معًا فانفرد وحده بعلم السلاف والأحباش وخفي علم هؤلاء على هؤلاء؟ أوقد فرغ القرآن نفسه لجهد استنفد من جمهرة المستشرقين سنين في

تتبع أخبار السلاف والأحباش والجمع بينها كي يصوغ منها في النهاية خبرًا يأتي عرضًا في آية أو بعض آية؟ فما بالك بغير (هاروت وماروت) من أخبار القرآن، ومن علوم القرآن، وما أدراك ما علوم القرآن؟ أنى يتسع لبعض هذا جهد بشر، أو عقل بشر، أو عمر بشر، فردًا أو جماعة، وإن عكفوا عليه أجيالًا؟

على أن أحدًا من هؤلاء المستشرقين: يهود ومسيحيين، ومنهم المؤمن والملحد، لم يتوقف لمناقشة (سفر التكوين) في روايته لفتنة الملائكة ببابل، على ما مر بك من قوله: إن (الله) هبط ببابل ليبلبل ألسنة الخلق فيتفرق شملهم ولا يتموا بناء المدينة، ومقصوده بالطبع أن (الملائكة) هم الذين هبطوا، لا الله عز وجل[1]. صاغ كاتب سفر التكوين روايته ليؤصل بها فهمه لمعنى (بابل)، وليفسر رأيه في سبب اختلاف ألسنة البشر، ولم يُصِب الكاتب - كما مر بك في هذا وذاك جميعًا - ناهيك بوهمه أن المدينة لم يتم بناؤها، وربما شهد فيها أطلالًا ظنها أبنية لم تكتمل[2].

هبط الملائكة إذن في بابل كما يقول سفر التكوين، ولكن لمهمة غير التي ذكرها الكاتب، لأن الملائكة إذا أُمِروا فعلوا، فتحقق مراد الله عز وجل، ولكن الملائكة لم يؤمروا بهذا الذي ذكره سفر التكوين، فلم يهبطوا من أجله ولم يفعلوه، بدليل أنه لم يحدث، وهو لم يحدث - تقولها بيقين لا شك معه - لأن ألسنة الناس لم تتبلبل في (بابل) التي بنيت أول ما بنيت في مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد، وإنما هي تبلبلت قبل مولد بابل - ومن ثم

(١) هذا كثير في لغة التوراة: تريد (الملائكة) وتقول (الله) باعتبار الآمر الموحي عز وجل، وقد ضل بهذا الخلط بين الألوهية والملائكة كثيرون ممن يتكئون على التوراة في تأصيل عقيدة التثليث، بل منهم من أخطأ فقه اللغة العبرية فوهم أن (إلوهيم) على الجمع بمعنى (الله) تشير إلى تعدد (الأقانيم) في ذات الله سبحانه، وفاته أنها تجيء على الجمع للتعظيم مع إسناد الفعل للمفرد، واحد أحد سبحانه. ليس في العبرية (إلوه) على المفرد، وإنما هي (إلوهيم) للتعظيم، ومثلها (أدوناي)، أي (ربي!) في قول النحاة.

(٢) بنيت بابل حوالي ٢٨٠٠ق. م، وقد خربت وأعيد بناؤها مرات، وكتب سفر التكوين على الراجح عند محققي نصوص التوراة بعد بابل الأولى بنحو ألفي سنة.

قبل نزول أولئك الملائكة المكرمين - بقرون لا يعلم عدتها إلا الله. حسبك أن المصريين وجدوا في مصر قبل أن توجد بابل، وهم كما تعلم يتكلمون لغة غير اللغة، بل حسبك أن الشومريين الذين غلبهم الساميون البابليون على أرض العراق (بابل من بعد) عاشوا على أرض بابل قبل وفود البابليين على تلك الأرض، ولا صلة محققة بين اللغتين الشومرية والبابلية. قد تباينت ألسنة الناس إذن وتفارق الخلق من قبل أن تولد بابل، ولا حاجة من ثم بالملائكة إلى إحداث ما هو حادث.

فيم إذن كان نزول الملائكة ببابل؟ أليس أقرب إلى المعقول ما ذكر في سفر أخنوخ الحبشي من أن ملائكة هبطوا إلى الأرض يعلمون الناس فنون السحر والشعوذة و(قطع الأرحام)؟ ألا يذكرك (قطع الأرحام) بما قاله القرآن في شأن هاروت وماروت: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[1]؟

كيفما كان الأمر، فقد كان هاروت وماروت فتنة للناس. ولكنها لم تكن فتنة معماة، وإنما فتنة على بصيرة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، أي تعلم منا هذا كيلا تعمله، إن حدثتك به النفس أو علمك إياه شيطان.

****

وإتيان السحر - تعلمه وتعليمه والاستعانة به - إثم منهي عنه في القرآن، بل هو في القرآن كفر بواح: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾. وتستدل على هذا أيضًا من قوله عز وجل على لسان سحرة فرعون: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾[2]، فتفهم أن تعاطي السحر خطيئة يستغفر منها الذي آمن. والساحر أول من يعلم هذا، فقد باع آخرته بدنياه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾، ولكنه لا يدري كم هو في الصفقة مغبون: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[3].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(٢) سورة طه، الآية: ٧٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

أما حقيقة السحر - وللسحر حقيقة لا يجحدها إلا مكابر - فهي كما قال القرآن على لسان نفر من الجن المؤمن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1][2]. الإنس والجن عالَمان منفصلان، بينهما حجاب حاجز، لا ينخرق إلا لِغَوِيٍّ فاسق من هؤلاء وهؤلاء، يدعوه فيستجيب. الجن المؤمن لا يفعله، والإنس المؤمن لا يطلبه، وإنما يفعله الجن الكافر، إبليس وقبيله، إن عذت به أعاذك، وإن استعنته أعانك. وهو لا يعينك في خير مهما توهمت؛ لأنه مكفوف بكفره عن فعل الخير؛ لا يستطيعه لك ولا يريده بك، وإنما هو يعينك على الشر والضر والأذى. يمهد لك بادئ بدء بما يستهويك، حتى إذا آنست في نفسك به قوة، ركنت إليه، فصرت في قبضته، تظن (الخاتم) في أصبعك، وهو فيك الآمر الناهي، الفعل له والإثم عليك، فأنت الساحر والمسحور معًا، وإن شَدَهْتَ أبصار الناس وثملت بهتافهم، ولذَّ لك انبهارهم بك، وتوجسهم منك، وتحيرهم في أمرك.

السحر إذن هو استخدام الجن الكافر، أي الشياطين (والشياطين عَلَم على صنف الجن الكافر) - وقد علمت أن الشيطان معناها العدو - في الإتيان بخارق يهولك. وهو يهولك لأنك لا تعلم القوى الفاعلة فيه، ولا علم لك بالوسائل التي يتحقق بها الفعل. أنت مثلًا لا تسمي المعجزة سحرًا لأنك تعلم يقينًا أن الله عز وجل هو الفاعل. ولا تهولك عجائب العلم في هذا العصر ومخترعاته، فقد علمت ما وراءها. حتى الصعود إلى القمر ونقل صور صوتية - مرئية منه إلى الأرض في ثوان لم يعد يهولك؛ لأنك أنت نفسك تستطيعه متى توسلت إليه بوسائله المعروفة لك الآن. وهو بلا شك أعتى وأدهى من إتيان ذلك العفريت من الجن[3] بعرش (بلقيس) من سبأ في اليمن إلى (سليمان) في فلسطين قبل أن يقوم من مقامه [النمل: ٣٩]، أي في نحو ساعة أو ساعتين، وهو ما تستطيعه اليوم طائرة متوسطة

(١) سورة الجن، الآية: ٦.

(٢) أي يَزيدونهم خبالاً: لا ترى ساحرًا إلا منقلب السحنة، متقبض الأسارير، زائغ النظرة كملبوس أو به مس، وهو كذلك بالفعل.

(٣) العفريت يعني الداهية الخبيث، أو هو الشديد القوي، شاعت في مطلق الجن، وليس كذلك، وإنما هي الداهية القوي، جنًّا وغير جن.

الحجم، غير بالغة السرعة. ولكن اقتراح هذا العفريت ما زال إلى اليوم يهولك؛ لأنك لا ترى هذا العفريت، ولا ترى الوسيلة التي يتحقق بها الفعل، وإنما ترى العرش أمامك. على أن سليمان لم يشده باقتراح هذا العفريت من الجن الذي سخره الله له، فقد مكنه عز وجل فيما هو أعظم: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[1]، قالها بشر من ملأ سليمان علمه الله، فهو مستجاب الدعوة، تطوى له المسافات وينعدم الزمن[2]، ساءه أن يستعلي هذا العفريت فرد عليه بما أسكته، وألزمه مكانه لا يتعداه. الجن مهما عظم - شأن هذا العفريت من جن سليمان - محدود القدرة، محكوم بمدى الاستطاعة، لأن استطاعته من ذاته بقدر طاقته، تعوقه المسافة، ويعوزه الزمن. أما المَلَك فمن أمر الله تبارك وتعالى، كُلِّي القدرة سبحانه. وكأن تلك الآيات من سورة النمل - وهي تقص عليك من أنباء سليمان عليه السلام - تريد أن تبين لك الفرق بين فعل الجن محدود القدرة، وبين فعل المَلَك العامل بأمر الله لا يحد من قدرته حد. وهو نفسه الفرق بين السحر والمعجزة. إنه الفرق بين (عصا موسى) وبين حبال السحرة وعصيهم: الأولى عاملة بأمر الله عز وجل، نافذ بها أمره، لا يعجزها شيء، والأخرى ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾[3] يستعين الجن على باطله.

وليس فعل الجن - أي السحر - تخييلًا كله، وإنما هو تخييل فحسب إن تعلق بتغيير الصورة المادية لشيء مادي ما، كما مر بك في حبال السحرة وعصيهم: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[4]، قد خلت الساحة من الحبال والعصي وامتلأت حيات وأفاعي. أما ثعبان موسى الذي خلق الله عز وجل من تلك العصا وأعادها من بعدُ سيرتَها الأولى، فقد أكل الحيات والأفاعي، لا على التخييل، وإنما على الحقيقة. دليلك في هذا أنه أتى أيضًا على الحبال والعصي، أصلِ تلك الحيات والأفاعي: التقط موسى عصاه، ولم يستطع السحرة استعادة حبالهم وعصيهم، فقد أعدمها الله عز وجل، بارئ كل صورة ومفنيها. على

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٢) الذي نراه أنه استجيب له فيه بملك؛ لا يستطيع هذا إلا ملك.

(٣) سورة طه، الآية: ٦٩.

(٤) سورة طه، الآية: ٦٦.

أنك مهما قلت في هذا (التخييل) الحادث بفعل السحرة، فهو واقع وَقَعَ، ليس تهاويم نائم منوَّم أو مخدور، دليلك في هذا أن الذي (خيل إليه) في الآية السابقة هو موسى نفسه، البريء من ذلك.

ومن السحر أيضًا فعل محض، أي باق أثره في المادة بعد زوال المؤثر، لا كالتخييل الموقوت بزواله، بل منه الذي تلمسه بيديك، وتسجله عدسات التصوير البريئة من التخيُّل والوهم، كالذي تراه في ألعاب السحرة التي يحتشد لها الناس، ومنها خارق لا تفسير له بمنطق العقل والعلم، والحق أنه لا محال فيه عقلًا وعلمًا، متى سلمت بوجود الجن الذي خلقه الله من ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[1] لا تعكس صورته الأشعة الضوئية التي ترى أنت بها، ولا تنقل صوته ذبذبات الصوت التي تسمع أنت في نطاقها، وكم في خلق الله عز وجل من كائنات تلمس آثارها، وإن لم تدرك أجسامها أو تحس حسيسها.

من عمل الجن إذن أفعال مادية متحققة في الزمان والمكان، مدارها على مدى الاستطاعة، يستطيعها المؤهل لها، أي يستطيعها الجن ولا يستطيعها الإنس. ولكن الجن محجوب عنك، غير مرئي لك، فتنسبها إلى الساحر، الذي (علمه) الجن كيف ينصب له الأدوات، ويهيىء له المسرح، والذي لقنه (التعازيم) التي يستدعيه بها، وعلَّمه الإشارات والرموز[2] التي (يتراسل) بها معه: يضعها له في قاع بئر معطلة، أو يدسها في نواحي خِرْبة[3]، أو تحت وسادة المراد تسحيره، وربما أضاف إليها شيئًا من (أثر) الشخص الذي يراد الكيد له، حتى إذا مر بها الجن في تطوافه فهم المطلوب، وقام بالمهمة غير مرئي ولا محسوس. وقل الشيء نفسه في ألعاب السحرة: الفاعل هو الجن، والظاهر لك هو الساحر. وليس علم السحر وتعلمه وتعليمه إلا هذا.

أما الهدف فهو افتتان الإنس بالجن، أي استهواء الإنس بالجن، ﴿كَالَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٥.

(٢) أي: (العمل) في لغة السحر والشعوذة. ومنه السحر الذي صنعه لبيد بن الأعصم اليهودي للنبي ﷺ، فكشف الله خِبْثَه.

(٣) الخِرْبة: بكسر فسكون، يعني الأرض الخَرِبَة، وهي (الخرابة) بلغة العامة.

﴿فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾[1]، وغرس المهابة في صدور الناس من إبليس وصنائعه، قد خومر عقلك، وذهب علمك، وضاع إيمانك. ومتى انهزم العقل والعلم، فقد انتصر الجهل وسادت الخرافة، فزادك خبالًا على خبالك، تخاف ظلك، وتؤرقك أشباحك، تأتمر بالدجال والعراف والكاهن، وتنحت لك من الوهم أصنامًا وأوثانًا، ومعبودك في واقع الأمر هو الشيطان نفسه، قد أسلست له قيادك، وكفى بهذا إثمًا وخسرانًا.

قد كفر الشياطين إذن الذين علموا الناس السحر، وزينوا لهم ما أنزل على الملكين ببابل، وكفر أيضًا صنائعهم الذين تقبلوا منهم هذا السحر وعملوا به، أي الذين استعاذوا بالشياطين فأعاذوهم، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾[2]؛ لأنه لم يستعذ بالجن، وإنما سخرت له الجن تسخيرًا: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ[3] وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾[4]. سأل سليمان ربه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5]. كانت الجن في هذا كله مأمورة، وكان سليمان فيها حاكمًا محكمًا بسلطان الله. على أن سليمان عليه السلام لم يستخدم الجن فيما يفتن الناس، ولم يستخدمه فيما يضل عن سبيل الله، بل في الهداية إليه سبحانه، كما تجد في قصته مع ملكة سبأ: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[6].

وتستطيع أن تنسق على هذا أن (هاروت) و (ماروت) الملكين المكرمين لم يكفرا بما

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(٣) أصلها (كالجوابي)، جمع جابية، حذفت ياؤها ترخيمًا.
(٤) سورة سبأ، الآيتان: ١٢، ١٣.
(٥) سورة ص، الآيات: ٣٥ – ٣٩.
(٦) سورة النمل، الآية: ٤٤.

علماه الناس في بابل؛ لأنهما كانا به مأمورين فتنة للمتلقِّين منهما؛ تبصيرًا للناس، وزجرًا للناس عن إتيان السحر وعن تعلمه وتعليمه.

أما قول مفسري القرآن في (هاروت) و(ماروت) و (بابل)[1]، فقد توقفوا في تفسير معنى (هاروت) و(ماروت) مكتفين بأنهما عَلَمان أعجميان منعا من الصرف للعجمة، وهذا يدلك على أن أهل الكتاب المعاصرين لهؤلاء المفسرين لم يكن لديهم هم أيضًا شيء في تفسير معنى هذين العلمين، فتستنبط من هذا أن أهل الكتاب هؤلاء كانوا إلى ما بعد عصر نزول القرآن لا يعلمون شيئًا عن (أريوخ) و (مريوخ) في أخنوخ السلافي، ولا عن الملائكة الذين هبطوا إلى الأرض يعلمون الناس فنون السحر والشعوذة وقطع الأرحام في أخنوخ الحبشي، لا بأصل هذه الرواية ولا بترجمتها السلافية أو الحبشية اللتين استخرجهما المستشرقون من أوراق الكنيستين البلغارية والحبشية، وأن القرآن كان أسبق من هؤلاء وهؤلاء إلى مجمل هاتين الروايتين.

وأما قول مفسري القرآن في معنى (بابل)، فقد تابعوا أهل الكتاب في تفسير معناها بالبلبلة، ورددوا دون تثبت رواية سفر التكوين في المقصود من ذلك وهو التعليل لتفاوت ألسنة الخلق، ولم يلتفتوا إلى قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾[2]. أي أن المخالفة بين ألسنة الناس آية ماضية في الخلق منذ بدء الخلق بآدم، شأنها شأن المخالفة بين ألوانهم، لا شأن لها ببلبلة الملائكة في بابل. لو صح هذا الذي رواه سفر التكوين لتوقف عدد لغات أهل الأرض عند الذي انتهت إليه محنة بابل، ولكن الذي حدث هو أن لغات البشر لا تزال إلى اليوم تموت وتتوالد.

* * * *

على أن (أريوخ)، (مريوخ)، لم يجيئا في (أخنوخ السلافي) عبثًا، إنهما على الراجح عندي الرسم السلافي لهذين العلمين القرآنيين: (هاروت)، (ماروت). ولكن القرآن

(١) راجع: تفسير القرطبي للآية ١٠٢ من سورة البقرة.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٢.

لم يعربهما عن السلاف كما ظن أدعياء الاستشراق على ما مر بك، ولكنه عربهما عن الأصل الذي تكلم به الناس في بابل، والذي تحرف على قلم مترجم كتاب (أخنوخ السلافي).

فأنت تعلم أن مهبط هذين الملكين قد كان ببابل، فتقطع بأنهما تعرفا - أي تسميًا - لأهل بابل بلغة أهلها. والبابلية لغة سامية بادت، وما تجمع للغويين من ألفاظها نزر يسير، على شك في صحة نطقه ومعناه، استظهروه من كتابات بخط مسماري سبق إليه شومريون - غير ساميين - فخلا من أصوات تختص بها اللغات السامية، واستخدمه من بعدهم البابليون على علاته، فلا تدري أفسد لسانهم باستخدام ذلك الخط أم اعتجم علينا نطق ما كتبوه، أم كلا الأمرين معًا. ومن ثم لا يستطاع رد اشتقاق هذين الاسمين (أريوخ)، (مريوخ) إلى أصل بابلي مقطوع بمعناه. على أن في عبرية التوراة الاسمين العلمين (أريوخ)، (مِرَيُوت)، الأول بمعنى (الأسدي) (أي الشبيه بالأسد) والثاني بمعنى (المراء) على الجمع (أي (مِراءات)) وكلاهما في عبرية التوراة علم مذكر. واللفظ (آرا)، (آري) في كل من البابلية والعبرانية والآرامية معناه (الأسد) (وهي (هُرّ) العربية بضم الهاء وتشديد الراء ومعناها الأسد لا (هِرّ) مكسورة الهاء بمعنى (القط))، أما الواو والخاء في (أريوخ) فهي في البابلية الفارسية كاسعة تفيد النسب على الصفة. وربما قلت إن (مِرَيوت) العبرانية أصلها (مريوخ) البابلية الفارسية (مري + وخ) على النسب إلى (مَرِي) يعني العجل المسمن (وهو (المارِيُّ) في العربية). ومن ثم يكون معنى هذين الاسمين (أريوخ)، (مريوخ)، هو المنسوب إلى الأسد والمنسوب إلى العجل (الماري). وليس على هذا أو ذاك دليل تستريح إليه.

أما الذي نقوله نحن، فهو أن العلمين (هاروت)، (ماروت) لم تثبت لهما العلمية في الكتب السابقة حتى يلتزم القرآن بالإتيان بهما على ما جاءا به في التوراة والإنجيل على نحو ما مر بك في شأن (جبريل)، (ميكال). وإنما جاء بهما القرآن على أصلهما في العربية الأولى. وقد جاء بهما القرآن على زنة المبالغة (فعلوت)، كما تجيء (طاغوت) من (طغى)، (جالوت) من (جلا)، (طالوت) من (طال). إنهما على الراجح عندي تعريب على التفسير من الهراء

والمرية، أو الهَرْء والمَأْر (أي القطع والإفساد)، تسمية لهما بذلك (العِلم) الذي علماه الناس في بابل، وكانت به (الفتنة) التي تعرفا بها للناس: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[1].

أما (بابل) في القرآن فهي مفسرة بذاتها لا تحتاج إلى تفسير، وقد علمت أنها من البابلية (باب + إيلو)، أي (باب + إل)، يعني (باب الله)، سهلت همزتها على المزجية، ورغم أنها جاءت على وزن شائع في العربية وهو (فاعل)، فقد منعت من الصرف للعلمية والتأنيث قبل المزجية وقبل العجمة.

ولكنك تستشف من القرآن تفسيرًا لمعنى بابل بالتصوير، أي بالسياق العام. فأنت تعلم أن البابليين كانوا من عبدة الكواكب، يديمون النظر في النجوم، وأنهم بنوا ذلك (البرج) الذي سميت به المدينة من بعد (باب إيلو)، والمقصود بالطبع (باب السماء)، معبدًا لإلههم الأكبر (مَرْدُوخ) (كوكب المريخ على الراجح)، كوة نافذة في السماء يرصدون منها آلهتهم هذه، على نحو ما فعل فرعون: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾[2]. أرادوها كوة نافذة في السماء يرقبون ويتسمعون، فكان لهم ما أرادوا، كان (الباب) الذي صنعوا، بابًا نزل عليهم منه هاروت وماروت بالفتنة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾[3].



(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٧) الفردوس (٨) عدن

ليس في التوراة (فردوس) - وهي پَرْدِيس العبرية (بإمالة الياء). وليس في التوراة أيضًا (عَدْن) - وهي عِدِن العبرية - لا بمعنى (النعيم) (من عَدَن العبري المكافئ في العربية للجذر (غَدِنَ) ولا بمعنى (الإقامة) (من (عدن) العربي)، وإنما عِدِن في التوراة اسم موضع في هذه الأرض التي نعيش عليها، يطلقه علماء التوراة على إقليمٍ ما فيما بين النهرين (العراق). أما (الجنة) (جانْ العبرية) فهي (حديقة) لا أكثر ولا أقل في إقليم (عِدِن) هذا (جَانْ بعِدِن، أي جنة في عِدِن) (غرسها الرب الإله في عِدِن شرقًا)، ووضع آدم هناك كالبستاني (يُفلحها ويحفظها)[١].

ومن عِدِن هذه خرج نهر يسقي تلك الحديقة (الجنة)، ومن هناك ينقسم أربعة رءوس أنهار، أصل كل أنهار الأرض[٢]. ليست الجنة المعنية في التوراة هي (الجنة) المعنية في القرآن، وإنما هي حديقة صنعها الله لآدم ثم طرده منها لعصيانه، لا يعود إليها من بعد، لا هو ولا بنوه. ليست هي في السماء كما تستظهر من قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾[٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾[٤]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[٥]، ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾[٦]، ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ

---

(١) العبارة في ترجمة التوراة العربية (ليعملها ويحفظها)، وليس بالجيد في ترجمة (لِعَبِدَاه ولِشَمِرَاه) العبرية. (عَبِدَ) العبري هنا بمعنى (الفلاحة)، ومنه في العبرية (عبودت - أدما) يعني الزراعة عِلمًا وحرفة (أدما العبري يعني الأرض، مأخوذة من الأدمة والأديم في العربية، وسيأتي).

(٢) راجع في هذا كله سفر التكوين ٢/ ٨ - ١٥.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.

(٥) سورة النجم، الآيات: ١٣ - ١٥.

(٦) سورة الحاقة، الآيتان: ٢١، ٢٢.

رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]، وأكبر من هذا كله وأبين قوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾[2]. وليست كذلك الجنة في التوراة. (جنة التوراة) هي جنة آدم، بقعة في إقليم من هذه الأرض، لا (جنة عرضها السماوات والأرض) كما أخبر القرآن: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، لا تسعها (عدن) التي في العراق، ولا العراق أجمع، ولا هذا الكوكب كله.

والحق أنك لا تجد في التوراة، ولا في الإنجيل أيضًا، حديثًا عن الدار الآخرة، لا مستفيضًا ولا مجملًا، وكأن (أهل الكتاب) أعرف بتلك الدار من أن تعرف لهم. فقد شغل كتبة أسفار التوراة بالأخبار والأنساب والسير، وشغل كتبة الأناجيل بسيرة عيسى عليه السلام وأعمال (الرسل)، ومجيء المخلِّص (عند اكتمال الزمان يضعون عليه أحمالهم. كان على الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر أن ينتظروا نزول القرآن حتى يعلموا علم تلك الدار مبسوطًا مفصلًا، مبينًا ومعرفًا: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[4].

والإنجيل أيضًا يتابع التوراة في قصرها (الجنة) على تلك (الحديقة) التي طرد منها آدم وحواء (وهي باليونانية كِيبوس *Kipos*). أما الجنة بمعنى دار النعيم في الآخرة فالإنجيل يسميها (ملكوت السماوات) (في أحد معاني هذا التعبير الإنجيلي)، و(بنو الملكوت) في لغة الإنجيل هم (أصحاب الجنة) بالمعنى القرآني، أما (أصحاب النار) فهم الممنوعون من دخول الملكوت. ولكنك لا تعلم من الإنجيل شيئًا في وصف نعيم (بني الملكوت) هؤلاء إلا أنهم في صحبة الملائكة والأنبياء والصديقين الأطهار. من هنا كانت السماء ***(Heaven)*** مرادفًا لمعنى الجنة عند الأوروبيين المسيحيين. ولئن كان الإنجيل - بوضعه الجنة في السماء - قد سجل تقدمًا بالغ الخطورة على التوراة التي بين يديك، فقد كان التعبير بلفظ

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٢.

(٢) سورة العلق، الآية: ٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٤) سورة محمد، الآية: ٦.

(الملكوت) عن دار النعيم في الآخرة غير دقيق؛ لأنك تعلم من القرآن أن هذا الملكوت الذي في السماء يتجاور فيه على سواء أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾[1]، يتنادون: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾[2].

وينفرد الإنجيل من دون التوراة التي بين يديك بالنص في ترجمته العربية على (الفردوس) بالاسم: (فقال له يسوع: الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس)[3]، ترجمة لليونانية (پراذيسو) *Paradeiso* التي أخذتها اللاتينية على علاتها *Paradisus*، ومنها *Paradis* الفرنسية و *Paradise* الإنجليزية.

وقد أعضلت (پراذيسو) اليونانية هذه على الذين ترجموا من بعد الأناجيل اليونانية الأصل إلى العبرية (لغة المسيح)، ولكنهم فهموا من السياق وحده أن المسيح يعني (جنة عدن)، أي (الجنة التي في عدن) أعني (جَانْ بِعِدِن)، فترجموا (اليوم تكون معي في الفردوس) إلى العبرية هكذا: (تِهْيِه هَيُوم عِمَّادي بجان عِدِن)، وقد مر بك أن (جنة عدن) في التوراة هي (جنة آدم)، لا شأن لها بدار النعيم في الآخرة، فتفهم أنهم لا يعرفون للفردوس مقابلًا في العبرية هو (پَرْدِيس)، أو بالأحرى أنهم لا يفهمون من (پرديس) العبرية المعنى الذي أراده المسيح والمفهوم من السياق. وتدرك أيضًا أن مترجمي الأناجيل إلى العربية ما كان ليضعوا (الفردوس) موضع (پراذيسو) اليونانية لو لم يتنزل القرآن بتسمية (الفردوس)، وإلا لقالوا: (البستان) أو (الحائط) (بمعنى البستان)، وهي الترجمة الدقيقة للفظ (پراذيسو) اليونانية، كما تدرك لماذا لم يقولوا (الجنة)؛ لأنهم يعلمون أن (جان) العبرية هي (جنة آدم)، لا دار النعيم في الآخرة. وتدرك أخيرًا كم استفادت اليهودية والمسيحية من القرآن في جلاء الضباب عن كثير من غوامض تلك المعاني العليا.

ولكن المستشرقين مرضى الهوى والغرض يقولون لك: إن القرآن نحت (فرودسه) من

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٠.

(٣) لوقا: ٢٣/ ٤٣.

(پراديسو) التي في إنجيل لوقا، وأخذ (جنات عدن) عن تلك الجنة التي في عدن، (جَانْ بِعِدِن) من سفر التكوين.

****

أما (پراديسو) اليونانية هذه فليست يونانية، ولا علم لليونان بها قبل عصر المسيح، وإنما هي منحولة كما يقول اللغويون من الفارسية (پَيْرِي + دَيْزَا) *Pairi + Daeza* (پيري = حول، ديزا = جدار) فهي السور أو الحائط، استعير للبستان أو الحديقة، كما استعارت العربية لفظ (الحائط) أي المحوط، لهذا المعنى نفسه، باعتبار السور الذي يحوطه ويحفظه، لا باعتبار محتواه. فلا تدري لماذا يأخذ كتبة الأناجيل من الفارسية القديمة ولديهم في اليونانية (پِريبولي) *Periboli* بنفس المعنى - أي الحائط بمعنى البستان - ولديهم أيضًا مطلق الحديقة Kipos، أما إن أرادوا حديقة الفاكهة خاصة فلديهم (أُپورُوكيپوس) *Oporokipos*. لا يفعل كتبة الأناجيل اليونانية هذا إلا إذا كانوا قد سمعوه من المسيح عليه السلام ملفوظًا على نحو قريب من (پراديسو) فتأول لها اللغويون هذا الأصل الفارسي القديم كما مر بك، دون أن يتساءلوا عن سبب نطق المسيح عليه السلام بهذا اللفظ الفارسي القديم، ولديه في لغته (جَانْ) و(جَنَّا)، إلا إن كان عليه السلام يقصد جنة بعينها، كما قال الصادق المصدوق ﷺ ما معناه: «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة**».

وهذا يعود بك مباشرة إلى (پَرْديس) العبرية، التي تنكر لها مترجمو (پراديسو) في الترجمة العبرية للأناجيل اليونانية.

ولكن (پرديس) العبرية اسم جامد، لا اشتقاق له في المعجم العبري ولا جذر له في العبرية يرد إليه، فهو إما دخيل على تلك اللغة، وإما اسم أميت جذره وبقي الاسم بمعناه.

****

وردت الفردوس في القرآن مرتين فحسب: الأولى مضافًا إليها (الجنات) على النسب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[1]، والثانية منفردة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2]. والجمع بين حديثه ﷺ في وصف الفردوس بأنه أوسط الجنة، وبين الفردوس في سورتي الكهف والمؤمنون، يقتضي فهم الفردوس بأنها علم على موضع متميز في قلب الجنة يرثه الأخيار من عباد الله الذين اكتملت فيهم صفة المؤمن على ما تعرف من أشراطها في أول سورة المؤمنون، تحيط به جنات تنسب إليه - (جنات الفردوس) في سورة الكهف - يرثها المؤمنون الذين يعملون الصالحات بعامة، أي مطلق المؤمن، لا خيار المؤمن.

مصداق هذا التمييز بين (أصحاب اليمين) بعامة، وبين (السابقين المقربين)، أي الخِيرة: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[3]، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه، لا بعملنا وهو في جنب الله عز وجل قليل. ومصداقه أيضًا في سورة الرحمن، تمييزًا بين الجنتين اللتين لمن خاف مقام ربه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[4]، وبين الجنتين اللتين لمن دون هذا في المنزلة: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[5]، أي لعموم المؤمن.

والقائلون بعربية الفردوس يشتقونه من (الفردسة)، أي التوسعة والتعريش، من فردس الكرم أي وسعه وعرشه، وفردس قِرْنَه يعني صرعه، وفردس وعاء التمر ونحوه يعني حشاه وغلا في حشوه، ورجل فُرادِس يعني ضخم العظام، والفُردوس بضم الفاء الزيادة والسعة في الحنطة ونحوها. وهذا كله يقطع ما بين اشتقاق (الفِرْدَوْس) في العربية وما بين اشتقاق (پراديسو) اليونانية و(پَيْري + دَيْزا) الفارسية ومعناه السور أو الحائط. العربية من الضخامة والسعة والبسط، والأعجمية من التسوير والإحاطة.

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٧.
(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠، ١١.
(٣) سورة الواقعة، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.
(٥) سورة الرحمن، الآية: ٦٢.

(فردس) العربية كما ترى جذر رباعي، والمادة الرباعية في اللغات السامية ليست بالجذر الأصيل، إنها غالبًا إما على التضعيف مثل (زل + زل)، وإما ثلاثي زيد بحرف مثل (خَثْرَ + م) بمعنى غِلَظِ الشفة أو طرف أرنبة الأنف (وخثر بمعنى غلظ)، وإما مزجي يجمع بين معنيين مثل (دح + رج) أي دفعه متحدرًا، من الدحي والرجرجة.

أصل (فردس) إذن إما (فَرَدَ + س) من فَرَدَ بمعنى نثر وفرق وباعد مزيدًا بالسين على المبالغة، كما في (قَسَطَ + س)، وإما أن تكون على المزجية (فر + دس) من الفراهة والدِّياسة، أو من الفُرَّة والدِّيسة. الأولى - (فَرَدَ + س) - تطابق معاني (فردس) في المعجم العربي، أي البسط والسعة والتعريش، والثانية (فر + دس)، التي لم يقل بها أحد، تطابق تعريفه ﷺ معنى (الفردوس) بأنه أوسط الجنة وأعلى الجنة. وأما (الدِّيسة) فمعناها العشب الطري (وهي (ديشه) العبرية و(ديثه) الآرامية)، ومعناها أيضًا - الذي أعنيه هنا - الغابة الكثيرة الشجر. وقد علمت أن (الجنة) في اللغة معناها الحديقة ذات النخل والشجر، من (جَنَّه) يعني ستره، فالدِّيسة بهذا المعنى تكافئ الجنة. وأما (فَرُهَ) من الفراهة فمعناها جَمُل وحَسُن. وأما الفُرُّ والفُرَّة (من الجذر ف / ر / ر) فهو خيار الشيء. فيكون معنى الفِرْدَوْس (خيار الجنة) كما قال الصادق المصدوق ﷺ.

وقد عرف العرب (الفردوس)، (الفراديس) قبل القرآن، يطلقونها على بساتين الكرم خاصة، ومنه (فراديس الشام)، ومنه أيضًا قول أمية بن أبي الصلت في عجز بيت له: (فيها الفراديس والفُومان والبصل). ولأن (الكروم) هي (أكرم) البساتين عند العرب - وليس مصادفة أن يشتق الكَرْم من الكَرَم أو العكس - فقد شاع (الفردوس) على بساتين الكرم خاصة، وإن كان المعجم العربي يطلقه على (البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين)، وهذا عندي محدث، متأثر في تأصيله بمعنى (الفردوس) في القرآن والحديث.

أما (پرديس) العبرية، فالمعجم الحديث لألفاظ التوراة (هَمِّلُّون هِحَدَاش لَتَنَاخ)[1] يعرفها

(١) انظر ثبت المراجع في نهاية هذا الكتاب.

دون تأصيل بأنها (جَانْ عِصِي پِرِي (جَدُور))، أي: (جنة الشجر المثمر (مسورة))، فلا تدري كيف أقحم (التسوير) على اللفظ إلا إذا كان قد تأثر بلفظ (پراذيسو) اليونانية بمعنى السور أو الحائط، المنسوبة إلى المسيح عليه السلام في إنجيل لوقا، وليس في (پراذيسو) من الشجر المثمر شيء، رغم أن (جان) العبرية تفيد بذاتها التسوير والستر.

إن صحت نسبة (پراذيسو) اليونانية إلى المسيح عليه السلام في إنجيل لوقا، فالراجح عندي أنه عليه السلام نطقها على العبرانية (پرديس)، التي ترد آخر الأمر إلى العربية (فردوس)، لا حاجة به إلى اصطناع (پراذيسو)، التي جاء بها لوقا في إنجيله - لا على الترجمة كما يظن - وإنما على الرسم (اليوناني)، شأنها شأن كثير من ألفاظ الإنجيل العبرية - الآرامية.

لا يحتاج المسيح إلى (پراذيسو) اليونانية وعنده (پرديس)، وإنما احتاج إليها لوقا اليوناني. ولا يحتاج القرآن إلى (پراذيسو) اليونانية، فليس (الفردوس) في القرآن سورًا أو حائطًا، وليس بستانًا كأي بستان. ولا يحتاج القرآن من باب أولى إلى (پرديس) العبرية ولديه العربية (فردوس)، خيار الجنة.

* * * *

أما مفسرو القرآن[1]، فهم يجمعون على عربية (الفردوس) من (فردسه) بمعنى وسعه وعرشه. وشذ بعضهم فقال: بل هي يونانية (على ما مر بك من معنى (پراذيسو))، أو هي فارسية (على ما مر بك من إرجاع (پراذيسو) الإنجيلية إلى (پيري + ديزا) الفارسية. وهذا يدلك على أن (پراذيسو) و(پيري + ديزا) وقعتا في كلام الفرس والروم على السواء عصر تصنيف تفاسير القرآن. ولم يصب هؤلاء فيما قالوه - وتوكأ عليه من بعد أدعياء الاستشراق في العصر الحديث - لأن جعل (الفردوس) بمعنى الجنة أو البستان يصطدم بقوله عز وجل في سورة الكهف: (جنات الفردوس)، التي تؤول على هذا القول إلى (جنات الجنة) أو (جنات البستان)، وهو لغو يتنزه عنه القرآن؛ لأن إضافة الشيء إلى مرادفه لا تصح إلا بزيادة في

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ١٠٧ من سورة الكهف، والآية ١١ من سورة (المؤمنون).

معناه. وهو يصطدم أيضًا بتعريفه ﷺ معنى الفردوس بأنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أي (خيار الجنة).

الفردوس إذن عربية لا مشاحة. وسترى الآن توًّا أن (عدن) كذلك.

* * * *

عَدَنَ بالمكان عَدْنًا يعني أقام. وعَدَنَ البلدَ عَدْنًا يعني تَوَطَّنَهُ، لا يريمُ ولا يَبْرَح. فـ(جنات عدن) يعني (جنات إقامة). مصداق هذا قوله عز وجل: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[1]. ودفع عز وجل مَظِنَّةَ السأم من هذا التأبيد وإن كان في الجنة بقوله في ختام السورة: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[2]. إنها جنة المأوى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[3]، ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4]، وهي دار المقامة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾[5]، وجنة الخلد: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[6]، ودار الخلود: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾[7].

وردت (عدن) في كل القرآن إحدى عشرة مرة. وهي لا تجيء قط في القرآن منفردة، وإنما تجيء تسبقها (جنات) على الإضافة التي تفيد النعت، أي جنات يُعْدن بها، لا رَيْمَ ولا بَراح.

ولم تجئ قط في القرآن (جنة عدن) على إفراد لفظ (الجنة)؛ لأن مفرد (الجنة) معرفًا بالألف واللام، علم بذاته على دار النعيم في الآخرة بكل درجاتها، فردوسًا وغير فردوس: إنه اسم جنس لمجموع (الجنات) التي في تلك الدار، يختص فيها كل مؤمن بجنته. ولأن

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٨.

(٣) سورة النجم، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٤) سورة السجدة، الآية: ١٩.

(٥) سورة فاطر، الآية: ٣٥.

(٦) سورة الفرقان، الآية: ١٥.

(٧) سورة ق، الآية: ٣٤.

الجنس لا يكون إلا مفردًا، فلم يقل القرآن (جنة عدن) على الإفراد، كي لا يظن أن (جنة عدن) اسم جنس لمطلق الجنة، كما وهِم سفر التكوين، وكي لا يظن أن (جنة عدن) - كالحال في (فردوس) - جنة متميزة عما دونها من الجنات، كما تروي إسرائيليات دست على تفاسير القرآن، بل الجنات كلها جنات عدن على سواء، أي جنات إقامة، فردوسًا وغير فردوس: إنها ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾[1]، ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2].

ومن إعجاز القرآن - بل ومن دقيق القرآن - أنه في حديثه عن قصة آدم لا يسميها قط - على خلاف سفر التكوين - (جنة عدن)؛ لأنها لم تدم لآدم. وهذا يدلك على أن (عدن) ليست وصفًا للجنة بذاتها، لا على النسب إلى إقليم أرض كما وهم سفر التكوين، ولا بمعنى النعمة والتنعم من (عَدَن) العبري المأخوذ من (غَدِنَ) العربي، كما قال علماء العبرية من بعد، فقد كانت الجنة لآدم وزوجته نعيمًا أي نعيم: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[3]، ولكن (عدن) وصف لدوام الحال في تلك الجنة، فلا توصف به إقامة آدم فيها قبل إهباطه منها، وإنما توصف به الإقامة في تلك الجنة لمن حُقَّت له الجنة في الدار الآخرة، ليطمئن القلب إلى أنها إقامة خالدة لا تزول، كما زالت من قبل عن آدم، وإيناسًا لآدم نفسه بعد أن تاب الله عليه كي يخرج منها على رجاء العودة إليها خالدًا فيها لا يخشى الخروج منها كرة أخرى.

إلى هذه الجنة (الدائمة) الخالدة دعا آدم أبناء جيله، وتحدث بها من بعده أبناؤه وذراريه أجيالًا بعد أجيال، حثًا على طلب الجنة التي لا تزول، حتى التصق النعت بالمنعوت، فصار في العبرية الأولى (جَانْ عِدِن)، نقلًا عن العربية الأم - أعني عربية آدم وبنيه - أي (جنة المقامة)، علمًا على مطلق تلك الجنة.

ولكن العبرية على عصر سفر التكوين تخلط بين العين والغين،[4] أي بين (عدن)، (غدن)،

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٨.

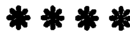
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

(٤) مثل حَلَقْ العبري بمعنى حَلَقَ وخَلَقَ على السواء، يتمايزان بالسياق.

تكتبهما وتنطقهما سواء بالعين غير المنقوطة. وقد سقط من المعجم العبري (عدن) بمعنى أقام، وبقيت فيه (عدن) بمعنى (غَدِنَ) العربي، أي خصُب ولان ونعُم، ففهمها الكاتب بهذا المعنى، وراح كدأبه يلتمس لها التفاسير، حتى استقام له إسقاط تلك الجنة من السماء إلى الأرض، ينسبها إلى موضع في ذلك الإقليم الخصيب في العراق، إقليم (عدن) وفاته ما كتبه هو نفسه (تكوين ٣/ ٢٢-٢٤) من أن الله عز وجل خشي أن (يغافله) آدم إلى شجرة الحياة في (جان عدن) بعد طرده منها، فأقام على تلك الجنة حرسًا يمنعونه من دخولها، فكيف عاد إليها أبناء آدم الذين سكنوا إقليم (عِدِن) يحرثون ويزرعون ويأكلون ويتناسلون؟

شرط الوحي (الصادق) ألا تكذبه السنون. لم تعد على أرض هذا الكوكب، لا في العراق ولا في غيره، بقعة أرض لم تزر إن لم تعمر، ناهيك بأرض تمنع الملائكة الناس أن يطئوها. فهل غافل الإنسان الملائكة من بعد، أم حرمت الجنة على آدم، وأبيحت من بعد لبنيه؟

أما علماء العبرية الذين قالوا من بعد: إن (جان عدن) يعني (جنة النعيم)، فليس بشيء؛ لأن سفر التكوين يضع الجنة (في عدن شرقًا)، وينص تنصيصًا على (جان بِعِدِن)، أي جنة في عدن (والباء في العبرية تكافئ (في) العربية). ليست (عدن) في سفر التكوين من أسماء المعاني، وإنما هي بيقين لا يصح فيه جدل اسم موضع، كيفما اخترت له الأرض والموقع.



(٩)
جهنم

ليس في التوراة من أسماء النار (جهنم)، وإنما فيها (شِئُول) أي الهاوية، وهي *Hades* اليونانية في الترجمة السبعينية للتوراة. والهاوية من أسماء النار في القرآن. وليس في المعجم العبري أصلًا (جهنم) أو (جِهِنَّام) العربيتان بمعنى البئر البعيدة القعر، وهي نفسها (الهاوية) إن تَمَعَّنْتَ.

وإنما هي في العبرية (جي - بِني - هِنُّوم)، أي وادي أبناء (هنوم)، التي اختصرت إلى (جي - هِنُّوم)، أي (وادي هِنُّوم)، وموضعه بالحي الجنوبي الشرقي من أورشليم كما يقول علماء التوراة. ضَحَّى فيه (آحَاز)، (منسا) بأبناء لهما قربانًا للإله (مولخ)، وغدا من بعد مَزبلَة ومحرقة للنفايات، تحقيرًا.

ولعلماء العبرية في اشتقاق (شِئُول) قولًا: إما أنها من (شَأَلْ) العبري (وهو (سأل) العربي ومن معانيه (الطلب)) فيكون معناها التي تطلب ولا تشبع، شأن جهنم في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[1]، وإما على القول الثاني - وهو غير قوي - إنها مُتَحَرِّفَةٌ عن (شِعُول) من (شَعَلْ) العبري بمعنى خوى وتجوف، فهي (الهاوية) أيضًا.

أما الإنجيل فهو يذكر في ترجمته العربية (جهنم) بالاسم: ((بل أريكم ممن تخافون. خافوا من الذي بعدما يَقْتُل، له سلطان أن يُلْقِيَ في جهنم))[2]، يترجم به (جِهِنَّا) *Gehenna*

(١) سورة ق، الآية: ٣٠.

(٢) لوقا: ١٢/ ٥.

في الأصل اليوناني، وهي باتفاق ليست يونانية، وإنما هي عبرية أو آرامية، فالأصيل في اليونانية (كولاسي) *Kolasi*، ومعناها (دار العقاب)، جهنم أو الجحيم أو الهاوية أو ما شئت من أسماء النار، ولكن لوقا كدأبه آثر استبقاء (جِهِنَّا) على أصلها، أقرب ما تكون إلى ما نطق به المسيح.

والراجح عندي أن المسيح عليه السلام نطق بها على أصلها العربي (جِهِنَّام)، حذف لوقا ميمها في الرسم اليوناني، على نحو ما فعل في إنجيله أحيانًا من حذف ميم (مريم) التي رسمها في بعض مواضع *Maria*، أو أنه عليه السلام نطقها (جِهِنَّا) بحذف الميم ترخيمًا على نحو ما كتبها لوقا، وأن (جِهِنَّا) هذه أو (جِهِنَّام)، هي المقابل الآرامي - لا العبري - لجهنم أو جهنام العربية، بمعنى البعيدة القعر، أي الهاوية، يعني بها (شئول) العبرية لا أكثر ولا أقل.

ولكن (اليونانية الكنسية) التي لم تجد في المعجم العبري أصلًا تشتق منه (جِهِنَّا) الإنجيلية هذه أقرب من (جِي - هِنُّوم) ظنتها الصورة الآرامية لـ (جِهِنَّا) أو (جِهِنَّام)، وفاتها أن المسيح عليه السلام في السياق المتقدم يخوف السامع بما بعد الموت، أي يخوفه بدار العذاب في الآخرة، لا بمحرقة للنفايات على أطراف أورشليم، أعني (جِي - هِنُّوم)، التي لا تخيف أحدًا مات أو قتل، فلا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها. وعلى هذا النحو مضى أدعياء الاستشراق يطنطنون بأن القرآن أخذ (جهنم) من (جي - هنوم) كما فعل لوقا من قبل في إنجيله.

وقد ضل هؤلاء المستشرقون على علم؛ لأنهم أرادوا لأنفسهم هذا الضلال. القرآن لا يسمي (جهنم) اعتباطًا، وإنما هو يصورها أبلغ تصوير وأبينه بمعنى الهاوية البعيدة القعر، تمامًا كمعنى جَهَنَّم وجِهِنَّام في المعجم العربي: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1]، ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[2]، ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[3]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.

جِثِيّاً ﴾[1]، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[2]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ ﴾[3]... إلخ.

أفي (جي - هنوم) العبرية من هذه المعاني شيء؟ أليست (جِي - هِنُّوم)، أعني ذلك الوادي الذي لأبناء هنوم، اسم موضع معلوم؟ أليست (جِي) العبرية (وهي من (جواء) العربية)[4] تعني (الوادي)، بل الواسع من الأودية؟ فكيف تجيء جهنم (الهاوية) من (الجِواء) وهي أقرب إلى الضد منه؟ أليست الهاوية في المعجم العربي[5] تعني البعيدة القعر؟ أليست هي وجِهِنَّام في المعجم العربي على الترادف والتطابق؟ أفي معنى (الوادي) و(الجواء) من هذا شيء؟

والذي يستوقف النظر أن المعاجم العبرية الأحادية اللغة، أي العبري - عبري[6]، لا تفسر (جِي - هِنُّوم) بأنها تعني (دار العذاب في الآخرة)، وإنما تدرجها في ثَبَت الأعلام على الموضع والمكان، أي ذلك الوادي في الجنوب الشرقي من أورشليم. أما المعاجم العبرية الثنائية اللغة، عبري - فرنسي على سبيل المثال[7]، فهي لا تترجم (جِهِنَّا) الإنجيلية إلى (جِي - هِنُّوم) العبرية وإنما تترجمها إلى (شِئُول) أي الهاوية، وحين تترجم (جِي - هِنُّوم) العبرية إلى الفرنسية تقول: (وادي هِنُّوم) الذي في أورشليم، ثم تثني فتقول: ومجازًا = (جِهِنَّا). وقد أتى هذا (المجاز) بالطبع تأثرًا بما جاءت به المسيحية من بعد، في تصورها أن (جِهِنَّا) الإنجيلية مشتقة من (جِي - هِنُّوم)، وليس بصحيح في ديانة اليهود.

على أن القرآن لم يحتج إلى (جِهِنَّا) ولديه في أصيل العربية (جِهِنَّام)، ولم يعرب لفظ

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

(٤) راجع في المعجم العربي الجذر (جوي).

(٥) راجع في المعجم العربي الجذر (هوى).

(٦) راجع المعجم العبري لألفاظ التوراة (هَمِلُّون هِحَدَاش لَتَنَاخ) وهو من مراجع هذا الكتاب.

(٧) انظر معجم لاروس (عبري/ فرنسي - فرنسي/ عبري).

(جَهَنَّم) عن (جِي - هِنُّوم) البعيدة كل البعد عن معناه.

جهنم في القرآن عربية لا مشاحة، وإن رغمت أنوف[1].

أما أن (جهنم) ممنوعة من الصرف في كل القرآن فليس هذا لعجمتها، وإنما هو فقط للعلمية والتأنيث.

* * * *

(١) الذي يجب التذكير به فيما مضى من مباحث هذا الكتاب وفيما سوف يلي، أن أدعياء الاستشراق هؤلاء - معظمهم إن لم يكن جميعهم - دلفوا إلى المعجم العربي مثقلين بما حُمِّلوه من عبرية التوراة، يفسرون العربي بالعبري على قدر محفوظهم من تلك العبرية التي انقرضت أو غابت أصول جذورها تحت ركام من تفاسير وضعت بعد نحو ألف سنة من عصر موسى عليه السلام، تخطئ وتصيب. في وهمهم أن العبرية أقدم وجودًا من العربية لمجرد أن التوراة أقدم نزولًا من القرآن. وقد لغوا بهذا وسكنت إليه نفوسهم؛ لأنه يفيدهم في دعوى استنساخ القرآن من التوراة، وهي دعوى لا يقول بها إلا هازل، جاهل بالقرآن والتوراة. وقد تظاهرت الآن علوم اللغات والتاريخ والآثار على أن اللغة العربية هي أم الساميات جميعًا، إليها يرد علم ما باد وانقرض في تلك اللغات السامية، ومنها يؤخذ تفسير ما غمض فيها، أو شَحُبَ معناه، أو فقد جذره. ومضى عصر كان ينظر فيه إلى أولئك المستشرقين نظرة الهيبة والإكبار، يؤخذ عنهم ويتتلمذ عليهم دون نقد أو تمحيص الغث والسمين. نقول هذا دون أن نقلل من جهدهم الضخم، وكان أولى بنا أن نقوم به نحن، فنأمن الهوى والضلال.

(١٠)
إبليس

ليس في التوراة (إبليس)، وإنما فيها (ساطان) بمعنى العدو، وهي نفسها (شيطان) العربية، كما مر بك.

وفي العبرية أيضًا (عزازيل) اسمًا علمًا لإبليس، ومعناها (عزيز الله)، على ما يروى من شأنه قبل أن يبلس في أقاصيص أهل الكتاب، وتابعهم فيه لفيف من مفسري القرآن الذين قالوا بأن إبليس كان من الملائكة ثم (أبلس) بعد، وهذا لا يصح فيه عن الصادق المصدوق حديث، بل يعارض صريح القرآن: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[1]، على ما ذكرناه آنفًا. وربما جاء الخلط عند أهل الكتاب من افتقار العبرية إلى اسم لصنف الجن، بل تسوي في الاسم بين الملائكة والجن؛ كلاهما فيها (روح)، (ملآخ) أي روح، ملك.

* * * *

وليس في الأناجيل اليونانية أيضًا (إبليس)، بل فيها (ساتان) *Satan* وهي نفسها (ساطان) العبرية على الرسم اليوناني، وترجمت في الأناجيل العربية بلفظ (شيطان)، وبلفظ (إبليس) أحيانًا، لا على الترجمة، وإنما استئناسًا باسمه الوارد في القرآن.

وفي الأناجيل اليونانية اسم آخر للشيطان، وهو (دِيَبُلُس) *Diabolos* (والسين فيه للرفع وتحذف غيره) ومن هذه جاءت *Diable* الفرنسية و *Devil* الإنجليزية، وأشباههما في اللغات الأوروبية الحديثة بمعنى (الشيطان) لا أكثر ولا أقل. وقد خالفت تلك اللغات بين

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

أصل وضع اللفظين (ساطان) و(ذِيَبُلِيُس)، فهي تجعل (ساطان) اسمًا علمًا للشيطان يناظر (إبليس) في العربية، وتأخذ (ذِيَبُلِيُس) على أنه (اسم معنى) يقبل التنكير كما يقبل الإفراد والجمع.

أما (ذِيَبُلِيُس) اليونانية فليست ترجمة يونانية للفظ (ساطان) العبري (بمعنى العدو كما قد يظن، وإنما هي على الفاعلية من اليونانية (ذِيَابُولي) *Diaboli* وهو (القذف) بالمعنى القانوني أي الرجم بالباطل، فهو الرجيم بمعنى الراجم، لا رجيم بمعنى مرجوم كما تجد في القرآن. وربما تعللت لهم في هذه التسمية بقولهم: إن الشيطان افترى على الله الكذب، يَنْسِبُهُ إلى الظلم لأنه عز وجل فضل عليه آدم، فلما اعترض - وكأنه محق في هذا الاعتراض - سلبه الله عز وجل كل جماله، وأودع فيه كل قبح، أي مسخ الملك الذي كانه، على نحو ما تجد في أقاصيص أهل الكتاب وفي الأساطير التي نسجت حول إبليس.

وربما أيضًا لأنه أبو الباطل، أي أصل كل تجديف على الواحد الأحد جل جلاله، من عقائد باطلة وآلهة مصنوعة، كما تجد في قوله عز وجل على لسان نفر من الجن المؤمن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[1] ومن هنا ترى أن (ذيبليس) اليونانية هذه ليست ترجمة للفظ (ساطان) العبري بمعنى العدو، وهي شيطان العربية، وإنما هي بالأحرى صفة لإبليس بمعنى القاذف الراجم، أي الذي يفتري الباطل.

وربما ظننت أن (ذيبليس) *Diabolos* اليونانية هذه ليست أصلًا يونانية، بل عبرية - آرامية نطق بها المسيح وتحرفت في الأناجيل: ربما كانت (دي - هَبَلَ)، تحرفت إلى (ذيبليس) عند من يهمسون الهاء وينطقون دالهم ذالًا - اليونان كما مر بك - أما (دي) عبريًا فمعناها (ذو)، وأما (هبل) عبريًا فمعناها الباطل الذاهب هباء.

* * * *

(١) سورة الجن، الآيات: ٣ - ٥.

ومن المستشرقين[1] من قال بأن (إبليس) معربة في القرآن عن (ذيبليس) التي في الأناجيل، كما أخذ (شيطان) من (ساطان) العبرية.

ومن مفسري القرآن[2] من قال بعجمة (إبليس)، وأنها منعت من الصرف لهذا السبب وحده، ولكنهم لم يذكروا الأصل الذي عرب عنه، ولم يسموا اللغة المشتق منها.

ومن اللغويين العرب كذلك[3] من يرون أن (إبليس) من الأعجمي المعرب، يكتفون بذلك ولا يسمون اللغة المشتق منها.

أما الكثرة من مفسري القرآن[4] فهم يقولون بعربية (إبليس) يشتقونها من الإبلاس، ويعللون امتناع الصرف بالعلمية وانعدام النظير في أسماء المعاني، فشبه بالأعجمي.

والذي يستوقف النظر، أن أشهر معاجم اللغة الإنجليزية،[5] على شغفه برد الألفاظ والأعلام الأعجمية (أعني غير الإنجليزية) إلى جذورها البعيدة في شتى اللغات الحية والميتة على السواء، يتوقف في (إبليس) فيقول: اسم عربي يطلقه المسلمون على الشيطان، ولا يذكر أصله من العربية أو غيرها.

هذا وذاك يدلانك على أن عجمة (إبليس)، أو اشتقاقها من (ذيبليس) اليونانية بالذات، مسألة فيها شك عند اللغويين الأثبات لا يقطعون فيها بيقين؛ لأن القول بعجمة لفظ في لغة ما يتطلب - أول ما يتطلب - التدليل على وجود أصل لهذا اللفظ في لغة بعينها استعير منها.

والملاحظة الأولى على خطأ القول بأن (إبليس) معربة من (ذيبليس) بحذف دالها البادئة (المنطوقة في اليونانية ذالًا) وإبدال الهمزة منها، أنه قول لا يصح في حق القرآن،

---

(١) *J. HOROVITZ*، المرجع المذكور.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ٣٤ من سورة البقرة.

(٣) أبرزهم (مجمع اللغة العربية)، راجع (المعجم الوسيط) الذي يضع (إبليس) في باب الهمزة.

(٤) راجع القرطبي في نفس الموضع.

(٥) *WEBSTER>S NEW WORLD DICTIONARY. Third College Edition. 1988*.

الذي يتنزه عن هذه الصورة (البتراء) من صور التعريب، التي لم يقع مثلها قط في معربات) القرآن. هذا ما لم يسلم أولئك المستشرقون للقرآن بالتضلع من فقه اللغة اليونانية، فيدرك أن المقطع (ذِيا) *DIA* من مقاطع الزيادة في تلك اللغة، يجوز الاستغناء عنه. والفقيه باليونانية لا يستعصي عليه أصلًا معنى لفظ (ذيبليس) في تلك اللغة - وقد مر بك معناه - فلا يستعيره ولديه من العربية في معناه ما هو أبلغ وأبين.

أما الملاحظة الثانية فهي أن العرب لم يعرفوا (ذيبليس) اليونانية هذه قبل القرآن أو بعده، لا على أصلها ولا في صورة محرفة، وإلا لوقعت في تفاسير المفسرين وليس من شأن القرآن كما مر بك أن يتعاجم على المنزل إليهم بالأعجمي الأعجم.

إبليس عربية. ولكنها من (العربي) المشكل.

ووجود اللفظ المشكل في القرآن مقصود؛ إنه يستثيرك إلى تحري المعنى، فتزداد علمًا، وتزداد فهمًا، وتزداد إيمانًا. وقد روي عن الصادق المصدوق ﷺ ما معناه: «**ثَوِّرُوا القرآن!**». أي ابحثوا وتمعنوا. والمشكل يستوقفك للبحث والنظر، فتكون ممن قال فيهم الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[1].

* * * *

وقد أشكلت (إبليس) على القائلين بعجمتها وعلى القائلين بعربيتها معًا.

أما الأولون فهم ذلك الفريق من المفسرين واللغويين الذين إذا استغلق عليهم لفظ في العربية سارعوا إلى افتراض عجمته، وتلمسوا له النظير في غيرها من اللغات. وقد أسرفوا في هذا أيما إسراف، بل كانوا التكأة التي توكأ عليها أدعياء الاستشراق الذين بهروا تلاميذهم، وقد ظنوا أنهم أتوا بجديد. من ذلك قولهم[2] إن (غساق) يعني اللحم البارد المنتن في

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٣.

(٢) راجع مقدمة تفسير القرطبي.

لغة الترك! فلا تدري كيف يجتمع الحميم والغساق في قوله عز وجل: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[1]، وقولهم إن (القسطاس) يعني الميزان بالرومية، وليس في الرومية من هذا شيء، بل (قسط) العربي، (قاشاط) العبري، أولى، وقد مر بك القول في (قسطاس). ولكن (إبليس) استعصت على هؤلاء المفسرين فلم (يهتدوا) إلى أصل لها في لغة أعجمية[2]، واهتدى إلى هذا الأصل المستشرقون من بعد في دعواهم أن (إبليس) من (ذِيَبُلِيس) الإنجيلية، وكأن القرآن يخاطب العرب بيونانية يفهمونها، كما ظنوا أن المسيح عليه السلام يخاطب قومه الآرامي اللسان بيونانية فشت فيهم.

أما الفريق الثاني القائل بعربية (إبليس) فلم يكن أمامه إلا اشتقاقها من الإبلاس. يعني أنها (إفعيل) من (أَبْلَس)، فهو المُبْلِس على المبالغة. وقد ورد لفظ (الإبلاس) في القرآن خمس مرات: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾[3]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[4]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[5]، ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[6]، ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾[7]. وليس في هذه الآيات ما يشهد لمعنى الإبلاس إلا الشاهدان الثاني والخامس، أي وضع الإبلاس في مقابلة الفرح

(١) سورة النبأ، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

(٢) مصداق هذا أن القرطبي رحمه الله، الذي جاور الإسبان في الأندلس وفهم لسانهم، يذكر في تفسير الآية ٩ من سورة يس: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] كيف أنجته تلاوة هذه الآية من عِلْجَين من الأعاجم أرادا الانقضاض عليه فأعماهما الله عنه فلم يرياه فقالا: هذه دِيبْلُه! وفسر القرطبي ديبله هذه (وهي *Diablo* الإسبانية أي (ذِيَبُلِيس) اليونانية) بأنها تعني شيطان بلسانهم، ولم يقل إبليس؛ لأنه لم يسمع بتعريب إبليس عن ذيبليس.

(٣) سورة الروم، الآية: ١٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٧٧.

(٦) سورة الزخرف، الآيتان: ٧٤، ٧٥.

(٧) سورة الروم، الآيتان: ٤٨، ٤٩.

والاستبشار، وربما استنبطت من (إبلاس المجرمين يوم تقوم الساعة) في الشاهد الأول أن الإبلاس حال من اليأس وانقطاع الرجاء، ومن الشاهدين الثالث والرابع كذلك.

أما المعجم العربي فيقول لك: إن (أَبْلَسَ) يعني سكت لحيرة أو انقطاع حجة، وليس في العربية إلا أبلس بالهمزة غير متعد، وكأنها من (بَلَسه فأَبْلَس) إلا أنه لم تسمع (بَلَسَ). وفي (العبرية) بَلَسْ يعني قطف، أي جمع ثمار التين خاصة. والبَلَس في العربية نوع من التين. هذا وذاك يَدُلَّانِك على أن المعنى الأصلي لمادة (بَلَسَ) هو القطع، وكأنه مبدل من (بلت) يعني (قطع). والانقطاع يفسر (الإبلاس) أبين تفسير في الآيات التي تلوت توًّا، تطبقه على الشواهد القرآنية الخمسة فيستجيب. وهو يفيد أيضًا في تأصيل معنى (أبلس) في المعجم العربي، وهو الإطراق تحيرًا والسكوت لانقطاع الحجة. وفي العربية أيضًا (بَلْسَمَ) وهي (بلس) مزيدة بالميم، ومعناها أطرق وعبَّس وجهه، وهي من (أبلس) قريب. وكأن معنى (إبليس) المقطوع الحجة في الامتناع عن السجود لآدم، أو هو - كما ذكر القرطبي - الآيس من رحمة الله وقد فعل ما فعل.

هذا إن اشتققت (إبليس) من الإبلاس، وليس عندي بوجيه، كما سترى.

* * * *

مر بك أن العلم المذكور في القرآن على غير سابقة في التوراة والإنجيل يرد في القرآن على أصله عربيًّا؛ لأنه لم تثبت له العلمية من قبل بلفظ مغاير يوجب على القرآن التزامه، كما ثبتت العلمية لجبريل وميكال ونوح ولوط... إلخ، على اللفظ الآرامي - العبري في صحف إبراهيم وموسى. ولم يرد ذكر للفظ إبليس في التوراة والإنجيل بنصهما المعاصر لنزول القرآن.

وقد ثبتت العلمية لإبليس بهذا الاسم في الملأ الأعلى على النداء من الله عز وجل: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾[1]، وهذا قاطع في أن إبليس سمي بهذا الاسم قبل

(١) سورة الحجر، الآية: ٣٢.

إهباط آدم من الجنة، أي على اللفظ العربي قبل أن تتفرق ألسنة البشر لهجات فَلُغَاتٍ، شأنه شأن آدم، خلافًا لجبريل وميكال اللذين لم يخاطبا في القرآن على النداء من الله عز وجل لسبق ثبوت العلمية لهما على اللفظ الآرامي - العبري في التوراة والإنجيل. أما إبليس وآدم فقد خوطبا على النداء من الله عز وجل باسميهما هذين، فهما كما قال سبحانه، لا يبدل القول لديه.

والذي يتعين التنبيه إليه، أن تسمية إبليس بهذا الاسم في القرآن جاءت مقترنة بعصيانه، أي بامتناعه عن السجود لآدم، فور هذا الامتناع مباشرة، قبل صدور الحكم الإلهي بإدانته وانقطاع رجائه: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[1]، والذي يلعنه الله فقد انقطع رجاؤه.

وهذا يعني أن إبليس سمي بهذا الاسم لمجرد امتناعه، وقبل انقطاع رجائه. فلا يصح أن تكون (إبليس) بمعنى الآيس من رحمة الله، كما تجد في القرطبي؛ لأن إبليس لم يكن قد يئس بعد. ولا يصح أن تكون بمعنى المقطوع الحجة، فلم يكن قد أدلى بعد بحجته: ﴿ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾. ولا يصح أن تكون بمعنى الذي أطرق تحيرًا، لا يحير جوابًا، فقد استعلن إبليس بمكنونة نفسه مجترئًا على خالقه، مستدركًا على مولاه، فضلًا عن أن (الإطراق تحيرًا) قليل في وصف حال إبليس. وإنما الذي يصح هو أن تكون (إبليس) بمعنى العاصي، الرافض، المتأبي، الممتنع. وليس في (الإبلاس) من هذه المعاني شيء.

الراجح عندي، والله عز وجل بغيبه أعلم، أن (إبليس) تعني (الذي أبى)، كنية له بحال امتناعه وتأبِّيه، جاءت على المزجية من (أبٌ + لَيْسَ)، أي هو (أَبُو لَيْسَ)، وقد مر تفصيل هذا في موضعه من (الفصل الثالث) من هذا الكتاب، في اشتقاق (ليس) ومعناها، فارجع إليه.

وقد وردت (إبليس) في القرآن إحدى عشرة مرة، معقبًا على سبع منها بالتأبي والامتناع

(١) سورة ص، الآيات: ٧٥ - ٧٨.

والرفض: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾[1]، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾[2]، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ﴾[3]، ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾[4]، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[5] - وفسق عن الأمر يعني خرج عليه -، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾[6]، ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾[7] وجاءت أيضًا معقبًا عليها بالاستكبار الذي يفيد الامتناع مرتين: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾[8]، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[9]. أما في المرتين العاشرة[10] والحادية عشرة[11] فهما فقط اللتان جاءت فيهما (إبليس) على العلمية المجردة غيرَ معقب عليها بشيء.

(إبليس) إذن هو (هامة العصاة)، أي (أبوهم).

والله عز وجل بغيبه أعلم.



(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١١، ١٢.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٣١.
(٤) سورة الحجر، الآيتان: ٣٢، ٣٣.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٦) سورة طه، الآية: ١١٦.
(٧) سورة ص، الآية: ٧٥.
(٨) سورة الإسراء، الآية: ٦١.
(٩) سورة ص، الآية: ٧٤.
(١٠) سورة الشعراء، الآية: ٩٥.
(١١) سورة سبأ، الآية: ٢٠.

(١١)
آدم

من دلائل قدم العربية على العبرية، أن اسم (آدم) أبي البشر (وينطق في العبرية (أدام) بألف ممدودة بعد الدال)، ليس له جذر في العبرية يشتق منه إلا الجذر العبري (أَدَمْ) أي (احْمَرَّ) بمعنى كان أحمر اللون. و(أدوم) في العبرية يعني (الأحمر)، ومنه كما يقول علماء العبرية لفظ (دام) أي (الدم)، فلا تدري هل اشتق (آدم) من الدم أم اشتق (الدم) من آدم. وفى العبرية أيضًا (أَدَمَا) بمعنى الأرض[1]، أي التربة، ومنه ما جاء في سفر التكوين: ((ويِّصِر يِهْوَا إِلوهيم إِت - ها أدام عَفَرْ من ها أَدَمَا وَيُّپَّح بأَپَاوْ نِشْمَت حاييم))، وهي في الترجمة العربية ((وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة))[2]. والأرض هنا يعني التربة، أي قشرة الأرض، يعني أديمها الظاهر منها، لا الأرض نفسها وهى في العبرية (ها آرص). ولا سبيل لك إلى اشتقاق (أدما) هذه - إن أردتها عبرية - إلا من الجذر العبري (أَدَم)، أي (احْمَرَّ)، يعني كان أحمر اللون، فهي (الحمراء)، وكأن (آدم) يعني (الأحمر) المجبول من (الحمراء). ولو قابلت هذا بمكافئه العربي لقلت: إن (آدم) يعني (الأغبر) المجبول من (الغبراء) (وهو الاسم الذي يطلقه العرب على أديم الأرض)، وكأن الحمرة هي اللون الغالب على تربة الأرض عند العبرانيين فسميت به. ولا يصح هذا بالطبع، وإنما الصحيح هو أن العبرية لم تشتق (أدما) من الجذر العبري (أدم)، وإنما نقلتها نقلًا عن العربية (الأَدَمَة)، اسمًا جامدًا لا اشتقاق له عندها.

---

(١) ومنه في العبرية إلى الآن (عَبُودَتْ - أَدَمَا) (حرفيًّا عبادة الأدمة)، بمعنى (الزراعة)، أي الفلاحة، وظيفة آدم في الجنة كما مر بك في سفر التكوين.

(٢) تكوين ٢/ ٧.

أما (أَدَمَ) العربي، فهو جذر غزير المعاني، ليس فيه من الحمرة شيء. من معانيه الامتزاج والخلط والإيلاف: من ذلك (الائتدام) أي المزاوجة بين أنواع الطعام كأكل الأرز باللحم، والخبز بالخضر. و(الإدام) هو المضاف من الطعام إلى بعضه ليستمرأ. و(آدَمَ) بين الزوجين يعنى آلف بينهما وأصلح. و(أَدَمَ الصانع الجلد) يعني أصلحه بنزع الزائد من (أَدَمَتِه)، و(الأَدَمَة) هي باطن الجلد تحت البشرة اللصيق باللحم (المخالط) له. و(أدمة الأرض) ما يلي وجهها، أي غلافها، ومنه (الأديم) بمعنى الجلد، وأديم الأرض يعني (جلدها)، وهو (التربة). و(أَدِم يأدَم)، وأيضًا (أَدُم يأدُم) فهو (آدم) (نسبة إلى (الأَدَمَة) أي (التربة)) يعني من كانت بشرته في لونها، أي الشديد السمرة. و(آدمته الشمس) يعني لوَّحَت لونه، أي صيرته إلى السمرة.

وهكذا ترى أن (أَدَما) العبرية بمعنى الأرض والتربة، ليست بعبرية، وإنما هي دخيلة على تلك اللغة، استعارتها رأسًا من العربية.

وتستطيع أن ترتب على هذا مباشرة أن العبرية وَرِثت أيضًا اسم (آدم) عن هذه العربية نفسها، أعني العربية الأولى - عربية آدم - ذلك الاسم الذي سماه الله به في الجنة، وهبط به إلى الأرض، فصار له علمًا بين زوجه وبنيه وحفدته وذراريه. دليلك في هذا أن سفر التكوين ينص تنصيصًا على أنه لا يشتق (آدم) من لون بشرته عبريًّا، أي الحمرة، ولكنه يشتقه من الأرض التي أخذ منها وإليها يعود، أي من (الأَدَمَة) (وهي عربية لا عبرية كما مر بك): (عادْ شُوبخا إلْ - ها أدَما، كي مِمِّنا لُقَّحتا، كي - عَفَرْ أتَّ، وإلْ - عَفَر تَشُوبْ) أي ((حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها؛ لأنك تراب وإلى التراب تعود))[1].

آدم من الأدمة في التوراة، ليس من الحمرة، وهو كذلك في العربية، كما سترى، بل هو أولى.



(١) تكوين ٣/ ١٩.

أما مفسرو القرآن[1] فهم على أنه مشتق من أدمة الأرض وأديمها، وهو وجهها، فسمي بما خلق منه. وقال بعضهم: إنه مشتق من الأُدْمة (بضم الهمزة) وهي السمرة. وزعم بعضهم أن الأدمة هي البياض، وأن آدم كان أبيض. وليس هذا وذاك بشيء؛ لأن الأُدْمة نفسها مشتقة من الأديم، أي من لون الأدَمَة، وهي إلى السمرة أقرب، ثم إنه لا مدخل للون آدم في تسميته، ليكن آدم أسمر أو أبيض أو ما شئت من أبشار البشر إن صح في لونه عن الصادق المصدوق حديث، ولكنه قبل كل شيء منسوب إلى هذه الأَدَمة التي جبل منها أيًا كان لونها وأيًا كان لونه.

وقد عقب القرطبي رحمه الله على أقوال المفسرين في هذا بقوله: والصحيح أنه مشتق من أديم الأرض..

وهذا هو (التفسير القرآني) لمعنى (آدم)، كما سترى.



ورد آدم في القرآن منفردًا – أي ليس مضافًا إليه بنوه كما في (بني آدم)، (ابني آدم) – ١٨ مرة، منها أربع على النداء من الله عز وجل في الملأ الأعلى، ومنها واحدة خاطبه بها إبليس يغريه بالأكل من الشجرة، والباقي في الحديث عن قصة آدم في الملأ الأعلى، إلا اثنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾[3]. وليس في هذا كله من تفسير معنى آدم شيء إلا قوله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[4]. ولكنك تجد هذا المعنى فصيحًا بينًا في مثل قوله عز وجل: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[5]. في هذه – وغيرها من مثلها في القرآن كثير – الكفاية

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٣١ من سورة البقرة.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.

(٣) سورة مريم، الآية: ٥٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٥) سورة ص، الآية: ٧١.

كل الكفاية في تفسير معنى (آدم). أما الطين فقد علمته، وأما (البشر) فمن البشرة، وهي وجه (الأديم)، و(بَشَر) الأديم يعني قَشَرَهُ.

(آدم) عربية كما ترى، تخرج عن مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب، ولكن القرآن فصَل في وجه اشتقاقها: إنها من (الأُدَمَة) و (الأديم)، لا من (البياض) و(السمرة).

ويخرج عن مقاصد هذا الكتاب أيضًا تفسير اسم (حواء)، زوج (آدم) في الجنة؛ لأنها لم تذكر بالاسم في القرآن.

ولكنا وعدناك فيما سبق بتفسير هذا الاسم مع (آدم). وقلنا لك أيضًا فيما سبق: إن القرآن - حين لا ينص على اسمِ علمٍ - يلم بمعناه أحيانًا في ثنايا الآيات، فيصوره لك حتى لتكاد تسميه به، وإذا هو نفسه اسم العلم المعني في التوراة. و(حواء) من هذا كما سترى.

****

يشتق علماء العبرية اسم (حواء) من الجذر العبري (حَوَا)، ويقولون: إنه من (الحياة)، أي أن (حواء) يعني (الحياة). وهم يقسرون الجذر العبري (حوا) على هذا المعنى قسرًا، رغم أن لفظ الحياة في العبرية هو (حاييم)، المشتق من جذر عبري آخر هو (حيا) بالياء، المطابق لنظيره العربي بنفس المعنى. ولكنهم يقولون لك: إن (حوًا) (وهو اسم (حواء) في العبرية غير مهموز) يعني (الحياة) في اسم (حواء) فقط، لا يجوز استخدامه بهذا المعنى في غيرها، بل تستخدم (حاييم) على أصلها.

وقد (اضطر) علماء العبرية إلى هذا اتباعًا لسفر التكوين الذي ينص تنصيصًا على أن (حواء) من الحياة. وقد مر بك هذا في موضعه. ولا تستطيع أن تقول: إن كاتب سفر التكوين تورط في هذا التفسير مدفوعًا بتغيير طرأ في زمنه على معنى الجذر (حَوَا)، لو صح هذا لما جاز لعلماء العبرية حظر استخدام (حَوًّا) بمعنى الحياة في غير اسم (حواء). وإنما تستطيع أن تقول: إن كاتب سفر التكوين تورط في هذا فألزم به من جاءوا بعده، مثلما فعل في تفسير اسم (بابل) بالبلبلة، فشاعت شرقًا وغربًا في كل اللغات. دليلك في هذا من العبرية المعاصرة

التي تستخدم الفعل (حَوَا) بمعنى عاش، أي عاش حدثًا ما أو تجربة ما، بمعنى (شَهِد)، ولكنها لا تستخدمه قط بمعنى (حيا). على أن (عاش)، (حيا) ليسا سواء: عاش بمعنى شهد يسهل اشتقاقه من أصل معنى الجذر العبري (حوا)، وهو يطابق (حوى) العربي.

وقد تابع مفسرو القرآن أهل التوراة في تفسيرهم اسم (حواء) بالحياة، لا تجد لهم في تفسيره قولًا يغايره[1].

****

أما الفعل (حوى) في العربية فأصل معناه التجمع والاستدارة والتقبض، ومنه (الحية) لأنها (تتحوى) أي تستدير على نفسها، ومنه أيضا (حواه) بمعنى استولى عليه وملكه، وكأنه (استدار عليه)، ومنه كذلك (الحِوَاء) أي المكان الذي يحوي الشيء، ويجمع على (أحوية)، و(الأحوية) يعني البيوت التي تحوي الناس، والباقي الآن منها في معناه البيوت من الوبر مجتمعة على ماء. والحَوَّاءة من الرجال يعني اللازم بيته.

وقد رجع (علماء العبرية) إلى هذه المعاني حين أرادوا تأصيل معنى الجذر العبري (حوا) - بعيدًا من اسم (حواء) بالطبع الذي لا يملكون له تعديلًا - عندما تصدوا للفظ العبري (حَوُّوت) (على جمع التأنيث العبري من (حَوًّا) بمعنى (القرية) - الذي لا يستقيم معناه بالإصرار على أن الفعل (حوا) العبري يعني (حيا))، فتبينوا أن (حوَّوت) العبري يعني بالضبط (الأحوية) العربي وانتهوا إلى أن (حوا) العبري يأخذ من (حوى) العربي معنى التجمع والاجتماع.

وقال آخرون من علماء العبرية هؤلاء: إنه لا داعي لأخذ (حوا) العبري من (حوى) العربي؛ لأنه إذا كان (حوا) العبري يعني (حيا) كما يريد سفر التكوين، فإن معنى (الحياة) *Living* يفيد معنى (السكنى) و (الإقامة) أيضًا. ومهما قلت في تأثر هذا القائل بلسانه الأوروبي، فهو في أعماقه يريد أن يوفق بين ما قاله سفر التكوين في معنى (حواء) بأنها من

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٣٥ من سورة البقرة.

(الحياة)، وبين تلك (الأحوية) (حَوُّوت العبرية)، أي تلك (القرى) الماثلة أمامه، ليس فيها من اشتقاقات (الحياة) شيء إلا إن أخذت (الحياة) بمعنى (المعيشة)، وهو بعيد عما أراده سفر التكوين بقوله إن حواء هي واهبة الحياة (أم كل حي).

أيما صح هذا أو ذاك، فأنت لا بد مُنْتَبِهٍ إلى أن (الفعل حوا) العبري أصل معناه من التجمع والانضمام والسكنى والتوطن والإقامة، لا شأن لك بما آل إليه معناه عند كاتب سفر التكوين، فأم البشر (حواء) ليست فقط أقدم من مولد هذا الكتاب ولكنها أقدم بقرون لا يعلم مدتها إلا الله من مولد تلك اللغة العبرية نفسها.

والذي لا شك عندي فيه أن (حواء) عرفت بهذا الاسم في الملأ الأعلى، وأنه قد تكلم به معها آدم الذي عُلِّم الأسماء كلها، وأنها هبطت بهذا الاسم إلى الأرض مع آدم، فصار لها علمًا في أجيال بنيها، يتوارثونه جيلًا بعد جيل، حتى آل إلى ما صار إليه في سفر التكوين، لا على النحت من العبرية ذاتها، وإنما على النقل من (العربية الأولى)، عربية آدم وحواء، شأنه شأن اسم (آدم) سواءٌ بسواءٍ.

والذي لا شك عندي فيه أيضًا - ولا خلاف فيه مع سفر التكوين - أن دلالة الاسم على مسماه قد روعيت في تسمية (حواء) كما روعيت من قبل في تسمية (آدم): أما آدم فقد سمي بما خلق منه وأما حواء فقد سميت بما خلقت له.

وقد أصاب سفر التكوين في آدم، ولم يصب في حواء، التي تعلَّل في تسميتها بمعنى الحياة (لأنها أم كل حي): ((ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي))[1]، أي أنها سميت بما خلقت له وهو (الإنجاب)، أي ولادة الأحياء.

ولم يصب الكاتب في حواء من وجهين: الأول لغوي بحت؛ لأنه لا يصح اشتقاق الحياة من الجذر العبري (حوا) إلا بافتعال شديد كما مر بك. والثاني بيولوجي بحت: لا يصح أن يقال: إن المرأة هي (واهبة الحياة)، فبالذكر والأنثى معًا يكون النسل، لا نسل إلا باجتماعهما

---

(١) تكوين ٣/ ٢٠.

معًا. وفى الكون كائنات (وحيدة الجنس) تتناسل لا حاجة بها إلى ذكر وأنثى، ولو شاء الله لآدم أن يكون من هذه الكائنات لفعل. وسفر التكوين نفسه ينص على سبب إيجاد (حواء) أنثى: ((وقال الرب الإله: ليس جيدًا أن يكون آدم وحده. فأصنع له معينًا نظيره))[1]، أي أن يكون لآدم زوج. بل وراء جعل النسل من ذكر وأنثى هدف أجل منه، وهو إلزام شطري الخلق بالعيش في جماعة من نوعها. تجد هذا في الأحياء كافة حتى الحشرة. وفي إطالة أمد طفولة النوع الإنساني – وهي في الإنسان من دون كافة الأنواع أطولها أمدًا – إلزام الأبوين بالإيلاف والتضامِّ، و (التحوّى) عمرهما كله لرعاية هذا النسل وإعالته وتنشئته، فتكون (الأسرة). وفي المخالفة بين نسل الأسرة والأسرة – عددًا ونوعًا – إلزام الأسر بالتزاوج فيما بينها، فتنشأ بالنسب والصهر شعوب وقبائل، يتعارفون على أصول وقيم يتبارون في السبق إليها. ولا يتحقق هذا إلا بالخلق من ذكر وأنثى. تجد هذا كله في قوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2]. ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ﴾ في هذه الآية على التقرير والتفسير معًا، أي خلقناكم من ذكر وأنثى لنجعلكم شعوبًا وقبائل.

وقد شاءت حكمته عز وجل أن يجعل المرأة للرجل (سكنًا)، مستقرًّا له ومقامًا. إنها الزوج والإلف والسكن. وهذا هو ما خلقت له (حواء) فسميت به، لا (ولادة الأحياء) كما تجد في سفر التكوين، فما كان لآدم وحواء وهما في الجنة التفكير في الإنجاب والتناسل.

ليست (ولادة الأحياء) هي العلة من التسمية، وإنما العلة هي أنها (الحِوَاء) لآدم: السكينة والسكنى.

والقرآن لا ينص على اسم (حواء)، فلا يسميها بما سماها به آدم، إن صح ما قاله سفر التكوين من أن آدم هو الذي سمى، وإنما القرآن يسميها (زوج آدم)، أي إلفه: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[3].

(١) تكوين ٢/ ١٨.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

ولكن القرآن يفسر اسم (حواء) بما فسرناه به نحن فيصوره أبلغ تصوير في قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾[2]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[3].



(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٨.

(١٢)
إدريس

ليس في التوراة والإنجيل اسم (إدريس)، وإنما ذكر إدريس عليه السلام في القرآن وحده في زمرة من ذكرهم القرآن من النبيين والصديقين.

وقد وردت (إدريس) في القرآن مرتين فحسب: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1]، ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

وقد اختلف مفسرو القرآن في (إدريس)[3]: أعجمي اسمه أم عربي؟ سبق نوحًا أم كان من ذرية نوح؟ والمشهور عند الرواة أن اسمه في العبرية (أخنوخ)، وأنه أول نبي من ذرية آدم سابق على نوح. ومنهم من أصر على أن (إدريس) لفظ أعجمي؛ لأنه ممنوع من الصرف في القرآن لغير علة إلا العجمة، دون أن يذكروا من أي لغة أعجمية هو، كدأبهم حين يعضل الاشتقاق عليهم. والكثرة على أنه من (درس) العربية فهو (الدارس) من المدارسة والتدارس على المبالغة، الكثير العلم. وليس في (إدريس) حديث صحيح يَفْصِلُ في المسألة، إلا ما جاء في صحيح مسلم من حديث الإسراء قوله ﷺ: «**لما عرج بي أتيت على إدريس في السماء الرابعة**»، تفسيرًا لقوله عز وجل في شأن إدريس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[4]، وهذا لا يفصل في الترتيب التاريخي لإدريس عليه السلام بين الأنبياء صلوات الله عليهم، ولا يقطع أيضًا بأن إدريس رفع إلى السماء الرابعة ومات هناك، كما وقع في إسرائيليات نسبت إلى ابن عباس

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٥٦، ٥٧. (٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٥.

(٣) راجع تفسير القرطبي للآية ٥٦ من سورة مريم.

(٤) سورة مريم، الآية: ٥٧.

وكعب الأحبار وغيرهما من الناقلين عنهما، فقد التقى الصادق المصدوق في معراجه بأنبياء غير إدريس ماتوا على هذه الأرض ودفنوا فيها.

على أن منشأ القول بأن إدريس في القرآن هو (أخنوخ) في التوراة يرد بالقطع إلى يهود من أهل الكتاب عرفوا أن (إدريس) في العربية تكافئ (أخنوخ) في العبرية، وربطوا بين ما جاء في القرآن عن إدريس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1] وبين ما جاء في سفر التكوين في شأن أخنوخ، أبي متوشالح، أبي لامك، أبي نوح: (وعاش أخنوخ خمسًا وستين سنة وولد متوشالح. وسار أخنوخ مع الله بعد ما ولد متوشالح ثلاثمائة سنة، وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام أخنوخ ثلاثمائة وخمسًا وستين سنة. وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه)[2]. اللفظ العبري (أخنوخ) يفيد بذاته الدارس الإدريس، (وسيرته مع الله) تفيد (الصديقية) التي في قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[3]، وعبارة (ولم يوجد لأن الله أخذه) تجد صداها في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[4]. ولم يقع هذا في القرآن في شأن أي نبي على ارتفاع مكانتهم إلا في إدريس، وهذا يدلك على أنه ارتفاع على الموضع حقيقة لا مجازًا. لا تستثني من هذا إلا عيسى عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[5].

لهذا كله فنحن مع القائلين بأن أخنوخ في التوراة هو نبي الله إدريس عليه السلام. والله عز وجل بغيبه أعلم.

* * * *

أما المستشرقون[6] المنكرون الوحي على القرآن فلم يقولوا بهذا، ولم يلتفتوا إلى وحدة المعنى في (إدريس) و(أخنوخ) وإنما ذهبوا يتلمسون لاسم (إدريس) نظيرًا أعجميًا في

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٧.
(٢) تكوين ٥/ ٢١ - ٢٤.
(٣) سورة مريم، الآية: ٥٦.
(٤) سورة مريم، الآية: ٥٧.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.
(٦) *J. HOROVITZ*، المرجع المذكور.

أقاصيص أهل الكتاب، فلما أعياهم البحث رأى بعضهم أن أقرب الأسماء إليه (أَنْدِرْياس) اليوناني، وهذا عبث لا يليق بنا الالتفات إليه، ناهيك عن مناقشته والإفاضة فيه.

****

أما أن (أخنوخ) - لغة - هي (إدريس) فقد علمت أن (الإدريس) هو الدارس الفاقه الحاذق. وأما (أخنوخ) فأصلها العبري (حَنُوك)، التي تنطق كافها خاء، على ما مر بك من قواعد النطق في العبرية التي تنطق الكاف خاء إذا تحرك أو اعتل ما قبلها، فهي عندهم (حنوخ) عربها العرب إلى (أخنوخ). وأما معنى (حنوك) العبرية هذه فهي على المفعولية من الفعل العبري (حنك) على معنى (حنّكه) العربي، أي فقهه وثقفه وعلمه، فهو المحنك المحنوك.

وقد جاءت (إدريس) في القرآن على الترجمة لا غير، تحاشيًا لثقل (أخنوخ) التي شهر بها هذا الاسم العلم قبل القرآن.

وأما لماذا كانت (إدريس) ممنوعة من الصرف في القرآن، فهذا من إعجاز القرآن الذي لم يفطن إليه الزمخشري وغيره[1] الذين لم يستطيعوا الجمع بين عربية هذا الاسم في لفظه، وبين عجمته في أصله. القرآن - بمنعه (إدريس) من الصرف - يدلك على أصله الأعجمي، وكأنه يوصيك بأن تتلمسه في (أخنوخ) لا في نبي مجهول من بني إسماعيل عليه السلام[2].

---

(١) راجع تفسير القرطبي للآيتين ٥٦، ٥٧ من سورة مريم.

(٢) راجع أيضًا قوله عز وجل في سورة مريم يصف الأنبياء المذكورين في السورة وآخرهم إدريس: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨]. ولئن كان الخلق كلهم من ذرية آدم، فالتفصيل في الآية يفيد أن من النبيين في السورة من ليس من ذرية إبراهيم ويعقوب (إسرائيل)، وليس من المحمولين في الفلك مع نوح، لا تصح نسبتهم إليه لأنهم قبله، فهم من ذرية آدم. والأنبياء المذكورون في سورة مريم كلها هم بترتيب ورودهم فيها: زكريا - يحيى - عيسى - إبراهيم - إسحاق - يعقوب - موسى - هارون - إسماعيل - إدريس، ليس فيهم من تشك في نسبته إلى إبراهيم، وإبراهيم من ذرية المحمولين مع نوح، إلا إدريس، فهو المعني إذن، على الراجح عندي، بهذا الإفراد والتنصيص على النبيين من ذرية آدم.

الفصل الخامس

آدم الثاني

من نوح إلى إبرهيم

تمهيد

يتناول هذا الفصل تفسير تسعة أعلام: نوح، ومُرْساه (الجودي)، هود، عاد، إرم، صالح، ثمود، شعيب، مدين.

ولا يعرف أهل الكتاب من هذه الأسماء التسعة على التقابل سوى ثلاثة أسماء: نوح وثمود ومدين. لا علم لهم البتة بهود وعاد وصالح وشعيب. أما (الجودي) مرسى نوح، فهي في التوراة (أراراط)، وأما (إرم) فهي في العبرية الآرامية (آرام)، وإليها تنتسب اللغة الآرامية كما لعلك حدست.

وعاد في القرآن هم قوم هود، وإرم مدينتهم، وثمود هم قوم صالح، ومدين قوم شعيب.

وقد فصل القرآن في الترتيب التاريخي لهؤلاء الأنبياء الأربعة: نوح، ثم هود، ثم صالح، وأخيرًا شعيب. وإن كان (لوط) بين صالح وشعيب، ولكننا نرجئ الحديث عن لوط ليجيء في سياق الحدث عن نبي الله إبراهيم، عم لوط.

تستظهر هذا التتابع من قوله عز وجل على لسان هود: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[1]، فتفهم أن (هودًا) أرسل بعد نوح وتفهم أيضًا أنه ليس بين هذين نبي مذكور في القرآن؛ لأن هودًا لا يحذر قومه إلا مصير قوم نوح، لا علم له بما سيئول إليه مصير قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب الذين جاءوا بعد هود. وأما صالح فيقول القرآن على لسانه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾[2]، فتفهم أن صالحًا جاء بعد هود ليس بينهما نبي؛ لأنه يحذر قومه مصير قوم هود، لا علم له بما سيكون من شأن قوم لوط وقوم شعيب اللذين

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.

جاءا بعده. وأما شعيب فيقول القرآن على لسانه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[1] فتفهم أن لوطًا بين صالح وشعيب.

وأما أن (إرم) مدينة قوم هود فتستظهره من قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾[2].

* * * *

ولقد شهر نوح عليه السلام بأنه آدم الثاني، لأن الخلق كلهم بعد الطوفان ينسبون إليه: قال عز وجل في نوح: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[3]، وهذا من مجاز المجمل، والصحيح أنهم ذريته وذرية من آمن معه وركب الفلك: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[4].

والذي بين آدم ونوح عليهما السلام قرون لا يعلم عدتها إلا الله، والذي بين نوح وإبراهيم عليهما السلام كذلك. تستطيع بالحساب التقريبي أن تضع إبراهيم عليه السلام بين أعلام القرن الثامن عشر قبل الميلاد أو التاسع عشر لا تزيد: أنجب إبراهيم وقد ناهز المائة عام ابنه الثاني إسحاق، وأنجب إسحاق بدوره ابنيه التوءمين (عِيسو)، (يعقوب) وهو (إسرائيل) أبو يوسف الذي وطأ لبني إسرائيل في مصر، فمكثوا بها - كما تقول التوراة - أربعمائة وثلاثين سنة[5]، وكان خروجهم على الراجح عندي - كما مر بك - أواخر عصر (رمسيس الثاني) الذي كان مهلكه حوالي ١٢٢٥ ق م. تستطيع بالتقريب إذن (١٢٢٥ + ٤٣٠ = ١٦٦٥) أن تضع يعقوب بين أعلام القرن السابع عشر قبل الميلاد وأن تضع جده إبراهيم عليهما السلام بين أعلام القرن التاسع عشر. ولكن ليس لديك من معالم التاريخ ما تستدل به على عصر نوح، إلا أن تستظهر من علم الآثار تاريخًا تقريبيًا لعصر الطوفان،

(١) سورة هود، الآية: ٨٩.
(٢) سورة الفجر، الآيتان: ٦، ٧.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٧٧.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣.
(٥) خروج ١٢/ ٤٠.

وليس بين يديك من هذا شيء. ناهيك بأن تحدد تاريخًا تقريبيًا لمهبط آدم وحواء إلى هذه الأرض، فتقدر الفترة ما بين آدم ونوح، والأحافير تنبئك بالعثور على عظام بشرية في طبقات يرجع تاريخها إلى ما بين مائة ومائتي ألف عام.

ولكن سفر التكوين - كدأبه في النص على المحالات - يتورط فيحصر الفترة ما بين آدم إلى نوح في تسعة آباء، هي على النسب الصاعد: نوح - لامك - متوشالح - أخنوخ - يارد - مُهللئيل - قينان - أنوش - شيث - آدم، ولا يكتفي بهذا، بل يحدد لكل منهم تاريخ مولده وتاريخ وفاته، فتستخلص منه[1]، أن آدم توفي سنة ٩٣٠ ب خ (ب خ = بدء الخليقة)، وأن نوحًا ولد سنة ١٠٥٦ ب خ، وأن الطوفان - الذي حدث ونوح عمره ستمائة سنة - كان سنة ١٦٥٦ ب خ. ولعلك تعلم أن التقويم اليهودي يبدأ ببدء الخليقة، وأن بدء الخليقة هذا - القائم على حسابات سفر التكوين - يناهز عام ٣٧٦١ قبل الميلاد، وهذا يعني أن المصريين على الأقل - الذين كان لهم وجود في مصر منذ حوالي ٤٢٠٠ قبل الميلاد كما يقول علماء الآثار والحضارات - ولدوا قبل بدء الخليقة لا قبل مهبط آدم فحسب. ويعني أيضًا أن الطوفان الذي حدث على هذا التقدير عام ٢١٠٥ قبل الميلاد، حدث بعد بناء بابل (٢٨٠٠ ق. م) بنحو سبعة قرون ويعني أيضًا أن نوحًا - الذي عاش ثلاثمائة وخمسين عامًا بعد الطوفان - مات سنة ١٧٥٥ ق م، أي أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد، فكان من معاصري إبراهيم.

هذا كله يقطع الصلة ما بين سفر التكوين والعلم، وما بين سفر التكوين والوحي الصادق، فلا تلتفت إليه. ولكن هذا الذي تورط فيه سفر التكوين فألزم نفسه ما لا يلزمه، لم يسئ إلى أسفار التوراة فحسب، ولكنه نال من (جدية الوحي) بعامة، وزعزع هيبة الدين في صدور الذين نُشِّئُوا على أن التوراة والإنجيل معًا (كتاب مقدس)، الذين لا يرون في غير التوراة والإنجيل وحيًا منزلًا، فلم يبحثوا عن الحق في غيرهما، والحق منهم قريب، في القرآن المصدق (المهيمن).

(١) راجع الإصحاح الخامس من سفر التكوين.

على أن موسى عليه السلام - صاحب التوراة - لم يتورط فيما تورط فيه سفر التكوين، بل فوض العلم بالقرون الأولى إلى الخلاق العليم. جهل فرعون ما كان من شأن تلك القرون - والمصريون على عصره أوفر أهل زمانهم علمًا وحضارة - فسأل موسى أن ينبئه بأنبائهم: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[(١)].

والقرآن يباعد ما بين نوح وإبراهيم: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا (٣٧) وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾[(٢)].

والقرآن يباعد أيضًا ما بين آدم ونوح. تستظهر هذا من قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[(٣)]. قد مضت القرون إذن من بعد آدم إلى نوح حتى أنسوا ما نزل به آدم. ولو صح ما قاله سفر التكوين كما مر بك لكان ما بين وفاة آدم (٩٣٠ ب خ) ومولد نوح (١٠٥٦ ب خ) مائة وستة وعشرين عامًا لا تزيد، ولكاد آدم نفسه يرد على هؤلاء المعاندين المكذبين، أو لرد عليهم (أنوش)، بن (شيث)، بن (آدم)، الذي ما مات حتى ناهز نوح الرابعة والثمانين![(٤)]

لا يعارض القرآن التوراة إلا ويصح القرآن. ولا يعارض القرآن علومَ (العصر) إلا ويصح القرآن. ولا (يتفق) العلم مع القرآن إلا وقد سبق القرآن العلم ومهد الطريق.

* * * *

(١) سورة طه، الآيات: ٤٩ - ٥٢.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٤) راجع هذه (الحسابات) على الإصحاح الخامس من سفر التكوين.

(١٣)
نوح

(نُوح) في القرآن هي تعريب (نوح) في التوراة، التي تنطق في العبرية لا مدًّا بالواو وإنما مدًّا بالضم بعده فتح: (نُو - وَح)، ومن هنا كتابتها بالإنجليزية *Noah*.

وهي في العبرية من الفعل العبري نَاح / يَنُوح، مشتقة على المصدر أو اسم الفعل، فهي (نوح) (نُو - وَح).

أما معاني هذا الفعل في العبرية فهي: البُقْيا والتلبث - الدعة والسكون - الكف والتوقف - الراحة والاسترواح والتنعم[١]. وهو في العبرية والآرامية سواء.

على أنك تستطيع أن ترد هذه المعاني جميعًا إلى معنى الفعل الرئيسي، وهو البقيا والتلبث. والمعنى الرئيسي للفعل هو أقدم معانيه، أي أسبقها وجودًا.

وقِدَم نوح على عبرية التوراة - وهو قدم جد بعيد - يجعلك تؤثر أخذ معنى اسمه من المعنى الرئيسي لهذا الفعل (ناحْ / ينوحُ) العبري - الآرامي، أعني تأخذه من البقيا والتلبث، غير ملتفت إلى عبارة في سفر التكوين يحاول بها الكاتب تفسير هذا الاسم بمعنى العزاء والراحة: ((ودعا اسمه نوحًا. قائلًا هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قِبل الأرض التي لعنها الرب))[٢]. تأخذه من البقيا والتلبث، ولا تأخذه من العزاء والراحة، لا حبًّا في مخالفة

---

(١) من هذه يجيء - بتأثير آرامي سرياني - استخدام المسيحيين لفظ (المُتَنَيِّح) بمعنى (المرحوم)، وصفًا على الدعاء للميت.

(٢) تكوين ٥/ ٢٩.

كاتب سفر التكوين، وإنما تفعله انحيازًا للتأصيل اللغوي العلمي لمعنى هذا الجذر العبري - الآرامي (ناحْ / ينوح).

فقد مر بك أن ما كان في العربية أصيلًا بالخاء (المنقوطة) يُرَدُّ في العبرية والآرامية فورًا إلى الحاء (غير المنقوطة). وما كان في العربية أصيلًا بالحاء (غير المنقوطة)، يظل في العبرية والآرامية على أصله بالحاء. مثال ذلك (خلق)، العربي يصبح في العبرية والآرامية (حَلَقْ) بينما (جَلَحَ / يَجْلَح) العربي يظل في العبرية - الآرامية بالحاء (جَلَحْ / يِجْلَحْ).

(ناحْ) العبري إذن هو إما (ناح) العربي نفسه، من (النُّواح)، كما ظن بعض مفسري القرآن، ولم يوفقوا فيه، فليس في (ناح) العبري من معاني (النواح) شيء كما مر بك، وإما هو (ناخ) العربي بخاء منقوطة، من الإناخة والتَّنَوُّخ، أي التلبث والبقيا، وهو الصحيح؛ لأن هذا هو المعنى الرئيسي للفعل العبري (ناحْ / ينوحُ).

ليس مسموعًا في العربية ناخ وينوخ، ولكنك تأخذه من أناخ / ينيخ بنفس معناه: أناخ بالمكان، أقام، وأناخ به البلاء، حل به ولزمه، ومنه أناخ الجمل يعني أبركه، والمناخ: محل الإقامة، والنَّوْخَة مثله.

(نوح) إذن من النوخة والإناخة، فهوى النائخ المتنوخ، أي اللابث لا يَريم. صار له علمًا لطول مكثه في قومه (﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كما في التوراة وفي القرآن) وطول ملاحاتهم له.

وهذا هو التفسير القرآني لمعنى (نوح)، فسره بالمرادف في مثل قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[1]، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾[2]، ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[3].

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٧١.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٧٧.

صحح القرآن معنى (نوح) لمفسري القرآن الذين تكلموا فيه، وصححه أيضًا لكاتب سفر التكوين كما مر بك. وسبحان العليم الخبير.

* * * *

(١٤)
الجودي

الجودي هو اسم مُرْسَى سفينة نوح في القرآن. وردت في القرآن مرة واحدة في قوله عز وجل: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

ولم يتعرض مفسرو القرآن[2] لتفسير معنى (الجودي)، مكتفين بأنه اسم جبل في الموصل شمالي العراق، القريبة من حدودها مع تركيا، ومن مقاطعة (أرمينية) في تركيا على حدودها المشتركة مع إيران.

والمعروف عند أهل الكتاب من (سفر التكوين)[3] أن مُرْسَى سفينة نوح هو (أراراط): ((واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط)).

وإذا علمت أن (أراراط) في عبرية التوراة يعني (أرمينية) نفسها[4]، فقد علمت أن سفر التكوين لم يسم جبلًا بعينه لمرسى نوح، وإنما قال ببساطة أن السفينة رَسَت على (جبال أرمينية).

ولكن الناس تناسوا هذا أو أُنسوه، فوهموا أن ثمة جبلًا بعينه اسمه (أراراط) رست عليه

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ٤٤ من سورة هود.

(٣) تكوين ٨/ ٤.

(٤) راجع (أراراط) في المعجم العبري، (هِمِلُّون هحداش لتناخ) المذكور في حواشي هذا الكتاب، ص ٦٦٠.

السفينة، وأن رحالة عثروا في قمته على حطام رجحوا أنه حطام (الفلك المشحون)، رغم أن الفلك لم يتحطم على قمة الجبل، بل رست السفينة بسلام: ﴿قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[1]. ولكن التسمية ثبتت وانتهى الأمر، تجدها في المعاجم الأوروبية علمًا على جبل بعينه في أرمينية شرقي تركيا، قرب حدود أرمينية المشتركة مع إيران، يبلغ ارتفاع إحدى قمتيه حوالي ١٢٨ , ٥ مترًا.

من هنا طنطن مستشرقون[2] عدوًا بغير علم: قال القرآن: (الجودي)، وقالت التوارة: (أراراط). ولكن التوراة لم تقل (أراراط) كما مر بك، وإنما قالت (جبل من جبال في (أراراط))، أي في أرمينية لم تسمه، وسماه القرآن.

أما ذلك (الجودي) الذي في الموصل على ما ذكره مفسرو القرآن، فليس هو بالضرورة الجودي المعني في القرآن، بل الراجح عندي أنه جبل تسمى بهذا الاسم بعد نزول القرآن.

لا خلاف إذن بين التوراة والقرآن في تسمية مرسى نوح، لا لأنهما تطابقا، وإنما لأن التوراة عممت، وخصص القرآن[3].

وقد مر بك أن الأعلام الموحى بها في القرآن على غير سابقة في التوراة والإنجيل تجيء في القرآن (عربية) على أصلها. وأما معنى (الجودي) في العربية فلك أن تفسره بأنه المنسوب إلى الجود، أي (ذو الجود) وجاد المطر يعني كثر، والجَوْد بفتح الجيم يعني المطر الغزير الذي لا مطر فوقه. وأنت تعلم أن الجبال العالية التي تذوب ثلوجها في الربيع تفيض منها المياه سهولًا وأنهارًا، ومنها جبال (أرمينية) منابع الفرات.

(١) سورة هود، الآية: ٤٨.

(٢) راجع مادة *Ararat* في *Webesters Dictionary* المرجع المذكور.

(٣) انظر *Joseph Horovitz* المرجع المذكور، ص ٣٢ - ٣٣، وقد خاض الرجل فقال: إن القرآن أرد بتسمية الجودي، وهو جبل في بلاد العرب، نقل مرسى نوح من أرمينية إلى بلاد العرب كي يخصها بهذا الشرف، وزعم أيضًا أن محمدًا ﷺ عرف (الجودي) هذا في وطنه فوهم أنه أعلى الجبال قاطبة. وقد قصصت عليك هذا كي تتبين أن هؤلاء المستشرقين يعبثون ولا يتعمقون.

ولكنك إن تمعنت في مراحل بدء الطوفان وانحساره ورُسُوِّ الفلك، قارنت بين ما ذكره سفر التكوين من ذلك وبين ما قاله القرآن، تجد أن سفر التكوين ينبئك أن السفينة رست على جبال (أراراط) في السابع عشر من الشهر السابع لبدء الطوفان، ((وكانت المياه تنقص نقصًا متواليًا إلى الشهر العاشر. وفي العاشر من أول الشهر ظهرت رءوس الجبال))[1]. فتفهم أن السفينة رست قبل نحو ٧٣ يومًا من ظهور رءوس الجبال، فعلى أي الجبال رست إذن إن لم تكن قد رست على أعلاها، بل وعلى أمعنها ارتفاعًا، الذي يصل ارتفاع إحدى قمتيه كما تقول المعاجم إلى ١٨٢ , ٥ م؟ وهذا غير منطقي لأنه بالغ المشقة على نوح والذين معه، شبابًا وشيوخًا ونساءً وأطفالًا، الذين سيهبطون إلى السهول من هذا الارتفاع الشامخ. أما القرآن فيقول لك إن الماء (غيض أولًا)، ثم استوت السفينة، استوت بعد أن غيض الماء تمامًا حتى استوت السفينة على (قاع من الأرض، هبط إليه نوح والذين معه بسلام). [هود: ٤٤].

كان بسم الله مجراها ومرساها، أي كان بسم الله حملها على سفح الماء، وكان باسمه عز وجل أيضًا إهباطها إلى سفح من الأرض، شاطئ نهر أو ناحية جبل.

والعرب يسمون شاطئ النهر وناحية الجبل، (الجُدّ)[2]، (الجُدَّة) (ومنه اسم الميناء المعروف (جُدَّة) بالمملكة العربية السعودية).

أفيكون (الجُودي) أصله (الجُدِّي) المنسوب إلى (الجُدِّ)، فهو المُرْسَى، استعيض عن تشديد داله بمد حركة جيمه؟

إن صح ذلك - وهو غير بعيد -[3] كان معنى (استوت على الجودي)، والله بغيبه أعلم، أن السفينة رست على مرساها، لا أكثر ولا أقل، دون تحديد لموقع.

* * * *

(١) تكوين ٨/ ٤ - ٥.

(٢) وهي في العبرية - الآرامية (جاداه) (الهاء خاملة للوقف فقط) بنفس معناها.

(٣) ومنها قوله ﷺ: (ما زالت أكلة خيبر تُعادُّني). يريد تعاودني.

(١٥) هود (١٦) عاد
(١٧) إرم

لا يعرف أهل الكتاب (هودًا) ولا (عادًا) ولكنهم يعرفون (إرم)، وهي عندهم (آرام) يعني (العالية) أو (المعلاة)، من الجذر العبري (رام / يَرُومْ) أو (رام / يَرَام)، أي ارتفع وعلا، فهو عال وعَلِيّ، ومن هذه (أَبْرَام)، أي (أبو العلاء)، اسم إبراهيم عليه السلام في التوراة، قبل أن يبتليه الله بكلمات فيتمهن، فيسميه باسمه المعروف (إبراهيم). وسيأتي. ولا تزال أحرف هذا الجذر باقية في العربية تجدها في (رامه) يعني طلبه، وكأنها من استشرفه وتطلع إليه، وتجدها أيضًا في (رمى) (لازمًا غير متعد) بمعنى ربا وزاد، وتجدها كذلك في (رام عليه) بمعنى فضل عليه وزاد. ولكن (رام) بمعنى علا وارتفع، غير معروف في العربية، فتستظهر من هذا أن (إرم) أعجمي غير عربي، يحتاج إلى تفسير في القرآن، وإلا لظننت (إرم) عربية من (أَرَمَه) يعني استأصله وأفناه، أو أنها (الإرم) بمعنى الحجارة أو نحوها تنصب في المفازة ليهتدي بها (وتجمع على آرام وأروم) أو ظننتها بمعنى الأصل و(الأُرُومة)، وقد فصل القرآن في هذا كما سترى.

على أن عجمة (إرم)، وهي مدينة عاد قوم هود، توحي إليك بأن عادًا وهودًا لفظان أعجميان كذلك، أعني أنهما من (العربية الأولى)، التي يحتاج فهمها أحيانًا إلى بحث في فصائل سامية عن جذور أميتت في العربية وبقيت حية في غيرها تقول بعجمة (هود) و(عاد) على الإتباع لعجمة (إرم) جازمًا قاطعًا؛ لأن الرسول والمرسل إليهم واحد.

أما مفسرو القرآن[1] فقد اتفقوا على عجمة (عاد)، اسم رجل تسمت به قبيلته، نسبه

(١) راجع تفسير القرطبي للآيات ٦٥-٦٩ من سورة الأعراف، والآيات ٥٠-٦٠ من سورة هود.

ابن إسحاق إلى نوح فقال: هو عاد بن عوص بن إرم بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح، (وكأنه يستقي من أحبار يهود، ولكنهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني كما قال الحق سبحانه؛ فليس هذا هو عمود النسب في سفر التكوين، بل ليس فيه أصلًا (عاد)). ولكنهم تفاوتوا في عجمة (هود) (الاسم لا المسمى بالطبع)، فقال بعضهم: هو عربي تشتقه من الجذر العربي (هاد / يهود)، أي: تاب ورجع إلى الحق، وقال الباقون ومنهم ابن إسحاق: إن (هودًا) أعجمي، فهو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم... إلخ. وهذا أيضًا على خلاف عمود النسب في سفر التكوين، بل ليس فيه أصلًا هود، ناهيك بعبد الله والجلود. أما قول مفسري القرآن في (إرم)[1] فمنهم من قال: جد عاد، نسبت إليه القبيلة فجاء اللفظ على التأنيث (ذات العماد)، ومنهم من قال: بل هو اسم مدينتهم، وشرحوا (ذات العماد) بأنها الأبنية العالية المرتفعة - وهو الصحيح في اللغة - وكأنهم يبنون أبنيتهم على العمد[2]. ومنهم من أشكلت عليه ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾[3]، فظن أنهم (عادان)، أولى وثانية، (عاد إرم)، (عاد هود)، والصحيح ما قاله الآخرون، فليس إلا (عاد) واحدة، أهلكها الله أولًا، ثم ثنى بـ (ثمود)، فالقرآن لا يذكر عادًا قوم هود إلا وهو يتبعها بثمود قوم صالح.

على أن في حضرموت نبعًا يدعى (برا - هوت)، اشتهر منذ القدم بأدخنته الكبريتية، بجواره قبر يدعى قبر (هود) يزوره الناس إلى اليوم ويتبركون به، يصح هذا أو لا يصح فنحن لا نستطرد بك إليه، ولكن المستشرقين الذين ذكروه[4] يلفتون النظر إلى ما قاله المفسرون من أن (عادًا) كانت منازلهم ما بين اليمن وحضرموت، فهو إذن من أنبياء العرب. ويرى هؤلاء المستشرقون أيضًا أن هودًا هو نفسه (عابر) الذي يرتفع بنسبه إلى سام بن نوح. وإلى عابر هذا ينتسب (العبرانيون) كما تعلم. وربما شجعت الجالية اليهودية في شبه الجزيرة هذه المقولة رغبة في إيجاد نسب موغل في القدم بينهم وبين مُضيفيهم، تأليفًا لقلوب العرب

(١) راجع تفسير القرطبي للآيتين ٦-٧ من سورة الفجر.

(٢) ربما ذكرك هذا (بالحدائق المعلقة) التي اكتشفت آثارها في نواحي بابل.

(٣) سورة النجم، الآية: ٥٠.

(٤) انظر مثلًا *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص ٢٨، ٢٩.

عليهم، فقالوا: إن (يهود) جاءت من (هود)، فهم إذن بنو - هود النبي العربي. وليس بشيء إن أردت قرابة النسب، فاليهود أنفسهم يشتقون (هو) من (يهودا) بن يعقوب (وتنطق دالة في العبرية ذالًا لاعتلال ما قبلها كما مر بك)، وليس تأصيل الأنساب من مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب. ولكن لا بأس بهذا الذي قيل في أخذ (يهود) من (هود) إن أردت القرابة اللغوية في النحت والاشتقاق، ولو أن اللغات السامية جميعًا في هذا سواء.

****

أما (هود) - إن أردتها عربية - فهي تسمية مشتقة من الجذر العربي هَادَ / يَهُودُ / هَوْدًا، فهو (الهائد)، أي التائب الراجع إلى الحق (وتاب وثاب وآب كله واحد). تجد تأصيل هذا في القرآن من قوله عز وجل على لسان موسى في فتنة السامري: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[1]، أي رجعنا وأنبنا. لا تجد لها تأصيلاً في العربية إلا من القرآن، وفي هذه الآية بالذات. ومنها أيضًا يشتق القرآن معنى اسم اليهود (وسيأتي في موضعه) فيسميهم الذين هادوا في عشرة مواضع من مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ﴾[2]، ويسميهم أيضًا (هود) (جمع (هائد) أي الذي هاد) في ثلاثة مواضع من مثل قوله عز وجل يحكي مقالتهم: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾[3]، نافيًا أن يكون هذا هو اسمهم قبل أن يقولها موسى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[4].

وليس معنى القول بعربية اسم (هود) - على إيغاله في القدم كما مر بك - أنه بالضرورة من هذه العربية نفسها التي نزل بها القرآن، وإنما المعنى أن اسمه من (العربية الأولى) التي

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٥، ١٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.

تكلم بها سكان شبه الجزيرة جميعًا منذ أزمان سحيقة لا يعلمها إلا الله، وتفرقت من بعد في الساميات جميعًا، وإنما نفهم نحن مفرداتها الآن بخاصية في تلك اللغة الفذة، هي (جذرها الثلاثي)، الذي تدور معانيه على أصل حروفه. وقد أصل القرآن معنى (هاد) على التوبة والإنابة، فهو كما قال، لأن القرآن هو الشاهد لتلك اللغة العربية في كافة مراحل تطورها، لا حاجة بك معه إلى غيره.

وربما قلت: إن (الهائد) تفيد (المهدي)، لا لقرابة ما بين الجذرين (هَدَى) و(هاد) فحسب، وإنما أيضًا لأن (الهائد) هو عكس (الضال). وفي هذا لفتة بعيدة المغزى قد تفوت على كثيرين؛ إنه نعت ينطبق على كل نبي بعث في قوم ضلوا جميعًا سواء السبيل، ليس فيهم إلا هو وحده الذي انسلخ من ضلالتهم، هاد إلى الله وحده، فبعثه الله إليهم ليهديهم به، ولا يهدي غيره إلا الذي هاد من قبل، فهو الهائد المهدي، وهو الهادي المهتدي.

لم يكن (هود عليه السلام) من أنبياء التوراة، فجاء اسمه في القرآن على أصله عربيًّا، على ما مر بك من منهجنا في هذا الكتاب، لا يحتاج إلى (فك عجمته) بالتفسير، إلا ما كان من تأصيل معنى الجذر (هاد) في قوله عز وجل على لسان موسى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾.

على أن في أسفار التوراة (أخبار الأيام الأول ٧/ ٣٧) الاسم (هود) (مدًّا بالضم لا بالواو كما في (يُوم) العربية العامية أو في *Home* الإنجليزية) علمًا على رجل من عامة سبط أشير، ليس بنبي أو رسول. ولكن علماء التوراة لا يشتقون (هود) الإسرائيلي هذا من التوبة والإنابة، ولكنه عندهم مصدر أميت جذره وبقي المصدر في لغتهم بمعنى الجلال والجمال والسناء، ومنه في العبرية المعاصرة (هود ملخوتو) خطابًا للملوك بمعنى (صاحب الجلالة). ولو كان المَعْنِيُّ هو (هود) النبي لشاعت التسمية في بني إسرائيل، وهو ما لم يحدث.



أما عاد، (إرم) فلا مجال لاشتقاقهما من العربية التي نزل بها القرآن، وإنما تشتقهما من

العربية الأولى مستعينًا بما بقي من جذورها في الآرامية والعبرية، ومن ثم كانتا من الأعجمي الذي يفسره القرآن.

(عاد) في الآرامية - العبرية معناها (الأبد) و(الخلود). ومنها في العبرية (لَعَاد)، يعني (إلى الأبد). فهي الباقية الخالدة التي لا تزول. وقد جاءت مفسرة في القرآن مرتين، الأولى على الترادف في قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[1]. وفسرت في المرة الثانية على التقابل في قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ﴾[2]، أي ما عادت عاد ولن تعود.

وأما (إرم) فهي في الآرامية - العبرية مشتقة من العلو والعلاء، فهي العالية والمعلاة، كما مر بك من معنى الجذر العبري (رام - يَرُوم). وقد وردت (إرم) في القرآن مرة واحدة فسرت فيها بهذا المعنى نفسه، ولم يفطن إليه مفسرو القرآن رغم علمهم بأن (ذات العماد) تعني المدينة ذات الأبنية العالية المرتفعة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[3]. وهو تفسير على الترادف اللصيق: إرم = ذات العماد. ودل قوله عز وجل: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾، على أن القرآن يريد إرم المدينة لا عادًا القبيلة كما وَهِم بعض المفسرين الذين ظنوا أن إرم في القرآن هي نفسها عاد، اسم القبيلة، نسبة إلى الرجل إرم بن سام بن نوح، وليس هذا بفصيح في عربية القرآن الذي إذا أراد القبيلة جاء بضمير الجمع للمذكر: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا﴾، وإذا أراد المدينة أي الموضع استخدم ضمير المؤنث: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

أما (الإرميون) أصحاب إرم، أعني الناجي منهم مع هود، فهم آباء (الآراميين) الذين قدر لسلالة منهم في (الحجر) إلى الجنوب الغربي من تيماء بالمملكة العربية السعودية على

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٦ – ٨.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٥٠، ٥١.

(٣) سورة الفجر، الآيات: ٦ – ٨.

طريق القوافل إلى الشام أن تسكن في نواحي (الحجر) ما يعرف إلى اليوم باسم (مدائن صالح) أو (قرى صالح)، التي نهى ﷺ في غزوة تبوك عن التلبث بأطلالها كراهة المكث بموضع السخط والنقمة: إنهم (ثمود) أصحاب (الحجر)، قوم صالح.

* * * *

(١٨) صالح (١٩) ثمود

يرد الاسم (إرم) في التاريخ المدون، وفي جغرافية التوراة، بصورة عبرية آرامية هي (آرام) ليست هي إرم عاد التي في القرآن، وإنما المراد منها هو (سورية) بالمعنى العام، سميت بهذا الاسم نسبة إلى قوم من العرب وفدوا عليها حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد. جاءوها بلغتهم هم (الآرامية)، وخلعوا عليها اسمهم هم (الآراميين)، فصارت سورية (آرص آرام) أي أرض آرام. وقد مر بك أن (إرم) فسرت في القرآن بمعنى العالية أو المعلاة (إرم ذات العماد)، وهو نفسه معنى لفظ (آرام) في اللغتين العبرية والآرامية، فتقطع بأن (الآراميين) هو (الإرميون) أصحاب إرم التي في القرآن، سلالة من الناجين مع هود تفرقوا في البلاد في عصور سابقة على وجود الآراميين في سورية. دليلك في هذا من القرآن على لسان صالح عليه السلام يحذر قومه مصير أسلافهم قوم هود: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]، ولم تخلف ثمود عادًا على نفس الأرض، فشتان ما بين الحجر في الشمال الغربي من شبه الجزيرة وبين (آرام نَهْرَيم) أي آرام ما بين النهرين، يعني (إرم العراق)، وإنما كان أصحاب الحجر فحسب (سلالة من الناجين مع هود) خرجوا بعد نكبة (إرم ذات العماد) من ناحية ما في جنوبي بابل إلى حضرموت واليمن يحملون معهم اسم مدينتهم (إرم) أو (آرام) التي صارت علمًا عليهم فسموا (الإرميين) أو (الآراميين)، ثم ارتحلت بطون منهم في زمن لاحق إلى الشمال، ثم استقرت فصائل منهم في منطقة الحجر على طريق القوافل إلى الشام، كانوا هم (ثمود) قوم صالح. وتلمح في قول صالح عليه السلام يعظ قومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.

ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[1] أن ثمود أرادوا محاكاة (إرم ذات العماد) في العلو تحنانًا إلى موطنهم القديم، ولكنهم لم يذكروا آلاء الله عليهم، بل ظلموا بها، فدمر الله عليهم[2] (إرم الثانية) - إرم صالح - كما أهلك من قبل (عادًا الأولى)، إرم هود، ومن هذا قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾[3] فتفهم أن ثمود هي (عاد الثانية).

****

لم يكن صالح عليه السلام من أنبياء التوراة، ومن ثم فاسمه كما علمت من منهجنا في هذا الكتاب، يجيء على أصله عربيًّا، لا يحتاج إلى تفسير، ولا يترتب على عربية هذا الاسم أن صالحًا عليه السلام كان عربيًّا من بني إسماعيل، بل هو آرامي من قوم آراميين، سلالة من الناجين مع هود، واسمه - كاسم هود - مشتق من العربية الأولى التي تفرقت جذورها في الساميات جميعًا. دليلك في هذا أن صالحًا سبق إبراهيم - أبا إسماعيل وعم لوط - بقرون لا يعلم عدتها إلا الله. ودليلك فيه أيضًا أن (قرى صالح) أقرب إلى الشام من الحجاز، ناهيك باليمن.

على أن الجذر العربي (صلح) باق بذات حروفه ولفظه ومعناه في العبرية والآرامية، ومنه على زنة الفاعل في الآرامية بالذات - لغة قوم صالح كما مر بك - (صاليح) (مدًّا للام بالكسر لا بالياء كما تنطق في (ليه) العربية العامية أو في *Late* الإنجليزية) بمعنى (الذي صلح). فهو إذن في العربية والآرامية واحد، يعرب فقط بتقصير مد (كسرة اللام)، فيئول إلى (صالح) العربية بنفس معناها ونطقها في القرآن.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.

(٢) عبارة القرآن: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ [الشمس: ١٤]، والدمدمة هي قعقعة الزلزال، ولم يكن ثم زلزال، وإنما كانت صيحة من جبريل عليه السلام تَرْجُف بها الأرض من تحتهم وترتج الجبال، صرعتهم: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

(٣) سورة النجم، الآيتان: ٥٠، ٥١.

(صالح) إذن مفسر في القرآن بالتعريب وحده، بل هو أبين أمثلة القرآن في التفسير بالتعريب.

****

وقد ذهب مفسرو القرآن[1] إلى أن صالحًا وقومه كانوا قومًا عربًا، ولكنهم نسبوهم إلى العرب البائدة كعاد وطسم وجديس، وهذا يطابق ما قلناه نحن إن تمعنت؛ لأن سكان شبه الجزيرة جميعًا عرب بالمعنى العام، لا يقدح في هذا تفاوت لهجاتهم ومنطقهم مهما بعدت عن العربية التي نزل بها القرآن. وهذا يدلك أيضًا على علم العرب قبل القرآن بثمود، لا بوصفهم قوم صالح، وإنما بوصفهم قبيلة من قبائل العرب التي بادت، وهو عِلْم شاركهم فيه أهل الكتاب معاصرو القرآن، وإن خلت أسفار التوراة من النص على قصة صالح مع قومه. بل قد ذكر مؤرخو اليونان[2] قبل القرآن بقرون (ثمود) و(لحيان)، وقالوا: إن منازلهم كانت من جنوب العقبة[3] إلى نواحي شمال ينبع بالقرب من المويلح وأنه كانت منهم جموع منتشرة في داخل البلاد إلى نواحي خيبر وفدك. وليس هؤلاء بالطبع هم (ثمود صالح) وإنما هم سلالة من الناجين مع صالح، خلفوهم وانتسبوا إليهم.

****

أما (ثمود) فهي عربية أيضًا بالمعنى الذي ذكرناه: ثمد الماء يعني قل، وثمده هو يعني استنفد معظمه، وثمد الناقة يعنى اشتفها بالحلب، وثمده يعني استنفد ما عنده، والثمد يعني الماء القليل الذي ليس له مدد، أو هو المكان يجتمع فيه الماء، من ثمد المكان يعني هيأه كالحوض ليجتمع فيه الماء. وعلى هذا تكون (ثمود) على زنة فعول بمعنى فاعل، أو فعول بمعنى مفعول، على المعاني التي ذكرت لك، فهم أصحاب الماء القليل، يستنبطونه من

(١) راجع تفسير القرطبي للآيتين رقم ٧٣ من سورة الأعراف ورقم ٨٠ من سورة الحج.

(٢) اقرأ هذا في (تاريخ اللغات السامية) - أ. ولفنسون، دار القلم، بيروت، ص ١٧١.

(٣) وفي جنوب العقبة أيضًا تقع (مدين) بلدة قوم شعيب، وسيأتي.

الأرض ويحوضونه، الحريصون عليه، يذودون عنه ويمنعونه، فهو حجر عليهم، حرام على غيرهم، ومن هنا جاءت تسميتهم: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾[1].

وقد جاءت (ثمود) مفسرة في القرآن بالتصوير في فتنة الناقة التي جعلها الله لهم آية ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ۝٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾[2]، (تشتف) ماءهم كله يومًا، وتفيضه عليهم في الغداة لبنًا؛ إذ لا ماء لهم، (فيشتفونها)، (تثمدهم) و(يثمدونها).

وقد وهم بعض مفسري القرآن[3] أن (أصحاب الرس) هم ثمود قوم صالح[4]، أصحاب تلك (البئر الحجر)؛ لأن (الرس) في العربية معناها (البئر). وقد وردت (الرس) في القرآن مرتين: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾[5]، ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾[6]. ولا يصح قول المفسرين في هذا؛ لأن القرآن يعطف بالواو أصحاب الرس على ثمود في الآية الأولى، ويعطف ثمود على أصحاب الرس في الآية الثانية، لا يجتزئ من الواحدة بالأخرى كما قال: (أصحاب الحجر) يعني قوم صالح، وكما قال: (أصحاب الأيكة) يعني أهل مدين قوم شعيب. أصحاب الرس إذن ليسوا قوم صالح، وإنما هم قوم آخرون أخبر القرآن بمهلكهم، ولم يسم نبيهم، في قرون قد خلت بين نوح وإبراهيم. بل وبعد إبراهيم، كما قال عز وجل: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾[7]، وإن كان قد وجد من المفسرين[8]، من جمع بين تلك

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٠.

(٢) سورة القمر، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٣) راجع تفسير القرآن للقرطبي للآية ٣٨ من سورة الفرقان.

(٤) قالها أيضًا مجمع اللغة العربية في المعجم الوسيط، مادة ر/ س/ س، حيث ذكر أن (الرس) بئر كانت لثمود قوم صالح، أخذها من هؤلاء المفسرين، ولم يحقق.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٣٨.

(٦) سورة ق، الآية: ١٢.

(٧) سورة الحج، الآية: ٤٥.

(٨) راجع تفسير القرطبي لهذه الآية من سورة الحج.

البئر المعطلة وبين بئر ثمود. كل هذا يعارض ظاهر القرآن، فلا تلتفت إليه.

❋ ❋ ❋ ❋

وقد بقي في العبرية والآرامية من (ثمد) العربية الجذر العبري - الآرامي (شَمَد) (بإبدال الثاء شينًا)، بمعنى الاستئصال والإبادة، وهو من معنى الاستنفاد والاشتفاف في ثمدَ العربية جد قريب. وتستخدم العبرية المعاصرة الفعل (شمد) بمعنى محدد هو (استصفاء) اليهودية، يعني تصفيتها سلمًا، بإجبار أهلها كرهًا على الخروج منها إلى (المسيحية) في عصور اضطهادهم في أوروبا، لا بمعنى إبادة أهلها وإهلاكهم، على أصل معنى (شمد) في عبرية التوراة. وربما قلت: إن (ثمود) في القرآن جاءت تعريبًا لـ (شمود) العبري أو (شِمِيد) الآرامي على المفعولية من الجذر العبري - الآرامي (شمد) فهو الهالك البائد، بمعنى (شمد) في عبرية التوراة. ولا يصح هذا، فلا أحد يسمي نفسه الهالك البائد، وقد تسمت به قبيلة من كبرى قبائل العرب خلفوا (ثمود) قوم صالح كما مر بك. وإنما الصحيح أن (ثمود) جاءت من العربية الأولى بمعنى قل ونضب واستنفد واشتف، قبل أن تتحور في عبرية التوراة إلى باد وهلك.

❋ ❋ ❋ ❋

(٢٠) شعيب (٢١) مدين

مر بك أن القرآن يضع شعيبًا في الترتيب الزمني بعد لوط. ومر بك أيضًا أن لوطًا من معاصري إبراهيم. بل كان إبراهيم عم لوط كما تنص التوراة. والقرآن ينص على تعاصر إبراهيم ولوط؛ لأن الملائكة الذين بعثوا لإيقاع العذاب بقوم لوط، مروا في طريقهم على إبراهيم يبشرونه بإسحاق. نص القرآن على هذا في أكثر من آية، منها قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[١]. شعيب إذن بعد إبراهيم بلا خلاف، لمجيء شعيب بعد لوط معاصر إبراهيم أو ابن أخيه كما تقول التوراة. دليلك في هذا من القرآن أن لوطًا لم يعلم بشأن شعيب مع قومه، بل حذر لوط قومه مصير قوم نوح وقوم عاد وقوم صالح، وما كان ليحذرهم مصير قوم شعيب، وشعيب لم يبعث بعد. أما شعيب فهو يحذر قومه مصير قوم لوط: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[٢].

لم يكن أهل مدين - الواقعة جنوبي خليج العقبة - يسكنون بعيدًا عن مدائن لوط، وقد بقيت منها (صوعر) على الشاطئ الجنوبي الشرقي من البحر الميت. ولم يكن (يوم الظلة) - مهلك الذين ظلموا من قوم شعيب - بعيدًا كل البعد من فجر يوم وضع فيه جبريل جناحه تحت (القرية التي كانت تعمل الخبائث) فجعل عاليها سافلها، يوم أركس الله قوم لوط بما كسبوا.

ولكن التوراة التي اهتمت في سفر التكوين بتدوين ما كان من شأن لوط مع قومه، تصمت

(١) سورة هود، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٩.

الصمت كله عما كان من شأن شعيب مع أهل (مدين)، على قرب مدين من مساكنهم. والتوراة تغفل الحديث عن قصة شعيب مع قومه عمدًا، رغم هول العذاب الذي حاق بمن ظلموا من قومه، ورغم قرب (مدين) من (صوعر)، ورغم أن شعيبًا تلا لوطًا وإبراهيم بفارق زمني (غير بعيد)، ولم يسبقهما، ورغم أن التوراة تذكر (مدين) - بنحو ما ذكرها القرآن - في قصة لجوء موسى إلى (مدين)؛ فرارًا من بطش فرعون بعد أن قتل موسى ذلك المصري الذي بغى على رجل من قومه.

تتعمد التوراة إغفال شعيب - على الراجح عندي - لأنه عندها كان نبيًّا من غير بني إبراهيم، ولم يكن أيضًا من بني يعقوب، أي من بني إسرائيل، الذين كُتبت التوراة لتسجيل أخبارهم ونبواتهم. وهو - على الراجح عندي أيضًا - سبب إغفال التوراة هودًا وصالحًا كذلك؛ كيلا تضع أنبياء بين نوح وإبراهيم. وإنما حرصت التوراة على ذكر (نوح) كي تربط ما بين إبراهيم وآدم. وقد تعجل كاتب سفر التكوين هذا النسب كما مر بك بين آدم ونوح، وبين نوح وإبراهيم، حتى لَتكاد تستخلص من حساباته[1] أن نوحًا كان أو يكاد من معاصري إبراهيم، فكيف يكون بينهما نبي؟

وربما قلت: إن أسفار التوراة لم (تتكتم) أخبار شعيب، وإنما هي لم تعلم أصلًا بمبعث شعيب إلى أهل مدين في التوراة ما بين لوط إلى موسى، لغياب بني إسرائيل آنذاك عن مسرح الأحداث في فلسطين وما حولها منذ خروج يعقوب وبنيه إلى مصر في ضيافة يوسف واحتباسهم فيها نحوًا من أربعمائة وثلاثين سنة كما تقول التوراة حتى خروجهم منها إلى تيه سيناء مع موسى. اهتمت أسفار التوراة بأخبار بني إسرائيل في مصر سنوات احتباسهم فيها، (وإن كانت في واقع الأمر تجتزئ اجتزاء مخلًّا، فتنقلك فجأة من وفاة يوسف إلى مولد

(١) لا يستقيم قول من تعلل لكاتب سفر التكوين بأن السنة عنده تساوي ألف سنة أو نحو ذلك مما نَعُدُّ نحن: إنه تضخيم فحسب لا يغير شيئًا من اختلال التناسب. وهو أيضًا يناقض العلم لأنه يرتفع بعمر آدم إلى زهاء مليون سنة (٩٣٠ × ١٠٠٠) فيشغل وحده الحِقْبَ الأخيرَ من عمر هذه الأرض، ناهيك بنوح والذين من بعده.

موسى غير عابئة بأحداث ما كان بين هذين النبيين الكريمين اللذين يفصل ما بين مبعثهما حوالي أربعة قرون)، ولم تهتم، بل قل: ولم تعلم، بما وقع خارج مصر خلال تلك القرون الأربعة، أخبار شعيب أو غير شعيب. وهذا التعليل - على وجاهته - مردود بما تقصه عليك التوراة من لجوء موسى إلى مدين فرارًا من بطش فرعون، وإصهاره إلى (كاهن مدين)، وبقائه عنده عشر سنين، بل وعودته إلى لقاء صهره في التيه بعد خروج بني إسرائيل من مصر، فباركه صهره وأشار عليه باختيار نقباء يقومون مقام موسى في قومه. يحدث هذا كله ولا يقص عليه (كاهن مدين) شيئًا مما كان من أمر شعيب في أهل مدين، إن سلمت بأنه قد كان ثمة (شعيب) بعثه الله إلى أهل مدين في الفترة ما بين لوط إلى موسى، ناهيك بأن تقول - كما قال جمهور مفسري القرآن[1] -: إن صهر موسى هذا هو بعينه شعيب عليه السلام (أخو مدين).

على أن التوراة لا تعترف لأحد من خارج بني إبراهيم بالنبوة مهما كان على دين الواحد الأحد، فلا تسميه (النبي) وإنما تسميه (الكاهن). من ذلك (ملكي - صادق) ملك شاليم (وهي (سليم) العربية)، الذي بارك إبراهيم وأدى له إبراهيم (العُشر من كل شيء)، وتقول عنه التوراة (وكان (أي ملكي - صادق) كاهنًا لله العلي)[2]. ومن ذلك أيضًا (يِثْرو) حمو موسى، الذي تسميه التوراة ((كاهن مديان))[3]، أي: (كاهن مدين). ولحمي موسى عند أصحاب التوراة اسم ثان هو (حباب)[4] (وكأنه (الحباب) عربي فليس في أعلام بني إسرائيل من تسمى به)، وله أيضًا اسم ثالث هو (رِعوئيل)، ومعناها (راعي الله)، ويفسرونها في العبرية بمعنى (خليل الله). وعلى أنك تستنبط من أسفار التوراة نفسها اسمًا رابعًا لحمي موسى هو (دِعوئيل) (بالدال لا بالراء)؛ لأن أسفار التوراة تخلط بينه وبين (رعوئيل) (بالراء لا بالدال) في تسمية

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٨٥ وما بعدها من سورة الأعراف.

(٢) راجع تكوين ١٤/ ١٨ - ٢٠.

(٣) خروج ٣/ ١.

(٤) قد تفهم من (عدد ١٠/ ٢٩) أن (حباب) هذا هو ابن رعوئيل حمي موسى، وتقرأ لعلماء التوراة بعض يقول: بل حباب حموه، وآخرون يقولون: بل رعوئيل هو أبو حمي موسى. وصدق الحق إذ يقول في وصف القرآن: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

شخص بعينه، تسميه (إلياساف بن دعوئيل) (بالدال) في سفر العدد (١/ ١٤) ثم تسميه هو نفسه (إلياساف بن رعوئيل) (بالراء) في الإصحاح التالي مباشرة من السفر (عدد ٢/ ١٤). وقد عالج علماء العبرية تفسير معنى اسم دعوئيل هذا (بالدال)، فقالوا: إنه من الجذر العربي (دعا)، فهو (داعي الله)؛ لأنه لا وجود في العبرية للجذر (دعا)، فتفهم أن (رعوئيل) عندهم تحرفت إلى (دعوئيل)؛ لاشتباه رسم الدال بالراء في الخط العبري كما هما في الخط العربي، أو أن (دعوئيل) العربية هي التي تحرفت عليهم فصارت (رعوئيل) وهو الراجح.

كيفما كان الأمر، فسفر التكوين ينص على أن أهل مدين ((مِدْيَان) في عبرية التوراة) عرب من العرب. تستخلص هذا من رواية سفر التكوين لقصة يوسف حين ائتمر به إخوته فباعوه ((للإسماعليين بعشرين من الفضة، فأتوا به إلى مصر))[1]، فتفهم من هذا أن الإسماعليين هم الذين أتوا بيوسف إلى مصر. ولكنك تفاجأ في نهاية هذا الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين بأن الذين أتوا بيوسف إلى مصر وباعوه هناك (مِدْيانِيم)، أي: رجال من أهل مدين: ((وأما المديانيون فباعوه في مصر لفُوطِيفَار خصي فرعون رئيس الشرط))[2]. وهو تناقض لا سبيل إلى حله إلا بأن تتعلل لسفر التكوين بأنه لا يفرق بين الإسماعليين والمديانيين؛ كلا الفريقين عنده عرب من العرب[3].

(١) تكوين ٣٧/ ٢٨.

(٢) تكوين ٣٧/ ٣٦.

(٣) لم يشع إطلاق اسم الإسماعليين عند اليهود على العرب عامة إلا بعد موسى عليه السلام بقرون، وما كانوا ليسموهم كذلك على عصر يعقوب ابن أخي إسماعيل والإسماعليون آنذاك بنو عمومتهم الأقربون. وهذا يدلك بالنقد اللغوي وحده على أن سفر التكوين - أول أسفار التوراة - كتب بعد موسى بقرون. ومن دلائل هذا أيضًا استخدام سفر التكوين عبارة (يهواه إلوهيم) اسمًا لله عز وجل. كانت (إل) و(إلوهيم) اسم الله على عصر إبراهيم وما تلاه، ولم تعرف (يهواه) في العبرية إلا منذ موسى. أراد الكاتب الجمع بين القديم والحديث تدليلًا على قدم أخبار سفر التكوين. ولكنها أعضلت على المترجم العربي فقال: (الرب الإله)، وليس بجيد لأن (يهواه) يعني الله فحسب، ولكنه اضطر إلى ذلك كراهة أن يقول: (الله الإله). والأجود عندي أن يترجم العبارة إلى (الله) الجامعة لكل أوصاف الألوهية، وفيها الغناء.

تخلص من هذا إلى أن (أهل مدين) عند اليهود عرب من العرب، كانوا على طريق القوافل من خليج العقبة في شمال غربي شبه الجزيرة إلى مصر، عبر سيناء. وتلك بالفعل كانت مساكنهم في جغرافية التوراة[1].

وإذا كان أهل مدين عربًا من العرب، فأخوهم شعيب كذلك، لا معنى للقول بخلافه، فالرسول والمرسل إليهم واحد كما مر بك. وليس معنى هذا أن مدين وشعيبًا كانوا بالضرورة يتحدثون بتلك العربية التي نزل بها القرآن، وإنما المعنى أنهم كانوا يتحدثون بتلك اللغة العربية في مرحلة من مراحل تطورها إلى العربية التي نزل بها القرآن بعد نحو ألفي سنة[2] من مبعث شعيب عليه السلام رسولًا إلى أهل مدين.

* * * *

ولأهل مدين في القرآن اسم آخر، هو (أصحاب الأيكة). قال عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[3]، وقال أيضًا: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[4]، فتفهم أن مدين وأصحاب الأيكة واحد، لا لوحدة الرسول فحسب ولكن لأن شعيبًا يأخذ على هؤلاء ما يأخذ على أولئك: يأخذ عليهم خسرانهم الكيل والميزان، وبخسهم الناس أشياءهم وعُثُوَّهم في الأرض مفسدين.

وقد ظن بعض المفسرين أن (مدين) قوم غير (أصحاب الأيكة)، بعث شعيب إلى الثانية بعدما فرغ من الأولى. ظنوا هذا لأن القرآن فيما رأوا فرق بين عذاب أصحاب مدين، الذين أهلكوا بالصيحة والرجفة: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

(١) راجع الخرائط الملونة، الكتاب المقدس، طبعة العيد المئوي (١٨٨٣ - ١٩٨٣)، دار الكتاب المقدس بمصر.

(٢) أو نحو ١٨٠٠ سنة إن رجحت أن شعيبًا هو نفسه حمو موسى، الذي خرج ببني إسرائيل من مصر حوالي سنة ١٢٢٥ ق م، على ما مر بك من تقديراتنا لتاريخ هذا الخروج.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ١٧٦ - ١٧٨.

ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[1]، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[2]، وبين عذاب أصحاب الأيكة الذين كذبوا شعيبًا ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3]، والظلة غير الصيحة والرجفة[4]. وليس بين يديك حديث عن الصادق المصدوق يحسم الأمر، ولكنها أقوال الرواة: رووا أن الظلة سحابة احتموا بها من الحر الشديد فوجدوا لها بردًا ونسيمًا، وما اجتمعوا تحتها حتى انقلبت عليهم نارًا أحرقتهم، أو أنهم احتموا بأيكتهم فأضرمها الله عليهم، كالمحتمي من الرمضاء بالنار. وليس هذا كله بلازم، فالصيحة أيضًا غير الرجفة، فبأيهما كان مهلك أهل مدين؟ الصواب أن يقال: إن الصيحة هي صيحة جبريل عليه السلام، إيذان بإيقاع العذاب، وأن الرجفة هي أثر الصيحة. وتقول أيضًا: وما يمنع أن يجتمع على أهل مدين عذاب الرجفة وعذاب الظلة: ركضوا إلى البرية كما يركض الفارُّ من الزلزال حين أحسوا الرجفة، يحتمون بأيكتهم، فأضرمها الله عليهم نارًا؛ إذ لا عاصم من أمر الله إذا جاء. وتقول أخيرًا: وما يمنع في اللغة أن تكون (الظلة)[5] هي فحسب غاشية العذاب الذي حل بهم فأظلهم، لا ملجأ لهم منه؟ نقول هذا ولا نخوض في غيب الله، فالله عز وجل بغيبه أعلم.

أما الذي ألجأ مفسري القرآن إلى القول بأن شعيبًا أخا مدين هو نفسه (الشيخ الكبير) الذي حل عليه موسى في مدين فزوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج أو عشرًا[6]، أي: كاهن مدين في سفر الخروج، (يثرو) أو (حباب) أو (رعوئيل)، (وربما (دعوئيل) أيضًا على ما مر بك)؛ فلأن شعيبًا ما كان ليوجد إلا في الفترة ما بين لوط إلى موسى بنص القرآن، وما كان ليوجد إلا في مدين هذه التي لجأ إليها موسى، وما كان يثرو هذا ليكون هو نفسه شعيبًا إلا إذا كان مبعثه قد سبق نزول موسى ضيفًا عليه، أي قبل مبعث موسى. تجد هذا الترتيب

(١) سورة هود، الآية: ٩٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩١.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٨٩.

(٤) راجع ما رواه القرطبي في تفسيره للآيات ١٧٦-١٨٩ من سورة الشعراء.

(٥) (أظله) بمعنى غشيه ولزمه، من فصيح العربية.

(٦) راجع الآيات ٢٢-٢٨ من سورة القصص.

بينًا في قوله عز وجل: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[1]. يثرو إذن - إن كان هو نفسه شعيبًا - استضاف موسى وقد فرق الله بينه وبين الذين ظلموا من قومه بعد مهلكهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ۝٩٢ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[2]. ربما قلت: ولماذا لا يكون شعيب قبل موسى بقرنين أو ثلاثة، والمسافة بين لوط وموسى أربعة قرون، وقد نزل موسى في ضيافة رجل صالح من بقية الناجين مع شعيب، فما كان لموسى عليه السلام الذي صنعه الله على عينه ليصهر إلى رجل من عبدة الأوثان في مدين؟ لا بأس بهذا بالطبع، ولا بأس أيضًا بعكسه الذي قاله جمهور مفسري القرآن، والذي نرجحه نحن أيضًا، وهو أن شعيبًا كان هو نفسه صهر موسى عليهما السلام؛ لأن سفر الخروج يحدثك عن رجل ذي منصب في قومه، (كاهن مدين)، والكاهن والنبي واحد في لغة التوراة حين تتحدث عن أنبياء من خارج بني إبراهيم كما مر بك، دليلك في هذا من سفر الخروج نفسه أن الشهرة التي شهر بها حمو موسى في التوراة توحي بطبيعة هذا المنصب: راعي الله (رعوئيل)، وربما داعي الله (دعوئيل)، وأيضًا (يِثْرو) نفسها ومعناها الثريُّ ذو الثروة والكثرة والنماء، المشتقة من الجذر العبري (يَثَر) وهو مقلوب الجذر العربي ثرا / يثرو، وثَرِيَ / يثرَى وكان شعيب ذا غنى، بعث في أحساب قومه، كما تجد في القرآن على لسان من كذبوه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾[3]، خشوا رهط شعيب وإن لم يكونوا على دينه لمكانتهم، كما وقع لمحمد ﷺ في قومه. لقى موسى إذن شعيبًا وقد تمادت السن بشعيب في بقية من قومه: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[4]. ربما قلت: فما بال أولئك (الرِّعاء) من قوم شعيب، والمفروض على هذا القول أنهم سلالة من الذين آمنوا معه، وقد استهانوا بابنتيه

(١) سورة الحج، الآيات: ٤٢ - ٤٤.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٩٢، ٩٣.

(٣) سورة هود، الآية: ٩١.

(٤) سورة القصص، الآية: ٢٣.

فلا تسقيان ﴿حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾[1]؟ لا عليك. هذا فهم مُتَعَجِّل لمنطوق تلك الآية: ما كان لنبي أن يسخر قومه في خدمته، وما كان ليقوى وهو شيخ كبير على سقيا غنمه، فأرسل ابنتيه بغنيماته، وما كان لابنتيه أن تزاحما الرعاء حياءً، وإنما يسقي الرجال أولًا ثم تسقي النساء، فوقفتا تذودان غنيماتهما عن الماء حتى يصدر الرعاء فتسقيا، وجاء موسى رجلًا يسقي مع الرجال، فأراحهما من عناء الانتظار.

وربما استظهرت من القرآن تفسيرًا لمعنى شهرتي حمي موسى، رعوئيل ودعوئيل، أي (راعي الله)، (داعي الله)، الأولى في قوله عز وجل: ﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾[2]، والثانية في قوله عز وجل: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾[3]، دون أن يتقدمه ذكر لاسم حمي موسى. وربما لمست في هذه الأخيرة أن حما موسى كان ذا مال يجزي به صنيع من أحسن إلى ابنتيه، وكان كريمًا عزيز النفس لا يقبل خدمة بغير أجر.

أما لماذا لم تذكر التوراة اسم (شعيب) في جملة أسماء حمي موسى وهي أربعة كما مر بك؛ فلأن العبرية ليس فيها الجذر (شَعَب) العربي، ولا تفقه له معنى، وربما خشي الكاتب اشتباهه بـ (شُئِيب) العبري ومعناها (ناضح البئر). وربما أيضًا لأن شعيبًا شهر في مهاجره بشهرته الدالة على منصبه (راعي الله) (رعوئيل) ولم يشهر باسمه في قومه.

وأما لماذا لم ينص القرآن على أن شعيبًا هو حمو موسى، فهذا على الراجح عندي لأن القرآن لا يؤصل الأنساب بين الأنبياء المبعوثين كل إلى قومه، كما فعل في موسى وهارون المبعوثين كليهما إلى فرعون وملئه، فقد ذكر لوطًا ولم ينص على أنه ابن أخي إبراهيم كما تنص التوراة، وما ذاك إلا لأن رسالة لوط كانت بمعزل عن رسالة إبراهيم، كما كانت رسالة شعيب غير رسالة موسى وهارون.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٣.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢٥.

نقول هذا ولا نقطع فيه بيقين، فليس من مقاصد هذا الكتاب تأصيل الأنساب كما مر بك. وليس في القرآن والحديث الصحيح ما يقطع بهذا أو ذاك، والله عز وجل بغيبه سبحانه هو الأعلم.

* * * *

أما (شعيب) - وقد جاء الاسم على أصله في القرآن عربيًّا لا يحتاج إلى تفسير لخلو التوراة من النص عليه كما مر بك من منهجنا في هذا الكتاب - فهي إما تصغير (أشعب) أي الواسع ما بين المنكبين، وإما تصغير (شِعْب) ومن معانيها في معجمك العربي: مجرى الماء تحت الأرض، وليس هذا المعنى الأخير بعيدًا عن معاني (شُئِيب) العبري، أي (ناضح البئر). (شعيب) إذن عربية، تخرج عن مقاصد هذا الكتاب.

وليست (مدين) كذلك لثبوت العلمية لها في التوراة بلفظ (مِدْيان)، فجاءت في القرآن (مدين) على التعريب.

* * * *

أما علماء التوراة فهم ينسبون (مديان) إلى واحد من أبناء إبراهيم[1]، كدأب التوراة في إقطاع بني إبراهيم أرض فلسطين وسكانها بصكوك نسب صحيح أو مفتعل، وكأنما كانت فلسطين أرضًا فضاء حين وفد إليها إبراهيم وبنوه، فَعَمَرُوها بقبائل من نسل إبراهيم، كما قالوا: إن عيسو أخا يعقوب شهر باسم (إدوم) (أي الأحمر)، واستنبطوا من هذا أن عيسو هو (أبو الأدوميين) جميعًا، صاحب الأرض وسكانها. وغير هذا كثير في سفر التكوين، فلا تلتفت إليه. الصحيح أن الأدوميين والمديانيين وغيرهم من قبائل فلسطين وما حولها أسبق وجودًا على الأرض من إبراهيم وبنيه. دليلك في هذا من أسفار التوراة ذاتها، بل ومن سفر التكوين بالذات: ((واجتاز رجال مديانيون تجار، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر

(١) من زوجته - أو جاريته - قطورة، فلا زوجات عند أصحاب التوراة لإبراهيم إلا سارة جدة يعقوب صاحب الوعد وغيرها جوار وسرارٍ.

وباعوا يوسف للإسماعليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر))[1]، ((أما المدیانیون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط))[2]. اقرأ هذا وتساءل معي: كيف تهيأ لمديان بن إبراهيم هذا - وهو عم يعقوب أبي يوسف - أن يلد وحده، في جيل واحد - أو إن تشددت معي - في جيلين اثنين، قوافل مديانية من التجار تغدو وتروح ما بين مصر وفلسطين؟ لن أقول لك كيف هان عليهم يوسف، وإسحاق عمهم جده، فقد هان يوسف على إخوته، ولا أستطرد إلى الخلط بين الإسماعليين والمديانيين، فقد سبق لنا القول فيه.

نحن لا نفسر (مديان) البلدة والقبيلة تأصيلًا على اسم (مديان) بن إبراهيم هذا الذي يشتقونه من العبري (دان / يدين) بمعنى خاصمه وقاضاه، فهو المخاصم الجَدِل، فلا صلة بين مديان بن إبراهيم هذا وبين مديان البلدة والقبيلة كما رأيت.

وإنما نحن نفسره بالعبرية - الآرامية (دان / يدون)، ومعناه في عبرية التوراة وإلى الآن في العبرية المعاصرة: حل ونزل وثوى وأقام وسكن[3].

من هذه في العبرية - الآرامية (مِدينا) (المدينة في العربية)، أي البلدة التي يثوى بها ويقام. وهي على وزن الفاعل المؤنث (عبريًا وآراميًا) من أَدِين / يِدين[4] المشتقة من دان / يدون العبري - الآرامي، بمعنى التي تَثْوَى بها وتُثْويك.

ومن هذه أيضًا - الذي يعنينا هنا - جاءت (مديان)[5] العبرية - الآرامية، على (مفعال)،

(١) تكوين ٣٧/ ٨٢.

(٢) تكوين ٧٣/ ٣٦.

(٣) انظر معنى (دان/ يدون) العبري في المعجم العبري (هِمِّلُّون هحداش لتناخ)، المذكور في مراجع هذا الكتاب، وانظر أيضًا في المعجم الثنائي (عبري - فرنسي)، وهو *He-Larousse beru-Francais*، وفيه أن دان/ يدون العبري يكافئ *Habiter* الفرنسي. ليس هو دان/ يدين بمعنى *juger* الفرنسي ومشتقاته.

(٤) أدين/ يِدين الآرامي هي صيغة أفعل/ يُفْعِل/ إفعالًا العربية.

(٥) لا يرد على هذا بأن (يدون) بالواو و(مديان) بالياء، فالعبرية والآرامية يتبادلان أحيانًا في (عين) الفعل بين الواو والياء، فتخلطان في الاشتقاق بين دان/ يدون وبين دان/ يدين، ولهذا أمثلة عديدة يعرفها المتخصصون، لا نثقل بها عليك، وإنما نقوله فقط للمتخصصين الذين يريدون انتقاد =

المصدر الميمي واسم المكان، فهي (المثوى) و(المقام).

وهذا هو نفسه التفسير القرآني لمعنى (مدين) في القرآن تجده في قوله عز وجل: ﴿... وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[1]، على الجناس المعنوي، (أي ما كنت مادنًا في مدين)، و(مدن) العربي يعني أتى المدينة.

فصل القرآن في اشتقاق (مديان)، فأخذها من دان / يدون العبري - الآرامي، مخالفًا بذلك مفسري عبرية التوراة الذين يشتقونها من (دان / يدين) على معنى الخصومة والمداينة والشَّكَس والجدل، رغبة في نحلها (مديان) بن إبراهيم من جاريته قطورة، على ما مر بك، وهو بعيد، فأخطئوا وأصاب القرآن[2].

وسبحان العليم الخبير.



= المقولات اللغوية لهذا الكتاب.

(١) سورة القصص، الآية: ٤٥.

(٢) مثلما أخطئوا في تفسير عبارة سفر التكوين: (لُو - يَدُون روحي بأدام لِعُولام) (راجع تكوين ٦/ ٣) التي ترجموها إلى (لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد) من دان/ يدين، وليس لهذا معنى كما ترى، وإنما الصحيح أنها (لا يسكن روحي الإنسان إلى الأبد) من دان/ يدون العبري بمعنى حل وثوى ونزل وسكن وأقام، أي لا يخلد الإنسان، بل موتًا يموت، ولا بد يومًا ما أن تفارقه الروح التي نفختها فيه. وقد جر هذا الخطأ في ترجمة هذه العبارة إلى العربية وغيرها (الإنجليزية مثلًا) إلى مزالق ومحالات لا نتعرض لها هنا؛ لأنها ليست من مقاصد هذا الكتاب.

الفصل السادس

أبو العلاء إمام الناس

تمهيد

يتناول هذا الفصل تفسير ثمانية أعلام: آزر (أبو إبراهيم)، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، إسرائيل (شهرة يعقوب)، يوسف.

وقد جمعنا هؤلاء الأعلام الثمانية في فصل واحد؛ لأن أصحابها كما ترى ذرية بعضها من بعض، على النسب اللصيق. فيوسف هو ابن يعقوب (إسرائيل)، ويعقوب هو ابن إسحاق، وإسحاق وإسماعيل كلاهما ابنا إبراهيم، ولوط في التوراة ابن أخ لإبراهيم هو هاران، وإبراهيم (وهاران) ابنا آزر (أو تارح كما تقول التوراة). وترتيبهم التاريخي على هذا النحو ذاته ثابت في التوراة ثبوته في القرآن.

وكل هذه الأعلام (عدا آزر، وسيأتي) أعجمي مقطوع بعجمته، يجيء في القرآن منسوقًا على أصله في التوراة دون تفاوت، إلا ما اقتضاه التعريب.

وتقول التوراة: إن (أبرام) كان اسم إبراهيم الذي سماه به أبوه. أما (إبراهيم) فهو اسم سماه الله به. وتقول أيضًا: إن (يعقوب) سمي هكذا لأنه يوم مولده خرج مع توءمه (عيسو) ممسكًا بعقب أخيه. أما (إسرائيل) فهي شهرة ليعقوب من الله.

وتنص التوراة أيضًا على اسم أبي إبراهيم، فتسمية (تارح) (أو (تيرح) بإمالة الألف مع فتح الراء في الحالتين)، خلافًا للقرآن الذي يسميه (آزر) بالنص الصريح في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[1].



(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.

وقد حار مفسرو القرآن في (آزر)[1] لمخالفتها الصريحة لما هو معلوم عند أهل الكتاب من التوراة. وطنطن بها المستشرقون - كما مر بك - الذين وهموا أن (آزر) من أفدح أخطاء القرآن في اقتباسه من التوراة.

ونقول نحن: وما كان أغنى القرآن عنها، على علمه المحيط بدقائق المكتوب في التوراة! وهل ينتقص شيئًا من جلال القرآن أن يسكت عن اسم أبي إبراهيم فلا يسميه؟ قد تناول القرآن جدال إبراهيم أباه في أكثر من آية فلم يسمه، فلماذا النص على اسم أبي إبراهيم في هذه الآية وحدها من سورة الأنعام؟

أفقد جهل القرآن اسم أبي إبراهيم في التوراة؟ فلماذا يزج بنفسه في المزالق فيخترع من عنده اسمًا لأبي إبراهيم، غير عابئ بما يسمعه من أهل الكتاب في مكة ويثرب ونجران؟

وإذا كان محمد ﷺ يفتري القرآن من عنده كما يدعون، فلماذا لم يستوثق من رجال كورقة بن نوفل عم زوجه خديجة وقد كان كما يقول أصحاب السير من حنفاء إحدى الملتين، يقرأ من الكتاب العبراني ما شاء له الله أن يقرأ؟ ولماذا لم يصححه له أمثال الحبر اليهودي ابن سلام وقد أسلم في المدينة لهذا النبي الذي (يخطئ) في اسم أبي إبراهيم؟ أفلم ير ابن سلام في هذه وحدها دليلًا كافيًا على (كذب) هذا النبي؟

ولماذا لم (يسقط) المسلمون من بعد النبي (آزر) هذه من القرآن، تنقية للقرآن من خطأ لا تجوز المماحكة فيه؟

تستخلص من هذا أن القرآن أعظم وأجل من أن يفترى من دون الله عز وجل، وتستخلص منه أيضًا أن القرآن عند الذين آمنوا به أعظم وأجل من أن يكذب بالتوراة، أو أن يصحح بما في التوراة، وتستخلص منه كذلك أن القرآن في المصحف الذي بين يديك قد عصمه الله سبحانه من التغيير والتبديل، ولو بقصد (التصويب) و(الاستدراك)، فهو إلى قيام الساعة محفوظ بحفظ الله عز وجل على الحرف الذي به نزل. وتستخلص منه أخيرًا أن القرآن -

(١) انظر تفسير القرطبي للآية ٧٤ من سورة الأنعام.

وكان أيسر عليه استبقاء (تارح) في القرآن على أصلها في التوراة - إنما أراد عامدًا متعمدًا تحدي المُتَقَوِّلين عليه أصحاب دعوى النقل والاقتباس، فجابههم بما ينقض دعواهم. والقرآن ههنا يريد المخالفة لذاتها، لا يريد منها تأصيل منهج أو إثبات عقيدة، وإنما يأتي بها للدلالة على إعجازه فحسب.

نعم، (آزر) في القرآن من دلائل إعجازه، كما سنرى بإذن الله على التو معًا.

* * * *

(٢٢) آزر

وردت (آزر) مرة واحدة في القرآن [الأنعام: ٧٤] اسمًا لأبي إبراهيم، وهو في التوراة (تارح). وقد توقف فيها مفسرو القرآن كما مر بك؛ لما يعلمونه من مخالفتها الصريحة لاسم أبي إبراهيم في التوراة، وعالج بعضهم التصدي لها محاولين التوفيق بين (آزر) و(تارح) بإسقاط أحد طرفي التناقض: منهم من قال: إن (آزر) في القرآن ليس هو أبا إبراهيم، وإنما هو عمه، والعرب تسمي العم أبًا. وليس بشيء؛ لأن المَعْنِيَّ في القرآن هو أبو إبراهيم، لا عمه. وقال الآخرون: إن (تارح) كان له اسمان، أحدهما (آزر). وهو ضعيف؛ لأنه لا دليل عليه من القرآن أو الحديث، ولا مقنع به لأصحاب التوراة الذين لا يعلمون لأبي إبراهيم اسمًا آخر، أو شهرة شهر بها. وتصدى لآزر أيضًا باحثون كبار، كان منهم في هذا العصر الأستاذ عباس العقاد رحمه الله، في كتابه إبراهيم: أبو الأنبياء، الذي قال ما معناه أن (آزر) ليست تعريبًا لـ (تارح)، وإنما هي تصويب قرآني لنطق (تارح) على أصلها في لغة صاحب هذا الاسم، (وكأنه يقصد البابلية الآشورية)، التي لا ترسم في الخط حروف الحلق ومنها الهمزة والحاء، وتبادل بين التاء والثاء والشين والزاي، وكأنها كانت ترسم (ثارة) أو (زارة) ونطقها العبرانيون (تارح)... إلخ. وليس هذا بقوي، رغم ضخامة الجهد ونبل القصد، وأقرب ما يرد به على هذا أن العبرانيين لم يقرءوا اسم أبي جدهم إبراهيم في صحيفة أو نقش، وإنما سمعوه من إبراهيم شفاهة، وهم قد سمعوها (تارح)، ولم يسمعوها (آزر)، ويرد عليه أيضًا بأن القرآن لم يصوب للتوراة نطق علم أقدم من (تارح) وهو (نوح)، وكان حقه أن يأتي بها على (نوخ) بالخاء المنقوطة كما مر بك، وإنما القرآن يلتزم العلمية التي ثبتت في الكتب السابقة، فيأتي بها على ما هي عليه، عدا ما يقتضيه التعريب فحسب، إلا أن يأتي القرآن بالعلم التوراتي أو الإنجيلي مترجمًا، كما مر بك في (إدريس)، وكما سترى في (ذي الكفل).

أفتكون (آزر) في القرآن ترجمة لـ (تارح) في التوراة؟

نعم. ولكن هذا يقتضي أولًا تأصيل لفظة (تارح) في اللسان العبراني، معناه واشتقاقه، أو معناه واشتقاقه في اللسان الآرامي، لغة إبراهيم (الآرامي)، الوافد على فلسطين (إِرِص كنعان) من حاران في شمالي سورية (إِرِص آرام) كما يقول سفر التكوين.

* * * *

لا يعرف علماء التوراة لاسم أبي إبراهيم (تارح) (أو (تيرح) بإمالة الألف) معنى أو اشتقاقًا، لا من العبرية ولا من الآرامية؛ لعدم وجود الجذر السامي (ترح) في أي منهما، أو على الأقل عدم وجوده فيما هو معروف لنا اليوم من جذور العبرية والآرامية. وأيضًا لأنه لا يستقيم على أوزان هاتين اللغتين افتراض زيادة التاء في تارح اسم أبي إبراهيم في التوراة على نحو زيادتها في (ترواح) العربية بمعنى الرواح، أخذًا من الجذر العبري (أرح)، مقلوب الجذر العربي راح / يروح بمعنى رحل، إذن لقالوا: (آرح)، وهو بالفعل من أعلام التوراة، ومعناه (الرحالة) الكثير التجوال. ربما جاز لك أن تقترح على علماء العبرية في تفسير معنى (تارح) أنه مشتق من (يارَح) العبري بمعنى (قمر)، (ومن هذه (يِرَح) العبري بمعنى شهر قمري)، زيدت فيها التاء فأصبحت (تيرح) (على نطق (تارح) اسم أبي إبراهيم ممالة الألف)، على نحو ما زيدت التاء في (يَمَن) العبري فقيل: (تِيمان) بمعنى الجنوب عبريًا. ويرد على هذا بأن العبرانيين حين اشتقوا من القمر اسمًا علمًا قالوا: (يَرُوح)، وقالوا: (يِرَح)، ولم يقولوا البتة: (تارح) أو (تيرح).

على أنه لم يقل بهذا أو ذاك من علماء العبرية أحد، بل قد آثروا جميعًا السكوت عن تفسير معنى اسم أبي إبراهيم، على ولوعهم بتفسير الأسماء الأعلام، بل واختراع المناسبة التي اختير الاسم من أجلها، توضيحًا لمعناه. وهم قد توقفوا في (تارح) - على الراجح عندي - خشية مزالق الزلل فيما لم يتضح لهم وجه الصواب فيه. ونحن نحترم لعلماء التوراة هذا السكوت، احترامًا لمفسري القرآن الذين توقفوا عن تفسير (آزر). لأننا نصدق القرآن في (آزر)، تصديقنا للتوراة في (تارح).

في التوراة أيضًا (عدد ٣٣/ ٢٧-٢٨) (تارح) أخرى، هي نفسها رسمًا ونطقًا، توقف أيضًا علماء التوراة عن تفسير معناها. وليست هي في سفر العدد اسمًا لأبي إبراهيم، وإنما هي فيه اسم موضع في صحراء سيناء نزله موسى مع بني إسرائيل أيام تطوافهم في التيه. وليست هذه عبرية بالضرورة، بل عربية، لغة القوافل التي كانت تجوب سيناء إلى مصر. لعلها من الترواح والراحة على معنى المستراح يُحَطُّ فيه الرُّحال. وقد فسرها بهذا المعنى نفسه معجم ويستر[1]. فقال: *Station*، يعني (المحَطُّ) غيرَ جازم؛ لأنه يُعْقِبُها بعلامة استفهام. وهذا يليق باسم موضع، لا سيما في تيه كتيه سيناء، ولكنه لا يليق اسمًا لرجل، ولو أن المعجم المذكور يخلط بين الاسمين في غير ضرورة.

ونحن لا نقسر علماء التوراة على تفسير لاسم أبي إبراهيم (تارح) من العبرية والآرامية، لو كان في العبرية أو الآرامية شيء يعين على هذا التفسير لسبقونا إليه.

ولكننا نقول كما يقول سفر التكوين (تكوين ١١/ ٢٧-٣٣): إن أبا إبراهيم (تارح) لم يكن رجلًا عبرانيًا أو آراميًا، ولكنه كان رجلًا (بابليًا)، ولد في بلدة (أور الكلدانيين) على سافلة نهر الفرات، إلى الجنوب الشرقي من بابل في العراق، ولم يرتحل منها إلى (حاران) في شمالي سورية (إِرِض آرام) إلا وقد نَيَّفَ عمره على مائة عام. ومن هنا تستطيع أن تقول: إن تارح هذا كان ينطق اسمه، الذي سمعه منه بنوه، على مقتضى مخارج ألفاظ اللغة البابلية، لا العبرية ولا الآرامية.

****

يقول علماء اللغات السامية[2]: إن البابليين - وهم بالقطع ساميون من عرب شبه الجزيرة - غلبوا الشومريين على أرضهم في جنوبي العراق حوالي مطلع القرن الثلاثين قبل الميلاد، فنقلوا

(١) انظر: *Proper Scripture & Names DICTIONARY WEBSTERS (Unabridged) Page 98 of Wbsters Foreign Words. With their meaning and place in the Bible. Dictionary supplements.*

(٢) (تاريخ اللغات السامية)، أ. ولفنسون، الباب الثاني، اللغة البابلية - الأشورية، ص ٣٩.

عنهم (الخط المسماري) الذي ابتدعه الشومريون من قبل. ولأن اللغة الشومرية - بالقطع أيضًا لغة غير سامية، فقد خلا الخط المسماري من حروف لا تحتاج إليها تلك اللغة على أصول مخارج ألفاظها من حروف التضخيم كالطاء والظاء والضاد وبعض حروف الحلق، وتحتاج إليها اللغات السامية - ومنها البابلية - كي تفرق مثلًا بين (ظهر) و (زهر)، وبين (عاد) و (آد)، على نحو ما تراه الآن من فوارق بين الخط اللاتيني والخط العربي. وكان موقف البابليين من هذا أنهم اصطنعوا الخط المسماري على علاته، دون أن يضيفوا إلى حروف (الأبجدية المسمارية) ما ينقصها من الحروف التي تحتاج إليها اللغة البابلية السامية.

وقد كان لاستخدام البابليين الخط المسماري في الكتابة، إلى جانب اختلاطهم بالشومريين الذين لم يقضوا عليهم تمامًا، أثر فادح في تشويه الطابع السامي النقي لمخارج ألفاظ أولئك الأعراب الذين جاءوا من جنوبي شبه الجزيرة فتوطنوا في بابل، ومن هذا المزيج وذاك الامتزاج ولدت اللغة البابلية، التي وإن بقيت سامية بجذورها ومادتها وتراكيبها فقد ضاعت منها بعض (الأصوات) التي تختص بها اللغات السامية، وأمها العربية، فتهملها، أو تنطقها محرفة.

وإذا علمت أن تارح أبا إبراهيم ولد في أور الكلدانيين ببابل حوالي مطلع القرن العشرين قبل الميلاد حسبما تستخلص من حسابات سفر التكوين - بعد انقضاء حوالي ألف سنة على توطن أسلافه الساميين في بابل - فقد علمت يقينًا أن لغة تارح هذا وآبائه كانت هي بالقطع تلك اللغة السامية البابلية التي تأثرت بمخارج ألفاظ الشومريين على مدى ألف سنة سبقت، فهي لا تجد حرجًا على سبيل المثال في وضع (التاء) موضع (الطاء) نطقًا وكتابة.

من هنا تقول: إن تارح - اسم أبي إبراهيم في التوراة - إما هو على أصله بالتاء، فيكون مشتقًا من الجذر السامي (ترح) (الذي يفيد في العربية الهم والحزن، وأيضًا قلة الخير)، وإما أن يكون أصله بطاء تحورت في البابلية إلى تاء، فيكون مشتقًا من الجذر السامي (طرح) (على تفاوت في معنى (طرح) بين العربية وأخواتها الساميات)، إن صَدَّقْتَ التوراة في (تارح) تصديقك القرآن في (آزر) فلا سبيل أمامك لتفسير معنى (تارح)؛ إلا بأحد هذين الفرضين لا ثالث لهما.

وقد كان الأضبط - والأثبت - التماس معنى (تارح) البابلية هذه في المعجم البابلي نفسه، ولكن المعجم البابلي للأسف معجم أبتر، يقتصر على مفردات قلائل اقتنصها اللغويون بعد لَأْيٍ من حطام نقوش بذلك الخط المسماري الذي حدثتك عنه، ليس من بينها (تارح) أو (طارح).

وقد مر بك أن اللغويين يستعينون في فهم بوائد الساميات بالرجوع إلى معجم اللغة العربية، أم الساميات جميعًا. ومر بك أيضًا أن اللغويين حين يريدون تأصيل معنى جذر ممات في لغة سامية ما، يستعينون بمعنى هذا الجذر في أخواتها وبنات عمومتها.

ولأن القرآن - أصل كل تأصيل للمعجم العربي - لم يعتمد (تارح) (لا بالتاء ولا بالطاء) اسمًا لأبي إبراهيم، وإنما أتى به على الترجمة (آزر)، تفاديًا لنقله عن أصل معناه في لغة صاحبه إن هو أتى به على أصله معربًا - على ما مر بك من منهجنا في هذا الكتاب - فهذا يعني أن (تارح) و (طارح) كلتيهما ليستا من (ترح) و (طرح) العربيين، وإنما هما أو إحداهما من لغة سامية أقرب إلى البابلية تاريخًا وحضارة.

والآرامية والعبرية هما الأقرب إلى البابلية تاريخًا وحضارة. والآرامية والعبرية كلتاهما تخلوان من الجذر السامي (ترح)، ليس فيهما إلا (طرح) بالطاء لا بالتاء.

ومن ثم فلا مفر لك من التماس (تارح) في (طارح)، والتماس معنى (طارح) هذه في العبرية - الآرامية، لا في لغتنا العربية.

(تارح) إذن - أو بالأحرى (طارح) - اسم أبي إبراهيم في التوراة، هو من العلم الأعجمي الذي فسره القرآن بالترجمة، فجاء به على (آزر). فإلى أي مدى أصاب القرآن وسفه خصومه؟

جهل أحبار العبرية معنى (تارح) اسم أبي جدهم إبراهيم كما مر بك، وحققه القرآن كما سوف ترى، فأي إعجاز وأي علم!

* * * *

وَزَرَ، يَزِرُ، وَزْرًا فهو وازرٌ[1] يعني حَمَلَ ما يثقل ظهره، ومنه في القرآن: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2]، أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئًا، بل كل نفس بما كسبت رهينة. ومنه (الوزر)، أي: الحمل الثقيل، كما في قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[3]، أي: أثقالها من سلاح وعتاد. واستعمل الوزر مجازًا بمعنى الذنب؛ لأنه يثقل ظهر صاحبه يوم القيامة، كما في قوله عز وجل: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾[4].

وقد سقط من المعجم العبري - الآرامي الجذر السامي (وزر). إلا في لفظ واحد هو (وَزَار) التي وردت اسمًا علمًا في الأصل العبراني لأسفار التوراة على مجازها العربي بمعنى (موزور)، أي: راكب الوزر[5]، لم ترد في التوراة إلا في هذا الموضع، وبقيت في العبرية المعاصرة بمعنى الخاطئ الآثم، يفسرها علماء العبرية بردها إلى الجذر العربي (وزر).

أما (الوِزْر) على أصل معناه في العربية، أي الحمل الثقيل، فهو في العبرية - الآرامية (طُورَحْ)، أخذًا من الجذر العبري - الآرامي (طَرَحْ)، أي حَمَل ما يثقل ظهره، فهو المقابل العبري - الآرامي للجذر العربي (وزر). ولا تستعمل عبرية التوراة من الجذر (طرح) إلا (طُورَحْ) بمعنى الحمل الثقيل، أي: الوزر، وإلا صيغة (هِفْعِيل) (وهي صيغة (أفعل) العربية المتعدية بالهمزة)، فتقول: (هِطْريح)، بمعنى (أوزره)، أي حمله ما يثقل ظهره.

(طارح) إذن (أي (تارح) كما مر بك)، إن اشتققتها من الجذر العبري - الآرامي (طرح)، معناها (الوازر)، على التطابق، لا على المجاز بمعنى الموزور راكب الوزر، وإنما على الأصل بمعنى الحَمُول المُحمَّل.

أما لماذا ترجم القرآن اسم أبي إبراهيم إلى (آزر)، ولم يترجمه إلى (وازر) فهذا من دقيق القرآن كما سترى.

(١) راجع في معجمك العربي مادة (وزر). (٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٣) سورة محمد، الآية: ٤.
(٤) سورة طه، الآية: ١٠٠.
(٥) راجع الترجمة العربية لسفر الأمثال ٢١/٨.

(الْأَزْرُ) عربيًّا ليس أصل معناها (القوة) كما وهِمت بعض المعاجم[1]، وإنما أصل معناها (الظهر). والظهر يكنى به عن القوة، لا العكس. والإزار منه، لأنه يشد به على الظهر، أي على (الأزر). وأزر الزرع بمعنى التف فقوى بعضه بعضًا، يعني (تظاهر)، فكان بعضه لبعض (ظهيرا). وآزَرَهُ مثله. ومنه أيضًا (أَزَرَهُ) بمعنى دعمه وقواه، أي كان له ظهرًا، وآزره يعني كان له ظهيرًا مظاهرًا. وأزره أيضًا يعني ألبسه الإزار، وأزِر هو، بكسر الزاي، فهو (آزَر) (بفتح الزاي كاسم أبي إبراهيم في القرآن) يعني لبس الإزار، ومنه (حصان آزر) يعني حصان أبيض العجز ومقاديمه غير بيض، وكأن بياض عجزه على خلاف مقاديمه (إزار) ائتزر به.

أما أن (الأَزْر) معناه (الظهر)، لا القوة، فهذا يتضح لك من قوله عز وجل على لسان موسى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾[2]، والمعنى (اشدد به ظهري)، لا (اشدد به قوتي) كما وقع في بعض التفاسير، وكما وقع في المعجم الوسيط استشهادًا على معنى (الأزر) بأنه القوة. وليس بشيء؛ القوة تُشَدَّدُ ولا (تشد)؛ لأن (شد) الثلاثي المجرد غير المضعف، حين يتعدى بذاته كما في الآيات التي تلوت توًّا. يقع على المادي ولا يقع على المعنوي، ويكون بمعنى الربط والإيثاق والإحكام، تقول: شد الإسار، وشد العقدة، وشد العضد، وشد الرحال، وشد المئزر، وشد (الأزر)، أي الظهر، لا معنى للقول بخلافه.

وقد فسر القرطبي رحمه الله (الأزر) بمعنى (الظهر) في تفسيره للآية ٣١ من سورة طه، فارجع إليه.

والوزر من (الأزر) قريب، لا في مادته فحسب، ولكن لأن (الوزر) بمعنى الحمل الثقيل لا يكون إلا على (الظهر)، أي على (الأزر). تجد هذا فصيحًا بينًا في قوله عز وجل، يسلي بها نبيه: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[3]، بل لا يمكن لك تفسير قول العرب: (وزر إليه)

---

(١) منها المعجم الوسيط الذي سكت عن تعريف (الأزر) بأنه (الظهر)، وعرف (الأزر) بأنه (القوة)، مستدلًا بالقرآن: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ [طه: ٣١]. وهي على الضد من قوله وسيأتي.

(٢) سورة طه، الآيات: ٢٩ – ٣١.

(٣) سورة الشرح، الآيتان: ٢، ٣.

بمعنى لجأ واعتصم - ومنه (الوَزَر) بفتح الواو والزاي في قوله عز وجل: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾[1] - إلا أن تقول إن (الوَزَر) لغة في (الأَزْر)، بمعنى الظهر يركن إليه، أبدلت فيه الواو من الهمزة، وهو كثير الوقوع في كلام العرب، من مثل (أزف / وزف) و (أكد / وكد) وغيره كثير. كما تجده في قوله ﷺ لبعض تلك النسوة: «ارجعن مأزورات غير مأجورات!».

وكأنه يريد (موزرات) فهمز، أو كأن (وزر) و (أزر) سيان، أو كأن (المأزور) هو (المحمول على أزره)، أي على ظهره، كما تقول: (مكبود)، (مبطون)، (معيون)، فيمن اعْتُلَّ كبده وبطنه وعينه. والقياس من هذا - وإن لم يسمع من العرب - أن تقول: (أَزَرَه)، بمعنى (أوقر أزره) (أي ظهره)، و(أَزِرَ) هو، فهو (آزر) (اسم أبي إبراهيم في القرآن)، يعني موقر الظهر مُثْقَلُه. إنها نفسها (الوازر) حامل الوزر، على أصلها لا مجازها، أي الحَمُول المُحَمَّل، وهو نفس معنى (طارح) العبرية - الآرامية.

وقد عدل القرآن عن (وازر) إلى (آزر) دفعًا لشبهة فهمها بمعنى الآثم الخاطئ (وهي (وزار) العبري كما مر بك)، وليست (طارح) أو (تارح) كذلك. وعدل أيضًا عن استبقائها معربة على أصلها العبري - الآرامي: (تارح) أو (طارح)؛ لأن (تارح) تشتبه في العربية بمعنى (المحزون) التَّرِح، و(طارح) تشتبه في العربية بمعنى (الطريح) المنبوذ، وليست أيضًا (تارح) أو (طارح) في العبرية - الآرامية كذلك، على ما مر بك من منهجنا في تفسير أسباب عدول القرآن عن تعريب العلم الأعجمي إلى ترجمته.

أما اشتقاق (طارح) (تارح في التوراة) من الجذر العبري (طرح) بمعنى (حمل) ما يوقر ظهره، فهو عندي على الوزن (فَعَّال) - وهو وزن في العبرية والآرامية يدل على الفاعل يكثر منه الفعل - فكان من حقه أن يكون (طَرَّاح). ولكن الذي يجب أن تعلمه، وعلمه القرآن من قبل، أن هاتين اللغتين لا تجيزان تشديد الراء، وتستعيضان عن تشديد الراء بمد حركة ما قبلها، فتئول (طَرَّاح) إلى (طَارَح) (تارح في التوراة)، كما قالوا في (حَرَّاش) (أي الحراث) (حَارَش)، يعني الحارث الذي يمتهن الحراثة.

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١١، ١٢.

لا سبيل أمامك إلى تفسير معنى (تارح) البابلية (اسم أبي إبراهيم في التوراة) إلا بردها إلى (طارح) العبرية - الآرامية، أبدل البابليون من طائها تاء.

ولا ترجمة إلى العربية لهذا الاسم البابلي أدق من (آزر) التي في القرآن، بمعنى (الوازر)، على أصلها، لا مجازها.

ولا حرج على القرآن صاحب اللغة - على نحو ما رأيت في (صراط) و(قسطاس) - أن يشتق من الجذر العربي الأصيل مادة لم تسمع قبله من العرب، لا سيما في ترجمة الأسماء الأعلام كما مر بك في (إدريس)، بل في هذا إشارة إلى (عجمة) صاحب الاسم العلم.

قد أصاب القرآن إذن في (آزر) وسفه خصومه. فهل رغمت أنوف؟

جهل خصوم القرآن معنى اسم أبيهم (تارح)، ومازالوا يجهلونه، وعلمه القرآن. فأي إعجاز وأي علم!

كان أولى بالذين طعنوا على القرآن في (آزر) أن يتعلموا منه، ولكنهم لم يفعلوا. وصدق الحق سبحانه إذ يقول في تقريعهم: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].



(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٦.

(٢٣) إبراهيم

(إبراهيم) في القرآن هي تعريب (أبراهام) في التوراة.

ويقول سفر التكوين: إن إبراهيم كان اسمه (أبرام) (المشتقة على المزجية من آب + رام بمعنى (أبو العلاء))، وظل اسمه كذلك حتى كان ابن تسع وتسعين سنة فسماه الله (أبراهام) (إبراهيم في القرآن).

وعلماء التوراة يشتقون (أبراهام) هذه على المزجية من (آب + راب + هام)، حذفت الباء التي في (راب) للمزجية استثقالًا، وخفف المد الذي في (آب) للمزجية أيضًا، فأصبحت (أب + را + هام)، أي (أبراهام).

أما معنى (أبراهام) هذه عند علماء التوراة؛ فهم يرون أن (راب) ههنا يعني (كثير)، وأن (هام) يعني (جمهور)، ومن ثم فهذا الاسم يعني عندهم (أب + كثير + جمهور)، يريدون: أبو جمهور كثير.

وقد تورط علماء التوراة في هذا التفسير اتباعًا لسفر التكوين[1] الذي أراد أن يكون معنى (أبراهام) أبًا لجمهور من الأمم (آب - هامون - جوييم)، نبوءة من الله عز وجل لإبراهيم بكثرة النسل، فألزم بها سفر التكوين علماء التوراة من بعده.

ولكنك تستدرك على علماء التوراة هؤلاء متسلحًا بنحو اللغة العبرية ذاتها ومعجمها، فتقول: إن (راب) التي في آب + راب + هام (أب + كثير + جمهور) لا يصح عبريًا أن تفهم في هذا الاسم على الصفة بمعنى (كثير)؛ لأن المفرد (الأب) لا يوصف بالكثرة، فلا يجوز لك

---

(١) تكوين ١٧/ ٥.

أن تقول: (أب كثير)، ولا يصح عبريًّا أيضًا أن تكون (كثير) هذه صفة لما بعدها (الجمهور)؛ لأن الصفة لا تتقدم الموصوف، كما في العربية سواء بسواء، ولا يصح في عبرية التوراة كذلك - وإن صح في العربية - إعمال الصفة فيما بعدها، كأن تقول: (أب كثير الجمهور)، أقرب من هذا إلى الصواب أن تقول في (راب) العبرية هذه: إنها صفة بمعنى (كبير)، (وهو من معانيها في العبرية)، تصف بها (الأب) على التوقير والتمجيد، فيكون المعنى (أب كبير لجمهور)، وليس هذا هو الذي يريد سفر التكوين، فهو يريد الكبر والكثرة للجمهور لا للأب، بدلالة تفسيره الاسم بقوله: (أب لجمهور من الأمم).

أما الشديد النَّكِر، فهو أن (هام) العبرية هذه لا تعني البتة (جمهور) كما أراد سفر التكوين وتابعه عليها من بعده علماء التوراة، وإنما معناها في العبرية (الناس)[1]، أخذًا من ضمير الجماعة العبري (هِيم) (بإمالة الألف)، وهي (هُمْ) العربية.

من هنا يتضح لك أن المعنى الأقرب إلى الصواب عبريًّا في (أبراهام) هو فهمه بمعنى (أب كبير للناس).

ولكنك تعلم من العبرية أيضًا أن (راب) على الاسمية لا الصفة، تعني (الرئيس)، (السيد)، (المعلم)، (الإمام)، ومنها (الرباني) على ما مر بك في تضاعيف هذا الكتاب، ومنها في العبرية المعاصرة قولهم على النداء توقيرًا: مُوري ورَبِّي! أي معلمي وأستاذي، إنها إذن الأستاذ الإمام.

عندئذ تقطع غير ملتفت إلى تفسير سفر التكوين وعلماء التوراة، بأن (أبراهام) إنما تعني في لغة صاحب هذا الاسم العلم: إمام الناس، وهي عبريًّا (راب + هام)، لا تحتاج في أولها إلى (آب)، ولكن بقيت (آب) مضافة إلى الاسم على الراجح عندي؛ دلالة على الانتقال بالاسم من (آب + رام) إلى (آب + راب + هام) على وجه الحشو المؤكِّد؛ لأن في (آب) من معنى الإمامة بعض ما في (راب).

(١) راجع المعجم العبري (هَمِّلُّون هِحَداش لتناخ)، ص ١٢٠، المرجع المذكور.

وهذا هو نفسه التفسير القرآني لمعنى إبراهيم بالمرادف في قوله عز وجل: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[1]، ولم يفطن إليه مفسرو القرآن كما سترى.

تكلم مفسرو القرآن[2] في معنى اسم إبراهيم، منهم من أنصف فاكتفى بالقول بعجمته (الماوردي)، ومنهم من تصدى لتفسيره (ابن عطية) فقال: إن معناه من السريانية هو (الأب الرحيم)، مؤكدًا أن (رهيم) في السريانية معناها (رحيم) في العربية، فتندهش كيف تورط فيها الرجل على جلال قدره وعلمه، وليس في السريانية بالطبع من هذا شيء، بل ولا في الآرامية والعبرية، ولا تدري أيضًا أي شقي في نواحي العراق دسها عليه، إلا أن يكون (هنديًّا) تسربل في ثياب السريان ينطق حاءهم هاء.

وعلل بعضهم سبب التسمية (السهيلي) بقوله في معرض التشابه القوي بين السريانية والعربية: (ألا ترى أن (إبراهيم) تفسيره (الأب الرحيم) لرحمته بالأطفال، ولذلك جعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارًا إلى يوم القيامة). وهذا – فوق سماجته – ضعيف، تشم فيه من قريب رائحة النقل عن أهل الكتاب من الملتين، وعندهم أن (الأبرار) يذهبون إلى حضن إبراهيم وسارة.

والطريف أن القرطبي رحمه الله تحمس لهذا التعليل فعزره بقوله: (ومما يدل على هذا ما أخرجه البخاري في حديث الرؤيا الطويل عن سمرة، وفيه أن النبي ﷺ رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس).

وليس في هذا الحديث أيضًا – وإن صح – ما يشهد لتفسير اسم إبراهيم بمعنى الأب الرحيم، وإنما هذا هو ما أسميه (التفسير بالتخمين) أو (التفسير بالفراسة)[3]: تُسْقِط صورة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٣) شبيه بهذا التفسير بالتخمين أو التفسير بالفراسة، ما تقرؤه في بعض التفاسير، وأيضًا في بعض المعاجم، التي تقول لك: إن لفظة (أمة) حين يوصف بها إنسان تعني الرجل الجامع لخصال الخير، يستشهدون لها بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، وليس هذا من اللغة في =

في ذهنك على شخص صاحب الاسم العلم، ثم تستخلص من هذه الصورة التفسير الذي تريد، لا تكلف نفسك مؤونة تأصيل مبنى الاسم ومعناه في لغة صاحبه.

بل ليس البر والرحمة هما أعظم مناقب إبراهيم عليه السلام حين يُتكلَّف اشتقاق هذا الاسم منهما، وإنما كانت كبرى مناقبه عليه السلام بشهادة الله عز وجل، أنه إبراهيم الذي وفى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[1].

شغل إبراهيم عليه السلام - وهو بعدُ صغير - بالنظر في النجوم، يطلب الحق المبين، فهداه الحق إلى الحق، وانبرى وحده في قومه يدعو إلى الواحد، فابتلي بكفر أبيه آزر، ينحت الأصنام ويبيعها للناس، كالساخر بدعوته، لم يكن أبوه ردءًا له، وإنما كان حربًا عليه، يستغل سلطان الأبوة في إسكات الدعوة: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[2]، ولم يزد هذا إبراهيم بأبيه إلا برًّا، ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[3]، وكاد أصنامهم في غفلة منهم، ليريهم على أعين الناس أن الإله الذي لا يدفع الضر عن نفسه، أَفَمَن ألا يدفع الضر عن غيره، أو يَضُرَّهُ، ولكنه بفعلته هذه لم يهتك ستر أصنامهم فحسب، وإنما هتك ستر كهنتها وسدنتها، الذين يعلمون من قبل أنها لا تضر ولا تنفع، ولكنهم يعللون بها المستضعفين ويسوسون الدهماء، هنا برح الخفاء ولم يعد يصح السكوت، فكان جزاؤه من أبيه وقومه أن يحرقوه بالنار؛ انتصارًا لآلهتهم، وكيلا يفتتن به الناس. أسلم إبراهيم أمره لله، فقد علم هو من قبل أن الله حسبه، وإذا النار على إبراهيم برد وسلام؛ فالنار لا تحرق مؤمنًا ناهيك بخليل الرحمن، ولكن القلوب تعمى عن الآية الكبرى، فاعتزلهم وما يعبدون من دون الله، لم يؤمن له منهم إلا زوجه سارة وابن أخيه لوط، فخرج بهما مهاجرًا إلى ربه، لا شيعة ولا أتباع، يرجو رحمة ربه في نسل صالح يعينه

= شيء، وإنما الأمة هنا يعني الإمام، وسيأتي.

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة مريم، الآية: ٤٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ٤٧.

على أمر الله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1]، ولكن العزيز الرحيم يبتلي إبراهيم فيرجئ الاستجابة إلى وقتها المكتوب عنده، ويصبر إبراهيم حتى يأتي أمر الله، لا يضار الزوجة التي صبرت ووفت، حتى جاوز الثمانين، فيولد له من هاجر بكره إسماعيل وقد ناهز إبراهيم ستًّا وثمانين، كما تقرأ في سفر التكوين (تكوين ١٦/١٦)، وعززه القرآن بقوله عز وجل على لسان إبراهيم: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[2].

فهل انتهت (بلاءات) إبراهيم؟ كيف وهو عز وجل يريد لإبراهيم أن يكون المثل الأعلى لاصطبار المؤمن وإذعانه لأمر الله؟

ما أقر الله عينه بإسماعيل حتى ابتلاه فيه، فأمره بفراقه فطيمًا تحمله أمه، ليضعه في واد غير ذي زرع، لا ماء ثَمَّ ولا طعام، ولكن إبراهيم يمضي لا يلتفت وراءه تاركًا فلذة كبده عن أمر الله، لا ينفطر ولا يجزع، فقد علم هو من قبل أن الذي خلق وهدى هو الذي يطعم ويسقي: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾[3]، فأي طاعة وأي إيمان!

لم يخلق الله إسماعيل ليؤنس أباه في شيخوخته، وإنما خلقه ليكون شجرة إيمان أصلها ثابت في الأرض وفرعها في السماء، ألقيت بذرتها في واد أصم، يراد له بعد نحو أربعة وعشرين قرنًا حمل لواء الدعوة الخاتمة والبلاغ المبين.

ويشب الغلام بعيدًا عن أبيه، ويمتثل إبراهيم، فهل انتهت (بلاءات) إبراهيم؟ كلا، ما إن يبلغ الغلام ثلاث عشرة سنة، وقد ناهز إبراهيم تسعًا وتسعين، حتى يجيء (البلاء المبين): يؤمر إبراهيم بذبح ابنه بيده، ويا لهول ما يؤمر! لأهون عليه أن يذبح نفسه بيده ولا يرى ابنه يشك بشوكة تدميه، ولكن الله هو الآمر، والمأمور هو إبراهيم الذي علمت، ويمتثل إبراهيم، أفيتأبى إسماعيل على أمر الله، يضاعف على أبيه المحنة فيستغيثه الأبوة ويناشده الرحمة؟

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

فما علمك ببر إسماعيل أباه؟ كلا، بل يخفف عن أبيه البلاء، فيستحثه ويستنجزه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(١)، لا يصطنع البطولة، وإنما يقدم المشيئة، مسلمًا وجهه لله، فأي أب وأي ابن!

تهيأ الابن للذبح، وتهيأ الأب لإجراء السكين، فقيل له: قف! قد أتممت! فلم ير إبراهيم في المنام إلا أنه يذبح ابنه، لا أنه ذبحه بالفعل، وهذا هو معنى قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

وإلى هنا تم بلاء إبراهيم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾(٣)، بلاء لم يمتحن به قط إيمان رجل من قبل ومن بعد.

أما (جزاء المحسنين) فقوله عز وجل: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٤)، وأيضًا بشراه بإسحاق يثني به إسماعيل ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٥) - وإسحاق يعني (الضحوك) كما قد علمت - ثوابًا من عند الله له ولزوجه سارة رفيقة جهاده الطويل، فلم ير إبراهيم بعدها إلا ضاحك السن، قد صفت له الأيام، وبارك الله على إبراهيم وآله، فصارت جزءًا من (تشهد) المسلم في كل صلاة.

كان إبراهيم المثل الأعلى للمسلم الحق، يسلم أمره كله لله، وكان إبراهيم المثل الأعلى للمؤمن الحق، تَنْهَدُّ الجبال ولا يتزعزع له إيمان، فكان حقه على الله عز وجل أن يقول فيه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾(٦)، يؤتسى به ويؤتم(٧). وكان حقه على الله عز وجل أن يقول

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٠٣ - ١٠٥.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠٦.

(٤) سورة الصافات، الآيات: ١٠٨ - ١١٠.

(٥) سورة الصافات، الآية: ١١٢.

(٦) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٧) قالت بعض التفاسير كما قالت بعض المعاجم: إن لفظ (الأمة) هنا يعني الرجل الجامع لخصال =

فيه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[2]، وكان حق إبراهيم على الله عز وجل أن يستجيب دعوته في الملة الآخرة: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[3]، فيكون إمام المذهب والطريقة، أي الملة: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[4].

كان جزاء إبراهيم الذي وفى - وقد اجتاز البلاء المبين - أن جعله الله عز وجل إمامًا للناس: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[5]، وهذا هو المعنى الدقيق لاسم إبراهيم (إمام الناس) الذي لا يصح في العبرية غيره كما مر بك، وتلك هي مناسبة الانتقال باسمه من (أبرام) إلى (أبراهام) يوم التمام باجتياز (البلاء المبين).

ولكنك لا تقرأ في سفر التكوين شيئًا يعلل لك سبب العدول باسم إبراهيم من (أبرام) إلى (أبراهام) وهو عندئذ ابن تسع وتسعين، دون أسباب أو مقدمات، إلا إرادة الوعد بكثرة النسل: (ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير. سر أمامي وكن كاملًا فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرًا جدًا. فسقط أبرام على وجهه.

= الخير، وليس هذا من اللغة في شيء كما مر بك، لا يجوز للغوي الحاذق أن يشتق المعنى بعيدًا عن أصل المادة اللغوية، أي بعيدًا عن المعنى الرئيسي للجذر الثلاثي المشتق منه. ولا يجوز لغة التفسير بالحدس والفراسة، إن أصبت مرة فقد أخطأت مرات، بل يكون الجذر الثلاثي للمادة اللغوية هو إمامك. ليس في مادة الجذر العربي أ/ م/ م شيء يفيد الجمع بين خصال الخير، وإنما كل ما في العربية بألف وميم مضعفة أو مكررة يدور حول معنى الأم التي ولدت، والأم بمعنى المثابة، يثاب إليها، والأم يجتمع إليها صغارها، والأم يتبعها ولدها. والأمة في الآية اسم من هذا، إنه (القدوة) وزنًا ومعنى.

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٣٠، ١٣١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٤) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

وتكلم الله معه قائلًا: أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بَعْدُ أبرام بل يكون اسمك إبراهيم (أبراهام في الأصل العبراني). لأني أجعلك أبًا لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيرًا جدًّا وأجعلك أممًا. وملوك منك يخرجون)[1]. أما العهد الذي يلتزم به إبراهيم لقاء وعد الله إياه بكثرة النسل فهو (عهد الختان): (وأما أنت فتحفظ عهدي. أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختنون في لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بيني وبينكم)[2] (فيكون عهدي في لحومكم عهدًا أبديًا. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي)[3].

في هذا اليوم أيضًا، وفي مناسبة تعديل اسم أبرام إلى أبراهام، عدل الله كذلك - كما يقول سفر التكوين - اسم زوجته من (ساراي) إلى (سارة)[4]: (وقال الله لإبراهيم ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي، بل اسمها سارة. وأباركها وأعطيك أيضًا منها ابنًا وأباركها فتكون أممًا، وملوك شعوب منها يكونون)[5]. أي في هذا اليوم أيضًا كانت البشرى الأولى لإبراهيم بابنه إسحاق. وهذا يتفق مع القرآن الذي يجعل توقيت البشرى الأولى بإسحاق تعقيبًا على اجتياز إبراهيم اختبار (البلاء المبين)، كما تجد في قوله عز وجل لحظة فداء إسماعيل: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[6].

(١) تكوين ١٧/ ١ - ٦.
(٢) تكوين ١٧/ ٩ - ١١.
(٣) تكوين ١٧/ ١٣ - ١٤.
(٤) حاول علماء التوراة المغايرة بين معنى (ساراي) ومعنى (سارة) ليبرروا تعديل التسمية، فقالوا غير جازمين: إن الأولى من المساورة والمغالبة، والثانية من السراوة والشرف. أما (سارة) فهي عبريًا من الجذر (سرر) ومكافئه العربي سرا/ يسرو/ سراوة، فهي (سَرِيَّة) بمعنى (أميرة). وقد بقي من هذا في عربية المماليك في مصر المتأثرة برواسب آرامية لفظة (سارعسكر)، أي: أمير الجند.
(٥) تكوين ١٧/ ١٥ - ١٦.
(٦) سورة الصافات، الآيات: ١٠٧ - ١١٢.

ولكن الكاتب يسقط عمدًا من هذا السياق (اختبار الذبح)؛ لأنه يريد شرف هذا (البلاء المبين) لإسحاق، لا لإسماعيل، وإسحاق لم يولد بعد. فيرجع الحديث عن هذا إلى أن يولد إسحاق. فيجيء الكلام مقطوعًا عن سياقه، ولا تفهم وجه التناسب بين (عهد الختان) وبين (تكثير النسل). ولا بين هذين وبين وجه الضرورة إلى تغيير اسم إبراهيم - وهو ابن تسع وتسعين سنة - من أبرام إلى أبراهام، إلا أن يكون معنى (أبراهام) هو المنجاب المنسال، ذلك المعنى الذي اضطر إليه الكاتب. فألزم به علماء التوراة من بعده على خلاف مع نحو اللغة العبرية ومعجمها.

****

كان إسماعيل يوم تبدل اسم إبراهيم من (أبرام) إلى (إبراهام). ابن ثلاث عشرة سنة - كما يقول سفر التكوين (تكوين ٦٧/ ٢٥) - يصح به (القربان) في اختبار الذبح[1]. البلاء المبين. وكان جديرًا بكاتب سفر التكوين الذي بين يديك أن يتخذ من اجتياز إبراهيم هذا الاختبار الفذ، مناسبة لتعديل اسمه من (أبرام) إلى (أبراهام)، أي من (أبي العلاء) إلى (إمام الناس) في الإسلام والإيمان. لحظة أثبت جدارته بهذا الوسام.

ولكن كاتب سفر التكوين الذي بين يديك لا يهتم لهذا ولا يريده؛ لأنه يفوت على بني إبراهيم عبر إسحاق هذا الشرف، وإسحاق لم يولد بعد، فنقل (بطولة) اختبار الذبح من إسماعيل إلى إسحاق، كما كان يفعل بعض فراعنة مصر بنقوش أسلافهم؛ يرفعون اسم الفرعون صاحب النقش الذي يسجل أمجاده. ويضعون مكانه اسم الفرعون البطل (المزيف)، فيفضحهم علماء الآثار حين يكتشفون التدليس. هذا بالضبط هو ما فعله الكاتب؛ لأنك حين تقرأ له عبارة: (خذ ابنك وحيدك الذي تحبه...)[2] تتوقع حتمًا أن تجيء بعدها مباشرة لفظة (إسماعيل)، ولكن الكاتب يضع مكانها بكل ثقة لفظة (إسحاق)، يكررها في كل مواضع واقعة اختبار

(١) هذا يقارب عبارة القرآن: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات: ١٠١ - ١٠٢].

(٢) تكوين ٢٢/ ٢.

الذبح، غير عابئ بذاكرة القارئ الذي قص عليه من قبل أن (إسحاق) لم يكن قط ابنًا (وحيدًا) لإبراهيم، وإنما الذي كان ابنًا (وحيدًا) لإبراهيم، وظل كذلك حتى مولد (إسحاق) هو بكره (إسماعيل)، فتقطع بأن ثمة أحدًا (ذا مصلحة) قد عبث بهذا النص (المقدس)، لأن اختبار الذبح بابن (وحيد) لا يمكن عقلًا أن يقع وإسحاق يثني إسماعيل، بل لا يمكن عقلًا أن يقع إلا قبل مولد إسحاق، فلا يكون إلا بإسماعيل صاحب لقب (الابن الوحيد) وحده، فتقطع بأن مكان الحديث عن واقعة اختبار الذبح هو هذا الإصحاح السابع عشر نفسه الذي تقرر فيه - جزاء لإبراهيم على اجتيازه هذا الاختبار الفذ. تعديل اسمه من (أبرام) إلى (أبراهام)، أرجأه الكاتب إلى الإصحاح الثاني والعشرين ريثما يولد إسحاق ويشب.

ولأن كاتب سفر التكوين يرى محقًّا أن اجتياز إبراهيم البلاء المبين، أي اختبار الذبح، يستحق جزاء يكافئ بر إبراهيم، فقد عقب على واقعة اختبار الذبح (الذي كان بإسحاق كما يقول) بقوله على لسان الله عز وجل: (من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة وأكثر نسلك كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر، ويرث نسلك باب أعدائه، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض، من أجل أنك سمعت لقولي)[1]، يجعل جزاء إبراهيم (كثرة النسل) كما مر بك، ويطنب في أمجاد هذا النسل (المبارك)، وكأنما المكافأة لنسل إبراهيم، لا لإبراهيم نفسه، ينزعها الكاتب عن إبراهيم ويخص بها نفسه وشعبه.

أما الذي يستوقف النظر، الذي فات الكاتب أن يتذكره، فهو أن إبراهيم عقب اختبار الذبح (الذي كان بإسحاق كما يقول) لم يكن في حاجة إلى (مكافأة) تكثير النسل؛ لأنه حصل على الوعد بها من قبل (مجانًا)، منحها له الكاتب دون مناسبة، بل دون ابتلاء تطير له النفس شعاعًا، حين أراد - وهو يمهد لتفسير اسم إبراهيم - النص على كثرة نسله، فقال في الإصحاح الخامس عشر: (فإذا كلام الرب إليه قائلًا: لا يرثك هذا. بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك. ثم أخرجه إلى خارج وقال: انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن

(١) تكوين ٢٢/١٦ - ١٨.

تعدها. وقال له: هكذا يكون نسلك. فآمن بالرب فحسبه له برًّا)[1]، أي: قالها الرب لإبراهيم جازمًا قاطعًا لا تحتاج إلى مزيد تأكيد، فما الداعي للمكافأة بها على اجتياز (البلاء المبين)؟ ثم ينتقل الكاتب إلى الإصحاح السابع عشر، يوم كان إبراهيم ابن تسع وتسعين، يريد توقيت تعديل الاسم من (أبرام) إلى (أبراهام) - ولم يولد بعد إسحاق - على ما مر بك فيقول: إن الرب تراءى لإبراهيم يكرر له العهد (أي العهد بتكثير النسل) فيقول له: (أما أنا فهو ذا عهدي وتكون أبا لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بَعْدُ أبرام، بل يكون اسمك إبراهيم (أبراهام في النص العبراني)؛ لأني أجعلك أبًا لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيرًا وأجعلك أممًا)[2]. أفلم يؤمن من قبل إبراهيم بالوعد الأول الذي في الإصحاح الخامس عشر، وحسب له ذلك برًّا، فلم التكرار ولم يحدث من إبراهيم شيء ينم عن تشككه في ذلك الوعد؟ وما الذي فعله إبراهيم ههنا حتى يكافأ عليه بالتلويح من جديد بوعد تكثير النسل، بل ما الذي يبرر علة تغيير الاسم من (أبرام) إلى (أبراهام) فجأة دون مناسبة ودون مقدمات وقد بلغ من الكبر عتيًّا؟ أليس ههنا موضع الحديث عن اختبار الذبح. فيكون تغيير الاسم مكافأة على اجتياز الاختبار؟ ولكن إسحاق لم يكن قد ولد بعد، والكاتب يريد أن يخصه هو من دون إسماعيل بهذا الشرف، فيقتطع اختبار الذبح من الإصحاح السابع عشر ويحشره حشرًا في الإصحاح الثاني والعشرين، بعدما ولد إسحاق وشب. ونسي الكاتب أنه في الإصحاح السابع عشر تنبأ لإبراهيم بأنه سيكون له من سارة زوجته ابن (أي إسحاق) منجاب كثير النسل: (وأباركها وأعطيك أيضًا منها ابنًا. أباركها فتكون أممًا وملوك شعوب منها يكونون)[3]، فكيف يصدق إبراهيم الرؤيا بذبح إسحاق صبيًّا يافعًا لم ينجب بعد؟

على أن اقتطاع اختبار الذبح من الإصحاح السابع عشر (كيلا يكون بإسماعيل) ورده إلى الإصحاح الثاني والعشرين (كي يولد إسحاق ويشب)، يترك الكلام في الإصحاح السابع

(١) تكوين ١٥/ ٤ - ٦.

(٢) تكوين ١٧/ ٤ - ٦.

(٣) تكوين ١٧/ ١٦.

عشر قلقًا، إذ لا معنى لأن يقال لإبراهيم وهو في سن تسع وتسعين: لا يدعى اسمك بعد أبرام....، أي أن اسم (أبرام) لم يعد يليق بك. فلماذا؟ ما الذي حدث له أو منه في هذه السن كي ينبو عنه اسم (أبرام)؟ إنه بلا شك اجتياز اختبار الذبح، أي البلاء المبين الذي كان بإسماعيل ولم يكن بإسحاق الذي لم يولد بعد. ولكن الكاتب كما مر بك لا يريد ذلك، فماذا يفعل؟ تحايل على سد الثغرة فجعل لتكرمة إبراهيم باسمه الجديد مقابلًا يلتزم به في نفسه وولده، وهو عهد الختان. ولكن الكاتب يعلم أن الختان من سنن الفطرة، هدي إليه إبراهيم كما هدي إليه المصريون من قبل. ويعلم أيضًا أنه لا معنى لربط الختان بكثرة النسل، فماذا يفعل؟ افتعل للختان رمزًا غليظًا، يخرج به عن أصله كقاعدة من قواعد النظافة الجسدية، ليصبح كالوسم، توسم به الماشية علامة على الانتماء والملكية: (أما الذكر الأغلف الذي لا يختتن في غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه نكث عهدي)[1]. وكان (بولس) – رسول الحواريين إلى أوربا – قد فطن من بعد إلى أن تعليق الدخول في حظيرة إبراهيم على هذا الشرط الغليظ – شرط الختان – قمين بأن يقطع (نسل) إبراهيم لا أن يكثر نسله كما تقول النبوءة التي في سفر التكوين، فقال بعدم وجوبيته. فعدل عنه المسيحيون جميعًا، إلا من ولدوا بأرض ورثت الختان فطرة، ولم ترثه ديانة[2].

ولكن المعضلة لا تزال ماثلة أمام الكاتب: ها هو في الإصحاح الثاني والعشرين يوقع اختبار الذبح على إسحاق كما مر بك، فماذا بقي في جعبته من جائزة يكافئ بها بر إبراهيم حين اجتاز بنجاح لا نظير له هذا الاختبار الفذ؟ ليس في ذهنه إلا جائزة (تكثير النسل) يطنطن بها، لا يسأم ولا يمل، ناسيًا أن إبراهيم يحمل على صدره هذا الوسام من قبل بمقتضى اسمه الجديد – الذي فسره بالمنجاب الكثير النسل – وبمقتضى عهد الختان. ولكن الكاتب لا يعبأ بذاكرة قارئه كما مر بك، فحسبك الله ونعم الوكيل.

بل ليس في كثرة النسل كما تعلم مجد لأحد، حتى يجازي بها الله بر إبراهيم. فضلًا عن

(١) تكوين ١٧/ ١٤.

(٢) شأن المصري المسيحي، على سبيل المثال.

أن هذه النبوءة لم تتحقق إن أردت نسل إبراهيم عبر إسحاق، كما قالها سفر التكوين بالنص، خطابًا من الله عز وجل لإبراهيم: (بإسحاق يدعى لك نسل)[1].

ليست أبوة إبراهيم هي أبوة (الناسل)، وإنما هي أبوة (الإمامة).

ولو قد فطن كاتب سفر التكوين - وفطن من بعده علماء التوراة - إلى هذا المعنى الجليل في اسم إبراهيم عليه السلام، لعضوا عليه بالنواجذ. ولكن (ألهاهم التكاثر)، عقدة اليهود في كل عصر: أراد الكاتب مجده هو ومجد شعبه - إن كان في كثرة النسل مجد - ولم يطلب مجد إبراهيم، فأراد الأب المنجاب (الناسل)، ولم يرد الأب (الإمام).

قال المسيح عليه السلام في تقريع هؤلاء، ينص على أبوة الإمامة: (لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم. ولكنكم الآن تطلبون قتلي، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله[2]. هذا لم يعمله إبراهيم)[3].

وقالها القرآن أيضًا فأوجز وأبلغ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾[4].

وليس بعد هذا شرف لإبراهيم عليه السلام، النبي الإمام، صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه، وعلى كل من تبعهم بإحسان.

* * * *

(١) تكوين ٢١/ ١٢.

(٢) ما فتئ المسيح، وكأنما يتنبأ بما سيكون من بعده، ينص على بشريته: إنسان يوحى إليه. ولكنك لا تهدي من أحببت، بل يهدي الله لنوره من يشاء.

(٣) يوحنا: ٨/ ٣٩ - ٤٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

(٢٤) لوط

(لوط) في القرآن هي نفسها (لوط) في التوراة، لا فرق بينهما في الكتابة، ولا فرق أيضًا بينهما في النطق إلا أن لفظة (لوط) العبرية - الآرامية ينطق فيها المد لا بالواو، وإنما بالضم، مثلها مثل (يُوم) العربية العامية، أو *Bought* الإنجليزية.

أما (لوط) العبرية فهي من الحجاب والخفاء والستر، تشتقها من الجذر العبري (لاَط / لوط)، وقرينه العربي (لَطَّ)، وأيضًا (لاط / يلوط / لَوْطًا) بمعنى ستره وأخفاه. (لوط) العبرية إذن مصدر بمعنى الحجب والستر، وأيضًا اسم بمعنى حجاب.

إن نطقت (لوط) العبرية مدًّا بالواو، مثل لوط في القرآن، فهي على زنة اسم المفعول في العبرية، والمعنى محجوب مستور. وإن نطقتها مدًّا بالضم (مثل (يُوم) العربية العامية) كما في التوراة، فهي على زنة المصدر في العبرية، والمعنى ستر وحجاب.

من ذلك في العبرية المعاصرة قولهم عن الشيء غيبه الضباب: (لوط بِعَرافِل) أي (لِيطَ بضباب)، و (عرافل) عبريًّا يعني الضباب.



في العبرية أيضا (لوط)، بنفس نطق اسم نبي الله لوط في التوراة ومعناها في العبرية (لاذَن)، ذلك الصمغ (الراتينجي) الذي يعلك أو يستعمل عطرًا أو دواء، صاغته العبرية على الراجح من معنى اللزوق والعلوق الذي بقي في (لَطَّ) و (لَاط) العربيين، وضاع من الجذر العبري (لاط / لوط).

وفى السريانية كذلك (لوط) أخرى معناها (فُسْتُق)، وبعيد أن يكون اسم (لوط) منه؛ لأن اللغة السريانية لم تولد إلا بعد لوط بقرون وقرون.

على أن علماء العبرية لا يفسرون اسم (لوط) باللاذن أو الفستق، وإنما يفسرونه بالستر والحجاب، فهو حجاب أو محجوب، وبهذا المعنى نفسه فسره القرآن.

وغير بعيد أن لوط عليه السلام لم يكن هذا اسمه، وإنما شهر به عشية البطشة الكبرى بالقرية التي كانت تعمل الخبائث، رمزًا لآية طمس أعينهم عنه وخروجه من بينهم بقطع من الليل، في (ساتر) الله عز وجل.

* * * *

أما مفسرو القرآن[1] فقد قال الكثرة بعجمة هذا الاسم، ولم يتصدوا لتفسيره. ولكن كان منهم (الفراء) الذي حاول تفسيره من العربية، إلا أنه أخطأ معنى الستر والخفاء الذي في (لاط) العربي، وتعلق بمعنى اللصوق والعلوق (وهو الأشهر في (لَطَّ) و (لَاط) العربيين) فقال: إنه من قولك (هذا أليط بقلبي) يعني ألصق بقلبي، أي أحب إلي. وهو لم يفطن إلى معنى الخفاء والاستتار في هذا الجذر العربي؛ لأنه بادئ بدء لم يقسه على قرينه العبري، فأخطأ ولم يصب.

لم يكن بين يدي مفسري القرآن وقتئذ ذلك المنهج الذي هدانا الله إليه بفضل منه ونعمة: تفسير العلم الأعجمي في القرآن بالقرآن. فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

* * * *

فسر القرآن اسم (لوط) عليه السلام بأدوات ثلاث: فسره بالتعريب، وفسره بالمقابلة، وفسره أيضًا بالسياق العام، أي بالتصوير.

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٨٠ من سورة الأعراف.

فسره بالتعريب. لأن (لوط) نفسها تفهم عربيًّا على أنها اسم فُعْل بمعنى مفعول، من لاط / يلوط / لَوْطا، كما تقول مثلًا (جُعْل) بضم فسكون وتعني (مجعول)، من جعل / يجعل / جَعْلًا. فهو المستور المحجوب، أي (الذي ليط). وهو تعريب وليس ترجمة؛ لأن (لُوْط) بضم اللام لم تسمع من العرب. ولكنه تعريب مفسر، إن تمعنت.

وفسره بالمقابلة، أي بالضد من معناه كما مر بك، في مثل قوله عز وجل على لسان لوط: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾(١)، وفضحه يعني هتك ستره. وأيضًا في قوله عز وجل على لسان لوط يزجر قومه: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾(٢)، أي أتأتون الفاحشة علانية لا تستترون! وكان الكفرة الفجرة يتلاوطون علنًا. لا يستتر بعضهم من بعض، كما أخبر الله عز وجل على لسان لوط في خطاب قومه: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ﴾(٣).

وفسره أيضًا بالتصوير، أي بالسياق العام، في إنجاء الله لوطًا من قومه قبيل البطشة الكبرى بالقرية التي كانت تعمل الخبائث. وقد فصلنا القول في هذا عندما اتخذنا من اسم (لوط) مثالًا للتفسير بالتصوير في الفصل الثالث (٥) من هذا الكتاب، فارجع إليه في موضعه، كراهة أن نثقل عليك بالتكرار.



(١) سورة الحجر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٤.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

(٢٥) إسماعيل

(إسماعيل) في القرآن هي تعريب (يِشْمَعِيل) العبرية في التوراة.

وهي في العبرية على المزجية من (يشمع + إيل)، ومعناها الحرفي (يسمع الله).

وقد مر بك أن العبرية تستخدم المضارع وتريد اسم الفاعل منه، فيكون معنى هذا الاسم (الله سميع)، أو (سميع هو الله).

وسفر التكوين لا يحدثك بشيء عن مناسبة هذه التسمية؛ لأن غاية همه بنو إبراهيم عبر إسحاق، لا يهتم لشيء من أمر إسماعيل، إلا شذرات تجيء عبر السياق.

ولكنك تجد مناسبة هذه التسمية في القرآن.

فقد مر بك أن إبراهيم - عليه السلام - حين انقطع ما بينه وبين أبيه وقومه، خرج مهاجرًا إلى ربه يدعوه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، فاستجاب له عز وجل بالبشرى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾[2]، أي بإسماعيل، لا يصح أن تقول: بإسحاق؛ لأن إبراهيم دعا بها لحظة خرج مهاجرًا إلى ربه لا يصحبه إلا زوجه سارة وابن أخيه لوط، دعا بها وهو بعد (فتى يقال له إبراهيم)[3]، عقيم الزوج لم يولد له بعد إسماعيل، بل لم يلتق بعد بهاجر أمه، التي أهداها إليه ملك مصر بعد سنوات من التطواف والترحال، كما تقرأ في سفر التكوين.

بشر الله عز وجل إبراهيم بهذا الغلام الحليم ولم يستجب له من فوره، وإنما أرجأ

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠١.
(٣) راجع الآية ٦٠ من سورة الأنبياء.

الاستجابة إلى أجل مسمى عنده، يبتلي صبر إبراهيم. كان مقدورًا لإسماعيل بكر إبراهيم ألا يجيء من زوجه سارة الآرامية ابنة عمه، وإنما من هاجر المصرية، لينبت في واد أصم غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، كي تقام فيه الصلاة: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1]، ولو كانت سارة أم إسماعيل لما ارتضت فراقه، إلا أن تصحب ابنها في مُهاجَره فتفارق إبراهيم. ولكنه كان ابن ضرتها، فشجعت ولم تمانع، بل كانت هي التي أوحت وألحت، في رواية سفر التكوين.

صدق الله إبراهيم وعده ببكره إسماعيل وقد ناهز إبراهيم ستًّا وثمانين، لم يعد بعد (فتى يقال له إبراهيم)، وإنما ولد له إسماعيل وقد بلغ به الكبر، كما تجد في قوله الله عز وجل على لسان إبراهيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[2].

ويتذكر إبراهيم يوم ولد له إسماعيل دعوة منه سبقت، يوم خرج مهاجرًا إلى ربه وحيدًا إلا من زوجه وابن أخيه، يسأله ربه النسل الصالح الذي يعينه على أمر الله، ويذكر أيضًا بشرى الله إياه يومئذ (بغلام حليم)، أرجأها الله إلى أجل مسمى عنده وقد نَيَّف إبراهيم على الثمانين. فيعلم فوق علم أن الله عز وجل - مهما طال الأجل - لا يخلف وعده رسله، وكأنه قال بالعبرية، يمجد بها الله: يشمع إيل! أي سميع هو الله! فسمي بها إسماعيل (يشمع + إيل).

****

أما مفسرو القرآن[3] وقد أجمعوا على عجمة (إسماعيل)، فلم يفتهم معنى (السمع) ومعنى (الله) في (اسمع + إيل)، ولكنهم فهموها بصيغة الطلب على الدعاء، فقالوا: إن معنى هذا الاسم هو (اسمع يا ألله) أو (اللهم فاسمع).

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.

(٣) راجع تفسير القرطبي للآية ١٢٥ من سورة البقرة.

ولا يصح هذا من وجهين: الأول لمخالفته معنى (يشمع إيل) العبرية، التي تفيد حدوث السمع لا طلبه. والثاني لأن الذي يستمع الله دعاءه فيستجيب، لا يقول: اللهم فاسمع! وإنما يقول: قد سمعت يا ألله!

وهذه هي آفة كل تفسير لاسم علم بغير لغة صاحبه.

أما إن أردت ترجمة (إسماعيل) إلى العربية ترجمة تصح بها العَلَمِيَّة، فالأقرب إلى الصواب أن تقول: (سَمِعَ اللهُ)، على التقرير، لا على الدعاء، كما يتسمى الناس الآن بـ (جَادَ اللهُ)، (جَادَ الحقُّ)، وأشباههما.

* * * *

ولا ينقضي القول في (إسماعيل) قبل حسم ذلك الإشكال الذي افتعله جمهرة من المفسرين[1] حول الشخص الذي كان به (البلاء المبين) في القرآن: إسماعيل أم إسحاق؟

تهيب هؤلاء المفسرون تكذيب التوراة في قولها: إن (الذبيح) كان إسحاق بالاسم، لا إسماعيل، فلم يروا بأسًا من متابعة التوراة على هذا القول، لا سيما والقرآن لا ينص على الذبيح بالاسم، ووازنوا بين تكذيب التوراة بغير صريح القرآن وبين رد أحاديث من مثل قوله ﷺ: «**أنا ابن الذبيحين!**» (إشارة إلى أبيه عبد الله بن عبد المطلب وجده الأكبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام)، فردوا تلك الأحاديث.

والراجح عندي أن هؤلاء المفسرين (سمعوا) من أحبار يهود أن التوراة تنص على إسحاق ولا تنص على إسماعيل، ولكنهم لم (يقرءوا) تفاصيل ذلك في سفر التكوين نفسه، على ما مر بك في سياق تفسيرنا لاسم إبراهيم عليه السلام. وإلا لخلصوا - كما خلصنا نحن - من تحليل كلام الكاتب نفسه في الإصحاحات الخامس عشر والسابع عشر والثاني والعشرين إلى أن البلاء المبين ما كان ليصح إلا بإسماعيل وحيد إبراهيم، قبل عام من مولد

(١) راجع تفسير القرطبي للآيات ١٠١ وما بعدها من سورة الصافات.

إسحاق، ولجزموا - كما جزمنا نحن - بأن (إسحاق) ههنا مقحمة على هذا السفر، مدسوسة من الكاتب أو الناسخ (ذي المصلحة)، وأن تكذيب التوراة في (إسحاق) ليس تكذيبًا لله عز وجل فيما أنزل من التوراة، وإنما هو تكذيب لهذا الكاتب أو الناسخ.

والذي ينبغي التنبيه إليه أن التوراة - شأنها شأن الأناجيل التي بين يديك - ليست كلها باعتراف الكتبة أنفسهم كلامًا من الله عز وجل على رسله وأنبيائه، يتحصن بحجية الشيء الموحى به، وإنما يتخللها الكثير - بل الأكثر - من كلام الكاتب والناسخ، يصح - حين يصح - كما تصح أحاديث الرواة، لا أكثر ولا أقل، لا يرد به حديث عن الصادق المصدوق ﷺ، ولا يتأول به قرآن.

والذي ينبغي التنبيه إليه أيضًا أن المسلم - المأمور بتصديق التوراة والإنجيل بمقتضى قوله عز وجل في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[1] - إنما هو مأمور بتصديق ما أنزل الله فيهما فحسب، الذي صدقه القرآن والحديث الصحيح، لا ما زاد فيهما الكاتب والناسخ.

ويترتب على هذا مباشرة أن مقولات سفر التكوين الذي بين يديك لا تُرد فحسب بصريح القرآن وصحيح الحديث، وإنما ترد أيضًا بالنقد التحليلي المباشر، على ما مر بك من القول في صحة (حساباته) أو من وصفه (جنة آدم) التي بعدن (شرقًا)، أو تفسيره معنى (بابل) بالبلبلة... إلخ. لو التزمت تصديق هذا الكاتب في كل مقولاته، فأوجبت على نفسك تصديقه في أن (البلاء المبين) كان بإسحاق لا بإسماعيل، لوجب عليك أيضًا تصديقه في شناعات لا تصح في (نص مقدس)، من مثل زنا ابنتي لوط بأبيهما على ما مر بك، أو من مثل انخلاع حُقِّ فخذ يعقوب (تكوين ٣٢/ ٢٦) وهو (يصارع) الله عز وجل، في محاولة بائسة لتفسير معنى شهرة (إسرائيل)، وتعليل تحريم بني إسرائيل أكل (عرق النسا) الذي على حق الفخذ.

أما أن القرآن لم ينص صراحة على أن (البلاء المبين) كان بإسماعيل، لا بإسحاق، فهذه

(١) سورة البقرة، الآية: ٤.

زلة لا يصح أن يقع فيها مفسر للقرآن جدير بهذا الاسم، يكفيك أن تتلو الآيات من ٩٩ إلى ١١٢ من سورة الصافات، كي تعلم أن إبراهيم عليه السلام بُشِّرَ غداة خروجه مهاجرًا إلى ربه بغلام حليم، وأن هذا الغلام نفسه بلغ معه السعي، فكان به (البلاء المبين)، وأن الله عز وجل عقب على اجتياز إبراهيم هذا الاختبار الفذ بأن بَشَّرَ إبراهيم بغلام آخر يولد له، هو إسحاق: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[(١)][(٢)]، فكان إسحاق بعض (جزاء المحسنين) الذي جازى به الله بر إبراهيم، ولم يكن هو بداهة الذي كان به البلاء المبين، وإنما كان البلاء المبين بإسماعيل.

وهذا وحده يصحح الأحاديث المروية عن أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، أيًّا ما قلت في إسناد تلك الأحاديث.

وقد نبه على هذا كله أو معظمه أجلاء المفسرين الذين قطعوا بأن الذبيح هو إسماعيل.

ونحن نضيف إلى هذا دليلًا آخر من القرآن، وردت (غلام حليم) مرة واحدة في القرآن (الصافات: ١٠١) وصف بها الله عز وجل الغلام الذي كان به البلاء المبين، لم يخص بها غيره من أبناء إبراهيم. ووردت (غلام عليم) في القرآن مرتين، يخص بها إسحاق بالنص: ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾[(٣)]، ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾[(٤)]، والمعني في الآيتين هو إسحاق بلا خلاف. أفلا تدلك هذه المغايرة بين (عليم) و (حليم) على أن البلاء المبين لم يكن بالغلام (العليم) (إسحاق)، وإنما كان بالآخر، الغلام (الحليم) الذي في سورة الصافات، فهو إذن (إسماعيل)؟

(١) سورة الصافات، الآية: ١١٢.

(٢) ربما أحرجت هذه الآية المفسرين الذين قالوا: إن الذبيح هو إسحاق، فتمحك بعضهم بتأويلها على أنها بشرى بالنبوة لإسحاق الذبيح. ولا يصح هذا من لغوي حاذق؛ لأن البشرى في الآية تتعدى بالباء، فهي واقعة بإسحاق لا بالنبوة. وإنما النبوة والصلاح في الآية وصفان للابن المبشر به.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٥٣.

(٤) سورة الذاريات، الآية: ٢٨.

كذلك وردت (صادق الوعد) مرة واحدة في القرآن، خص بها الله عز وجل إسماعيل وحده دون غيره من النبيين والمرسلين: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾[1]. ألا تجد في هذا إشارة بليغة إلى صدق إسماعيل وعده أباه بالصبر على الذبح إذعانًا لأمر الله حين شاوره إبراهيم في رؤياه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]، حتى (تله للجبين)، فأي صبر كان!

كان الذبيح إسماعيل، لا محل للقول بخلافه، ولا مجال للتردد فيه متابعة لقول أهل الكتاب.

وإذا كان الذبيح هو إسماعيل - إحقاقًا للحق لا غير - فليس معنى هذا أن إسحاق أدنى منزلة في سلم الأنبياء من إسماعيل، صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه، بل الكل في كرامة الأنبياء عند الله سواء، وهو أعلم ببلاء أنبيائه. حسبك قوله عز وجل في الأنبياء من ذرية إبراهيم، وفيهم إسماعيل وإسحاق: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[3].

* * * *

أما التفسير القرآني لاسم (إسماعيل)، وهو (يشمعيل) عبريًّا، ومعناه كما علمت (سمع الله) أو (سميع هو الله)، فأنت تجد هذا التفسير في قوله عز وجل على لسان إبراهيم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[4].

وتجده في قوله عز وجل على لسان إبراهيم أيضًا: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[5].

(١) سورة مريم، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

(٢٦) إسحاق

إسحاق (وترسم إسحق في المصحف)، هو الابن الثاني لنبي الله إبراهيم عليهما السلام، رُزِقَ به من زوجه سارة وقد ناهزت التسعين، عجوزًا عقيمًا قد أيأستها السنون، وإبراهيم يومئذ قد بلغ المائة، فكان إنجابهما إسحاق في تلك السن آية من آيات رحمة الله بإبراهيم وأهل بيت إبراهيم: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[١].

وإسحاق عليه السلام سَمَّتْهُ الملائكة، لم تسمه أمه، ولم يسمه أبوه - كما يقول سفر التكوين - بل سمت الملائكة أيضًا يعقوب بن إسحاق، ولم يولد بعد إسحاق. تجد هذا في قوله عز وجل: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[٢].

* * * *

وقد قالت الكثرة من مفسري القرآن[٣] بعجمة (إسحاق)، ولم يتصدوا لتفسيره، إلا من شذ فحسبه من العربية، يشتقه من الجذر العربي (سحق) بمعنى بعد أشد البعد، وليس هذا بشيء؛ لأنه يفسر الاسم بغير لغة صاحبه، فلا تلتفت إليه.

* * * *

(إسحاق) في القرآن هي تعريب (يِصْحَاق) في التوراة، وهي صيغة المضارعة في المفرد

(١) سورة هود، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٧١.

(٣) راجع تفسير القرطبي للآية ١٣٣ وما بعدها من سورة البقرة.

الغائب من الجذر العبري (صَحَقْ)، وقرينه في العربية الجذر العربي (ضَحِك)، (يصحاق) العبري إذن يعني (يضحك)، لا يراد منه الفعل، وإنما يراد منه الفاعل، ومن ثم فإن معنى (إسحاق) - وهو (يصحاق) عبريًا - الضاحك أو الضحوك. وقد سمى العرب بمعناه على المبالغة فقالوا: (الضحاك).

والتسمية بالفعل المضارع يراد منه اسم الفاعل، شديدة الشيوع في العبرية - كما مر بك في موضعه - رأيت هذا في (يشمعيل) (إسماعيل)، وتراه الآن في (يصحاق)، أي إسحاق. وستجده كثيرًا فيما يلي من أعلام التوراة.

على أن لهذا نظائر بقيت في العربية كما مر بك، تجدها في أمثال (يزيد)، وغيرها من أعلام الأشخاص والمواضع.

والأصل في هذا كما مر بك أن الفعل المضارع يفيد الحال كما يفيد الاستقبال، أي (يضحك) وسيظل، فهو (ضاحك) و (ضحوك).

* * * *

أما التفسير القرآني لهذا الاسم العلم، فأنت تجده في قوله عز وجل: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾[1]، أي: ضحكت سارة وهي قائمة تخدم ضيف إبراهيم من الملائكة؛ عجبًا وحياء وهى تسمع من الملائكة بشرى لإبراهيم بمولود يولد منها، وهى في تلك السن عجوز عقيم. وكأن ضحكها كان مناسبة يصاغ منها اسم المولود المبشر، فقيل لها: أضحكت؟ بشراك إذن (بالذي يضحك)، وهي (يصحاق)، اسم نبي الله إسحاق عليه السلام.

* * * *

وربما قلت: فلماذا جاءت (إسحاق) في القرآن بالسين، ولم تجئ على أصلها بالصاد (إصحاق)؟

(١) سورة هود، الآية: ٧١.

قال هذا بالفعل بعض المستشرقين، مماحكة، كدأبهم في معارضة القرآن.

ولكنك تندهش إذ تعلم أن (يصحاق) هذه تجيء في عبرية التوراة بالسين كما تجيء بالصاد، والصاد أغلب، وأن (سَحَقْ) و (صَحَقْ) في المعجم العبري صنوان. وفي اللغة العربية تتعاقب السين والصاد مثل (السراط) و (الصراط) وقد قرئ بهما.

ولعلك تدرك معي أن تتابع الصاد والحاء والقاف في (يصحاق) قعقعة تنبو عنها موسيقى القرآن، لذا فقد عرب القرآن (إسحاق) عن (يسحاق) ولم يعربها عن (يصحاق)؛ عالمًا أنه لم يُبْعِد؛ لوجود كلا الرسمين في عبرية التوراة.

لا يشاد القرآن أحد إلا غلبه القرآن، وسبحان العليم الخبير.

* * * *

(٢٧) يعقوب

يعقوب هو حفيد إبراهيم من ابنه إسحاق، عليهم جميعًا أزكى الصلاة وأتم التسليم.

وهي في التوراة (يَعَقوب) بفتح الياء والعين، والمد بالضم لا بالواو بعد القاف، كما في (يُوم) العربية العامية. عربها القرآن بخبن فتحة العين، وإشباع المد بالواو، فهي على وزن (يعسوب) - عظيم النحل[1] - في العربية.

أما (يعقوب) العبرية فهي - كما لعلك حدست - صيغة المضارعة للمفرد الغائب من الجذر العبري (عَقَب). وهو نفسه الجذر العربي (عقبَ) مبنى ومعنى، مضارع يراد منه اسم الفاعل كما مر بك. فمعنى (يعقوب) عبريًا (العاقب).

ومن دقيق التعريب في القرآن، إتيانه بـ(يعقوب) العبرية على زنة (يفعول) وهي بنية تنفرد بها العربية من دون أخواتها الساميات، تفيد المبالغة وتعظيم الشأن، كما ترى في (يعسوب) عظيم النحل، وكما ترى في (يعبوب)، أي النهر عظيم العباب، شديد المجرية، وغيرهما في العربية كثير.



كان يعقوب عليه السلام خير عقب لخير سلف. شابه أباه إسحاق عليه السلام في العلم، وشابه جده إبراهيم عليه السلام في الصبر على البلوى إيمانًا واحتسابًا. وصف القرآن إسحاق

---

(١) اليعسوب يعني (ملكة النحل)، ظنها العرب ذكرًا لضخامتها وسط دقاق النحل في الخلية. واليعسوب لغة يعني الكثير (العسب)، والعسب هو (ماء الفحل)، ويكنى به أيضًا عن النسل والولد.

بالعلم، كما مر بك من قوله عز رجل: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[1]، وقال عز وجل في يعقوب: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]. وقال إمام المتوكلين إبراهيم عليه السلام يَفْرِق بين الضلال والإيمان، يرد على الملائكة أن ظنوا به القنوط: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[3]، وقال مثلها يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[4].



ابتلى الله صبر يعقوب، كما ابتلى من قبل صبر جده إبراهيم. ابتلاه بخاله لابان (تكوين ٢٩/ ١٥-٢٩) الذي استأجره في أرضه وغنمه سبع سنين؛ ليزوجه من ابنته الصغرى راحيل أثيرة يعقوب. وإذا هو ليلة الزفاف يغشه فيدفع إليه بابنته الكبرى ليئة (واسمها مشتق من (اللأواء!) فيضطره إلى خدمته سبع سنين أخرى ليزوجه عليها أثيرته راحيل. ويصبر يعقوب؛ حتى يجمع بين الأختين[5]: ليئة وراحيل. فكان له من راحيل أحب بنيه: يوسف وبنيامين. ولكن هناءة يعقوب لا تدوم؛ لأن راحيل تجود بنفسها وهي تضع بنيامين، فيحتسبها يعقوب. ولكنه مبتلى في بنيه، مبتلى ببنيه: ينتزع منه أبناء (ليئة) أحب بنيه: يوسف بكر فقيدته راحيل، يلقون به في غيابة جب، ويغدون على أبيهم يستعذبون عذابه وهم يقصون عليه أن ما خشيه على يوسف منهم قد وقع: أتى الذئب على يوسف لحمًا وعظمًا فلم يبق إلا القميص. ويا لهول ما يسمع.

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٦٨.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٤) سورة يوسف، الآيتان: ٨٦، ٨٧.

(٥) هذا يذكرك بالاستثناء من تحريم الجمع بين الأختين في قوله عز وجل: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]، يدخل فيه ما كان من جمع يعقوب بين ليئة وراحيل.

ولكن العزيز الرحيم الذي سلّى يوسف في غيابة الجب بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] - يعني ستعيش يا يوسف حتى تنبئ إخوتك هؤلاء بخسيس ما فعلوه - يسلي بها أيضًا يعقوب، فيقول: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[2]، يستعين الله الصبر على فراق يوسف، ويصابر بها النفس أيضًا على خيالات ما يصفون من افتراس الذئب إياه.

كان فقد يوسف ذروة مصائب يعقوب، لا يصاب من بعده بمصيبة إلا وتنكأ وجيعته في يوسف، فيقول: يا أسفا على يوسف! يتسلى بالمصاب الأكبر عن المصاب الأصغر. قالها يعقوب وهو يسمع من بنيه هؤلاء فجيعته في حبه الثاني بنيامين، وقد احتبسه ذلك (العزيز) في مصر، يسترقه عبدًا في سرقة صواع الملك. ذهب الذئب بيوسف، بل كان الذئب إخوته. وضاع بنيامين. أضاعه هؤلاء أيضًا الذين راودوا عنه أباه، ليفرطوا فيه مثلما فرطوا من قبل في يوسف! فمن له بيوسف وأخيه! ويتمتم الشيخ الذي أبلته الأحزان والسنون وما بلي له صبر: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[3].

أفكان يعقوب يعلم - يقينًا - أن الذئب ما أكل يوسف، وإنما ووري عنه في غيابة مجهول لا يعلمه؟ لو أن الموت اختطف يوسف أمام عينيه، فاحتسبه عند الله كما احتسب أمه راحيل من قبل! إذن لشفاه اليأس من لواعج الأمل، ومن هواجس الليل والنهار. وبنوه هؤلاء، الذين فجعوه بيوسف ليخلو لهم وجه أبيهم، ها هم أولاء يغدون ويروحون أمامه، تنضح أعينهم بما فعلوه، فلا يخلو لهم منه إلا وجه كسيف، ولسان لا يفتأ يذكر يوسف: تُرى أين أنت الآن يا يوسف؟ أطعمت؟ أدفئت؟ أي ذئب آخر يترصدك؟

وتمضي السنون بيعقوب تزيد في أحزانه، ولكنها لا تنتقص من أمله في لقاء يوسف، وكأنما كانت فجيعته في بنيامين علامة من الله على قرب انتهاء عذابه، فيقول: ﴿عَسَى اللَّهُ

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٨.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٣.

أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾! قد صُرِف بصره عما حوله، لا يرى من بعد إلا يوسف وأخاه، إلى أن يأتيه البشير فيرتد بصيرًا، ويقول لمن أنكروا عليه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

نعم.. كان يعقوب طوال تلك السنين (يعلم). وهذا هو بلاؤه الأعظم.

* * * *

مر بك أن الملائكة هي التي سمت يعقوب، يوم سمت من قبل أباه إسحاق. ولكن سفر التكوين يقص عليك أن يعقوب ولد مع توأم له، هو (عيسو)، فخرج (عيسو) أولًا، ثم خرج يعقوب ويده قابضة بعقب عيسو، فدعي اسمه يعقوب (تكوين ٢٥/ ١٢-٢٦)، يريد تفسير معنى يعقوب، لا بأنه (العاقب) على أصل اللفظ في اللغة، وإنما بأنه (القابض على عقب أخيه) ليرتب على هذا نبوءته بافتراق بني إسحاق شعبين: شعب يقوى على شعب، وكبير يستعبد لصغير؛ كي تكون لأبناء يعقوب (أي بني إسرائيل) السيادة على كل من عداهم من أبناء إبراهيم المنحدرين من صلب ابنه إسحاق، ولا يكون لغيرهم البتة في (مواعيد) إبراهيم نصيب، تلك المواعيد التي فهموها على أنها عهد بتكثير نسل إبراهيم وإقطاعه (أرض غربته) - كل أرض كنعان - يعني كل فلسطين، ميراثًا له ولنسله.

ولكن الكاتب يفطن إلى أن تكثير نسل إبراهيم قمين (بتفتيت التركة) وتوزعها بين (جماهير أمم) فبدأ بإخراج إسماعيل ونسله من هذا (الوعد) ليحصره في إسحاق أبيهم.

وإذا إسحاق ينجب توأمين يتصارعان (الميراث): عيسو ويعقوب. ويعقوب أبوهم، فلا مفر إذن من إخراج (عيسو) بدوره من (التركة)؛ كي تخلص (الأرض) ليعقوب وبنيه. هنا يقص عليك الكاتب أن الله تراءى ليعقوب - كما تراءى من قبل لوالدته (رفقة) وهي حامل بتوأميها عيسو ويعقوب - ليحصر (مواعيد إبراهيم) في يعقوب (وهو إسرائيل) دون غيره من نسل إبراهيم. ولكن إشكالًا يثور أمام الكاتب: ها هو عيسو يخرج من بطن

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٦.

أمه الأول، يليه يعقوب. فعيسو إذن هو الأكبر، أي بكر إسحاق، والبكر عنده هو الوارث، (فلا تدري كيف فاته أن إسماعيل هو بكر إبراهيم بلا منازع، فلماذا أخرجه من التركة ونحلها إسحاق؟!). يتذكر هذا فينص على أن الله هو الذي حرم إسماعيل بقوله لإبراهيم: بإسحاق يدعى لك نسل! أي لا نسل لك يعتد به يجيء من إسماعيل، وإنما نسلك المعني هو نسلك عبر إسحاق. فماذا يقول في عيسو ويعقوب ابني إسحاق؟ افتعل قصة خروج يعقوب قابضًا بيده على عقب توأمه عيسو، رمزًا لسيادة يعقوب على عيسو. واشتق من هذا معنى اسم يعقوب، وعزز هذا المعنى بتلك الرؤى التي تراءى فيها الله ليعقوب ووالدته رفقة، ومنها قوله: (وكبير يستعبد لصغير)، أي أن عيسو البكر سَيُسْتَعْبَدُ لأخيه (الأصغر) يعقوب. وكأنما كان إسحاق النبي بمعزل عن تلك الرؤى، أو تلك الصفقة التي تمت من وراء ظهره بين يعقوب ووالدته رفقة على حساب عيسو، فإذا هو وقد قرب موته يستدعي إليه بكره عيسو ليعلن له انحصار التركة فيه ويمنحه بركته. وتعلم رفقة بذلك، وكأنها ليست أم عيسو ويعقوب كليهما، فتتحايل هي وابنها يعقوب على خداع أبيه إسحاق الذي كف بصره وضعفت حواسه لِتُنكَّرَ له يعقوب في ثياب عيسو، وينخدع نبي الله إسحاق فيجوز عليه هذا الغش (يكتبها الكاتب غير متورع ولا متأثم)، فَيُنْحِل (التركة) يعقوب ظانًّا أنه عيسو، ويمنح يعقوب بركته. وينسى الكاتب أن كل هذا الذي افتعله لا يغير من الأمر شيئًا؛ لأن إسحاق ما منح التركة والبركة إلا لبكره عيسو، ولم يمنحهما يعقوب وإن تنكر في ثياب أخيه، وينسى أن (الوصية) ليعقوب باطلة بطلانًا مطلقًا لدخول الغش والتدليس. وينسى أخيرًا أن نسبة الغش والخديعة لأنبياء الله كفر بواح يكبكب صاحبه في سواء جهنم. فما بالك بكاتب وحي تظن به العصمة والقداسة والتنزيه؟

أما نسبة الخطيئة والغش لنبي الله يعقوب، ونسبة الغفلة لنبي الله إسحاق، فهذا أمر لا يهتز له ضمير الكاتب، فقد مرن عليه قلمه يوم سجل في سفره أن نبي الله لوطًا زنت به ابنتاه وأنجبتا منه، وأما الجرأة على الله عز وجل فأنت لا تستعظم عليه شيئًا بعد قوله: إن الله عز وجل هبط يصارع يعقوب ليلة كاملة حتى الفجر، ولم يقدر الله على يعقوب فضرب

حق فخذه كي يطلقه يعقوب، ولكن يعقوب الذي انخلع حق فخذه يتأبى على الله فيقول: لا أطلقك حتى تباركني! فباركه الله. إلى آخر تلك المقذعات التي تأنف من قراءتها في أساطير آلهة الأولمب، فما بالك بقراءتها في أسفار توراة يقال: قد أوحى بها الله؟

ولكن الكاتب لا يفوت ذكاءه أن مشروعية تلك الوصية تحتاج إلى تصحيح يرفع عنها عيب الغش والتدليس، أي تحتاج إلى إقرار (لاحق) من إسحاق بأن التركة والبركة ليعقوب عينه، الذي غشه وخدعه، قد حُرِمهما عيسو. فيقص عليك أن عيسو وقد علم أن أخاه سلبه التركة والبركة (صرخ صرخة عظيمة ومُرَّةً جدًّا، وقال لأبيه: باركني أنا أيضًا يا أبي. فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك). قال عيسو لأبيه: (أما بقيت لي بركة؟ فأجاب إسحاق وقال لعيسو: إني قد جعلته سيدًا لك، ودفعت إليه جميع إخوته عبيدًا، وعضَّدته بحنطة وخمر. فماذا أصنع لك يا بني؟)، قال عيسو لأبيه: (ألك بركة واحدة فقط يا أبي؟ باركني أنا أيضًا يا أبي. ورفع عيسو صوته وبكى. فأجاب إسحاق أبوه وقال له: هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنُك، وبلا ندى السماء من فوق. وبسيفك تعيش. ولأخيك تُسْتَعْبَدُ)[1]. وكأنما هي لعنة من إسحاق لا بركة، صحح بها الكاتب الوصية ليعقوب، فقد أصر عليها إسحاق، واستسلم لها عيسو، وأخذها يعقوب بمكر - كما يقول الكاتب.

فعل الكاتب كل هذا ليحصر (مواعيد إبراهيم) في يعقوب دون غيره من نسل إبراهيم. ولكنك تعلم أن هذه (المواعيد) لو كانت من عند الله لصدقت، وهي لم تصدق بالمفهوم الذي ظنه كاتب سفر التكوين؛ لأن الذي ورث الأرض عن أبيه إسحاق كان عيسو (المطرود) من التركة، لا يعقوب الذي ارتحل ببنيه إلى مصر دون أن ينال نصيبًا من فلسطين مع عيسو. بل احتبس هو وبنوه في (ضيافة) ملوك مصر نحوًا من أربعمائة وثلاثين سنة - كما يقول سفر الخروج - يضاف إليها أربعون سنة في تيه سيناء. وعاد بنو إسرائيل (أي بنو يعقوب) إلى فلسطين بقيادة (فتى موسى) يشوع بن نون، يجاهدون أهلها (ومنهم (الأدوميون) الذين يعزونهم إلى عيسو بن إسحاق) في الحصول لأنفسهم عل رقعة من تلك الأرض - قدر

(١) راجع اقتباساتنا في هذا الموضع على سفر التكوين (الإصحاح ٢٧).

لها على طول تاريخهم، حتى في أزهى عصور مُلْكِهم - عصر داود وسليمان - أن تشمل (بعض) فلسطين، لا (كل) فلسطين. وهم لم يحصلوا على تلك الرقعة بمقتضى صك (مواعيد) يعقوب، وإنما حصلوا عليها حربًا، ينصرون ويخذلون؛ إن نصروا الله نصرهم، وإن أفسدوا دمر الله عليهم وبدد شملهم، كما قال عز وجل: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1]، حتى أجلوا عن فلسطين مرتين، دامت أخراهما نحوًا من ألفي سنة. فأين كانت (مواعيد) إبراهيم التي في سفر التكوين: (وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان، ملكًا أبديًا)[2]؟ فأي ملك هذا الذي كان؟

لم يتحقق هذا الوعد كما ترى لا لإبراهيم نفسه، أول موعود به، ولا لنسله من حفيده يعقوب كما أراد الكاتب - بل قل كما تمنى الكاتب - الذي كتب هذا السفر لا على عصر موسى أو عصر إبراهيم، وإنما كتبه في أعقاب عصر داود وسليمان.

ولأن الله عز وجل إذا وعد أوفى، لا يخلف وعده رسله. ولأن هذا الوعد لم يتحقق، لا منقوصًا ولا كاملًا، لا على كل فلسطين (كل أرض كنعان)، ولا على طول الدهر (ملكًا أبديًا) كما تنبأ الكاتب. أما والأمر كذلك فلا مناص لك من أن تقطع جازمًا - آمنًا مطمئنًا - بأن هذا الوعد ليس من الله عز وجل، وإنما هو من (أمانيِّ) الكاتب، دسه على وحي الله المنزل في صحف إبراهيم وموسى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[3].

ركب الكاتب الشديد الوعر، وأجهد نفسه كما ترى في حصر التركة وتعيين الوارث. ولم يصح له هذا ولا ذاك، وإنما وَرِثَ إبراهيمَ (الذين اتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا)، ورثوا الملة وورثوا الأرض جميعًا.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧.

(٢) تكوين ١٧/٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٩.

كان ميراث إبراهيم عليه السلام هو الملة والإمامة، أما الأرض فهي لله عز وجل يورثها من يشاء من عباده.

على أن مواعيد الله عز وجل مشروطة بشرائطها، من نكث فإنما ينكث على نفسه، ولا يظلم ربك أحدًا.

قالها عز وجل لإبراهيم وهو ينصبه إمامًا للناس: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1]. تمنى إبراهيم على ربه أن يجعل أيضًا من ذريته خلفاء أئمة، فأقر الله عينه بها واستثنى الذين ظلموا منهم.

وأسوأ الظالمي أنفسهم الذين ينكثون عهد الله وميثاقه، أولئك ليس لهم عند الله عهد.

أراد سفر التكوين أن يكون معنى (يعقوب) هو الذي يتعقب أخاه التوأم (عيسو)، فيسلبه التركة والبركة، وأراد الله عز وجل بيعقوب - الذي سمته الملائكة كما مر بك - أن يكون العاقب من جده إبراهيم، صلوات الله وسلامه على إبراهيم وآله.

* * * *

أما مفسرو القرآن[2] فقد أجمعوا على عجمته، ولم يفسروه. إلا من نقل عن أهل الكتاب رواية خروج يعقوب آخذًا بعقب أخيه عيسو، ففسروه بما فسره به سفر التكوين على معنى (الاعتقاب)، لا (العقبى). ورد على هذا آخرون فقالوا: إنه لا يصح؛ لأن (يعقوب) أعجمي والاعتقاب والتعقب عربيان، ولم يفطنوا إلى أن (عقب) العبري يكافئ (عقب) العربي مبنى ومعنى. ولم يفت هؤلاء المفسرين أن (اليعقوب) عربيًا هي صفة الذكر من طير الحجل، وقالوا أيضًا: إن هذا لا يصح؛ لأن (يعقوب) أعجمي غير مصروف في كل من القرآن، ولو كان عربيًا على صفة هذا الطائر لصرف.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ١٣٣ من سورة البقرة.

ولم ينقل عن هؤلاء المفسرين قولهم - كما نقول نحن -: إن يعقوب سمته الملائكة يوم سمت أباه إسحاق في قوله عز وجل: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[1].

* * * *

أما التفسير القرآني - مقصدنا الأول من هذا الكتاب الذي نكتب - فقد فسر القرآن معنى يعقوب بأداتين:

فسره بالتعريف، لأن يعقوب عربيًا تعني العاقب على المبالغة وتعظيم الشأن كما مر بك. ولم يصرفها القرآن، كما لم يصرف ميكال وإدريس رغم مجيئها على وزن عربي لا يحتمل إلا الصرف، نصًّا من القرآن على أصلها الأعجمي.

وفسره أيضًا بالمرادف القريب من معناه في قوله عز وجل: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[2]، والوراء من العاقب قريب. والوراء أيضًا كما يقول معجمك العربي ولد الولد، نصًّا على ميلاد يعقوب من إسحاق حفيدًا مباشرًا لجده إبراهيم.

* * * *

(١) سورة هود، الآية: ٧١.

(٢) سورة هود، الآية: ٧١.

(٢٨) إسرائيل

(إسرائيل) في القرآن هي تعريب (يِسْرائيل) في التوراة. وهي شهرة شهر بها يعقوب عليه السلام. وقد تلقب بها من بعدُ بنو يعقوب، فقيل: (بنو إسرائيل).

ومن زلات سفر التكوين الذي بين يديك - وتابعه عليها كل علماء التوراة من بعد - تفسيره اسم (إسرائيل) بأنه (مصارع الله): ظهر له الله في صورة رجل تصارع معه الليل بطوله حتى مطلع الفجر، ولم يقدر على يعقوب، ولما رأى أنه لا يقدر عليه (بصورته الإنسية) استعان بسطوة ألوهيته فلمس حُقَّ فخذ يعقوب، فينخلع حق فخذه، ويقول له: أطلقني فقد طلع الفجر. ولكن يعقوب لا يطلقه، بل يظل آخذًا بتلابيبه ويقول له: لا أطلقك حتى تباركني. فيقول له ما اسمك؟ فيقول يعقوب. ويقول الرجل (الإله): لا يدعى اسمك بعدُ يعقوب، بل (إسرائيل)، ثم يفسر له معنى هذا الاسم (يِسْرا + إيل) بقوله: لأنك صارعت الله والناس وقدرت. ويفهم يعقوب أن الذي صارعه هو الله، فيسمى هذا المكان (فِنُوئيل) (يعني (وجه الله)) قائلًا: لأني رأيت الله وجهًا لوجه ونُجِّيَتْ نفسي[1]. أي أن يعقوب لم يكلمه الله فحسب كما كلم موسى، ولم ير الله وجهًا لوجه فحسب، تلك التي طلبها موسى فأدبه الله، ولكن يعقوب لاحم الله ملاحمة، وصارعه حتى كاد يصرعه، لولا أن لمس الله حق فخذ يعقوب فانخلع. وهو لا يتركك تظن أن الذي ظهر ليعقوب فصارعه مَلَكٌ من ملائكة الله، على عادة كتبة التوراة في التعبير عن الملائكة بلفظ الآلهة كما مر بك، فَضَلَّ بها كثيرون، ولكنه ينص نصًّا لا إبهام فيه على أن الذي صارع يعقوب وكاد يصرعه يعقوب، هو الله نفسه، فيقول على لسان يعقوب: رأيت الله وجهًا لوجه ونَجِيَتْ نفسي.

---

(١) راجع تكوين ٣٢/ ٢٤ - ٣٠.

ناهيك بتفسير علماء التوراة هذا الاسم بأنه على المزجية من (يِسْرا + إيل) وتعني كما تقول معاجمهم (الذي يصارع الله).

ترى هل بقي في نفسك شيء من توقير هذا الكاتب الذي لا يرجو لله وقارًا، الذي لو سمعه جده يعقوب لرجمه وبرئ منه، ولو صور لك للطمت وجهه ونزعت منه هذا القلم الذي يَلِغُ به في عرض رسل الله وأنبيائه، ثم يتجاسر على مقام الله عز وجل فيهبطه إلى الأرض يُعافِرُ[1] يعقوب ويواثبه، فلا يقدر عليه إلا أن يستعلن ليعقوب بألوهيته فينخذل يعقوب بعد أن خُلِع حُقُّ فخذه؟

ما ظنك بدين هذا الكاتب الذي يظن بالله ظن اليونان بآلهة الأولمب؟

بل ما ظنك بهذا السفر الذي يتصدر أسفار (الكتاب المقدس) وتنسب مادته إلى كليم الله موسى عليه السلام؟

أكل هذا العبث واللغو والولوغ ليفسر لك معنى (يِسْرائيل) الذي اشتبه عليه فظنه الذي (يُسَاوِرُ) الله أو الذي (ساوره) الله؟[2]

أما كان أكرم له أن يتوقف عن تفسير (يِسْرائيل) كما توقف من قبل عن تفسير (تارح)؟

عليك أن تنزع هذه الفقرات وأمثالها في أسفار التوراة، ثم تغيبها حيث لا يقع عليها بصر أحد، وإلا فأنت مسئول عن ضلال من ضلوا بها، مسئول عن كفران من نزه الله عنها فأنكر الوحي على التوراة جملة وتفصيلًا، ما صح منها وما لم يصح.

(١) عافره/ يعافره العربي يعني صارعه محاولاً إلقاءه في (العَفَر)، وهي نفسها صيغة الفعل العبري يِئَبِق، وهي من (أبق) العبري بمعنى الغبار. استخدم الكاتب في الأصل العبراني مادة (نِئَبق) هذه في وصف عراك الله يعقوب ومعاركة يعقوب إياه، وكان يجمل بالمترجم العربي ردها إلى مكافئها العربي (عافره) بدلًا من (صارعه).

(٢) سار عليه، يسور، سورًا، يعني وثب عليه، وساوره يعني واثبه وغالبه، وهي مقلوب سرا/ يِسرا العبري الداخل مضارعها في تركيب (يِسْرائيل) على ما تقول معاجم تلك اللغة.

ولكن هذا (الكلام) عند المؤمنين به من أهل الملتين (كلام مقدس) بحرفه قبل معناه، يُفَوِّضون العلم بحقيقته لله عز وجل، فيمرون عليه سراعًا، قبل أن يستزلهم الشيطان فيدركوا مأتاه ومعناه. وربما خيل إليك أن غلاة المؤمنين يظنون أن الله عز وجل يمتحنهم بهذا الكلام ليقولوا حين يتلى عليهم: حاشا لله! سبحان الله!

هذا النمط من الإيمان جدير باحترامك. ولكنك لا تحترم إصرار من أصروا على أن الله جل جلاله هبط إلى الأرض يعافر يعقوب بالفعل ويواثبه، أو الذين يفسرون (يسرائيل) بأنها تعني (مساور الله)، أي: الذي يساور الله أو ساوره الله.

* * * *

وقد تأثَّم من هذا بالفعل مترجمو سفر التكوين من أصله العبراني إلى غير العبرية من اللغات، فحاولوا قدر الاستطاعة - وفي نطاق محدود - تخفيف وقع الصدمة على قارئ هذه الفقرات من سفر التكوين بالتصرف في الترجمة، وإخراجها في صورة مقبولة بعض الشيء، ولو خالفت النص المكتوب في الأصل العبراني.

والذي ينبغي التنبيه إليه أن ترجمات (الكتاب المقدس) ليست حِلًّا مستباحًا لكل من هب ودب، ولو كان من فطاحل التراجمة، وإنما هي ترجمات لا تصدر إلا معتمدة من رؤساء الملتين، ممهورة بخاتم السلطة الدينية العليا فيهما، نصًّا يتساوى في الحجية مع الأصل العبراني المنقول عنه، تقرأ به الصلوات في المعابد والكنائس، ويتعبد بقراءته أتباع الملة. فهو نص مقدس، ملزم للسلطة الدينية التي اعتمدته، ملزم لأتباعها.

والذي أقصده من هذا أن رؤساء الملتين أنفسهم لم يتحرجوا من الاستدراك على هذا الكاتب، بل حاولوا - عن طريق الترجمة إلى اللغة التي لا يقرأ أتباع الملة إلا بها - تلوين النص الذي يروي في سفر التكوين مصارعة الله يعقوب تلوينًا يُهَوِّنُ على القارئ بتلك اللغة من فظاعة هذا الذي خطه الكاتب بيده، تاركين للقارئ في التوراة بالعبرية مباشرة

استخلاص المعنى الذي يهديه إليه إيمانه. وهي محاولة تحمدها لهم بلا شك، وإن كنت تتمنى - كما تمنيت - لو مضوا في الشوط إلى نهايته ولم يكتفوا بالتخفيف، بل قطعوا بأن هذا النص الذي في سفر التكوين - وأشباهه - نص دخيل، تبرأ منه توراة موسى عليه السلام، على نحو ما فعلت الكنيسة المسيحية الأولى بأسفار وصمتها بأنها (منحولة).

لكن هذه المحاولات اقتصرت على ترجمة عبارة (كِي سَرِيتَ عِم إلوهيم وعم أناشيم وتُخال)[1][2]، وهي العبارة التي تعنينا في مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب؛ لأنها هي التي تفسر (على لسان الله عز وجل في سفر التكوين) معنى (يسرائيل) عند علماء التوراة.

من هذه المحاولات ثلاث:

(١) ترجمة إنجليزية تجدها في: *The British & Foreign Bible Society, OLD TESTAMENT, HEBREW & ENGLISH*، تترجم عن العبرية عبارة (كي سَرِيتَ عِمْ إلوهيم وعم أناشيم وتُخال) إلى الإنجليزية هكذا... *for, as a prince hast thou power with God and with men, and hast prevailed (Ge. 32, 28)* ومعناها بالعربية: لأنك مثل أمير، ذو قوة مع الله والناس وَسُدْت). وهي ترجمة (سَرَا) العبري من السراوة والشرف، لا من المساواة والمغالبة كما يقول المعجم العبري، وكأنه الجذر العبري (سَرَرْ)، مكافئ (سرا / يسرو) العربي. ولا يصح هذا عبريًّا، لو صح لكان الاسم (يَسُورإيل) أو (يِسْرُرْ إيل). وعلى فرض جوازه، فهل يصح عن الله عز وجل أن يسمي عبدًا من عباده بأنه (الذي يسرو مع الله) أو (الذي هو سَرِيٌّ مع الله)؟ لو قيل (سَرِيٌّ عند الله) فربما جاز وفيه بُعْد. إنها محاولة على كل حال. ولكن الحرف (مع) يمنعك.

(٢) ترجمة عربية تجدها في ترجمة الفاتيكان، المطبعة الكاثوليكية (بيروت، فبراير ١٩٥١)، تقول في ترجمة تلك العبارة نفسها: (لأنك إذ رؤست عند الله فعلى

---

(١) تكوين ٣٢/ ٢٨.

(٢) معنى العبارة على أصلها العبري هو: (لأنك ساورت الله والناس وقدرت).

الناس أيضًا تستظهر)، تأخذ أيضًا في (سرا) العبري بمعنى السراوة والشرف، فتجعل (يسرائيل) رئيسًا عند الله، وترتب على رئاسته عند الله استظهاره على الناس. وهذه هي (أبرع) المحاولات الثلاث في قلب النص العبري رأسًا على عقب، ترفع الحرف (مع) وتضع في موضعه (عند)، فيستقيم الكلام؛ لأنك لا تقبل رئيسًا (مع) الله، وتستجيز رئيسًا (عند) الله. وهي أيضًا تُغَيِّرُ في تركيب العبارة، فتجعل رئاسة يعقوب على الناس مترتبة على (رئاسته عند الله). وهذا وإن خالف النص العبراني في مبناه ومعناه، مقبول سائغ عند القارئ العربي الذي لا يرجع إلى التوراة في نصها العبري.

(٣) ترجمة عربية أيضًا هي ترجمة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية (دار الكتاب المقدس بمصر، طبعة العيد المئوي ١٨٨٣-١٩٨٣)، وهي تترجم العبارة (كي سَرِيت عِمْ إلوهيم وعِمْ أناشيم وتُخال)[1] كما يلي: (لأنك جاهدت مع الله والناس وقَدَرْت). وهي ترجمة جميلة يرتاح لها القارئ العربي الذي لا يقرأ في التوراة بالعبرية مباشرة. وهي على جمالها مطابقة لتركيب العبارة في نصها العبري، أمينة على النص الأصلي بكل حروفه، ولكنها تخالف المعجم العبري بتفسيرها الجذر (سرا / يسرا) بمعنى (جاهد) (وليس هو كذلك في المعجم العبري (هَمِّلُون هِحَداش لَتَناخ) مرجعنا في هذا الكتاب، وإنما معناه في ذلك المعجم هو (نِتْبَق)، أي (عافره) وصارعه لا غير) ليكون معنى (يسرائيل) شهرة يعقوب هو (المجاهد مع الله)، ولا يصح هذا عبريًا. لو صح لكان الاسم (يِسرا - عِمْ - إيل) أي (يَسْرو - مع - الله)؛ لأن إسقاط الحرف (عِمْ) (أي مع) يجعل معنى هذا الاسم (الذي يجاهد الله)، ولا يصح لمخلوق أن (يجاهد الله)، ولأن (جاهده) و(صارعه) و(ساوره) واحد، ولكنها محاولة تحمد للمترجم، يعززها اعتماد السلطة الدينية المختصة، تصحح بها فكر كاتب سفر التكوين فيما ينبو عنه أدب الحديث عن الله عز وجل.

(١) تكوين ٣٢/٢٨.

ولا عيب في هذه المحاولات إلا الإبقاء على فقرات مصارعة الله يعقوب التي تمهد لاسم (يِسْرائيل) وترتب التسمية عليها. وربما اقترحتَ على شراح التوراة تفسير هذه المصارعة لا على الحقيقة ولا على المجاز، بل تفسيرها بأنها حلم تراءى ليعقوب. ولكن هذا مردود عليه بأن أنبياء الله الممنوعين من رؤيته عز وجل جهرة في هذه الدنيا، ممنوعون أيضًا من رؤيته عز وجل في (أضغاث أحلام). لا خلاف على هذا في التوراة والإنجيل والقرآن[1].

ولم يَدُرْ بخَلَد أحد ممن فسروا (سرا / يسرا) بمعنى السراوة والشرف، أن يجعل اسم الله (إيل العبري) هو الفاعل في هذا التركيب المزجي (يسرا + إيل) (كما هو في يشمع + إيل)، فيكون المعنى (سَرِيٌّ هو الله) أو (تعالى الله)، يصيح بها يعقوب وقد انخلع حُقُّ فَخِذِهِ في مصارعة الله إياه، فيشهر بها.

* * * *

والذي يعنينا من هذا هو تفاوت فهم علماء التوراة لمعنى الجذر العبري سرا / يسرا، هل هو من سرا / يسرو أم من سار / يسور العربيين؟ إن قلت بالأول فقد خالفت المعجم العبري، وإن قلت بالثاني فقد وقعت في المحظور: قد واثب الله يعقوب وساوره! وهو نفس المعنى الذي أراده كاتب سفر التكوين بترتيبه التسمية على المصارعة، واستخدامه في وصف معاركة الله يعقوب مادة الفعل العبري (نِئْبَق) أي عافره وصارعه، ولم تختلف فيها الترجمات فقالت كلها: (وصارعه..)، ثم فسر التسمية بقوله: (كِي سَرِيتَ..)، يعنى بها (كِي نِئْبَقْتَ...).

ولأننا لا نصدق الكاتب في (مصارعة الله يعقوب)، فنحن من باب أولى نرفض كل تفسير - سواء للكاتب أو لغيره - يفسر اسم (يسرائيل) ترتيبًا عليها.

* * * *

(١) تقرأ في التوراة: حقًّا إنك إله محجوب! وتقرأ في الإنجيل: الآب لم يره أحد! وتقرأ في القرآن: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. سبحانه جل وعلا!

ترسم (يِسْرائيل) في الخط العبري بغير ألف، أي ترسم (يِسْرَئيل).

ومن أعلام التوراة[1] - غير يعقوب عليه السلام - أعلام تشبه هذا الرسم، هي (أَسَرْئِيل) (أخبار الأيام الأول ٤/ ١٦) و(أَسْرِيئِيل) (عدد ٢٦/ ٣١). وأيضًا (يِسَرْئيلَه) (أخبار الأيام ٢٥/ ١٤) وترسم أيضًا (يِشْرئيله)[2]. والهاء في هذين الأخيرين هاء خاملة للوقف فقط على لام مفتوحة. فـ (إيل) و (إيله) واحد في المعنى.

أما المقطع الأول في هذه الأعلام الثلاثة (أَسَرْ، يِسَرْ) فعلماء التوراة[3] يأخذونه من الجذر العبري (أَسَر) (ويكتب أصلًا في الخط العبري بالحرف (سامخ)، وهي السين الأصلية في الخط العبري التي لا تنقلب إلى شين في العربية)، وإن كان في هذه الأعلام الثلاثة - كما في كنية يعقوب - مرسومًا بالسين المنقلبة عن الشين. ولهذا نظائر في العبرية يعرفها المتخصصون، لا نثقل بها عليك.

أما (أَسَر) العبري فمعناه من (أَسَرَ) العربي جِدُّ قريب، وهو أيضًا يكافئ (أَصَرَ) العربي، ومنه (الإصر) أي العهد والميثاق، وأَصَرَه يعني عقده وشده، وأيضًا لواه وعطفه، وحبسه. فمعنى (يِسْرَائيله) وأمثالِها هو (إسار الله) أو (إصر الله)، و (إسار) عبريًّا يفيد النذر بالامتناع، فيقولون: أَسَرْ - إِسَارْ - عَلْ نَفْشُو، يعنون: نذر على نفسه..، أو آلى على نفسه..، فالمعنى هو: نذر على نفسه نذرًا فقيده الله به. أي الذي أوجب على نفسه فأوجب الله عليه.

أفتكون (يِسَرْئيله) هي نفسها شهرة يعقوب (يِسْرَئيل)، خالفوا بينهما في النطق توقيرًا لأبيهم يعقوب؟ والمعنى واحد: إصر الله!

قد علمت من سفر التكوين (تكوين ٣٢/ ٣١) أن يعقوب خرج من مصارعة الله يخمع على فخذه (لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النَّسا الذي على حُقِّ الفخذ إلى اليوم؛ لأنه

(١) راجع المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، وهو من مراجع هذا الكتاب.

(٢) راجع (يسرئيله) و (يشرئيله) في (هَمِّلُّون هِحَدَاش لَتَناخ)، ص ٦٧٦.

(٣) المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، المرجع المذكور.

(أي الله) ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النَّسا). لم لا تكون هذه هي مناسبة التسمية: حرم يعقوب على نفسه (عرق النسا) فقيده الله بما حرم على نفسه؟

احتاج الكاتب إلى تعليل تحريم يعقوب أكل عرق النسا، فهداه خياله إلى أن الله عز وجل ضرب يعقوب على (عرق النسا). ولكنها أعضلت عليه: أأدبه بها الله؟ ولم؟ كان عليه أن يخترع ليعقوب ذنبًا يعاقبه به الله، ويعقوب عنده منزه عن ذلك. هنا تفتق خياله عن مصارعة بين الله وبين يعقوب، وتمادى به الخيال فظن أن الله لم يقدر على يعقوب، فضربه على حق فخذه كي يطلقه. ولم ينس أن يسجل بها مجدًا ليعقوب، ومناسبة للتسمية، ففسر بها (يِسْرَئيل). وتابعه على هذا وذاك دون تمحيص علماء التوراة.

ترى لماذا حرم إسرائيل على نفسه أكل عرق النسا؟

أكان الدم الكذب الذي جاء به أبناء ليئة على قميص يوسف - أو كان المزق الذي افتعلوه في القميص - على موضع الحق من الفخذ، فعافت نفس يعقوب أكل ما نهش الذئب من يوسف؟

الله عز وجل بغيبه أعلم.

* * * *

أما مفسرو القرآن[1] فقد قال بعضهم نقلاً عن عبد الله بن عباس: إن معنى إسرائيل هو (عبد الله)؛ لأن (إسر) بالعبرية يعني (عبد)، وليس هذا بصحيح في العبرية، وإنما هو التفسير بالتخمين كما مر بك. وقال السهيلي (سمي إسرائيل؛ لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى، فسمي إسرائيل، أي أسرى إلى الله ونحو هذا. وليس هذا أيضًا بصحيح؛ لأنه تفسير لشق الاسم بغير لغة صاحبه، فضلا عن أنه لم يؤثر عن يعقوب أنه هاجر ذات ليلة إلى الله تعالى. وقال آخرون: إسْر يعني صفوة، فهو صفوة الله، وليس لهذا أصل لا في

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٣٩من سورة البقرة.

العبرية ولا في العربية. وقال المهدوي أيضًا: إن إسر من الشد والتوثيق، أي أن إسرائيل تعني الذي شَدَّده الله وأتقن خلقه. وليس هذا كله بشيء فلا تلتفت إليه.

* * * *

قال عز وجل في كتابه المصدق المهيمن: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾[1].

وهذا من دقيق التفسير في القرآن: حرم إسرائيل على نفسه تفسر الشق الأول من الاسم فحسب (وهي بالعبرية أَسَر - إسار - عَلْ - نَفْشُو)، ولا تفسر الشق الثاني من هذا الاسم المزجي (يسرا + إيل). ولكن القرآن لا يتركك تظن أن إسرائيل معناها الذي حرم على نفسه، بل يريدك أن تفهم أن الله حرم عليه الذي حرمه هو على نفسه، فيقول: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، التي تفهم منها مباشرة أن الله (إيل العبري) حرم على بني إسرائيل الذي حرم إسرائيل على نفسه. بهذه الآية كان التفسير القرآني لاسم إسرائيل بمعنى إِصْر الله، وبها اهتدينا نحن إلى تفسير معناه، فالحمد لله الذي هدانا إلى هذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله.

إسرائيل (يسرائيل) يعني إصر الله، يفسرها القرآن بقوله عز وجل: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾.

ودع عنك أمثال (مصارع الله)، أو (أمير مع الله). هذا تجديف في حق الله عز وجل، وولوغ في عرض أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

* * * *

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٣.

(٢٩) يوسف

يوسُف في القرآن هو تعريب يوسِف في التوراة، لا فرق بينهما إلا في حركة السين: تضم في القرآن، وتكسر في التوراة.

ومن دقيق التعريب في القرآن، إتيانه بالسين في يوسف، مثلها مثل النون في يونس، على الضم - وهي أعلى القراءات - كي لا يشتبها بالإيساف والمؤاسفة (في يوسف)، أو بالإيناس والمؤانسة (في يونس)، إن هو أتى بهما على وزن المضارعة المبني للمعلوم (يُفْعِل) الذي تقرأ به يوسِف في التوراة، أو على وزن المضارعة المبني للمجهول (يُفْعَل) الذي تقرأ به يونَس في الأناجيل اليونانية. ولم يفطن إلى هذا المفسرون.

* * * *

وردت يوسف في القرآن سبعًا وعشرين مرة: واحدة في الأنعام (الأنعام: ٨٤)، وأخرى في غافر (غافر: ٣٤)، والخمس والعشرون الباقيات في سورة كاملة سميت باسمه عليه السلام تقص قصته، أفردت له وحده، لا تتحدث إلا عنه، صدر لها القرآن بقوله عز وجل: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[1]، فهي كما قال عز وجل.

* * * *

والذي يقرأ قصة يوسف في القرآن، ثم يقرؤها من بعد في سفر التكوين، أول أسفار التوراة، يندهش: أهذه هي تلك؟

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.

وأنا لا أقصد هنا سحر البيان وقوة السرد، فليس للقرآن في هذين ند. وإنما الذي أعنيه هو أن القرآن عَلِمَ من قصة يوسف ما لم تعلمه التوراة التي بين يديك، وأن الذي أثبته القرآن وأغفله سفر التكوين محاور في قصة يوسف لا يصح تسلسل الأحداث إلا بها، وأن الذي أفاض فيه كتبة التوراة - حين أفاضوا - حشو لا غناء فيه، يفسد عليك جو القصة، ويقطع عليك تتابع الأحداث، إن أسقطته فأنت الكاسب.

* * * *

بدأ كاتب سفر التكوين الحديث عن يوسف في الإصحاح السابع والثلاثين، واسترسل فيه إلى أن أتم الإصحاح الخمسين، يختتم به السفر. ولكنه - فجأة - وفي ذروة المأساة، وقد التقط السيارة يوسف وباعوه في مصر إلى فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط، يُنهي الإصحاح السابع والثلاثين ليخصص الإصحاح الثامن والثلاثين بأكلمه لحديث يتنزه عنه أدب الوحي، يقص عليك فيه ما كان من أمر أخي يوسف، يهوذا، الذي تزوج بعد إلقاء يوسف في الجب فأنجب، وشب أبناؤه فزوجهم أيضًا، وكيف أن ابنه الأكبر عِير مات قبل أن ينجب من ثامار فزوجها من ابنه الثاني أونان كي يقيم نسلًا لأخيه، وأن أونان هذا لم يرد أن يقيم نسلًا لأخيه؛ فكان إذا دخل على امرأته ثامار أفسد على الأرض[1]، فأماته الرب أيضًا. ثم يسترسل فيقص عليك أن يهوذا ترصدته على الطريق ثامار أرملة ابنيه هذين، تنكرت ليزني بها حموها كبغي، فيزنى بها يهوذا ويعطيها أجرتها وهو لا يعلم أنها ثامار (وكأنها لو لم تكن أرملة ابنيه لجاز!)، فحملت منه ثامار وولدت له توأمين. ثم ينبئك بأن أحد هذين التوأمين أخرج يده أولًا، فوضعت عليها القابلة قِرْمزًا، علامة على أنه البكر، ولكنه سحب يده ليخرج التوأم الثاني أولا[2]، كي يستنبط الكاتب من هذا معنى اسميهما:

(١) وهو العَزْل. ومن إفساد أونان على الأرض نحت الأوربيون لفظة *Onanism*، فارجع إليها في معاجمهم.

(٢) الذي تعلمه، ويعلمه طب النساء والولادة، بل وتعلمه هذه القابلة المفترى عليها، أن المولود ينزل برأسه أولًا فإذا خرجت يداه فقد خرج معظمه. أما إن ولد معكوسًا ونزل برجليه فلا تخرج يداه حتى يخرج كله. فكيف يسحب يده إلى بطن أمه كي ينزل الثاني أولًا؟ لا عليك. إنها أفانين الكاتب.

فارص (يعني المقتحم)؛ لأنه اقتحم على أخيه ليخرج أولًا، وزارَح (يعني الوضيء) الذي عليه القِرْمِز، يختتم بها الإصحاح المقحم ليبدأ الإصحاح التاسع والثلاثين وكأنما تنبه إلى أنه يقص قصة يوسف، لا قصة يهوذا مع أرملة ابنيه ثامار، فيقول وكأنه يصل ما انقطع: وأما يوسف...

ما هذا الحشو؟ بل ما هذا الدنس الذي يقصه عليك؟ وما علاقته بقصة يوسف وبتسلسل الأحداث في قصة يوسف؟ أيترك يوسف في بيت خصي فرعون رئيس الشرط ويقبع هو عند يهوذا بن يعقوب ما يزيد على ربع قرن في أرض كنعان ينتظر ولادة فارص و زارح من زنى أمهما بحميها يهوذا، ليحملهما يعقوب فيمن حمل من أبنائه وحفدته إلى يوسف في مصر؟ بل ويحمل معه ابني فارص الذي شب وتزوج هو الآخر في أرض كنعان فأنجب حَصرون وحامول (تكوين ٤٦/ ١٢)؟ وكيف اتسع الوقت ليهوذا في أرض كنعان بعد إلقاء يوسف في الجب كي ينجب يهوذا ابنيه عير وأونان، ليموتا، فيستولد من أرملتهما ثامار ابنيه فارص وزارح، بل ويشب فارص فينجب من بعد حَصرون وحامول، أجيالًا ثلاثة فيما لا يزيد على سبع وعشرين سنة[1]، على ما تستخلص من كلام الكاتب؟ ولكن الكاتب ضعيف الذاكرة، ضعيف في علم الحساب، أو يظن بك الضعف في هذا وذاك على ما مر بك. ثم ما بال هذا الزاني بأرملة ابنيه حتى يقطع من أجله الحديث عن يوسف كي يشهد الكاتب زناه؟ أتراه يظنها محمدة ليهوذا؟ ربما. فهو يقول فيه قرب ختام السفر على لسان يعقوب: ((يهوذا! إياك يحمد إخوتك. يدك على قفا أعدائك، يسجد لك بنو أبيك...)) إلخ[2]. والذي سجد له بنو أبيه هو يوسف لا يهوذا كما تعلم وكما خط الكاتب بيده. ولكن الكاتب يكتب على عصر داود وسليمان، وداود من سبط يهوذا وهو لا يعني بهذه المحامد شخص يهوذا، وإنما يخص بها سبطه الذي منه بيت داود الملك.

(١) هي المدة من إلقاء يوسف في الجب إلى ارتحال يعقوب ببنيه إلى مصر، قال: إن يوسف كان ابن ١٧ سنة حين ألقي به في الجب، وكان ابن ٣٠ سنة يوم استخلصه الملك لنفسه، وأضف أنت السبع السنوات الخضر والسبع العجاف.

(٢) تكوين ٤٩/ ٨.

يطنب الكاتب أيضًا في تفصيل الحُظوة التي كانت ليوسف عند فرعون[1]، حتى لتظن أن الملك نزل ليوسف عن ملكه ولم يستبق إلا الكرسي (تكوين ٤١/ ٤٠). ولا ينسى أن يسجل ليوسف أنه استذل لفرعون شعب مصر، فاستولى بمخزونه من القمح على كل فضتهم ومواشيهم وأرضهم، حتى تمنوا عليه لقاء الميرة أن يصيروا عبيدًا لفرعون (تكوين ٤٧/ ٣٥)، بينما هو يغدق بغير حساب على أبيه وإخوته الفضة والمواشي والأرض. وليس هذا من الصدق التاريخي في شيء، لا لأنك شهدت وعاينت، وإنما لأنه من المحال العقلي. لو صح هذا لثار المصريون بهذا العفريت الذي خرج من القمقم فزجوا به من جديد في غيابة جب، ولذبحوا الأنفس السبعين الذين دخل بهم مصر يعقوب وبنوه، قبل أن يُذبِّح فرعون موسى أبناءهم بعد نحو أربعمائة سنة. بل هو افتراء على يوسف الصديق صلوات الله عليه، الذي أهانه إخوته فأكرمه الله على أيدي ملك مصر وشعب مصر. يوسف الذي وعد فأوفى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]. قد أحسن يوسف ولم يُسِئ.

وليس هذا أيضًا من القصص الفني في شيء؛ لأن هذا الانقلاب في شخصية البطل يفجؤك، لا تتوقعه منه، ولا تمهد له الأحداث، بل هي أماني يهودي في ملك مصر لو ملكه الله – أبعده الله – إنه سليل أولئك الذين سلبوا ذهب المصريين عشية خروجهم من مصر، سرقة واحتيالًا: طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابًا. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين فأعاروهم. فسلبوا المصريين (خروج ١٢/ ٣٥-٣٦)، حسبوا هذا نعمة من الرب، رزقًا ساقه الله إليهم، ولكنه عز وجل لا يأمر بالسرقة والاحتيال،

(١) يقول علماء المصريات: إن اسم فرعون لم يصبح دالاً بذاته على شخص الملك إلا على عصر الأسرة التاسعة عشرة، بحيث تستطيع أن تقول: جاء فرعون وذهب فرعون، وتعني شخص الملك، وهذا يقارب عصر رمسيس الثاني فرعون موسى على ما نرجح نحن. والقرآن – على خلاف سفر التكوين – يخص بها فرعون موسى وحده. فأي إعجاز وأي علم!

(٢) سورة يوسف، الآيات: ٥٤ – ٥٦.

فحاسبهم بها القرآن في قوله المعجز على لسانهم في فتنة السامري: ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾[1].

أما التمكين الذي مكن الله ليوسف في مصر، فهو قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾[2]، وهي عبارة جامعة تغني عن كل قول: زويت الأرض ليوسف، حبيس الجب نزيل السجن، فصارت له مصر كلها مَغْداه ومَرَاحه يتبوأ منها حيث يشاء.

والذي يجب أن تعلمه أن الأرض في هذه الآية وفي غيرها من مثلها في سورة يوسف - على ما يأتي إن شاء الله في موضعه - هي ترجمة من القرآن المعجز لمعنى اسم مصر، لا عند العبرانيين (مِصْرايم)، وإنما عند أهلها المصريين بلغتهم هم: تاوي. تمادى بالمصريين العجب والفخر فظنوا أن لا أرض غيرها من بعدها. ولم يعرف هذا أحد، إلا بعد قرابة ثلاثة عشر قرنًا من نزول القرآن، ليس قبل أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، يوم افتكت طلاسم اللغة المصرية القديمة، فباحت بأسرارها.

فأي إعجاز، وأي علم!

****

هذا الكاتب الذي أطنب فيما لا غناء فيه، أغفل محاور في قصة يوسف لا تصح القصة فنيًّا إلا بها. يتضح لك هذا من مراجعة قصة يوسف التي في سفر التكوين على قصة يوسف في القرآن.

قال القرآن إن رؤيا يوسف كانت سرًّا بينه وبين أبيه، وإن يعقوب فهم الرؤيا على وجهها فقال ليوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[3]. فهم يعقوب أن النعمة التي أعد الله

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٦.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٦.

ليوسف ستجر نعمة على آل يعقوب، وقد كان.

وقد يفسر لك يقين يعقوب طوال القصة بأن الذئب ما أكل يوسف، بل سيعيش يوسف حتى يتم الله على يديه تلك النعمة. وهذا شأن النبي الواثق بمواعيد الله. قال يعقوب لما أتوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

أما يعقوب الذي في سفر التكوين فقد انتهر يوسف لمَّا أسمعه رؤياه، واستنكر أن يسجد ليوسف إخوته وأمه وأبوه، فتفهم قول الكاتب: إن يعقوب لم يشك ولو للحظة في افتراس الذئب يوسف، وقالوا: وجدنا هذا. حقق أقميصُ ابنك هو أم لا؟ فتحققه وقال: قميص ابني. وحش رديء أكله. افتُرِسَ يوسف افتراسًا. (تكوين ٣٧/ ٣٢-٣٣٩). وتفهم أيضًا قول الكاتب: إن يعقوب حين جاء بنوه يبشرونه بيوسف حيًّا، جمد قلبه لأنه لم يصدقهم، فرددوا عليه كلام يوسف الذي كلمهم به، وأبصر العجلات التي أرسلها يوسف لتحمله، فقال: يوسف ابني حي بعد؟ أذهب وأراه قبل أن أموت[2]. وهذا على الضد من قول يعقوب لما أن جاءه البشير فارتد بصيرًا: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

بهذا خلت قصة يوسف في سفر التكوين من محنة يعقوب بيوسف، وهي لب البلاء في المأساة. بلاء الانتظار، وبلاء الإنكار: انتظار العائد الذي تمضي السنون ولا يعود، وإنكار المنكرين عليه طول صبره وطول عذابه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[4].

أما المأساة في شقها الآخر، أعني بلاءات يوسف نفسه: كيد إخوته، وكيد امرأة العزيز، فالسرد في سفر التكوين مختلف.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٨.
(٢) تكوين ٤٥/ ٢٨.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٦.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٨٥.

لا يقول الكاتب (إصحاح ٣٧): إن يعقوب كان يخشى على يوسف من إخوته، ويخشى على إخوة يوسف أن ينزغ الشيطان بينهم وبينه فيكيدوا له كيدًا: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[1]. ولا يقول الكاتب: إن إخوة يوسف دبروا لمكيدتهم على الوجه الذي تمت به، ثم راودوا عنه أباه، فتوجس منهم يعقوب، فأوحت لهم هواجسه باختراع أكل الذئب المظلوم إياه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾[2]. وإنما الذي يقصه الكاتب أن يعقوب هو الذي أرسل يوسف وراء إخوته الذين يرعون غنم أبيهم عند شكيم لينظر سلامتهم وسلامة الغنم ويأتيه بأخبارهم. فلما رأوه مقبلًا عليهم تذكروا أحلامه فنبتت لديهم فكرة التخلص منه، بنتَ اللحظة، دون سابق تفكير وتدبير. وهو هنا يريد أن يخفف عنهم جريمة الفتك بيوسف مع سبق الإصرار والترصد: يقتلونه أولًا ثم يطرحون جثته في إحدى الآبار ويقولون: وحش رديء أكله. والكاتب يذهب بعيدًا في محاولة التخفيف من إثم إخوة يوسف، فيقول: إن كبيرهم رأوبين احتال عليهم كي لا يقتلوه، فاقترح فكرة طرحه في الجب حيًّا، كي يغافلهم من بعدُ فيستنقذه من الجب ويذهب به إلى أبيه. ولكنهم - ولا يقول لك الكاتب أين كان رأوبين - فكروا في إخراجه من الجب ليحققوا ربحًا من وراء صفقة التخلص منه: رأوا قافلة من الإسماعيليين مقبلة فأخرجوا هم يوسف من الجب وباعوه للإسماعيليين بعشرين من الفضة. ويرجع رأوبين - ولا تدري أين كان - فلا يجد يوسف في الجب فيمزق ثيابه، ويجلسون معًا يتشاورون كيف يجيئون على قميص يوسف بدم كذب. ترى ماذا بقي من إثم إخوة يوسف عند الكاتب؟ لم يقتلوه ولم يتركوه ليموت في غيابة جب جوعًا أو رعبًا، وإنما باعوه فقط إلى إسماعيليين يتجرون فيه عبدًا. عالمين أن القافلة متجهة إلى مصر (تكوين ٣٧/ ٢٥)، لا يخالجهم شك في أن يوسف حي لم يمت، بل ويعلمون أن مصر مكانه الذي اقتيد إليه. وهذا هو السرد المتهافت الذي يهدم بعضه بعضًا؛ لأنك تعلم

(١) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٢) سورة يوسف، الآيات: ١١-١٣.

من الكاتب أن إخوة يوسف حين جاءوا مصر يمتارون لأهليهم لم يفكروا في البحث عن أخيهم الذي باعوه، بل لم يفكروا في الاستعانة بسلطان العزيز - يوسف الذي لم يعرفوه - في البحث عن يوسف في مصر، وقد بالغ هذا العزيز في إكرامهم - كما يقول الكاتب - فآكلهم وشاربهم وأغدق عليهم، ولو كانوا صادقين في ندمهم كما يقول الكاتب - رأوبين على الأقل - لفعلوه. بل تفهم من الكاتب أن إخوة يوسف سلموا بينهم وبين أنفسهم بأن يوسف قد مات، وأنهم مطالبون بدمه. قالوها حين اشترط عليهم العزيز ليميرهم مرة أخرى أن يأتوه بأخ من أبيهم، وقال بعضهم لبعض: حقًّا إننا مذنبون إلى أخينا (يوسف) الذي رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع. لذلك جاءت علينا هذه الضيقة. فأجابهم رأوبين قائلًا: ((ألم أكلمكم قائلًا: لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا. فهو ذا دمه يُطلب))[1]. ولا يصح هذا إلا إذا كانوا تعمدوا إلقاء يوسف في الجب، ولم يخرجوه ليبيعوه إلى الإسماعيليين، لا يعلمون ما كان من أمره: أهلك في الجب، أم التقطه بعض السيارة (وهي رواية القرآن)[2]؟ بل استقر لديهم أن يوسف هلك على أيدي إخوته، كما قال رأوبين: هو ذا دمه يطلب.

أما محنة يوسف بمراودة امرأة العزيز إياه، فهي باهتة شاحبة على قلم الكاتب، وهي محنة يوسف الكبرى، ضرب بها يوسف المثل بأحد السبعة الذين يظلهم الله عز وجل بظله يوم لا ظل إلّا ظله، كما قال الصادق المصدوق ﷺ: **«ورجل تدعوه إلى نفسها امرأة ذات حسب وجمال، فيقول: إني أخاف الله»**.

قال الكاتب[3]: إن امرأة العزيز لم تغلق الأبواب، بل دخل يوسف البيت ذات مرة ولم يكن أحد بالبيت، فأمسكته بثوبه قائلة: اضجع معي، فترك ثوبه في يدها وهرب إلى الخارج. فنادت أهل بيتها (لا تدري أين كانوا حين فاجأها يوسف)، وروت لهم أنه أرادها على نفسها

(١) تكوين ٤٣/ ٢١-٢٢.

(٢) الذي في القرآن (يوسف: ١٦-٢٠) أن إخوة يوسف تركوه في غيابة الجب وجاءوا أباهم عشاء يبكون، يقصون أن الذئب أكل يوسف، لم ينتظروا مجيء السيارة، بل جاء السيارة بعد رحيلهم، فكانوا هم الذين التقطوه غنيمة، لم يدفعوا فيها فلسًا لأحد؛ لأنه لم يكن ثمة أحد.

(٣) تكوين ٣٩/ ١١-٢٠.

فصرخت، ولما صرخت ترك ثوبه بجانبها وهرب. وجاء سيده فرددت عليه ما روت لأهل بيتها وقالت: دخل إلى العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني، فلما رفعت صوتي ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى الخارج. فصدقها الزوج المخدوع، وحمي غضبه على يوسف فزج به في السجن؛ لأن الزوج كما تعلم كان خصي فرعون رئيس الشرط. ويمضي الكاتب فيقول[1]: إن الرب كان مع يوسف فجعل له نعمة في عيني رئيس بيت السجن، فدفع إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن، وكأنه جعل منه نائبه، لا ينظر شيئًا البتة مما في يد يوسف؛ لأن الرب كان معه، ومهما صنع كان الرب ينجحه.

هذا هو كل ما عني به الكاتب من فتنة امرأة العزيز، مر عليه سريعًا ولم يعد إليه قط فيما بقي من قصة يوسف في أحد عشر إصحاحًا بقيت لديه من قصة يوسف (الإصحاحات الأربعين إلى الخمسين). كان كل ما يعنيه أن يجد ليوسف علة يدخل بها يوسف السجن ليلتقي فيه برئيس خبازي فرعون ورئيس سُقاته، يُعبر لهما رؤياهما، فيذكره رئيس السقاة عند الملك حين أعضلت على الملك رؤياه، فيستدعي إليه يوسف، وتكون بها الحظوة له والنعمة لآل يعقوب.

هذا الكاتب لا يعرف قيمة المادة التي بين يديه، ولا تعنيه براءة يوسف، ولا يعنيه أيضًا أن يقنعك: كيف صدق العزيز امرأته ولم يحقق التهمة وهو رئيس الشرط؟ ما قيمة دليل ثوب يوسف في يد امرأة العزيز، ويوسف قد هرب إلى الخارج؟ كيف سمع أهل البيت نداءها ولم يكن أحد بالبيت؟ وكيف سمعوا نداءها ولم يسمعوا صراخها؟ ولماذا لم يدافع يوسف عن نفسه؟ أتراه كان مدنفًا في حبها فأراد أن يبوء هو بذنبها فلا يثلم شرفَ المرأة التي أحب؟ فما الذي عصمه من الاستجابة لمراودتها إياه؟ وكيف يكتفي العزيز رئيس الشرط وهو في حُمُوِّ غضبه بسجن يوسف ولم يقتل هذا العبد العبراني الذي أكرم مثواه فثلم هو عرضه؟ وكيف سكت رئيس الشرط على رئيس بيت السجن الذي أكرم يوسف فجعل كل ما في السجن في يد يوسف؟ أسئلة لا تجد لها جوابًا إلّا في القرآن.

(١) تكوين ٣٩/ ٢١-٢٣.

بل غلقت امرأة العزيز الأبواب وقالت للذي هو في بيتها: هيت لك! قال: معاذ الله! فألحت عليه حتى همت به وهم بها، لولا أن رأى برهان ربه. فاستبقا الباب، وكانت هي وراءه، فقدَّت قميصه من دبر، وإذا زوجها رئيس الشرط بالباب، وشهد شاهد من أهلها. فلما رأى زوجها على مرأى من أهلها أن قميص يوسف قدَّ من دبر، تيقنوا جميعًا من براءة يوسف وكذب المرأة. فماذا يفعل الزوج رئيس الشرط بهذا الرجل الأمين الذي حفظ عرضه في غيبته، وما كان أيسر عليه أن يغتنم افتتان امرأته به وينتهز غفلته، بل ما كان أحراه أن يفعل وضراوة الشباب تساوره، وسحر الخلوة يدير رأسه، والداعية سيدته، ذات الشباب والجمال، وتغليقها الأبواب وقولها: هلم إلي، هيت لك؟ علام يعاقب يوسف، بل قل بماذا يكافئه؟ قال: يوسف! أعرض عن هذا، لا ذنب لك. وأنت استغفري لذنبك، أنت هي الخاطئة. ولكن الفضيحة تشيع، والمرأة لا ترعوي، قد شغفها فتاها حبًّا لا تملك أن تدفعه. وتغدو القصة حديث النسوة في المدينة، فتدعوهن إليها لتشهدهن يوسف كي يعذرنها في حبه. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1]. وتثمل امرأة العزيز بما سمعت، فتستعلن بحبها، وتعترف بما كان، وتصر على ما تريد من يوسف: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[2]، ويستفيض الأمر حتى يصك آذان رئيس الشرط. ويسمعه أيضًا يوسف، ويا لمحنة يوسف بهذه الفتنة الطاغية الآثمة، التي تحاصر خطاه في بيتها. أتراه كان يخشى أن يضعف، مثلما كاد يضعف يوم غلقت الأبواب وقالت: هيت لك، فكاد يهم بها لولا أن رأى برهان ربه؟ نعم. ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[3]. واستجاب له ربه فربط على قلبه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[4]. ولكن المرأة لا تكف،

(١) تنصب بشرًا هنا على نزع الخافض، وهو الباء المؤكدة للنفي، فالأصل ما هذا ببشر! باتة قاطعة، والقاعدة في المجرور بحرف أنك إن نزعت حرف الجر منه نصب. وهذا يغنيك عن تعللات علماء النحو في هذه الآية – ومنهم أئمة – الذين أجهدوا أنفسهم وأجهدوا تلاميذهم في جمع الشواهد على أن من العرب من يجعل لـ (ما) حكم (ليس).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٢.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٣٤.

وحديث النسوة في المدينة لا ينقطع. هنا - وهنا فقط - لا يرى رئيس الشرط بدًّا من سجن يوسف، ليحول بين زوجته وبينه، علها تنقطع ألسنة النسوة، وينقطع أمل زوجته في يوسف. ولكنه يعلم كما يعلم الكل براءة يوسف فلا يتجاوز بسجنه حد العزل أو السجن الوقائي، فيوصي رئيس بيت السجن بإحسان معاملته، وكأنه قال له كما قال لامرأته هذه يوم دخل عليها بيوسف غلامًا في يده: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1].

ولكن يوسف لا يرضى إلّا بالبراءة الكاملة، حاسمة قاطعة، يوم قرر الملك أن يخرجه من السجن ليستخلصه لنفسه، فيصر يوسف على ألا يبرح السجن حتى يسمع الملك شهادة النسوة اللاتي قطعن أيديهن، اللاتي سمعن من امرأة العزيز اعترافها على نفسها بما صنعت، فيضطرنَّها إلى الاعتراف، قالت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[2]، أراد يوسف البراءة القاطعة من فم التي ادعت عليه، تستعلن بها على الملأ في مجلس الملك الذي يريد أن يجعله على خزائن الأرض، فيتسلم الأمانة طاهر الذيل عفيف الإزار، وهو الحفيظ الأمين. وأرادها أيضًا لنفسه، تكرمة لطول مجاهدته النفس الاصطبار على الفتنة، وقد علم أن ألسنة الناس يلذ لها الولوغ في الأعراض بالشبهة، ويمضها التعفف والسكوت تفويضًا لعلام الغيوب. وأرادها أخيرًا - بل قل أرادها أولًا - إكرامًا لهذا الشيخ رئيس الشرط الذي أكرم مثواه فرباه وكان له كأب، أن تتمزق نفسه بين الشك واليقين - والشك على النفس أغلب - فيقول يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[3]. ولا ينسى يوسف أن يؤدب بها نفسه على الملأ، سائلًا الله عز وجل المغفرة مما حاك في الصدر يوم همت به وهم بها، فيقول: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4][5].

(١) راجع في هذا كله الآيات ٢١-٣٥ من سورة يوسف.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥١. (٣) سورة يوسف، الآية: ٥٢.

(٤) لا عليك من تفاسير ترى أن القائل في الآيتين: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، هو امرأة العزيز، قد خانت زوجها بمراودتها يوسف، ولم يخنه فيها يوسف. هذا ضعيف، يتعلق بعصمة الأنبياء من وساوس النفس، وليس بلازم، لقوله ﷺ في قرين السوء يلازم النفس وقد سئل: حتى أنت يا رسول الله! قال: «نعم. حتى أنا. ولكن الله أعانني عليه». وهي نفسها مقالة يوسف.

(٥) راجع في هذا كله الآيات ٥٠-٥٣ من سورة يوسف.

هذا هو يوسف الصديق صلوات الله عليه، سليل إبراهيم وإسحاق ويعقوب. إن طلبت دليلًا فوق هذا على نبوته فما أنصفت.

فماذا تجد من هذا في سفر التكوين؟ هذا مما لا يعلمه الكاتب، ولو علمه لما اهتم له وكيف تعنيه براءة يوسف، وهو يقطع الحديث عنه إصحاحًا كاملًا ليسجل على أخيه يهوذا زناه بثامار أرملة ابنيه (عير) و(أونان)؟ لا يدرك الكاتب أهمية براءة يوسف لأنه لا يدرك أهمية هذه النقطة المحورية في قصة يوسف، التي يرتب القرآن عليها، لا على تفسير الحلم، قول الملك: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[1].

كان كل هم الكاتب أن يطير بيوسف من السجن فيضعه أمام الملك، يفسر له الحلم ويقبض الجائزة: ((فأرسل فرعون ودعا يوسف. فأسرعوا به من السجن. فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون))[2]. وما كانت جائزة الذي يفسر الأحلام عند الملوك إلا أن ينفحوه نفحات من الذهب أو الفضة، ويمضي المفسر من حيث أتى، لا يجعلونه على خزائن الأرض، ولا يكون لديهم المكين الأمين، ولا يضعون خاتم فرعون في يده كما يقول الكاتب (تكوين ٤١/ ٤٢).

****

للقرآن أيضًا في قصة يوسف لمحات هي قمة في الفن، يدركها المتخصص الذواقة، لا نعارض بها ما كتبه الكاتب، فهذا مما يقصر عنه باع البشر، وإن ظننت أنهم كتبة وحي.

من ذلك - ولا أطيل عليك، فقد أطلت بالفعل، وعذري أنني أستمتع بما أكتب وأرجو أيضًا أن يمتعك - لمحتان:

الأولى دور قميص يوسف في قصة يوسف: القميص الذي جاءوا عليه بدم كذب يريدون إيهام يعقوب بأن الذئب أكل يوسف، فيستدل منه يعقوب على براءة الذئب من دم يوسف. والقميص الذي قدته امرأة العزيز من دبر، فيستدل منه زوجها على كذب المرأة وبراءة

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٤.

(٢) تكوين ٤١/ ١٤.

يوسف. والقميص الذي ألقاه البشير على وجه يعقوب فيرتد بصيرًا، وجد فيه يعقوب ريح يوسف منذ أن فصلت العير من مصر: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]. فكم من غمة ارتفعت بهذا القميص الناطق بالحق!

اللمحة الثانية هي دور الرؤيا فيما صار إليه يوسف. وهي أيضًا ثلاث رؤى: رؤيا يوسف التي بدأت بها القصة في القرآن ففسرها له أبوه، وقد علم أن الله يجتبيه بها، فيعلمه من تأويل الأحاديث. ويزداد حرص يعقوب على يوسف، فيكون من أمر إخوته معه الذي تعلم، ورؤيا صاحبي السجن التي فسرها يوسف فمهدت له عند الملك، ورؤيا الملك التي أعضلت عليه وفسرها يوسف، فخرج بها من ضيق السجن إلى سعة الملك. كان تأويل الأحاديث هو السبيل إلى النعمة التي أعدها الله لهذا النبي الكريم ليمكن له في الأرض، وليقيمه على خزائن الأرض (والأرض هنا يعني مصر كما قد علمت). قالها القرآن من قبل، ويوسف بعد غلام في بيت مولاه رئيس الشرط: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2]، وفيه تقديم وتأخير، أي نعلمه من تأويل الأحاديث لنمكن له في الأرض. وقالها أيضًا يوسف يختتم بها القرآن قصته: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[3]، تجد نفس التقديم والتأخير، أي قد علمتني من تأويل الأحاديث، فآتيتني من الملك.

أما العبرة كلها من قصة يوسف التي فاتت الكاتب - وأنى له وهو يبحث عن الفضة

(١) سورة يوسف، الآيات: ٩٤ - ٩٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

والمواشي والأرض - فقد صاغها القرآن في عبارة واحدة على لسان يوسف حين استعلن لهم: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

وأما دور هذا الطريد في تاريخ بني إسرائيل، الذي نبذه إخوته فأطعمهم وآواهم، فهو الجامع بني أبيه في مصر، لولاه ما كانت رسالة موسى وهارون.

ترى ماذا كان من دور يوسف النبي في مصر، تلك الدعوة التي بدأها بين جدران السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2]؟ أيدعو بها يوسف بين جدران السجن، ولا يدعو بها في بلاط الملك وقد أعزه الله؟ لا تقرأ من هذا شيئًا في سفر التكوين، ولكنك تقرؤه في القرآن، يصيح بها مؤمن آل فرعون تقريعًا لمن كذبوا موسى وهارون: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾[3]. هذا نص على أن يوسف دعا بدعوته هذه الملك وملأه، وأن الدعوة نفذت إلى قلوبهم، فما كان الملك ليجعله على خزائن الأرض لمجرد أنه مفسر يجيد تأويل الأحاديث. ولكن الدعوة لم تصمد لنفوذ الكهنة، فبقيت حبيسة صدر من آمن، وماتت بموت يوسف، إلا ظلال في الذاكرة يختلط فيها الشك باليقين عاشت إلى عصر موسى وهارون.

ولكن الذي يعنينا في هذا الكتاب الذي نكتب، هو الدور التاريخي ليوسف عليه السلام في بني إسرائيل، الذي مهد لبني يعقوب في مصر فدخلوها آمنين: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[4]: إنه الذي آوى. وبها فسر القرآن هذا الاسم العلم كما سترى.

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٠.
(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٣٩، ٤٠.
(٣) سورة غافر، الآية ٣٤.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٩٩.

يشتق علماء التوراة اسم يوسف من الجذر العبري يَسَفُ على المضارعة التي يراد منها اسم الفاعل. والمعنى هو يزيد، لأن يسف العبري، المتحور عن ضفا العربي، يجيء بمعنى زاد ونما.

وهم كما مر بك يرتبون هذا التفسير على قول والدته حين وضعته: ((ودعت اسمه يوسف قائلة: يزيدني الرب ابنًا آخر))(1).

والذي يجب أن تعلمه، أن اسم يوسف يجيء بين أعلام التوراة غير مسبوق، لم يَتَسَمَّ به أحد قبله، وإن ذاع من بعد وانتشر. فهو إذن اسم موضوع لشخصه هو، على النبوءة والتفاؤل، تمنت بها راحيل على الله أن يزيدها بـ(يزيد) ابنًا آخر، وقد استجاب الله دعاءها فأنجبت من بعد يوسف مولودها الثاني الذي ماتت وهي تضعه، بنيامين، المعني بقوله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(2).

أراد كاتب سفر التكوين هذا المعنى فأورده على لسان راحيل، وتابعه من بعد علماء العبرية وعلماء التوراة. والذي لم يلتفت إليه هؤلاء وأولئك، والتفت إليه القرآن، هو دلالة اسم يوسف على دور يوسف في تاريخ بني إسرائيل: إنه يوسف الذي آوى، يوسف الآوي المضيف، ألهمته راحيل وهي تضع يوسف، وتصدى الكاتب كدأبه لتفسيره في سفر التكوين، فاشتبه عليه، كما اشتبه عليه من قبل بابل وإسرائيل.

* * * *

في العبرية أيضًا الجذر أَسَفْ، يجيء في المضارعة على يوسِف غير مهموز(3)، بنفس نطق اسم يُوسِف في التوراة، وفي كتابته أيضًا وجوه، أحدها الذي يرسم في الخط العبري بنفس أحرف كتابة اسم يوسِف في التوراة.

(1) تكوين ٣٠/ ٢٤.

(2) سورة يوسف، الآية: ٦٩.

(3) آسف العبري هو أحد أفعال خمسة في العبرية فصيحها تسهيل الهمزة في المضارع، منها على سبيل المثال، وهو أشهرها، الفعل أمر العبري يعني قال، ومضارعه يُومِر غير مهموز وجوبًا.

ويجيء الجذر (أَسَفْ) في العبرية بمعنى الجمع واللم والضم والإيواء والضيافة. ومنه في العبرية المعاصرة (أسِيفا كْلالِيت)، يعني الجمعية العامة. ويصلح هذا الجذر أيضًا لمعنى نزع؛ لأنك حين تنزع شيئًا ما فأنت تسحبه وكأنك تضمه إليك.

إن اشتققت اسم يوسف من هذا الجذر العبري (أَسَفْ)، فالمعنى أنه الجامع بني يعقوب في مصر، الذي استضاف وآوى.

والذي يستوقف النظر في عبارة سفر التكوين على لسان راحيل التي تصدَّر بها لتسمية يوسف، استخدام راحيل هذا الجذر العبري (أَسَفْ) نفسه في قولها حين مَنَّ الله عليها بيوسف بعد إذ امتنع عليها الولد من قبل وسبقتها أختها وضَرَّتُها ليئة: أسف إِلوهيم إِتْ حِرْپَتي! وتِقْرا إِتِ شْمو يوسِف[1] التي تجدها في الترجمة العربية هكذا: ((قد نزع الله عاري! ودعت اسمه يوسف)). أي بيوسف نزع الله خَرْبَةَ العقم عني! (والخربة التي تحورت عنها (حِرْپا) العبرية يعني العيب والفضيحة).

وتستدل أنت من هذا على أن راحيل نفسها وهي تصدر للتسمية، لا تشتق يوسف من يَسَفْ العبري بمعنى يزيد وإنما تشتقه من أَسَفَ العبري بمعنى جمع وضم، أي لملم، وهو المعنى الرئيسي لهذا الجذر العبري أسف. ولكن الترجمة العربية (نزع) تُعَمِّي عليك - دون قصد بالطبع - هذا المعنى.

ولأن الآوي المضيف هو التفسير القرآني لمعنى اسم يوسف عليه السلام، فنحن لا نحيد عنه إلى غيره مع الاعتذار الواجب لعلماء التوراة الذين لو اطلعوا على ما نقوله الآن - من حيث دلالة الاسم على المسمى - لما ارتضوا بهذا التفسير بديلًا.

* * * *

أما مفسرو القرآن[2] فالكثرة منهم على عجمة اسم يوسف، إلا من شذ فاشتقه من العربية

(١) تكوين ٣٠/ ٢٤.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ٤ من سورة يوسف.

فقال: إن الأسف في اللغة (يعني العربية) هو الحزن، والأسيف يعني العبد، وقد اجتمعا في يوسف. وليس هذا بشيء كما مر بك؛ لأنه يفسر الاسم بغير لغة صاحبه، فلا تلتفت إليه.

على أن يوسف لم يسمه الذي اشتراه من مصر، حتى يقول: (العبد) بالعربية أو العبرية أو المصرية، كما أن أحدًا لا يسمي ابنه يوم مولده: المحزون الأسيف.

هذا هو التفسير بالتخمين، فلا شأن لك به أيًا كان القائل والناقل.



قال عز وجل في كتابه المصدق المهيمن، يفسر به اسم يوسف: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[1]. وقال عز وجل من قبل: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾[2].

يوسف في هاتين الآيتين يعني الذي استضاف وآوى، فهو الآوي المضيف وهو علم يلخص أبلغ تلخيص دور يوسف عليه السلام في تاريخ بني إسرائيل.

وسبحان العليم الخبير.

كان يوسف عليه السلام - كما كان من قبل أبواه يعقوب وإسحاق - من أنبياء القدوة، لا من أنبياء الدعوة.

وإنما كانت الدعوة بموسى وهارون.



(١) سورة يوسف، الآية: ٩٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٦٩.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * * *

من إصدارات دار الميمان

التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي

تأليف

ناصر محمدي محمد جاد

قدم له فضيلة الأستاذ الدكتور

محمد السيد الجليند

أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

من إصدارات دار الميمان

إتحاف المرتقي

بتراجم شيوخ البيهقي

تأليف

محمود بن عبد الفتاح النحال

قدم له

فضيلة الشيخ مصطفى العدوي

إشراف ومراجعة وضبط وتدقيق

الفريق العلمي لمشروع موسوعة جامع السنة

من إصدارات دار الميمان

سلسلة تقريب التاريخ الإسلامي (١)

ريحانة النبي ﷺ

الحسين بن علي رضي الله عنهما

كيف خرج؟ ولماذا خرج؟ ومن قتله؟
وأين دفن؟ والموقف من ذلك

تأليف
د. حامد محمد الخليفة

من إصدارات دار الميمان

اختصار علوم الحديث

للحافظ

أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي

(المتوفى سنة ٧٧٤هـ)

حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

الدكتور ماهر ياسين الفحل

من إصدارات دار الميمان

النكت على كتابي ابن الصلاح والعراقي

للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

(٧٧٣-٨٥٢هـ)

حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

الدكتور ماهر ياسين الفحل

من إصدارات دار الميمان

مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النبي ﷺ

لإمام الأئمة
أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري
(٢٢٣ - ٣١١هـ)

حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه
الدكتور ماهر ياسين الفحل

قدم له فضيلة الشيخ
د. أحمد معبد عبد الكريم

إشراف ومراجعة وضبط وتدقيق
الفريق العلمي لمشروع موسوعة جامع السنة

من إصدارات دار الميمان

من أخبار المجاهدين

انتصارات

يوسف بن تاشفين

(٤٠٠هـ ١٠٠٩م - ٥٠٠هـ ١١٠٦م)

بطل معركة الزلاقة وقائد المرابطين
موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين

تأليف
حامد محمد الخليفة

العلم الأعجمي في القرآن مفسرا بالقرآن

من إعجاز القرآن

في أعجمي القرآن

وجه في إعجاز القرآن جديد

الجزء الثاني



تأليف

محمود رؤوف عبد الحميد أبو سعدة

تقديم بقلم الدكتور

محمود محمد الطناحي



العَلَمُ الأعجميّ في القرآن مُفسَّراً بالقرآن

مِنْ إعجازِ القرآنِ

في أعجميّ القرآنِ

وجهٌ في إعجازِ القُرآنِ جديدٌ

تأليف

محمود رؤوف عبد الحميد أبو سعدة

قدم له

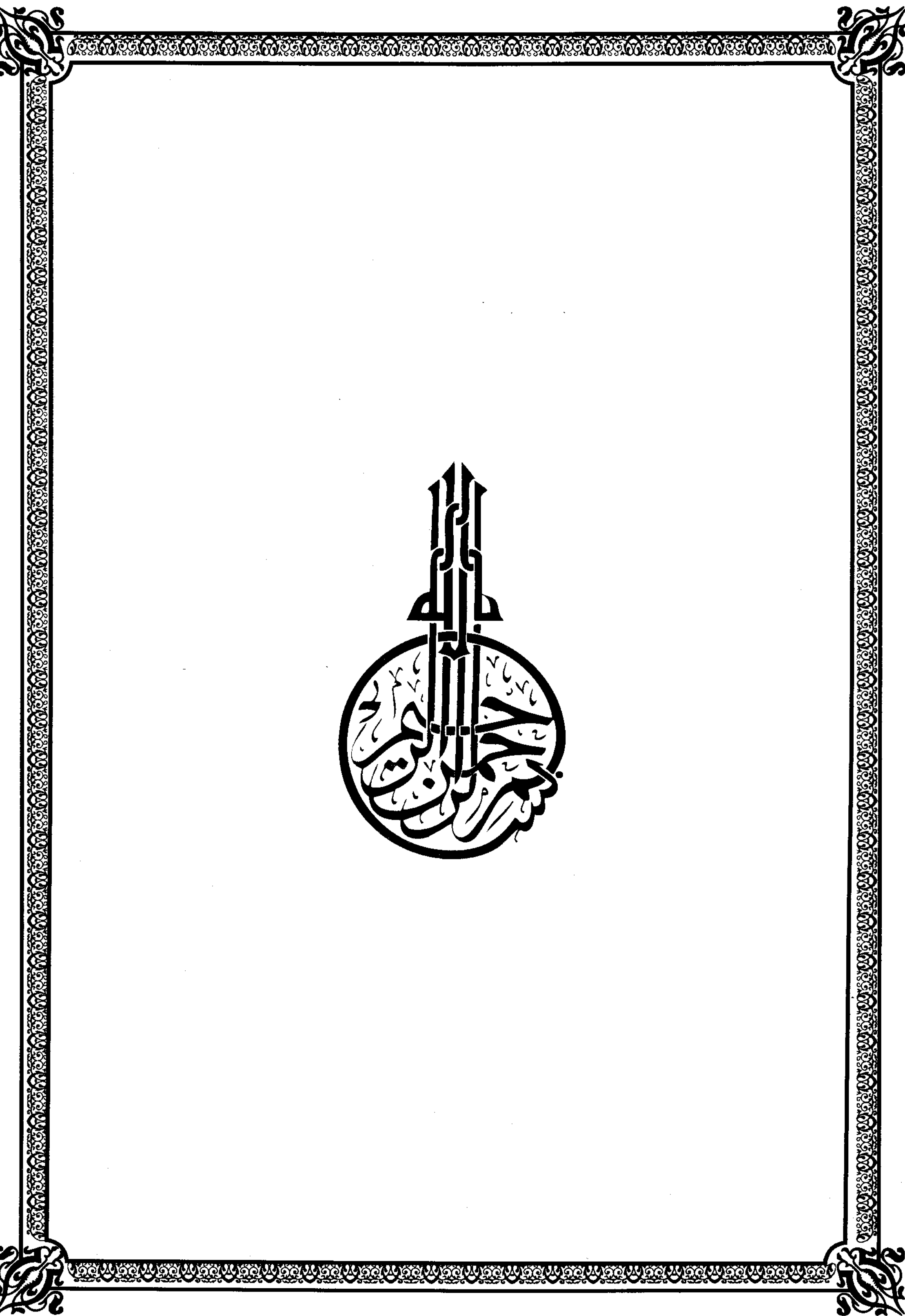
الدكتور

محمود محمد الطناحي

الجزءُ الثاني



للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

من إعجاز القرآن

في أعجمي القرآن

٢

ⓒ دار الميمان للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبو سعدة ، محمود رؤوف عبدالحميد
من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن. / محمود رؤوف عبدالحميد
أبو سعدة.- الرياض ، ١٤٣١ هـ
٢ مج.
ردمك: ٦-٤٨-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)
٩-٥٠-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج٢)

١- القرآن - إعجاز ٢- القرآن - ألفاظ أ. العنوان
ديوي ٢٢٩,٩ ١٤٣١/٧١٧٤

رقم الإيداع: ٧١٧٤/ ١٤٣١
ردمك: ٦-٤٨-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)
٩-٥٠-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج٢)

دار الميمان للنشر والتوزيع - الرياض
الطبعة الأولى ١٤٣٢هجري - ٢٠١١م

دار الميمان للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الرياض ١١٦١٣ ص.ب ٩٠٠٢٠
الموقع: *www.arabia-it.com*
البريد الإلكتروني: *info@arabia-it.com*
هاتف: ٤٦٢٧٣٣٦ (٠١) فاكس: ٤٦١٢١٦٣ (٠١)

الصف والإخراج الطباعي وتصميم الغلاف: دار الميمان للنشر والتوزيع

مقدمة
الجزء الثاني
بقلم المؤلف

في ١٨ يناير سنة ١٩٩٤ أصدرت (دار الهلال) الجزء الأول من كتابي (من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن)، وها هي اليوم تصدر الجزء الثاني المتمم لهذا الكتاب.

ورغم الجهد الضخم الذي بذلته (دار الهلال) في إخراج هذا الكتاب في الثوب اللائق بموضوعه، فقد وقعت في طباعة الجزء الأول هنات لا يخلو من مثلها اليوم كتاب. وترد في نهاية هذا الجزء الثاني قائمة بأهم تلك الأخطاء مع تصويباتها.

ولا يفوتني التنويه بأنني كنت قد فرغت من كتابة هذا البحث منذ ثلاث سنوات، وبالتحديد في ١٢ إبريل سنة ١٩٩١، على أساس أن يصدر كله في مجلد واحد، ولكن كبر حجم الكتاب الذي تجاوز سبعمائة صفحة، وموضوعه المتخصص، كانا وراء تأخري في نشره بسبب تخوف الناشرين الذين عرضته عليهم من نشر كتابًا كهذا لمؤلف غير معروف. ولكن (دار الهلال)، الرائدة في هذا المجال، قبلت مشكورة بركوب المخاطرة عندما عرضت عليها مسودة الكتاب في ديسمبر سنة ١٩٩٣، إلا أنها اشترطت إصداره في جزأين تيسيرًا على القارئ.

وقد ترتب على قسمة الكتاب جزأين أن فات قراء الجزء الأول الاطلاع على قائمة المراجع في ذيل الكتاب، كما فاتهم أيضًا الاطلاع على الفصل الأخير (في ختام البحث) الذي يشرح قصة هذا البحث، وكيفية إعداده، ونتائجه، كما يشرح الأساس الذي استندت إليه في انتقاء مراجعه. ولو أتيح الكتاب كله دفعة واحدة للقارئ لرد جزؤه الثاني - الذي بين يديك - على

كثير من النقدات التي تفضل بها الدكتور الطناحي في تقديمه للجزء الأول، وشاطره إياها الدكتور محمد رجب البيومي في مقاله بعدد المصور ٣٦١٨ بتاريخ ١١ فبراير سنة ١٩٩٤.

والذي ينبغي التنبيه إليه أن موضوع هذا الكتاب هو تفسير العلم الأعجمي في القرآن بالقرآن نفسه، ومن ثم فهو يدور على محورين اثنين فقط:

(١) تأصيل معنى العلم الأعجمي في لغة صاحبه، وهذا يحتاج فحسب إلى مباحث لغوية متخصصة في مصادرها (الأعجمية)، لا شأن لها بالمصادر العربية القديمة والحديثة التي تناولت تفسير هذا الاسم الأعجمي أو ذاك ولم توفق لسبب بسيط هو عدم معرفة أصحابها بتلك اللغات الأعجمية التي اشتق منها العلم الأعجمي في القرآن، ومن ثم فلا فائدة من استئناس المؤلف بها.

(٢) استخلاص اللفظ القرآني أو العبارة القرآنية المُفَسِّرَيْنَ لمعنى الاسم الأعجمي العلم على منهج المؤلف في هذا الكتاب، لا حاجة بالمؤلف إلى كتب التفسير وكتب الحديث، وإنما كان استصحاب المؤلف لتفسير (القرطبي) على سبيل التمثيل فحسب لما قاله علماء التفسير في معاني الأعلام الأعجمية في القرآن وكلها حين تتصدى لتفسير الأسماء الأعجمية تفسر الأعجمي بالعربي. وتفسير القرطبي أكثر من كاف لأغراض هذا التمثيل.

قال الدكتور الطناحي أيضًا إنني لم أستأنس بالمؤرخين العرب الذين كتبوا في الترتيب التاريخي للأنبياء والمدد التي بينهم. والواقع أن هؤلاء المؤرخين حين كتبوا فيما لم ينص عليه القرآن والحديث الصحيح إنما كانوا يستمدون رأسًا من مرويات أهل الكتاب، لا مصدر لهم غيرهم. والذي فعله المؤلف أوثق وأحصف، لأنه فيما لم ينص عليه القرآن والحديث الصحيح يرجع رأسًا إلى (العهد القديم)، مصدر كل مرويات أهل الكتاب، لا إلى مستنسخات من أقاصيص أهل الكتاب، ومنهم الذين وصفهم الحق سبحانه بأنهم: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾. على أن المؤلف لم يأخذ كل نصوص العهد القديم بالتسليم،

بل رد كثيرًا منها من مثل المدة التي بين آدم ونوح عليهما السلام، والتي بين نوح وإبراهيم عليهما السلام، على نحو ما أورده في التقديم لمبحث نوح.

أما أن المؤلف عمم القول بأن (المصادر الأولى) - أي العربية - تهيبت تكذيب التوراة فيما نصت عليه من أن الذبيح هو إسحاق لا إسماعيل، وأن الحافظ ابن كثير على سبيل المثال انتصر للرأي القائل بأن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، فليس هذا بصحيح، لأن المؤلف قال بالنص (صفحة ٢٨٦ سطر ١ من الجزء الأول): (إن جمهرة من المفسرين قالوا: إن الذبيح هو إسحاق.. ولم يقل كل المفسرين. وبعد أن ذكر المؤلف أسانيده في تأييد القول بأن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، عقب في آخر الصفحة ٢٨٧ من الجزء الأول بقوله: وقد نبه على هذا كله أو معظمه أجلاء المفسرين الذين قطعوا بأن الذبيح هو إسماعيل. أما استشهاد ابن قيم الجوزية بنص القرآن على اجتماع يعقوب في البشارة بإسحاق تنبيهًا على استحالة تصديق إبراهيم الرؤيا بذبح إسحاق صبيًّا لم يولد له بعد يعقوب، فهذا يصلح في جدال خصومه من المفسرين القائلين بأن الذبيح هو إسحاق، ولا يصلح في مواجهة أصحاب التوراة. أما المؤلف فقد استشهد من التوراة على التوراة التي جاء فيها أن الله بشر إبراهيم قبل سنة من مولد إسحاق بابن يولد له منجاب كثير النسل، إثباتًا لتناقض الكاتب مع نفسه. حيث لا ذكر في التوراة لاجتماع يعقوب مع إسحاق في البشرى بإسحاق.

أما القول في استدلالي بحديث الصادق المصدوق ﷺ من قوله للنسوة اللاتي تبعن الجنازة: «**ارجعن مأزورات غير مأجورات**»، لأن (مأزورات) في هذه العبارة جاءت على الازدواج الصوتي فحسب، وليست من المطرد المنقاس، ومن ثم فهو لا يصلح للتنظير بأن (أزر) و(وزر) سيان في مبحث (آزر)، فالحق أنني لم أستدل بهذا الحديث ولم أُنَظِّر به، وإنما أوردته على سبيل الاستئناس فحسب. أما الذي استدللت به فهو أن (الأزر) من معانيه (الظهر)، وأن (الآزر) - اسم أبي إبراهيم - يصلح بمعنى المأزور المحمول على أزره أي على ظهره، وقلت بالنص (وإن لم يسمع من العرب).

قال الدكتور الطناحي أيضًا إن المؤلف يعمم القول بخطأ المفسرين واللغويين في فهم عبارة القرآن ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[1] بمعنى الرجل الجامع لخصال الخير (لا بمعنى القدوة أو الإمام كما فسرها المؤلف). والحق أنني بعضت ولم أعمم، بل قلت بالنص في حاشية الصفحة ٢٧٤: قالت بعض التفاسير كما قالت بعض المعاجم. إلخ.

أما أني خالفت قواعد النحو بقولي إن الاسم العلم لا يوصف إلا على البدل أو الخبر ولا يوصف على النعت لأن النعت يخصص والاسم العلم متخصص بذات علميته، فهذا بالفعل جديد لم يقل من قبل، وكان حقه أن يقال: الفيصل الحاسم بين البدل والنعت أنك في البدل تستطيع تقديم البدل على المبدل منه في مثل (زيد التاجر) و(التاجر زيد) دون إخلال بالمعنى من أي وجه، ولكنك لا تستطيع تقديم النعت على المنعوت في مثل (النجار الأمين) و(الأمين النجار)، وإنما يصح ذلك فقط في الاسم العلم.

وأما استيحاش الدكتور الطناحي لعبارة (موسيقى القرآن) التي استخدمها المؤلف ضمن (أوشاب) أي (شوائب) شابت أسلوبه (العذب المصفى) فعزائي هو قول الدكتور الطناحي إن هذه الأوشاب باتت كالعدوى المهلكة التي تتسلل إلى (الأساليب الشريفة). مصداق ذلك أن الدكتور البيومي الذي أيد الدكتور الطناحي في (نقداته الصائبة) استخدم هو نفسه عبارة (موسيقى القرآن) في مقاله عن الكتاب بمجلة المصور غير مبال، على أن الموسيقى التي أعنيها ليست هي الطبل والزمر والضرب بالدف وعزف القيان، وإنما هي النغم والجرس والنظم والاتساق جميعًا، لا يصلح في موضعها (النظم والاتساق) فقط كما اقترح الدكتور الطناحي: موسيقى القرآن تتحرى الحرف قبل اللفظ، تلفظ الحوشي وتتحرى الجمال، وما ذكره المؤلف في الفصل الأول من الكتاب عن خصائص لغة القرآن كاف في تبيان معنى (الموسيقى) الذي أراده المؤلف، ففي الموسيقى ما يقرع السمع عنيفًا، وفيها أيضًا الدمث اللين، وما بين بين، ولكل مقام في القرآن مقال. وأما أن الموسيقى لفظ أعجمي، فقد أفاض المؤلف في كتابه في قواعد الاستعارة من اللغات الأعجمية وأنها مقبولة مشكورة حين

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

الحاجة إليها وتعذر الإتيان بلفظ من العربية مساو تمامًا للفظ الأعجمي المستعار في معناه، بل لم يتحرج القرآن نفسه من هذه الاستعارة على نحو ما ضربناه من أمثلة من القرآن.

أما الدكتور البيومي في مقاله بمجلة المصور، فقد زاد من عنده ثلاث (نقدات) أولها: أنني حين عرضت في الجزء الأول لفتنة داود بامرأة ضابطه كنت أنقل عن إسرائيليات فندها الزمخشري في تفسيره، وأنني لو اطلعت على هذا التفسير لنزهت داود عليه السلام عن ذلك. والواقع أنني اطلعت على ما قاله الزمخشري، ولا أوافق عليه لأنه مفتعل مصنوع لا سند له، وإنما تعلق الزمخشري بمقولة عصمة الأنبياء فأجهد نفسه في تأويل الآيات ٢١ - ٢٦ من سورة ص على نحو يتصادم مع منطوق الآيات، فقال إنما عوتب داود لأنه انشغل بالعبادة عن مجلس القضاء لا من أجل افتتانه بامرأة، وهذا يدفعه قول الحق سبحانه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ﴾[1]. ولست من القائلين بأن عصمة الأنبياء مطلقة، وإنما هي فحسب في البلاغ عن الله عز وجل. ولم يستمد المؤلف مقولته من إسرائيليات دون تمحيص كما قال الدكتور البيومي في مقاله، وإنما يستمد من النص القرآني ذاته. ولو صبر الدكتور البيومي لقرأ في الجزء الثاني في مبحث (سليمان) ما يثلج صدره في هذه القضية، التي محصناها تمحيصًا.

تابع الدكتور بيومي أيضًا الدكتور الطناحي في قوله إنني لم أستفد من المصادر العربية، فقال على سبيل المثال إنني لم أستفد من (مفردات) الراغب الأصفهاني، لأنه في حديثه عن الأعلام الأعجمية يصلح أن يكون عمادًا للمؤلف في كثير من اتجاهاته ولو رجع إليه لوجد فيه العضد والمعين. وقد سبق أن ذكرت أن تلك المصادر جميعًا لا فائدة منها في تأصيل مباحث هذا الكتاب القائم ابتداء على تأصيل معاني الأعلام الأعجمية في القرآن استنادًا إلى لغة صاحب الاسم العلم، لا إلى أقوال المفسرين وعلماء العربية الذين لا يملكون أدوات هذا التأصيل لعدم معرفتهم بتلك اللغات الأعجمية. أما ما قاله الراغب الأصفهاني بشأن الاسم (آدم) - وهو اسم عربي يخرج عن مقاصد الكتاب كما ذكرت - فلا فائدة فيما زاده على ما جاء في القرطبي، أعني تفسيره الاسم على معنى الخلق من عناصر وقوى متفرقة،

(١) سورة ص، الآية: ٢٤.

أو لما طُيِّب به من الروح المنفوخ فيه، لأن الاسم (آدم) مفسر في القرآن في منهجنا في هذا الكتاب بأنه من التراب والأديم، على نحو ما ذكره القرطبي وغيره، وهذا كاف.

قال الدكتور البيومي في ثالثة (نقداته) إنه لا يتفق مع المؤلف في قوله إن أهل مدين هم أصحاب الأيكة ورتب الدكتور البيومي اعتراضه في الاحتجاج لمن قالوا إن مدين غير أصحاب الأيكة على أن القرآن قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[1] بينما قال في أصحاب الأيكة ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[2]، ولم يقل (أخوهم شعيب)، فهو إذن ليس أخاهم، وإنما غريب عنهم. وليس بلازم. ليس بالدليل المرجح إن لم يكن ملزمًا كما قال الدكتور البيومي. على أن المؤلف لم يبن مقولته في التوحيد بين مدين وأصحاب الأيكة إلا على نقطتين اثنتين: وحدة الرسول، أي شعيب، وثانيًا وهو الأهم، أن شعيبًا يأخذ على هؤلاء ما يأخذ على أولئك، خسرانهم الكيل والميزان وبخسهم الناس أشياءهم وعثوهم في الأرض مفسدين (الآيات ١٧٧ - ١٨٩ من سورة الشعراء). ومع وضوح حجة المؤلف فقد قال بالنص في ختام كلامه: نقول هذا ولا نخوض في غيب الله، فالله عز وجل بغيبه أعلم (الصفحة ٢٥١ من الجزء الأول).

على أنني مهما قلت لا أستطيع أن أفي الأستاذين الدكتور الطناحي والدكتور البيومي حقهما من الشكر على إشادتهما الكريمة بالكتاب وكاتبه، فلا يسعني إلا أن أقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وكل أملي أن يقابل الجزء الثاني من الكتاب - وهو بين يديك - بما قوبل به الجزء الأول من حفاوة وتكريم.

والحمد لله رب العالمين

المؤلف

محمود رؤوف عبد الحميد أبو سعدة

(١) سورة هود، الآية: ٨٤.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٧٦، ١٧٧.

الفصل السابع

موسى وهارون

تمهيد

يتناول هذا الفصل تفسير عشرة أعلام: موسى، هارون، فرعون، هامان، قارون، مصر، سيناء، التوراة، يأجوج ومأجوج، اليهود.

والأعلامُ الخمسةُ الأولى (موسى - هارون - فرعون - هامان - قارون) أصحابُها متعاصرون، فقدمنا أولياءَ اللهِ على أعدائه ورتبنا أعداءَ اللهِ على حسب أهميتهم. أما (مصر)، (سيناء)، فهما مسرح الأحداث. وفي سيناء نودِيَ موسى وأُنزِلت (التوراة). وجاءت بعد التوراة (يأجوج ومأجوج)، التي ارتبطت في القرآن بقصة (ذي القرنَيْنِ)، لأننا نُرجح، كما رَجَّحَ مفسرون - والله عز وجل بغيبه أعلم - أن (ذا القرنين) هو نفسه الذي في سورة الكهف، العبدُ الصالح الذي صاحَبَهُ موسى فخرقَ السفينةَ وقتَل الغُلام، ورَمَّ الجِدَار الذي كان يريدُ أن ينقضَّ فأقامه. وجاءت (اليهود) بأخَرَةٍ، لأنهم عَصَوا اللهَ عز وجل ثم هادوا، ثم عَصَوا من بعد. والتسميةُ الآن (وهي على المدح كما سترى). لا تنطبقُ عليهم. عسى ربُّهُم أن يرحَمَهُم، أو يتوبَ عليهم ليتوبوا.

* * * *

(٣٠) موسى

(موسى) في القرآن ليست هي، كما يظن كثيرون، تعريب (موشيه) التي في التوراة، اسم نبي الله موسى الكليم صلوات الله عليه، عند اليهود. وإنما (موسى) في القرآن هي تعريب قرآني مباشر لهذا الاسم في لغة (آل فرعون) الذين التقطوا موسى من اليم مجهولًا غير ذي اسم، فكانوا أصحاب الحق في تسميته بلغتهم هم، أي بالمصرية القديمة.

والمصرية القديمة كما تعلم لغة منقرضة ظلت قرونًا حبيسة البرديات والنقوش والمعابد، فلم تبح بأسرارها إلا ابتداءً من أواسط القرن الميلادي التاسع عشر، بعد نحو ثلاثة عشر قرنًا من نزول القرآن.

ولكنك تعلم أيضًا أن القائل في القرآن هو الله عز وجل، القائل بكل اللغات، الذي علم آدم الأسماء كلها، الذي اختلاف ألسنة الناس من آياته، الذي أنطق بها خلقه: إنه واضعها وملهمها.

نعم. يسلم اللغويون الآن بأن اسم (موسى) عليه السلام من المصرية القديمة، لا من العبرية، لغة أمه وأبيه. ولكن متى قالوها؟ قالوها بعد أن قالها القرآن بنحو ثلاثة عشر قرنًا، ولم يفطن إليها أحد.

في تفسير القرآن اسم (موسى) بلغة (آل فرعون)، آيةٌ أيُّ آية.



أما علماء التوراة فقد ألزمتهم عبارة في (سفر الخروج) بتفسير (موسى) على اللفظ العبراني، التي ينطقونها (موشيه) كدأب العبرية في (تشيين) السينات وإمالة الألف، قالوا إن

(موسى) عبرانية، على زنة الفاعل من الجذر العبري (مشا) (ومكافئه العربي مسا / يمسو بمعنى سله أو أخرجه بلطف ومنه مسا الناقة أي أَخرجَ الولدَ منها ميتًا)، فهو (موشيه) أي (الماسي)، ويفسرونها بأنها تعني (نَشيلُ الماء)، أي الذي التقطه آل فرعون من اليم، لقول كاتب سفر الخروج: (ودعت اسمه موسى (موشيه في الأصل العبراني) وقالت إني انتشلته من الماء) (خروج ٢ / ١٠).

ولا يصح هذا عبريًا، لأن موشيه على زنة الفاعل تعني أن موسى كان الماسي لا الممسوُّ، أي كان هو الناشل لا المنشول، فلا يجوز في العبرية استعمال زنة الفاعل على قصد المفعول، وإن جاز هذا في العربية. ولكن علماء التوراة - لا علماء العبرية - افترضوا جوازه ليستقيم لهم المعنى. وفاتهم أن من أعلام التوراة (نِمْشِى) من نفس الجذر (مَشا) ومعناه الممسوُّ على المفعولية، ولو أريدت تسمية موسى على هذا المعنى لكان الاسم (نمشى)، ولما كان (موشيه). أو لكان (ماشوى) على المفعولية المباشرة من (مشا) العبري. ومنهم من قال أيضًا بأن (موشيه) على الفاعلية من (مشا) تفيد معنى (المخلص)، أي الذي انتشل بني إسرائيل من مصر، تسمية على النبوءة كدأبهم. فلا تدري كيف يطرأ هذا المعنى على ذهن التي انتشلته من الماء (ابنة فرعون في التوراة): يُخَلِّصُ مَنْ، وكيف، ومتى؟

أما الذي لا يصح البتة فهو افتراض عبرانية اسم (موسى)، وعلى لسان من؟ على لسان (ابنة فرعون) في قصر فرعون، تلتقطه من اليم فتفهم أنه من (أولاد العبرانيين) كما يقول الكاتب، فتتعمد تسميته تسمية عبرانية، وهي لا تفهم حرفًا من تلك اللغة، لغة عبيد فرعون كما تقرأ في التوراة، والأصح أن يتعلم العبيد لغة السادة لا العكس. وإنما المنطقي المتوقع من (ابنة فرعون) أن تسمي الذي انتشلته من الماء بلغتها هي، أي بالمصرية القديمة، فتقول مثلًا حال التقاطها إياه: هذا ابن لي! أنا التي انتشلته من الماء! أو شيئًا قريبًا من هذا. والذي قاله كاتب سفر الخروج على لسانها يتفق مع هذا ولا يتعارض معه (ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء). لأن (انتشلته من الماء) ليست بالضرورة ترجمة للاسم الذي اختارته، فهي عبارة تفيد الاختصاص، أي لأني أنا التي انتشلته من الماء فهو لي، يصلح في

موضعها (فهو ابن لي)، أتخذه ولدًا (وهو معنى اسم موسى بالمصرية القديمة كما سترى)، فلا تدري لماذا ألزم علماء التوراة أنفسهم بما لا يلزم من عبارة الكاتب. فأصروا - ولا يزالون يصرون رغم ما تكشف من أسرار اللغة المصرية القديمة منذ أواسط القرن الماضي - على أن (موسى) (أي موشيه) اسم عبراني وإن تصادم الاشتقاق مع نحو تلك اللغة.

والذي يجب أن تعلمه هو أن العبرانيين - الذين آواهم المصريون منذ عصر يوسف إلى عصر موسى وهارون - كانوا بحكم وجودهم بين ظهراني المصريين نحو أربعمائة وثلاثين سنة كما تقول التوراة، يجيدون اللغة المصرية القديمة، فيحسنون فهمها كما يحسنون الحديث بها، وأنهم ما كان ليفوتهم أو يفوت موسى نفسه معنى (الابن) الذي في اسم (موسى) بهذه اللغة المصرية القديمة، بل تجد هذا واضحًا على قلم الكاتب وإن لم يفطن هو إليه ولم يفطن قارئوه: (فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون، فصار لها ابنًا)[1] أي صار موسى ابنًا لابنة فرعون، يعني صار يُدعى كذلك. ولو كانت أسفار التوراة الخمسة الأولى قد كُتبت على عصر موسى وهارون، أو قريبًا منه، لما أعضل معنى (موسى) في المصرية القديمة على كتبة التوراة، فالتمسوا تفسيره من العبرانية. وهذا دليل لغوي لا يُنْقَضُ على كتابة أسفار التوراة الخمسة الأولى بعد قرون من وفاة موسى، أي من الذاكرة، لا من الوحي: كان العبرانيون على عصر داود وسليمان قد أنسوا تمامًا هذه اللغة المصرية القديمة التي كانوا يتكلمونها على عصر موسى وهارون مع سادتهم المصريين. دليلك في هذا - لا من خطئهم في فهم معنى (موسى) من المصرية القديمة فحسب - وإنما أيضًا من خطئهم في فهم معنى (فرعون)، وهو من المصرية القديمة بلا خلاف، فقالوا إن (پرعو) (أي فرعون) تعني عند المصريين (الملك)، وليس بشيء، لأن علماء اللغة المصرية القديمة يقولون لك إن (بر + عا) تعني (البيت + الكبير)، أو البيت العظيم، على نسق (الباب العالي) عند الخلفاء العثمانيين، يكنى بها عن شخص الملك مهابة وتفخيمًا.

هذا (التفسير بالتخمين)، أعني تفسير علماء التوراة اسم (موسى) من العبرية تمحلًا

---

(١) خروج ٢/ ٩ - ١٠.

واعتسافًا، لا لسبب إلا لأن المصرية القديمة أعضلت عليهم، تفسير لا يُعْتَدُّ به، لأنه تفسير لاسم من المصرية القديمة بغير لغة الذي سمى، شأنه شأن تفسير من تورط من مفسري القرآن ففسر العبري بالعربي، فلا تلتفت إليه.

* * * *

على أن من مفسري القرآن[1] من فطن إلى ما لم يفطن إليه علماء التوراة، فافترض على ما يقتضيه المنطق الصرف أن اسم (موسى) اسم بلغة (آل فرعون) وراح يلتمس معناه عند معاصريه من القبط (وهم مصريو زمانه) يظن لغتهم هي نفس اللغة، ولكنها كانت قد تحورت وشاهت منذ قرون سبقت مولد المسيح، بل امَّحَت على الألسنة تلك القبطية نفسها منذ أواخر القرن الثالث الهجري حتى اضطرت الكنيسة القبطية إلى ترجمة كتب الصلوات إلى العربية التي غلبت على ألسنة القبط أنفسهم، لا يفهمون غيرها، فلا تنتظر منهم إلا تفسيرًا (بالتخمين) لأسماء من مثل (موسى) و(فرعون): قالوا له إن (مو) بالقبطية يعني (ماء)، وإن (شا) أو (سا) بالسين يعني (شجر) ورتب الرواة على هذا أن آل فرعون عثروا على التابوت الذي فيه موسى بين ماء وشجر، فسمي باسم المكان الذي وجد فيه وليس هذا بشيء كما ترى، فلا تعتد به ولا تلتفت إليه.

ولكنك تسجل لهؤلاء الجهابذة الأعلام جهد المحاولة وفضل السبق إلى تحري تفسير معنى (موسى) في لغة (آل فرعون) لا في لغة (بني إسرائيل)، فما كان للابن الذي التقطه آل فرعون فتبنوه أن يتسمى بغير لغة أبيه بالتبني. ليس العيب فيهم أن أخطؤوا معنى (موسى) في لغة آل فرعون، بل يكفيهم شرفًا أن حاولوا، يوم كانت لغة آل فرعون طلاسم مطلسمة فلم يجدوا الذي يستوثقون منه: كان العيب في الذي استفتوه، فأفتاهم عدوًا بغير علم.

* * * *

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٥١ من سورة البقرة.

آفة اللغات البائدة عند دارسيها وعلمائها أنها لغات تقرأ ولا تسمع. أعني أنك لا تجد من يحدثك بها فيلزمك بتقويم لسانك. كل ما لديك كتابات ونقوش، رسمت بخط مهما وفقت في حل رموزه، فلن تستطيع الجزم آمنًا مطمئنًا بأنك تنطق أحرفها على نحو ما كان ينطق أهلها. أما إن كان الخط - كالشأن في الخط المصري - خطًا لا يعبأ بحركات المد فالآفة عندئذٍ أفدح وأعتى، لا سبيل لك إلى تداركها مهما بذلت من جهد.

أدى هذا بعلماء اللغة المصرية القديمة - الأثبات منهم على وجه التحديد - إلى التحرز من إثبات حركة المد الواجبة بين ساكنين لإمكان الانتقال من أحدهما إلى الآخر، كما تجد مثلًا في لفظة (دحرج) العربية: لا تستطيع الانتقال من الدال إلى الحاء، أو من الراء إلى الجيم، إلا بحركة مد (وهي الفتح في دَحْرَج العربية). ومن هذا في المصرية القديمة لفظة (بر) (ومعناها بيت): لا تستبين من الخط المصري حركة مد بين الباء والراء، أو بعد الراء على الأقل، فلا تستطيع نطق هذه اللفظة المصرية القديمة إلا بحركة مد تفترضها افتراضًا، فتختارها حسبما يتفق لك من بين حركات المد الثلاث (الكسر والفتح والضم)، لا تدري أيها الصحيح، فلا تملك القطع بيقين. هنا اصطلح بعض علماء تلك اللغة - أعني الأثبات منهم[1] - على الاكتفاء برسم الحروف الثابتة في الخط المصري، وافتراض المد، حين يتعذر النطق، مدًّا بالكسر (وهو أخف الحركات)، يصطلحون على هذا ولا يجزمون بصحته.

على أنه قُدِّرَ لهذه اللغة المصرية القديمة - دون غيرها من اللغات البائدة - أن تحظى على مدى قرن ونصف قرن بجهد جماعي دءوب جبار، بذله وما زال يبذله علماء أفذاذ، اقتربوا في استجلاء غوامضها من حد الكمال. ساعد على هذا وفرة (المادة) التي تتحدث عن نفسها بلسان تلك الحضارة العظمى فيما خلفته من آثار ونقوش لا نظير لها قط في الحضارات السابقة واللاحقة. وساعد عليه أيضًا ما بقي من تلك اللغة القبطية التي ورثت عن أمها المصرية القديمة الكثير من مفرداتها، وإن كنت لا تجزم - بل أنت إلى الشك

(1) A. Gardiner. EGYPTIAN GRAMMAR. Oxford University Press. London. Third Edition (Revised). 1966. pp. 26 - 28.

أقرب - بتطابق النطق القبطي مع النطق المصري القديم، ناهيك بمطابقة اللفظ للمعنى، على نحو ما تقطع الآن بالتفاوت في هذا وذاك بين عربية القرآن وبين العربية الدارجة التي يَلْغُو بها العرب اليوم في أقطارهم.

والذي يعنينا هنا - ونحن لا نخوض في المباحث اللغوية إلا بالقدر اللازم لأغراض هذا الكتاب - أن القرآن المعجز أتى بلفظ (موسى) أقرب ما يكون إلى نطقه في لغة آل فرعون على ما استقر عليه علماء تلك اللغة في نطق الأسماء الأعلام المختومة بالشق (مس) كما تجد في (تْحُوت + مُس) (تْحُتْمُس) التي انتهوا إلى أن أصلها (ضْحُوتي + مُوسِى) تنطق موسى فيها على الإمالة، تمامًا كما تسمعها في بعض (قراءات) القرآن، والمعنى هو (وِلْد تحوت) أو (وليد تحوت)، لا (ابن تحوت) وإن تقارب المعنى، لأن (ابن) في المصرية القديمة هي (سا) لا (موسى).

(موسى) لفظة في المصرية القديمة منحوتة من جذر في تلك اللغة، هو (م/ س/ ى)، فعل بمعنى ولد/ يلد/ ولادة. ولفظة (موسِى) اسم على المفعولية من هذا، فهي (ولد) أو (وليد) وبهما فسر القرآن في هذا الاسم على الترادف كما سترى.

لم تفعل العبرية في (موسى) إلا أن (شَيَّنَت) السين كدأبها، فقالت (موشيه) على الإمالة. وربما اختلط الأمر على كاتب سفر الخروج الذي تصدى لتفسيره فظنه من (مشا) العبري (وهو (مسا) العربي) بمعنى سله واستخرجه، وتابعه علماء التوراة على هذا فقالوا: (نشيل الماء). ولو بقيت لدى الكاتب أثارة من علم بتلك اللغة المصرية القديمة التي تكلم بها مع فرعون موسى وهارون لما وقع في هذا الخلط. بل قل لو كان الكاتب هو موسى عليه السلام الذي ينسبون إليه هذا السفر لما أخطأ فهم معنى اسمه (ولد أو وليد) الذي سماه به آل فرعون.

وربما قلت إن الجذر (م/ س/ ى) في المصرية القديمة، الذي يعني ولد/ يلد/ ولادة، قريبٌ في معناه من (مسا) العربي، أو (مشا) العبري، بمعنى سله واستخرجه، لأن في الولادة شيئًا من هذا. ولكن علماء المصرية القديمة لا يقطعون برأي حاسم في مدى العلاقة اللغوية

بين المصرية القديمة وجاراتها الساميات، وإن رجحوا - ونرجح معهم - أصلها السامي. ولكننا لا نخوض في هذا، لا لشيء إلا لأنه يخرج عن مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب.

* * * *

قال العليم الخبير، في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يفسر بها اسم (موسى) بلغة آل فرعون، لا بلغة أمه وأبيه: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1]، فسمى بها موسى المحذوف لدلالة السياق عليه. وقال أيضًا على لسان فرعون الذي أنكر على موسى أن يكون شفيعًا لديه في بني إسرائيل وقد استله فرعون من بينهم فاحتضنه ورباه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[2]، يدل على موسى بدالة الإباوة والرباية ويفطن موسى إلى أن فرعون يستميله إليه ليقطع ما بينه وبين قومه، فيستدرك على فرعون بما يفحمه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[3]: أكرمتني وأهنت قومي، وهل أنا إلا بعض قومي؟ وهل صرت إليك فتبنيتني إلا لأنك استعبدت بني إسرائيل وأذللتهم، تذبح أبناءهم وتستحيي نساءهم، حتى نبذتني في اليم أمي؟

* * * *

هذه الصديقة التي قذفت برضيعها في اليم عن أمر الله، اسمها في التوراة العبرانية (يُوكِبِد) بكسر الكاف والباء (وتنطق عبرانيًا (يُوخِفِذ) على ما مر بك من قواعد نطق الكاف والباء والدال إذا تحرك أو اعتل ما قبلها)، ولكن القرآن لم يسم أم موسى، وإنما كناها بأحب كنية تمنت أن تستعلن بها: أم موسى. ويروي سفر الخروج أنها عمة عمران أبي موسى، يعني تزوج عمران عمته يوكبد فاستولدها هارون وموسى ومريام[4]. وأيًا ما قلت في صحة

(١) سورة القصص، الآية: ٩.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٨.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢.

(٤) راجع سفر الخروج ٦/ ٢.

الزواج من العمة في دين إبراهيم، فالذي نُعْنَى به في مقاصد هذا الكتاب هو معنى هذا الاسم (يُوكِبِد) عند علماء التوراة: قالوا إنه اسم مزجى مركب من شقين (يُو + كِبِد)، الأول (يو) مختصر يهوا، اسم الله في العبرية منذ موسى عليه السلام يهوا كما مر بك يعني: (الذي هو هو)، والثاني (كبد) اسم من مادة الجذر العبراني (كبد) بمعنى ثَقُلَ، وأيضًا في مجازها، اللب والفؤاد. وقد اختار علماء التوراة هؤلاء أن يكون معنى (كِبِد) التي في (يوكبد) هو المجد والشرف، واختاروا أيضًا أن تكون بنية هذا الاسم المزجي على المبتدأ والخبر، فقالوا إن معناه هو (الله مجد)، مرادًا منه (الله مجدها)[1].

ولا يصح هذا عبريًا، مع الاعتذار الواجب للذين قالوه، لأن معنى المجد والشرف في مادة (كبد) العبرانية يجيء على (كبود) بالواو كما مر بك، ولا يجيء قط في بنيته الاسمية على (كبد) بكسر الكاف والباء كما ينطق اسم أم موسى في التوراة.

أما الذي يصح عبريًا فهو أن يفهم الشق الثاني من هذا الاسم (كبد) على أنه فعل ماض مسند إلى المفرد الغائب (الذي هو (يو) اسم الله في العبرية) جاء على زنة (فِعِّل) العبرية (التي هي (فَعَّل) في العربية) فيكون أصل الاسم (يُوكبِّد) بتشديد الباء المكسورة، ثم خفف تشديد الباء للمزجية، فآلت إلى نطقها الذي في التوراة، أعني (يوكبد). ولأن (كبد) العبرية كما مر بك تفيد معنيين هما (١) الوقر والثقل، و(٢) المجد والشرف، فلك أن تختار في تفسير هذا الاسم إما (الله مجد) بتشديد الجيم المفتوحة، يعني (التي مجدها الله)، وإما (الله وقر) بتشديد القاف المفتوحة، أي (التي وقرها الله)، يعني رَزَّنها وثبتها وسكَّنها، أو كما قال القرآن على منهجنا في تفسير أعلام القرآن بالقرآن، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[2]، فهي (التي ربط الله على قلبها).

والذي يصح بلا مشاحة هو تفسير القرآن، لا تفسير علماء التوراة، لأن (يهوا) (التي

---

(١) المعجم التحليلي العبري الآرامي لألفاظ التوراة، المرجع المذكور، مادة (يهوا) ص١٧٢، ومادة (كبد) ص٣٦٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٠.

اختصرت إلى (يو) في الاسم يوكبد) لم تصر عند بني إسرائيل علمًا على الله عز وجل إلا في ديانة موسى عليه السلام كما تستظهر من التوراة: (ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب. وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء. وأما باسمي يهوا فلم أعرف عندهم)[1]، فلا يصح دخوله في اسم أم موسى يوم وُلِدت. وإنما الصحيح أن يقال إنها كنية كناها بها بنو إسرائيل من بعد مبعث موسى عليه السلام بعد تحقق الصفة والحال، كما سترى في الاسم (أيوب)، فهي كنية تشير إلى منقبة في أم موسى. وقد أراد علماء التوراة الذين فسروا هذا الاسم على معنى (الله مجدُها) - أي التي مجَّدها الله - تعظيم موسى بالتفخيم في معنى اسم والدته. ولكن الكنية على هذا المعنى الذي أراده علماء التوراة هؤلاء لا تصدق في وصف منقبة أم موسى التي انفردت بها من دون نساء العالمين: تنبذ ابنها في اليم رضيعًا قد ربط الله على قلبها، ويردونه إليها لا لتكون له أمًّا، بل لتكون له مرضعًا، جاءوها به وقد أسموه بلغتهم (الولد) (موسى المصرية الهيروغليفية) لا أم له، وهي أمه، لا تملك أن تستعلن بها، فيكنيها القرآن بأحب اسم تمنت أن تسمعه: أم موسى. ويمرأ فيه لبنها، ويدنو يوم فطامه، فتشقى بما تسعد به كل أم، لولا رباط الله على قلبها: إنه اليوم في حجرها (ابنؤم)[2]، تهدهده بها لا بـ (موسى)، وهو غدًا (ابن فرعون) تسلمه لهم، فيا لفؤاد أم موسى مما حُمِّل، لولا رباط الله على قلبها. هذه هي منقبة أم موسى الوحيدة التي يصح أن تكنى بها. والرباط على القلب يعني تقسيته كي يحتمل، وهذا هو نفسه معنى (كَبِّد) العبري كما تنص عليه معاجمهم، فلا تستطيع هذا وحدها أم. ولكن علماء التوراة لم يفطنوا إليه، إذ لا نص في التوراة على بلاءات أم موسى بل يقال لك إنها ألقته في اليم فحسب ثم قالت لأخته قصيه، وإلى هنا ينتهي ذكر أم موسى في التوراة. فاكتفوا في تفسير اسمها بالمجد الذي نالته بإنجابها موسى. وليس بشيء كما ترى.

---

(١) خروج ٦/ ١ - ٣.

(٢) ابنؤم أصلها (ابن أم)، بني شطراها على الفتح على غرار الأعداد المركبة من ثلاثة عشر إلى تسعة عشر، وقد وردت بكلا الرسمين في المصحف. قالها هارون في فتنة العجل يرفق بها قلب أخيه: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ [طه: ٩٤]، وكأنه يناجيه بما كانت تناجيه به أمه أيام كان موسى في حجرها.

قال عز وجل في تفسير اسم تلك الصديقة[1] التي ربط الله على قلبها: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. وقد مر بك في تضاعيف هذا الكتاب أن القرآن حين لا ينص على اسم بطل الحدث، يلم بمعناه أحيانًا في ثنايا الآيات فيصوره بما تكاد تسميه به. وسام (أم موسى) من هذا كما رأيت، ولكنك لا تفطن إليه في سياق هذه الصياغة المعجزة لوصف حال أم موسى وقد ألقت برضيعها في اليم عن أمر الله: فرغ فؤاد أم موسى يعني صار فؤادها هواء جزعًا على موسى في تابوت تتقاذفه أمواج اليم، لا تدري أيغرق أم يطفو، بل كادت تستغيث من ينتشله لها ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ فيعيده إليها، وليكن ما يكون. ولكن الله ربط على قلبها، وثبت فؤادها، كي تظل على إيمانها بصدق وعده إياها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3]. إعجاز فوق إعجاز.

ولعلك التفت أيضًا إلى عبارة القرآن ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ في الآية ١٠ من سورة القصص التي تلوت توًا، التي تشير إلى إلمام القرآن بمعنى الفؤاد الذي في شطر اسم أم موسى (يوكبد)، وهو (كبود) كما مر بك: لو قلت ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ عبريًّا، لقلت (كبود يوكبد)!.

فيم إذن دعاوى النقل والاقتباس، والقرآن كما رأيت أعلم بالعبرية من أهلها؟

* * * *

لموسى عليه السلام أخ أسن منه (هارون)، وزر لموسى وشركه النبوة. سأل موسى ربه

(١) الصديق في القرآن هو كل من خاطبه الله على ملائكته فصدق وأذعن، نبيًّا وغير نبي. وقد ورد اللفظ في القرآن كله ست مرات، ثلاث على المفرد المذكر وصفًا ليوسف (يوسف: ٤٦)، وإبراهيم (مريم: ٤١)، وإدريس (مريم: ٥٦) عليهم السلام، ومرة رابعة وصفت بها مريم أم عيسى على المفرد المؤنث (المائدة: ٧٥)، والخامسة والسادسة على جمع المذكر، إحداهما (النساء: ٦٩) تضع الصديق بين النبي والشهيد، والأخرى (الحديد: ٢٩) تقدم الصديق على الشهيد في الترتيب.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٠.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧.

أن يعينه بهارون لسبب محدد. كان موسى يضيق صدره ولا ينطلق لسانه: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾[1]. وكان هارون فصيحًا لسنًا: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[2]، فاستجاب له عز وجل وامتن بها عليه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾[3]. وسيأتي تفسير اسم هارون إن شاء الله في موضعه.

ولموسى عليه السلام أيضًا أخت تكبره، وهي أخته التي قصته: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[4]، ولم يسمها القرآن. أما اسمها في التوراة التي بين يديك - أعني في ترجمتها العربية المتأثرة في رسم أعلامها العبرانية برسمها المعرب من قبل في القرآن - فهو (مريم) مفتوحة الميم ساكنة الراء كاسم مريم أم عيسى في القرآن، خلافًا لأصلها العبراني المرسوم في التوراة (مريام) (بكسر الميم وإشباع المد بالألف بعد الياء) وهو خطأ بين وقع فيه المترجم العربي يتابع فيه أدعياء الاستشراق الذين اتهموا القرآن بالخلط بين (مريام) أخت موسى وهارون وبين (مريم) أم عيسى ولا صلة بين الاسمين كما سترى.

ففي الإصحاح الثاني عشر من سفر العدد يقص عليك الكاتب قصة ملخصها أن موسى اتخذ امرأة كوشية (أي حبشية)، فلم تحمد له هذا أخته مريام، ولم يحمد أيضًا أخوه هارون، فتمردا عليه، أو (تمريا) عليه، فحمي غضب الرب عليهما كما يقول الكاتب. وإذا مريام برصاء كالثلج (فتعجب لماذا أفلت الرب هارون). واسترحم هارون أخاه موسى أن يدعو لها، فصرخ موسى إلى الرب قائلًا: اللهم اشفها! فقال الرب لموسى: لو بصق أبوها في وجهها أما كانت تخجل سبعة أيام؟ فاعتزلت مريام سبعة أيام حتى شفيت.

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٤.

(٣) سورة طه، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٤) سورة القصص، الآية: ١١.

يلتقط علماء التوراة هذه الأقصوصة ليفسروا بها الاسم (مريام) وكأنه كنية تكنت بها، فقالوا إن معناه هو (المراء)، (التمري)، من الجذر العبري (مرا)، فهو (فِعلان)، أي (مريان)، أبدلت نونه ميمًا على ما مر بك فصار إلى (مريام). وهو اسم على الذم كما ترى، فتعجب كيف استجازوا أن تتسمى به من بعد مريم أم عيسى عليهما السلام. نقول هذا ولا نتوقف عنده: كل ما أردناه هو أن ندلك على معنى (مريام) عند علماء التوراة: المراء والتمري والعصيان، كيلا تخلط أنت بينها وبين (مريم) أم عيسى عليهما السلام، لاختلاف الاسمين لغة، الأول عبراني والثاني آرامي، واختلافهما مبنى ومعنى. وسيأتي.

وأما ما عرجنا عليه من ذكر (هارون)، الذي يأتي في موضعه، فلم يكن تمهيدًا لتفسيره بقدر ما كان عروجًا على لفظة (ابنؤم) (ابن + أم) التي ناجى بها هارون أخاه مرتين في القرآن يوم أخذ موسى برأس أخيه يجره إليه في فتنة العجل: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. وجاءت بصورة أخرى في سورة (طه)، تبرئ هارون عليه السلام من اصطناع العجل: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[2].

لعلك لاحظت أن معنى: (الابن) الذي في (ابنؤم) موجود أيضًا في (موسى) المصرية القديمة ومعناها (ولد)، (وليد)، وكأن القرآن في هذين الموضعين يفسر هذه بتلك، وسبحان العليم الخبير.

* * * *

كان هذا هو التفسير القرآني من المصرية القديمة لمعنى اسم (موسى) عليه السلام: فسره

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

(٢) سورة طه، الآيات: ٩٠ - ٩٤.

بلغة آل فرعون، ولم يفسره بلغة بني إسرائيل. فهو (ولد) أو (وليد). والمعنى فيهما واحد. ونحن نؤثر (وليد) في ترجمة اسم (موسى)، لأن (الوليد) من أعلام العرب، فتسهل المقابلة بين (وليد) العربية، وبين (موسى) المصرية القديمة.

وسبحان الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم!

* * * *

(٣١) هارون

(هارون) في القرآن (التي شاع رسمها على غرار المصحف بغير ألف)، هي تعريب (أهارون) في التوراة، اسم أخي موسى عليهما السلام.

والألف البادئة في (أهارون) العبرية - كما مر بك في تضاعيف هذا الكتاب - هي (ألف التحلية) *Prosthetic Aleph* والأصل (هارون) كما عربها القرآن.

وقد تجنب علماء التوراة[١] تفسير اسم (أهارون): ربما لم يستبن لهم وجه الصواب في معناه، وربما أيضًا لأن الكاتب في سفر الخروج خالف (مألوفه)، فلم يتصد لتفسيره.

ولم يؤثر أيضًا عن مفسري القرآن تفسير لاسم (هارون): أجمعوا على عجمته، ولم يتصدوا لتفسيره. وربما التمسوه عند بعض أحبار يهود ولم يظفروا بشيء. وهذا يرجح لديك، كما ترجح لي، أن هؤلاء الأحبار لم يكن لديهم مأثور يستندون إليه في تفسير اسم (هارون) ويرأبون به الثغرة التي تركها كتبة التوراة بسكوتهم عن تفسيره. وربما تعللت لكتبة التوراة في ذلك بأن شخصية البطل - موسى عليه السلام - شخصية طاغية تملأ مسرح الأحداث، أذهلت الكاتب عن تقديم الشخصيات (الثانوية) للقارئ، وكأنه لا يفطن لها، فلا يسميها، رغم ولوعه كغيره من كتبة التوراة بتحليل الأنساب وتفسير التسميات، بإيراد مناسبة التسمية وسببها.



(١) راجع المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة.

يبدأ الكاتب سفر الخروج بإصحاح مقتضب، يمهد لظهور موسى على المسرح، تقرأ فيه أن ملكًا جديدًا اعتلى عرش مصر، لا هم له إلا استئصال شأفة العبرانيين باستصفاء نسلهم، فيأمر قابلتي العبرانيات (شِفرة)، (فُوعة)، بأن تنظرا المولود: إن كان ذكرًا قتلتاه، وإن كان بنتًا فتحيا. ولكن القابلتين خافتا الله كما يقول الكاتب فاحتالتا على فرعون بأن النساء العبرانيات لسن كالمصريات، فهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة. عندئذٍ أمر فرعون جميع شعبه بأن كل ابن يولد للعبرانيين يطرحونه في النهر، وكل بنت يستحيونها. وكأنما ألقت أم موسى ابنها في اليم عن أمر فرعون، لا عن أمر الله كما تقرأ في القرآن.

ثم ينتقل الكاتب سريعًا إلى الإصحاح الثاني، يتعجل تعليل إفلات موسى من هذا المصير، لا يعنيه ما كان من أمر إخوة سبقوه، بل لا يعنيه شخص أمه وأبيه اللذين منهما ولد، فيذهب بك مباشرة إلى (النهر) حيث ألقي موسى فتستحييه (ابنة) فرعون[1]، ويبدأ الإصحاح هكذا: (وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي. فحبلت المرأة وولدت ابنًا. ولما رأت أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر. ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد، أخذت له سَفَطًا من البردي وطلته بالحُمَر والزفت ووضعت الولد فيه، ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر[2]. ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به)[3].

هذا الكاتب الذي لم يفته وصف (التابوت) بأنه سفط من البردي مطلي بالحمر والزفت، لا علم له بما كان من وحي الله على أم موسى. وهو أيضًا - كأخيه الذي في سفر التكوين - لا يعرف قيمة (المادة) التي بين يديه، فلا يهتم لبلاءات أم موسى وهي تلقي بفلذة كبدها في

(١) قالت التوراة (ابنة فرعون) وقال القرآن (امرأة فرعون) ولم يُعْنَ بحل هذا الخلاف أحد، وسيأتي بيان هذا إن شاء الله في سياق تفسير معنى (فرعون).

(٢) الحُمَر هو القار بلغة أهل الشام، ورثته عن العبرية - الآرامية، وفق المترجم العربي إلى اختيارها مقابلًا لذات أصلها العبري - ولكنه لم يوفق في (سفط) لأنها في الأصل العبري (تبت) أي (تابوت) كما في القرآن، بنفس المعنى، وكأنه أراد مخالفة القرآن ليس إلا. وترجم (سوف) العبرية إلى (الحلفاء) يريد (البوص)، ولا بأس به.

(٣) خروج ٢/ ٤ - ٤.

اليم عن أمر الله. ولكنه في سرده المتعجل ينزلق إلى التهافت المخل: إنه يضع (التابوت) عند مغتسل ابنة فرعون (ومغتسل الملوك كما تعلم يكون قبالة قصرهم)، كما يوضع اللقطاء عند أبواب الأديرة والمساجد. وهو لا يترك التابوت هائمًا بين الأمواج، وإنما يثبته بين الحلفاء التي على حافة النهر قبالة قصر آل فرعون كما مر بك، وكأنه يقتحم به عليهم، كي لا يفوت ابنة فرعون العثور عليه، أو يطوح به التيار بعيدًا عن أعين جواريها. إنه يدس التابوت في أيديهم دسًّا، لا يترك مجالًا للصدفة أن يلتقطه غيرهم. وكان أيسر عليه أن يحمل موسى إليهم حملًا، يذبحونه أو يستحيونه، كمن يمشي إلى طالبي دمه يحمل على يديه كفنه. وليس في هذا كرامة. ولكن الذي تعجب له عند الكاتب، ولم يلتفت هو إليه، أن (مغتسل) ابنة فرعون كان على مقتضى روايته (حِمًى) مستباحًا، تغتسل فيه ابنة فرعون مع جواريها على أعين الناس، لا يستترن إلا بتلك الحلفاء التي على حافة النهر، لا حرس موضوعًا عليه ليل نهار، ولا رقباء يذودون تطفل المارة. وإلا فكيف تفسر نفاذ من تسلل بالتابوت إلى تلك الحلفاء نفسها، وهو يقول لك إن أخت موسى ما كان لها أن تقترب، وإنما وقفت تنظر من بعيد لتعرف ماذا يفعل به؟ كان على الكاتب أن يرجع إلى القرآن ليعلم منه حقيقة الذي كان، ولكن القرآن لم يكن قد نزل بعد: ألقت أم موسى بالتابوت في اليم أقرب ما يكون إلى بيتها، وتكفلت أمواج اليم بالباقي، عن وحي الله وأمره: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[1]. فانظر إلى هذا الإيجاز المعجز الذي لا يَنِدُّ عنه تفصيل فلا تملك أن تعقب عليه بشيء، وتأمل! هل يستطيعه إلا علام الغيوب؟

والذي يعنينا في هذا السياق أن الكاتب شغله موسى عن هارون فلم يذكر ما كان من أمره: لم يحضر ولادته، ولم يسمه، فلا يفسره. وهو لا يعنى أيضًا بأن يفسر لك كيف أفلت هارون من الذبح وقد ولد قبل موسى بنحو ثلاث سنوات وبضعة أشهر، على ما يستخلصه من سفر العدد الذي يقول لك إن هارون مات وهو ابن مائة وثلاث وعشرين سنة، في السنة الأربعين

(١) سورة طه، الآيات: ٣٨ – ٤٠.

لخروج بني إسرائيل من مصر (عدد ٣٣/ ٣٨ - ٣٩)، ومات موسى بعده في نفس السنة وعمره مائة وعشرون سنة (تثنية ٣٤/ ٧). ولا شك أن تذبيح الذكور واستحياء الإناث بدأ قبل موسى بسنوات، بل وقبل زواج عمران من أم موسى، كما تستظهر من الإصحاح الأول من سفر الخروج. فكيف أفلت من الذبح هارون؟

لم يُعْنَ بهذا كاتب سفر الخروج. ولكن كان من مفسري القرآن من توقف عنده. ومن طريف ما يروى في هذا - نقلًا عن أقاصيص لأهل الكتاب بالطبع - أن فرعون حين أراد استئصال شأفة العبرانيين في مصر باستصفاء نسلهم، بدأ بتذبيح أبنائهم سنة واستحيائهم سنة، وأن هارون الذي يكبر موسى كان حقه أن يولد سنة الذبح، ولكن الله أطال حمل أمه به كي تضعه سنة الاستحياء فينجو. وإذا علمت أن الجذر العبري (هرا) معناه حبلت (المرأة)، فربما قلت - ولم أقرأ هذا لأحد - أن اسم هارون مشتق من (هرا) العبرية هذه، وكأنه (حبلان) من (الحبل) الذي طال به.

* * * *

أدى أيضًا طغيان شخصية البطل - موسى عليه السلام - إلى شحوب شخصية هارون وتضاؤل دوره في رسالة موسى عند كتبة التوراة، الذين أعضل عليهم إيجاد دور لهارون إلى جوار موسى، فنحلوا هارون دور (الصبي): صبي (النبي)، أو صبي (الحاوي). تجد دور (صبي النبي) في قول الكاتب على لسان الله عز وجل مخاطبًا موسى: (أنا جعلتك إلهًا لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك)[1]. وتجد (صبي الحاوي) في قول الكاتب على لسان الله عز وجل أيضًا، يأمر موسى بما يفعله حين تطلب منه الآية على صدق دعواه: (تقول لهارون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانًا)[2]، فلا تندهش - إن كنت مسلمًا - حين تقرأ في السفر أيضًا أن (عصا هارون) - لا (عصا موسى) - هي التي لقفت حبال السحرة وعصيهم (خروج ٧/ ١٢). كل هذا بالوساطة عن موسى بالطبع، فلا دور على الحقيقة عند الكاتب لهارون.

(١) خروج ٧/ ١.
(٢) خروج ٧/ ٩.

ولكن الكاتب - وكأنه يثأر لهارون - يقول لك إن هارون (كَهَنَ) لموسى، فألبسه موسى عن أمر الله رداء الكهنوت الأعظم: لا كهانة إلا بهارون وأبناء هارون دون غيرهم من أسباط بني إسرائيل فريضة أبدية (خروج ٢٨)، فاحتاز هارون وبنوه من بعده سلطانًا في بني إسرائيل أعظم من سلطان موسى: سلطان الرأي والفكر والفتيا بالشريعة. وهذا كله دخيل على التوراة التي أنزل الله على موسى، فلا كهنوت ولا كهانة في دين الواحد الأحد، ولا وساطة بين العبد وربه. ونحن لا نشك لحظة في أن اليهود صنعوا هذا الكهنوت من بعد موسى ليحاكوا به كهنوتًا سحر ألبابهم سلطانه العاتي في ديانة (آمون): حراس العقيدة وسدنة المعبد. ولا يفسد الدين، وتفسد العقيدة، إلا على أيدي هؤلاء الحراس والسدنة. وقد حارب المسيح عليه السلام هذا الكهنوت من قبل، ففضحه وعراه. ولكن الكهنوت انتصر من بعد، فاصطنعت المسيحية لنفسها في أوربا كهنوتًا مثله، وربما أعتى. وهبت رياح الإصلاح تريد اقتلاع هذا الكهنوت من جذوره، فلم تفرق بين الديانة والكهانة، وكان ما كان.

والذي نتوقف عنده هنا في أغراض هذا الكتاب الذي نكتب، أن كهنوت هارون وبنيه أورث اللغة العبرية بعد عصر موسى وهارون، مصطلحًا جديدًا: كان موسى وهارون كما تعلم من سبط لاوي بن يعقوب، أي كان هارون وبنوه لاويين، فأصبحت لفظة (لاوي) - وتنطق (ليفي) في العبرية المعاصرة - شائعة في أعلامها، علمًا على الكاهن خادم المعبد، وأيضًا (أهاروني)، أي المنسوب إلى (هارون) رأس هذا الكهنوت. ولا تدري كيف فات هذا المعنى (اللاوي أو الهاروني = الكاهن خادم المعبد) على أدعياء الاستشراق وأذنابهم ممن تسقطوا للقرآن قوله في مريم أم عيسى عليهما السلام: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾[1] فتهكموا رعونة وجهلاً بأن القرآن يخلط بين (مريم) أم عيسى وبين (مريام) أخت موسى وهارون، وقد خلت الأنبياء والرسل بين موسى وعيسى عليهما السلام، ونص القرآن على أن عيسى هو آخر رسل الله إلى بني إسرائيل: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾[2]، فكيف تكون أمه أختًا لموسى وهارون؟

(١) سورة مريم، الآية: ٢٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

لم يدرك هؤلاء الأدعياء وأذنابهم - وأنى لهم وقد أعماهم الحقد وأصمهم - أن القرآن ينضح ههنا بعلمه النافذ إلى صميم ديانة اليهود ومصطلحات كهنوتهم: (أخت هارون) يعني (خادم المعبد) الذي كانته أمة الرب مريم البتول عليها السلام: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[1]، إنها (هارونية) (أخت هارون)، راهبة خادم معبد، يستعظم منها أن تفعل في وهمهم الذي فعلت: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[2]، فأي علم هنا وأي جهل هناك. لم يفطن إلى هذا مفسرو القرآن، وعذرهم واضح، إذ لا علم لهم ببطائن كهنوت بني إسرائيل[3]، ولكن ما عذر أولئك الأدعياء المتعالين على القرآن وفيهم اليهودي القح، وربما كان منهم الهاروني الحبر، (أخو هارون)؟

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله. وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله عند تحليل الاسم (مريم) في موضعه من هذا الكتاب.



ولا ينقضي الكلام في هارون قبل الحديث عن دوره في فتنة العجل الذي صنعه (السامري) لبني إسرائيل في التيه: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾[4]، لأن التوراة كما تعلم تنسب صناعة العجل إلى هارون، لا إلى ذلك السامري الذي هو من

(١) سورة التحريم، الآية: ١٢.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٣) قال مفسرو القرآن الأوائل في أخت هارون: يعني صنوه في الصلاح، وليس بشيء، لأن هارون - على صلاحه - ليس وحده مضرب المثل في الصلاح. وما زلت إلى اليوم تسمع نفس هذا التفسير الساذج في الإذاعة والتلفزة من أعلام المفسرين في هذا العصر الذين يتابعون ما قاله القدماء وإن كان اجتهادًا لا سند له من قرآن أو حديث، يكتفون بهذا دون تمحيص، ولا يأتون بجديد. كان عليهم التماس معنى (أخت هارون) في مصطلح الذين قالوها لمريم عليها السلام: الهارونية، خادم المعبد.

(٤) سورة طه، الآية: ٨٨.

أفانين القرآن كما يرى أدعياء الاستشراق[1]، فتعجب لهم - وهم يهود أو نصارى آخر الأمر - كيف لا يخجلون من نسبة هذا الكفر إلى نبي من أنبياء التوراة الكبار، ويأخذون على القرآن تنزيه هارون عنه، فيصدقون كاتب سفر الخروج على هزله ويكذبون القرآن، قول الحق الذي فيه يمترون. قال كاتب سفر الخروج: (وقال موسى لهارون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطيئة عظيمة. فقال هارون لا يَحْمَ غضب سيدي. أنت تعرف هذا الشعب أنه في شر. فقالوا لي اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقلت لهم من له ذهب فلينزعه ويعطني. فطرحته في النار فخرج هذا العجل)[2]. الذي صنع العجل لبني إسرائيل فعبدوه في التيه هو إذن هارون في قول التوراة، لا السامري الذي اخترعه القرآن، فما كان لسامري من السامرة أن يندس في جماعة بني إسرائيل فيصنع لهم العجل، والسامرة بعد في أرض فلسطين لم يدخلها بنو إسرائيل إلا من بعد وفاة موسى وهارون، واستكثر هؤلاء الأدعياء على القرآن أن يستأثر بعلم الذي جهله آباء كتبة التوراة أو أنسوه أو تكتموه، فقالوا لم يسمع في تاريخ بني إسرائيل وأساطيرهم شيء عن هذا الذي كُتِبَ عليه أن يقول (لا مساس)! أبد الدهر: ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾[3]، وزعموا أن قصة السامري الذي في القرآن كانت هي الأساس الذي بنى عليه أهل الكتاب من بعد أسطورة (اليهودي التائه)، إلى آخر ما قالوه، ولم يتوقفوا ليتساءلوا: ولم لا تكون أسطورة اليهودي التائه من أهابيش ذاكرة أهل الكتاب التي سقطت من أسفار التوراة أو تكتمتها أسفار التوراة؟ ولماذا يهتم القرآن - وهو من عند غير الله بزعمهم - لمخالفة أساتذته من أحبار أهل الكتاب لمجرد تنزيه هارون عن ضلالة صنع العجل لبني إسرائيل في قول التوراة، مثلما اهتم من بعد لتبرئة مريم عليها السلام (أخت هارون!) من البهتان الذي قُذفت به في عيسى عليه السلام يوم جاءت به قومها تحمله! ما للقرآن لهذا

---

(1) Joseph Horovitz, op. cit., p. 33.

(٢) خروج ٣٣/ ٢١ - ٢٤.

(٣) سورة طه، الآية: ٩٧.

أو ذاك وهو يختصم أهل الملتين معًا؟ أليس لأنه وحده هو العليم بكل ما كان؟ الحريص على الصدق في كل ما قال؟

هؤلاء الأدعياء يهرفون بما لا يعرفون، فيقطعون ولا يتثبتون، بل ربما دلسوا عليك آمنين ألا تكشف زيفهم، ظانين أنك لست أهلًا لتجشم مؤونة الرجوع لمصادرهم: ليست (السامري) في القرآن صفة على النسب إلى السامرة التي في فلسطين (وهي (شُمرون) عبريًا بضم الشين والنسبة إليها (شُمروني) أي (السامري) الذي من السامرة)، وإنما هي صفة على النسب إلى (شِمرون) بكسر الشين، وهو شِمْرُون بن يِسَّاكَر بن يعقوب، الذي ينسب إليه (الشمرونيون)، عشيرة شمرون، من سبط يساكر بن يعقوب، أحد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر. وكلا اللفظين (شمرون بضم الشين يعني السامرة وشمرون بكسر الشين ابن يساكر بن يعقوب رأس عشيرة الشمرونيين والنسبة إليها شمروني بكسر الشين يعني واحد الشمرونيين أي (السامريين) كالذي في القرآن) مشتق من الجذر العبري (شَمَرْ)، الأولى (شمرون) بضم الشين على اسم المكان، أي السامرة، والثانية بكسر الشين على اسم الفاعل من (شمر)، ومعناه حفظ وصان وحرز، و(شَمَرْ مِنْ) يعني احترز منه وتحاماه وتوقاه[1]. وعلى هذا يكون معنى السامرة عبريًا هو الحرز أي الحصن المنيع، ويكون معنى اسم شمرون بن يساكر بن يعقوب المنسوب إليه ذلك (الشمروني) (أي السامري الذي في القرآن)، هو الحارز المحترز.

السامري الذي في القرآن هو من صميم أسباط بني إسرائيل في التيه، لا شأن له بالسامريين الساكنين السامرة في فلسطين. لم يسمه القرآن بالاسم وإنما نسبه إلى بني أبيه. ولم يفطن إلى هذا المفسرون.

ولكن القرآن المعجز الذي لم يسم هذا الرجل بالاسم، لا يفوته على منهجنا في هذا الكتاب أن يفسر لك معنى (شمروني) (أي السامري) في أصلها العبري بتلك العبارة المعجزة (لا مساس!) التي سيقولها السامري ليتجنبه الناس، أي توقوني وتحاموني، فأنا شمروني! وتندهش إذ تعلم أن صيغة أمر الجماعة من الجذر العبري (شَمَر) - إن أضفت إليها ضمير

(١) راجع الترجمة العربية على الأصل العبراني لسفر يشوع ٦/ ١٨.

المفعول للمتكلم في العبرية (ني) (كما في العربية تمامًا) - تصبح (شمروني!) أي توقوني وتحاموني! (لا مساس التي في القرآن) بنفس الرسم والنطق الذي في (شمروني) على النسب، أي السامري الذي في القرآن. ألا فسبح معي العليم الخبير، القائل بكل اللغات، ودعك من بُغاثِ الطير الذين يريدون التحليق إلى قمة ليس إليها من سبيل.

****

أما تفسير الاسم (هارون) - مقصدنا الأول في هذا المبحث - فقد مر بك أنه في العبرانية (أهارون) بزيادة الألف في أوله، وأن هذه الألف البادئة هي (ألف التحلية) *Prosthetic Aleph*، التي تزيد في المبنى ولا تزيد في المعنى، فالأصل (هارون) بنفس صورته المعربة في القرآن. ومر بك أيضًا أن علماء التوراة وكتبة أسفارها لم يتصدوا لتفسير معنى هذا الاسم في العبرية، شأنهم شأن مفسري القرآن الذين اكتفوا بالنص على عجمة هذا الاسم ولم يتصدوا لتفسيره. إلا أنه قد كان من أصحاب المعاجم، مثل معجم وبستر وغيره، من تصدوا لتفسير معنى (هارون)، استنادًا إلى علماء العبرية بالطبع، فتفاوتت تفسيراتهم على ثلاثة أقوال:

١ - إنه الخفيف النزق *nimble or light*، وهم هنا يشتقونه من الجذر العبري (أرن) بفتح الراء مكافئ (أرن) العربي بكسرها، أي خف ونشط ومرح وبطر، فهو (أرون) عربيًا. وعلى هذا القول تكون الألف الزائدة البادئة في (أهارون) أصلية، والزائدة هي الهاء. ولا يصح هذا في نحو اللغة العبرية، فضلًا عن أنه من أعلام العبرانيين على معنى الخفة والنَّزِق (أُورين)، (أَرنان) بضم الهمزة وفتحها، على الاشتقاق الصريح من الجذر العبري (أرَن)، دون حاجة إلى إقحام الهاء بعد الألف البادئة في (هارون).

٢ - إنه الفِكِّير المكير *thoughtful, deviser*، يشتقونه من (هرا) العبري الذي معناه - إن أسندته إلى فاعل مؤنث - حبلت (المرأة)، وإن أسندته إلى فاعل مذكر كان معناه: فكر وقدر *to conceive, devise* وهذا يصح في العبرية من حيث الاشتقاق، ولكن المعجم العبري لألفاظ التوراة (هملون هحداش لتناخ) عبري/ عبري، وهو من

مراجع هذا الكتاب، يقول لك إن (هرا) العبري المسند إلى الفاعل المذكر ليس من التفكير والتقدير وإنما هو يجيء على الذم بمعنى أضمر له سوءًا، أو كاد له أمرًا. ولا تصح التسمية بهذا في هارون من قبل أبيه وهارون بِكْرُه. ولا تصح به الكنية أيضًا من قبل بني إسرائيل وهارون أحب إليهم من موسى، حتى إنهم حين مات هارون اتهموا موسى بقتله غيرة منه.

٣ - إنه عليٌّ أو متعال *exulted, elated* (وربما ذكرك هذا بقوله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي!**» الذي اغتنمه أصحاب الأهواء فحملوه فوق ما يحتمل). والاشتقاق هنا يجيء من (يَهَر) وهو جذر ممات في عبرية التوراة لم يبق منه إلا (يهير) بمعنى الصليف ذي الصلف، فيفترضون أن (يهر) بمعنى (علا). وعلى هذا القول تجيء (أهارون) من (يهر) مزيدًا بالواو والنون على الفاعلية، كما جاءت (يَشَرون): (أي (شارون) من (يَشَر) وقد مر بك) فتصبح (يَهَرون) ثم تؤول بحذف الياء البادئة إلى (هارون)، ثم تضاف ألف التحلية فيؤول إلى (أهارون) برسمها في التوراة. ولا غبار على هذا التفسير من حيث الاشتقاق في العبرية، ولكن الذي يضعف منه هو انعدام الجذر (يهر) في عبرية التوراة.

ولئن كان أرجح التفسيرات الثلاثة هو التفسير الأخير(عليٌّ أو متعال)، فثلاثتها جميعًا موضع اختلاف بين علماء العبرية كما رأيت، أي ليس على أي منها إجماع. وهذا يدلك على أن علماء العبرية ليس لديهم مأثور يفسرون به هذا الاسم، وإنما هي اجتهادات لغوية ليس إلا.

ولكن القرآن لا يفسر على منهجنا في هذا الكتاب الاسم (هارون) بأي من هذه المعاني الثلاثة: الخفة أو المكيدة أو العلو. وإنما هو يجانسه على معنى القوة والشدة في مثل قوله عز وجل على لسان موسى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾[1]،

(١) سورة طه، الآيات: ٢٩ - ٣١.

﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾[1]، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴾[2]. هذه المجانسات القرآنية على الاسم (هارون)، والتي تحدد علة استنصار موسى بأخيه، لا تخرج عن معنيين: الفصاحة واللَّسَن، وأيضًا القوة والشدة، فشد أزره وشد عضده، يعني قواه، والردء من معانيه في العربية القوة والعماد، والوزارة أيضًا من هذا، فالوزير يعني حامل الثقل، والوزر عربيًّا بفتحتين يعني الجبل المنيع يعتصم به.

أما تفسير (هارون) على معنى الفصاحة واللسن، فهو مردود بامتناع تأصيله على أحرف (هارون) في العبرية. وأما تفسيره على معاني القوة والشدة والوزر، فهو سلس قريب. لا يحتاج إلى افتعال ذلك الجهد الذي بذله علماء العبرية في تفسيراتهم للاسم (هارون)، ولو فطنوا لما سنقوله الآن لما ارتضوا به بديلًا: إنه من (هار) العبرية بمعنى (جبل)، زيد بالواو والنون، إما على الصفة المشبهة (كما قالت العبرية (إِشتون) من (إِشت) أي شبيه المرأة، وقد مر بك)، وإما على التصغير توددًا وتحببًا، فهو (جبيل). وأما الألف الملصقة بهذا الاسم في العبرية (أهارون) فهي زائدة: إما هي ألف التحلية كالتي في (أدون) يعني (سيد) وأصلها (دون)، وإما هي أداة التعريف العربية (ال) حذفت لامها، ولهذا نظائر في العبرية يعرفها المتخصصون، لا نثقل بها عليك.

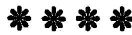
والذي ينبغي التنبيه إليه أن (هار) العبرية بمعنى (جبل)، يكنى بها عبريًّا عن القوة والثبات والصمود، تمامًا كما يفعل أهل العربية في لفظة (جبل)، بل لا تخلو أعلام العرب من (جبل)، (جبيل)، (جبلة). بل من مجاز العبرية أن تكنى عن رؤساء الشعب بلفظة (هاريم) جمع جبل، وهو مجاز يفسره المعجم العبري بعبارة (جولي هاعام) أي (أكابر الشعب)، وبلفظة (مَعَصاموت) أي القوة، ومنها في العبرية المعاصرة (مَعَصاموت جِدُولُوت) يعني

(١) سورة القصص، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٥.

(القوى الكبرى)[1].

(هارون) إذن يعني (الجبل) أو (جبيل)، وقد فسره القرآن كما رأيت على معنى الوزر والقوة، وفسره أيضًا بالتقابل في قول هارون يعتذر لأخيه في فتنة العجل: ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾[2]. وسبحان العليم الخبير.



(١) راجع مادة (هار) في (هملون هحداش لتناخ)، المرجع المذكور، ص١٢٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

(٣٢) فرعون

(فرعون) في القرآن هي تعريب (پِرْعا) المصرية القديمة، تصطلح على نطقها مكسورة الپاء ساكنة الراء، اتباعًا لمنهج علماء تلك اللغة الذين يفترضون (الكسر) حين يمتنع القطع بحركة المد الواجبة بين ساكنين، في خط لا يعبأ بإثبات حركة المد. وهي في التوراة (پرعو) بفتح الباء وسكون الراء، وتحول الألف إلى الواو.

أما (پرعا) المصرية القديمة هذه فهي اسم مزجي مركب من شقين (پر + عا)، الشق الأول (پر) يعني البيت أو الدار، والشق الثاني (عا) صفة بمعنى الكِبر أو العِظم، فهو (البيت الكبير) أو (البيت العظيم). وتدخل (پر) في تراكيب مزجية عديدة، من مثل (پر + عنخ) أي بيت الحياة أو بيت الروح، يعنون (دار الكتبة)، (پر + حض) أي البيت الأبيض، يعنون (دار الخزانة) أو (بيت المال)، (بر + نسو) أي بيت الملك، يعنون (القصر). وحين تأتي (پرعا) المصرية القديمة على المزجية فهي تفقد معناها الأصلي كبيت كبير أو بيت عظيم، وتصبح كنية يكنى بها عن شخص الملك مهابة وتفخيمًا، كما قال العثمانيون في خليفتهم (الباب العالي)، وقالوا في رئيس وزرائه (الصدر الأعظم).

والثابت لدى علماء المصريات أن (پرعا) لم تصبح اسمًا دالًّا بذاته على شخص الملك بحيث تستطيع أن تقول جاء (پرعا) وذهب (پرعا) وقال (پرعا)، إلا منذ عصر الأسرة التاسعة عشرة عصر الرعامسة الذين كان منهم (فرعون موسى) على ما نرجح نحن ويرجح معنا اليوم كثيرون.

ومن إعجاز القرآن أنه - مطلع القرن السابع للميلاد - يوم كانت اللغة المصرية القديمة،

وكان التاريخ المصري القديم، طلاسم مطلسمة عند العالم أجمع، بل وعند المصريين أنفسهم، لم يعلم فقط معنى (پرعا) في اللغة المصرية القديمة، وإنما علم أيضًا منذ متى بدأ إطلاق هذه الكنية على ملوك مصر، فخص بها فرعون موسى وحده. أما حين يذكر ملوك مصر الذين سبقوا (فرعون موسى) - كما ترى في حديثه عن الملك الذي استخلص يوسف لنفسه وجعله على خزائن الأرض - فهو يقول (الملك)، لا يخطئ مرة واحدة فيقول (فرعون).

أما كتبة التوراة - شأنهم شأن الخلق جميعًا عصر نزول القرآن وحتى أواسط القرن الماضي وأوائل هذا القرن العشرين - فقد جهلوا هذا وذاك: فسروا (پرعا) (وهي عندهم (پرعو) كما مر بك على التخمين بأنها لفظة في المصرية القديمة تعني (الملك)، وأطلقوها بلا قيد في سفري التكوين والخروج، لا فرق بين (فرعون موسى)، و(فرعون يوسف)، و(فرعون إبراهيم). وهذا يدلك بالنقد اللغوي وحده - كما مر بك - على أن أسفار التوراة المنسوبة إلى موسى عليه السلام لم تكتب على عصر موسى وهارون - أو قريبًا منه - يوم كان العبرانيون يحسنون فهم تلك اللغة المصرية القديمة بحكم وجودهم بين ظهراني المصريين نحو أربعة قرون تفصل بين عصر يوسف وعصر موسى وهارون، وإنما هي كتبت من الذاكرة - لا من الوحي المباشر - بعد خروجهم من مصر بقرون أنستهم ما كانوا يحفظون من تلك اللغة.

وأول ما يدلك على علم القرآن القاطع بمعنى البيت الذي في (پرعا) هو تلك المفاضلة المعجزة بين (بيت) عند الله في الجنة وبين (فرعون) البيت الكبير، على لسان امرأة فرعون إذ قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾[1]. أما الترجمة الدقيقة في لغتك العربية لمعنى (پرعا) هذه (البيت الكبير)، فهي (الصرح)، وبهذه الترجمة الدقيقة فسر القرآن كما سترى معنى (فرعون) - أي (پرعا) - من المصرية القديمة التي كان يجهلها الخلق جميعًا عصر نزول القرآن في مطلع القرن السابع الميلادي وحتى أواسط القرن الماضي وأوائل هذا القرن العشرين، وسبحان العليم الخبير.

(١) سورة التحريم، الآية: ١١.

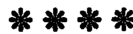
في تفسير القرآن أعلامه المصرية القديمة من مثل موسى وفرعون ومصر بلغة أهلها مطلع القرن السابع للميلاد إعجاز يخشع له العقل والقلب. فهل آن للمطنطنين بدعوى النقل والاستنساخ أن يخسؤوا؟ بل ما أحراهم وقد افتضح الجهل أن يجلسوا إلى هذا القرآن مجلس التلميذ من الأستاذ، يتعلمون منه ولا يتعالمون عليه.

وردت لفظة (الصرح) في كل القرآن أربع مرات، مرتين في الآية ٤٤ من سورة النمل، وصفًا لذلك القصر البلوري الذي بنته الجن لسليمان عليه السلام ودخلته ملكة سبأ فحسبت وهي تطؤه - لملاسته وصفائه وشفافيته - أنها تخوض في ماء رقراق: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾[1]. وأما المرتان الأخريان فكانت في تفسير معنى فرعون من المصرية القديمة بأنه (الصرح).

قال عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[2]. وقال عز وجل أيضًا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾[3].

وهو في المرتين يفسر معنى (فرعون) (پرعا المصرية القديمة) على الترادف الصريح، لا كناية ولا تصوير: پرعا = الصرح. إن أرجعت (فرعون) إلى أصلها المصري القديم (پرعا) لقلت في مثل الآية ٣٦ من سورة غافر: (وقال پرعا يا هامان ابن لي پرعا)!.

ألا فسبح معي العليم الخبير، القائل بكل اللغات، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.



أما علماء المصريات - يهود ومسيحيين - فقد أعياهم العثور على أثر أو نحت أو نقش

(١) سورة النمل، الآية: ٤٤.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٣) سورة غافر، الآية: ٣٦.

يصدق التوراة فيما ترويه من أخبار فرعون مع موسى وهارون، بله على أثر أو نحت أو نقش يستدل منه على مجرد وجود قد كان لبني إسرائيل في مصر، ناهيك بذلك الحدث الجلل الذي أغرق فرعون في اليم وهو يطارد بني إسرائيل الذين جاوزوا البحر إلى سيناء.

قال الملحدون من أهل الملتين: وماذا في ذلك؟ القصص الديني كله حديث خرافة، لا حقيقة له خارج الذهن، لا نحوت ولا نقوش إلا في أدمغة الذين آمنوا.

أما العلماء الأثبات - لا شأن لك بإيمانهم أو إلحادهم - فقد استدركوا على هؤلاء: وهل تتوقع من فراعنة مصر غير ذلك إن صحت تاريخيًّا قصة التوراة؟ ليست النصب والنحوت والنقوش في مصر القديمة صنع أفرقة من المؤرخين أو الهواة، وإنما هي تصنع وتقام بأمر الدولة وبتمويل من السلطة الحاكمة، ملوكًا أو كهنة، لا سيما النصب والنحوت والنقوش التي تسجل أخبار الملوك. والملوك يسجلون انتصاراتهم وأمجادهم، ويطمسون ما كان من هزائمهم ومخازيهم، بل ربما صوروا الهزيمة نصرًا، والفضيحة مجدًا. وكذلك يفعلون.

والذي يعنينا من هذا أن فقدان التاريخ دليله العلمي الذي يوثق به أحداث ما كان من أمر فرعون مع موسى وهارون، أدى أيضًا إلى انعدام الدليل العلمي الذي يحدد بيقين لا شك فيه شخص هذا الملك واسمه بين الفراعنة الذين حكموا مصر.

ولكن للغويين كلمتهم في هذا: قد مر بك أن لقب (فرعون) - حين يدل بذاته على شخص الملك - بحيث تستطيع أن تقول ذهب فرعون وجاء فرعون وقال فرعون تعني بها الملك بالاسم، كنية يتكنى بها، لم تسمع في مصر القديمة على هذا الوجه الصريح قبل عصر الأسرة التاسعة عشرة[1]. أي دولة الرعامسة (الأولى) التي حكمت مصر أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد ودام حكمها حوالي مائة سنة. وقد كان نصيب رمسيس الثاني من مدة حكم هذه الدولة سبعًا وستين سنة.

ولأن القرآن يخص بلفظ (فرعون) ملكًا بعينه من ملوك مصر، اسمًا علمًا، مُغايرًا بين

(١) انظر: *A. Gardiner, EGYPTIAN GRAMMAR*، المرجع السابق، ص٧٥.

(الملك) الذي جعل يوسف على خزائن الأرض، وبين الطاغية الذي علا في الأرض أي في مصر (على ما مر بك من أن (مصر) بلغة أهلها يومئذ تسمى الأرض) وجعل أهلها شيعًا، لا يريد به أي (فرعون) سبقه أو تلاه، فهو يعني بالتأكيد (أول) فرعون تَلَقَّبَ به لا ينادى بغيره، أي أول فرعون استقر له هذا اللقب فعرف به. فهو أول الرعامسة إن شئت، أو أشهرهم بهذا اللقب. لا شأن لك بمن اصطنعوا اللقب من بعده، (أشباح فراعين) ليس لهم من الاسم إلا رسمه.

ولكنك تستبعد رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة، لأن حكمه لم يدم إلا سنة واحدة أو سنة وبعض سنة، وتستبعد أيضًا خليفته سيتي الأول الذي دام حكمه ثلاث عشرة سنة. تستبعد هذين لأن مدتي حكمهما (نحو ١٤ سنة) لا يستوعب أيهما أحداث ما كان بين فرعون وموسى. ولكنك تتوقف عند رمسيس الثاني خليفة سيتي الأول لا تعدوه إلى غيره، لا لطول مدة حكمه التي دامت سبعًا وستين سنة فقط، وإنما أيضًا وبالأخص لأنه أحق فراعين مصر بهذا اللقب، بل هو على الراجح أول من تلقب به.

وأنت تستبعد بالطبع (مرنبتاح) (منفتاح) خليفة رمسيس الثاني، وإن حلا لمؤرخين التوقف عنده. تستبعد هذا بالدليل التاريخي: (لوحة إسرائيل) (الأثر المصري الوحيد الذي جاء فيه ذكر (إسرائيل) بالاسم) وفيها يقول ذلك الملك إنه في السنة الثالثة أو الخامسة من حكمه حارب في آسيا فصال وجال: (يِنْعِم أصبحت كأن لم تكن، وإسرائيل أبيدت ولن يكون لها بذرة، وأصبحت حورو (أي فلسطين وما حولها) أرملة لمصر)[1].

والذي حارب إسرائيل في فلسطين فانتصر عليهم وأباد بذرتهم، ثم عاد إلى مصر سليمًا معافى يكتب هذا النقش، لا يمكن بداهة أن يكون هو نفسه (فرعون) الذي هلك في اليم غريقًا وهو يطارد بني إسرائيل في عبورهم البحر إلى سيناء، كما تقول التوراة وكما يقول القرآن. بل في هذه اللوح - (لوحة بني إسرائيل) - مهما قلت في طنطنة هذا الملك - الدليل

(١) ما بين علامتي الاقتباس منقول عن: أحمد فخري، (مصر الفرعونية)، مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة ١٩٨٩، صفحة ٣٧٦، الحاشية (١).

التاريخي الكافي على وجود قد كان لبني إسرائيل على عصر مرنبتاح في فلسطين أو في الطريق إلى فلسطين - أعني في تيه سيناء. وهذا يدلك على أن بني إسرائيل خرجوا من مصر إلى فلسطين قبل أن يخلف مرنبتاح أباه رمسيس الثاني على عرش مصر، أي كان خروجهم إلى تيه سيناء قبل مرنبتاح، لا في عهده ولا في عهد من جاءوا بعده رعامسة وغير رعامسة. فلم يكن لإسرائيل كيان في فلسطين قبل خروجهم من مصر، لأن إسرائيل الذي ينسبون إليه رجل فرد، دخل مصر قبل أن يتحقق لبنيه هذا الكيان لا في فلسطين ولا في غيرها. إذن فقول مرنبتاح - مهما تشككت في طنطنته - إنه حارب إسرائيل في فلسطين يفيد ثبوت علمه بوجود شعب أو قبيلة بهذا الاسم خارج مصر، وهذا العلم وحده قاطع الدلالة على خروجهم من مصر قبل مرنبتاح لا بعده. فتعجب كيف يتورط مؤرخون في توقيت خروج بني إسرائيل من مصر بعهد مرنبتاح وفي أيديهم وتحت بصرهم هذا الشاهد التاريخي القاطع؟ عليك إذن - شأن المؤرخ الجدير بهذا الاسم - التماس فرعون موسى في رمسيس الثاني ومن سبقوه، لا شأن لك قط بمن خلفوه.

على أنك تكتفي من (لوحة إسرائيل) بهذا الدليل التاريخي القاطع على ارتحال بني إسرائيل من مصر قبل عهد مرنبتاح، لا تعدوه إلى طنطنة هذا الملك بانتصاراته في آسيا فالراجح أن هذا الملك - طوال حكمه الذي دام إحدى عشرة سنة - لم تطأ قدماه أرض سيناء، ناهيك بأرض فلسطين، لانشغاله عن بوابة مصر الشرقية بحروبه مع ليبيين شنوا على مصر من الغرب حملات استيطانية كان لهذا الملك - وهذا هو الإنجاز الوحيد الذي يسجله التاريخ لمرنبتاح - فضل حماية مصر منها.

هذا وحده هو الذي يفسر لك - إن سلمت بأن فرعون موسى نفسه هو رمسيس الثاني والد مرنبتاح - سبب سكوت مصر عن ثاراتها لدى بني إسرائيل أربعين سنة في تيه سيناء، وتطوافهم بين جبالها ووهدانها وكأنه لا وجود لمصر عسكريًّا في سيناء، ولم يعن بالتساؤل عن سر هذا السكوت والإغضاء أحد: لا تنام مصر عن سيناء إلا في عصور الفوضى. كان هذا هو ديدن مصر منذ فجر التاريخ وإلى اليوم. نامت مصر عن ثاراتها لدى بني إسرائيل في

سيناء لانشغالها بمصيبتها في داخلها: سقوط الدولة. لم يمت فرعون موسى على سريره حتف أنفه، وإنما هلك في كارثة كبرى، أودت بين ليلة وضحاها لا بملك مصر وحده، بل وبالملأ من وزرائه وأمرائه وقادة جنده. وكان على مرنبتاح الذي آل إليه العرش وهو في الستين من عمره أن يواجه هذا كله، بالإضافة إلى أطماع من تحينوا الفرصة للوثوب على مصر واستيطانها، كما ترى في تلك الحملات الليبية التي تصدى لها هذا الملك وانشغل بها عما عداها. على أن الاضطرابات والقلاقل داخل مصر بدأت من أواخر عصر رمسيس الثاني، وهي اضطرابات وقلاقل لا تفسرها فقط بشيخوخته كما يقول المؤرخون، وإنما تفسرها أيضًا بكوارث طبيعية، وقلاقل سياسية، الأولى تأديب من الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1]، وجاءت الثانية نتيجة افتضاح فرعون وسقوط هيبته عند شعبه وعند الملأ من بلاطه بتوالي هزائمه أمام موسى وهارون.

ويقول المؤرخون[2] إن أحوال مصر ازدادت سوءًا وخطورة على عهد مرنبتاح، وتفاقمت بالصراع على السلطة في بلاط من خلفوه، فتمزقت البلاد شر ممزق، وأعلن كثيرون من كبار حكام الأقاليم استقلالهم، وغزيت مصر من الخارج، وظل الناس سنوات دون حاكم عليهم، حتى كان الرجل يذبح جاره، واستطاع رجل من أصل سوري تنصيب نفسه ملكًا على مصر، ينهب ممتلكات الناس ويهمل المعابد، فختمت به شر ختام الأسرة التاسعة عشرة بعد نحو ربع قرن من مهلك رمسيس الثاني.

أفتجد في تاريخ مصر أنسب من هذا المناخ لسكوت مصر عن ثاراتها في سيناء؟

أما طنطنة هذا الملك بخروجه إلى سيناء وحربه مع بني إسرائيل يستأصل شأفتهم ويبيد بذرتهم، فهي أماني العاجز عن الثأر لمهلك أبيه، يعلل بها النفس، كالذي تقرؤه في ديوان امرئ القيس من شعر حماسي يدبجه في مصارع الذين قتلوا حِجرًا أباه.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٠.

(٢) أحمد فخري - (مصر الفرعونية) - المرجع المذكور، الصفحتين ٣٧٨، ٣٨٧ (ما بين الصفحتين لوحات مصورة).

على أن من المؤرخين من يرتفع بتاريخ خروج بني إسرائيل من مصر أربعة قرون سبقت عصر مرنبتاح، فيرد هذا الخروج إلى عصر الملوك الرعاة - الهكسوس - الذين حكموا مصر نحو قرنين من حوالي منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد. وربما نزل بعضهم بتاريخ هذا الخروج إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة، وتدرج به من تحوتمس الثالث إلى أمنحوتب الثاني فأمنحوتب الثالث، ثم إلى أمنحوتب الرابع، أي أخناتون، في محاولة للربط بين خروج بني إسرائيل من مصر وبين ما يسمونه (ثورة أخناتون) الدينية[1]، تمسحًا بهذا الملك في تأصيل زعمهم بأن أخناتون هذا هو أول قائل بعقيدة التوحيد، وأن التوراة نقلت عنه فكرة عبادة الواحد الأحد، كما استنسخ داود مزموره (١٠٤) من نشيد أخناتون الإلهي، متناسين أن بني إسرائيل هم الذين جاءوا إلى مصر بهذه العقيدة مع يوسف ويعقوب عن جدهما إبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين. والحق أن عقائد المصريين جميعًا، ومنها العقيدة التي جاء بها أخناتون، ليست إلا تنويعات على لحن واحد، وإنما هم يتبدلون أسماء بأسماء. وليس (أتون) (يعني شعاع الخلق والحياة المنبثق عن قرص الشمس) بأفضل من (آمون) إن أردت التجريد، لأن (آمون) في اللغة المصرية القديمة معناها (الخفي المحتجب)، أي الذي هو وراء كل معبود مشهود، أما (آمون - رع) فهو الإله الأكبر الذي وراء قرص الشمس الإله. والذي فعله أخناتون كان في حقيقته صراعًا على السلطة مع كهنة (آمون). وما كان إقصاؤه الآلهة الأخرى فلا يعبد مع (آتون) غيره، إلا إقصاء لسدنتها وكهنتها، كي ينفرد أخناتون وحده بالكهانة: لا توسل إلى (آتون) إلا به، ولا وساطة بين (آتون) وبين الناس إلا من خلاله. وما هكذا يكون التوحيد أيما نصبت من إله.

على أن التوحيد - فطرة الله التي فطر الناس عليها - بدأ بآدم، ثم ضل من ضل فانتهى إلى الشرك. ولا يخلو شرك من أصل للتوحيد يرد إليه: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[2]، أي أن الشرك هو اصطناع الوسائط بين الخلق والخالق، فهو (الكهانة). وليس الإلحاد ثورة

(١) المرجع نفسه، صفحة ٣٧٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

على التوحيد، وإنما هو في أصله إن تمعنت ثورة على الشرك، أي ثورة على الكهنة الذين يعددون الأرباب والوسائط تكثيرًا للأرزاق والجراية، ثم يقفون على أبواب المعابد يقبضون منك الصدقة إتاوة، كالمتسول، الجبار ذي العاهة، يريك من عكازه هراوة غليظة يدق بها عنقك إن تأبيت عليه.

متى رمزت إلى الله عز وجل برمز، فقد فسد الدين، وانصرف الناس عن الأصل إلى الرمز، حتى عبدوا الحجر والشجر. والكهان - وأخناتون منهم - هم الذين يبتدعون لك هذه الرموز ليحكموك بها.

على أن أخناتون لم يعرف الله عز وجل حق معرفته، لأنه يوحد (آتون) ليستأثر به لنفسه. ونشيده الإلهي تهاويم شاعر، أكثره مسبوق مأثور، تقرؤه في تسابيح المصريين من قبله لآمون وغيره. وإنما طنطن الملحدون من أهل الملتين بأخناتون تدليلًا عن أن وحي الله عز وجل على رسله مسبوق بما قاله هذا الشاعر الملك المتحنث، بل الملك النبي في قول البعض. وما كان لنبي يدعو الناس إلى الواحد الأحد أن يدعي - كما قال أخناتون في نشيده - أنه ولد من صلب إلهه.

وقد انزلق إلى هذا الوهم أيضًا مؤرخون معاصرون مصريون مسلمون، فرحوا بأخناتون الملك النبي الذي سبق موسى وهارون! قد أصابهم الزهو العرقي المميت، فعموا عن الحق، ربما تعللت لهم بأنهم لا يقرءون القرآن - وهذا أقبح الذنب - ولكنك لا تعفيهم من إثم إشاعة هذا الضلال (العلمي) بين الناس، وأهل الأدب بوجه خاص.

أما المقارنة التي يعقدونها بين نشيد أخناتون وبين مزمور داود (١٠٤) فلك أن توازن بين النصين[1]، ولن تجد في القليل الذي اتفقا فيه إلا أفكارًا شائعة لا تحتاج إلى أخذ اللاحق عن السابق. على أن المزمور (١٠٤) ليس محقق النسبة إلى داود عليه السلام، دليلك في هذا

(١) اقرأ المزمور (١٠٤) في موضعه من مزامير داود بالكتاب المقدس. واقرأ نشيد أخناتون في: أحمد فخري، مصر الفرعونية، المرجع المذكور، الصفحات ٣٢٣ - ٣٢٨.

من (الكتاب المقدس) نفسه، الذي سكت عن نسبة مزامير بعينها، منها هذا المزمور، لداود: قال في بعضها: (المزمور (..) لداود)، وسكت عن الباقي.

* * * *

دام حكم رمسيس الثاني سبعًا وستين سنة، فهو أطول ملوك مصر القديمة حكمًا بإطلاق، لا الرعامسة فحسب، فلا تجد بين ملوك مصر القديمة فرعون غيره يستوعب حكمه أحداث ما كان منذ التقاط آل فرعون موسى من اليم وتنشئته في قصر فرعون حتى يبلغ مبلغ الرجال، ويقتل موسى ذلك المصري فيفر من آل فرعون إلى مدين حيث يصهر إلى كاهنها (يثرو) ويمكث عنده عشر سنوات، يعود بعدها إلى فرعون هذا نفسه، ويحاوره فرعون ويداوره، وتمضي بهما السنون حتى يخرج موسى ببني إسرائيل إلى تيه سيناء وقد ناهز موسى الثمانين كما تقول التوراة أو حسابات التوراة، فقد امتد الأجل بموسى في تيه سيناء أربعين سنة ومات في التيه وعمره مائة وعشرون سنة، كما مر بك من قول الكاتب في سفر الخروج. ومهما عجبت لمبالغات التوراة في أعمار أبطالها، فلا شك أن الحوار بين موسى وفرعون قد طال سنوات، لقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1]، وأنت تعلم أن الرسل باستثناء عيسى عليه السلام يبعثون في تمام الأربعين. فر موسى إذن إلى مدين وقد ناهز الثلاثين، وعاد إلى مصر بعد عشر سنوات حيث نودي من جانب الطور الأيمن في سيناء، ثم ناجز فرعون سنين، ليخرج ببني إسرائيل إلى تيه سيناء وقد ناهز العقد السادس من عمره، إن لم يزد.

لا يتسع لهذه العقود الخمسة أو الستة حكم أي ملك من ملوك مصر القديمة منذ (نعرمر) موحد القطرين إلى رمسيس الثاني. وقد مر بك القول في الشاهد التاريخي - لوحة إسرائيل - المانع من أن يكون (مرنبتاح) - ابن رمسيس الثاني - هو فرعون موسى - لا مرنبتاح ولا جميع من خلفوه. لا يتسع لهذا إلا حكم رمسيس الثاني وحده (٦٧ سنة) إذا

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٠.

كان الفرعونان واحدًا: الذي احتضن وربى، ثم جحد وعصى. والقرآن على هذا لأنه يخص بلفظة (فرعون) ملكًا بعينه، اسمًا علمًا، لا يعدوه إلى غيره.

ولكن التوراة تقول لك في سفر الخروج إن فرعون الذي التقط موسى من اليم فاحتضنه ورباه، وفرَّ منه موسى إلى مدين بعد قتله ذلك المصري، ليس هو نفسه فرعون الذي هلك في اليم غريقًا. بل مات وموسى لا يزال بعد في مدين (خروج ٢/ ٢٣)، فلم يعد موسى إلى مصر إلا بعد أن (مات جميع الذين يطلبونه)[١] ليقتلوه بذلك الرجل المصري. فهما إذن فرعونان: فرعون الذي ربى، وفرعون الذي بعث موسى عليه السلام إليه رسولًا. وقد رتب بعض المؤرخين على هذا أن (فرعون الخروج) هو مرنبتاح، خليفة رمسيس الثاني. وهذا مردود بما مر بك من الشاهد التاريخي على امتناع دور (فرعون الخروج) على مرنبتاح وكل من خلفوه. وهو مردود ثانيًا بأن موت ملك مصر لا يسقط الجرم الذي اجترحه موسى بقتله ذلك المصري، كما وهم كاتب سفر الخروج، الذي أراد تعليل إقدام موسى على العودة إلى مصر وهو فيها مهدر الدم. وليس بلازم، لأن الله عز وجل يعصم أنبياءه، بل قد توجس منها موسى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾[٢]: الذي خرج من مصر فرارًا من بطش فرعون قد عاد إلى فرعون هذا نفسه بسلطان الله ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾[٣].

على أنك لا تأخذ كل ما يسطره هذا الكاتب مأخذ الجد، فهو لا يني يتحفك بمحالاته. من ذلك قوله في نفس الإصحاح (خروج ٤/ ٣٤ - ٣٦) وقد فرغ من تسجيل نزول الرسالة على موسى: (وحدث في الطريق إلى المنزل أن الرب التقاه ليقتله - يعني أراد الله أن يقتل موسى - فأخذت صِفُّورة (زوج موسى) - وأصلها العبراني (صِبُّورة) يعني (عصفورة) - صوانة وقطعت غرلة ابنها ومست رجليه وقالت إنك عريس دم لي، فانفلت عنه - أي انصرف الرب عن موسى وعدل عن قتله - حين قالت عريس دم، من أجل الختان). وقد أحرج هذا

(١) خروج ٤/ ١٩.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٤، ١٥.
(٣) سورة القصص، الآية: ٣٥.

النص شراح التوراة: بأي ذنب يقتل الله موسى وقد اصطفاه نبيًّا رسولًا؟ قالوا إن موسى أهمل ختان ابنه فكاد أن يهلكه بهذا الذنب، لولا قطع صفورة غرلة ابنها (يعني ختنته) فعفا الرب عن موسى، فلا تدري كيف علمت صفورة بغضب الله على موسى واعتزامه قتله وموسى في الطريق إلى المنزل. أما قولها إنك (عريس دم لي) - وهي بالعبرية (حتن دميم) - فهم يفسرونها بأن الزوجية انقطعت بينهما بغضب الله على موسى لإهماله ختان ابنه، وعاد لها موسى عريسًا بمقتضى دم الختان الذي مست به رجليه[1]. هراء يفسر بهراء مثله. لم يتوقف الكاتب لحظة ليسائل نفسه: كيف يقتل الله النبي الذي اصطفاه برسالاته وبكلامه؟ ولم؟ ألأنه أهمل ختان ابنه كما قال الشراح من بعد هذا الكاتب؟ أفكان موسى يتوقف لحظة عن ختان ابنه لو ذكره الله به قبل أن يقرر قتله؟ أم أراد الله أن يبيت له كي يأخذه على غرة؟ وهَبْهُ أراد قتله، فهل يمشي الله إليه ليقتله أم يبعث إليه بملك يقبض روحه؟ وهَبْهُ مشى إليه ليقتله، فهل تحول دونه حيلة صفورة؟

لا عليك. هذا الكاتب كأخيه الذي في سفر التكوين يهزل أحيانًا. ومحالاته حشو لا يلزمك، فليس هذا من التوراة التي أنزل الله على موسى.

* * * *

على أن في التوراة دليلين (جادين) يشيران إلى أن (فرعون الخروج) هو نفسه رمسيس الثاني، ولم يحظيا من المؤرخين بالعناية الواجبة والتدقيق الكافي.

الدليل الأول تجده في سفر الملوك الأول: (وفي السنة الخامسة للملك رَحَبْعام صعد شِيشَق ملك مصر (يريد شِيشَنْق) إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك..)[2]. ورحبعام هذا هو ابن سليمان بن داود، وتقرأ فيه أيضًا أن سليمان الذي حكم

(١) راجع هذا تحت مادة (حتن) في المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، وهو من مراجع هذا الكتاب.

(٢) ملوك أول ١٤/ ٢٥ - ٢٦.

أربعين سنة بدأ حكمه في السنة الأربعمائة وست وسبعين لخروج بني إسرائيل من مصر (ملوك أول ٦/ ١). إن أضفت هذا إلى ذاك كان صعود (شيشق) هذا إلى أورشليم في السنة الخمسمائة والعشرين لخروج بني إسرائيل من مصر. ما عليك إذن إلا أن تعين مدة حكم (شيشق) على مصر، وتضيف إلى بدايتها - أو نهايتها إن شئت - ٥٢١ سنة حتى تصل بالتقريب إلى عصر (فرعون الخروج). ولكن تاريخ الأسر الحاكمة في مصر يسمى خمسة ملوك باسم (شيشنق)، شيشنق الأول إلى شيشنق الخامس، وليس لدينا، ،لا لدى المؤرخين أيضًا، الدليل الحاسم على أي الملوك الخمسة هؤلاء كان شيشنق المعني. ولكن الذي نتوقف عنده هو أنك إن اخترت شيشنق الخامس (منتصف القرن الثامن) وأضفت خمسة قرون منذ خروج بني إسرائيل من مصر إلى عصر رحبعام، لوجدت نفسك في قلب القرن الثالث عشر قبل الميلاد، قرن رمسيس الثاني! أما إن أصررت على شيشنق الأول (منتصف القرن العاشر) كما يصر المؤرخون بلا دليل لديهم، ثم أضفت القرون الخمسة، فقد وصلت إلى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أي عصر تحوتمس الثالث، الذي يرشحه بعض المؤرخين كما مر بك لدور (فرعون الخروج). ولا يصلح تحوتمس الثالث بالذات لهذا الدور بدليل لا يصح فيه جدل غفل عنه أولئك المؤرخون: خلف تحوتمس الثالث ابنه أمنحوتب الثاني الذي حارب بضراوة في آسيا، مارًّا بسيناء بالطبع. أفلم تقع عيناه على شراذم بني إسرائيل في التيه فيمزقهم شر ممزق انتقامًا لمهلك أبيه على أيديهم؟ كيف سلم بنو إسرائيل من ثارات مصر أربعين سنة؟ لم يعن ببحث هذه النقطة من المؤرخين أحد. وقد تقدم.

أما الدليل الثاني من التوراة على أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني بالذات، وهو دليل حاسم هذه المرة، فأنت تعلم من التاريخ أن هذا الملك ابتنى لنفسه عاصمة في شمال شرقي الدلتا أسماها باسمه: (پر - رعمسيس)، يعني (بيت رمسيس). وتعلم من التوراة (خروج ١/ ١١) أن فرعون موسى سخر بني إسرائيل في بناء مدينتين: مخازن فيثوم، ثم رعمسيس. ولا يمكن أن تكون (رعمسيس) التي يعنيها الكاتب سوى (پر - رعمسيس) التي ابتناها رمسيس الثاني، فليس في مصر القديمة شمالي شرق الدلتا قرب منازل بني إسرائيل في مصر مدينة بهذا الاسم

غيرها. والذي يبني لرمسيس الثاني مدينته هذه لا يمكن أن يكون خروجه من مصر سابقًا على عصر هذا الملك. ربما قلت إن هذه من أفانين الكاتب، ينحل قومه شرف بناء مدينة لفرعون، ولكن الكاتب لا يقولها في معرض التفاخر، وإنما يقولها للتدليل على التسخير والذلة والمهانة. لو أراد المفاخرة لما أعضل عليه انتحال أثر مصري أعظم وأخلد، كما ادعى متبجحون من يهود هذا العصر أنهم المهندس الذي كان وراء بناء الأهرام. قد عاصر بنو إسرائيل إذن رمسيس الثاني في مصر، لم يخرجوا منها قبله. وهم كما مر بك لم يخرجوا على عصر خليفته مرنبتاح ومن جاءوا بعده. فلم يبق إلا أن يكون رمسيس الثاني هذا نفسه هو (فرعون الخروج).



ومن المؤرخين من يشفق من هذا، لا يريد أن يكون رمسيس الثاني، ذلك الفرعون العظيم، سيد العالم في زمنه، هو نفسه (الفرعون الملعون) في القرآن، بينما القرائن كلها تشير إليه، وينعدم الدليل العلمي على من يحل محله من ملوك مصر في البوء بإثمه. والسبب أنهم مبهورون بشخصية هذا الملك، أشهر فراعنة مصر وأعظمهم على الإطلاق، متى قست العظمة بالعلو والاستعلاء، والزهو والفخر والتجبر، والبناء والنحت والنقش، وإن كذب وزيف، كما ترى من نقشه الذي يحول هزيمته في قادش إلى بطولة ونصر مؤزر، وكما ترى من سرقته آثار غيره ينسبها لنفسه، مثل بهوي الأعمدة في الأقصر والكرنك. كل هذا عند هؤلاء المؤرخين (هنات) لا تقلل من عظمة هذا الملك، الذي يشفقون من مهلكه ذليلًا خاسئًا بعصا موسى على أيدي شرذمة من بني إسرائيل.

ولو أن هؤلاء المؤرخين آمنوا واتقوا، وقرءوا طويلًا في هذا القرآن، لأدركوا أن الله عز وجل إنما يرسل الرسل إلى هذا الصنف بالذات من الملوك الجبابرة الطغاة: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1]، الذين آتاهم الله من كل شيء فجحدوا واستكبروا، وتألهوا: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن

(١) سورة يونس، الآية: ٨٣.

يَخۡشَىٰٓ﴾[1]. وما كانت العبرة لتحدث لو كان فرعون هذا ملكًا هَمْلاً. على أنه لم يقل أحد بأن بني إسرائيل ناجزوا فرعون فغلبوه، وإنما هم فروا منه بليل، يتوجسون. بل كان مهلك فرعون بآية كونية كبرى، تناسب (جبروت) هذا الملك، الذي علا واستكبر، فقصمه جبار السماوات والأرض، لا كبير غيره.

يؤيد هذا أن مهلك رمسيس الثاني كان آخر عهد مصر بالعظمة، فلم تقم لها من بعد قائمة، إلا هبات هنا وهناك، وجذوة تحت الرماد تريد أن تتوهج وسرعان ما تنطفئ. وكأنما حلت بمصر اللعنة (وهي لعنة الفراعنة إن تمعنت). وإنما كانت سقطة مصر الفرعونية إلى أبد الدهر تأديبًا لها على سكوتها عن هذا الطاغية، ولو كان فرعون موسى أسبق من رمسيس الثاني، لما كان لعصر رمسيس الثاني في تاريخ مصر محل. تلك هي عاقبة السكوت على كل طاغية متأله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾[2]، ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾[3]، ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[4]، ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾[5]، ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾[6].

لو أن رمسيس الثاني آمن لموسى لتغير وجه التاريخ البشري كله، وتاريخ مصر بوجه خاص. ولكن لا مجال في التاريخ لكلمة (لو) التي تفتح عمل الشيطان كما قال الصادق المصدوق ﷺ، إنه قضاء الله عز وجل لا راد لحكمه، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين.

* * * *

(١) سورة النازعات، الآيات: ٢٣ – ٢٦.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.
(٥) سورة هود، الآية: ٩٩.
(٦) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ – ٢٩.

وقد كان من آل فرعون من آمن لموسى وهارون. تجد هذا في القرآن ولا تجده في التوراة، ولكنهم كتموا إيمانهم خشية بطش هذا الطاغية. من هؤلاء ذلك الرجل من آل فرعون في سورة غافر الذي لم يطق صبرًا فاستعلن لهم بإيمانه: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾[1]. بل من هؤلاء أيضًا امرأة فرعون نفسه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2].

أفقد كانت هذه هي أم موسى بالتبني، التي التقطته من اليم فاتخذته ولدًا؟ التي قالت لزوجها ترقق قلبه: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[3]؟ القرآن على هذا، فلم ترد (امرأة فرعون) في كل القرآن إلا في هذين الموضعين فحسب (القصص: ٩ - التحريم: ١١)، اسمًا علمًا على تلك التي كانت سببًا في استحياء موسى فكان جزاؤها من الله عز وجل أن تؤمن به ليكون لها حسن ثواب الآخرة.

فما بال التوراة تقول إن التي التقطت موسى من اليم فتبنته هي (ابنة فرعون)، ليست هي (امرأة فرعون)؟ أفتكون الابنة والزوجة شخصًا واحدًا؟ أفقد تزوج رمسيس الثاني ابنته؟

نعم. فقد كان من مخازي هذا الفرعون (العظيم) أنه تزوج ثلاثًا من بناته[4]!

ربما استفظعت هذا. لا عليك. فقد سبقه بها الملك (القديس) أخناتون، الذي تزوج ابنته (عنخِس إن پا أتون) وهي في الثانية عشرة من عمرها بعد أن فارقته أمها (نفرتيتي) فاستولد ابنته (حفيدته) منها (عنخس إن پا أتون) - الصغرى - ولما رأى أن ابنته لم تنجب له وريثًا للعرش وقد حرم من ذريته الذكور، زوجها من أمير صغير في التاسعة من عمره استخلفه على العرش، وهو (توت عنخ آمون)[5]!

(١) سورة غافر، الآية: ٤٥. (٢) سورة التحريم، الآية: ١١.

(٣) سورة القصص، الآية: ٩.

(٤) انظر: أحمد فخري، مصر الفرعونية، المرجع المذكور، صفحة ٣٧٤.

(٥) المرجع نفسه، صفحة ٣٣٣. وأنت تعلم من التاريخ أن زواج المحارم، وبالذات من الأخت، كاد=

هذا قد يفسر لك قول التوراة (ابنة فرعون) على معنى (امرأة فرعون) الذي في القرآن، أي (الابنة - الزوجة) التي كانت لرمسيس الثاني.

* * * *

قال فرعون بعدما عاين الآية الكبرى وهو يغرق، يوم لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا[1]: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾! فقال عز وجل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[2].

وهاتان الآيتان من إعجاز القرآن إن تمعنت: لم يترك الله جثمان رمسيس الثاني في قاع اليم طعامًا لوحوش البحر، بل أصعده إلى نجوة منه، ليتحقق من مهلكه الذين تأله لهم. ورغم ظروف مهلكه التي ترجح معها أنه ما حنط حتى رم، فقد حفظ جثمانه على أحسن ما يكون تحنيط المصريين مومياءات ملوكهم. ويكاد الفطر يتسلل إلى مومياءه في المتحف المصري فتفسد وتتحلل، ولكن الله يقيض له خبراء أجانب يعكفون على تطبيبها فتصح. وكم ذعروا يوم فكوا لفائفها وذراع رمسيس الثاني تنتفض مشرعة إلى أعلى، وكأنها تيبست على حالها يوم هلك، يستغيث ولا مغيث، أو يوحد بها الواحد الأحد. ويظل تمثال له مجندلًا في صعيد مصر قرونًا، يمر عليه الرائح والغادي، حتى جاءوا به لِيُنَصِّبوه في ميدان بوسط القاهرة، فيعبث به الصبية: يتخذون من نافورة في قاعدة التمثال (مبالة)! وتختنق القاهرة بسكانها، فتقام

= يكون سنة متبعة في فراعنة مصر، حفاظًا على الدم الملكي، أو استعلاء على الرعية أن يطأ السوقة بنات الملوك، وكأنهم جيل من بقايا جيل آدم الأول، لا تجد المرأة من ينكحها إلا أخاها، فيخالف آدم وحواء بينهم بالبطون: يتزوج بنات البطن الواحد من ذكور بطن سبق. ولكنك لا تسمع بمن ينكح ابنته إلا فاسق أو متأله مجنون. لم يكتف رمسيس الثاني بزوجاته ومحظياته وإمائه وقد أسرف فيهن (المرجع نفسه، صفحة ٣٧٤) بل اهتجن ثلاثًا من بناته.

(١) يعني إذا جاء ملك الموت فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف (راجع الآية ١٥٨ من سورة الأنعام).

(٢) سورة يونس، الآيتان: ٩١، ٩٢.

الكباري والمعابر على أعناق ميادينها، ويغرق التمثال في طوفان البشر، ويُطاطئ الرأس التي علتها أقدام المارة، يطلون عليه - إن أطلوا - من علٍ! أهذا هو فرعون موسى؟ ربما.

* * * *

ولكن القرآن المعجز لا يتركك هائمًا بين الشك واليقين، تبحث عن (فرعون موسى) بين فراعنة مصر، ولكنه يسميه لك بالاسم: إنه ليس (أي) فرعون، يتجادل الباحثون فيه، أي الفراعين كان، ولكنه (فرعون ذو الأوتاد).

قال عز وجل، يسمي فرعون المعني: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾[1]، وقال فيه أيضًا: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[2].

أما مفسرو القرآن[3] فقد فسروا هذه الأوتاد على معنى الوزراء والأنصار والأعوان. وليس بشيء، فلكل ملك - وإن ذل - وزراء وأنصار وأعوان، وما كان لفرعون موسى أن يخصه الله بلقب شائع في الملوك جميعًا.

وأما أنت - وقد علمك الله من هذه اللغة المصرية القديمة ومن تاريخ الفراعنة وآثارهم ما لم تكن تعلم - فقد علمت أن رمسيس الثاني انتحل لنفسه بناء بهو (الأعمدة) الذي في معبد الكرنك، وهو أعظم آثاره المنسوبة إليه، و إن كان التاريخ يرد الشروع في بنائه إلى جده رمسيس الأول، ويقول إن أبا رمسيس الثاني، (سيتي الأول)، ربما أتم بناءه أو كاد، وجاء رمسيس الثاني يضع (اللمسات الأخيرة) فملأ أعمدة هذا البهو بنقوش تحمل اسمه، غلبت على كل ما كان باسم جده وأبيه، ينتحل كعادته هذا الأثر المعماري الفني العظيم لنفسه، فنسب إليه، لا يعرف به غيره.

(١) سورة ص، الآية: ١٢.
(٢) سورة الفجر، الآيات: ٩ - ١٤.
(٣) راجع تفسير القرطبي لهذه الآيات من سورتي ص والفجر.

ربما قلت وما شأن (ذي الأوتاد) بصاحب هذه (الأعمدة)؟

الجدير بالذكر أن علماء المصريات العرب لا يستحدثون الأسماء للأثر الفرعوني المكتشف، ولا يترجمون اسمه من المصرية القديمة إلى العربية، وإنما هم يترجمون اللفظة الإنجليزية الموضوعة له وفق المصطلح الذي يضعه علماء المصريات الأجانب. قال هؤلاء في ترجمة (يونيت) المصرية القديمة *Hall of Columns* فقال علماء المصريات العرب (بهو الأعمدة). ولكن هذه (الأعمدة) ليست للزينة والزخرفة، وإنما هي دعائم وأوتاد جبارة، يرتكز عليها - أو كان يرتكز - سقف هائل. إنها أشبه شيء بكتل خرسانية ضخمة تحمل فوق رأسها منشآت جبارة تزن مئات الأطنان. (الأوتاد) هنا إن تمعنت، بعد مشاهدة هذا الأثر بالطبع، ترجمة أدق وأولى.

وسبحان علام الغيوب.

* * * *

(٣٣) هامان

لم يرسل موسى عليه السلام إلى فرعون وحده، وإنما كانت رسالة موسى أيضًا إلى (هامان) و(قارون). تستظهر هذا من قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[1]. ثلاثتهم مخاطب بالآيات التي أنزل الله على موسى، وثلاثتهم ظلموا بها: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾[2].

* * * *

ورد اسم (هامان) في القرآن ست مرات، وورد اسم (قارون) أربع مرات فحسب، بينما ورد اسم (فرعون) في سياق قصة موسى عليه السلام في كل القرآن أربعًا وسبعين مرة، فتفهم أن فرعون هو الرأس، والذنب قارون وهامان.

ولا يجيء (هامان) في القرآن إلا مجموعًا إلى فرعون، على التبعية والإلحاق، لا يتقدمه قط. وتفهم من سياق الآيات التي تجمع بين فرعون وهامان، أن (هامان) رجل ذو شأن في بلاط فرعون، ولكنه يعمل بين يديه ويأتمر بأمره، وكأنه وزيره أو قائد جنده.

أما (قارون) - حين يجمع في القرآن إلى (فرعون وهامان) - فهو لا يتوسطهما البتة، وإنما يجيء قارون بعد (هامان). كما رأيت في قوله عز وجل: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾[3]،

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

(٣) سورة غافر، الآية: ٢٤.

أو يجيء (قارون) قبل (فرعون وهامان)، كما ترى في قوله عز وجل: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾[1]، فتفهم أن ثمة فارقًا يحول دون إدماج (قارون) في (فرعون وهامان).

وقد نص القرآن على هذا الفارق بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[2]، أي كان قارون رجلًا من بني إسرائيل، وكان هامان مصريًّا من قوم فرعون.

والذي يستوقف النظر - ولم يلتفت إليه أحد - أن القرآن لا يخص هذين الرجلين هامان وقارون بالذكر إلى جوار فرعون فحسب، وإنما هو أيضًا يجمعهما مع فرعون في توجه رسالة موسى إلى ثلاثتهم كلٍّ على حدة كما رأيت من قبل في تلك الآيات من سورتي غافر والعنكبوت، وكأنه قد كانت في مصر على عصر موسى قوى سياسية ثلاث، يتعين إفرادها بالرسالة والخطاب، وإلا لأَغْنَت الرسالة إلى الرأس، أي إلى فرعون، عن الرسالة إلى الأذناب.

* * * *

والأكثر استيقافًا للنظر - ولم يتساءل عنه أحد - هو توجه موسى بالرسالة إلى رجل من قومه هو قارون، وكأنه قد كان من بني إسرائيل في مصر من بعد عصر يوسف عليه السلام من ضلوا السبيل، فانخلعوا من دين أبيهم إبراهيم، وانغمسوا في عبادات سادتهم المصريين. ربما فعلوه أول الأمر اجتلابًا للحُظوة والمنفعة، ثم رين على قلوبهم بذنبهم، فارتدوا عن عبادة الواحد الأحد إلى شرك المصريين. وهو ما كان يخشاه عليهم في مصر أبوهم يعقوب: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[3].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.

هذا يفسر لك عدل الله عز وجل في بني إسرائيل حين استحبوا الضلالة على الهدى وقضاءه فيهم بفتنة فرعون، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، يستذلهم في الأرض ويسخرهم تسخيرًا، مستعينًا عليهم ببعض قومهم من مثل (قارون)، كم تجد في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾[1]. وإنما بغى قارون على قومه لا بسلطانه، وإنما بسلطان فرعون، لأنه كان عميلًا لفرعون عليهم، فلم يستنكف أن يكون رئيس سخرتهم، يرتشي من فرعون بيمناه، ويعتصر عرق بني إسرائيل بيسراه.

وهذا يفسر لك أيضًا كثرة اعتلال بني إسرائيل على موسى سواء في مصر أو بعد خروجهم إلى تيه سيناء، حتى إذا مروا على أصنام قوم في التيه طلبوا من موسى أن يجعل لهم في التيه أصنامًا آلهة، بل ما ذهب موسى لموعدة ربه يتلقى ألواح التوراة، حتى صنعوا لأنفسهم ذلك العجل من ذهب، يتعبدونه، تَحْنانا إلى ما كانوا عليه في مصر، فكان قضاء الله فيمن عبدوا العجل منهم أن يقتل بعضهم بعضًا بحد السيف، تكفيرًا وتطهيرًا، عسى أن يغفر لهم ربهم.

كان موسى إذن رسولًا إلى فرعون وهامان، كما كان رسولًا أيضًا إلى من طغوا وبغوا من بني إسرائيل، الذين انحرفوا فزاغت قلوبهم. لم يستجب لموسى من قوم فرعون إلا ذلك الرجل المؤمن الذي في سورة غافر، وإلا امرأة فرعون التي سألت الله عز وجل أن ينقذها من فرعون (البيت الكبير!) ويجعل لها بدلًا منه (بيتًا) في الجنة: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[2]. أما بنو إسرائيل فلم تؤمن كثرتهم بموسى نبيًّا رسولاً، وإنما آمنت كثرتهم به على الراجح زعيمًا وقائدًا يستخلصهم من براثن فرعون، يصفقون لموسى حين يُجري الله على يديه الآيات التي تعجز فرعون، وينقمون على موسى حين تشتد قبضة فرعون عليهم: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[3].

(١) سورة القصص، الآية: ٧٦.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢٩.

كان هذا حال الملأ من قوم موسى، أي أشياخ بني إسرائيل، حجر عثرة في طريق من آمن لموسى من قومه، وما آمن لموسى من قومه إلا قليل: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1]، أي آمن لموسى شبيبة من قومه، على خوف لا من فرعون فحسب، بل ومن أشياخ بني إسرائيل، المعنيين في الآية السابقة بقوله عز وجل ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي الملأ من بني إسرائيل أنفسهم، أن يفتنهم فرعون بسلطانه، أو يفتنهم بمن سلطهم عليهم من بني قومهم، وكان شيخ هؤلاء الأشياخ قارون، الذي توجهت إليه الرسالة كما توجهت إلى فرعون وهامان. كان قارون أحد جناحي السلطة الغاشمة في مصر على عصر موسى ورمزًا من رموزها. إنه زعيم حزب الخونة العملاء، الذين مرقوا من دين الواحد الأحد، وخانوا قومهم ونافقوا السلطة، وجمعوا من هذا أكداسًا من المال الحرام يكتنزونه، حتى إذا قيل له اتق الله، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة...، وأحسن كما أحسن الله إليك، تبجح بقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[2].

على هذا الوجه يفهم توجه موسى بالرسالة إلى قارون. فما بال هامان؟

* * * *

لا يصح توجه موسى بالرسالة إلى (هامان) بالاسم إلى جوار فرعون، إلا إذا كان (هامان) يمثل قوة سياسية ما في نظام الحكم، أعني زعيم حزب مستقل عن سلطان فرعون، لا يملك له فرعون من أمره شيئًا: إنه السلطة الدينية التي اتكأ عليها ملوك مصر الأقدمون في تأصيل نظرية (التفويض الإلهي)، أي استمداد السلطة الزمنية الحاكمة سلطانها من الآلهة رأسًا، إما بإرجاع نسب الملك إلى تلك الآلهة نفسها، وإما بوحي (هبط) على الكهنة ينص على اختيار هذا الشخص أو ذاك ملكًا على مصر عينته الآلهة بالاسم. يتضح لك هذا من تلك الألقاب التي تسمى بها أولئك الملوك، من مثل (مري آمون) (لقب رمسيس الثاني) يعني (حبيب آمون)،

(١) سورة يونس، الآية: ٨٣.

(٢) راجع الآيات ٧٦ – ٧٨ من سورة القصص.

أو (مي آمون) (لقب رمسيس الثاني أيضًا) يعني (الذي هو كآمون). بل (رعمسس) نفسها أي رمسيس، ومعناها كما علمت (ولد رع) أو (المولود من رع)، أي المولود من الإله رع، الشمس – الإله. وليس عمل الكهنوت في هذا النظام الملكي إفسادًا سياسيًّا فحسب، بل هو قبل كل شيء تأصيل أخرق لعبادة آلهة من دون الله عز وجل، منها ما يمشي على الأرض مثل تلك الملوك، ومنها الكسيح حبيس الصخر والحجر. والرسل لا تبعث في الأساس إلا لتصحيح عقيدة الناس في الواحد الأحد، الفرد الصمد، المتفرد بالخلق والأمر، فتصح العقيدة، ومن ثم يصح العمل.

ما كانت رسالة موسى لتتجه إلى (هامان) بجوار فرعون لو كان (هامان) فحسب وزيرًا لفرعون، أو كبيرًا في بلاطه، أو قائد جنده، يعمل بين يديه ويأتمر بأمره، فما كانت الرسالات لتتخطى الرأس إلى الذنب. وإنما اتجهت الرسالة إلى (هامان) لأنه أحد قطبي السلطة في هذا النظام الملكي: إنه قضيب الكهانة، في مقابلة صولجان الملك.

لا يصح توجه موسى بالرسالة إلى (هامان) بالاسم إلى جوار فرعون، إلا إذا كان (هامان) على عصر موسى هو نفسه (كبير كهنة آمون).

****

كان عصر (أخناتون) كما رأيت من قبل انقلابًا على (كهنة آمون)، فجمع هذا الملك بين يديه لأول مرة في تاريخ مصر القديمة، السلطتين الزمنية والدينية معًا، أي بين المُلك والكهانة. كاهنًا أوحد لآتون إله الكون.

لم يكن هذا الملك الكاهن مفجر ثورة شعبية أطاحت بنفوذ الكهنة، وإنما كان سنده الأوحد في الانتقاض على آمون هو الجيش، الذي يدين في مصر أبد الدهر بالولاء والطاعة للجالس في دست الحكم، ابن إله نصبته الآلهة من قبل، وربما رفيق سلاح أو سليل رفقاء سلاح، فما كان الملوك في العالم القديم، وفي مصر بالذات، إلا قواد جيوش، لا حين يغتصبون السلطة فقط، بل وبعد ما يتوطد الملك لهم، ويستقر في سلالتهم. بل كثيرًا ما كان

الملك على رأس جيشه في الحملات الكبرى والمعارك الفاصلة، مثلما رأيت في خروج فرعون على رأس جيشه يتعقب بني إسرائيل في فرارهم من مصر.

ولكن أخناتون كان يحسن الكهانة ولا يحسن الملك: اكتفى بمعبوده آتون عما سواه، وأدار ظهره لشؤون الدولة وشؤون الجيش، فانفكت قبضة الدولة، وتشرذم الجيش. وفي هذا المناخ التعس أطلت الفتنة برؤوسها: فُلُولُ كهنة آمون! لا يتربصون بأخناتون الدوائر فحسب، بل ويحيكون المؤامرات والدسائس للقضاء عليه وعلى فتنته، كي يستردوا سلطان الكهانة - وذهبها أيضًا - الذي سلبهم إياه أخناتون. ويموت أخناتون على الراجح صريع تلك المؤامرات والدسائس.

كان المنتصر في هذا الصراع على السلطة هم (آمون) وكهنة آمون. فلا تعجب أن أعقبت (فتنة) أخناتون ومعبود (آتون)، ردة عاتية إلى (آمون) وكهنة آمون، الذين اتعظوا بهذا الدرس كما اتعظ به الملوك من بعد أخناتون. فقد أدرك طرفا المعادلة - القصر والكهنوت - أنه لا بقاء لأحدهما إلا بالآخر: ما كاد (توت عنخ آتون) وريث أخناتون المباشر، يعتلي العرش، حتى بدل اسمه إلى (توت عنخ آمون)[1]، معلنًا ولاءه لآمون وانخلاعه من آتون. وصنع لآمون تمثالًا فخمًا من الذهب الجيد، يسترضي كهنة آمون ويعيدهم في مناصبهم، وضوعفت ثروات المعابد - أي جرايات الكهنوت - إلى ثلاثة أو أربعة أمثال ما كان لهم من فضة وذهب ولازورد وفيروز، وعاد الملوك رغم أنوفهم إلى حظيرة آمون، وانتصر الكهنة انتصاراً كاملًا، (وكان يوم تسليم توت عنخ آمون للكهنة بجميع مطالبهم هو بدء تسلط الكهنة على الدولة، ولم يسترجع الفراعنة سلطانهم القديم بعد ذلك اليوم)[2].لم يفلت من هذا (الشرك في السلطة) حور محب الذي خلف توت عنخ آمون على العرش وكان همزة الوصل بين الأسرة الثامنة عشرة والأسرة التاسعة عشرة، أسرة الرعامسة الأولى التي يعنينا

(١) في المصرية الهيروغليفية: توت = صورة أو مثال، عنخ = روح، فمعنى الاسم (توت عنخ آمون) أنه (مثال روح آمون)، كما كان من قبل (مثال روح آتون).

(٢) راجع هذه الفقرة وما قبلها على: أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص٣٤٠.

منها فرعون موسى (رمسيس الثاني كما نقول نحن). وما كان فرعون موسى بدعًا في هذا رغم عظيم سلطانه.

كان الكهنوت في مصر سلطة فاعلة داعمة، يزيد من قوتها وخطرها أنها سلطة غير مباشرة تستتر وراء فرعون، استند إليها هذا الطاغية في قولته: أنا ربكم الأعلى!. وربما وزر هذا الكهنوت لفرعون فشاركه السلطة خِفْية بالرأي والكيد والمشورة. بل قد كان لهذا الكهنوت جند وحرس. كان له الإشراف على بناء النصب والمعابد، وعلى نحت النحوت ورسم النقوش، بل كان منهم المهندسون والكتبة. وكانت المعابد معاهد للعلوم مغلقة على أصحابها، يستأثرون بأسرارها وأصولها ودقائقها، فكانوا هم العلماء والسحرة. كان الكهنوت مؤسسة كاملة تصنع عقل الأمة، وخرافاتها أيضًا.

هذا (الشرك في السلطة) يفسر لك قوله عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[1]، حين جمع القرآن بين فرعون وهامان وأعوانهما وجنودهما في الحذر من موسى وقومه: خشي فرعون على صولجان الملك، وخشي هامان على سلطان الشرك وذهبه.

وهو يفسر لك أيضًا قوله عز وجل: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾[2]، فما كان بناء (الصرح) ليصح إلا بأمر تلك الكهنة وصنع أيديهم.

وقد جمع القرآن حلف الشيطان، الكهنوت وفرعون، في سلة واحدة، تحت اسم آل فرعون، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾[3].

* * * *

(١) سورة القصص، الآيتان: ٥، ٦.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨.

لا تجد في التاريخ المصري القديم، ولا في أعلام هؤلاء المصريين أيضًا، شخصًا باسم (هامان) اسْتُوزِر لفراعنة مصر، أو كان قائد جندهم، أو كبيرًا في بلاطهم، أو عظيمًا من عظماء كهنوتهم: ليس البتة فيما عرف من التاريخ المصري القديم (هامان).

ولا تجد بالمثل فيما تقصه عليك أسفار التوراة التي بين يديك من حديث موسى وفرعون ذكرا لشخص (هامان) لا بالاسم ولا بالمنصب: كل ما في تلك التوراة هو فرعون فحسب في مواجهة موسى وهارون.

ولكنك تكتشف في سفر (استير) الذي يقص عليك ما كان من أمر اليهود في القرن الخامس قبل الميلاد، عصر السبي تحت حكم الملك (إحْشَوْرَوش) *Xerxes* ملك فارس (٤٨٦ - ٤٦٥ ق.م)، أي بعد عصر موسى وهارون بسبعة قرون على الأقل، علمًا يشبه (هامان)، يرسم في النص العبراني (هِيمان) (مدًّا بالكسر بعد الهاء) ويرسم في الترجمة العربية لهذا السفر (هامان) تمامًا كهامان الذي في القرآن، خلطًا بينه وبين (هامان) قرين فرعون في القرآن، على ما مر بك من خلطهم بين رسم (مريم) أم عيسى عليهما السلام في القرآن وبين (مريام) أخت موسى وهارون. وقد حار علماء التوراة في (هيمان) الذي في بلاط فارس، إذ لا يصح له اشتقاق في العبرية، فخمنوا أن أصلها (مهيمان) حذفت الميم في أولها، لا تدري لماذا، واشتقوها من الجذر العبري (أَمَنْ) على معنى الصدق والأمانة الذي في قرينه العربي (أمن). وليس بشيء. وإنما الصواب أن يقال أن (هامان) المصري خرج شبحًا من ضباب ذاكرة كتبة التوراة، فخلعوا اسمه على قرين له في بلاط فارس، لاتحاد الشخصين في الكيد لبني إسرائيل، على ما يقول هذا السفر من أن (هيمان) الذي في بلاط فارس كاد لليهود عند (إحشوروش) ملك الفرس، يريد مهلكهم واستئصال شأفتهم، ولكن مردخاي العبراني كان قد دفع من قبل بابنة أخيه (استير) إلى أحضان الملك، فحظيت عنده، واستنقذت بني قومها، فصارت إلى اليوم قديسة عند اليهود، وبطلة من أبطال تاريخهم، يضرب بها المثل. وليست لهذا كله بالطبع علاقة بـ(هامان) قرين فرعون في القرآن، لبعد ما بين فارس ومصر، وما بين (إحشوروش) ملك فارس وبين فرعون موسى وهارون.

قد انفرد القرآن إذن بذكر (هامان) قرينًا لفرعون على غير سابقة في التوراة، ودون سند في التاريخ المصري القديم، أو بالأحرى فيما تكشف من تاريخ مصر القديم منذ أواسط القرن الماضي وحتى أواخر هذا القرن العشرين.

وهذا في ذاته من إعجاز القرآن، لأن انفراده بذكر (هامان) قرينًا لفرعون دون سابقة في التوراة وأقاصيص أهل الكتاب، ودون نظير فيما عرف من تاريخ مصر القديم، يدلك على انفراد القرآن بالعلم المحيط، ويدلك على سفاهة القائلين بدعوى النقل والاستنساخ والتلقين، لأنه علم ما لم يعلمه الخلق أجمع عصر نزوله وإلى هذا العصر.

ربما قال الجاحد المكابر: ولم لا تكون (هامان) من أفانين القرآن اخترعه اختراعًا، أو التقط (هيمان) الذي في بلاط فارس عصر السبي ورده إلى عصر موسى في مصر قرينًا لفرعون، على بون ما بينهما في الزمان والمكان[1]؟

ولكنك تقول لهذا الجاحد المكابر وأمثاله من أدعياء الاستشراق المنكرين الوحي على القرآن - متسلحًا بما هدانا الله إليه في هذا الكتاب الذي نكتب - إن الذي انفرد وحده بعلم معنى (موسى)، (فرعون)، (مصر)، بلغة أهلها على عصر موسى وهارون، مطلع القرن السابع لميلاد المسيح، وعلم من دقائق التاريخ السياسي في مصر القديمة ما يتيح له معرفة دور الكهنوت المصري في السلطة، فيتجه برسالة موسى إلى كبير هذا الكهنوت قرينًا لفرعون - الذي علم هذا كله وقت أن كانت اللغة المصرية القديمة - وكان التاريخ المصري القديم - طلاسم مطلسمة، لا تستكثر عليه أن يسمي كبير هذا الكهنوت بالاسم، بل هذا هو الذي تتوقعه منه، فلا تملك إلا أن تؤمِّن عليه: كان القرآن شاهدًا، وكانوا هم الغائبين: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾[2].

ولعله يتكشف من تاريخ مصر القديم في مقبل الأيام ما يثبت وجود (هامان) كبير كهنة

(١) انظر على سبيل المثال: *J. HOROVITZ*، المرجع المذكور، ص٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧.

آمون قرينًا لفرعون موسى. نرجو هذا لا لأنفسنا ولا للقرآن - فقد كفى القرآن ما فيه من دلائل إعجازه في تفسير أعلامه المصرية القديمة التي يتناولها هذا الكتاب الذي نكتب - ولكننا نرجوه لهؤلاء الأدعياء المنكرين الوحي على القرآن.

* * * *

ليس شرطًا أن تكون (هامان) من أعلام الأشخاص في المصرية القديمة، بل قد تكون (هامان) لقبًا دالًّا على المنصب، كما تلقب كبير كهنة (أون) (هليوبوليس) باسم (وِرَ - ماءو) يعني (الرائي الأعظم).

وقد تفكه بعض المستشرقين فقال إنه ليس بمستبعد أن يكون اسم (آمون) معبود المصريين قد وقع في سمع محمد (ﷺ) وتحرف عليه إلى (هامان)، وظنه اسم رجل، فنحت منه اسمًا علمًا على شخص في بلاط فرعون. تفكه الرجل وهو لا يدري أنه بمقولته هذه يخدم القرآن في وجه من وجوه تفسير اسم (هامان).

ذلك أن اسم هذا الإله (آمون) الذي ينطق بالواو بعد الميم في اصطلاحنا اليوم ليس هو كذلك في المصرية القديمة، التي يرسم فيها بأحرف هيروغليفية ثلاثة هي الهمزة والميم والنون، على ما مر بك من أن الخط الهيروغليفي لا يعبأ بإثبات حركات المد. وإنما اصطلح علماء تلك اللغة أول الأمر على نطقه (آمون) بالواو لا بالألف بعد الميم استئناسًا برسمه اليوناني والقبطي المطابق لرسمه في التوراة (آمون). وهذا دليل آخر على أن أسفار موسى الخمسة لم تكتب على عصر موسى وهارون، وإنما كتبت بعد عصر داود وسليمان، بعد قرون من عصر موسى وهارون، فتأثرت عبرية التوراة التي بين يديك، كما تأثر الرسم اليوناني، بالنطق القبطي عصر كتابة التوراة[1]. والقبطية كما مر بك ليست حجة على صحة

(١) نظير هذا في عبرية التوراة (پرعو) أي (فرعون) وأصلها في الحرف الهيروغليفي (پرعا) بالألف لا بالواو، التي تحرفت في النطق القبطي إلى پرعو وأخذ عن القبط اليونان وكتبة التوراة. وربما وددنا في هذا الكتاب استبقاء الرسم القبطي - العبري - اليوناني، لأنه الذي شاع، تدليلًا على منهج =

النطق المصري القديم في كل الأحوال، وإنما الحجة على صحة النطق المصري القديم هم معاصرو (فرعون موسى) في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، الذين خلفوا لنا في النص البابلي لمعاهدة أبرمت حوالي عام ١٢٨٠ ق.م. بين خاتوسيلاس ملك خاتي (الحيثيين) وبين رمسيس الثاني ملك مصر[1]. النطق الصحيح للفظة آمون التي في لقب رمسيس الثاني (مي - آمون) أي (الذي هو كآمون) فلم يكتبوها (مي - آمون) وإنما كتبوها (مي - آمان) مدًّا بالألف، لا بالواو، على ما سمعوه بآذانهم من سفراء رمسيس الثاني إلى بلاط خاتي، فقالوا في (رمسيس مي - آمون) أي (رمسيس الذي هو كآمون): رعمشيشا مي آمانا (شينوا كدأبهم السين التي في رعمسيس وختموا الاسمين بالألف أداة التعريف الآرامية كما مر بك).

وهذا دليل لغوي لا ينقض على أن صحة النطق المصري القديم لاسم هذا الإله (آمون) على عصر رمسيس الثاني هي (آمان) تمامًا كما في (هامان) المبدوءة بالهاء في القرآن. فكيف (تحرفت) آمون على القرآن الذي مدها على أصلها الهيروغليفي بالألف لا بالواو، فأصاب هو، وأخطأ كتبة التوراة، وعلماء المصريات الذين نطقوها مدًّا بالواو؟

لماذا لم يقل (آمون) فيجانس بالواو بين القرناء الثلاثة: فرعون وهامان وقارون؟

وما حاجته إلى إضافة الهاء في أول الاسم وقد سمعه كما يقولون مهموزًا؟

أليس الأقرب إلى الصواب أن تكون (هامان) التي في القرآن اسمًا مزجيًّا من المصرية القديمة، يدل على منصب كبير كهنة آمون: (ها + آمان)؟

= القرآن في التعريب على النطق الشائع عصر نزوله، ويلاحظ أن السريان يرسمون هذا الاسم (پرعون) بإضافة النون التي في التعريب القرآني، مرسومة في الخط بالفاء البادئة التي تنطق باء ثقيلة كما مر بك. وقد حرص اليونان على رسم كل باءات الخط العبري - الآرامي (فاء) لتردد الخط العبري - الآرامي في نطق هذا الحرف بين هذا وذاك، كما حرصوا على كتابة كل تاءات الخط العبري - الآرامي (ثاء) لنفس السبب، كما تجد في *Thara* (ثارا) أي (تارا) يعني (تراح) أبي إبراهيم، وكما تجد في (ثامار) كنة يهوذا التي فجر بها، وأصلها (تامار)، إلخ.

(١) انظر تفاصيل هذه المعاهدة على سبيل المثال في: د. نبيلة محمد عبد الحليم، (معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية)، ص٦٩ - ٨٧.

أما (آمان) فهي (آمون) الذي علمت، منطوقة على الوجه الصحيح في المصرية القديمة على عصر رمسيس الثاني كما وضح لك من نطقها في النص البابلي لتلك المعاهدة المبرمة بينه وبين ملك الحيثيين حوالي ١٢٨٠ ق.م.، وأما (ها) التي ترسم في الخط الهيروغليفي ⊔ (وهي الهاء) مزيدة بمميز معنوي غير منطوق هو[١] ⊔⊥⊔ (رمز البيت أو الدار - پر -) فقد توقف علماء المصريات في معناها، لا يجزمون، وإن كانوا يفترضون أن معناها (الحجرة) *room*[٢]، ربما استنادًا إلى شكل الحرف الذي يمثلها: ⊔ (الهاء الهيروغليفية كما مر بك). وليس بقوي، أولًا لأن (الحجرة) في الهيروغليفية لها لفظها الأصيل وهو (عِت)، لا (ها)، وثانيًا لأن الأقرب في الاستنباط من رسم الهاء الهيروغليفية ⊔ أن تستنبط منه لا معنى الحجرة، وإنما معنى المدخل والمدلف، أي الباب، وهو (عا) في الهيروغليفية، والمبادلة بين العين والهاء في الساميات جميعًا - وليست الهيروغليفية عن هذا ببعيد - أمر مسلم به بين اللغويين، وثالثًا لأن الهاء في الساميات جميعًا - وليست المصرية القديمة عن هذا ببعيد - أصلها رسمًا ونطقًا ومعنى (الكَوَّة). أي الفتحة النافذة في الجدار يدخل منها الهواء والضوء، وقد بقي منها في العربية (الهَوُّ)، (الهَوَّة)، بنفس المعنى.

على هذا يكون معنى (ها+آمان) المصرية القديمة (هامان في القرآن) هو: النافذ إلى آمون، أو المدلف إلى آمون، أو كوة آمون، (هو - آمون).

وليس أليق من هذا لقبًا يتسمى به (كبير الكهنة).

* * * *

(١) في الخط الهيروغليفي، حين يتحد لفظان في النطق ويختلفان في المعنى، يضاف إلى أحدهما، في الرسم لا في النطق، رمز يميزه يدل على المعنى الآخر المراد منه. وإضافة رمز البيت إلى (ها) المعنية هنا، يعني (ها) التي في البيت، لا (ها) الأخرى التي هي - في المصرية القديمة وفي الساميات جميعًا، أداة تنبيه وتلبية ونداء (كما في ها أنذا العربية).

(٢) انظر *A.GARDINER*، المرجع المذكور، تحت حرف الهاء في مسرده بآخر الكتاب.

أما الوجه الآخر في تفسير (هامان)، فهو أن تكون (هامان) في القرآن عربية. وردت على الترجمة لقبًا لكبير كهنة آمون، قرين فرعون في القرآن.

وقد شاعت (هيمن) على عصرنا بمعنى القهر والغلبة والسيطرة، وليس بشيء، لأن هذه اللفظة لا تجد تأصيلها في العربية إلا من القرآن، بصيغة الفاعل فقط، وفي موضعين فحسب، الأولى اسمًا لله عز وجل: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾[1]، والثانية وصفًا للقرآن: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[2]. وقد استنبط البعض من هذا - على التخمين - أن (المهيمن) معناها (العالي المرتفع)، بينما قال آخرون إن معناها (الشاهد). وليس لهذا أصل في اللغة، وإنما الصحيح ما ذكره (الجوهري) وهو أن (هيمن) ليست من الرباعي المجرد، وإنما هي من الجذر الثلاثي (أمن) مزيدًا بهمزة التعدية، فيكون أصلها (أأمن) بهمزتين، انقلبت الثانية ياء (أيمن)، وأبدلت الأولى هاء (هيمن)، كما قالوا (هراق الماء) بمعنى أراقه. فالمهيمن أصلها (المؤامن)، فهو الأمين الحافظ المؤتمن. وهذا كما ترى يطابق تمامًا المعنى المقصود من (هيمنة) القرآن على الكتب السابقة، فهو الحفيظ عليها، الأمين المؤتمن على ما صح فيها. وهو أيضًا يناسب ورود وصف الله عز وجل باسم (المهيمن) في سورة الحشر بعد وصفه عز وجل باسمي (السلام) و(المؤمن) تباركت أسماؤه، فهو (السلام)، وهو (المؤمن) الذي يؤمن الخلق من الخوف، وهو (المهيمن) الذي (يأمنه) الخلق لأنه تبارك وتعالى الحفيظ الأمين المؤتمن.

هذا هو المعنى الصحيح للفظة (هيمن) العربية، استطردنا بك إليه إرادة جلاء اللبس في خطأ شائع لا يكاد يبرأ منه في هذا العصر قلم، ولا يصح هذا في لغة القرآن، وفي الفهم الصحيح لمعاني القرآن، ودقائق القرآن.

****

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

على أنك لا تستطيع اشتقاق اسم (هامان) قرين فرعون في القرآن من (هيمن) إن كانت (هامان) عربية، لامتناع اشتقاق (فعلال) من (أفعل) (زنة (هيمن) التي أصلها آأمن كما مر بك: الجائز من (هيمن) هو (المهيمن) لا غير.

أما الذي يصح، فهو أن تشتق (هامان) من (الهامة)، أي (الرأس)، على زنة (فعلان) من فَعْلَة، كما قال العرب (كاذان)، يعني (عظيم الكاذة)، و(الكاذة) هي اللحم الذي على الفخذ. فيكون معنى (هامان) عربيًّا هو (عظيم الهامة).

ولا يقدح في هذا الذي نقوله أن (هامان) على معنى (عظيم الهامة) لم تسمع من العرب، وإنما المسموع من العرب على معنى عظيم الهامة هو (الأهوم) فقط ذلك أن القرآن على ما مر بك من منهجنا في هذا الكتاب هو (صاحب اللغة)، ينحت من جذورها على أوزانها المسموعة ما شاء، كيفما شاء. بل في هذا كما مر بك إشارة إلى عجمة صاحب الاسم العلم.

(عظيم الهامة) هي الوجه الوحيد الجائز في معنى (هامان)، إن كانت عربية، على الترجمة من المصرية القديمة.

أما معنى (عظيم الهامة) في المصرية القديمة فهو (وِرْ - تِبْ)، (ور) يعني كبير، (تب) يعني الرأس، أو (ور - ضاضا)، (ضاضا) مرادف (تب)[1].

وقد مر بك أن كبير كهنة (أون) - هليوبوليس - تلقب باسم (ور - ماءو)، يعني

(١) (تب) و(ضاضا) كلاهما مترادفان بمعنى (الرأس). وقد بقيت (ضاضا) في المصرية المتأخرة وندرت (تب). وقد أثبتنا (ضاضا) بالضاد العربية، وهي الدال القاسية، ولو أن علماء المصرية القديمة لا يعترفون للحرف المصري بهذا الصوت، وإنما يترددون في نطقه بين الصاد العبرية وبين الجيم الفصحى في لغة القرآن (دج)، تأثرًا في هذه الأخيرة بما آل إليه النطق القبطي. والأصوب عندي أن هذا الحرف كان ينطق في الهيروغليفية (ضادًا) عربية، بدليل أن هذا الحرف حين تحور في الطور الأوسط من المصرية القديمة تحور نطقًا وكتابة إلى الدال، ولم يتحور إلى السين، أو إلى الجيم المصرية القديمة وهي نفسها الجيم (القاهرية) على عصرنا المبدلة من الجيم العربية الفصحى (دج)، فتأمل.

(عظيم الرائين) أو (الرائي الأعظم). ولا يبعد أن يكون لقب كبير كهنة آمون على عصر فرعون موسى هو (ور - تب) أو (ور - ضاضا)، بمعنى (عظيم الهامة) أو (الرأس الأعظم)، جاء بها القرآن على (هامان)، أي (عظيم الهامة)، تفسيرًا بالترجمة لا بالتعريب.

* * * *

أما مفسرو القرآن[1]، فلم يتصدوا لاسم (هامان)، وما كان لهم أن يتكئوا في (هامان) المصري على أهل الكتاب وقد سكتت عنه التوراة. ولكنهم قالوا إن (هامان) كان وزيرًا لفرعون من القبط، أي المصريين، على ما فهموه من دوره في بلاط فرعون. ولم يتساءلوا عن وجه اتجاه موسى بالرسالة إلى هامان بجوار (سيده) فرعون. وقالوا أيضًا إن (هامان) كان حازيًا لفرعون، والحازي يعني (المنجم). وهذا قريب من عمل الكاهن (الرائي) الذي كانه (هامان) لفرعون على ما نقول نحن. ولم يتصد المفسرون أيضًا لعجمة (هامان). وإنما مروا على اسمه مر الكرام، رغم أنه ممنوع من الصرف من كل القرآن، غير منون. والوجه في هذا أن (هامان) تمنع من الصرف في كل الأحوال، عربية أو أعجمية: إن كانت أعجمية فللعجمة، وإن كانت عربية فلأنها مختومة بالألف والنون، على زنة (فعلان) الممنوع من الصرف وجوبًا.

* * * *

لـ(هامان) كما رأيت في التفسير وجهان: التعريب أو الترجمة، معنيان كلاهما يغاير الآخر.

إما أنها جاءت في القرآن على الترجمة من المصرية القديمة بمعنى (عظيم الهامة) أو (الرأس الأعظم)، استيحاشًا لاستبقائها على أصلها (ور - تب) أو (ور - ضاضا)، والتفسير في القرآن بالترجمة يغني عن كل تفسير.

---

(١) راجع تفسير القرطبي للآيتين ٦، ٨ من سورة القصص.

وإما أنها جاءت في القرآن على التعريب من المصرية القديمة (ها+آمان) وهي بمعنى (النافذ إلى آمون)، أو (هَوُّ - آمون)، لقبًا من المصرية القديمة دالًّا على منصب كبير كهنة آمون. ولكن القرآن لا يفسرها في سياق الآيات التي تحدثت عن (هامان) خلافًا لمنهجنا في هذا الكتاب.

ليس لدينا الدليل في هذا أو ذاك، لانعدام (النظير) الذي تطابقه عليه لدى علماء المصريات أعني المدون من التاريخ المصري القديم، أو بالأحرى ما تكشف من التاريخ المصري القديم. ليس لديك فيما عرف من الأسماء والألقاب في المصرية القديمة (ها + آمان) أو (ور - تب) أو (ور - ضاضا)، ناهيك بتحديد شخص حامل هذا الاسم أو اللقب قرينًا لفرعون موسى الذي في القرآن وفي التوراة، وناهيك بمن هو (فرعون موسى) في التاريخ المصري القديم، (فرعون ذو الأتاد) في القرآن - رمسيس الثاني كما نقول نحن - صاحب (الأعمدة) في معبد الكرنك، (نب - يونيت) في المصرية القديمة.

وحين ينعدم النظير المتفق عليه بإجماع في المصرية القديمة من علماء المصريات، يمتنع أيضًا القطع بمعنى (هامان) التي في القرآن، إلى أن ينكشف من أسرار التاريخ المصري القديم ما يدل عليه.

ولكن القرآن الذي انفرد وحده بذكر (هامان) قرينًا لفرعون موسى، على غير سابقة في التوراة، ودون سند من التاريخ المصري القديم، وما كان أغناه عنها، يتحدى بـ(هامان) هذا الأولين والآخرين: الأولين الذين جهلوا وجود قرين البتة لفرعون موسى، والآخرين - علماء المصرية القديمة والتاريخ المصري القديم - الذين لا يعلمون حتى الآن من قد كان (فرعون ذو الأوتاد) المعني في القرآن ومكانه في سلسلة فراعين مصر، ولا يعلمون من ثم من قد كان (كبير الكهنة) على عصر فرعون المعني.

لو أن القرآن لا يعلم ما يقول، أو يقول ما لا يعلم، فكيف يجازف في غير ضرورة البتة بذكر قرين لفرعون موسى بالاسم، آمنًا ألا تكشف الأيام زيفه بثبوت انعدام القرين،

واختلاف المسمى؟ كيف ضمن في مطلع القرن السابع للميلاد وإلى هذا القرن العشرين أن يقف علماء المصريات حيارى أمام هذا التحدي؟

ليس الإعجاز فقط أن يتنبأ متنبئ فيصيب. ربما قلت صدف. الحادث في المستقبل لا يصح حتى يقع. ولكن الإعجاز الحق أن تتحدى سامعك بما كان، فلا يملك لك سامعك نفيًا أو إثباتًا.

لا يفعل هذا إلا شاهد حافظ، انفرد بعلم كل الذي كان.

وكفى بهذا إعجازًا تنقطع دونه الرقاب.

* * * *

(٣٤) قارون

عرجنا في تحليل اسم (هامان) على ذكر ما كان من شأن (قارون) الذي توجه موسى إليه بالرسالة قرينًا لفرعون وهامان.

كان قارون كما مر بك، وكما نص عليه القرآن، رجلًا عبرانيًّا من بني إسرائيل في مصر على عصر موسى، اتجه إليه موسى بالرسالة لأنه مرق من دين الواحد الأحد، شأن الملأ من بني إسرائيل من بعد يوسف ويعقوب الذين طلبوا الحُظوة عند سادتهم المصريين، ثم رين على قلوبهم بذنبهم، فكانوا آباء الذين عبدوا العجل في التيه. ولكن قارون كذب موسى شأن سيده فرعون وكبير كهنته (هامان).

والقرآن يقص عليك بإيجاز بليغ مستوف في سبع آيات من سورة القصص (٧٦ - ٨٢) كل ما كان من شأن قارون ومآله، فيقول: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة القصص، الآيات: ٧٦ - ٨٢.

أثبتنا الآيات السبع برمتها هنا ولم نحلك إليها في مصحفك لأنها تُغني عن كل قول: أخذ الله على قارون الكفر، وبطر النعمة، والاستكبار، والإفساد في الأرض، والاستعلاء على قومه بما آتاه الله من الكنوز، كما أخذ على قارون (بغيه على قومه)، وكانت القاصمة تبجحه بقوله: إنما أوتيته على علم عندي! وشاءت رحمة الله عز وجل ألا يفتتن بقارون الذين يريدون (الحياة الدنيا) فخسف الله به وبداره الأرض. أي خسف الله به وبما جمع.

وأنت بالطبع لا تتصور أن قارون الذي يحدثك القرآن عنه قد كان مهلكه بتيه سيناء بعد إنجاء الله بني إسرائيل من قبضة فرعون. ولا تتصور أن يكون بغي قارون على قومه في تيه سيناء وقد عري قارون من سلطان فرعون الذي يبطش قارون بيده. ولا تتصور أن يبغي قارون على قوم موسى وموسى في تيه سيناء بين ظهرانيهم حاكمًا محكمًا. ولا تتصور أن يجمع قارون كنوزه في صحراء جرداء كتيه سيناء، أو أن يخرج على قومه في زينته في صحراء كصحراء سيناء، ولا تتصور أي معنى لأن يخسف الله الأرض بدار لقارون في التيه، وما كانت دور بني إسرائيل في التيه إلا أخبية من الوبر على أحسن الفروض، لا يستقر بهم المقام إلا ليحملوا عصا الترحال. ولا تتصور أيضًا وبالأخص أن ينجي الله قارون مع موسى عبر البحر إلى سيناء، ولا يهلكه مع فرعون وهامان، كما لا تتصور أن تكون لقارون في مصر كنوز تنوء بمفاتحها العصبة أولو القوة، ثم يعبر بها قارون البحر مع موسى إلى سيناء في فرار بني إسرائيل من مصر.

قال عز وجل في مهلك قارون: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]. تجد في هذه الآيات النص بالترتيب الزمني على مهلك عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان: كان بالحاصب مهلك

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٣٨ – ٤٠.

عاد، وبالصيحة مهلك ثمود، وبالخسف مهلك قارون، ثم بالإغراق مهلك فرعون وهامان. فتستخلص من هذا جازمًا قاطعًا أن مهلك قارون بالخسف قد كان في مصر، سابقًا على مهلك فرعون وهامان في اليم غرقًا. وهذا شأن حكمته عز وجل: يقطع المنافق الذنب، لتتعظ به الرأس. ولكن فرعون وهامان لم يتعظا بقارون، فحق عليهما القول.

قارون الذي يحدثك عنه القرآن قد كان في مصر بغيه ومآله، لا في تيه سيناء. ولم يلتفت إلى هذا المفسرون.

* * * *

تحدثك التوراة (الفصل ١٦ من سفر العدد) عن ثلة قوامها ٢٥٠ رجلًا يتزعمهم رجل يدعى (قُورَح)، قاوموا موسى عليه السلام في التيه، أي تمردوا على رئاسته فنازعوه الانفراد بالتلقي من الله عز وجل واختصاصه نفسه وهارون بالكهانة. كما مر بك في ذلك السفر نفسه (عدد ١٢) من منازعة هارون ومريام أخاهما موسى. عندئذٍ سخط الرب على (قورح) وجماعته: (ففتحت الأرض فاهًا فابتلعتهم هم وبيوتهم وكل إنسان لقورح وجميع المال)[(١)]. كان هذا في تيه سيناء كما يتضح لك من مجادلتهم موسى: (أقليل أنك أخرجتنا من أرض تدر لبنًا وعسلًا لتقتلنا في البرية حتى تترأس علينا ترؤسًا أيضًا!)[(٢)]. لم يكن الخسف بقورح الذي في التوراة في مصر، بل في تيه سيناء. ولم يكن الخسف بقورح الذي في التوراة لأنه بغى على قومه، وإنما لأنه بغى على موسى فنازعه الرئاسة المستمدة من النبوة. ولم تكن لقورح الذي في التوراة كنوز يختال بها على قومه، ولم تكن له ولجماعته دور مبنية يخسف بها. وإنما كانت لهم بيوت أخبية من الوبر: (فتباعدوا من حوالي مسكن قورح وداثان وأبيرام وخرج داثان وأبيرام ووقفا على أبواب خيامهما هما ونساؤهما وعيالهما)[(٣)]. لا مجال للمقارنة بين قورح الذي في التوراة وبين قارون في القرآن.

(١) عدد ١٦/ ٣٢.
(٢) عدد ١٦/ ١٣.
(٣) عدد ١٦/ ٢٧.

ولكن مفسري القرآن[1] تأثروا بهذا الذي قصصته عليكم من سفر العدد، فقالوا إن قورح هذا الذي في التوراة هو نفسه الذي في القرآن، استئناسًا بالتشابه بين لفظي (قورح)، (قارون)، وأيضًا - وبالأخص - بالتماثل في المآل، أي الخسف بقارون الذي في القرآن: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[2]. وتلك واحدة من الإسرائيليات في تفاسير القرآن.

بل قد اتكأ على هذه التفاسير أدعياء الاستشراق المنكرون الوحي على القرآن، كدأبهم على الاستفادة من تلك التفاسير في النعي على القرآن، فقالوا إن محمدًا (ﷺ) سمعها (قورح) فعربها على (قارون) على المجانسة مع (هارون)[3]، ثم نسج حوله تلك القصة عن ثراء قارون وكنوزه التي تنوء بمفاتحها العصبة أولو القوة، واستكباره على قومه، لا على موسى نفسه، ولكنه استبقى لقارون في القرآن المآل الذي لقيه قورح في التوراة: خسف الأرض به وبداره.

عليك إن كنت مسلمًا في هذا العصر الذي نعيشه، وقد أتيحت أسفار التوراة بالعربية للقارئ بتلك اللغة مسلمًا وغير مسلم، أن تتوقف عند كل تفسير للقرآن يتأصل على شيء مما تقصه هذه التوراة التي بين يديك، تراجع النص التوراتي على النص القرآني، فتنقي هذه التفاسير - أيًا كان قدر أصحابها - مما علق بها من شوائب تلك الإسرائيليات، لأن القرآن هو المهيمن على التوراة، لا العكس، والقرآن الذي يصدق ما صدق في التوراة، لا يكذب كل ما في التوراة، ولكنه يكذب فقط المكذوب على الله عز وجل وعلى التاريخ الصحيح مما دس على التوراة التي بين يديك، ويعفو عن كثير.

ونحن لا نقصد من هذا إلى أن الخسف بقورح الذي في التوراة محض خيال ولكننا نقول إنها أهابيش اهتبشها الكاتب أو الناسخ من ضباب الذاكرة، كما اهتبش من قبل (هامان) المصري فجاء به بعد قرون من عصر موسى إلى بلاط فارس يكيد لبني إسرائيل. لا يصح

(١) راجع تفسير القرطبي للآيات ٧٦ وما بعدها من سورة القصص.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨١.

(٣) انظر على سبيل المثال *Joseph HOROVITZ*، المرجع المذكور، ص٢١.

للجاحد المكابر أن يقول العكس، أعني لا يصح أن القرآن هو الذي اهتبش (هيمان) الذي في بلاط فارس فجاء به إلى بلاط فرعون، أو أنه هو الذي اهتبش من سفر العدد (قورح) الذي ناوأ موسى في تيه سيناء فأعاده إلى مصر يناصر فرعون على موسى. لا يصح لأن القرآن في اعتقاد هذا المكابر لا ذاكرة له يهتبش منها ويغترف كما يفعل كتبة التوراة ونساخها: كل ما لدى القرآن في اعتقاد هذا الجاحد هو أسفار التوراة وأقاصيص أهل الكتاب، بسطت أمامه، وأفرغت في أذنيه، لا علم له بشيء خارجها، فهو ينتقي منها ويختار. والذي ينتقي ويختار لا يقع في مثل هذا الخطأ المادي الفادح الذي ليس له فيه سند. إلا أن تقول إن القرآن يخترع قَصَصَه اختراعًا، ويؤلف بينه تأليفًا. والذي يخترع القصص يخترع أيضًا أبطال أحداثه، ولا يلتقط نظائر لها في التوراة على خلاف في الزمان والمكان والأحداث، بل يبعد بنفسه عن هذا كل البعد، ويحترز منه أشد الاحتراز. وإلا فهو - على غير ضرورة البتة - يزج بنفسه في المزالق.

لم يخترع القرآن قصة مهلك قارون بالخسف في مصر، ولكن كتبة التوراة الذين أنسوا الذي كان - وهم يكتبون أسفارهم في أعقاب عصر داود وسليمان - أسقطوا مصير قارون في مصر على نظير له في تيه سيناء، تغليظًا لمصير أولئك الذين تجرءوا على موسى فنازعوه الكهنوت في التيه. وفات الكاتب وهو في سَوْرة غضبه من قورح وجماعته أن الله عز وجل لا يخسف بالمتطاولين على أنبيائه - إن صح قوله في قصة (قورح) - فيهلك معهم الحرث والنسل دون ذنب جنوه، بل ويهلك أيضًا جماعة بني إسرائيل كلهم عدا موسى وهارون، حين تذمر بنو إسرائيل على موسى بسبب مهلك قورح وجماعته، فيفنيهم جميعًا في لحظة، لولا أن هارون قدم البخور وكفر عن الشعب، ووقف موسى بين الموتى والأحياء فكفت الضربة وكانت قد بدأت بالفعل، فكان عدد الذين ماتوا بالضربة أربعة عشر ألفًا وسبعمائة خلا من مات بسبب قورح[1].

قارن ذنب قورح الذي في التوراة بذنب قارون الذي في القرآن. وقارن بين مهلك قورح

(١) راجع سفر العدد ٤١ - ٥٠.

وهذا العدد الضخم من بني إسرائيل بسبب قورح، وبين قارون الذي لم ينازع موسى الكهنوت شأن قورح الذي في التوراة، وإنما كفر بموسى أصلًا وبمن أرسله، وكفر بأنعم الله عليه متبجحًا بقولته: إنما أوتيته على علم عندي! واستذل قومه في مصر وكان سوط عذاب لفرعون عليهم، فلم يخسف الله الأرض إلا به وحده وبداره: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[1]، ورحم الذين كانوا يتمنون مكانه بالأمس، فقالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

قارن أنت بين هذين السردين، الذي في التوراة والذي في القرآن، وتأمل أي السردين أحق بالتصديق والاتباع.

* * * *

والذي يجب أن تندهش له أن كتبة التوراة (خروج ١) الذين لم يفتهم أن يسموا بالاسم تلكما القابلتين العبرانيتين (شفرة وفوعة) اللتين أمرهما فرعون بقتل مواليد بني إسرائيل الذكور واستحياء مواليدهم الإناث، فخافتا الله كما يقول الكاتب، لم يسموا أحدًا من (مدبري بني إسرائيل ومسخريهم) الذين سلطهم فرعون عليهم من أنفسهم (خروج ٥) فلم يتحدثوا قط عن (قارون) وأشباه قارون، وكأنما ذاكرتهم (الحديدية) التي لم يفتها تسمية من خرجوا مع موسى من مصر، انطمست فجأة، فلم تستذكر أحدًا من أولئك الخونة، عملاء فرعون عليهم، ناهيك برأس الكفر والبغي (قارون).

والوجه في هذا، أن القابلتين (شفرة وفوعة) خافتا الله، فسجل لهما الكاتب هذا الشرف في أجيال نسلهما. أما أولئك (المدبرون المسخرون) فهم عار وشنار. بل ربما قد كان منهم من تاب من بعد وأناب فشرف بصحبة موسى في عبور البحر إلى سيناء، فتكتم الكاتب عنه عار ما قد سلف. بل قد كان منهم على وجه القطع واليقين من هلك في مصر على كفره مثل (قارون) وأشباه قارون، فحرص الكاتب أن يعمي أمره - خشية أن يكون في أشراف

(١) سورة القصص، الآية: ٨١.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٢.

بني إسرائيل عصر كتابة الكاتب ما كتب من ينتسبون إليه - فأسقط من سِجِلِّه أسماء هؤلاء المدبرين المسخرين جميعًا، لا يسمي بعضًا دون بعض فيقع في المحظور دون أن يدري.

* * * *

تكتمت التوراة إذن ما قد كان من شأن (قارون) في مصر ولم تسمه، وانفرد به القرآن. والقرآن ينص على أن (قارون) هذا كان رجلًا عبرانيًّا: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾[1]، ومن ثم تقطع بأن هذا الاسم (قارون) اسم عبراني. ولكنك لا تقع قط في أعلام العبرانيين منذ وجدوا وإلى يومنا هذا على شخص واحد تسمى بالاسم (قارون)، وكأنهم يتحاشون التسمية به. ولكن اللغة العبرية لا تخلو من اللفظ (قارون) على الصفة، زنة المفعول عبريًّا من الجذر العبراني (قَرَنْ) بمعنى أنار وأضاء وأشع، فهو الأنور المنور، ومن طريف ما يذكره القرطبي في تفسيره الآيات ٧٦ وما بعدها من سورة القصص أن (قارون) كانت كنيته في قومه (المنور) لوضاءته وجماله، دون أن يفطن بالطبع إلى أن (المنور) هذه هي نفسها (قارون) عبريًّا. والذي نقطع به نحن أن القرطبي نقل هذا عن بعض رواة أهل الكتاب من اليهود، الذين ترجموا (قارون) التي في القرآن إلى معناها العبري (المنور)، يفتعلون العلم المسبق بما ذكره القرآن ولم تذكره التوراة، أو (يجاملون) بها مفسري القرآن، تبريرًا لمجيء القرآن بالاسم (قورح) الذي في التوراة على لفظ مغاير، هو (قارون).

والذي لا تستطيع أن تعفي مفسري القرآن منه، هو انسياقهم إلى القول بأن (قارون) التي في القرآن هي تعريب للاسم (قورح) الذي في التوراة. فلا يصح هذا عربيًّا بوجه، لإبدال النون من الحاء: لو أراد القرآن تعريب (قورح) لنطقها (قورح) بفتح القاف زنة (هودج)، أو لقال (قرح) زنة (عُمَر)، أو لقال (قاروح) زنة (قاموس)، ولما قال البتة (قارون) بالنون. وإنما انساق المفسرون إلى هذا، لانزلاقهم بتأثير رواتهم من أهل الكتاب إلى القول بأن (قارون) المخسوف به في مصر هو نفسه (قورح) المخسوف به في التيه - ولا يصح هذا

(١) سورة القصص، الآية: ٧٦.

البتة كما مر بك - لأنهم لم يفطنوا إلى وجه العلة في توجه موسى بالرسالة إلى فرعون وهامان وقارون جميعًا، وقد مر بك.

ولا يصح أيضًا القول بأن قارون التي في القرآن هي ترجمة عربية للاسم العبري قورح الذي في التوراة. فالاسم العبراني معناه الأقرع، أصلع الرأس، ولا صلة البتة بين قارون - إن أردتها عربية - وبين معنى القرع والصلع الذي في قورح العبري. ولا يصح كذلك القول بأن (قارون) كنية عربية كنى بها القرآن عن (قورح)، لا يترجم بها اسمه وإنما وصفًا له بما شهر به وتحدث به القرآن وهو (جمعه) الأموال والكنوز، أعني (فاعول) على المبالغة من (قرى) العربية بمعنى(جمع)، فلا يصح البتة اشتقاق قارون من قرى، وإنما الذي يصح من قرى على المبالغة هو (قاروء) بالهمزة لا (قارون) بالنون، وإن لم تسمع (قاروء) من العرب. أما (قارون) على (فاعول) من (قَرَنَ) - وإن لم تسمع من العرب أيضًا - فمعناها القارنُ بين الشيئين، لا مطلق الجمع.

ولأن كتبة التوراة جهلوا ما كان من أمر قارون في مصر أو أنسوه أو تكتموه، بل وجهلوا أو تكتموا وجود علم عبراني البتة بلفظ (قارون)، فأنت تُنَحِّي علماء العبرية وعلماء التوراة عن تفسير معنى هذا الاسم (قارون)، وتلتمس تفسيره من القرآن على منهجنا في هذا الكتاب، لأن القرآن هو صاحب هذا الاسم، الذي أُتي به على غير مثال في العبرية أو نظير في أعلام بني إسرائيل، وهو أيضًا الراوي قصته وما كان من شأنه وما آل إليه.

قال عز وجل يفسر الاسم العبراني قارون بالتصوير: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾[1]. هذه الصورة البليغة المعجزة تدلك على أن (قارون) هو الموقر المثقل غنى.

وفي المعجم العبري[2] أن (يقر) (وهو من (وَقَر) العربي) يفيد معاني الثِّقل والعظمة

(١) سورة القصص، الآية: ٧٦.

(٢) راجع مادة (يقر) في (هملون هحداش لتناخ)، المرجع المذكور، ص٢١٦.

والمال – وهذا قريب من معاني (وقر) العربي، فالوقر يعني الحمل الثقيل، والوَقار من معانيه العظمة، والقِرة من معانيها المال، كما تقرأ في معجمك العربي – وقد جمع هذا كله (قارون) الذي في القرآن.

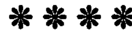
أما كيف تجيء (قارون) التي في القرآن من (يقر) العبري، فهي تجيء في العبرية على المزيد بالواو والنون، فتصبح (يقرون)، كما جاءت (يشرون) العبرية من (يشر) أي السواء والاستقامة، فهو السوي المستقيم، ثم تحذف الياء البادئة من (يقرون) استخفافًا، فتؤول إلى (قارون) الواقر الموقر، كما آلت من قبل في العبرية (يشرون) إلى (شارون).

ترى أكان القرآن – وهو يخترع (قارون) بزعمهم – يستطيع أن ينحت من العبرية هذا الاسم (قارون) من (يقر) العبري إن لم يكن القرآن أفقه بالعبرية من أهلها ومعاصريه من أهل الكتاب الذين اعتجمت عليهم فظنوها (الأنور المنور) كما يروي القرطبي على التفسير السهل المباشر من (قَرَنْ) العبري بمعنى أضاء وأشع؟

ألا فسبح معي العليم الخبير، الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

ومن طريف ما يذكر في هذا السياق أن أهل الكتاب – الذين لم يعلموا بقارون إلا من القرآن وحده – يتخذون من قارون هذا مثلًا على الغنى المفرط، فيقولون بالعبرية (عَشِير كِقورح) يعني: (غني مثل قورح)، ينسقون على قول الأوروبيين بالفرنسية مثلًا *riche comme Cresus* يريدون ملك ليديا في آسيا الصغرى في القرن السادس قبل الميلاد الذي اشتهر بفرط غناه. ولم تصف التوراة قورح الذي في التيه بالغنى والثراء، وإنما وصفته بالعصيان والمروق، وما كان لإسرائيلي في التيه مهما بلغ غناه أن يقارن بغنى كرسوس ملك ليديا، بل ما كان ذهب الإسرائيليين جميعًا ليتجاوز وزن ذلك العجل من ذهب الذي حرقه موسى ونسفه في اليم نسفًا. ولا يصل هذا إلى عُشر معشار ما كان لملك ليديا فيما تروي الأساطير. وإنما نسقت العبرية في هذا على قارون الذي في القرآن، الذي أوتي من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة. وهم هنا أيضًا يوحدون ما بين (قورح)، (قارون)، يجعلون منهما

نفس الشخص على اختلاف الزمان والمكان ، وقد أدى هذا أيضًا ببعض الأدعياء إلى القول بأن القرآن يعرب (كَرِسُوس) اليوناني على قارون، وينقله من ليديا إلى مصر، على بعد ما بين آسيا الصغرى ومصر، وما بين القرن السادس قبل الميلاد الذي عاشه (كرسوس) اليوناني والقرن الثالث عشر قبل الميلاد الذي عاشه فرعون موسى. ولكن كيف تجيء (قارون) من (كرسوس)؟ كان أولى بالقرآن أن يقول (قاروس)، لأن السين الأولى التي في (كرسوس) اليونانية سين أصلية لا يجوز حذفها، أما السين الثانية فهي حركة (إعراب) للرفع في اليونانية تحل محلها النون في النصب فتقول (كرسون). هذا وذاك يدلك على الخلط والتخبط، وهو أمر بئيس لا يلتفت إليه، ولكننا دللناك عليه كي تأمن الوقوع فيه.



(٣٥) مصر

(مصر)، هذا الاسم الجغرافي العلم، اسم عربي ليست فيه شبهة عجمة. ولا يقدح في هذا أنه اسم ممنوع من الصرف غير منون، لأن (مصر) علم مؤنث، والعلمية مع التأنيث تمنع من الصرف وجوبًا، عربيًّا كان الاسم أم غير عربي.

وفي معجمك العربي (مصر) أخرى تقبل الألف واللام، كما تقبل التنكير والإضافة، وتقبل الإفراد والتثنية والجمع، أعني (المصر) بمعنى البلد والقطر، وتجمع على أمصار، وليست هذه كتلك، لأن المصر اسم معنوي مذكر، ليس بعلم.

أما (مصرُ) الاسم الجغرافي العلم، أعني هذه الأرض التي نعيش عليها أنا وأنت، فليس معناها عربيًّا البلد أو القطر، وإنما معناها (الحائل)، أي الحاجز بين الشيئين، أو بين الأرضين، يمنعك من اختراقه أو النفاذ منه، ولفظه في العربية (ماصر) على الفاعلية، وأيضًا (مِصْر)، وفي العبرية (مَصُور) وأيضًا (مِصِر) بكسرتين[1].

ولكن (مصر) تجيء أيضًا في العبرية بصيغة المثنى (مِصْرَيم)، وليس هذا على إرادة التثنية، إنما هو للتعظيم، كما يعرف حذاق اللغة العبرية التي تقول (إلوهيم) جمع (إله) على التعظيم تريد الواحد الأحد. وربما أيضًا على المجانسة مع (تاوى) اسم مصر بلغة أهلها المصرية القديمة (الهيروغليفية)، يعني (الأرضان) على التعظيم لا التثنية.

كانت هيبة مصر في صدور جيرانها منذ فجر التاريخ تصورها لهم سدًّا منيعًا، تَعلَّموا بالتجربة أنهم ما انتطحوه إلا وتحطمت عليه قرونهم، فلم يجدوا لمصر أليق من هذا الاسم (مصر) يسمونها به.

(١) راجع في معجمك العربي الجذر (مَصَر) المشترك على هذا المعنى بين العربية والعبرية.

ولكن مصر سفهت من بعد فترفهت ولانت، وتهاونت فهانت. ومع ذلك فقد بقي لها حقها في هذا الاسم بالتقادم: ذهبت الهيبة وبقيت مصر، لا يعرف أهلها اليوم لاسمها هذا مبنى أو معنى، لا من العربية ولا من العبرية، ولا من المصرية القديمة أيضًا.

لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وسبحان مقلب القلوب والأحوال والأزمان. فاللهم بجاهك وجاه نبيك اردد علينا ما فرطنا في جنب أنفسنا: اردد علينا إسلامنا، واردد علينا قرآننا، وتب علينا، إنا هدنا إليك.

****

أما *Egypt* (إيجيبت) اسم مصر الشائع الآن في كل اللغات تقريبًا عدا العربية والعبرية، فهو مأخوذ من (إغيبتوس) *Aigyptos* اليونانية (السين الخاتمة للرفع)، اسم مصر عند اليونان. وقد تخبط الباحثون في تفسيره فقيل إنه متحور عن *Gbtiw* (جبتيو) المصرية القديمة يعني (قفط) - مدينة في صعيد مصر - وليس بشيء، فلا معنى لأن يتخذ اليونان من مدينة قفط علمًا على مصر كلها، ولا معنى أيضًا لأن يتأنوا في تسمية مصر وقد جاءوها من شماليها حتى ينتهي بهم التجوال إلى صعيد مصر. والراجح عندي ولم يقل به بعد أحد - فهو من الجديد الذي منّ الله علينا به - أن اليونان نحتوا *Aigyptos* هذه من لفظة *agapytos* وهو اسم المفعول في اليونانية من *agapo* يعني (أحب) على الترجمة من المصرية القديمة (تا - مري) يعني أرض المحبوب، أو أرض الأحبة، أو الأرض التي تُحَبُّ، وهو واحد من أسماء (مصر) بلغة أهلها كما سترى.

كيفما كان الأمر، فقد تحولت (إغيبتوس) اليونانية هذه في اللغة القبطية إلى (جپتو)، وعن (جپتو) القبطية هذه قال العرب: (القبط)، يعنون المصريين أجمع، لا نصارى مصر فحسب كما شاعت الآن، وكما يظن الذين لا يعلمون. وهو خطأ لغوي بين، لأن (القبط) على هذه الأرض التي نعيش عليها أنا وأنت أسبق تاريخًا من مبعث المسيح عليه السلام، ناهيك باعتناق (القبط) المسيحية يوم اعتنقوها. وهم أيضًا أسبق وجودًا على هذه الأرض من مجيء الإسلام ودخول أكثريتهم الكاثرة في دين الله أفواجًا.

لم يسم المصريون بلدهم باسم (مصر) العربي العبراني على معنى الحائل أو الحاجز كما أسماها بلغاتهم جيران مصر في الشرق، هيبة ويأسًا وتعظيمًا، فقد من الله على هؤلاء المصريين في غابر الدهر بالطمأنينة في بلادهم، لا يهابون أحدًا من وراء هذا الحائل أو الحاجز، بل قل لا يهتمون لشيء من أمر الذين هم من وراء هذا الحائل أو الحاجز. كان لديهم قدر من (الاكتفاء بالذات) تغبطهم عليه كل شعوب العالم القديم، فانكفؤوا على أنفسهم يحرثون ويزرعون، ويغزلون وينسجون، ثم يجدون من بعد هذا كله وفرة من الوقت يصنعون فيه أصول الحضارة والفن لكل البشر.

هذا الاكتفاء بالذات، والانكفاء على النفس، أورثا المصريين من قديم أنفة واعتزازًا، وربما أيضًا عجبًا وخيلاء، والتصاقًا بالأرض، حتى ملئت صدورهم ببلدهم هذا عشقًا، فقروا في (أرضهم) لا يبغون عنها حولًا، وغيرهم الذاهب الجائي[1].

كانت حياتهم الأرض والنهر، فكانت مصر عندهم في لغتهم هي (الأرض) (تا)، لا أرض غيرها من بعدها، وكان اسم النيل عندهم بلغتهم هو (النهر) (إترو)، لا نهر في الأرض من دونه.

ومن الأرض والنهر اشتق المصريون الأقدمون اسم (مصر) بلغتهم هم فقالوا:

(١) (إدبوي) مثنى (إدب) يعني (الضِّفة) فهي الضفتان، يعنون على الراجح جانبي الوادي.

(٢) (تاوي) مثنى (تا) يعني الأرض، فهي (الأرضان)، ومنه (نب - تاوي) أي سيد الأرضين يعني (ملك مصر)، في مقابلة (نب - ضار) أي رب الكون. والراجح أن التثنية في (الأرضين) هي على التعظيم، وليست على الجمع بين الوجهين البحري والقبلي.

---

(١) اللفظ الدال على صفة (الأجنبي) في المصرية القديمة هو (شماو)، و(شاسو)، الأول من الجذر (شم) والثاني من الجذر (شس) وكلاهما بمعنى ذهب ورحل.

(٣) (تا - مري)، يعني (أرض المحبوب) أو (أرض الأحبة) أو (الأرض التي تحب)[١].

(٤) (تا - كِمْت)، أو (كمت) فقط اختصارًا، وأصل (تا - كمت) هو (الأرض السوداء)، والسواد هنا على معنى الخضرة الضاربة إلى السواد، يعني الزروع، في مقابل (تا - دشرت) (الأرض الحمراء) يعني الصحراء، ومصر كما تعلم جزيرة وسط رمال يضرب لونها إلى الحمرة، كما قال العرب (سواد العراق)، في مقابل باديته. وقد شاع من هذه الأسماء (تاوي)، (تا - مري)، (تا - كمت) أو (كمت) اختصارًا.

(مصرُ) عند أهلها كما رأيت بلغتهم هم هي الأرض، وإن تعددت النعوت. وقد (علم) القرآن هذا قبل أن يعلمه أحد من الخلق أجمعين عصر نزوله وإلى هذا العصر، فجاءت (مصر) في عدة مواضع من القرآن باسم الأرض كما سترى، وسبحان علام الغيوب.

وهذا من أبين إعجازات القرآن التي تتناولها مباحث هذا الكتاب الذي نكتب.

* * * *

وردت (مصرُ) في كل القرآن خمس مرات، جاء الاسم في أربع منها ممنوعًا من الصرف، غير منون: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[٢]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾[٣]، ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[٤]، ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾[٥]. أما المرة الخامسة فقد ورد فيها الاسم مصروفًا، منونًا بالألف نصبًا، وهي: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ

(١) يحدث في الهيروغليفية أحيانًا أن يرسم اسم المفعول غفلاً من التفرقة بين المفرد والجمع. كما يستفاد أيضًا من اسم المفعول هذه الصيغة (الذي يحب)، (التي تحب).

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٧.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٩٩.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٥١.

أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[1]، على خلاف بين مفسري القرآن في أن (مصرًا) في هذه الآية من سورة البقرة ليست هي مصر البلد المعروف، وإنما هي بمعنى (المصر) مفرد أمصار، أي اهبطوا من تيه سيناء إلى بلد من تلك البلدان التي تنبت أرضها من الزروع ما اشتهيتموه، فيكون لكم فيه ما سألتم، لا مصرَ بالذات على وجه التحديد، إذ كيف يؤمرون بالعودة إلى مصر وقد أنجاهم الله منها؟ استند القائل بهذا إلى أن (مصرًا) هذه التي جاءت مصروفة في هذه المرة الخامسة، منونة بالألف نصبًا، على خلاف المرات الأخرى، ليست هي مصر العلم المؤنث الممنوع من الصرف وجوبًا، وإنما اسم معنوي مشترك ينطبق على (أي) بلد أو قطر. وفات هذا المفسر وأضرابه أن هذا ليس بدليل لأن ما كان من العلم المؤنث على زنة (هند) أو (مصر) يجوز فيه الصرف لخفته، وقد جاء بها القرآن على الوجهين. وإن كان الأشهر في (مصر) هو المنع من الصرف. وفاته أيضًا أن المصر والأمصار ليست من ألفاظ القرآن، وإنما نحتت في العربية بعد نزوله، عصر الفتوح وتقطيع (الأمصار) أو (تمصير) الأمصار، أي تخطيط المدن الجديدة في البلدان المفتوحة. وفاته أخيرًا - بل قل فاته أولًا - أن عبارة ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ ليست من الله عز وجل على الاستجابة، فلم يهبط موسى ببني إسرائيل من التيه لا إلى مصر من الأمصار ولا إلى (مصرَ) نفسها التي خرجوا منها فرارًا بأنفسهم، بل قد مات هؤلاء العصاة في التيه، لم يخرجوا إلى غيره، بل ومات فيه موسى أيضًا. وإنما العبارة هي من الله عز وجل على التقريع، أي: أتطلبون الدنية وقد أكرمكم الله بإنجائكم من فرعون، وأنزل عليكم المن والسلوى، وفجر لكم الماء من الصخر عيونًا، تريدون البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل مما كنتم تأكلون في مصر؟ عودوا إلى مصر وفرعون إذن! أي عودوا إلى ما كنتم فيه صاغرين أذلة، قد أذلتكم بطونكم، وليتشف منكم المصريون اشتفاء.

وردت (مصر) إذن بهذا اللفظ خمس مرات في كل القرآن. وليس في أي منها كما رأيت تفسير لمعنى لفظة (مصر) على منهجنا في هذا الكتاب.

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.

ولكن القرآن المعجز يفسر اسم مصر على الترجمة من المصرية القديمة في أكثر من موضع، أي بلفظة (الأرض) التي في (تاوي)، (تا - مري)، (تا - كمت)، على الإبدال من (مصر) العربية العبرانية. يفعل القرآن هذا عامدًا متعمدًا، إدلالًا بعلمه وإعجازه، ما أن تعلم أن (مصر) بلغة أهلها اسمها (الأرض)، وتضع (مصر) موضع (الأرض) في الآيات التي سأنتقيها لك توًّا، حتى يستقيم لك معنى الآية على الوجه الصحيح، الذي لا تملك أن تعدل به غيره، وسبحان العليم الخبير، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

* * * *

وردت مادة (الأرض) في كل القرآن ٣٥٩ مرة، تلمح في بعضها اسم (مصر) وراء لفظة (الأرض) التي في الآية، أترك لك استقصاءها في مصحفك، ولكني سأدلك على أحد عشر موضعًا في القرآن - غير مستقص - فيها الدليل القاطع على أن (الأرض) التي في الآية إنما يقصد بها اسم (مصر) صريحًا، وهي:

أولًا: ثلاثة مواضع في قصة (يوسف):

- ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[1]، قالها رأوبين بكر يعقوب حين استيأسوا من يوسف أن يرد إليهم أخاهم بنيامين الذي احتبسه يوسف معه في مصر بتهمة سرقة صواع الملك، أو يأخذ أحدهم مكانه. وكان يعقوب حين أذن لهم في اصطحاب بنيامين في سفرتهم الثانية إلى مصر يمتارون لأهليهم قد خشي على بنيامين من إخوته أن يفرطوا فيه مثلما فرطوا من قبل في يوسف، فأخذ عليهم موثقًا من الله ليأْتُنَّه به إلا أن يحاط بهم[2]،وتحدثك التوراة (تكوين: ٣٧ - ٣٨) بأن رأوبين تعهد لأبيه

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

(٢) راجع يوسف: ٦٦.

بسلامة بنيامين وقال له: اقتل ابني إن لم أرده إليك. خشي أن يعود إلى أبيه في فلسطين بغير بنيامين، فأقسم ألا يغادر (مصر) حتى يأذن له أبوه، أو يحكم الله له. ترى هل تستطيع إلا أن تضع (مصر) موضع (الأرض) في عبارة رأوبين: (لن أبرح الأرض)؟

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1]، وأنت تعلم بالطبع أن ليس للأرض خزائن، وإنما الخزائن التي أقام الملك عليها يوسف هي خزائن مصر. (الأرض) في هذه الآية يعني (مصر)، لا مجال للقول بغيره متى علمت أن مصر بلغة أهلها اسمها (الأرض).

- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]. لا تستطيع أن تقول إن الله عز وجل مكن ليوسف في مطلق الأرض، بل مكن له في مصر، يتبوأ من مصر حيث يشاء. (الأرض) في هذه الآية هي (مصر) بلا جدال.

ثانيًا: ثمانية مواضع في قصة (موسى):

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[3]، والفساد في هذه الآية بمعنى الخلل والاضطراب، وجاء بيان هذا الخلل والاضطراب في قولهم ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، أي أن المخشي من موسى وقومه هو أن يفسدوا الرعية على فرعون وكهنة فرعون بإثارة الشك في عباداتهم. وليس الفساد المقصود هو (العتو) فما كان بنو إسرائيل ليستطيعوه في مصر، بدلالة قول (فرعون): ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أي هم أذل

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٥٤، ٥٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

من أن يستطيعوا له شيئًا. (الفساد) هنا هو (إفساد) مصر على فرعونها وعلى آلهته (الأرض) هنا يعني (مصر).

- ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[1]، لم يستنكر آل فرعون أن تكون لموسى وهارون الكبرياء في مطلق الأرض بالطبع، وإنما خشوا على الكبرياء التي لآل فرعون أن تؤول إلى موسى وهارون. الأرض في هذه الآية يعني مصر، لا يصح القول بغيره.

- ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾[2]، أي أراد فرعون أن يستفز بني إسرائيل من مصر، لا من مطلق الأرض. الأرض هنا يعني مصر.

- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾[3]، الأرض هنا تعني مصر بالاسم، لا يصح لك القول بغيره. بل في هذه الآية الدليل على أن القرآن يعلم يقينًا أن (الأرض) اسم من أسماء مصر بلغة أهلها، وعلى أنه يستخدم (الأرض) في موضع (مصر)، وإلا لألزمك فقه اللغة العربية أن تفهم عبارة ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ بأنها تعني (وجعل أهل الأرض شيعًا) لعودة الضمير الذي في (أهلها) على لفظة (الأرض) التي قبلها. وليس هو مقصود الآية، وإنما مقصودها (إن فرعون علا في مصر وجعل أهل مصر شيعًا). الأرض في هذه الآية اسم لمصر بلا جدال.

- ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[4]، أي أن نمن على بني إسرائيل الذين استضعفوا في (مصر) لا في مطلق الأرض. الأرض هنا اسم لمصر.

- ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[5]،

(١) سورة يونس، الآية: ٧٨.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٣.
(٣) سورة القصص، الآية: ٤.
(٤) سورة القصص، الآية: ٥.
(٥) سورة القصص، الآية: ٦.

أي نمكن لبني إسرائيل في مصر، لا في مطلق الأرض، بدليل قوله آنفًا: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾، كل هذا في مصر نفسها. الأرض هنا أيضًا اسم لمصر.

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[1]، شاور فرعون ملأه في قتل موسى، خشية الفتنة في الدين الذي يسوسون به الدهماء، فيختل نظام الملك، وهو معنى قوله: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، أي يشيع في مصر الخلل والاضطراب. الأرض هنا اسم لمصر.
- ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[2]، استمر الحوار بين فرعون وملئه، وانبرى لجدال فرعون ومقالته ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون الذي شهر بين المفسرين باسم (مؤمن غافر)، أي المؤمن الذي في سورة غافر، فخوفهم بسوء المآل وضياع الملك، وحذرهم الافتتان بما هم فيه: ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي في مصر، فلم (يظهروا) في غيرها. الأرض هنا أيضًا اسم لمصر (تا - مري)، لا يصح القول بغيره.

ليس فيما مر بك مصادفات كما ترى، بل هو قصد مقصود. على أن القرآن المعجز لا يدعك تمضي دون أن ينص تنصيصًا في الآية ٦١ من سورة البقرة على أن (الأرض) = (مصر) في سياق الحديث عن الذين لم يصبروا في التيه على طعام واحد، فطلبوا من موسى أن يدعو لهم ربه: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾، فاستدرك عليهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[3]. الأرض في أول الآية اسم مصر بلغة أهلها (تاوي) أو (تا - مري) أو (تا - كمت) مترجمًا، ثم معقبًا عليه في

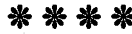
(١) سورة غافر، الآية: ٢٦.

(٢) سورة غافر، الآية: ٢٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦١.

آخر الآية باسمها العربي الصريح: اهبطوا مصرًا، أي إن أردتم ما تنبت مصر فاهبطوا مصرًا لا يصح أن يقال إن (الأرض) في الآية هي على أصلها بمعنى (التربة)، فلم يرد بنو إسرائيل أي بقل وقثاء وفوم وعدس وبصل، وإنما أرادوا ما تنبت (مصر) من هذا الذي أكلوه في مصر واعتادوه، وإلا لكانت عبارة مما تنبت الأرض حشوًا يغنيك عنه قولك: فادع لنا ربك يخرج لنا البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل.

لفظة (الأرض) حين يراد منها (مصر)، هي ترجمة من القرآن المعجز لمعنى اسم مصر بلغة أهلها على عصر موسى: (الأرضان) (تاوي)، أو (أرض الأحبة) أو (الأرض التي تحب) (تا - مري)، أو (الأرض السواد) التي تنبت الزرع (تا - كمت). وسبحان العليم الخبير.



(٣٦) سيناء

سيناء في القرآن بقعة شَرُفت من دون بقاع الأرض جميعها بأنها الأرض التي كلم الله عليها موسى تكليمًا، كما شرف ترابها من دون تراب الأرض جميعًا بتجلي الله عز وجل بنوره على جبل ما في نواحيها فجعله دكًّا: إنها واد مقدس بنص القرآن، يكفيك في قداسته هذا الكلام، وهذا التجلي.

ومن المصريين اليوم من يغفل عن هذا، بل منهم من يفوته أنه قد كان في مصر مولد موسى عليه السلام، وعلى صفحة نيلها تهادى به التابوت رضيعًا، وكان على أرضها مبعثه من سيناء، وفي بحرها انشق له البحر، وكان في التيه محياه ومماته، فدفن في تراب سيناء لا يعرف له قبر.

صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه، وعلى كل من تبعهم بإحسان.



قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾[١].

وقال عز وجل أيضًا: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ﴾[٢].

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٨ – ٢٠.

(٢) سورة التين، الآيتان: ١ – ٢.

هذان فحسب هما الموضعان اللذان ذكر القرآن فيهما اسم (سيناء): ورد في الأول على ما شاعت به (سيناء)، وجاء في الثاني بلفظ (سينين) التي انفرد بها القرآن. على أن (سيناء) لم ترد في الموضعين منفردة، وإنما وردت في كلا الموضعين مضافًا إليها (الطور) وهو (الجبل) في العربية وفي الآرامية أيضًا.

ليس المقصود في القرآن إذن هو (سيناء) بالذات، وإنما المقصود في القرآن هو ذلك (الطور) الذي في سيناء، أو المنسوب إلى سيناء.

والذي ينبغي التذكير به أو أن الجغرافيين العرب حتى الثلث الأول من هذا القرن العشرين لم يقولوا قط (سيناء) منفردة في تسمية ما هو معروف الآن باسم (شبه جزيرة سيناء)، وإنما قالوا دائمًا في تسميتها (طور سيناء) أو (طور سينين)، على ما وردت في القرآن، تعميمًا لاسم هذا الطور المبارك على كل شبه الجزيرة، ولكننا في هذا القرن نتعالم، فنسقط فصيح العربية لنستبدل به رطانة الأجنبي *Sinai* المنقولة حذو النعل بالنعل عن العبرية (سيناي)، أي (سيناء)، كما قال بعض متعالمي الأساتيذ على ما مر بك من (تفاصحهم) إن صحيح (قيصر) هي (سيزار).

****

أما لفظة (طور) العربية - الآرامية - (هار) العبرية - فهي عربيًّا تعني مطلق الجبل، أو هي الجبل المنبت للشجر خاصة. وعلى هذا الوجه يفهم قول الله عز وجل: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾[1]، في وصف هذه الشجرة بأنها شجرة تنبت في سفوح هذا الطور المبارك. وتفهم أيضًا أنها شجرة (الزيتون) بالذات، لأنك لا تعلم في النبت شجرة تنبت الدهن وتنبت (الصبغ) معًا - وهو الإدام يؤتدم به - إلا ثمرة الزيتون التي تؤكل إدامًا وتعصر زيتًا، لا خلاف على هذا بين مفسري القرآن. وتستذكر أيضًا قول الله عز وجل يضرب المثل لنوره: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٠.

كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[1][2].

وقد وردت لفظة (الطور) في كل القرآن عشر مرات، ست منها في هذا الطور المعني بالنص، طور سيناء أو طور سينين: (مريم: ٥٢، طه: ٨٠، المؤمنون: ٢٠، القصص:٢٩ و٤٦، التين: ٢)، وثلاث ترجح أنها فيه أيضًا، أعني ذلك الجبل الذي (نتقه) الله فوق بني إسرائيل (البقرة: ٦٣ و٩٣، والنساء: ١٥٤)، والعاشرة لا تشك أنها فيه أيضًا، الذي أقسم الله به: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾[3].

ووردت (الطور) بلفظ (الجبل)، أي نفس الطور المعني، ثلاث مرات: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[4]، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾[5].

ومن عجائب القرآن أنه يضع لفظة الغربي موضع الطور، مرادفًا مطابقًا له، في قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[6]، يعني إذ قضينا إلى موسى الرسالة، ثم يكرر الغربي بلفظ الطور لا يفصل بين القولين إلا آية: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾[7]، وكأن الغربي بذاتها وبمحض لفظها، اسم موضوع لهذا الطور المبارك.

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٢) انظر تفسير القرطبي لهذه الآية وما قاله المفسرون في وصف هذه الزيتونة المباركة بأنها (لا شرقية ولا غربية) وقولهم – وهو جيد – أنها شجرة في صحراء ومنكشف من الأرض، لا يسترها عن الشمس ساتر من جهة الشرق أو من جهة الغرب، لا إلى هذا ولا إلى ذاك، وهو أجود لزيتها.

(٣) سورة الطور، الآيتان: ١ – ٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

(٦) سورة القصص، الآية: ٤٤.

(٧) سورة القصص، الآية: ٤٦.

وقد ظن بعض المفسرين[1] أن (الغربي) خلاف (الطور)، فقالوا: إن الطور هو موضع المناداة الأولى (ليلة آنس موسى من جانب الطور نارًا فأراد أن يقتبس)، أما (الغربي) فهو موضع إنزال التوراة وتلقى الألواح في مواعدة موسى ثلاثين ليلة أتمهن بعشر. ولا يصح هذا الذي قاله المفسرون، لقول الله عز وجل في تعيين موضع المواعدة: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾[2]، فجانب الطور الأيمن إذن وجانب الغربي سواء، والغربي والطور واحد. وقد حار أيضًا مفسرو القرآن في وصف هذا الجانب من الطور بأنه (الأيمن) التي جاءت في كل القرآن ثلاث مرات فقط، كلها في وصف جانب هذا الطور أو شاطئه، والجانب والشاطئ واحد، ثم وصفه بأنه (الغربي)، التي وردت في كل القرآن مرة واحدة فقط، هي في اسم هذا الطور المبارك أو جانبه، فقالوا إن الجبال لا يمين لها ولا يسار، ولا غرب ولا شرق، وإنما هو الذي على يمين موسى، وإلى الغرب من موسى.

والذي لم يعلمه هؤلاء المفسرون، وما كان لهم بالطبع هم والخلق أجمع أن يعلموه قبل أواسط القرن الماضي وأوائل هذا القرن العشرين، وعلمه الذي هو بكل شيء عليم، أن القرآن ههنا يرادف بين الأيمن والغربي إدلالًا بإعجازه، وتدليلًا على بالغ فقهه باللغة المصرية القديمة، لغة (شبه جزيرة سيناء) على عصر موسى، لأن اليمين عند المصريين القدماء هو (الغرب)، يعبرون عنهما بلفظ واحد: أمنت (قارن في المصرية القديمة و(نِمِي) يعني اليد اليمنى)، واليسار عندهم هو (الشرق) يعبرون عنهما بلفظ واحد: يابت (قارن في المصرية القديمة (يابي) يعني اليد اليسرى)، على خلاف ما نفعل نحن الآن في تعيين الجهات الأصلية الأربع: نستقبل الشمال ونستدبر الجنوب فيكون الشرق على اليمين والغرب على اليسار، وكأنهم كانوا يستقبلون الجنوب[3] ويستدبرون الشمال، فيكون الغرب على اليمين والشرق

(١) راجع تفسير القرطبي لهاتين الآيتين.

(٢) سورة طه، الآية: ٨٠.

(٣) نظير هذا قولك في مصر (الجهة القبلية) تريد الجنوب، حيث بيت الله الحرام في مكة، (قبلة) المسلمين أجمع، وهي في مصر إلى الجنوب من المصلى. وربما استدبر المصريون القدماء الشمال واستقبلوا الجنوب، حيث توجد (طيبة) مركز عبادة (آمون).

على اليسار. والغروب كما تعلم هو أفول الشمس واحتجابها وراء الأفق، فاشتق المصريون معنى (الغرب) من الجذر المصري (أمن) وهو في لغتهم بمعنى الاختفاء والاحتجاب، ومن هذا المعنى أيضًا اشتق المصريون اسم معبودهم (آمون) - أو بالأحرى - (آمان) كما نطقها البابليون على ما مر بك - الذي معناه المحتجب أو (الغربي) صيغة المذكر من أمنت يعني الغرب أو الغربي، أو هو (الغارب)، فعل الشمس التي تأفل في الأفق الغربي فتختفي وتحتجب: إنه الظاهر والباطن، الذي يشرق ويغرب، ومع ذلك فهو دائم الوجود، دائم الفيض، عميم النعم. ومن هنا تلمس في (شرك المصريين) أصلًا قديمًا من التوحيد، ولكن الكهنوت يرمز فيطمس. ثم يعدد فيفسد ويضل. مثلما استولد (رع) أي الشمس، من الإله الخفي المحتجب (آمون)، وليس (آتون) أي قرص الشمس، عن هذا ببعيد.

وربما قلت إن هذا الجبل (الغربي) الذي في سيناء كان عند المصريين القدماء أيضًا جبلًا مقدسًا، ينسبونه إلى آمون (الغرب) أو (الغربي) على ما مر بك. ولكن ليس لديك دليل على هذا من المصرية القديمة، أو مما عرف من المصرية القديمة.

على أن في القرآن إشارة إلى هذا في قول الله عز وجل يخاطب موسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾[1]، وكأن هذا الوادي المبارك تقدس من قبل أن يطأه موسى، أعني تقدس في ماض بعيد في القرون الأولى، يوم كانت مصرُ قبل شركها بلدًا موحدًا يعبد الواحد الأحد. ربما كانت (طوى) هذه اسمًا من المصرية القديمة لهذا الجبل، وربما كانت (طوى) على ما قال المفسرون لهذه الآية[2] عربية من الجذر (طوى) بمعنى (مرَّتين)، فيكون المعنى: الذي تقدس الآن، وتقدس من قبل.

والذي يجب أن تعلمه أن من أسماء الجبل الذي في سفحه زرع في اللغة المصرية القديمة، لفظة ترسم في الهيروغليفية (ضو)، وتنطق في القبطية (تو) *Toou* وربما كان الأصل البعيد في المصرية القديمة هو (ضُوا) أو (طُوا).

وسبحان علام الغيوب.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢.

(٢) راجع القرطبي.

لا يعرف علماء المصرية على التدقيق اسمًا في تلك اللغة موضوعًا على التخصيص لشبه جزيرة سيناء بحدودها المعروفة الآن، وإنما الذي يعرفونه من اللغة المصرية القديمة هو لفظة (شاسُو)، علمًا على هذه الصحراء التي تربط مصر بجيرانها في الشرق، أي بالشام. والراجح أن المصريين ما كانوا يفرقون بين الصحراء (شرقي السويس)، وبين الصحراء (غربي السويس)، فلم تكن ثمة قناة تفصل ضفتاها بين الصحراوين، بل كانتا معًا صحراء واحدة ممتدة، تذهب فيها وتجيء جماعات من البدو الرحل، أسموهم بنفس هذا الاسم أيضًا (شاسو) من الجذر المصري (شِسْ) بمعنى ذهب ورحل، وهم الذين نسميهم نحن الآن (بدو سيناء).

ولا يعرف علماء اللغة المصرية القديمة أسماء بتلك اللغة لمواقع داخل شبه الجزيرة يتقارب نطقها مع (سيناء) العربية أو (سيناي) العبرية، يمكن أن ينسب إليها الطور المبارك، بل إن (جبل موسى) - (حُوريب) في التوراة - ليس مقطوعًا على وجه اليقين بأنه هو بالذات الجبل المعني.

والذي يعنينا بالدرجة الأولى في هذا الكتاب هو تفسير لفظة (سيناء)، لا تعيين موقع ذلك (الطور) الذي في سيناء، أو المنسوب إلى سيناء.

****

في قراءة (سيناء) وجهان: الأول بفتح السين سَيناء، على قراءة الكوفيين ومنها قراءة (حفص) التي يقرأ بها المصريون في مصاحفهم، والثاني بكسر السين (سِيناء)، في قراءة غيرهم. وهو يقارب النطق الدارج في العامية: سينا، بالقصر بدل المد، وبكسر السين لا بفتحها. وهذا يذكرك بلقب الفيلسوف العربي العلم: (ابن سينا).

ومن المصريين من يتفاصح فيلزمك بفتح السين في (سَيناء)، مخطئًا إياك في كسرها، وإنما هو انحياز لإحدى القراءتين فحسب. والراجح عندي أن كسر السين في سيناء أصوب

وأفصح، لقوله عز وجل على الإبدال من (سيناء): سينين، في الآية ٢ من سورة التين: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ﴾، وكأن أصل الاسم سين، جاء بصورة جمع المذكر السالم مجرورًا بإضافة الطور إليه: سينين. أو هو مفرد على أصله جر بالكسر منونًا، أي سينٍ مع إشباع الكسرة قبل التنوين فتؤول الكسرة إلى الياء: سينين، على المجانسة مع رؤوس الآيات في سورة (التين)، كما قال عز وجل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾[1]، والأصل إلياس.

وقد جاءت (سين) هذه في التوراة علمًا على برية في صحراء سيناء: (مِدبار سين) (النص العبراني: خروج ١٨٦) - و(مدبار) عبريًّا يعني البرية - يطلقه شراح التوراة على صحراء غربي جبل سيناء باتجاه الساحل الشرقي لخليج السويس الذي عبره بنو إسرائيل وغَرِق فيه فرعون وجنوده، ومن شراح التوراة من يقول إن (سيناي) أي جبل سيناء، هي صفة على النسب إلى (سين)، فهو الجبل السيني، أو جبل سين، يعني الجبل الذي في برية (سين). والعبرانيون لا يقولون (هارسِيناي) أي جبل سِيناي، يعني الجبل السيني، وإنما يقولون اختصارًا (سيناي) أي (السيني)، يعنون الجبل نفسه لا المكان المنسوب إليه. أما (سيناي) في العبرية المعاصرة فهي علم الآن على شبه الجزيرة كلها، مأخوذ من اسم هذا الجبل المقدس، لا من برية (سين).

أفتكون (سين) هذه عبرية؟ علماء التوراة على هذا كدأبهم في (الاختصاص) بتسمية المواقع والأعلام بلغتهم هم وإن لم يكن لهم بها عهد، أو انتحال التسميات من لغتهم هم مهما كانت ظاهرة الافتعال. دليلك في هذا أنهم لا يجدون في لغتهم ما يشتقون منه (سين) هذه، فيقولون إنها من الآرامية، ومعناها (الطين)، فيكون معنى (سيناي) هو الجبل الطيني، أو جبل الصلصال. فتندهش كيف جاء الآراميون إلى هذا المكان فأسموه بلغتهم في غفلة من المصريين أصحاب الأرض؟ على أن في اللغة المصرية القديمة أيضًا (سين) بنفس المعنى، الطين أو الصلصال، فتفهم أن العبرانيين أخذوا (سين) بمعنى الطين والصلصال من المصرية القديمة رأسًا ولم يأخذوها من الآراميين.

(١) سورة الصافات، الآية: ١٣٠.

بل من اللغويين أيضًا من قال بأن (سين) هذه بابلية، اسمًا من البابلية لمعبودهم (سين) الإله القمر، وأن سيناء كان موضعًا لعبادة القمر. وهذا بعيد.

وربما شجع هذه المقولة أن (السَّنا) عربيًّا يعني ضوء القمر، أخذوها من مفسري القرآن الذين حاولوا تفسير (سيناء) بالسنا والوضاءة، فالتقطها كدأبهم المستشرقون.

ومن علماء التوراة من يظن أيضًا أن (سين) هذه منسوبة إلى (سِنِى) العبرية (بكسر السين والنون، والياء خاملة، وظيفتها إشباع كسرة النون، أعني أن الياء فيها تنطق ألفًا ممالة، كما لو نطقت بالفرنسية *Séné*)، وهو في التوراة اسم الشجرة التي نودي منها في البقعة المباركة بشاطئ الوادي الأيمن: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[1]، تنص الآية على (الشجرة)، ولا تبين ما هي. ولم يهتد علماء التوراة إلى أصل عبري في اشتقاق (سِنِي) هذه يُجمعون عليه. قالوا ربما إنها من الجذر العبري (سَنَنْ) - مكافئ (سَنَّ) العربي - بمعنى شاك وأحدّ وسنَّن، فهو نبت شوكي ذو أشواك، وانتهى المترجم العربي للتوراة إلى أنها شجرة العُلَّيق. والعليق كما تعلم أنواع، منها (توت العليق)، وهو الفرامبواز، *Framboise* في اللغة الفرنسية، و*Raspberry* في اللغة الإنجليزية. وعلماء النبات العرب يقولون لك إن هذا الفرامبواز ليس أصيلًا في بلادنا، ناهيك بأن يكون أصيلًا في سيناء، وإنما هو مستورد، النبت واسمه، لا يصح أن يكون على عصر موسى عليه السلام. ولكن المعجم العبري الحديث لألفاظ التوراة (هملون هحداش لتناخ) - وهو من مراجع هذا الكتاب - ينص في تفسير (سني) على أنه الفرامبواز، فيقول في تفسيره: سِيح بِطِل قَدُوش، يعني شجيرة الفرامبواز المقدسة، ونسيج العبارة العبرية ذاته يوحي لك بالتكلف والافتعال، لأن (بِطِل) العبرية هذه بمعنى (فرامبواز) ليست عبرية، أعني أنها ليست من عبرية التوراة، وإنما هي من العبرية المستحدثة، استحدثوها بعدما رأوا الفرامبواز في أرض الشتات وأكلوه. وإضافة صفة (المقدسة) إلى تلك الشجيرة، (قَدُوش)، يدلك على أن هذا النبت المقدس المسمى في التوراة، نبت يوجد في الذهن والتصور، ولا يوجد في الطبيعة، فلا يأكل منه الناس،

(١) سورة القصص، الآية: ٣٠.

وهذا هو الواقع، فلا وجود لنبت في العبرية باسم (سني) إلا في التوراة. لهذا تحرز المعجم الثنائي عبري - فرنسي (لاروس) من تفسير (سِنِي) بلفظ الفرامبواز على التعيين، وإنما قال: *Buisson d'epines* أي شجيرة أشواك، لا يحدد ما هي. كذلك تحرز المترجم الإنجليزي للتوراة، بل كان أشد تحرزًا، في ترجمته (سني)، فاكتفى بقوله *Bush* أي (شجيرة)، لا يزيد. والقرآن على هذا كما مر بك: إنها الشجرة لا يسميها ولا يحدد ما هي. وهذا من إعجاز القرآن كما سترى، الذي لم يلتفت إليه المفسرون الذين خاضوا في تعيين اسم الشجرة[1]، فقالوا: (سَمُرَة)، (عُنَّاب)، (عَوْسَج)، (غَرْقَد)، بل قالوا: (شجرة العُلَّيق) بالنص، متابعة لعلماء أهل الكتاب، ثم استراحوا لتفسيرها بالغرقد، استئناسًا بحديث النبي ﷺ الذي خرجه مسلم في صحيحه وجاء فيه أن الغرقد من شجر اليهود: «**فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدجال فلا يختفي أحد منهم خلف شجرة إلا نطقت وقالت: يا مسلم هذا يهودي ورائي، تعال فاقتله. إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود، فلا ينطق**». وليس هذا الحديث على صحته بحجة للغرقد كما ترى، إذ ليس لشجرة بوركت من الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[2] أن يخرج من بذرتها ظهير للذين ظلموا.

هذا مجمل ما قيل في (سيناء) شرقًا وغربًا. وهو كما رأيت لا يصمد للنقد، ولكنك تعود فتقول إن اسم بَرِّيَّة سين الذي في سفر الخروج لم يأت من فراغ: إنه اسم البقعة التي يوجد بها الطور المبارك، وإليها ينسب. ولكنه كما كان عليك أن تفترض من قبل، عَلَمٌ على أرض بلغة أصحاب الأرض.

****

ليست (سني) العبرية هذه بعبرية، وليست هي أيضًا عربية، وإنما هي مصرية هيروغليفية. ليست هي العليق أو الفَرامبواز، وليست هي أيضًا بالعناب أو السمر أو العوسج أو الغرقد كما تكلم فيها مفسرو القرآن، وليست أيضًا من السنا والوضاءة على النسبة إلى القمر كما

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٣٠ من سورة القصص.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨.

قال مستشرقون يتكئون على أهل التفسير الأوائل. ولكن (سني) هي كما قال القرآن، مطلق الشجرة.

ومطلق الشجرة في المصرية القديمة هو (شِنْ) يصطلح علماء تلك اللغة كما مر بك على نطقها مكسورة الشين ساكنة النون، لا يجزمون.

والعبرية كما مر بك تخالف بين الشين والسين: ما كان بلغة غيرهم شيئًا قلبوه إلى السين، والعكس، فلا تستبعد أن ينطقوا (شِنْ) المصرية القديمة هذه (سن) وتجيء منها في التوراة (سين) اسم تلك البرية، (سيني) اسم ذلك النبت.

وتحرف هذا وذاك على شراح التوراة، فظنوا (سِنِي) من (سِنَا) العبرية بمعنى الشوكة، وأخذوا (سين) اسم تلك البرية، من (سين) الآرامية بمعنى الطين.

وأنت لا تتصور بالطبع أن تكون شبه جزيرة سيناء على عصر موسى مفازة بلا أعلام، وإنما أنت تقطع بأنه قد كان في شبه الجزيرة قبل عصر موسى بقرون لا يعلمها إلا الله مواقع ومنازل سماها أصحاب شبه الجزيرة بلغتهم هم، لا ينتظرون عبور بني إسرائيل إليها من (بحر القُلْزُم) - خليج السويس - ليسموها بلغتهم العبرية، شأن الرحالة الأوروبيين في عصر الكشوف الجغرافية. بل قد كانت للمصريين في سيناء محاجر ومناجم، وكانت لهم في سيناء مخافر وشرط حدود، وكانت لهم عبر سيناء حملات وغزوات، ولا يحدث هذا كله على مدار التاريخ دون أن تكون في سيناء مواقع ومنازل أسماها المصريون أنفسهم قبل مجيء بني إسرائيل إلى مصر في ضيافة يوسف بإذن من ذلك الملك الذي جعله على خزائن الأرض.

وأنت لا تتصور بالمثل أن تكون سيناء كلها صحراء لا نبت فيها ولا زرع، وإلا لخلت على مدى التاريخ من بدو يغدون فيها ويروحون في طلب الكلأ والمرعى. ولكنك تعلم اليوم - بل وترى رأي العين - أن المطر ربما هطل على مواقع في شبه الجزيرة سيولًا، هي المدد لتلك المياه الجوفية التي يسلكها الباري عز وجل ينابيع في الأرض، ثم تتفجر منها

حيث يشاء سبحانه العيون والآبار، ومنها - وهو الذي يعنينا هنا - (عيون موسى) في جنوبي شبه الجزيرة قبالة خليج السويس، حيث عبر بنو إسرائيل، لا تخلو سيناء إذن من واحات مخضرة، ولا تخلو بالأخص من نخيل وزيتون.

ولكن سفر الخروج (الفصل ١٦) يقول لك إن بني إسرائيل عبروا البحر فبلغوا (برية سين) بعد خمسة عشر يومًا من عبورهم بحر القلزم (خليج السويس)، فأعوزهم في تلك البرية الماء والطعام، وتذمروا على موسى وهارون: (ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم، نأكل خبزًا للشبع، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع)[١].

فكيف يجوز تسمية القفر باسم (سين) على معنى (الطين) آرامية أو مصرية؟ بل كيف يجوز تسمية هذا القفر باسم (سين) المتحورة عن (شِنْ) الهيروغليفية - كما نقول نحن - على معنى (الشجرة)؟ أفي القفر ثَمَّ طين أو شجر؟

الذي أقول به أنا هو أن (سين) هذه ليست منسوبة إلى طينتها أو شجرها، وإنما هي بالأحرى منسوبة إلى هذا الجبل المبارك، الذي تنتهي عنده تلك البرية في واد مقدس، في سفح (طور) ينبت الشجر.

والصفة على النسب تجيء في الهيروغليفية - مثلما تجيء في العبرية والعربية - بإضافة الياء في آخر الاسم المنسوب إليه - غير مشددة - فتقول بالهيروغليفية شني (من شِنْ) تريد الأشجر، ذا الشجر، وليست (شِنِي) الهيروغليفية هذه عن (سِنِي) العبرية ببعيد.

ومن هنا تُفهم عبارة سفر الخروج في النص العبراني: (مِتُّوخْ هَسِّني) (خـ ٣/ ٤) لا على أنها من (وسط العليقة) كما قال المترجم العربي، ولكن على أنها (من وسط الشجرة) كما قال القرآن: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[٢]، أي نودي من

(١) خروج ١٦/ ٤.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٠.

الشجرة التي في شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة، أي الوادي المقدس (طوى). وشاطئ الوادي الأيمن يعني شاطئ الوادي من جهة الغرب، أي الشاطئ الغربي كما مر بك، لا حاجة بك إلى القول كما قال المفسرون الأوائل بأنه الذي على يمين موسى أو إلى الغرب من موسى: إنه الشاطئ المواجه لبرية (سين) الواقعة بين غربي الطور المبارك وبين شرقي خليج السويس.

على هذا يكون معنى (طور سيناء) هو: طور الشَّجْراء ذات الشجر، أو هو (طور الشجرة) المعنية، لا أكثر ولا أقل.

والقرآن - على منهجه في التعريب - يأتي بـ(سيناي) العبرية على العلمية التي ثبتت لها في التوراة، فيقول (سيناء)، ولكنه يعلم ما لم يعلمه شراح التوراة، وهو أن سيناء بلغة أصحاب الأرض أصلها من (الشجر) فيرادف بين الشجرة وبين (سيناء) في قوله عز وجل: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾[1]، وسبحان العليم الخبير.

وقد مر بك ما قلناه في تفسير عدول القرآن عن (سيناء) إلى (سينين) في الآية ٢ من سورة التين، فلا نعود إليه.

* * * *

أما ما هي تلك الشجرة - والله عز وجل بغيبه أعلم - فنحن نرجح أنها شجرة الزيتون بالذات، استدلالًا بوصفه عز وجل تلك الشجرة (التي تخرج من طور سيناء) بأنها (شجرة تنبت بالدهن وصبغ للآكلين)، ولا يصح الجمع في الإنبات بين هذا وذاك إلا في ثمرة الزيتون، واستئناسًا أيضًا بالترادف بين (الزيتون) وبين (سينين) في قوله عز وجل: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾[2]، وجمعًا بين قوله عز وجل في إحلال البركة على تلك الشجرة التي في سيناء: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[3]، وبين قوله عز وجل في ضرب

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٠.

(٢) سورة التين، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة النمل، الآية: ٨.

المثل لنوره: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾[1].

وقد مر بك أن سيناء لا تخلو من نخيل وزيتون، ولكنها بالقطع - عصر نزول التوراة على الأقل - كانت تخلو البتة من توت العليق أو الفرامبواز، على خلاف ما ذهب إليه أهل الكتاب، أصحاب التوراة.

وسبحان علام الغيوب، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض.

* * * *

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٣٧) التوراة

(التوراة)، في القرآن، تعريب مفسر للفظة (تُورا) العبرية، اسم الكتاب الذي أنزل الله على موسى.

وتنطق (تورا) العبرية مدًّا بالألف بعد الراء، حين تنفرد، وتزاد فيها التاء حين تضاف إلى مضاف إليه، فتقول بالعبرية (تُورات موشيه)، وتعني (توراة موسى). أما إن أضفت إلى (تورا) أداة التعريف العبرية (ها)، فأنت تنطقها (هَتّورا)، تريد (التوراة) معرفة بالألف واللام.



وقع في وهم الذين لا يعرفون العبرية من المتعالمين في المجتمع المسلم - الذين يأنفون أو يفرقون من إعمال المسلمين القرآن دستورًا لهم في مجتمعاتهم - أعني هؤلاء العلمانيين المتأوربين في المجتمع المسلم الذين يكدون الذهن في تأصيل مقولة المباعدة بين القرآن والسياسة وتسويد الصحائف في إفلاس (الإسلام السياسي) - وقع في وهم هؤلاء أن (تورا) العبرية، أي التوراة، معناها بمحض لفظها العبري (الشريعة)، أما القرآن فهو كتاب هُدًى ورحمة، لا يصح أن تتخذ منه دستورًا. يريد هذا الكاتب إفتاء المسلمين بألا حرج عليهم في المباعدة بين القرآن والسياسة في مجتمعهم لأن القرآن كتاب هداية وإرشاد فحسب، ليس بشريعة كالتوراة. وربما تفكهت معه فأوجبت عليه بحكم منطقه هذا أن يتصدى لإفتاء يهود هذا العصر بأن يُعملوا التوراة في السياسة لا يحيدون عنها إلى غيرها، لأن التوراة هي الشريعة.

وليس هذا بشيء كما سترى، وإنما بنى الكاتب مقولته على ما وجده في بعض معاجمه الفرنسية أو الإنجليزية التي تفسر لفظة (تورا) بلفظة *Loi* الفرنسية ولفظة *Law* الإنجليزية. وهو تفسير يأخذ لفظة (تورا) لا بأصل معناها في العبرية، وإنما بما آلت إليه عند بني إسرائيل الذين اتخذوا من توراتهم شريعة لهم، شأنها شأن القرآن نفسه مع هؤلاء المسلمين أنفسهم منذ نزوله وحتى انهيار الخلافة العثمانية في أوائل هذا القرن العشرين، أساءوا التطبيق أم أحسنوا. يكفي أن قد كان لهم القرآن إمامًا، ويكفي أنك تحاسبهم بهذا القرآن نفسه حين أساءوا: تعيب التطبيق ولا تعيب الأصل، تتهم المؤتم ولا تتهم الإمام، فتنتقد نفسك ولا تنتقد قرآنك، أن أسأت الفهم عنه، أو عبثت بك أهواؤك، أو خومرت في عقلك فأردت التحلل منه، تلتمس الهدى عند من أضلوك عنه، الذين فتنت بهم منذ اقتحموا عليكم أرضك، فأفسدوا عليك عقلك، وأفسدوا عليك إسلامك.

ليس لمسلم خيار إلا اتباع قرآنه، إن أراد أن يظل مسلمًا بفكره، مسلمًا بقلبه، مسلمًا بيده، مسلمًا بلسانه، لا مسلمًا ببطاقة هويته فحسب، فما ذل المسلمون في بلادهم اليوم وبالأمس، إلا لأنهم ارتضوا الدنية في دينهم، وتخاذلوا فسكتوا عمن لغا في هذا القرآن من ذوات أنفسهم، حتى نبحت الإسلام كلابه.

وقد أخطأ الإسلاميون في هذا القرن، وأخطأ معهم أمثال هذا الكاتب العلماني[1]، الذين خلطوا بين التشريع والشريعة: أراد الإسلاميون من القرآن، واشترط العلمانيون على القرآن، يتوهمون تعجيزه، في صدورهم كبر ما هم ببالغيه، أن يكون القرآن بذاته مجموعة جاهزة من الأحكام القانونية. وإنما القرآن (شريعة)، والشريعة (دستور)، والدستور (ضوابط) تحكم مسيرة المجتمع كله، كما تحكم الاشتراع والتشريع، إنه الحاكم الضابط الموجه لما يصدر

(١) (العلماني) نسبة إلى (العلم) مفتوح العين ساكن اللام، أي هذا العالم الذي نعيشه، أي هذه الدنيا، فهو (الدنيوي)، ترجمة عن اللاتينية *secularis* وهي لفظة كنسية دخيلة على المجتمع المسلم، تفرق في المجتمعات المسيحية بين ما هو كهنوت وغير كهنوت، وهي اليوم اصطلاح يرمز إلى الذين يفصلون بين الدين والسياسة. ليست هي من (العلم) مكسور العين كما توهم الذين لا يعلمون، أو كما يوهمك المضللون كي تحسب أن الفصل بين الدين والسياسة مقولة (علمية).

في المجتمع المسلم من قوانين وتشريعات، يحكم منطلقاتها وأهدافها، شأنه شأن أي دستور آخر، تسفل أو تسامى.

فهل آن للمسلمين اليوم أن يثوبوا إلى مقالة نبيهم ﷺ: «**أيها الناس! إن لكم معالم، فانتهوا إلى معالمكم!**»؟ وهل معالم المسلمين في كل عصر وكل زمان إلا هذا القرآن؟ ألم يحن للمسلمين اليوم أن يتخذوا من قرآنهم دستورًا؟

أما أن القرآن كتاب هداية وإرشاد، فنعم. ولكن، هداية وإرشاد إلى ماذا، وإلى أين؟ هذا هو الذي فات الكاتب. غفر الله لنا وله، وهدانا وإياه جميعًا إلى صراطه المستقيم: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

وأما الذي تعجب له وتندهش، فهو أن (تورا) العبرية هذه لا تعني بالذات لفظها العبري الشرعة أو القانون، وإنما هي تعني بذات لفظها العبري الهدى والهداية، وهو ما (نعاه) الكاتب على القرآن، كما تعني بذات لفظها الإراءة والتبصير، وتعني التعليم والإرشاد، كما تعني بذات لفظها العلم. ولا تزال العبرية المعاصرة تنحت من (تورا) العبرية هذه لفظة موري، يعني المعلم. وتقول العبرية المعاصرة على سبيل المثال: تُورات هَنِّفِشْ، يعنون علم النفس، لا شريعة النفس، وتقول: تورات هاحِبْرا، يعنون علم الاجتماع، لا شرعة الاجتماع، وتقول: تورات هاهِجَّيُون، يعنون علم المنطق، لا شرعة المنطق، كما لو فهمت (تورات) في هذا وذاك بمعنى الشرعة والشريعة، كما يفهمها الذين يستمدون - دون تأصيل - من معاجمهم الفرنسية أو الإنجليزية.

****

تشتق العبرية لفظة (تورا) من الجذر العبري (يرا)، وهي لا تشتق (تُورا) من ثلاثيه المجرد (يرا)، وإنما تشتقه من ثلاثيه المزيد في أوله بهاء التعدية في العبرية، أي (هورا). وهاء التعدية في العبرية تكافئ همزة التعدية في العربية، أي صيغة أفعل يُفْعِل إفعالًا. ولفظة (تورا) مصدر

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

من هذا، فهي (إفعال) من (أفعل)، أو هي (تفعلة) من (فَعَّل). وهي أيضًا (تفعال) مثل تبيان وترحال وتجوال، على المبالغة.

والجذر العبري (يرا)، يدور هو ومشتقاته على معاني مستمدة من أصول عربية أربعة، هي:

(١) الجذر العربي أرى، وأرَاه يعني ثبته ومكنه، ومنه (يِرُوشاليم) عاصمة فلسطين كما يقول علماء التوراة يعني (ركيزة السلام)، لا (مدينة السلام) كما يقول غيرهم أخذًا من (أور) الآرامية يعني المدينة، وهو خطأ شائع، لأن اسم القدس في العبرية والآرامية معًا مبدوء بالياء لا بالهمزة.

(٢) الجذر العربي وأر، وأوأره يعني أعلمه.

(٣) الجذر العربي ورأ، وأوراه يعني أعلمه.

(٤) الجذر العربي ورى، ومنه الورى، أي الخلق، كان في سابق علم الله مكنونًا فظهر، واستوراه فورَّى له يعني استعلمه فأعلمه، واستهداه فهداه، أي أرشده، لا يخرج عن هذا (ورى عن الشيء) أي أراده وأظهر غيره، أي أخفاه، ومنه التورية، لأنها معدولة عن (الإعلام) إلى نقيضه بالحرف (عن)، كما تقول (رغبت فيه) و(رغبت عنه)، وكما تقول، (عدلت إليه)، و(عدلت عنه).

معنى (تورا)، أي (التوراة)، هو إذن عند علماء العبرية وعلماء التوراة:

(١) العلم والإعلام، تجيء بها في العربية على (توراء)، زنة (تفعال) من الجذر (ورأ). وقد استجيزت (توراء) على معنى (توراة) في الشعر خاصة، لا تصح القراءة بها في القرآن لمخالفتها خط المصحف.

(٢) الإظهار والإبانة، من الجذر (ورى).

(٣) الهدى والهداية والإرشاد، من الجذر (ورى) أيضًا.

(٤) الإراءة والتبصرة، من استوراه فورَّى له، تأخذ هذا من الجذر (وَرَى) كذلك.

وقد ألم القرآن المعجز في تفسيره لفظة (توراة) بهذه المعاني الأربعة جميعًا: العلم، الإبانة، الهدى، التبصرة، في غير موضع، تكفيك منها الأمثلة التي نتلوها عليك توًّا.

****

وكثيرًا ما ترد في القرآن لفظة (الكتاب) والمقصود بها (التوراة) على وجه التحديد، من مثل قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾[1]، نعم، قد جاء لفظ (الكتاب) كثيرًا والمراد منه (القرآن) بالقطع، في مثل قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾[2]، أي أن القرآن وحده، دون الكتب من قبله، هو الكتاب الذي لا ريب فيه، لا تشك أن كل حرف فيه من قول الله، وغيره من الكتب تسمعها فلا تأمن التصحيف والتبديل. وكثيرًا أيضًا ما يجيء القرآن بلفظة (الكتاب) ومراده منها مجمل وحي الله على رسله، وما (أم الكتاب) عن هذا ببعيد، أعني اللوح المحفوظ الذي تتنزل منه الملائكة بوحي الله على رسله، قرآنًا وغير قرآن، ولكن ربما لا يلتفت كثيرون إلى أن (التوراة) بالذات – أعني ما صدق في التوراة التي بين يديك فصدقه القرآن – هي وحدها فيما نعلم من قول الله عز وجل، الكتاب الوحيد الذي أنزله الله مكتوبًا في ألواح، فهي الكتاب المكتوب، كما تستظهر من قوله عز وجل: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[3]، أي إن لم تفعلوا كان مصيركم دار الفاسقين. ولكن بني إسرائيل لم يفعلوا، وتعللوا بأن الألواح التي جاء بها موسى من عند الله ألقاها موسى فتحطمت منه في فتنة العجل، بل تقول لك هذه التوراة التي بين يديك أن الألواح لم تكن إلا لوحين اثنين، كسرهما موسى بيديه في حُمُوِّ غضبه (خروج ٣٢/ ٢٩) فلم تعد ثمة ألواح، ولكنه نحت لنفسه بأمر الله لوحين من حجر مثل الأولين كتب الله له عليهما نفس الكلمات التي كانت على اللوحين اللذين كسرهما موسى

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.

في حمو غضبه (خروج ٣٤/ ١). ولكن القرآن يجيء بالألواح على صيغة الجمع كما مر بك ويقول لك أيضًا أن الألواح لم تتحطم ولم يكسرها موسى بيديه - حاشاه أن يفعل مهما كان حمو غضبه - ولكنه التقط الألواح لم يمسسها سوء ولم تمح منها كلمة مما كتب الله له فيها: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[1]. بل ما كانت تلك الألواح لتتحطم أو تتكسر لحظة ألقاها موسى، فلم تكن من حجر: كما وهم الكاتب، وإنما كانت رقائق من الجلد، كما تستظهر من قوله عز وجل يقسم بالطور وبالتوراة، والكتاب المسطور: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾[2]. أيًا ما كان الأمر، فأنت تعلم بالطبع أن بني إسرائيل من بعد موسى أضاعوا هذه الألواح المقدسة فلم يبق منها إلا ما بقي في ذاكرة كتبة التوراة: فيها من قول الله، الذي صدقه القرآن والحديث الصحيح، وفيها الذي هو إلى التواريخ والسير أقرب، وهو أكثرها.

والذي يعنينا في هذا السياق هو تأصيل المقصود من عبارة (أهل الكتاب) في القرآن: أهم اليهود فقط أم اليهود والنصارى فحسب، أم هم كل أمة ذات كتاب، سواء أخبر الله عز وجل عنهم في القرآن أم لم يخبر[3]؟

أما أن اليهود يندرجون تحت وصف أهل الكتاب فهذا مقطوع به ولا خلاف عليه، تستظهره في مثل قوله عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[4]، والذين أنزلهم الله من صياصيهم، أي من حصونهم، وقذف في قلوبهم الرعب، وقتل منهم المسلمون وأسروا، هم (بنو قريظة)، أي بعض يهود يثرب.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة الطور، الآيات: ١ - ٣.

(٣) لهذا التأصيل أهمية بالغة في صياغة (الدستور المسلم) يوم يمن الله علينا بتأليف القلوب على ارتضاء كتاب الله دستورًا، لأن القرآن يخص أهل الكتاب بأحكام لا يجوز أن تنصرف إلى غيرهم. وفي هذا تأصيل لعلاقة المسلم بغير المسلم في مجتمعه وفي خارجه.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٦.

وأما أن النصارى مخاطبون هم أيضًا في القرآن باسم (أهل الكتاب)، فهذا مقطوع به كذلك ولا خلاف عليه، تستظهره في مثل قوله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[1]، والذين (قالوا ثلاثة) ليسوا اليهود كما تعلم، وإنما هم النصارى.

وأما أن اليهود والنصارى هم وحدهم (أهل الكتاب) لا يندرج تحت هذا الاسم غيرهم من الملل، فهذا هو صريح القرآن، لا يصح غيره، وشواهده القاطعة من القرآن عديدة، ومنها هذا الشاهد الحاسم الذي يقطع كل جدل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[2]، أي هم أهل التوراة والإنجيل، فليستقيموا عليهما، وعلى ما أنزل إليهم من ربهم، أي القرآن، الذي جاء به محمد ﷺ ودعاهم إليه، بدليل قوله عقب هذا مباشرة ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ الآية، فما أنزل إليهم من ربهم بخلاف التوراة والإنجيل هو هذا القرآن الذي دعوا إليه. لا يصح أن يؤمر بإقامة التوراة والإنجيل، إلا أهلهما، كما جاء في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٦٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[3].

والراجح عندي لا يصح غيره، أنهم سموا (أهل الكتاب) بمعنى (أهل التوراة)، فالتوراة، لا الإنجيل، هي الكتاب المعني. وهي مشتركة بين الطائفتين: يدين اليهود بالتوراة كما تعلم، ويكفرون بالإنجيل، ويدين النصارى بالتوراة وبالإنجيل. وقد قال المسيح عليه السلام:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

(٣) سورة المائدة، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

ما جئت لأهدم الناموس (أي التوراة) وإنما جئت لأُكمِّل، أي بالإنجيل، فالمسيح عليه السلام يكمل التوراة ولا ينتقص منها. وقد ظل المسيحيون الأوائل يعدون فرقة من فرق اليهود لا أكثر ولا أقل. ولم تكتب الأناجيل التي بين يديك إلا بعد زمان من رفع المسيح، وهي قد كتبت إنشاءً لا استنساخًا من أصل يرد إليه. ولا تزال المسيحية إلى اليوم تتعبد في كنائسها بتلاوة فقرات من هذه التوراة، توراة اليهود. بل إن (الكتاب المقدس)، كتاب المسيحيين كما مرّ بك مجلّد يضم التوراة والإنجيل معًا، إنه هو الكتاب *The Bible (La Bible)* بالفرنسية)، وأصلها *Biblion* اليونانية - لغة الكنيسة الأولى - وأصل معنى *Biblion* هذه (الكتاب) لا أكثر ولا أقل. وقد أصبحت *Bible* هذه علمًا على التوراة والإنجيل معًا، لا يجوز إطلاقها إلا والمراد منها (التوراة والإنجيل)، لا مجرد أي كتاب.

ومن إعجاز القرآن أن يفطن وحده - مطلع القرن السابع للميلاد - إلى هذا، فيجمع بين الطائفتين تحت مسمى واحد: أهل الكتاب، على معنى أهل التوراة والإنجيل يعني (بالإنجليزية مثلًا *People of the Bible*، لا *People of the Book* كما تخطيء فيها بعض ترجمات القرآن الإنجليزية. بل إن القرآن المعجز يأبى على أي من الطائفتين أن تنكر إحداهما على الأخرى وكتابهم واحد، أي التوراة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[1] يريد كيف يسوغ لهم إنكار بعضهم على بعض وهم جميعًا يتعبدون بهذه التوراة نفسها، وإن اختلف الكنيس[2]؟ والقرآن بهذا الإنكار يسبق بقرون المعاجم الأوربية التي استحدثت لفظة *Judeo - christianism* علمًا على الثقافة (اليهودية - المسيحية)، أعني هذا الفكر المشترك الذي ينهل من نبع واحد هو (التوراة). هذا

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٣.

(٢) الكنيس والكنيسة واحد، وإن خص العرف وحده اليهود بالكنيس وخص النصارى بالكنيسة. وهو في العربية من الجذر كنس الذي يفيد الاكتنان والاستتار، ومنه كناس الظبي يقيل فيه. وهي في العبرية من الجذر كنس أيضًا الذي يفيد التجمع والاجتماع، ومنه (الكنيست). والكنيسة ترجمة *Ekklesia* اليونانية بمعنى الجامعة، وليس من هذا المسجد (الجامع) وإنما هو المسجد (الكبير) في المصر الواحد، أو هو المسجد الذي تصلح إقامة صلاة (يوم الجمعة) فيه، لا أي مسجد.

الفكر المشترك النابع من نبع واحد، هو الأصل الذي ترد إليه تلك (الموالاة) بين الطائفتين، حين تتحدان في مواجهة الإسلام: لا تتحزب مع الإسلام قط طائفة ضد أختها. وهذا هو معنى قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[1]، أي لأنهم أولياء بعض تخشى منهم المواطأة عليك. وهذا من إعجاز القرآن أيضًا، دليلك فيه ما يحدث في هذا العصر بالذات من ممالأة إسرائيل عليك. ولكنك لا تلوم في هذه إلا نفسك، فهم لم يخدعوك أو يغرروا بك، وإنما أنت الذي عميت عن كتاب ربك وسنة نبيك، حتى هانت عليك نفسك، فهنت على الناس.

أما أن يقال لك إن أهل الكتاب معناها في القرآن كل أمة ذات كتاب، فهو قول هراء، لا لما أسلفناه من القرآن فحسب، وليس لمسلم حجة بعد القرآن، وإنما أيضًا لأن القرآن لم يقل قط (أهل كتاب) على التنكير الذي يفيد التعميم، وإنما قالها (أهل الكتاب) معرفًا بالألف واللام، يريد الكتاب المعني، أي التوراة بالذات على ما مر بك. ولأن القرآن يريد الكتب (المنزلة) ولا يعبأ بالكتب (الموضوعة)، ولا علم لك بكتب أنزلت قبل القرآن إلا التوراة والإنجيل، ناهيك بكتب يصطنعها الذين كفروا بختام الرسالات والنبوات. إن عممت ولم تفرق، اعتل عليك كل ذي كتاب بكتابه، وإن جاء بصريح الكفر. وإن عممت ولم تفرق، فقد استدركت على القرآن الذي لم يسم لك كتب زُرادشت وكونفوشيوس وكتب البوذيين والهندوس، وقد دانت بها الملايين على عصر نزول القرآن، ولا تزال تدين. وأخيرًا، إن عممت ولم تفرق، فقد أدخلت المسلمين أنفسهم في زمرة أهل الكتاب، لأنهم أهل القرآن، والقرآن كتاب، بل هو الكتاب. ولا يعتلن عليك أحد بفعل عمر رضي الله عنه - إن صحت الرواية - أنه استجاز إلحاق المجوس بأهل التوراة والإنجيل: قد قاس عمر إذن، والقائس يجتهد فيخطئ أو يصيب. ولو كان في المسألة نص صريح عن الصادق المصدوق ﷺ يقرر أن المجوس بعض من أهل الكتاب لما جاز لعمر أصلًا أن يقيس[2]، وما كان لمجوسي أن

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) لا يجوز لمسلم التثريب على الصحابة رضوان الله عليهم، ففضل الصحابة عليك كبير. ولا يصح=

يستعلن بمجوسيته في دار الإسلام على عصر عمر رضي عنه كما يستعلن اليهود والنصارى، وإلا لقبل عمر الجزية من الهرمزان وما قال له: الإسلام أو السيف! ولم تكن في دار الإسلام على عصر عمر (معابد نيران) يؤمها المجوس مثلما كانت لليهود والنصارى في دار الإسلام ولا تزال صلوات وبيع وأديرة وكنائس. ودعك مما يقال لك - وإن صح - من أنه قد بقي في الدولة العباسية مجوس يؤمون معابد لهم، فلا تنس أن (العباسي) ليس صحابيًّا تستن به، ولا تنس أيضًا أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس، والعرق دساس.

في المجتمع المسلم - حين يصح إسلامه - لا مواطنة إلا لمسلم أو كتابي، ولا كتابي إلا اليهودي والنصراني، وغيرهما عابر مسالم أو معاهد مستأمن، ومثل بمثل.

****

مر بك أن التوراة هي الكتاب الذي أنزل الله على موسى. ولكن التوراة كما تعلم، شأنها شأن الإنجيل، تطلق أيضًا ويراد منها مجمل أسفار العهد القديم فتشمل أسفار اليهود كلها، التي يجمعها اليهود تحت اسم (تورا نَبيئيم وكْتُوبيم) - وتلفظ عبرانيًّا (تورا نفيئيم وخْتوڤيم) وتختصر إلى (تَنَاخ بالأحرف الأولى - يعني (التوراة - الأنبياء - الكتب)، أي (أسفار التوراة)، (أسفار الأنبياء)، (أسفار الكتبة) - وسنقولها نحن اختصارًا (توراة الأنبياء والكتبة) - لأن من أصحاب تلك الأسفار من ليسوا بأنبياء، بل كتبة، مثل سفر (عِزْرا)، كاتب شريعة الله بعد سبي بابل. والكتبة في ديانة اليهود هم حفاظ التوراة، يستنسخونها بأيديهم، لم يهبط عليهم وحي، وإنما جاءتهم القداسة بإضافة ما صنفوه إلى الكتاب. وما نزل القرآن إلا وقد اكتمل المجلد، فهو تلك (التوراة) أو (العهد القديم) الذي بين يديك. وقد ضاع من قبل بعض تلك الأسفار وبقي البعض، دليلك في هذا من التوراة التي بين يديك، التي تحيلك

= من مسلم أن ينتقد عمل الصحابي مهما كان قدره - ناهيك بعمر رضي الله عنه - فربما كانت له فيه حجة لم يبدها لك. ولكن عمل الصحابي لا يلزمك إلا أن يتأصل أو يقاس على محكم الكتاب والسنة، فهما وحدهما إمامك، ولا حجة لمسلم فيما يخالفهما. هذا أصل نفيس. ولو قد تمسك به الفقهاء لخلص الفقه الإسلامي من شوائب الاحتجاج للمؤول والمظنون والضعيف.

في بعض مواضع إلى أسفار تسميها بالاسم ثم تفتش عنها في هذا المجلد فلا تجد لها أثرًا بين دفتيه. وسواء نسب السفر إلى نبي أو كاتب، فسيان هذا أو ذاك، إذ ليس في التوراة التي بين يديك سفر واحد خطه نبي بيده، أو أملاه وروجع عليه، وإنما هي كلها صنع (الكتبة) على التراخي، حفظ الكتبة أم ضيعوا. وما جاء القرآن في بعض مقاصده إلا لهذا، مصدقًا لما بين يديه ومهيمنًا عليه.

وتنسب الأسفار الخمسة الأولى من (توراة الأنبياء والكتبة)، وهي سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر العدد، وسفر اللاويين، وسفر التثنية (تثنية الاشتراع) - أو بالأصح تنسب مادة هذه الأسفار الخمسة - إلى موسى عليه السلام، فهي وحدها (توراة موسى)، تليها أسفار غيره، أنبياء وكتبة، ومن بين أسفار الأنبياء، سفر (المزامير)، أي مزامير داود عليه السلام، أي الزبور، المعني بقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[1]، وسيأتي الحديث عن (الزبور) في موضعه.

هذه (التوراة) إذن، أعني (توراة الأنبياء والكتبة) كما يسميها اليهود، أو (العهد القديم) كما يسميها النصارى، تتضمن فيما تتضمن، كلًّا من (توراة موسى)، (زبور داود).

ولو قد آمن اليهود لعيسى، لكان الإنجيل نفسه بعض (توراة الأنبياء والكتبة)، خاتمة لهذا (الكتاب) المنسوب إليه (أهل الكتاب)، الموسوي منهم والمسيحي سواء، ولحفظه الأحبار مثلما حفظوا توراة موسى وزبور داود، على الأصل الذي نطق به عيسى بلغته العبرية أو الآرامية، ولسمعت كلماته مِنْ فِيِه المبارك تنطق بالحق الذي ضل عنه كثيرون.

ولكن الله عز وجل هكذا شاء وقدر، فحسبك القرآن المصدق المهيمن، وفيه الكفاية.

صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه وعلى كل من تبعهم بإحسان.

****

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.

أما (توراة موسى)، أعني تلك الأسفار الخمسة الأولى التي تتصدر (توراة الأنبياء والكتبة)، فهي التراث الموروث لما سمع من الأنبياء منذ إبراهيم إلى موسى عليهم جميعًا أزكى الصلاة وأتم التسليم، بالقدر الذي حفظته ذاكرة الكتبة الذين خطوا هذه الأسفار الخمسة بأيديهم، أعني (ما صدق) فيها.

تستظهر هذا من قوله عز وجل في ختام سورة الأعلى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[1].

أما (صحف موسى) فهي أسفارٌ أربعة من تلك الأسفار الخمسة: خروج - عدد - لاويون - تثنية، التي تقص قصة موسى عليه السلام منذ مولده في عاصمة مصر حتى وفاته في تيه سيناء لا يعرف له قبر. وأما (صحف إبراهيم) فتجدها في السفر الأول من الأسفار الخمسة، أعني سفر (التكوين)، الذي يقص قصة الخلق منذ بدء الخلق بآدم، وينتهي بوفاة يوسف في مصر. والذي تستطيع أن تسميه (صحف إبراهيم) من هذا السفر هو الإصحاحات الأربعة والعشرون الأولى من سفر التكوين، وبداية الإصحاح الخامس والعشرين حتى يقول الكاتب: (وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة شيخًا وشبعان أيامًا وانضم إلى قومه)[2]. ثم يأتي بعد ذلك حديث إصحاحات السفر عما كان من شأن أبناء إبراهيم وحفدته وفيهم من الأنبياء إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف الذي ينتهي السفر بوفاته.

وكما لا تستطيع أن تقول أن الأسفار الأربعة التي تتحدث عن موسى هي بذات حروفها (وحيُ الله على موسى)، أو (صحف موسى) كما يسميها القرآن، لأنك لا تتصور أن يتضمن وحي الله (على موسى)، أخبار مولده وأخبار وفاته كما يقصها عليك الكاتب في سفري الخروج وتثنية الاشتراع، لا تستطيع أيضًا أن تقول أن أول أسفار (توراة الأنبياء

(١) سورة الأعلى، الآيات: ١٤ - ١٩.
(٢) تكوين: ٢٥ / ٨.

والكتبة)، أعني (سفر التكوين) وفيه ما فيه على ما مر بك، هو بذات الحرف والعبارة التي في إصحاحاته الأربعة والعشرين الأولى (وحي الله على إبراهيم)، أو (صحف إبراهيم) كما يسميها القرآن، ولكنك تقول جازمًا آمنًا مطمئنًا أن كتبة هذه الأسفار حفظوا وضيعوا وبدلوا، ودلس بعضهم تدليسًا، بل وأفحشوا إفحاشًا، يقبسون من أساطير اليونان و آلهة الأولمب، من مثل خلق الله آدم على صورة الله ومثاله[1]، فقدموا (للإنسان - الإله) ومهدوا له تمهيدًا، ومن مثل مصارعة الله يعقوب فجاهده يعقوب حتى جهده، وتطاولوا على مقام أنبياء الله ورسله، من مثل إسكار نوح حتى تنكشف عورته على أبنائه فيتضاحكوا منه، ومن مثل زنى ابنتي لوط بأبيهما ليكون لهما منه نسل يعيرون به خصومهم الموآبيين على ما مر بك، ومن مثل صنع هارون العجل لمن طلبوا العجل في التيه، إلى آخر ما تعلم. وقد تلتمس العذر لأولئك الكتبة فيما ضيعوه من هذه التوراة لأنهم أنسوه، فذاكرة البشر تسعف وتخون. ولكنك لا تعذرهم قط فيما بدلوا ودلسوا.

أما إنهم (حفظوا) فنعم: حفظوا حظًا مما ذكروا به، وهو الذي يصدقه القرآن ويهيمن عليه. ونسوا حظًا مما ذكروا به فالقرآن يدلهم عليه. وتبدلوا من قول الله قول البشر، ينقلون الكلم عن بعض مواضعه، والقرآن يرد عليهم مقالتهم ويبين لهم. ولكن القرآن (يعفو) تنزهًا عن تكذيب ما أفحشوا فيه، المحال في جنب الله عز وجل، المحال على كرامة أنبيائه، لأنه ظاهر البطلان بذاته.

يكفيك كي تؤمن بهذا القرآن - إن كنت من غير أهله - أن تراجع هذه التوراة عليه، عسى أن تكون ممن شاء الله أن يهديهم، لا هداية إلا به سبحانه.

والذي يعنينا في هذا السياق أن القرآن المعجز، وقد علم أن أهل الكتاب ينسبون إلى موسى عليه السلام هذه الأسفار الخمسة من (توراة الأنبياء والكتبة)، أو مادة هذه الأسفار

---

(١) ليس من هذا حديثه ﷺ في أدب (التأديب) وقد رأى رجلاً يضرب غلامًا له على وجهه: «تجنبوا الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته»، يعني كرموا وجه البشر بكرامة الله عز وجل الذي خلق بيديه وجه آدم على صورة هذا الوجه، أي وجه هذا الغلام.

الخمسة كما مر بك، يصحح لأهل الكتاب مقولتهم فينسب بعض مادة هذه الأسفار - أعني بعض ما في النصف الأول من سفر التكوين - إلى إبراهيم عليه السلام: إنها ليست كلها (توراة موسى) وحده، وإنما هي معًا (صحف إبراهيم وموسى)!.

****

أما التفسير القرآني - المقصد الأول في مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب - للفظة (توراة) - أعني (تورا) العبرية - بلغة أهلها، وقد مر بك وجوه اشتقاقها من العبرية على معان أربعة هي العلم والإبانة والهداية والتبصرة، فقد فسر القرآن (التوراة) بمعنى العلم في مثل قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾[1]، يعني الذين أوتوا التوراة، وفي مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[2]، يعني لم يختلف أهل الكتاب أصحاب التوراة إلا من بعد ما جاءتهم التوراة، وهذا من إعجاز القرآن، لأن اليهود لم يختلفوا فرقًا إلا من بعد ما أنزلت التوراة، فالعلم هنا بمعنى التوراة، لا يصح أن تفسره بمعنى (عيسى) كما قال مفسرون، فقد نزل فيهم عيسى وهم فِرق، ولا يصح أيضًا أن تفسره بمعنى القرآن كما قال آخرون، لأن أهل الكتاب كانوا مختلفين قبل نزول القرآن ومبعث خاتم الرسل. وغير هذا في القرآن كثير، تكفيك منه هاتان الآيتان. وفسرت التوراة أيضًا في القرآن على معنى البيان والإبانة في مثل قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾[3]، والصحف الأولى كناية عن التوراة كما تعلم، وفي قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[4]، أي ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم التوراة كما مر بك، وفي قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ

(١) سورة محمد، الآية: ١٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٣) سورة طه، الآية: ١٣٣.
(٤) سورة البينة، الآية: ٤.

فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾[1]، يعني بالكتاب المستبين (التوراة). وفسر القرآن التوراة على معنى الهدى والهداية في مثل قوله عز وجل: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[2]، وغيره في معناه كثير، تكفيك منه هذه الآية. وأخيرًا فسر القرآن التوراة على معنى البصيرة والتبصرة في قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾[3].

وكما فسر القرآن معنى التوراة بالمرادف المطابق والمرادف القريب، فسرها أيضًا بالتعريب، فهي معدولة عن (التوراء) كما مر بك، (تَفعال من الجذر (وَرَأ)، فهي بمعنى (الإيراء) أي الإعلام. وهي أيضًا معدولة عن (التورية)، تَفْعِلَةٌ من الجذر (وَرَى) أي من (أَوْرَاه)، (وَرَى) له، أي أظهر له وأبان. وهذا من التعريب الفني في القرآن لأنه يجانس (تورية) على (تورا)، فيقول (توراة)، كما قال العرب في (قارية) يعني الحاضرة الجامعة: (قاراة)، وكما سُمِع من العرب في (جارية) - الأمةُ أو الفتاة - (جاراة). وسبحان العليم الخبير.

****

والذي ينبغي التنبيه إليه أن التوراة في القرآن هي فحسب التي كتب الله لموسى في الألواح، تلتمس ما بقى منها في الأسفار الأربعة - (الخروج) إلى (تثنية الاشتراع) - لا شأن لك بما قبلها وما بعدها في (توراة الأنبياء والكتبة). وسفر التكوين ليس من توراة موسى قطعًا، وما بقي في هذا السفر من (صحف إبراهيم) ليس من التوراة بالقطع، دليلك في هذا وذاك قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾[5]، ثم تحداهم

(١) سورة الصافات، الآيات: ١١٤ - ١١٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢.
(٣) سورة القصص، الآية: ٤٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٥.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩٣.

بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[1]، فكان الأمر كما قال: كذب المكذبون وصدق العلي الكبير.

* * * *

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٣.

(٣٨) يأجوج ومأجوج

(يأجوج ومأجوج) غيب من غيب الله عز وجل الذي أخبر به القرآن، لا تجد له في التوراة والإنجيل اللذين بين يديك، وفي أقاصيص أهل الكتاب، إلا أهابيش من ضباب رؤى وخيالات تبعد بك كل البعد عن حديث يأجوج ومأجوج الذي في القرآن.

ففي (توراة الأنبياء والكتبة) يحدثك سفر حِزقيال - وهو من أعلام القرن السادس قبل الميلاد - لا عن (يأجوج ومأجوج) الذين ردم عليهم (ذو القرنين) فلا يخرجون حتى قبيل قيام الساعة - وإنما يحدثك عن (جوج) أمير (ماجوج) الذي يجيء من أقاصي الشمال[1] ومعه شعوب كثيرة فيجتاح إسرائيل، ولكن الله يرد لبني إسرائيل الكرة عليهم فيستأصلونهم ويقبرون في واد يسمونه وادي جمهور جوج[2]. وحزقيال عند اليهود نبي راءٍ، يرى الرؤى فيخبر بها وكأنها وحي من الله عليه، والرؤى كما تعلم أضغاث ورموز، إن صدقت الرائي فلا تأمن سوء الفهم عنه، وإن استأمنت الناسخ والناقل فلا تأمن الخلط والتخليط.

وأما في أسفار (العهد الجديد)، فأنت تجد في آخر أسفار الأناجيل، سفر (رؤيا يوحنا اللاهوتي) أن (جوج وماجوج) هم الأمم الذين في أربع زوايا الأرض[3]. وعند يوحنا اللاهوتي أن هناك قيامتين: القيامة الأولى بعد القضاء على فتنة الدجال، والناجون من هذه الفتنة يكونون كهنة لله والمسيح ويملكون معه ألف سنة: (ثم متى تمت الألف السنة

---

(١) في سفر التكوين (تكوين ١٠/ ٢) تجد (ماجوج) ابنًا ليافث بن نوح، ولد له بعد الطوفان. وإلى يافث هذا ينسب الأوروبيون كما يقول شراح هذا السفر.

(٢) راجع الإصحاحين ٣٨ و٣٩ من سفر حزقيال.

(٣) راجع الإصحاح ٢٠ من سفر الرؤيا.

يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر. فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم. وإبليس الذي كان يضلهم طرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبي الكذاب وسيعذبون نهارًا وليلًا إلى أبد الآبدين)[1]. ولا شك أن يوحنا اللاهوتي يستمد من حزقيال اسمي جوج وماجوج، ولكنه لا يجعل ماجوج أرضًا لجوج، وإنما يجعل جوج وماجوج معًا أممًا عددهم مثل رمل البحر يجمعهم الشيطان لحرب المدينة المحبوبة (أورشليم) مملكة المسيح في مجيئه الثاني قرب قيام الساعة، فيتفق مع حزقيال في تعيين أورشليم موقع مهلك جوج أمير ماجوج، ويختلف معه في موعد خروجهم ومهلكهم: تعجله حزقيال فربطه بخراب أورشليم على أيدي مملكة بابل، وأجله يوحنا اللاهوتي ألف سنة تعقب عود المسيح إلى الأرض في مجيئه الثاني.و رؤيا يوحنا اللاهوتي تقتبس بلا شك من سفر حزقيال، ولكنها تقتبس بتصرف، وتقتبس أحيانًا دون تريث، فقد تنبأ حزقيال في القرن السادس قبل الميلاد بخراب بابل، وخربت بابل بالفعل في قرنه، ولكن يوحنا اللاهوتي يعود فيتنبأ لبابل بالخراب: (وسيبكي وينوح عليها ملوك الأرض الذين زنوا معها وتنعموا معها حينما ينظرون دخان حريقها، واقفين من بعيد لأجل خوف عذابها قائلين: ويل ويل. المدينة العظيمة بابل المدينة القوية)، (ورفع ملاك واحد قوي حجرًا كرحى عظيمة ورماه في البحر قائلًا بدفع سترمي بابل المدينة العظيمة ولن توجد فيما بعد)[2]، لا يدري أن بابل المدينة العظيمة قد خربت بالفعل قبل ستة قرون على الأقل من مولد هذا الكاتب. ولكنك لن تعدم من شراح هذا السفر من يقول لك: إن بابل هذه ليست بابل، ولكنها علم على كل ملك جبار فاسق. وهكذا أنت في الأحلام والرؤى، تفسر ما شئت بما تشاء، أو يفسر لك بما يشاء لك.

وأما في أقاصيص أهل الكتاب التي لا تجدها بين دفتي (الكتاب المقدس)، ولا حجة

(١) رؤيا ٢٠/٧ - ١٠.

(٢) راجع الإصحاح ١٨ من سفر الرؤيا.

بها من ثم على أهل الكتاب، فمنها المروية عن السريان في أساطير الإسكندر[1]، مؤسس الإمبراطورية اليونانية في الشرق الأدنى القديم، وقد وهم أدعياء الاستشراق[2] أنها الأصل المباشر لقصة يأجوج ومأجوج في القرآن، وفي الأسطورة السريانية أن الإسكندر أغلق على جوج وماجوج، فلا يخرجون إلا في نهاية العالم. وترسم (جوج) في السريانية (أجوج) قريبة من (يأجوج) التي في القرآن.

تخلص من هذا إلى أن أهل الكتاب، في الكتاب المقدس بشطريه وخارجه، كانوا على علم قديم بيأجوج ومأجوج، ولكنهم خلَّطوا فيه، وتفاوتت الرواية عن هذا وذاك، فجاءوا محمدًا ﷺ يسألونه عن حقيقة الذي كان، فأجابهم القرآن بقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[3]، وسرد عليهم ما كان من شأن ذي القرنين مع يأجوج ومأجوج.

ففي بعض كتب التفسير أن بعضًا من أهل الكتاب أرادوا امتحان مبلغ محمد ﷺ من العلم: سألوه عن فتية ذهبوا في الزمان الأول (أصحاب الكهف) فأجابهم القرآن: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[4]، وسرد ما كان من شأنهم. وسألوه عن الروح ما هو (أو ما هي) فكفهم القرآن عنها: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[5]، وسألوه عن طوافة رحالة (ذي القرنين) فأجابهم القرآن: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[6]، ثم قص ما كان من شأن ذي القرنين مع يأجوج ومأجوج، وكيف أُرْتِجَ عليهم محبسهم، لا يستطيعون الخروج منه أو نقبه حتى يقترب الوعد الحق: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ

---

(١) انظر: *Noeldeke, Beitrage zur Geschichte des Alexanderromans*.

(٢) *J.Horovitz* المرجع السابق، ص١٩.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٨٣.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٣.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٦) سورة الكهف، الآيتان: ٨٣، ٨٤.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾[١].

وقد جاءت (يأجوج ومأجوج) في القرآن مرتين اثنتين فقط، الأولى في حديث ذي القرنين: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾[٢]، والثانية في النص على أن الفتح ليأجوج ومأجوج من علامات الساعة كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ: قال عز وجل: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[٣]، أي عندما يقترب الوعد الحق تفتح يأجوج ومأجوج، فيتذكر الذين كفروا أنهم قد نبئوا بهذا في القرآن من قبل، فتشخص أبصارهم هلعًا، ثم يتندمون كيف غفلوا عن هذا، ولكنهم يستدركون على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين، لا غافلين فحسب، نسوا الله فأنساهم مواعيده. بل قد كان منهم العابث الساخر، المتفكه بغيب الله عز وجل، فسحقًا سحقًا.

والوجه في غيب الله عز وجل أنه علم الله الكلي المطلق، يعلم ما كان ويكون، على الوجه الذي به كان ويكون. وهذا العلم الكلي المطلق مترتب على أنه عز وجل خالق كل شيء وخالق كل فعل. وهو عز وجل ليس عالم الغيب فقط - والغيب هو كل ما غاب عنك علمه - ولكنه عز وجل أيضًا عالم (الشهادة)، أي أنه جل وعلا يعلم أيضًا مشهودك ومعلومك، لا كما تعلمه أنت، ولكن على ما هو عليه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٤].

وقد خاض مفسرون[٥] في يأجوج ومأجوج فأسفُّوا وأبعدوا: لم يهتبشوا من أهابيش أهل الكتاب فحسب، بل وأضافوا إليها من عندهم تهاويل خيال سقيم، فتجاوزوا نص القرآن

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٩٨، ٩٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٩٤.

(٣) سورة الأنبياء، الآيات: ٩٥ - ٩٧.

(٤) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٥) راجع تفسير القرطبي للآيات ٩٢ - ٩٩ من سورة الكهف.

والحديث الصحيح عن الصادق المصدوق ﷺ، وزيفت في يأجوج ومأجوج أحاديث لا يصح لها سند، حتى عميت عليك حقيقة يأجوج ومأجوج.

ولم يعلم أولئك المفسرون أن أدعياء الاستشراق سيتكئون عليهم، لأن أدعياء الاستشراق لا يستقون من القرآن ومن الحديث الصحيح، وإنما يستقون من كتب التفسير هذه، كما رأيت من قبل في (قسطاس)، (فردوس)، (إبليس)، وأمثالها، ولأن أولئك المفسرين تحذلقوا فتابعوا أساطير السريان في قولتهم أن (الإسكندر) هو صاحب (جوج وماجوج)، فلم يجد أدعياء الاستشراق حرجًا في القول بأن القرآن في يأجوج ومأجوج يستقي من هؤلاء السريان رأسًا: القصة والبطل.

* * * *

زعم بعض المفسرين[1]، متابعة لما دس عليهم من أقاصيص أهل الكتاب، أن (ذا القرنين) هو (الإسكندر)، مؤسس الإمبراطورية اليونانية في الشرق الأدنى القديم، وترسخ هذا في أذهان الناس حتى شاع لقب (الإسكندر ذي القرنين) على هذا الملك الوثني، لا يتحرج مسلمو اليوم من ذلك، عامتهم وخاصتهم. وهذا يدلك على مدى الخفة التي صار إليها المسلمون في هذا العصر. فشتان ما بين عباد آلهة في جبال الأولمب وما بين عباد الواحد الأحد جل جلاله الذين لم يكن ذو القرنين من عامتهم فحسب، بل كان من صفوتهم، الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[2]، والذي حكمه الله في قوم عند عين حمئة لقيهم ذو القرنين وقد آذنت الشمس بالمغيب: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[3]، والإسكندر، وملوك الأرض جميعًا، أذل من ذلك.

---

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٨٢ من سورة الكهف.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٤.

(٣) سورة الكهف، الآيات: ٨٦ – ٨٨.

الذي يحكمه الله عز وجل فيمن كفر أو آمن، يحسن في طائفة ويعذب طائفة، فيجعل العذاب على الذين ظلموا ويجعل جزاء الحسنى لمن آمن وعمل صالحًا، الذي يفعل ذلك بتحكيم الله عز وجل، لا يصح أن تنسبه إلى عبدة الأوثان، بل لا يصح أن تنسبه إلى عامة المؤمنين الصالحين، وإنما تسلكه في صفوتهم، الذين اجتباهم الله وأيدهم بروح منه، نبيًّا أو في مقام نبي. ولكنك لا تقول ما قال بعض المفسرين إنه (ملك) من ملائكة الله عز وجل، لأسباب ثلاثة: أولها أن الملائكة رضوان الله عليهم خلق مأمور، لا تخير كما خير ذو القرنين في القوم الذين لقيهم عند العين الحمئة، وثانيها لأن الملائكة رضوان الله عليهم لا يستعينون البشر كما استعان ذو القرنين الذين سألوه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا، يناولونه زبر الحديد وينفخون فيه نارًا حتى تلتحم الزبر، ثم يجيئونه بقطر يفرغه عليه، وثالثًا لأن الملائكة رضوان الله عليهم لا يمشون في الأرض مطمئنين يكلمون الناس، ويستعملهم الناس: ﴿قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾(١).

على أن ذا القرنين الذي يحدثك عنه القرآن لم يكن مِلكًا يمشي في جيشه كالذي كانَهُ الإسكندر، وإنما كان رجلًا فردًا، وإلا لما احتاج إلى من يناولونه زبر الحديد، ثم ينفخونه نارًا حتى تلتحم الزبر، ويأتونه بقطر يفرغه على هذا السد من حديد.

* * * *

وكما جانب المفسرين الأوائل الصواب في تعيين ذي القرنين بأنه الإسكندر مؤسس

---

(١) سورة الكهف، الآيات: ٩٤ – ١٠١.

الإمبراطورية اليونانية في الشرق الأدنى القديم، وجد أيضًا من الباحثين الإسلاميين في القرن العشرين من وهموا أن ذا القرنين هو (كُورَشْ) ملك الفرس الذي انتصر لليهود من بني إسرائيل أيام سبيهم في بابل، الذي ردهم إلى (أورشليم) وأغدق عليهم، فعده اليهود من بعد (ملكًا قديسًا). وقد أصل الباحث مقولته بالعثور على تمثال لهذا الملك الفارسي وعلى رأسه تاج مقرن من خلف ومن قدام، فهو (ذو القرنين) على هذا المعنى. وليس بشيء، فقد خلَف كورش ملوك حملت مثل هذا التاج، كان منهم الإسكندر المقدوني نفسه بعد اندحار الفرس أمامه. وليس بالضرورة أن يجيء لقب ذي القرنين المعني من وجود قرنين على رأسه، تاجًا أو غير تاج. وخاض الباحث أيضًا في تعيين موقع (السد) مما لا نستطرد بك إليه، فقد خاض في تعيينه الأوائل على ما تقرأ في تفسير القرطبي واصطنعت له أحاديث، وليس بشيء، لأن موضع (السد)، بل موضع (السدين) اللذين ردم ما بينهما ذو القرنين ليحول دون نفاذ يأجوج ومأجوج إلى القوم الذين لا يكادون يفقهون قولًا: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾[1]، كل هذا من المغيبات التي سكت عنها القرآن والحديث الصحيح. وقد سكت عنها القرآن والحديث الصحيح لأنك لا تتصور أن يكون خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة ثم يعين لك القرآن والحديث الصحيح مكان محبسهم على هذا الكوكب الذي نعيش عليه، تغدو عليهم الناس وتروح، كما لم يعين لك القرآن موضع تلك العين الحمئة والقوم الذين لقيهم عندها ذو القرنين في مغرب الشمس وحكم فيهم، يعذب منهم أو يتخذ فيهم حسنًا، ولم يعين لك أيضًا القوم الذين لقيهم ذو القرنين في مطلع الشمس لم يجعل الله لهم من دونها سترًا، بل قد تكتم القرآن أمرهم ولم يحدثك بما كان من شأن ذي القرنين معهم فقال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾[2]، أي قد علمنا نحن ما قد كان من أمره معهم ولن نحدثك به، فالقرآن لا يحدثك بكل

(١) سورة الكهف، الآيات: ٩٢ – ٩٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٩١.

أخبار ذي القرنين، وإنما بطائفة من أخباره فقط، لقوله: ﴿سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[1]، أي بعضًا من ذكره فحسب، أي خبره مع يأجوج ومأجوج، وهو المسئول عنه، وما سبقه تمهيد لهذا الحديث عن يأجوج ومأجوج، حتى تعلم مكان ذي القرنين عند الله عز وجل، فلا يذهب بك الوهم إلى أنه مهندس يجيد بناء السدود، أو أنه ملك من تلك الملوك ذوات التاج المقرن من خلف ومن قدام، الإسكندر أو كورش.

يأجوج ومأجوج، محبسهم ومخرجهم، كأصحاب الكهف، من آيات الله عز وجل، مرقدهم ومبعثهم، ولكنه تبارك وتعالى جعل خروج يأجوج ومأجوج علامة على اقتراب الوعد الحق الذي به تؤمن، كما آمن ذو القرنين: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[2]، وهذا حسبك.

* * * *

على أن نبوءة حزقيال - وهو من أعلام القرن السادس قبل الميلاد - بمقدم جوج أمير ماجوج وشعوب كثيرة معه إلى فلسطين وخراب أورشليم على يديه، تجعل الردم على يأجوج ومأجوج سابقًا على عصر حزقيال، وبالتالي سابقًا على كورش والإسكندر اللذين ملكا في فارس بعد حزقيال، فلا يصح أن يكون أحدهما هو الذي ردم عليهم.

بل إن عصر الردم على يأجوج ومأجوج أسبق بقرون لا يعلمها إلا الله من مولد موسى ومولد عبرية التوراة.

ذلك أن علماء العبرية وعلماء التوراة لا يستطيعون لجوج وماجوج اشتقاقًا من جذور اللغتين العبرية أو الآرامية، وإنما يقولون لك إن (جوج) هو أمير (ماجوج) وأن (ماجوج) هي أرض (جوج)، لا يزيدون، فليس في العبرية، ولا في الآرامية، جذر مستعمل يعين على هذا الاشتقاق. فهما إذن اسمان وقعا في سمع حزقيال عبر أساطير سبقت مولد العبرانيين أنفسهم.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٩٨.

على أن في المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة (وهو من مراجع هذا الكتاب) الاسم (أجاج)، علمًا على ملوك العماليق المعنيين بقوله عز وجل على لسان بعض بني إسرائيل في التيه: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾(1). ولم يستطع علماء العبرية وعلماء التوراة تفسير الاسم (أجاج)، فردوه إلى الجذر العربي (أجج).

وفي العبرية أيضًا اللفظ (جاج) ومعناه سقف البيت ونحوه، لا يعرف له كذلك أصل أو اشتقاق، فهو من (جوامد) تلك اللغة. وربما ظننت أن (جوج) من هذا، بمعنى المسقوف عليهم، أي المردوم عليهم. ولكن علماء العبرية وعلماء التوراة لم يتصدوا لهذا.

****

أما (يأجوج) و(مأجوج) اللذان في القرآن، فهما اسمان عربيان أصيلان، تشتقهما من الجذر العربي (أجج): (يأجوج) على زنة (يفعول) من أج/ يؤُج/ أجًّا، وأجيجًا وأجة أيضًا، ومن معانيه في العربية إلى الآن الإهاجة والاشتداد والاستثارة، والأجاج يعني اللاذع الممض مرارة أو ملوحة، ومن معاني الأجيج أيضًا الاضطراب والاختلاط. أما (مأجوج) فهي على زنة (مفعول) من (أج) هذه نفسها، وكأن (أج) يصلح أيضًا متعديًا بنفسه، وكأن معنى (يأجوج ومأجوج) هو الذين يؤج بعضهم بعضًا.

نعم. يأجوج ومأجوج من العربية الأولى، عربية آدم، لا تستطيع أن تحدد زمان الإرتاج عليهم، كما لا تستطيع تحديد موقعه من هذه الأرض التي نعيش عليها، ولا تستطيع التنبؤ بزمن خروجهم، لاستئثاره عز وجل بعلم الساعة، لا يجليها لوقتها إلا هو.

الذي تستطيعه هو فحسب تفسير (يأجوج ومأجوج) من القرآن بالقرآن، مقصدنا الأول من الحديث عن يأجوج ومأجوج في هذا الكتاب الذي نكتب:

---

(1) سورة المائدة، الآية: ٢٢.

فسرت (يأجوج ومأجوج) في القرآن بالتعريب: الذين يؤج بعضهم بعضًا، ويستفز بعضهم بعضًا، ويموج بعضهم في بعض، كما قال عز وجل فيهم: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾[1]، والموج على المصدرية من ماج / يموج / موجًا، هو من الاختلاط والاضطراب، فهو تفسير بالتصوير، كما قال في موضع آخر: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[2] كناية عن مدى الاختلاط والاضطراب. وفي الاختلاط والاضطراب فساد وإفساد، ومن هذا قول الذين استعانوا ذا القرنين عليهم: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[3].

****

ونحن لا نخوض فيمن كان (يأجوج ومأجوج)، وكيف هم الآن في محبسهم، ولا نخوض كما خاض مفسرون في وصف خلقتهم وهيئتهم. هذا من غيب الله عز وجل الذي لم يشأ أن يطلعنا عليه فنحن نتوقف فيه. والله عز وجل بغيبه أعلم.

ونحن أيضًا لا نخوض فيمن كان ذو القرنين المعني في القرآن، وإن كنا نرجح - كما رجح مفسرون دون دليل - أنه هو نفسه العبد الصالح الذي صاحبه موسى في سورة الكهف ليعلمه مما علمه الله، فلم يستطع موسى معه صبرًا. وليس لدينا نحن أيضًا دليل على هذا نقترحه عليك، إلا شاهدين: الأول عجائب هذا العبد الصالح مع موسى بدءًا بالحوت الميت الحي الذي اتخذ سبيله في البحر عجبًا، وانتهاء برمه الجدار الذي كان لغلامين يتيمين في المدينة حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما، فأشبه (السد). والشاهد الثاني - وهو أكثر دلالة - أن سورة الكهف تضم أخبارًا أربعة:

(١) نبأ الفتية أصحاب الكهف.

(٢) مثل الرجلين، صاحب الجنتين والذي حاوره.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٦.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٩٤.

(٣) قصة موسى مع العبد الصالح.

(٤) أخبار ذي القرنين.

وقد فصلت سورة الكهف بفواصل تطول أو تقصر ما بين هذه الأربعة[١]، إلا ما بين أخبار ذي القرنين وبين قصة موسى مع العبد الصالح، فقد أتت بـ(ذكر) ذي القرنين مباشرة بعد قصة موسى مع العبد الصالح لا يفصل بينهما فاصل: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[٢]، وكأنها إشارة إلى أن المحكي عنه في النبأين واحد، وكأن ما تقدم ذكره من قصة موسى مع الذي صاحبه من أخبار ذي القرنين. والله عز وجل بغيبه أعلم.

وأما معنى اسمه (ذو القرنين) فقد تعددت الأقوال فيه، على ما تجد في تفسير القرطبي للآية ٨٣ من سورة الكهف، ولا دليل عليها من قرآن أو سنة، وإنما هي اجتهادات لأصحابها، أقربها إلى القبول أقربها إلى المنطق، وأبعدها أسمجها بالطبع، المنسوب إلى الإمام علي رضي الله عنه والإمام علي من هذا السخف براء: قيل كان رجلًا دعا قومه إلى الله عز وجل فشجوه على قرنه، ثم دعاهم إلى الله عز وجل كرة أخرى فشجوه على قرنه الآخر! والذي نقطع به نحن أن أهل الكتاب لم يسألوا عن: (ذي القرنين) بهذا الاسم، فليس في أخبار أهل الكتاب شيء اسمه (دي قَرْنَيْم) – وهي (ذو القرنين) بالعبرية – وإنما سألوا عن الطوافة الرحالة الذي كانه (ذو القرنين). (ذو القرنين) إذن لقب تلقب به في القرآن. إن صح هذا فالراجح عندي استئناسًا بقصته في القرآن – ولا أقولها جازمًا فالله عز وجل بغيبه أعلم – أن (القرنين) هما قرنا الشمس كناية عن مقربها ومطلعها (والقرن هو أول ما يبزغ من قرص الشمس عند مطلعها وآخر ما يأفل منها عند مغربها)، وكأنه الطواف بين قرني الشمس من مغربها إلى مطلعها، كما في القرآن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾[٣]،

(١) راجع هذا في سورة الكهف.

(٢) سورة الكهف، الآيات: ٨٢ – ٨٤.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٨٦.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾[1]. ربما كان هذا هو سبب التسمية. والله عز وجل بغيبه أعلم.

كيفما كان الأمر، فليس (ذو القرنين) من العلم الأعجمي الذي تتناوله مباحث هذا الكتاب، وإنما عرجنا عليه إيناسًا للقارئ، واستكمالًا لمبحث (يأجوج ومأجوج). مثلما عرجنا من قبل على لفظة (طوى) في تحليل (سيناء)، وكما عرجنا من قبل على (ذي الأوتاد) في تحليل اسم (فرعون).



(١) سورة الكهف، الآية: ٩٠.

(٣٩) اليهود

يزعم اليهود - وهي (يِهُودِيم)، (يِهُودِيِّيم) في العبرية و(يِهُودَائِين) في الآرامية - وتنطق دالها في العبرية والآرامية ذالًا، أنهم سُموا هكذا نسبة إلى (يهوذا) بن يعقوب. ولا يصح هذا وإن قاله العبرانيون أنفسهم وتابعهم عليه الخلق أجمع.

لا يصح هذا لأنك لا تتصور أن يتسمى اليهود باسم ابن لأبيهم يعقوب، وأبوهم حي بعد، لم يذهب ببنيه وحفدته إلى مصر في ضيافة يوسف، وقد كانوا في مصر (بني إسرائيل) فحسب، وإسرائيل كنية يعقوب أبي يهوذا وأبيهم. وإذا استجزت النسبة إلى ابن لأبيهم، فلماذا (يهوذا) بالذات وليس هو بكر أبيهم، وإنما بكره (رأوبين) على ما مر بك، ولماذا حظي (يهوذا) بهذا الشرف من دونهم وفيهم (يوسف) صاحب الفضل وولي النعمة؟ وإذا لم يتسموا نسبة إلى (يهوذا) في مصر، فكيف ينتسبون إليه وحده في التيه وهم اثنا عشر سبطًا أحدهم فحسب سبط يهوذا؟ ولماذا لم ينتسبوا في التيه - إن أرادوا بركة النسب - إلى سبط لاوي، سبط موسى وهارون، لا سيما و(لاوي) هو الثالث في ترتيب أبناء يعقوب و(يهوذا) الرابع؟ وكيف ينتسبون في التيه إلى (يهوذا) وموسى بين ظهرانيهم، وموسى (لاويّ) لا (يهوذيّ)؟ أفقد انسل من بينهم موسى؟ فما اليهود أجمع إن لم يكن منهم موسى؟ أفهل تسموا بهذا الاسم بعد موت موسى ودخولهم في بعض نواحي فلسطين بقيادة يَشُوع فتى موسى؟ فكيف يصح هذا وقد تفرقوا فيما بينهم أسباطًا كل سبط في مساكنهم؟ وكيف يصح إطلاق هذا الاسم عليهم جميعًا بعد افتراقهم مملكتين: مملكة يهوذا في الجنوب ومملكة إسرائيل في الشمال، تضم الأولى سبطي يهوذا وبنيامين، وتضم الأخرى العشرة الأسباط الباقية من بني إسرائيل؟ بل كيف جاز للآراميين أن يسموهم جميعًا (يِهُودَائِين)؟

ترى، ما سر تلك الحظوة التي كانت ليهوذا بن يعقوب في تاريخ اليهود؟

السر كله هو أن كتبة (التوراة) يكتبون أسفارهم في ظل بيت داود الملك، وداود وسليمان من سبط يهوذا.

تقرأ هذا في الترجمة العربية للإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين، حيث يضع الكاتب على لسان يعقوب تفضيل يهوذا على كل إخوته وإن كان فيهم يوسف، فيبدأ بتنحية الأسن منه، رأوبين وشمعون ولاوى: رأوبين لأنه دنس مضجع أبيه (يريد أنه نكح ما نكح أبوه من قبل وينسى ما سجله على يهوذا الذي زنا بأرملة ابنه ثامار فاستولدها من هذا الزنا ابنه (فارِص)، ينسى هذا عمدًا لأن فارص هذا من آباء داود الملك على عمود النسب المباشر إلى يهوذا). أما شمعون ولاوي فلأنهما في غضبهما قتلا إنسانًا وفي رضاهما عرقبا ثورا. فيعقوب لهذا يفرقهما في إسرائيل. ويجيء دور (يهوذا) فيعطيه يعقوب كل شيء: (إياك يحمد إخوتك. يدك على قفا أعدائك. يسجد لك بنو أبيك)، (لا يزول قضيب من يهوذا ومُشْتَرِع من بين رجليه - يعني لا يزال من نسله الملك والمشترع - حتى يأتي شيلو ويكون له خضوع شعوب). وقد كذبت النبوءة أول ما كذبت، في أول مَلِك مَلك على بني إسرائيل، وهو الملك شاؤول (طالوت في القرآن)، وشاؤول من سبط بنيامين لا من سبط يهوذا، ولكن داود الذي من سبط يهوذا ورث شاؤول، وهذا هو سر اجتماع سبطي يهوذا وبنيامين في مملكة يهوذا من بعد داود وسليمان، ولم يستقر الملك لبيت داود كما تنبأ الكاتب على لسان يعقوب، فلم يملك رَحُبْعام بن سليمان بن داود حتى انشقت عليه الأسباط العشرة وانفصلوا وحدهم بمملكة إسرائيل، لم يتركوا له إلا سبطي يهوذا وبنيامين. بل إن هذا الملك المحدود لم يستقر لبيت داود كما تنبأ الكاتب، بل تراوح على بيت داود ملوك من أصحاب مملكة إسرائيل، ملكوا على يهوذا وإسرائيل كلتيهما. أما (شيلو) المتنبأ له بخلافة سبط يهوذا في الملك والاشتراع (أي الملك والنبوة) والذي يكون له خضوع شعوب، فقد طال انتظاره، حتى جاء البابليون فقضوا على هذا وذاك، ولم يبق من بيت داود إلا ذكريات وأشجان.

أيًا ما كان الأمر، فقد تأثر أحبار اليهود من بعد هذا الكاتب بنبوءة استقرار الملك والاشتراع (أي الملك والنبوة) في بيت داود الذي من سبط يهوذا كما تنبأ الكاتب على لسان يعقوب، فاشترطوا أن يكون المسيح المنتظر من نسل داود الملك، لأنهم أرادوا، أو تمنوا، أن يكون المسيح ملكًا نبيًّا على مثال داود وسليمان، يستردون به العزة الضائعة بعد سبي بابل، وكيلا يزول الملك والاشتراع عن سبط يهوذا كما قالت النبوءة، لا يعبئون بـ(شيلو) هذا من يكون.

وكما تأثر أحبار اليهود بهذه النبوءة، فقد تأثر بها أيضًا (متى) و(لوقا) في إنجيليهما، بحرصهما على تأكيد أن المسيح عيسى ابن مريم هو نفسه المسيح الذي ينتظره اليهود، أي أنه المسيح بن داود، ينسبان كلاهما المسيح عليه السلام إلى داود - لا عبر والدته مريم عليها السلام فهي من سبط لاوي، سبط موسى وهارون، السبط الذي نبذه الكاتب على لسان يعقوب فأعزه الله بموسى وهارون ومريم أم عيسى عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه - وإنما عبر يوسف النجار خطيبها الذي هو من سبط يهوذا، في محاولة لإقناع اليهود بأنه هو هو المكتوب عنه في (توراة الأنبياء والكتبة) وإن شوشا بهذا على عذرية مولده صلوات الله عليه، فنصا كلاهما على عمود نسب (يوسف النجار) إلى يهوذا عبر داود، وأيضًا (فارص)، المولود كما يدعي سفر التكوين من زنا يهوذا بأرملة ابنه ثامار.

وقد رذل المسيح عليه السلام هذه المقولة كما تعلم، مستنكرًا أن يكون هو ابنًا لداود، فهو يعلم كما تعلم، وكما يعلم متى ولوقا والمسيحيون جميعًا، وكما شهد الله عز وجل في قرآنه المصدق المهيمن، أن المسيح عليه السلام مثله مثل آدم، مخلوق بكلمة (كن)، ألقاها عز وجل إلى عذراء لا تُزَنُّ بريبة، فهو مولود بغير أب.

وقد كان لمتى ولوقا غنية عن هذا لو قالا إن المسيح هو (شيلو) الذي ينتقل إليه الملك والنبوة بعيدًا عن سبط يهوذا. وقد قال بهذا فعلًا علماء المسيحية من بعد، فأسقطوا نبوءة (شيلو) على المسيح، دون التفات إلى أن مضمون النبوءة يوجب أن يكون (شيلو) من غير سبط يهوذا، فلا يحتاج النسابون إلى الارتفاع بنسب المسيح إلى داود. وقد فسروا اسم

(شيلو) هذا من الجذر العبري (شلا) - المأخوذ من (سلا) العربي على معنى كشف الهم والغم أي السلوى والسلوان - فهو المسيح (صانع السلام) والمراد أنه عليه السلام الذي يكون به السلام: سلام المرء مع نفسه، وسلامه مع الناس. وهذا كلام جميل، يصدق في حق النبيين جميعًا دون استثناء، فبهذا جاءت كل رسالات السماء. وفي (شيلو) قراءة أخرى يرجحها علماء التوراة: إنه (شِلُّو)، يعني (الذي له) في العبرية، (الذي يئول الأمر إليه)، فيزداد الغموض غموضًا، شأن كل نبوءات التوراة، إلا أن تفسر (أيلولة الأمر) بمعنى (أيلولة الملك والاشتراع) التي تنبأ بها الكاتب لـ(شيلو).

ولكن المسيح صلوات الله عليه قال: ما جئت لألقي على الأرض سلامًا، بل سيفًا! وما أصدق قوله عليه السلام، فما زال الحق الذي جاء به فتنة لمحبيه وشانئيه على السواء غالى فيه فريق وأوضع فيه فريق، وهو صلوات الله عليه من هذين براء.

أيضًا لم يملك المسيح كما ملك داود، بل قد رفع المسيح قبل أن يكون له - كما تنبأ الكاتب لـ(شيلو) - خضوع الشعوب.

ليس المسيح عليه السلام هو (شيلو)، وليس هو أيضًا ابن داود.

أما نحن فنقول إن نبوة النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، تثبت بذاتها، أي بما جاءوا به وبما قالوه أو صنعوه، لا تحتاج إلى كد الذهن في تصيد النبوءات من الكتب السابقة، صدق الكتبة أو زيفوا. ونبوة المسيح عليه السلام من هذا: دليلها من ذاتها لا من خارجها، شأنها شأن النبوات من إبراهيم إلى خاتم النبيين. وهذا حسبك.

* * * *

وقبل أن نتناول بالتفسير معنى اسم (يهوذا) بن يعقوب، ومعنى لفظة (يهودي) - وتنطق دالها في عبرية التوراة ذالًا كما مر بك - المقول بأنها صفة على النسب إلى (يهوذا) بن يعقوب، يحسن أن نرجع بك إلى معاجم العبرانيين أنفسهم لنستدل منها على وجوه إطلاق لفظة (يِهُودي) على ما نسميهم نحن الآن باسم (اليهود).

ففي المعجم الحديث لألفاظ توراة الأنبياء والكتبة (هملون هحداش لتناخ) عبري/ عبري، وهو من مراجع هذا الكتاب المتخصصة، يقول لك المعجم المذكور (ص١٩٩) إن لفظة (يهودي) تطلق على وجوه ستة هي:

(١) الساكن مملكة يهوذا.

(٢) الذي هو من جلاء يهوذا، أي ممن أجلاهم البابليون عنها.

(٣) الذي هو من أصلاء يهوذا الذين بقوا بالأرض ولم يجلوا.

(٤) سبي صهيون الذين ليسوا بكهنة أو لاويين، يعني العامة من بني إسرائيل في هذا السبي خلاف الكهنة واللاويين (يِسْرَائِيلِيم هِدْيُوطِيم).

(٥) لقب اصطلاحي يطلق على من سكنوا (يهوذا)، المقاطعة الفارسية.

(٦) أبناء سبط (يهوذا)، فهو (اليهوذي) كما تقول (اللاوي)، (الشمعوني) إلى غيرهما من المنتسبين إلى أسباط يعقوب الاثني عشر.

يتضح لك من هذا الكلام أن (اليهودي) في عبرية التوراة ليس هو (الإسرائيلي) بإطلاق، أي أن بني إسرائيل ليسوا كلهم (يهوديم)، وإنما بعضهم فقط: الذي هو من سلالة (يهوذا) ابن يعقوب، أي المنتسب إلى أبيه (يهوذا)، وهذا لا خلاف فيه ولا غبار عليه، أما الآخر فهو المنسوب إلى أرض سميت (يهوذا)، كان من سبط (يهوذا) أو لم يكن وسواء بقي على تلك الأرض أو نزح منها.

ويترتب على هذا مباشرة أن يخرج من عداد اليهود - سوى سبط يهوذا - كل أسباط بني إسرائيل الأحد عشر الأخرى الذين لم يسبق لهم سكنى (يهوذا)، بل ويخرج من عدادهم أيضًا موسى وهارون لأنهما أولًا من سبط لاوي، وثانيًا لأنهما لم يريا في حياتهما أرض يهوذا، بل أرض فلسطين جميعًا، فقد ولدا في مصر وماتا في تيه سينائها.

ويترتب على قول هذا المعجم المتخصص - والقول ما قاله لا ما نقوله نحن - أن

(اليهودي) على النسب إلى شخص (يهوذا) بن يعقوب، وجدت على النسب إليه منذ أن وجد ليهوذا سبط ينسب إليه، أما التسمية على النسب إلى الأرض التي ملك فيها سبطا يهوذا وبنيامين فلا تصح إلا بعد انفصال مملكة (إسرائيل) بأسباطها العشرة عن مملكة (يهوذا) في أولى سني حكم (رَحُبْعام) بن سليمان بن داود بعد حوالي خمسة قرون من خروجهم من مصر، على ما تقرأ في (توراة الأنبياء والكتبة).

النسبة إذن عند صاحب هذا المعجم كما رأيت ليست إلى شخص يهوذا ولا تمت إلى يهوذا هذا بصلة، عدا انطباقها - حين تنطبق - على سبط يهوذا، أي أبناء يهوذا. وإنما اسم (اليهودي) عنده نسبة إلى أرض يهوذا، واليهود عنده هم مواطنو مملكة يهوذا أو من كانوا يومًا ما من مواطني مملكة يهوذا منذ عصر ما بعد داود وسليمان لا شأن لهم بغيرهم من بني إسرائيل.

على أن هذا الاسم - شاء صاحب المعجم أم لم يشأ - انطبق على بني إسرائيل جميعًا في أرض الشتات، لا يعرفون بغيره، فقد اختلطت الأسباط من بعد وتمازجت الأنساب، لا تتوقف في تسمية جارك اليهودي أهو من سبط يهوذا أم لا، أكان من مواطني مملكة يهوذا أم لم يكن، يكفيك أنه ينتسب إلى موسى بن عمران.

وقد أصبحت (اليهودية) عند أهلها وعند غير أهلها، هي اسم الدين الذي جاء به موسى، لا اسم له إلا هذا.

ولكن نسبة هذا الدين إلى (يهوذا) بن يعقوب لا تصح، وقد مات يهوذا قبل موسى بنحو خمسة قرون. ولا تصح أيضًا نسبة اليهود كلهم إلى (يهوذا) بن يعقوب، وأكثرهم من غير سبطه. وإنما الشرف في هذا وذاك وقع ليهوذا بن يعقوب محض مصادفة، أن كان من سبطه داود وسليمان اللذان راحا - على قصر ملكهما - بكل ما كان لليهود في غابر الدهر من مجد سياسي على تلك البقعة المحدودة من أرض فلسطين.

والذي نتوقف عنده في هذا السياق أن القرآن المعجز الذي علم هذا كله قبل أن يعلمه غيره،

لا يجيء قط بلفظة (اليهود) وقد وقعت في كل القرآن ثماني مرات - ولا بلفظ (اليهودي) وقد وقعت في كل القرآن مرة واحدة - إلا مقترنين بلفظي (النصراني)، (النصارى)، يعني أصحاب الملة على ما آل إليه اسمهم في عصره. أما إن أراد القبيلة أو الشعب في عصور سبقت - حتى الذين عبدوا العجل في التيه - فلا يقول إلا (قوم موسى) أو (بني إسرائيل)، وسبحان العليم الخبير.

على أن القرآن يقول أيضًا (الذين هادوا)، وليست هذه كتلك، كما سترى.

****

يستخدم القرآن في تفسير معنى لفظة (اليهود) أسلوب الترجمة على منهجنا في هذا الكتاب، فيقول: (الذين هادوا) من الجذر العربي هاد/ يهود/ هَوْدا، يأخذها من قول موسى في استغفاره لقومه في فتنة العجل: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[1]، أي تبنا وأنبنا.

وقد تقول - كما أقول - إن القرآن يستخدم عبارة (الذين هادوا) أخذًا لبني إسرائيل بقول موسى على لسانهم: (إنا هدنا إليك)، أي يستخدمها على محمل تبكيت الذين هادوا ثم لم يهودوا، بل عصوا ثم هادوا ثم عصوا من بعد. وهذا جيد. ولكن الذي تندهش له، أي (الذين هادوا) هذه هي أحد وجوه ترجمة اسم (يهوذا) عبريًا - الشخص أو الأرض - لا عبرة بهذا أو ذاك، إن لم يكن أصوب هذه الوجوه.

****

من معاني اليد في لغتنا العربية الصنيع والإحسان والمعروف، تقول: له علي يد، تريد له عندي صنيع أنا له عارف، ممتن شكور. ويجيء على هذا المعنى الجذر العربي (يدي)،

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٥، ١٥٦.

مجردًا أو مزيدًا في أوله بهمزة التعدية (أيدي).

وعلى هذا المعنى أيضًا يجيء في العبرية الجذر العبري (يدا) - وأصله بالواو (ودا) الذي تستخدم العبرية المعاصرة مضعفه (ودّا) بمعنى الاعتراف والإقرار - ، والمعدى منه في العبرية بالهاء - كالمعدى في العربية بالهمزة على ما مر بك - هو (هودا) يعني أقر بالصنيع أو شكر - ومنه في العبرية المعاصرة (هودا) على المصدرية بمعنى عرفان الجميل أو الامتنان وأيضًا: (تُودا) يعني: شكرًا - على أن (هودا تعني أيضًا الاعتراف والإقرار على أصلها، ومنها (هودا بأشْمَه) يعني أقر بذنبه أو إثمه (والإثم في العبرية بالشين). وعلى هذا الوجه تستطيع أن تترجم إلى العبرية عبارة موسى عليه السلام في القرآن: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[1] بقولك عبريًّا: (كِي هُودِينو لِخا!)، من (هودا) العبرية هذه، أي قد أقررنا لك! على معنى التوبة والإنابة.

وعلماء التوراة يشتقون اسم يهوذا من (هودا) أيضًا على زنة فعل المضارع المفرد الغائب المبني للمجهول يراد منه اسم المفعول، يشتقونه على معنى الشكر والعرفان، فهو يُشكر، بمعنى مشكور، استنباطًا من قول سفر التكوين على لسان والدته حين وضعته: (هَبَعَّام أُودِه إتْ يَهْوا، عِلْ كِنْ قَارْءا شْمُو يِهُوذا، وتَعْمُد مِلِّيدِت)[2] التي تجدها في الترجمة العربية هكذا: (هذه المرة أحمد الرب. لذلك دعت اسمه يهوذا. ثم توقفت عن الولادة)[3].

هنا تلمح على سن قلم الكاتب أنه يفسر جازمًا معنى (يهوذا) بمعنى الحمد الذي في عبارة والدته (هذه المرة أحمد الرب) على ما ترجمها المترجم العربي لسفر التكوين. والصواب أن تترجم هذه العبارة بقولك: (هذه المرة أشكر الرب) لا (أحمد الرب) لأن (هودا) العبرية بمعنى (شكر) لا بمعنى (حمد). والتفرقة بين الحمد والشكر من دقائق اللغة العربية، لا يفطن إليها كثيرون، ناهيك بغير الساميين الذين هم عن فهم هذه التفرقة أبعد، فهم يخلطون بين الحمد والمدح والشكر، كما تجد على سبيل المثال في الترجمة الإنجليزية

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٢) تكوين: ٢٩ / ٣٥.

(٣) تكوين: ٢٩ / ٣٥، النص العربي.

لمعنى اسم (يهوذا)، فيقولون *Praised* يعني (ممدوح). ولو كانت (هودا) بمعنى الحمد لما جاز للعبرية المعاصرة أن تشتق منها (تودا!) يعني (شكرًا!) الصحيح على قول سفر التكوين في هذا الموضع أن يهوذا معناها يشكر على البناء للمجهول، أي الذي هو موضع شكر والدته على إنجابها إياه، ذكرًا رابعًا، ولم تنجب بعد أختها وضرتها راحيل. وقد سمى العرب قريبًا من (يشكر) هذه، فكان من أعلامهم مثل (اليشكري).

على هذا يكون معنى (اليهود)، أي (اليهوذيين) المنتسبين إلى (يهوذا)، أي إلى (يشكر) هو (اليشكريون).

وقد تقول إن (ليئة) والدة يهوذا لم تقل هذا الذي قاله على لسانها كاتب سفر التكوين، بدليل أنه يضع في كلامها لفظة (يهوا) بمعنى (الرب) في النص العبري، ولم تعرف (يهوا) هذه في العبرية إلا في رسالة موسى (خروج ٦/ ٣)، ولم يولد موسى إلا بعد هذا بخمسة قرون على الأقل. وإنما قال هذا كاتب يكتب على زمنه عصر داود وسليمان يريد توثيق المعنى الذي يفسر به الاسم من أجل مجد بيت داود الذي من سبط يهوذا، استكمالًا لتفضيله يهوذا على جميع أبناء يعقوب على ما مر بك في موضعه من وصايا يعقوب أو بركاته لبنيه.

وقد تكرر من الكاتب تأصيل معنى (يهوذا) على الفعل (هودا) العبري، لا على لسان والدته هذه المرة وإنما على لسان أبيه، أعني في (بركات) يعقوب لبنيه، بقوله في الإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين (النص العبراني): (يِهُوذا أَتَّا يُوذُوخا أَحِيخا) التي قالها المترجم العربي: (يهوذا إياك يحمد إخوتك)[1] يترجم هذه المرة أيضًا (يوذوخا) - وهي (هودا) في صيغة مضارع جمع الغائب - بمعنى الحمد، ربما متابعة للمترجم الإنجليزي الذي يستخدم فيها هنا أيضًا الفعل *To Praise*.

ولكن المعجم العبري المتخصص الذي أحلتك إليه (١٩٧) يخالف هذا المترجم العربي والمترجم الإنجليزي على السواء، إذ يتخذ من عبارة يعقوب هذه نفسها (أتا يوذوخا أحيخا)

(١) تكوين: ٤٩/ ٨.

(إياك يحمد إخوتك) مثالًا لتفسير أحد معاني الفعل (هودا) العبري، فيقول - والقول ما قاله بالطبع فهو صاحب اللغة - : أتا يوذوخا أحيخا يِتّانو لِخا هود مَلِخُوت، كُلْ هَشْبَطِيم يِكِّيرو بعركخا، أي لا (إياك يحمد إخوتك) وإنما: يعطونك مجد الملك، كل الأسباط يقرون بفضلك. أعني أن هذا المعجم العبري المتخصص لا يفسر الفعل العبري (هودا) لا بمعنى (حمد) ولا بمعنى (مدح) أو (شكر)، وإنما يفسره بمعنى الإقرار والاعتراف.

ليس هذا فقط، بل إن هذا المعجم العبري المتخصص يقول لك في نفس الموضع بالنص وهو يسرد عليك مختلف معاني الفعل العبري (هودا) إن (هودا) من معانيها عبريًّا، (هِتْحِرِط)، يعني: (تاب وندم)، فهي التوبة والمثابة - (تشويا) العبرية - .

متى صح لك هذا - وهو صحيح بقول شاهد من أهلها - جاز لك أن تفسر اسم (يهوذا) على معنى (الهائد) التائب المنيب.

وكأن (يهوذا) أثارة من اسم النبي (هود) عليه السلام، مأخوذًا من العربية الأولى على ما مر بك في موضعه.

* * * *

وليس لنا بالطبع في هذا الكتاب أن نطالب المترجم العربي لسفر التكوين بتصحيح ترجمة عبارة (يهوذا إياك يحمد إخوتك) إلى: (يهوذا إليك يثوب إخوتك)، وإنما الذي يعنينا في مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب هو أن القرآن المعجز علم من قبل أن معاني (يهوذا) الهائد المنيب، فجانس عليه في وصف (اليهود) المنتسبين إليه، فقال (الذين هادوا)، وكأنه يذكرهم بقول موسى يستغفر لهم ربه في فتنة العجل: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[1] التي تقولها عبريًّا: (كِي هُودينولِخا) على ما مر بك، يفسر لهم بها ما تسموا به. وسبحان العليم الخبير.

* * * *

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

وكما جاءت (الذين هادوا) عشر مرات في القرآن على الإبدال من (اليهود)، جاءت فيهم أيضًا ثلاث مرات لفظة (هود)، وقد وردت في المرات الثلاثة مزيدة بألف تنوين المنصوب (هودا).

وقد قيل[1] أن (هود) هذه هي إما على التخفيف من (يهود) بحذف الياء البادئة، وإما هي (الذين هادوا) نفسها جاءت بصورة جمع الفاعل من (الذي هاد)، وهو الهائد، يجمع على هود. وهناك وجه اقترحه عليك، وهو أن (هود) هذه جاءت تسمية باسم الفعل من هاد يهود هودًا فهو (هود). هذا الوجه هو الراجح عندي، وهو أيضًا الذي ارتأيناه في تحليل اسم النبي (هود) عليه السلام، والتسمية بالمصدر واسم الفعل يستوي فيها المفرد والجمع. وكان هذا أيضًا مذهبنا في تفسير اسم النبي (لوط) عليه السلام من لاط يلوط لوطًا فهو (لوط).

أما (يهود) فلم تقع في القرآن قط مجردة من الألف واللام، وإنما جاءت حيثما وردت، وقد وردت في كل القرآن ثماني مرات، معرفة بالألف واللام (اليهود)، والتعريف بالألف واللام كما تعلم يمنع من الصرف وجوبًا. ومن هنا لا يستبين لك منهج القرآن في جواز تنوين (يهود). والفصيح هو عدم جواز تنوين (يهود) لسببين: إن اعتبرتها أعجمية، فللعجمة، وإن اعتبرتها عربية، من هاد يهود، فلأنها مبدوءة بياء المضارعة كيثرب وينبع ويزيد، وهذا يمنع من الصرف وجوبًا.

والذي أقول به أنا هو أن (يهود) بالذات ليست عربية، وإنما هي من الأعجمي الذي نطق به العرب قبل القرآن، وأنها قيلت بذاتها على معنى الجمع اسمًا لشعب أو قبيلة: تقول (ثلاثة رجال من يهود)، ولا تقول: (ثلاثة رجال يهاويد أو ثلاثة رجال يهودين) أما إن أردت التنصيص على المفرد أو المثنى فأنت تقول على النسب (يهودي) أو (يهوديان).

وقد وقعت الصفة على النسب إلى (يهود) مرة واحدة فقط في كل القرآن، وفي قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[2].

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ١١١ من سورة البقرة.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

وجاء في فصيح العربية، بل وفي الصحيح من حديث سيد الفصحاء ﷺ، لفظة (يهود) معرفة بمحض علميتها لا تحتاج إلى الألف واللام، يراد منها في الغالب ذلك الحي من يهود يثرب، كما تقول (عاد)، (ثمود).

ولكن القرآن المعجز - وقد أتى بلفظة (اليهود) ثماني مرات - لا يأتي بها إلا معرفة بالألف واللام، يقطع شبهة تأويل مقولته فيهم في تلك المواضع الثمانية بأنها تنصرف إلى بعض من يهود دون بعض، من مثل قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾[1]، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾[2]: إنهم يهود كل مكان وكل عصر، سنة ماضية فيهم إلى يوم القيامة، فخذوا حذركم أيها المؤمنون الذين أسلموا.

* * * *

وقد مر بك في تقديمنا لهذا الفصل أن (اليهود) تسمية على المدح. ولو فهمها أصحابها على أصلها فعملوا بها لكان خيرًا لهم، ولكن اليهود هادوا ثم عصوا، ثم هادوا، ثم عصوا من بعد.

ومن معاني الهود في اللغة، الهوادة والمهاودة، أي الانصياع وترك التأبي. والهود إلى الله عز وجل هو هذا بالذات: تجيئه مذعنًا قد سكن منك القلب والجوارح. إنه (إسلام الوجه لله).

من هذا قوله عز وجل في تفسير الذين هادوا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾[3].

ومنه أيضًا قول القرآن على لسان سليمان: ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾[4]، أي أوتينا التوراة من قبل وكنا هودًا هائدين.

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٢.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٤) سورة النمل، الآية: ٤٢.

بل منه أيضًا تلك الآية الجامعة لا قول بعدها لقائل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[1] يعني إلا من بعد ما جاءتهم التوراة كما مر بك، فما جاءت التوراة إلا بهذا الإسلام نفسه..

وأخيرًا قال الحق سبحانه: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾[2].

هذا هو الدين القيم، لا يدان لله بغيره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فهل آن للذين هادوا أ ن (يهودوا)؟

عسى ربهم أن يرحمهم، أو يتوب عليهم ليهودوا.

* * * *

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

الفصل الثامن

داود ذو الأيد

أنبياء وملوك

تمهيد

يتناول هذا الفصل تفسير اثني عشر اسمًا علمًا، هي: طالوت - جالوت - داود - الزبور - سليمان - إلياس - اليسع - ذو الكفل - يونس - أيوب - عزير - لقمان.

* * * *

والترتيب التاريخي للأعلام الخمسة الأولى: طالوت - جالوت - داود - الزبور - سليمان، ترتيب تتفق فيه التوراة مع القرآن. فطالوت هو شاؤول، أول ملوك بني إسرائيل، سألوا نبيًّا لهم[1] أن يبعث الله عليهم ملكًا فبعث الله عليهم طالوت ملكًا، وهو شاؤول كما مر بك، ومعنى (شاؤول) عبريًّا هو السُّؤْلُ والطِّلْبة كما سترى. وجالوت من جبابرة الفلسطينيين الذين كانت بينهم وبين إسرائيل حروب على عصر شاؤول. وداود كان يمشي في عسكر شاؤول، فخرج إلى مبارزة جالوت، وقتل داود جالوت (البقرة: ٢٤٦ - ٢٥٢). والزبور وهو (المزامير) في أسفار العهد القديم، وحي الله على داود كما تعلم. أما سليمان فهو ابن داود عليهما السلام، خلف أباه في بني إسرائيل فورث العرش كما ورث النبوة.

أما الأعلام السبعة الأخرى: إلياس - اليسع - ذو الكفل - يونس - أيوب - عزير - لقمان، فلا يستبين لها ترتيب مقطوع به في القرآن. ولكنك تجد في التوراة إلياس في أعقاب

(١) هو (صموئيل)، وأصلها العبري (شِموئيل) بالشين. وقد تردد علماء التوراة في تفسير النصف الأول من هذا الاسم المزجى (شمو): قال بعضهم إنها من (شم) العبرية يعني (اسم) فهو (اسم الله) أو (اسمه الله) على تمجيد الله عز وجل يوم ولد، وقال آخرون بل هي مخففة من (شموع) العبرية فهي سميع بمعنى مسموع، فهو (مسموع من الله) على معنى (مستجاب الدعوة). ولم يذكر صموئيل بالاسم في القرآن، وإن أثبت له النبوة.

سليمان، وتجد اليسع تلميذًا لإلياس، ويجيء ذو الكفل من خلفاء اليسع. أما يونس وأيوب فلا ترتيب لهما تطمئن إليه في التوراة، فجئنا بهما الواحد بعد الآخر، قبل عزير. وأما لقمان فقد انفرد به القرآن ولم تسمه التوراة.

وليس المراد من عنوان هذا الفصل - (أنبياء وملوك) - أن رجاله جميعًا إما أنبياء وإما ملوك، أو أنهم ملوك أنبياء. نعم، قد كان منهم الملك النبي مثل داود وسليمان، وكان منهم الملك فحسب مثل شاؤول (طالوت) الذي كان ملكًا ولم يكن نبيًّا، وكان منهم إلياس واليسع وذو الكفل ويونس وأيوب، أنبياء ليسوا بملوك. ولكن منهم أيضًا من ليس هذا ولا ذاك: جالوت، جبار فلسطيني عابد وثن، لا تثبت له التوراة صفة الملك على الفلسطينيين، ولا يثبتها له القرآن، وإنما يثبت له صفة قائد جندهم أو أمير جموعهم كما تجد في قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾[1]، بينما هو في التوراة شجاع عملاق من أبطال جند الفلسطينيين فحسب. وثَمَّ أيضًا عزير، لا نبي ولا ملك. وثَمَّ أيضًا لقمان الذي انفرد به القرآن ولا تتجاوز به رتبة الصديق، فلم تثبت له النبوة في القرآن أو في حديث صحيح.

وإنما الإشارة بهذا العنوان - (أنبياء وملوك) - هي إلى داود وسليمان، أبرز أعلام هذا الفصل، اللذين انفردا بالملك والنبوة جميعًا، صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه.



(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

(٤٠) طالوت

مر بك في تضاعيف هذا الكتاب أن القرآن يخالف التوراة في تسمية أول ملوك بني إسرائيل: قالت التوراة (شاؤول)، وقال القرآن (طالوت).

وقد زعم بعض المستشرقين المنكرين الوحي على القرآن[١]، أن محمدًا (ﷺ) أخطأ خطأً بينًا في تسمية شاؤول: قيلت له شاؤول فوقعت في سمعه طالوت، ولم يتثبت. وأنصف بعضهم - أو تحرى بعض الإنصاف ولم يستوف - فقال إن محمدًا (ﷺ) علم من وصف هيئة شاؤول في التوراة إفراط شاؤول في الطول، فلقبه بكنية يستفاد منها المبالغة في الطول، فقال (طالوت) على الإبدال من اسمه الأصلي في التوراة (شاؤول) عالمًا أو غير عالم بهذا الاسم الذي لطالوت في التوراة.

ولم يتصد هؤلاء - كما لم يتصد القرطبي رحمه الله في تفسيره الآية ٢٤٧ من سورة البقرة - لسبب عدول القرآن عن (شاؤول) إلى طالوت،ولو علمه المستشرقون لما ملكوا إلا أن يشهدوا لهذا القرآن بإعجاز فوق إعجاز، كما سترى. ولكن الهدى هدى الله، والله عز وجل لا يهدي إليه إلا من أناب.

* * * *

رسمنا (شاؤول) بالألف بعد الشين على ما شاعت به في (الكتاب المقدس) - وترسم فيه أيضًا بواو غير مهموزة (شاول) - ، وصحيحها في العبرية (شَؤول)، على زنة (فعول)، زنة اسم المفعول في تلك اللغة. و(شاؤول) مفعول من (شأل) العبري، مكافئ (سأل)

(١) انظر *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص١٩.

العربي بكل معانيه، وأخصها المعنى هنا الطلب، تقول سألت الله عز وجل، يعني طلبت منه وتمنيت عليه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[1]، أي إنه جل وعلا الساعي في حوائج الخلق أجمع، كل يوم هو في شأن هذا وذاك وتلك، المستخفي بالليل والسارب بالنهار، لا يغفل عن النملة في أديم الأرض، ولا يسهو عن النبتة في صميم الجبل. وهذا من دقيق القرآن، لو تأملته لساخت نفسك، ولخشع العقل وانفطر القلب.

(شاؤول) إذن معناها عبريًّا (مسؤول) بمعنى موضع السؤال والطلب، فهو (طِلبةٌ) أو (سؤل) أو هو (المنة) و(الفضل)، كما قال عز وجل يستجيب لموسى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾[2]، يعني قد طُلْنا عليك بما سألت، أي طلنا عليك بسؤلك الذي سألت، وهذا شبيه بما سأله صموئيل لقومه: سألوا الله على لسان هذا النبي أن يبعث عليهم الله ملكًا، فطال الله عليهم به، وكان لهم سؤلهم الذي سألوا.

والقرآن المعجز، الذي لم يفته معنى (السؤال) الذي في شاؤول العبرية كما ظن المتطفلون على المباحث اللغوية من أدعياء الاستشراق المنكرين الوحي عليه، يجيء بشاؤول على (طالوت) العربية التي تجمع بين معنيين كما سترى: الذي طال الله به على قومه، والطوال الذي فاق بطوله كل أقرانه. فأي إعجاز وأي علم!.

* * * *

كان شاؤول رجلًا طوالًا، يعني مفرطًا في الطول، لا يتجاوز كتفيه أحد من قومه: (فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق)[3] فكان طول قامته من دواعي تقبلهم له واجتماعهم عليه: (فقال صموئيل لجميع الشعب أرأيتم الذي اختاره الرب أنه ليس

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٩. (٢) سورة طه، الآيتان: ٣٦، ٣٧.
(٣) صموئيل الأول ١٠/ ٢٣.
لصموئيل النبي في العهد القديم سفران: سفر صموئيل الأول وسفر صموئيل الثاني، فهما سفران لا صموئيلان، أعني أن الأول هنا صفة للسفر لا لصموئيل.

مثله في جميع الشعب؟ فهتف له كل الشعب وقالوا ليحيى الملك)[1].

والقرآن يعبر عن فرط طول قامة شاؤول بالبسطة في الجسم. ولكن القرآن يزيد قارئه بيانًا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2]، يذكرهم بأنهم الذين استخاروا الله فيمن يملكون عليهم، وقد اصطفاه الله من دونهم، فلا قول بعد هذا لقائل. ولكنه عز وجل يتلطف، فيبين لهم أسباب الاصطفاء لهذا المنصب: لا عبرة بسعة المال، وإنما العبرة بالبسطة في العلم اللازم لإدارة شؤون الملك، وبالهيئة التي تحفظ الهيبة، وقد اجتمعا في (طالوت) طويل القامة الذي طال الله عليهم به.

* * * *

طال يطول طولا (مضموم الطاء في المصدر) يعني طالت قامته فهو طويل.

أما طال يطول طولا (بفتح الطاء في المصدر) فمعناه طالت قامته حتى فاق أقرانه فهو طوال. ومعناه أيضًا أفضل ومنَّ وأنعم: طاله بكذا، وطال عليه به، يعني جاد عليه بالفضل والمنة. الاسم من هذا، أي المطول به، هو الطيل، والطال والطالة أيضًا.

وقد وصف الله عز وجل ذاته العلية بذي ﴿الطَّوْلِ﴾[3] يعني المنعم المفضال المتفضل.

و(طالوت) مصدر صناعي من (الطال) على هذين المعنيين كليهما، الطوال والطال، كما قيل (ناسوت) من (الناس)، جاء بها القرآن ولم تسمع من العرب، إدلالًا بعلمه وإعجازه، فيجيء بشاؤول المعنى لا يسميه باسمه مترجمًا فحسب ولكنه يصوره لك أيضًا بصفته: لا تقرأ (طالوت) أو تسمعها إلا وتراه أمامك، الطوال العملاق. وسبحان العليم الخبير.

(١) صموئيل الأول ١٠/ ٢٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.
(٣) سورة غافر، الآية: ٣.

وقد فطن مفسرو القرآن[1] إلى معنى (الطوال) الذي في (طالوت). ولكنهم، وقد علموا من أحاديث أهل الكتاب أن طالوت اسمه في التوراة (شاؤول)، لم يفطنوا إلى ما في (طالوت) من معنى الطيل والطال والطالة، أي الامتنان على السائل بما سأل، أي السؤل، معنى اسم (شاؤول) عبريًّا. وهم لم يفطنوا إلى هذا لأنهم لم يعلموا أن شاؤول عبريًّا معناها (السؤل) عربيًّا، وما كان لهم أن يعلموا هذا لأنهم لا يقرءون التوراة مباشرة في نصها العبري، ولأنهم أيضًا، وهذا أهم، لم يتوفروا على دراسة عبرية التوراة بالقدر اللازم لتأصيل معاني أعلامها.

* * * *

أما لماذا عدل القرآن عن (شاؤول) إلى (طالوت) التي لا وجود لها بذاتها أو بوجه قريب منها في أسفار التوراة التي بين يديك، فهذا كما مر بك هو منهج القرآن في التعريب: يعدل عن التعريب إلى الترجمة حين يسيء التعريب إلى المعنى:

إن قال في (شاؤول) شؤول على أصلها العبري، اختلط معناها بمعاني الجذر العربي (شال) بالشين غير مهموز، فعل العقرب، تشول عليك بذنبها، وهذا بعيد تمامًا عن معنى الجذر (شأل) العبري المهموز المكافئ لـ(سأل) العربي بالسين.

وإن قال في تعريب (شاؤول) (سؤول)، أي شؤول العبرية معدولًا عن شينها إلى السين، شأن القرآن في الأعلام العبرية ذوات الشين، مثل (شلومون) المعربة على (سليمان)، أخذها القارئ بمعنى (سؤول) العربية يعني الكثير السؤال، أي السائل الملحف في السؤال، أي أخذها بعكس معناها في العبرية: السؤل، موضع السؤال.

وقد كان في متناول القرآن بالطبع أن يترجم (شاؤول) بمكافئها العربي الدقيق، أعني (سؤل) أو سول (غير مهموزة، قد سمعت من العرب بمعنى سؤل المهموز)، أو يترجمها بفعل آخر بنفس معناها، وهو الطلب، فيقول (طلبة) (كما نسمي نحن في أعلامنا الآن فنقول (طلبة) بضم الطاء على معنى البغية).

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٢٤٧ من سورة البقرة.

ولم يفعل القرآن هذا لأن (سول) غير المهموزة تختلط عند القارئ العربي بمعنى (التسويل) وهذا من معنى (شاؤول) العبري بعيد. ولأن (سؤل) و(طِلبة) ليس لهما من الجرس القرآني الذي عهدت نصيب.

أما (طالوت) التي جاء بها القرآن - وهي من مستحدثات القرآن - يصيب بها الاسم والصورة معًا، فهي شأو في الترجمة بعيد، دونه قطع الرقاب.

* * * *

فسر القرآن إذن العلم العبراني (شاؤول) بالترجمة، فقال (طالوت)، والتفسير في القرآن بالترجمة يغني عن كل تفسير. ولكن القرآن يفسر أيضًا معنى هذا الاسم الأعجمي وهو الطلبة والبغية والسؤل، بالتصوير، في قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1]، أي سألوا الله على لسان هذا النبي ملكًا يقاتلون معه في سبيل الله، فاستجاب الله سؤلهم بشاؤول ملكًا.

ولعلك تلاحظ هنا أن (شاؤول)، شأنها شأن كثير من أعلام التوراة، تشبه أن تكون كنية يتكنى بها العلم المقصود بعد تحقق الصفة والحال، أي ما كان شاؤول (سؤلًا) يوم ولد، وإنما يوم ملكه الله عليهم بسؤالهم إياه.

وطالوت العربية من هذا أيضًا بلا جدال، فلا أحد يتسمى يوم مولده بالطوال العملاق، إلا أن يراد منها المعنى الآخر، الفضل والمنة، الذي تأخذه من الطال والطالة، فلا تدري أي الاسمين كنية، ولا تدري أيضًا أي الكنيتين أسبق من الأخرى في تسمية هذا الملك.

أما لماذا جاءت (طالوت) في القرآن - وهي عربية - اسمًا ممنوعًا من الصرف غير منون، فالوجه عندي أن أخص سبب لهذا هو الإشارة إلى عجمة صاحب العلم.

* * * *

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

(٤١) جالوت

ترسم (جالوت) في التوراة (جُلْيات)، وتنطق تاؤها في عبرية التوراة ثاء لاعتلال ما قبلها بالألف اللينة (أي غير المهموزة) على ما مر بك من قواعد النطق في تلك اللغة.

وضم الجيم في (جليات) العبرية اصطلاحي بحت، لأن جيمها في الخط العبري مشكولة بالفتحة المفخمة الممدودة، ولكن سكون اللام بعد الجيم في المقطع الأول ونبر الألف اللينة في القطع الثاني (جل - يات) يوجبان في اصطلاح علماء العبرية خطف المقطع الأول، أي تقصير زمن نطقه، فتنطق الفتحة المفخمة فيه (ضمة) خلافًا للرسم، أي أنها ترسم بالفتحة (جليات) وتنطق بالضمة (جليات). وهذا يدلك على أن الأصل فيه قد كان الفتحة، كما في جيم (جالوت) التي في القرآن.

هذا إلى أن ضوابط النطق من نقط وشكل في التوراة التي بين يديك على مقتضى الرسم الذي ابتدعته جماعة (بَعَلِي ماسُورا) أي (أهل الأثر) على مدى ثمانية قرون من القرن الثاني إلى القرن العاشر الميلاديين في ظل المسيحية ثم في ظل القرآن، ليست لها حجية الشيء الموحى به، كما مر بك في تضاعيف هذا الكتاب. هذا فضلًا عن أن صاحب هذا الاسم كما تقول التوراة كان رجلًا فلسطينيًا ليس بعبري من بني إسرائيل، وأنه رغم وحدة الجذور بين اللهجات العبرية والآرامية والكنعانية كان ينطق اسمه بلهجة آبائه وأجداده، غير مجبر على اتباع النقط والشكل اللذين ابتدعهما أهل الأثر وانتهوا منه في القرن العاشر الميلادي بعد نحو ثمانية عشر قرنًا من مهلك (جالوت).



وقد زل أدعياء الاستشراق زَلَّة فاحشة في (جالوت) التي في القرآن[1]، كما زلوا من قبل ومن بعد في غيرها: قالوا إن محمدًا (ﷺ) ربما سمع من يهود يثرب لفظة (جالوت) العبرية (ومعناها عربيًّا الجلاء) تتردد على أفواههم - يعني جلاء بابل أو سبي بابل على أيدي بختنُصَّر - فنحت منها اسم ذلك الجبار الفلسطيني (جليات) الذي قتله في التوراة وفي القرآن داود.

والذي أرجوك إياه هو أن لا تسخر من هذا العبث الذي قاله أدعياء الاستشراق هؤلاء، وإنما ترثي معي لقائله الذي أعماه الهوى عن الحق، يبني على مقولة النقل والتلقين ولا يتوقف بينه وبين نفسه ليتساءل:

أين وكيف ومتى استطاع محمد (ﷺ) التسمع على يهود يثرب في خلوتهم وهم يتطارحون بالعبرية أشجان ذكريات سبيهم في بابل فلا تعي أذناه من غمغمتهم بمراثيهم سوى لفظة (الجلاء) أي (جالوت) العبرية هذه؟

أوَ قد كان يهود يثرب يتطارحون أشجان بابل في يثرب بالعبرية فيما بينهم أم كانوا يحدثون بها النبي وأصحابه؟

فكيف استعصى عليهم الإتيان بلفظة (الجلاء) العربية التي تكافئ (جالوت) العبرية وقد كان من يهود يثرب من يتقنون العربية كالفصحاء والشعراء من أهلها؟

بل كيف يتشدقون أمام العرب بأيام نحسهم ومذلتهم في بابل، وهم الهازئون بالعرب، المتعاظمون عليهم؟

وهَبْ أن محمدًا (ﷺ) وقعت في أذنيه لفظة (جالوت) العبرية هذه من يهود يثرب في ندبهم (الجلاء) ولا يفقه لها معنى، فكيف فطن إلى أنها تصلح اسمًا لذلك الجبار الفلسطيني الذي سماه القرآن (جالوت) ولا تصلح اسمًا للملك (شاؤول) الذي سماه القرآن (طالوت)؟

(١) راجع: *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص١٨، ١٩.

أفقد سمع أيضًا من يهود يثرب أخبار ما كان بين (جليات) وداود؟ فكيف يخلط، وهو اللقن الفطن، بين اللفظتين العبريتين (جالوت)، (جليات)؟

وهَبْه قد علم أن (جالوت) العبرية معناها الجلاء، فكيف يجيء بها اسمًا لرجل على الإبدال من (جليات) التي انبهمت عليه؟

ولماذا يعدل أصلًا عن (جليات) إلى (جالوت)؟

أفقد علم أيضًا أن (جليات) و(جالوت) العبريتين لفظتان بنفس المعنى عبريًّا، أم علم ما لم يعلمه علماء العبرية وعلماء التوراة فأراد أن يصحح لهم (جليات) إلى (جالوت)؟

إنما قال أدعياء الاستشراق هؤلاء ما قالوه لأنهم إما يجهلون معنى (جليات)، وإما أنهم يعلمونه ولكنهم يفترضون فيك الجهل به، فهم يعمون عليك ويخلطون، آمنين ألا ينكشف لك باطل دعواهم.

ولأن الهوى والغرض داء مميت، فقد مات هؤلاء الأدعياء بدائهم.

أما القرآن الخالد الباقي، قول الحق الذي فيه يمترون، فهو الذي قد علمت: أفقه بالعبرية من أهلها، وسبحان الذي علَّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

* * * *

يشتق علماء التوراة اسم (جليات) من الجذر العبري (جلا)، وهو جذر بنفس المعنى في اللغات الثلاثة: العبرية والآرامية والعربية.

تقول منه جلا عن وطنه، ومن وطنه، يجلو، جلاء، وجَلْوًا أيضًا، يعني نزح عنه، خشية خوف أو جدب، يلتمس الأمن أو الرزق في غيره، فهو (الجالي)، والجالية، شأن تلك (الجاليات) الأجنبية التي لا يخلو منها بلد يوفر الأمن والرزق لتلك الجاليات في مهجرها.

وتقول أيضًا: أجلاه عن وطنه إجلاء (وجلاه أيضًا جلاءً وجلوًا) يعني قهره على الجلاء،

أي أخرجه منه كرهًا، فعل الغاصب الغازي، فالفاعل - أي هذا الغاصب - مجل، وجال أيضًا، والمفعول - أي الذي أخرجه الغاصب من أرضه - مجلو، ومُجْلَى أيضًا، والاسم الإجلاء، والجلاء أيضًا. وتصلح (الجلاء) تسمية بالمصدر يستوي فيها المذكر والمؤنث، والمفرد والجمع. تقول: هؤلاء القوم هم جلاء بابل، أي الذين أجلاهم بختنَصَّر عن مملكة يهوذا، وعن (أورشليم) بالذات التي جعل أهلها أثلاثًا: ثلث في القتلى، وثلث في السبي، وثلث استحياه فتركه يهيم في خرائبها وينوح على أطلالها، وتلك هي النازلة التي يشير إليها القرآن في (مواعيد بني إسرائيل) بقول الحق سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾[1]، وهذا الجلاء أو السبي[2] كتبه الله من قبل على الظالمين من بني إسرائيل، لا يخرجون من جلاء حتى يقعوا بظلمهم في جلاء غيره، لقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾[3]، سنة ماضية فيهم إلى يوم القيامة: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[4]، والحبل هنا بمعنى الإمهال والمد: يمد لهم الله حينًا ويمد لهم الناس أحيانًا. والذي (يمد لهم) لا يلبث هو نفسه حتى ينقلب عليهم، بظلمهم حينًا، وبغُلَوائهم وبطرهم أكثر الأحيان.

(الجلاء) إذن كلمة غليظة في سمع بني إسرائيل، لا تهيج فيهم ذكريات مأساتهم على أيدي البابليين في القرن السادس قبل الميلاد فحسب، ثم على أيدي الرومان حوالي الربع الأخير من القرن الأول الميلادي في أعقاب رفع المسيح، ثم إجلاؤهم عن شبه الجزيرة أواخر عهد عمر رضي الله عنه في أواسط القرن السابع للميلاد، ولكنها تذكرهم أيضًا وبالأخص بخطر

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥.

(٢) ليس السبي كالأسر، وإن كان منه غير بعيد: الأسير لا يكون (سبيًا) حتى يقتلعه آسره من أرضه ويحمله معه، يسترقه في أرض الغازي لا على أرض المغزو. ومن هذا (السّباء)، أي العود يحمله السيل من بلد إلى بلد. والجلاء بالمعنى الذي نقصده هنا هو السبي نفسه، فهما مترادفان متطابقان: تقول جلاء بابل، كما تقول سبي بابل.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

الجلاء الآتي، والجلاء الذي يليه، إلى دور فدور: إنه العقاب الغليظ الذي خصهم الله به في هذه الدنيا كلما ظلموا، يذيقهم الله إياه ما بين كل نوبة من نوبات (إرخاء الحبل)، يعظهم بواحدة ويبتليهم بأخرى، فما ارعَوى الموعوظ ولا المبتلى.

ولكن (جلاء بابل)، الذي كان أول جلاء أذاقه الله بني إسرائيل بظلمهم، حدث بعد (طالوت وجالوت) بقرون، فكيف يجيء من (الجلاء) جُليات؟

* * * *

من أعلام التوراة علمان مشتقان من مادة الجذر (جلا) هما: (يُجْلَى)، (جُلْيات). الأول - وهو (يجلى) - ورد في اسم الرئيس (بُقِّي بن يجلى) اسم رجل كان في التيه مع موسى (سفر العدد ٣٤/ ٢٢) وهو كما يقول لك السفر رجل عبري قح من سبط بني دان. أما الثاني (جليات) فهو رجل فلسطيني (سفر صموئيل الأول ١٧/ ٢٣) بارزه فتى يقال له داود، خرج إليه من عسكر شاؤول الملك، فقتل داود جالوت كما في القرآن.

وأنت بالطبع لا تتصور أن يتسمى إسرائيلي في مصر، وهو (يُجلى) أبو (بُقِّي) الذي كان من رؤساء بني إسرائيل في التيه، باسم مشتق من (الجلاء) على معنى الأسير المَسْبِيِّ ولم يكن بعد ثم (جلاء)، حتى إن اعتبرت خروجهم إلى التيه جلاء وليس نجاء.

ولكن علماء التوراة[1] يقولون لك بالنص إن معنى اسم (يُجْلى) هذا هو من مادة (الجلاء) على معنى الأسير المسبي.

وأنت أيضًا لا تتصور أن يتسمى (جليات) الفلسطيني باسم مشتق من مادة (الجلاء) على معنى السبي، ولم يكن قد حدث لبني إسرائيل جلاء بعد، فضلًا عن أن الرجل كما قالوا فلسطيني، لا شأن له بجلاءات بني إسرائيل، ناهيك بأن الرجل من جبابرة قومه، فلا يصح لهم وله أن يدعى بهذا المعنى اسمًا أو كنية.

(١) راجع المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة الوارد في قائمة مراجع هذا الكتاب تحت مادة (جلا).

ولكن علماء التوراة[1] يقولون لك بالنص إن (جليات)، اسم هذا الفلسطيني، مشتقة من مادة (الجلاء) مصدرًا أو مفعولًا، فهو (السباء) أو (السبي).

أما نحن فنقول إن (الجلاء) في العبرية والآرامية والعربية جميعًا، له معنى آخر، هو الأصل في استعمال (الجلاء) في معنى الإخراج من الوطن أو الخروج منه، أي الخلاء والإخلاء (بالخاء المنقوطة من فوق فيهما): إنه الإبانة والبيان والبينونة والبين. تقول: بان اللحم عن العظم، أي زال فانكشف العظم من تحته، وتقول جلا الصدأ عن السيف، أي أزال ما يحول دون لمعانه، وجلا بصره، يعني أسقط عنه الغشاوة، وتقول جلا الأمر فأصبح جليًّا بينًا، وتقول (ابن جلا) - غير مهموز - تعني الرجل الشريف في قومه يعرف مكانه، وجلا عمامته يعني وضعها فكشف رأسه، وجلا الشعر يعني انحسر عن مقدمة الرأس، إلى آخر ما تعلم.

لهذا فنحن نخالف علماء التوراة في تفسير هذين الاسمين (يُجْلِى)، (جليات) ونقول جازمين إن معنى (يجلى) العبراني هذا (وقد جاء بصيغة المضارع المبني للمجهول مرادًا منه اسم المفعول كما مر بك) هو (المجلو) الجلي البين الواضح.

وعلى هذا المعنى نفسه نفسر أيضًا اسم (جليات) أو (جالوت) - لا شأن لك بما كان ينطق هذا الرجل اسمه على عصر طالوت وداود فليس للغويين اليوم إلى هذا من سبيل - فنقول إنه (الجلا) - غير مهموز - على معنى الرجل الشريف في قومه، يعرف مكانه، كالذي تتوقعه من فارس قِرْمٍ شجاع، يخرج لمبارزة أقرانه، ويأنف من مبارزة من كان دونه، على ما يقوله لك السفر من أن (جليات) أنف من مبارزة ذلك الفتى المغمور الذي كانه داود، ومثلما تقرأ في كتب السيرة عن فارس حلف قريش في غزوة الخندق، عمرو بن ود، الذي هاب الخروج إليه فرسان المسلمين، وأراد أن يخرج إليه علي بن أبي طالب، والنبي ينهنه من حماس علي، ويقول له: «اجلس، إنه عمرو!» يقولها ثلاثًا حتى يقول علي في الثالثة: يا رسول الله، وإن كان عمرًا! فيأذن له ﷺ ويدعو له، ويقتل علي عمرو بن ود، كما قتل داود جالوت.

---

(١) راجع المعجم المذكور تحت نفس المادة.

ربما قلت معي إن علماء التوراة أرادوا بتفسيرهم (جليات) على معنى السباء المسبي، النيل من هذا الجبار الفلسطيني الذي صال على بني إسرائيل. ولا يصح هذا من علماء يأخذ عنهم الناس.

الصحيح في (جليات) أنه (ابن جلا)[1]، لا العبد السَّبِيُّ.

* * * *

وقد فسر القرآن هذا الاسم على معنى (الجلا) الجلي الواضح، بالتعريب فجاء به على المبالغة (جالوت)، كما قيل من (طغى) (طاغوت)، وأمثالها.

وفسره القرآن أيضًا بالمرادف الملاصق القريب من معناه، في قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾[2]، و(برز) في معجمك العربي يعني ظهر بعد خفاء، وأبرزه يعني أظهره وبينه فهو (مُبَرَّز)، يعني جلي واضح ظاهر، والبرزة المرأة التي تجالس الرجال. أما موانع (جالوت) من الصرف فهي نفس ما قلناه في (طالوت).

وسبحان العليم الخبير.

* * * *

(١) تجد مثله يروى على لسان الحجاج بن يوسف الثقفي في تعاظمه على أهل العراق:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

وطلاع الثنايا كناية عن الساعي لمعالي الأمور.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

(٤٢) داود

ترسم (داود) في التوراة بأحرف ثلاثة فقط هي (دود) بغير ألف بعد الدال، ولكن جماعة (بعلى ماسورا) تضبطه في التوراة التي بين يديك بحيث ينطق (داويد) التي آلت في العبرية من بعد إلى داڤيد *David* بعد أن تحورت الواو على ألسنة اليهود إلى الڤاء في مواضع أخصها حين تكون بادئة في الكلمة أو المقطع، ومنها: (دا - ويد).

وعلماء العبرية وعلماء التوراة يفسرون (داويد) هذه على (فاعيل) بمعنى (مفعول) من جذر يفترضونه في العبرية، وهو الجذر (دود)، مقلوب الجذر العربي (ود) فهو وديد، يعنون الحِبَّ المحبوبَ. وليس هذا على شهرته بشيء كما سترى.

أما مفسرو القرآن[1] فقد توقفوا في (داود)، قالوا إنه اسم أعجمي فحسب، ولم يفسروه.

ويرى المستشرقون[2] أن الاسم (داود) كان معروفًا في شبه الجزيرة قبل نزول القرآن بنطقه الوارد في القرآن، متحورًا عن أصله العبري (داويد)، فأتى به القرآن على ما كان العرب ينطقونه. وهو قد تحور على ألسنة العرب من (داويد) إلى (داود) التي ترسم اصطلاحًا بواو واحدة وأصلها بواوين (داوود) لأن الواو الوسطى حين تمد، يمدها العرب بالواو على وزن (فاعول) ولا يمدونها قط بالياء (فاعيل). والذي لم يلتفت إليه هذا المستشرق وأضرابه أنه ليس في العبرية كلها - عبرية التوراة والعبرية المعاصرة - لفظ عبري واحد مشتق من فعل واوي أجوف - على مثال الجذر المفترض (دود) - على زنة (فاعيل)، إلا (داويد) التي

---

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٨٤ من سورة الأنعام.

(٢) انظر على سبيل المثال: *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص٢٢، ٢٣.

ارتأت جماعة (بعلي ماسورا) - أهل الأثر - ضبطها على هذا النحو في تسمية داود الملك، الحب المحبوب.

ولو أريد تسمية داود على معنى الحب المحبوب، لقيل في العبرية (دُود) على أصل حروفه الثلاثة (دُود) في الخط العبري، أو لقيل في العبرية (يديد) على (فعيل) من الجذر العبري المستعمل - لا الممات - (يدد) المكافئ العبري المباشر للفعل العربي (ود)، ولما كانت لعلماء العبرية وعلماء التوراة من حاجة إلى افتراض جذر ممات في العبرية اسمه (دُود).

وأما الذي جهله هؤلاء وهؤلاء فهو أن القرآن المعجز يخالف علماء العبرية وعلماء التوراة في تفسيرهم اسم داود على معنى الحب المحبوب، وإنما يقول إن (داود) معناها (ذو الأيد): ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1] يفسر داود بذي الأيد على الترادف المطابق اللصيق.

وهذا من فرائد إعجازات القرآن التي تتناولها مباحث هذا الكتاب الذي نكتب.

فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



كان شاؤول كما تعلم هو أول ملك ملكه بنو إسرائيل على أنفسهم، اختاره الله لهم على ما تعلم من التوراة ومن القرآن. والذي تتوقعه من شخص يصطفيه الله عز وجل على علم للحكم والملك أن يكون صفوة بني إسرائيل جميعًا. ولكن بني إسرائيل كدأبهم في بطر النعمة ما لبثوا أن كرهوه لحزمه وصرامته، فأكثروا عليه الأقاويل في أسفار العهد القديم، وادعوا أنه سقط في عين الرب لخروجه على نصائح صموئيل النبي الذي جاءهم به، وآثروا على شاؤول داود، ذلك الفتى الرقيق الجميل، البطل الذي قتل بحجر من مقلاعه عملاقًا فلسطينيًّا اسمه (جليات). أما شاؤول الملك فقد عرف قدر داود فأكرمه وأحبه، وقربه منه، حتى زوجه من ابنته وربما آثره على كل بنيه، بل وفكر في استخلافه من بعده.

(١) سورة ص، الآية: ١٧.

ولكن دسائس البلاط تفرق بينهما، حتى يخشى شاؤول على نفسه من غدر داود، وحتى يفر داود بنفسه من شاؤول الذي طلب قتله. أحب شاؤول داود أشد الحب، وأبغضه أيضًا فأمعن في بغضه، وكأنه كان يغار منه. ويموت شاؤول على حالي الحب والبغض لداود، ولكنه لا يموت بيد داود، وإنما بيد الفلسطينيين الذين بدأ حكمه بحربهم وانتهى أيضًا على أيديهم في جولة انكسر فيها شاؤول وجيشه، ويصاب شاؤول بجرح شديد من سهم قاتل، وتنزف منه الدماء فيجهز على نفسه بسيفه قبل أن يمثل به أعداؤه، فيملك بنو إسرائيل داود مكانه[1].

والذي يعنينا هنا أن بني إسرائيل أصفوا داود الود، وأحبوه الحب كله. لم يحبوا فيه داود النبي - بل قل لم يكن داود عندهم بنبي[2] - وإنما أحبوا داود الملك، لا يعدلون به ملكًا غيره في كل تاريخهم على قصر عهدهم بالملك.

لهذا استقام لعلماء العبرية وعلماء التوراة تفسير اسم داود - أي (داويد) - بمعنى الحبيب المحبوب، وإن لم يستقم هذا التفسير على أصول العبرية كما سترى.

* * * *

ليس في العبرية كما مر بك جذر اسمه (دود) وإنما الذي في العبرية من هذه المادة أسماء جوامد لا اشتقاق لها، وهي ستة:

- (دود) بضم الدال البادئة، يعني عم أو خال.
- (دود) بضم الدال البادئة، صفة بمعنى الحِبِّ الصديق.

(١) راجع أخبار شاؤول وداود في سفر صموئيل الأول وفيه تهاويل كثيرة لا نستطرد بك إليها.

(٢) تقرأ في سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك الأول أنه كانت على عهد داود أنبياء منهم ناثان وجاد، لا يعظون داود فحسب، وإنما ينقلون إليه توجيهات الرب، يوحي الله إليهم فيبلغون داود. ومن كانت هذه حاله فليس بنبي، ونحن كمسلمين ننزه داود عن ذلك، وإنما الذي يعنينا هنا هو مفهوم الكاتب لمنصب داود عليه السلام، وبالتالي مفهوم اليهود.

- (دود) بضم الدال البادئة أيضًا، لا تستخدم إلا بصيغة الجمع (دوديم) بمعنى الملاطفة والتحبب.
- (دود) - بنفس نطق (دود) العربية - بمعنى سلة.
- (دود) - بنفس نطق (دود) العربية - بمعنى قدر أو مرجل. وهذه مشتقة من جذر سرياني (دود) بمعنى هاج واضطرب.
- (دود) - بنفس نطق (دود) العربية - ثمرة نوع من النبات اسمه (يبروح) أو (لُفَّاح) هو بالإنجليزية *mandagora* و*mandrake*.

هذا بالإضافة إلى أعلام توراتية أخرى هي: (دودو) يعني حِبّه أي (حب الله)، (دُودَوَهُو) بنفس المعنى، (دُودَيْ) أي (حبي)، وبالإضافة بالطبع إلى (داود) التي ترسم (دود). وهذه الأعلام كلها، بما فيها داود، ترد جميعًا إلى (دود) بضم الدال، فلا تدري لماذا خرجت عن هذا النسق (داويد).

وهنا يثور سؤال: كيف يفترض جذر واحد ممات اسمه (دود) لتفسير هذه المعاني الست: العم - الحب - التحبب - السلة - المرجل - ثمرة اللُّفاح؟ إن جازت الصلة بين الحب والتحبب، فما الصلة بين العم والسلة، وبين هذين وبين المرجل وثمرة اللفاح؟

وإذا كان اسم داود (داويد العبرية) مشتقًّا من الجذر المفترض (دود)، فلماذا الإصرار على أنه من (دود) بمعنى الحب، وليس من (دود) بمعنى العم، وكلا (الدودين) يكتب وينطق سواء؟

وإذا كان اسم داود (داويد العبرية) بمعنى (الحب) هو نفسه (دود) الحب - كتابة ومعنى - فلماذا انفردت (دود) التي هي اسم داود بالنطق (داويد) على خلاف الرسم؟

ولماذا تخصصت (داويد) - المرسومة (دود) - بمعنى (الحب) اسمًا علمًا لداود الملك، وامتنع استخدامها صفة بمعنى (الحب)، لا يستعمل في موضعها كصفة إلا (دود) التي تنطق (دود) دون خشية اختلاطها بمعنى العم أو السلة أو المرجل أو ثمرة اللفاح؟

ولماذا الإصرار على جذر ممات اسمه (دود) بمعنى المودة والحب ولدى العبرية جذر آخر بنفس المعنى هو (يدد) مكافئ (ود) العربي - مبدلًا من واوه ياء شأن العبرية والآرامية في كل جذر عربي مبدوء بالواو كما مر بك - لا تزال تستخدم العبرية المعاصرة منه صيغة (هِتْيَدِّد) بمعنى (تودد) العربي ولا تستخدم قط صيغة فعلية من الجذر المفترض الذي اسمه (دود)؟ بل والأصل في العبرية (يَدِيد) من هذا الجذر (يدد) لا من (دود)، تلقب بها سليمان بن داود عليهما السلام فقيل (يَدِيدِيَّا) أي حب الله، ولم يقل (دَاوِيدِيَّا) من اسم (داويد) (داود) أبيه؟

الصواب أن يقال إن (دود) بمعنى الحب أصلها (يدود) من (يدد) حذفت ياؤه البادئة تخفيفًا (ولهذا نظائر في العبرية يعرفها المتخصصون)، لا حاجة لعلماء العبرية وعلماء التوراة بافتراض جذر ممات اسمه (دود).

وإنما اضطروا إلى افتراض هذا من أجل تفسير (داويد) بمعنى الحب لا أكثر ولا أقل، ولم يعبئوا بتفسير سبب كتابتها في الخط (دود) تمامًا كـ(دود) الأخرى بمعنى الحب.

ولست أقول إن جماعة (بعلي ماسورا) - أهل الأثر - افتعلوا (داويد) نطقًا لـ(دود) التي في الرسم، وإنما هم ضبطوها على ما كان ينطق به هذا الاسم في عصرهم (داويد) التي تجدها بهذا النطق نفسه في رسمها اليوناني بأصول الأناجيل، دون أن يتساءلوا عن سبب رسمها في مخطوطات العهد القديم بأحرف ثلاثة: الدال والواو والدال (دود).

وقد مر بك أن جماعة أهل الأثر هؤلاء بدأت عملها في القرن الثاني الميلادي، ولا شك أنها ضبطت أعلام العهد القديم على ما كانت تنطق به في عصرها، وما كان يجوز لها غير ذلك في الأسماء الأعلام بالذات.

ومر بك أيضًا أن الحاجة إلى ضبط نصوص العهد القديم بالشكل والنقط نشأت عن وقوع اللحن في قراءة هذه النصوص في خط لا يعبأ كثيرًا بإثبات حركات المد بعد مضي نحو عشرة قرون على عصر داود عليه السلام. أما كيف كان داود ومعاصروه ينطقون اسمه

المرسوم في أسفار التوراة (دود)[1]، فليس لك اليوم إلى هذا من سبيل. ليس لديك إلا هذه الأحرف الثالثة (واو بين دالين) تنطقها كما تشاء. وقد شاءت جماعة (بعلي ماسورا) في القرن الثاني بعد الميلاد أن تنطقها كما كان اليهود ينطقونها في عصرهم (داويد).

ولأنه كما مر بك لا وجود في عبرية التوراة والعبرية المعاصرة للفظ عبري واحد على زنة (فاعيل) بمعنى (مفعول) مشتق من جذر واوي أجوف على مثال ذلك الجذر المفترض (دود)، فلا مناص من أن تقول أن (داويد) هذه ليس إلا نطقًا تحرف على ألسنة اليهود عن الصورة الصحيحة التي كان عليها نطق هذا الاسم العلم على لسان معاصري داود.

ولأن الفرق في الرسم بين (دود)، (داويد) كبير، فلا بد لك أن تلتمس نطقًا أقرب إلى الرسم (دود). ولا أقرب إلى هذا من أن تنطق دالها البادئة بحركة بين الكسر والفتح (شِوا العبرية) التي ترسم نقطتين رأسيتين (:) تحت الحرف المعني مع تثقيل ضم الواو، فتقول: دِوُود (بواوين) أقرب ما تكون إلى (داود) التي نطق بها العرب ونزل بها القرآن.

أما من أين تجيء في العبرية (دوود) هذه التي أقترحها عليك، فهي تجيء سهلة سلسلة من (دي - أود): أما (أود) العبرية فهي الأيد عربيًا، وأما (دي) العبرية الآرامية فهي (ذو): إنه (ذو الأيد) كما فسرها القرآن المعجز. وسبحان العليم الخبير.

هذا يفسر لك لماذا قال العرب قبل القرآن (داود) ولم يقولوا (داويد) التي قالها يهود يثرب في قراءتهم أسفار (توراة الأنبياء والكتبة). عرف العرب بداود الملك على عصره، فنطقوها كما كان ينطقها داود ومعاصروه، ولم تتحرف عليهم (داويد) إلى (داود)، كما يظن المتطفلون على مباحث اللغة أدعياء الاستشراق.

* * * *

(١) ربما قيل لك إن (داويد) ربما رسمت مرة أو مرتين (داويد) بإثبات الياء في الخط وليس بدليل. هذا من النادر الذي في حكم المعدوم لا يعتد به. وهو إن وجد، استدراك من الناسخ على الأصل الذي بين يديه أو المتلو عليه. دليلك في هذا أن اسم داود في العبرية لا يزال يرسم بواو بين دالين (دود).

ورد لفظ (الأيد) في كل القرآن مرتين فحسب، إحداهما قوله عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1]، والأخرى قوله عز وجل: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[2]، وصفًا لداود بأنه (ذو الأيد). ولم ترد (ذو الأيد) في كل القرآن إلا في هذا الموضع فحسب، تفسيرًا لمعنى الاسم العلم (داود) بالمرادف المطابق اللصيق (ذو الأيد).

إن أردت دليلًا على أن القرآن أفقه بالعبرية من أهلها، كفاك هذا الدليل. فدع عنك دعوى الاستنساخ والتلقين وسبح معي القائل بكل اللغات، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم. والحمد لله رب العالمين.

* * * *

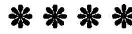
(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

(٢) سورة ص، الآية: ١٧.

(٤٣) الزبور

قال عز وجل في نبيه داود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[1]. وقال فيه أيضًا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[2]، وقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[3].

كان هذا الفضل من الله، وكان نبي الله داود عبدًا شكورًا.



أنعم الله عز وجل على عبده داود بالصوت الندي، وحلاه باللحن الشجي الرقراق: يسبح ويرنم ويطرب حتى الجماد، ويصدح ويشدو فتشدو على نغماته الطير، وتسبح معه الجبال. وقد عرف داود حق هذه النعمة فوضعها حيث يجب أن تكون: تسبيحًا وتمجيدًا، وتهليلًا وتكبيرًا، واستغفارًا ودعاءً، يدعو ربه فيسأله ويستعينه، يهلل للمنة، ويستنصر في الشدة، ويتوجع في المحنة، ويُفْتَنُ فيندم ويتوب. وكان داود بحق إمام المغنين.

وهل أروع وأبدع من هذا الجمال وذاك الجلال، نشيدًا من فم داود على مزمار داود، ترنمت به مع داود الجبال والطير يومًا في جنبات أورشليم؟ بل كيف أنت وقد أسلمت أذنيك لأنغام تلك التسابيح، تشدو بها مع داود الطير، وتصدح الجبال؟

---

(١) سورة ص، الآيات: ١٧ – ٢٠.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٠.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.

لا غرو قد صار بها مزمار داود مثلًا، حتى قيل على المبالغة في الصوت يعذب ويرق: مزامير داود!

* * * *

أما هذه (المزامير) فهي ذلك الجزء من (توراة الأنبياء والكتبة) المنسوب إجمالًا إلى داود عليه السلام، والمعنون في ترجمات العهد القديم باسم (سفر المزامير)، وهو يضم مائة وخمسين مزمورًا، ينسب بعضها فقط إلى داود، وينسب بعضها لابنه سليمان، كما ينسب بعضها لآساف، كبير المغنين في بلاط داود، وبعضها الآخر مسكوت عنه غير منسوب.

ولكن القائلين تلك المزامير من غير داود يأتمون بطريقته، وينسجون على منواله، فلا تدري على التحقيق أي المزامير قالها داود، وأيها الذي لم يقله من بين كل المزامير المنسوبة إليه بالاسم في ذلك السفر من أسفار العهد القديم.

لهذا حرصت ترجمات أهل الكتاب لأسفار العهد القديم على تسمية هذا السفر (سفر المزامير) على التعميم، لا يقولون (مزامير داود) لأنها ليست كلها لداود، وإنما هي (مزامير داود وسليمان وآساف وآخرين). ولئن جازت القداسة لمزامير قالها داود وسليمان عليهما السلام، فلا تجوز القداسة بوجه لمزامير ترنم بها آساف كبير المغنين في بلاط داود، أو قالها من هو دون آساف في هذا البلاط، فلا قداسة إلا لنبي يوحى إليه. وهذا يدلك على أن المجموع بين دفتي هذا العهد القديم ليس كله من وحي الله عز وجل على رسله وأنبيائه، بل منه هذا وذاك. وهو يدلك أيضًا على أن معنى الوحي عند أهل الكتاب ليس هو نفس معناه عند أهل القرآن. ولكن هذا مبحث آخر يخرج بنا عن مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب، فلا نستطرد بك إليه.

الذي يعنينا في هذا السياق هو أن مجموع تلك المزامير التي صحت نسبتها إلى داود عليه السلام في ذلك السفر، أعني أيها في علم الله عز وجل صَدَق، هو فحسب المعني في

القرآن باسم (الزبور)، في مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾[1].

* * * *

على أن العهد القديم في نصه العبراني لا يسمى هذا السفر (سفر المزامير) كما تسميه ترجمات العهد القديم، وإنما اسمه في النص العبراني (سفر تِهِلِّيم) أي سفر التسابيح، من (هلل) العبري المأخوذ من (هلل) العربي لا بمعنى صاح وصوت، ولكن بمعنى (سبح)، ومنه لفظة (هَلِلُويا) الشهيرة في أناشيد أهل الكتاب، وأصلها العبري (هللو - يه)، أي هَلِّلُوا له، أي سبحوه! يعني سبحوا الله، على التمجيد. فالترجمة العربية الدقيقة لاسم هذا السفر بالعبرانية هي (سفر التسابيح) أو (سفر التهاليل)، لا (سفر المزامير).

ولكن النص العبراني أيضًا لهذا السفر يضع (مِزْمور) العبرية عنوانًا لكل فصل من فصوله المسماة (مزامير)، تسبق رقم هذا (المزمور) أو ترتيبه بين (المزامير)، فيقول (مزمور ريشون)، أي المزمور الأول، (مزمور شيني)، أي المزمور الثاني، إلى آخر المزامير المائة والخمسين.

ومن هذا اللفظ - (مزمور) العبري - ترخصت الترجمة السبعينية اليونانية لأسفار العهد القديم فأسمته بمجموع ما فيه، أي بصيغة الجمع من (مزمور) فقالت (المزامير). وقد ترجمت اليونانية الكنسية لفظ (مزمور) العبرية بلفظة *Psalmos* اليونانية، من الفعل اليوناني *Psallein*، يعني (نتش)، إشارة إلى فعل العازف بأصابعه على ذوات الأوتار، وأخصها (الهَارْب) *Harp*، فمعنى *Psalmos* اليونانية الكنسية في ترجمة (مزمور) العبرية هو المعزوفة على ذوات الأوتار، لا زمر ثَمَّ ولا طبل، ولا غاب ولا قصب ولا ناي، كما قد يظن الذين يخلطون بين العبري والعربي. أما الذين ترجموا (مزمور) العبرية إلى *Psalmos* اليونانية،

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

أي (المعزوفة) أو (الأنشودة) قد تأثروا بما في بعض المزامير من إشارة في أعلاها إلى آلة العزف المصاحبة لها، وأيضًا بلفظة (سلاه) العبرية التي ترد في بعض مقاطعها، وتفيد في رأي البعض علامة موسيقية يرفع عندها المنشد صوته بمصاحبة الآلة، وفي رأي البعض الآخر علامة موسيقية على الوقف، فأخذوا (مزمور) العبرية بمعنى الأغنية والأنشودة، وهو بالفعل من بين معانيها، بل لا تزال العبرية المعاصرة تستخدم لفظة (زمَّار) بمعنى (المغنِّي). أما المترجم العربي للعهد القديم فقد تأثر - كما تأثر مفسرو القرآن الأوائل جميعًا - بالتقارب اللفظي الشديد بين (مِزمور) العبرية وبين (مَزمور) العربية لا فرق بينهما إلا تثقيل الضم بالواو في اللفظة العربية وإبدال الكسرة العبرية فتحة في الميم، فأخذوها بمعنى النفخ في المزمار، ربما لأن المزمور في العربية هو (المزمار) نفسه لا فعل(الزمر)، وقد شهر داود بإجادة النفخ في الناي. ولو درسوا العبرية لعلموا أن المزمار فيها هو (حليل)، أو (نحيلا) أي المثقوبة الجوفاء، من (خلل) العربي بالخاء.

وليس هذا هو المعنى الذي يعنيه القرآن بقوله عز وجل: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾، كما سترى.

* * * *

يجيء (زَمَر) العربي بمعان منها بالطبع زمَّر بالمزمار، ومنها أيضًا معنى القِلة، يقال عطية زمرة، أي قليلة، ورجل زَمِر المروءة، يعني قليلها، والزمير يعني القصير، ومنها أيضًا معنى الحسن، والزمور يعني الغلام الجميل، وزمره أيضًا بمعنى ملأه، يقال زَمَر الوعاء ونحوه يعني ملأه، وزمر الكلب وغيره يعني وضع في عنقه الساجور أي الغل وهي القلادة التي توضع في عنق الكلب وتنتهي بالسلسلة يمسك بها أو يثبت. ومنها أخيرًا (الزمرة) أي الجماعة أو الفوج من الناس.

أما (زَمَرْ) العبري فيجيء بمعان ليس بينها قط الزمر بالمزمار: المعنى الأول والأساسي هو قطع وقسم وشذَّبَ، ومنه (زِمورا) العبرية بمعنى الغصن والفنن. وهو هنا يشترك مع (زمر) العربي حين تقول بالعربية (زَمور) بمعنى الغلام الجميل، تريد (قسيم الوجه). ،المعنى

الثاني، وهو مشتق من الأول، يستخدم فيه (زمر) العبري مضعفًا، والمراد منه تقطيع القصيد، يعني نظمه، فهو الكلام المقطع المنظوم. والمعنى الثالث، وهو المترتب على الثاني، معنى الإنشاد أو الغناء، ومنه (زِمْرا) العبرية يعني الأنشودة أو الأغنية - ولا يقال للأغنية (زِمْرا) إلا إذا كانت قصيدة مغناة - . والمعنى الرابع، وهو المترتب على المعنى الثالث، معنى (اللحن) الموسيقي، أو العزف على آلة موسيقية ما. من هنا تجد أن (زمر) العربي لا يشترك مع (زَمَرْ) العبري إلا في معنى (زمور) أي الغلام القسيم الوجه المتناسق الأعضاء. وربما أيضًا في (زمرة) العربية إن اعتبرت الزُّمرة (قطعة) من الناس، وهو الراجح.

ليست (مِزمور) العبرية إذن من الزمر بالمزمار، وإنما هي بمعان ثلاثة هي: الأنشودة - المعزوفة - الكلام المقطع المنظوم أي (المقطوعة).

وقد نظر القرآن إلى هذا المعنى الأخير: المقطوعة والمقطعات، فقال (الزبور)، خلافًا لقول علماء اللغة العربية وكل مفسري القرآن الذين قالوا (الزبور) يعني المكتوب، فهو فعول بمعنى مفعول من زبره يزبره زَبْرًا، يعني كتبه، أو جود كتابته (انظر تفسير القرطبي للآية ١٦٣ من سورة النساء)، فهو الكتاب المزبور، بمعنى الكتاب المكتوب. وقد حملهم على اختيار هذا المعنى وحده من بين مختلف معاني مادة (زبر) العربية وورود هذه المادة في مثل قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]، يعني القرآن في كتب السابقين، وقوله عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾[2]، أي قد سجلنا عليهم أعمالهم في الكتب. وكان هذا كافيًا لصدهم عن التماس المعنى الآخر في (زبر) العربي، الذي في قوله عز وجل: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3]، لا تستطيع أن تقول: فتقطعوا أمرهم بينهم كتبًا، أو الذي في قوله عز وجل على لسان ذي القرنين في سورة الكهف: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾[4] أي آتوني (قطع الحديد)، بلا خلاف بين المفسرين.

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٦.
(٢) سورة القمر، الآية: ٥٢.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥٣.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٩٦.

أما مادة (زبر) في معجمك العربي فتجيء بمعان: زبره بالحجارة يعني رماه بها، وزبر البناء يعني وضع بعضه فوق بعض، أي رصه رصًا، وزبره عن الأمر يعني منعه ونهاه، والأصل فيها قطعه عنه، فزبر بمعنى قطع، وزبر الكتاب يعني كتبه، والأصل فيه أتقن كتابته مبينًا مفصلًا (مقطعًا)، وهذا هو المعنى الرئيسي في مادة (زبر) الذي يفسر مختلف استخداماتها، ومنها الزبرة بمعنى القطعة أو الكتلة، والزبرة أيضًا بمعنى السندان من هذا: الكتلة من الحديد يطرق الحداد عليها حدائده.

****

والذي نقول به نحن إن الأصوب في فهم (مِزمور) العبرية بكسر الميم، أن تفهم عبريًّا على أصل معناها: المقطعة، يعني القصيد المنظوم، فهي المقطعات لا المزامير، ولا تفهم بمعنى الأغنية أو المعزوفة الوترية كما فهمتها ترجمات العهد القديم بدءًا بالترجمة السبعينية اليونانية، فالله عز وجل إنما ينزل على أنبيائه كلامًا، ولا ينزل عليهم موسيقى وألحانًا، إلا أن تقول كما يقول أهل الكتاب إن هذه المزامير - لفظها وألحانها - من صنع من أنشدوها ولحنوها، داود أو غيره، ربما بإلهام من الله عز وجل أو بتوفيق منه، وعندهم أن الإلهام من معاني الوحي، على خلاف أهل القرآن في معنى وحي الله على أنبيائه، لا يكون إلا بملك. بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن (زَمَرْ) العبري معدول عن زبر العربي، أبدلت باؤه في العبرية ميمًا.

بل قد قال هذا - معكوسًا - أدعياء الاستشراق المنكرون الوحي على القرآن[1]، الذين زعموا أن محمدًا (ﷺ) سمع (مزمور) العبرية فتحورت عليه إلى الباء، ظنها من (الزبر) فقال (زبور). وهذا تافه لا يعتد به، لوجود كلتا المادتين في العربية (زمر)، (زبر) خلافًا للعبرية التي ليس فيها إلا (زمر) وحده بالميم، بل قد فهم القرآن المراد من (زمر) العبري على أصله (تقطيع القصيد) فجاء به على (زبور) ولو فهم منه المعنى الغنائي لقال (زمور) بالميم، وسبحان العليم الحكيم.

(١) راجع: *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص٦١.

أما (الزبور) العربية القرآنية في وصف وحي الله عز وجل على نبيه داود عليه السلام، فليس بجيد فهمها بمعنى مطلق الكتاب، وإلا لما تميز وحي الله على داود باسم عَلَم يختص به من دون كتب الله على رسله، كما اختص باسمه العلم كل من التوراة والإنجيل والقرآن، وإنما أريد له معنى مضاف يميزه عن غيره من الكتاب المكتوب، فقيل له (زبور) بمعنى (مزبور)، منظورًا في ذلك إلى مادته وصيغته: إنه كتاب (تسابيح) مقطعات.

كان (الزبور) كما رأيت تسابيح وتهاليل، ليس فيه شيء من التعاليم أو التكاليف كالذي تجد في توراة موسى وإنجيل عيسى وقرآن خاتم النبيين، دليلك في هذا ما بقى من وحي الله على داود في تلك المزامير التي في العهد القديم، ودليلك في هذا، بل قبل هذا، من القرآن نفسه، الذي لا يذكر الزبور بالاسم كلما جمع بين القرآن وبين توراة موسى وإنجيل عيسى، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾[1]، بل لا يجمع بين التوراة والإنجيل وبين الزبور في سلك واحد حين ذكر ما علمه الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[2]، وما ذاك إلا لأن التسابيح ليست عِلمًا يعلم، فهي ليست من ذات جنس (كتب) الله على أنبيائه، وإن كانت وحيًا منه تبارك وتعالى على نبيه داود، صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه. بل قد كانت خصيصة لداود عليه السلام، فضلًا آثره به عز وجل من دون أنبيائه، لقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[3].

وسبحان العليم الخبير.

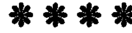
* * * *

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.

(الزبور) إذن عربية، ليس فيها شبهة عجمة، ومن ثم فهي لا تدخل في مقاصد هذا الكتاب، لأنها ليست من العلم الأعجمي الذي يفسره القرآن للعرب وفق منهجنا في هذا الكتاب الذي نكتب، ولكننا تصدينا لها لجلاء شبهات فهمها عربيًّا بغير معناها المقصود في القرآن، ودفعًا لمقولة أدعياء الاستشراق إنها من الأعجمي الذي عربه القرآن فأبدل من الميم التي في (مزمور) العبرية باء. على أن القرآن قد فسر المراد من (زبور داود) بالتصوير وبالمرادف القريب: لا تجد أبلغ من قوله عز وجل: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾[١]، وقوله عز وجل: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[٢]، والتأويب يعني ترجيع الصوت. كان داود عليه السلام كثير التسبيح، يتغنى به، فأعطاه الله ما يسبح به كلامًا منه عز وجل ترجعه الطير والجبال، وسبحان العزيز الوهاب.



(١) سورة ص، الآيتان: ١٨، ١٩.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٠.

(٤٤) سليمان

مر بك في تضاعيف هذا الكتاب أن (فَعلان) العربية على الصفة، مثل ظمآن وأمثالها، تجيء في العبرية على (فعلون)، مثل يِثرون وشِمعون وجِدعون وأمثالها. ومر بك أيضًا أن النون في (فِعلون) العبرية يجوز حذفها استخفافًا كما قيل في (يثرون)، (يثرو).

وعلى (فعلون) جاء (شِلومو) - بغير نون - اسم نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام في النص العبراني لتوراة الأنبياء والكتبة، أي في أسفار العهد القديم: (شِلومو) أصلها (شِلومون) عبريًّا، حذفت نونها استخفافًا، كما حذفت النون استخفافًا من (يثرون) حَمى موسى فقيل (يثرو). دليلك في هذا بقاء نون (شلومو) في السريانية (شِلِمون)، وبقاؤها أيضًا في النص اليوناني للأناجيل *Solomon* (سولومون)، على إبدال السين من الشين كدأب اليونان، وعن اليونانية أخذت اللغات الأوروبية جميعًا هذا الرسم اليوناني.



رغم هذا، ورغم استقرار علماء العبرية ونحاتها على أن (فِعلو) العبرية أصلها (فعلون) حذفت نونها استخفافًا، إلا أن أدعياء الاستشراق المنكرين الوحي على القرآن[1] عجبوا من مجيء القرآن بهذا الاسم (شلومو) مزيدًا بالنون في (سليمان)، رغم اعترافهم بأن سلمان وسليمان كليهما اسمان عرفهما العرب قبل نزول القرآن، بل وقعوا في حيص بيص من هذه النون التي زادها القرآن في اسم (سليمان): قالوا ربما انتقلت إلى العرب من السريان الذين قالوها (شلمون) كما مر بك، أو العكس، أي أن العرب هم الذين أخذوا (شلومو)

(١) انظر: *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص٢٣.

العبرية من اليهود فتحرفت عليهم إلى (سليمان)، وانتقلت بصورتها هذه إلى السريان فقالوا (شلمون). وفات هؤلاء الأدعياء أن (فَعلان)، ومصغره (فعيلان)، لا يتزنان على موازين العربية إلا بالنون في النعت على المذكر، لا تحذف نونه إلا في المؤنث منه، (فعيلى)، كما تجد في (سلمى)، (سلمان)، وكما تجد في مصغرهما (سليمي)، (سليمان). وفات هؤلاء الأدعياء أيضًا قبل هذا أن (شلومو) العبرية أصلها بالنون (شلومون)، فلا معنى لكل ما قالوه، ولكنهم في تحريهم إثبات نقل القرآن عن أهل الكتاب يذهبون بعيدًا، فيحاولون إثبات أن العرب وجدوا بعد أن وجد أهل الكتاب، وأن اللغة العربية نشأت في حضن العبرية والآرامية، فهي ناقلة عن الواحدة أو الأخرى، حتى في نحت الأسماء الأعلام، وكأن العرب في شبه جزيرتهم كانوا قومًا بكمًا، لا ينبسون ببنت شفة حتى يتسمعوا على اليهود أو السريان، وكأن العربية ليست هي أم الساميات جميعًا حيثما كان للساميين في هذه الأرض مكان، لا يقول اليوم بغير هذا إلا جاهل كما مر بك في تضاعيف هذا الكتاب. أما دعوى النقل والتلقين التي تصايح بها المنكرون الوحي على القرآن، فقد مات بها أصحابها كمدًا، لأن (التلميذ) الناقل يُعَلِّم (أستاذه) ما لم يكن يعلم، ويصوب له ما أخطأ فيه، ويصحح له ما تحرف عليه، ويذكره بما أنسيه، ويرد عليه مقالته، بل ويعنف عليه، حين تزل بأستاذه القدم، أو يشتط به الهوى فيفتري على الله عز وجل، أو يتطاول على مقام رسل الله وأنبيائه، غالى بهم أو أوضع فيهم. ولا يصح هذا من (تلميذ) ناقل، وإنما يصح فحسب من المصدق المهيمن.

****

أما (شلومو) العبرية هذه فهي من الجذر العبري (شَلَمْ) - مكافئ (سلم) العربي بكل معانيه - والمصدر منه (شَلُوم) يعني عربيًّا السَّلم والسِّلم والسلام، كلها بمعنى السلام. وتجيء السلم بفتح السين على الصفة أيضًا في العربية، فيقال (رجل سَلْم لرجل) يعني هو له مسالم، فالسَّلم على الصفة عربيًّا يعني (المسالم). والسلم العربية هذه على الصفة هي نفسها (شلوم) العبرية على الصفة أيضًا، أي السلم بمعنى المسالم. ولكن (شلوم) على

مقتضى النحو العبري - حين يضاف إليها مقطع الزيادة بالواو والنون الذي في (شِلومون) - تخطف فتحتها البادئة على الشين فتتحول إلى صوت بين الفتح والكسر - حركة (شوا) العبرية - لا يكاد يحس، وربما هي إلى السكون أقرب، فتقول بدلًا من شَلومون: شِلومون أو شْلمون، ثم تحذف النون، فتقول (شْلومو) اسم نبي الله سليمان عليه السلام، من السلم بمعنى المسالم.

ورغم أن (سليمان) عربية قح، لا تحتاج من القرآن أن يفسرها للعرب على منهجنا في هذا الكتاب، فإن القرآن في قصة سليمان مع ملكة سبأ يجيء عقب (سليمان) بالمرادف القريب الذي يجلي لك المعنى المخصوص الذي يفهمه القرآن من هذا الاسم العلم من بين مختلف معاني الجذر (سَلِم)، فيقول: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[1]، يعني جيئوني سلمًا مسالمين.

أما لماذا جاءت (سليمان) العربية في القرآن ممنوعة من الصرف لا تقبل التنوين، فهذا في العربية هو شأن كل مذكر مزيد بالألف والنون يتأنث بفقد النون: فعلى وفعلان، وأيضًا مصغرهما فعيلي وفعيلان، كما تقول سلمى وسلمان، وسليمي وسليمان.

* * * *

وقد يظن الجاهل بفقه اللغة العبرية، كما ظن أدعياء الاستشراق، أن القرآن أخطأ في تصغير (سلمان) التي جاء بها على (سليمان)، لأن (شلومو) العبرية تقابل (سلمان) العربية ولا تقابل (سليمان) على التصغير.

ولكن علماء العبرية يقولون إن الزيادة في (فعلون) بالواو والنون، كما تجيء على الصفة واسم الفعل، تجيء أيضًا لإفادة التصغير، ومثاله (إيشون) العبرية المزيدة بالواو والنون من (إيش) العبرية يعني (إنسان)، فيقولون إن (إيشون) هي مصغر (إيش) فهي (أنيسان) على التصغير من (إنسان)، ويقال من (إيشون) العبرية هذه (إيشون بِيتْ عَيْن) يريدون ذلك

(١) سورة النمل، الآيات: ٢٩ - ٣١.

(الأنيسان) الذي تراه في عين محدثك حين تحدق فيه، فهو (إنسان العين)، أي (بؤبؤها). وليس المراد من بنية التصغير في كل الأحوال - على ما يعرف اللغويون جميعًا - هو صغر الحجم أو صغر القدر - فمن العرب من سموا (كليبًا) وهم ملوك - وتقول لابنك وقد شبت وشاب معك: يا بني! كناية عن الحب والودادة والإعزاز.

وقد علم القرآن مراد داود من تسمية ابنه يوم ولد فأسماه (شْلُومو) (شْلُومون)، على التصغير من (شَلُوم) العبري الصفة لا المصدر، لا يصح في تفسير (شْلُومو)، عبريًّا، إلا هذا: لو كانت (شْلومو) (شْلُومون) محض الصفة لا مصغرها لقيل (شِلْمون) على زنة (فِعْلون)، كما قال العرب في الصفة (سلمان) على (فعلان) من سلم، ولكن نبي الله سليمان عليه السلام اسمه (شْلومو) (شْلومون) لا (شِلْمون) فهو مصغر (شَلُوم) يعني السَّلم أو سلمان على الصفة، إن صغرت (شَلُوم) قلت (شْلُومون)، وإن صغرت (سلمان) قلت سليمان.

جاء القرآن باسم نبي الله (شْلُومو) (شْلُومون) على (سليمان) فأصاب المعنى وأصاب البنية، أي بناء الاسم على التصغير. وسبحان العليم الخبير.

* * * *

وقد خاض كتبة العهد القديم في سفر صموئيل الثاني[1] بفحش لا مثيل له في قصة داود عليه السلام مع (بِتْشِبع) امرأة ضابطه (أوريًّا الحثي)، فقالوا إن داود اطلع عليها من سطح بيته وهي تستحم في بيتها، وكانت رائعة الجمال، فسأل عمن تكون، فقيل له هي بِتْشِبع بنت إليعام امرأة أوريًّا، فلم يتورع، وزوجها في صفوف القتال، أن يرسل إليها من يأخذها إلى بيت (داود) فدخلت إليه فاضَّجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها (صموئيل الثاني ١١/ ٤). زنا بها داود إذن في غيبة زوجها على مرأى ومسمع من حاشيته، لم يتأثم ولم يتأثموا من جرمٍ عقوبته في توراة موسى الرجمُ للزاني والزانية، وإن حرص وحرصوا على أن تكون (طاهرًا غير طامث)! ويعود الضابط المثلوم العرض ليفاجأ بالفضيحة فيمتنع

(١) راجع صموئيل الثاني ١١ - ١٢.

عن الدخول على امرأته وينام على باب قصر داود، ويخبر داود فيستفسر منه عن السبب ويقول له لماذا لم تنزل إلى بيتك وقد جئت من السفر؟ ويرد صاحب العرض الجريح وكأنه يعظ داود: (إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يؤاب وعبيد سيدي - يعني يؤاب وجنوده ويؤاب هو القائد الأعلى للجيش - نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي لآكل وأشرب وأضّجع مع امرأتي؟ وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر)[1]. ولا تختلج عضلة في وجه داود الملك الذي يكتب الكاتب سيرته، ولكنه وقد شاعت الفضيحة يعتز بإثمه فيولم لهذا الضابط يأكل معه ويشرب ويسكر، ثم يبلغ من عتوه أن يُحمِّل أورِيًّا من غده رسالة مطوية فيها الأمر ليؤاب قائد الجيش تقول: اجعلوا أوريًّا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت (صموئيل الثاني ١١/ ١٥) ويقتل أوريا بالفعل في المعركة صريع جمال امرأته وغدر داود. أما المرأة فندبت بعلها، وأما داود فلم يتلبث أن مضت (المناحة) حتى أرسل إليها فضمها إلى بيته وصارت له امرأة. وتضع المرأة ابنًا لداود من زناه بها. ويرسل الرب ناثان النبي إلى داود يضرب له مثل الرجلين، صاحب النعجة الوحيدة التي اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعًا، تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام في حضنه وكانت له كابنة، يريد بتشبع امرأة أوريًّا، والرجل الآخر ذي الوفرة من الغنم والبقر الذي نزل عليه ضيف فاستكثر أن يولم له من غنمه، بل بلغ من عتوه أن يأخذ نعجة الرجل الفقير يولم بها لضيفه ولم يأبه، فعلَ داود مع أوريًّا. ويحمى غضب داود على هذا الظالم ويقضي عليه بقوله: يقتل هذا الظالم وترد النعجة إلى صاحبها أربعة أضعاف! فيقول له ناثان النبي: بل أنت هذا الرجل! قتلت الرجل وأخذت امرأته لك امرأة، ولم تذكر آلاء الله عليك. فعلت في السر والله يفعل بك في العلن: يأخذ الرب نساءك أمام عينيك، ويعطيهن لمن يضجع معهن في عين هذه الشمس. يفعل بهن هذا قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس. قال داود لناثان قد أخطأت إلى الرب. فأجابه ناثان قائلًا: الرب أيضًا قد نقل عنك خطيئتك. لا تموت - أي لا يعاقبك بالقتل جزاء فعلتك - ولكن الابن المولود لك منها يموت.

(١) صموئيل الثاني ١١/ ١١.

(ربما أراد الكاتب أن يمهد لما حدث من بعد لداود فيما يحكيه هذا السفر من أحداث حرب لداود مع الفلسطينيين كانت لهم فيها سبايا من نساء داود وأهل بيته وكأنها عقوبة لداود على فعلته مع أوريَّا). ويمرض المولود ويموت. ولكن داود يعزي بتشبع عن ابنهما ويدخل إليها ويضَّجع معها فتحمل وتلد له ابنًا يدعوه سليمان: (فولدت له ابنًا فدعا اسمه سليمان (شلومو) والرب أحبه. وأرسل بيد ناثان النبي ودعا اسمه يَدِيدِيًّا من أجل الرب)[1]. أي لأن الرب أحب سليمان كناه أبوه (يَدِيدِيًّا) يعني (حبُّ الله) كما مرّ بك. وكأنما قد كان مولد سليمان لداود علامة على السلم والسلام مع الله عز وجل الذي غفر له ما فعل.

هذا هو معنى تسمية سليمان (شْلومو) ومناسبتها، فلا غرو أن يجيء بها داود على التصغير من (شَلُوم)، توددًا وتحببًا.

* * * *

وقد قصصت عليك فأطلت، كي تعلم إلى أي مدى يلغ الكتبة في أعراض أنبياء الله ورسله، لا يتأثمون من شيء مهما عظم: نبي يغتصب امرأة صاحب جنده في غيبته، يجيء بها إليه عصبة من رجاله ليزني بها علنًا في بيته، ويعود زوجها فيطلب إليه داود الدخول إليها كي يختلط الماءان فلا يعرف من كان الأب، ويمتنع الزوج الذي اكتشف الفضيحة، ولكنه لا يجرؤ أن ينبس ببنت شفة، ويولم له داود (العشاء الأخير) قبل أن يبعث به من غده إلى ساحة الموت يحمل أمر إعدامه بيده إلى قائد الجيش (يؤاب) فينفذه غير مبال، ثم يُبلغ داود بأنه قد تم! ولا يزيد داود على أن يقول: (لا يسوء في عينيك هذا الأمر - يعزيه في ثلم شرف الجندية! - لأن السيف يأكل هذا وذاك!)[2]. ألا ما أقذع هذا وما أبشعه!

قارن هذا بما قاله القرآن العظيم في هذه النازلة التي ابتلي بها داود (الآيات من ٢١ إلى ٢٥ من سورة ص): لم يزن داود بالمرأة ولم يقتل زوجها، ولكن استزله هواه ففتن بها،

(١) صموئيل الثاني ١٢/ ٢٣ - ٢٥.
(٢) صموئيل الثاني ١٢/ ٢٥.

ولم يستعصم، فاستدعى إليه زوجها وعزم عليه في طلاقها كي يتزوجها هو: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾(١) أي شدد علي بسلطانه، ويذعن الرجل ويضعف تحت وطأة هذا السلطان، ويعود إلى موقعه على الجبهة وقد أجبر على فراق زوجته بسلطان الهيبة وسلطان الملك، ربما هانت عليه نفسه فاسترخص الموت، ولم يُعِنْه عليه يؤاب قائد الجيش بأمر من داود، فلا يصح بهذا ملك، ولا يصبر على هذا جيش. ولكنك لا تعتذر لداود عما فعل، فمجرد رغبته في تطليق امرأة من زوجها ليتزوجها هو ضمن حريم يكاد يبلغ المائة، ظلم صُراح، وبغي لا يصح من أفراد الناس، فما بالك بملك، ناهيك بنبي! قد قالها داود بنفسه: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾(٢)، وينتبه داود إلى أنه بفعلته مع أوريًا لم يعد من القليل الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلا يبغون على خلطائهم (ولعل أوريًا كان ضابطًا مقربًا إليه)، فهالته المصيبة التي لا تعدلها عند المؤمن مصيبة، بل قد أيقن أنه فتن: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾(٣). وقد غفر الله لداود هذه الزلة؛ لأن داود كانت له عند الله قربى بسالف العمل، موعود بحسن المآل: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾(٤). ولكن الله عز وجل يعظ بها داود في نفسه وعظًا بليغًا، لو سمعه ملوك الأرض لتفطرت قلوبهم هلعًا من يوم الحساب: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾(٥)، أي ليس لمن ملكه الله على الناس أن يتبع هواه، وخير لمن يتبع هواه أن ينأى بنفسه عن المهالك، فينأى بنفسه عن الملك ويعتزل الناس، وإلا فمصيره إلى النار، وبئس القرار.

ذكر القرآن حقائق ما كان: الفتنة و التوبة، والإنابة والاستغفار والمغفرة، وثنى بعد

(١) سورة ص، الآية: ٢٣.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٤.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٤.

(٤) سورة ص، الآية: ٢٥.

(٥) سورة ص، الآية: ٢٦.

الموعظة بالوعيد. أما ذلك الكاتب في العهد القديم قد لغط قلمه بما لغت به ألسنة الوالغين في أعراض الناس بالباطل، يبغون لهو الحديث، فما أفلت منهم نبي ولا صديق. ولعلك لاحظت أيضًا أن الكاتب في العهد القديم لم يكن لديه علم بتلك الملائكة الذين تسوروا على داود في محرابه يعظونه، ويضربون له المثل ويذكرونه، حتى يسترجع داود وتتفلت منه العبرات، ويغفر الله له فيبشرونه بالتوبة والمغفرة مشروطتين بالاستقامة على عهد الله عز وجل، لا يتبع من بعدُ الهوى المضل. لم يعلم الكاتب بهذا، فماذا يفعل؟ يلجأ لنبي اسمه ناثان يرأب به الثُّغرة، فينقل ناثان وحي الله إلى داود، يضرب نفس المثل الذي في القرآن أو يكاد، ولا يزيد داود على أن يقول: قد أخطأت إلى الرب! ويقول له ناثان: والرب أيضًا قد نقل عنك خطيئتك! (لا يقتله بها وإنما يقتل مولوده من الزنا). ويَمْثُل ناثان هذا أمامكم معلمًا لداود ونبيًّا فوق نبي، وما هكذا تكون الأنبياء.

قارن بين الروايتين واحكم بنفسك: أي الروايتين كلام من الله نزل؟ القرآن الذي ينطق بالحق ويميط الأذى عن أنبياء الله ورسله، أم كلام ذلك الكاتب الذي يضع نبي الله داود في صفوف الزناة والقتلة؟

على أنك (تحمد) للكاتب شيئًا واحدًا، وهو تعففه عن الغمز في مولد سليمان عليه السلام، فلم يجعله ابنًا لداود من الزنا، وإنما ابتدع (المولود الأول) لداود من بتشبع، ثم أماته، ليجيء سليمان من بعد (ابن رَشْدَة)، أي بعد موت أوريًّا وزواج داود في الحل من أرملة أوريًّا. ولكنك تجزم معي بأن هذا المولود الأول المفترى به على داود وبتشبع لم يكن له قط وجود، بل هو من بنات أفكار الكاتب، يحكم به نسيج قصته.



(٤٥) إلياس

(إلياس) في القرآن هو اسم نبي الله (إيليا) المذكور في سفري الملوك الأول والثاني بالعهد القديم، نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل على عهد الملك آخاب، الذي ملك على مملكة إسرائيل في السامرة بعد إحدى وأربعين سنة من موت رحبعام بن سليمان. ويقول لك كتبة هذين السفرين: إن (آخاب عبد البعل وسجد له. وأقام مذبحًا للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة. وعمل آخاب سَوَاري، وزاد آخاب في العمل لإغاظة الرب إله إسرائيل أكثر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله)[1]. وإلى هذا الملك وقومه الذين انحرفوا عن الواحد الأحد واتخذوا البعل والصنم من دون الله عز وجل، أرسل إلياس عليه السلام: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[2]، والذين (دعوا) بعلًا - اسم صنمهم الأكبر - هم ذلك الملك آخاب وقومه من بني إسرائيل، فتقطع من القرآن بأن إلياس عليه السلام هو نبي الله (إيليا) المذكور بهذا اللفظ في العهد القديم.

وقد عرب القرآن (إيليا) العبرية على (إلياس) ناظرًا إلى لفظها اليوناني الشائع عصر نزوله *Elias* أي بصورة المرفوع في تلك اللغة وعلامتها في المذكر إضافة السين، على ما مر بك في تضاعيف هذا الكتاب.

* * * *

---

(١) الملوك الأول ١٦/ ٣١ - ٣٣.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٢٣ - ١٢٥.

أما هذا الاسم العبراني إيليا، المختصر من إلياهو، فأصله إيل + ي + ياهو، أي (إيلي يهوا)، والمعنى هو الله إلهي أي (الله ربي).

وقد ورد اسم (إلياس) عليه السلام في القرآن ثلاث مرات فحسب: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[1]، ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2]، وفي هاتين المرتين ورد الاسم (إلياس) ممنوعًا من الصرف للعجمة غير منون، أما في المرة الثالثة: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾[3] فقد ورد كما ترى لا مصروفًا مجرورًا بالكسر فحسب منونًا، بل ومع إشباع الكسرة قبل نون التنوين حتى تئول الكسرة في الرسم إلى الياء: إلياس + ي + ن. والعلة في هذا كما قال المفسرون[4]: هي مراعاة رءوس الآيات قبله، كما رأيت من قبل في الإبدال من سيناء (سينين).

والذي يستوقف النظر هو رسم المصحف لهذا الاسم في صورته الثالثة المزيدة بالياء والنون، فقد وقعت في الرسم مقطعة: إل ياسين، لا مجموعة: إلياسين، والرأي عندي أن هذا التقطيع مراد من الكاتب بتوقيف من النبي ﷺ، إشارة إلى أن الألف واللام البادئتين في هذا الاسم ليستا هما أداة التعريف العربية، وإنما هما اسم الله عز وجل (إل) العبرانية - والتي نطق بها العرب أيضًا على ما مر بك - كي لا يتوهم أن اسم (إلياس) من (اليأس) سهلت همزته، أو نحو ذلك. وهذا يدلك على علم النبوة بفقه تركيب هذا الاسم العبراني الذي لم يفت الصادق المصدوق ﷺ. أما (ياسين) المقطع الثاني في هذا الاسم الذي رسم مقطعًا في (إلياسين)، فالرأي عندي أيضًا أنه الياء والسين تنطقان كما تنطق الحروف المقطعة في بوادئ السور، ومنها يس في السورة المسماة بهذا الاسم وتنطق: يا + سين.

* * * *

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٩، ١٣٠.

(٤) راجع تفسير القرطبي لهاتين الآيتين من سورة الصافات.

هذا عندي هو الوجه الأمثل في تفسير مجيء إلياس على إلياسين في الآية ١٣٠ من سورة الصافات؛ قد روعيت رءوس الآيات بلا جدال، ولكن ليس ثم إضافة ولا تنوين.

* * * *

وقد فسر القرآن على منهجنا في هذا الكتاب الاسم (إلياس) بالمرادف، كما تستظهر من قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾[1].

ألا تجد في هذا الجناس البديع بين (إلياس) - الله ربي - وبين (الله ربكم) ما يفسر الاسم إلياس (الله ربي أو الله إلهي) أبين تفسير؟ نعم. وسبحان العليم الخبير.

* * * *

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٢٣ - ١٣٠.

(٤٦) اليسع

(اليسع) عليه السلام هو نبي الله المرسوم (إليشع) في أسفار العهد القديم إلى جوار إيليا (إلياس)، تلميذ إيليا وخلفه في النبوة.

وأصل (إليشع) العبرية هو إل + يشع، والمعنى: الله يسع، وهي نفسها إل + يسع، التي في القرآن (اليسع). فهو اسم أعجمي مفسر بالتعريب وحده، بل هو من أبين تفاسير القرآن علمه الأعجمي بالتعريب، ولم يفطن إليه أحد.

****

يجيء (الوسع)، (السعة)، في العربية بمعان تدور كلها على معنى واحد هو (الرحابة) ضد (الضيق)، ومنه الطريق الواسع أي العريض، والرزق الواسع أي الذي لا يضيق عن النفقة، ورجل موسَّع عليه، يعني غير مضيق، وذو السعة يعني ذو الوفرة والغنى، ولا يسعني هذا الأمر، يعني يضيق عنه جهدي وقدرتي، فالسعة أيضًا يعني الطاقة والقوة. إلى آخر ما تعرف من معاني هذه المادة ومجازاتها.

وقد بقي في العبرية من هذه المعاني معنيان اثنان: الغنى، والفرج بمعنى النصرة، أي التوسعة للمضيق عليه، والتفريج عن المكروب.

وللمادة العبرية من (وسع) العربي صورتان (شاع/ يِشُوع/ شُوع)، وهو مقلوب (وَسِع) العربي، و الصورة الثانية هي (يَشَعْ) على إبدال الواو من (وسع) العربي ياء كدأب العبرية والآرامية في كل الجذور العربية ذوات الواو.

ولكن عبرية التوراة لا تستخدم الجذر شاع/ يِشوع في صيغة فعلية، وإنما تقول منه على الصفة (شُوع) يعني الغني ذو الوفرة أو السخي الكريم، وتقول منه على الاسمية (شُوع) - بتثقيل الضم في الواو - يعني الغنى والثروة (أي السعة)، وتقول منه على الاسمية أيضًا (تُشُوعا) - أي التوسعة - بمعنى الفرج والنجاء.

أما الجذر العبري الآخر (يشع) فلا تستخدمه العبرية في صيغة الثلاثي المجرد، وإنما تستخدمه في صيغة (هفعيل) المعدى بالهاء - وهي صيغة (أفعل) العربي المعدى بالهمزة كما مر بك - بمعنى أَوْسَعَ له وفرّج عنه. وأيضًا في صيغة (نفعيل) - وهي صيغة المطاوعة في (انفعل) العربي - على المفعولية من (يشع)، والمعنى أُوسِع له وفُرِّج عنه على البناء للمجهول. وهذا يدلك على أن (يشع) العبري غير المستعمل كان في أصله فعلًا متعديًا بذاته، وإلا لما جاز منه (انفعل)، تمامًا كوسع العربي المتعدي بذاته، كما في قول الحق تبارك وتعالى متحدثًا عن نفسه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[(1)]، ولكن لأن (يشع) العبري أميت في ثلاثيه المجرد، فقد استخدم في موضعه (هوشيع) أي (هفعيل) المعدى بالهاء، فتظن أن (يشع) أصله لازم غير متعد (أي اتسع) والأصوب هو العكس. أعني الصحيح هو أن الجذر الثلاثي العبري - الممات في ثلاثيه المجرد - كان قبل مواته فعلًا متعديًا بذاته، فيكون معنى إل - يِشَع، الله يسع، يراد من هذا كما مر بك اسم الفاعل، بمعنى (الله ناصر)، (الله موسع)، (الله مفرج)، (الله معين).

أما تركيب هذا الاسم المزجى، فهو فيما نقول نحن، إل - ييشع، (إل) اسم الله في العبرية، (ييشع) قياس المضارعة من الجذر الثلاثي الممات (يشع)، وهو (وسع) العربي.

ولكن علماء التوراة يقولون إن التركيب المزجى لاسم (إليشع) هو (إلي - يِشَاع)، حيث (إلي) = (إلهي)، (يشاع) = سعة، مصدرًا من الجذر الممات (يشع)، ويكون المعنى إلهي نصرة، إلهي فرج، إلهي عون، ولا فرق في المعنى بين هذا وبين الذي قلناه، بل يؤكد أن (يشع) أصله متعد لا لازم، لأن المصدر منه، الباقي في العبرية إلى الآن (النصرة، السعة، الفرج، العون) يفيد التعدي قطعًا ولا يفيد اللزوم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

ولئن كان النطق والمعنى على القولين واحدًا، فإن ما نقوله نحن أصوب وأوجه، لأن قول علماء التوراة مفتعل، فلا أحد يصف الله عز وجل بصفة فيه ويقول (إلهي) كذا وكذا، مثل إلهي رحيم، إلهي رحمان، إلهي واسع، وكأن (إلهه) ليس (إله) كل الناس، وإنما يقول الله رحيم، الله رحمان، الله واسع. لا يصح أن يقال (إلهي) إلا على الخطاب من العبد لربه في الدعاء والمناجاة.

أما الذي صد علماء التوراة عن القول الذي به نقول، فهو أن الجذر (يشع) ممات في ثلاثيه المجرد كما مر بك، فلا يصح أن يستخدم المضارع منه: إل - يِيشع. وليس هذا بحجة في الأسماء الأعلام بالذات، التي تستحيي الممات في اللغة غير ناظرة إلى توقف جريانه على ألسنة الناس، فكم من اسم علم استبقى تراكيب أميتت في الاستعمال. من ذلك في العبرية نفسها الاسم العلم (عُمْرِي) - اسم ملك من ملوك إسرائيل[1] - والجذر منه (عَمَر) ممات في ثلاثيه مثل (يشع) سواء بسواء.

وقد تلبثت معك قليلًا عند معاني هذا الجذر العبري (يشع) - وربما أثقلت عليك بعض الشيء بمواضعات النحاة - رغم أنهما علمان اثنان فقط يدخل في تركيبهما هذا الجذر (يشع)، من بين واحد وستين اسمًا تتناولها مباحث هذا الكتاب، وما ذاك إلا لأن العلم الثاني - غير (إليشع) - هو علم المسيحية الأكبر عيسى عليه السلام الذي لنا في تفسيره مذهب نخالف به علماء المسيحية الذين فسروه من قديم بمعنى (المخلص) على الفاعلية من (خلص) ونفسره نحن على ما يأتي إن شاء الله في موضعه باسم المفعول، فهو (المخَلَّص) الناجي.



(١) مختصر (عمريًّا) أي (خادَمه) يعني (خادم الله)، من (عَمَرْ) العبري الممات ثلاثيه بمعنى كان له خادمًا أو (سادنًا) والباقي منه في عبرية التوراة صيغة استفعل أي (هِتْعمرِ) أي عامله معاملة الخادم، يعني امتهنه أو تخدمه. والرأي عندي أن (عُمَر)، (عمرو) في العربية من هذا لا من طول البقاء، ومنه قوله عز وجل فيما أرى: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] أي أنشأكم من الأرض واستخدمكم فيها.

أما أدعياء الاستشراق الذين قد علمت، فقد عابوا على القرآن قراءة (اليسع) في المصحف بهمزة مفتوحة مختلسة عل الألف البادئة - عكس ما فعل في (إلياس) الذي راعى فيه إثبات الهمزة المكسورة تحت الألف البادئة لا يجوز اختلاسها في الوصل فتقول (إن إلياس)، ولا تنطقها قط (إنَّلياس) - على ما مر بك من الحكمة في رسمها مرة (إل ياسين) مقطعة. فقد وهم القرآن في زعمهم[1] أن الألف واللام في (اليسع) هما أداة التعريف وليستا (إل) اسم الله عز وجل في العبرية.

وتبتسم معي إشفاقًا: أفقد سلمتم للقرآن بالفقه في اللغة العبرية حتى استطاع أن يحلل اسم (إلياس) إلى عنصريه، فيفرد (إل) بالرسم مقطعة منعًا لظنها أداة التعريف مضافة إلى (ياس) في اسم (إلياس)؟ فكيف يفطن إلى (إل) في إلياس وتنبهم عليه في (اليسع)؟ ألعل الذين لقنوه (إلياس) فسروه له، ولم يفسروا له (اليسع) حين أسمعوه إياه؟ أم أن تركيب هذا الاسم (إليشع) انبهم أيضًا على من لقنوه إياه؟

لا هذا ولا ذاك بالطبع، ولكن القرآن الأفقه بالعبرية من أهلها يعلم من دقائق العربية ما يخفى على هؤلاء المتطفلين الأدعياء: الاسم المزجى (إل+ياس) يشكل بذاته جملة اسمية تامة بشطريها، المبتدأ والخبر، في أصل تركيبها العبري، بينهما ضمير الملك للمتكلم المفرد: إل+ي+ياهو، يعني: إلهي هو، أي: هو إلهي. والمبتدأ في هذه الجملة الاسمية التامة، مضاف إلى مضاف إليه: إل مضاف إلى ضمير المِلْك للمتكلم المفرد وهو الياء (في العربية والعبرية سواء) ولا تجوز قط أداة التعريف في ضمائر الوصل (الياء والكاف وما جرى مجراهما) ولا ضمائر الفصل (أنا وأنت وما جرى مجراهما). أيضًا الاسم المزجى إل+يسع (إل+ييشع) العبري يشكل بذاته جملة اسمية تامة: الله يسع، ليس بينهما ضمير ملك، والانفصال بينهما واقع ظاهر، يجليه نطقك (إل) وكأنها أداة تعريف، يليها فعل عبري مضارع يراد منه اسم الفاعل، أي الواسع الموسع (والواسع من أسماء الله الحسنى) ودل القرآن بهذا النطق على أن الشطر الفعلي من الاسم المزجى (اليسع)، يراد منه الاسم

(١) انظر: *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص١٣.

لا الفعل. على أن إضافة أداة التعريف إلى صيغة الفعل المضارع صحيح في العربية: تقول منه (اليؤكل) على سبيل المثال تريد (الذي يؤكل) أي الصالح للأكل (*edible* الإنجليزية وكل مختوم بأحد المقطعين *able* – و*ible* – في اللغات الأوربية الحديثة)، لأن (الـ) هنا بمعنى الذي عند علماء العربية. وقد مر بك في بعض حواشي هذا الكتاب ترجيحنا تفسير اسم الجلالة (الله) بأنه من (الـ + هو) أي الذي هو، وأنه في ترجيحنا الأصل الذي جاءت منه (إل)، (يهوا) اسمين لله عز وجل في التوراة. فلا يبعد أن يكون مرادًا من الألف واللام كأداة تعريف في اسم (اليسع) المعرب عن (اليشع) العبري، هو اسم الله عز وجل.

على أننا لا نتوقف عند هذا، وإنما نذكر هؤلاء الأدعياء بأن (اليسع)، شأنه شأن (إلياس) إنما جاءا في العربية التي نزل بها القرآن، لا على أصلهما، وإنما معربين على أوزان العربية، شأن التعريب الجيد لا الببغائي، ولا يصح تعريب في (اليسع) إلا بنطق الألف واللام فيه كما تنطق أداة التعريف العربية. إن فعلت غير هذا – وأرجو منك أن تحاول – كسرت الوزن.

وردت (اليسع) – تعريبًا لاسم نبي الله (إليشع) عليه السلام – مرتين اثنتين فقط في القرآن، الأولى التي في سورة الأنعام في جملة لفيف من أنبياء الله ورسله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، والثانية في قوله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[2]، وليس في أي من المرتين كما ترى تفسير لمعنى هذا الاسم العلم العبراني (اليسع).

(اليسع) إذن مفسرة في القرآن بالتعريب وحده. إنه (إل + يسع)، يعني (إيل يسع)، أي (الله يسع)، واسع عليم سبحانه.



(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٦.

(٢) سورة ص، الآيات: ٤٥ – ٤٨.

(٤٧) ذو الكفل

(ذو الكفل) عليه السلام نبي من أنبياء الله عز وجل المسمين في القرآن بالاسم. ورد اسمه في القرآن مرتين فحسب، أولاهما التي في سورة الأنبياء مجموعًا إلى إسماعيل وإدريس عليهما السلام: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]، والثانية التي في سورة ص، مجموعًا إلى إسماعيل واليسع عليهما السلام: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[2].

ولفظ (ذي الكفل) كما ترى عربي قح، ليس فيه شبهة عجمة.

على أن (ذا الكفل) لم يكن رجلًا عربيًّا يتكلم العربية التي نزل بها القرآن. ولم يكن (ذو الكفل) بهذا اللفظ العربي هو الاسم الذي سماه به أبوه. وإنما (ذو الكفل) اسم جاء به القرآن على الترجمة، بديلًا من اسمه العبراني في (توراة الأنبياء والكتبة)، أي في العهد القديم، شأن القرآن المعجز في العدول عن التعريب إلى الترجمة حين يسيء التعريب إلى المعنى أو يفسد الجرس. وقد اجتمعت هاتان العلتان في اسم (ذي الكفل) على أصله العبري، فوجبت الترجمة، كما سترى.



تكلم المفسرون في (ذي الكفل) - تفسير القرطبي للآية ٨٥ من سورة الأنبياء - فلم يتوقفوا عند تفسير معناه لأنه اسم عربي ظاهر العربية، لا يحتاج إلى تفسير. ولكن لفيفًا منهم أنكر نبوة ذي الكفل: قالوا هو رجل صالح من بني إسرائيل. وساقوا في هذا أحاديث،

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة ص، الآية: ٤٨.

حملوها على (ذي الكفل) المسمى في القرآن. وهي تدور على رجل لم يكن يتورع عن ذنب، جاء امرأة أعطاها ستين دينارًا على أن تمكنه من نفسها فقبلت، فلما هم بها بكت. قال: هل أكرهتك؟ قالت: لا، إلا أنني والله ما فعلت هذا من قبل ولكنها الحاجة ألجأتني. قال: أنا بهذا أولى. فعف عنها وترك لها المال. فأماته الله من ليلته. وأصبح الناس، فوجدوا مكتوبًا على بابه: قد غفر لذي الكفل.

وهذه الأحاديث وأمثالها - وإن صحت - لا يصح حملها على (ذي الكفل) المسمى في القرآن، لأن الرجل المجعول له هذا الحديث - إن صح - الذي عاش حياته لا يتورع عن ذنب، ثم كف نفسه عن الزنا بامرأة سعى إليها بماله وعف عنها أريحية وسخاء نفس، لم تعفّه تقوى الله عز وجل، فأماته الله على صالحته مغفور الذنب، مثل هذا الرجل مهما أطنبت في حسن صنيعه لا يصح أن يذكر في القرآن بالاسم، ناهيك بأن يذكر في القرآن مجموعًا إلى لفيف من النبيين صلوات الله عليهم، فالقرآن لا يخلط الأنبياء بغيرهم، لا ملك ولا ولي ولا صديق، فما بالك بداخل في عفو الله عز وجل، أميت على صالحته؟

أما أن (ذا الكفل) ورد في القرآن مجموعًا إلى أنبياء لا تشك قط في نبوتهم، فيكفيك أنه جاء مجموعًا إلى إسماعيل واليسع في الآية ٤٨ من سورة ص التي تلوت توًّا. وقد جاء ذكر إسماعيل واليسع في طائفة من الأنبياء ختم الله الحديث عنهم بقوله عز وجل فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

(ذو الكفل) عليه السلام نبي بصريح القرآن إن تمعنت. ولا يصح مع صريح القرآن تفسير - أيًّا كان قائله - يخالف صريح القرآن. ولا يصح لمسلم في الأخبار عن النبي ﷺ قبول حديث - أيًّا كان رواته - يخالف صريح القرآن لا مجال لصرفه عن معناه. هذا أصل نفيس، لو عض المفسرون عليه بالنواجذ لخلص عملهم الجليل من شائبة دكناء كالهنة في الثوب الأبيض.

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٩، ٩٠.

أما المستشرقون المنكرون الوحي على القرآن[1] فقد توقفوا في (ذي الكفل) لا يدرون عمن يتحدث محمد (ﷺ) وكأن ليس له عندهم سميّ في (توراة الأنبياء والكتبة)، فقالوا: إن لفظ (ذي الكفل) العربي يحتمل عدة معانٍ لا يستطاع القطع بأيها المعنى.

وكان هذا أيضًا هو موقف الأحبار من أهل الكتاب الذين يتكئ عليهم المفسرون وأصحاب السير، فقد تكتموا علم ما علمهم الله، لا يروى عنهم قول في (ذي الكفل) الذي سماه القرآن، من يكون في أنبياء بني إسرائيل وصلحائهم.

وأما لماذا يتعين أن يكون (ذو الكفل) من بني إسرائيل لا من غيرهم، فقد علمت من القرآن في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2] إن النبوة من بعد إبراهيم[3] محصورة في نسله لا تخرج عنهم إلى غيرهم حتى خاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين. ولو كان (ذو الكفل) من بني إسماعيل شأنه شأن محمد ﷺ لا من بني إسحاق ويعقوب لتوقعت من القرآن أن يشير إليه، ولكن القرآن ينص على عكسه، لاختصاصه محمدًا ﷺ بلقب النبي الأمي في مثل قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾[4]، يصف النبي الذي يتعين على أهل الكتاب الإيمان به حين يُهِلّ زمانه بأنه (أمي)، والأمي عند اليهود ليس هو كما تظن، الذي يجهل القراءة والكتابة، وإنما هو (الذي من الأمم)، أي ليس منهم وإنما من الأمم الذين من حولهم، فهو كل أجنبي عنهم. واللفظة العبرية هي (جُوِي)، مفرد (جُوِيم)، وأيضًا (أمي)، (أُمِيِّم)، أي هو النبي الذي من غير اليهود. وقد كان الخطاب بهذه الآية لموسى في أعقاب فتنة العجل: ﴿قَالَ عَذَابِيَ أُصِيبُ

(١) راجع: *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص٣٣ - ٣٤.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٦.

(٣) الأنبياء المسمون في القرآن من ذرية نوح لا من ذرية إبراهيم هم: إبراهيم نفسه ولوط ابن أخيه، وقبلهما صالح وهود. أما شعيب فهو بعد إبراهيم ولوط بنص القرآن كما مر بك.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]. وقد وصى بها موسى قومه في التوراة التي بين يديك: (يقيم لك الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مثلي، له تسمعون!)[2]. والمخاطب بقوله: (يقيم لك الرب إلهك) على المفرد المذكر، إسرائيل، مرادًا منه (بنو إسرائيل)، والترجمة العربية (من وسطك) مضللة، لأنها في الأصل العبراني: (مِقَّرْبِخَا) يعني لا (من وسطك) وإنما من (صميمتك)، والذي من صميمة إسرائيل من إخوته هم بنو إسماعيل لا (بني إسرائيل) بالطبع، وقد خفيت هذه على المسلمين الذين جادلوا أهل الكتاب بها. ووصى بها عيسى أيضًا أهل الإنجيل في الأناجيل التي بين يديك: (إن لي أمورًا كثيرة لأقولها لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية)[3]. وروح الحق بالعبرية التي تكلم بها المسيح هي (روح إمت) في الترجمة العبرية لهذه الأناجيل، و(إمت) عبريًّا مصدر من الجذر العبري (أَمَن)، فهو الأمانة على معنى قول الحق، والأمين لقبه ﷺ في الجاهلية، لا يقول إلا حقًّا. أما علماء النصارى فقد قالوا من بعد إن المعنيَّ بروح الحق هو (الروح القدس)، يعنون جبريل صلوات الله عليه، وليس بشيء، لأن جبريل عندهم إله، ثالث الثلاثة في مثلث التثليث، فلا يصح ولا يليق أن يقال فيه (لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به) شأن النبي يوحى إليه، موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم في هذا سواء، ولكنك لا تهدي من أحببت.

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.

(٢) تثنية ١٨/ ١٥.

(٣) يوحنا ١٦/ ١٢ - ١٣.

والذي يجب أن تعلمه هو أن (الأمي)، (الأميين)، من مستحدثات القرآن، لا علم بهما للعرب قبل القرآن، ولا شاهد لهما في كلام العرب من دونه. وهو نسبة إلى الأمة لا إلى الأم. وقيل (أمي) ولم يُقَل (أممي) لأن العربية - أعني عربية القرآن - لا تنسِب، أي لا تضيف ياء النسب إلى اللفظ في صورة الجمع وإن كان المراد هو النسبة إلى الجمع، وإنما تعيد اللفظ الجمع إلى صورته في المفرد ثم تنسب إليه، كما نقول نحن الآن (دَوْلي) ولا نقول (دِوَلي) على الجمع من (دَوْلة)، وإن كان مقصود النسب هو النسبة إلى مجموع الدول لا إلى (الدولة). ولكن مفسري القرآن، وتابعهم علماء العربية، فسروا الأمي والأميين في القرآن بأنه نسبة إلى (الأم) لا إلى (الأمة)، يريدون الذين هم على حال (أمِّهم) في جهالة الفطرة. واستنبطوا من هذا أن (الأمي) هو العييُّ الجافي، الجاهل، الذي لا يقرأ ولا يكتب. فسروها بهذا على التخمين، لا على التأصيل، فليس لهذا التفسير أصل في العربية يرد إليه، والنسبة إلى الأم لا تقتضي هذا الذي قالوه، والذي لم يسمع من العرب قبل القرآن.

أما أن العرب عند اليهود (أميون) فهذا لا خلاف عليه، لا لأن العرب أمة أمية، لا يقرءون ولا يكتبون، وإنما لأنهم (جُوِيم)، (أُمِيِّم)، أي من الأمم، لا من بني إسرائيل. وقد ورد في توراة الأنبياء والكتبة - وهذا جديد لم تقرأه من قبل - في التنديد ببني إسرائيل على ألسنة أنبيائهم، ما يلي: (لأن الرب قد سكب عليكم روح سبات وأغمض عيونكم. الأنبياء والرؤساء الناظرون غطاهم. وصارت لكم رؤيا الكل مثل كلام السفر المختوم الذي يدفعونه لعارف الكتابة قائلين اقرأ هذا فيقول لا أستطيع لأنه مختوم. أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة)[1]. ربما تجد في هذا - وأنت محق بالطبع - إشارة إلى المعني بها ليلة القدر في غار حراء، جبريل ومحمد صلوات الله وسلامه على ملائكته وأنبيائه، يقول له اقرأ، فيقول: ما أنا بقارئ. ولكن الذي يعنينا في هذا السياق هو أن العبرية لا تعرف لفظة (الأمي) بمعنى الذي يجهل القراءة والكتابة، وإنما تقول: (أشِير لُو يُدِيعَ هَسِّفِر) أي الذي لا يعرف السِّفْر، يعني لا يعرف الكتابة. أما العبرية المعاصرة التي تستعير

(١) إشعياء: ٢٩/ ٩ - ١٣.

أحيانًا من العربية فلم تستعر منها لفظة (الأمي) بمعنى الذي لا يعرف القراءة والكتابة، وإنما قالت في الذي لا يقرأ ولا يكتب (بور) يعني (الجاهل)، من (البوار) عربيًّا أي الأرض التي تُخَلَّى فتبور. وهي لم تستعر (الأمي) من العربية خشية اختلاطها في العبرية بمعنى الأجنبي الغريب الذي ليس من اليهود.

وأما لماذا (خمن) المفسرون - وتابعهم عليها علماء العربية من بعد - أن (الأمي) يعني الذي لا يعرف القراءة والكتابة، فهو علمهم القاطع الذي لا خلاف عليه أنه ﷺ لم يكن قبل نزول القرآن عليه يعرف القراءة والكتابة، لا بدلالة قوله في غار حراء لجبريل: «**ما أنا بقارئ!**»، ليس لهذا فحسب، وإنما لقوله عز وجل مخاطبًا نبيه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1]، وكانت هذه من آيات نبوته ﷺ وحجة له على من ادعوا عليه القراءة في الكتب السابقة والاستنساخ منها. ولكن ليس فيها دليل على أن وصفه ﷺ بالنبي (الأمي) من هذا، أي لعدم معرفته القراءة والكتابة. أما الحديث المروي عنه ﷺ: «**نحن أمة أمية، لا نقرأ ولا نحسب**»! ففيه نظر، لا من جهة رواته بالذات، وإنما من جهة المتن، أي من جهة دلالته ومعناه، لأنه يخالف الواقع.

لا يصح أن يقال إن (العرب) سموا أميين: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[2] لأنهم على حال أمهم من جهالة الفطرة لا يقرءون ولا يكتبون، فقد قرأ العرب وكتبوا، دليلك في هذا تلك الصحيفة التي علقها كفار قريش حين قطعوا ما بينهم وبين بني هاشم، ودليلك فيه أيضًا أن النبي ﷺ أَمْلى هذا القرآن إملاء على نفر من الكتبة العرب فكتبوه بالخط العربي لا بالخط العبراني، بل ودليلك فيه كذلك من القرآن نفسه، أعني من تلك الآية في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[3] التي تفيد أن في العرب قارئين كاتبين لست منهم.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

ولا يصح أن يقال أيضًا إن العرب سموا (أميين) على معنى الجهل بالقراءة والكتابة، تسمية بالمجمَّل، لأن معرفة القراءة والكتابة لم تكن فاشية فيهم فشوها في الشعوب من حولهم: الواقع أن (فشو) العلم بالقراءة والكتابة لم يكن من سمات العالم القديم عصر نزول القرآن، بل إن شيوع (الأمية) في أهل البوادي والنجوع قد كان - ولا يزال إلى حد كبير في أيامنا هذه - هو القاعدة، آفة لا يسلم منها بدرجة أو بأخرى إلا أهل المدن، ولم تكن مكة، ولا يثرب، بادية أو نجعًا، حتى يقال في أهلها (أميون) بهذا المعنى، أو حتى تلتصق هذه الصفة بالعرب فتكون علمًا عليهم من دون شعوب الأرض، تطلق فلا يفهم منها غيرهم.

الصحيح أن اليهود هم الذين أسموا العرب - كما أسموا غيرهم ممن ليسوا من أنفسهم - أميين، أي الذين من (الأمم) على معنى الأجنبي، لا على معنى الذي يجهل القراءة والكتابة. والذي ينبغي أن تتوقف عنده أن القرآن لا يستخدم لفظة (الأميين)، وقد وردت في القرآن أربع مرات فحسب، إلا في سياق حديث مع أهل الكتاب أو عن أهل الكتاب، على المغايرة منهم[1]، وهو أيضًا لا يستخدم لفظة (الأمي)، وقد وردت في كل القرآن مرتين فحسب في آيتين متتابعتين من سورة الأعراف (١٥٧ و١٥٨) نعتًا للنبي ﷺ في خطاب لأهل الكتاب يراد منه النبي الذي ليس منكم، أي ليس من بني إسرائيل، إلا في هذا المعنى وحده.

على أنك لا تحتاج مع القرآن إلى قول لقائل. فقد حدد القرآن بأجلى بيان مقصوده من لفظ (الأميين) في قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾[2]، أي نستبيح في غيرنا ما هو محرم علينا. وليس المعنى بالطبع (نستغفلهم لأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة) وإنما المعنى لا حرج علينا في أكل أموالهم بالباطل لأنهم من (الأمم)، ليسوا منا. وهذا من عقائد اليهود الثابتة في التوراة التي بين يديك: لا حرمة لأجنبي عندهم.

---

(١) راجع الآيات: البقرة ٧٨، آل عمران ٢٠ و٧٥، الجمعة ٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

ها قد علمت أن (الأمي) في ألفاظ القرآن هو الذي ليس من بني إسرائيل، لا الذي يجهل، أو العيي الجافي، أو من لا يعرف القراءة والكتابة. هذا شائن، لا يصح في حق أفصح الناس وأرقهم حاشية بإطلاق، الذي علمه الله فهو أعلم الناس.

ولكن لا بأس بهذا الخطأ الشائع، الذي أكسب اللغة العربية لفظًا جديدًا يغني بذاته عن جملة طويلة (الأمي = الذي يجهل القراءة والكتابة). فقط عليك أن تحترز من أن تفهم من هذا اللفظ المحدث ما فهمه المفسرون الأوائل في نعت الصادق المصدوق ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

****

ولأن محمدًا ﷺ هو النبي الوحيد المنحدر من صلب إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، ولأن الأنبياء جميعًا من بعد إبراهيم كلهم من نسل إبراهيم، فلم يبق لك في نسب نبي الله ذي الكفل إلا أن تأخذ بأحد خيارات ثلاثة:

١- إما أن ذا الكفل نبي سابق على إبراهيم نفسه، عاش ما بين آدم إلى نوح شأن إدريس عليه السلام، أو ما بين نوح وإبراهيم شأن هود وصالح على ما مر بك في تضاعيف هذا الكتاب.

٢- وإما أنه نبي من بني إبراهيم خلاف إسماعيل من غير بني إسرائيل، شأنه شأن شعيب عليه السلام (حمى موسى على ما يرجح المفسرون ونحن معهم).

٣- وإما أنه نبي من بني يعقوب، أي من بني إسرائيل.

والذي نرجحه نحن من هذه الخيارات الثلاثة ونأخذ به، هو الخيار الثالث، أي أن (ذا الكفل) نبي من أنبياء بني إسرائيل، لا لوروده في القرآن بعد اليسع خلف إلياس، في إحدى

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

الآيتين المذكور اسمه فيهما: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾[1]، فقد ورد في الآية الأخرى بعد إدريس: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾[2]، بل لا يراعي القرآن دائمًا الترتيب الزمني في سرده أسماء الأنبياء، ولا بدلالة دخوله في زمرة الأخيار إبراهيم وإسحاق ويعقوب في قوله عز وجل عنهم: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾[3] التي يفهم منها للوهلة الأولى إلحاق هؤلاء الأخيار بأولئك، فقد ترى أنت أن هذا دليل على أن نبي الله ذا الكفل من بني إبراهيم فحسب لا عبر يعقوب (إسرائيل) بالضرورة. ولكن الدليل عندي على أن (ذا الكفل) من أنبياء بني إسرائيل هو اسمه هذا الذي سمي به في القرآن على الترجمة: ذو الكفل، ومعناه بالعبرية هو (حِلْقيّا)، وهو علم جار في أعلام العهد القديم، أشهر من تسموا به اثنان: والد إرميا النبي، واسمه إرميا بن حلقيا، والثاني هو (حلقيا) الكاهن على عصر يوشيا ملك يهوذا، الذي عثر أثناء ترميم الهيكل في عهد ذلك الملك على سفر شريعة الرب (أي توراة موسى) بخط موسى نفسه[4] والملقب في العهد القديم بلقب (الكاهن العظيم).

والذي أرجحه أنا - والله أعلم بغيبه - أن ذا الكفل المعنيّ في القرآن هو هذا (الكاهن العظيم) حلقيًّا، لا يقدح في هذا قولهم كاهن لا نبي. فالعهد القديم يخلط بين النبي والكاهن والرائي، دليلك في هذا من العهد القديم نفسه: (كلام إرميا بن حلقيا من الكهنة الذين في عناثوث في أرض بنيامين)[5] الذي تفهم منه أن إرميا كاهن من الكهنة، بينما إرميا عند اليهود نبي بإجماع.

أما لماذا لم يفطن المفسرون إلى (حلقيا) هذا سميّ ذي الكفل العبراني، فهذا بادئ بدء لأن رواتهم من أهل الكتاب تكتموه عليهم. وثانيًا - وهو الأهم - لأن المفسرين الأوائل حتى وإن علموا بوجود (حلقيا) في العهد القديم ما كان لهم أن يعلموا معناه في لغته ليطابقوه

(١) سورة ص، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٥.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٤٧، ٤٨.
(٤) راجع في هذا الإصحاح ٢٢ من سفر الملوك الثاني، والإصحاح ٣٤ من سفر أخبار الأيام الثاني.
(٥) إرميا ١/ ١.

على (ذي الكفل) سميه في القرآن، فما كانوا يعلمون من عبرية التوراة القدر الكافي لتحليل معاني أعلامها.

****

أما (حلقيا)، ذلك الاسم العبراني، فهو اسم مزجي: حلقي + يا، من الجذر العبري (حَلَق) بالحاء غير المنقوطة، مكافئ (خلق) العربي بالخاء المنقوطة من فوق، ومن معانيه في العبرية والعربية معًا، (الخلاق) بتخفيف اللام، أي الكفل والحظ والنصيب والقسم بمعنى القسمة، كما تجد في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[١] أي لا نصيب لهم ولا حظ في نعيم الآخرة. أي لا كفل لهم من هذا النعيم ولا (يقسم) لهم منه شيء. وأصل هذا الاسم (حلقياهو)، ثم اختصر إلى (حلقيا)، كما اختصر (إلياهو) إلى (إيليا)، ومعنى (حلقياهو) على أصلها المزجي هو (خلاقه) أي خلاق الله، يعني قسمه الذي قسم، فهو خلاق منه عز وجل، أي كفل منّ به، والمسمى به (ذو كفل) أي المعطى كفلًا.

هذه هي ترجمة القرآن المعجز للاسم العبراني (حلقيا): لا أجمل ولا أدق ولا أبين.

أما لماذا عدل القرآن عن تعريب هذا الاسم إلى ترجمته، فلأنه إن تركه على أصله العبري بالحاء غير المنقوطة التبس معناه عند القارئ العربي بمعاني الجذر العربي (حلق) غير المرادة من التسمية، ولو عدل به عن الحاء إلى الخاء على جهة التعريب المفسر للمعنى، لانبهم على القارئ العربي المراد منه، أهو (الخلق) أم (الخُلُق)، أم (الخلاق)، وأبعدها عن الذهن هو هذا الأخير رغم أنه وحده المراد.

ولكن للقرآن سببًا آخر أوجب العدول عن تعريب (حلقيا) إلى ترجمته، هو عندي السبب الأوجه والأقوى، وهو الجرس القرآني. قارن أنت واحكم بنفسك: أي اللفظين أليق بجرس القرآن، (حلقيا) أم (ذو الكفل)؟ وسبحان العليم الخبير.

****

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

(٤٨) يونس

(يونس) في القرآن، اسم نبي الله يونس بن مَتَّى عليه السلام، هي تعريب (يونا) العبرية في العهد القديم، التي شهرت بيونانيتها في أصول الأناجيل *(Ionas)* (يوناس) - مضافًا إليها سين الرفع اليونانية) وجاءت في ترجمات الأناجيل العربية (يونان) - بإضافة نون المنصوب في اليونانية أيضًا - ولكنها شهرت عند العرب بصورتها السريانية المأخوذة عن اليونانية (يونِس) بكسر النون، فعربها القرآن على ما شهرت به عند العرب، ولكن بضم النون، منعًا لشبهة فهمها من الأنس والإيناس، إن تركها على وزن (يُفْعَل) اليوناني، أو على وزن (يُفْعِل) السرياني. وقد مر بك هذا في تحليلنا اسم نبي الله يوسف عليه السلام، فارجع إليه.

وقصة يونس عليه السلام ترد في (العهد القديم)، أي (توراة الأنبياء والكتبة) في سفر مستقل معنون باسمه. ولأنك لا تجد ترجمة عربية لهذا العهد القديم في مجلد قائم برأسه أشرف عليها اليهود أنفسهم، وإنما تجد الترجمة العربية للعهد القديم مجموعة في مجلد واحد مع (العهد الجديد) في ترجمة عربية أشرف عليها المسيحيون العرب، فستجد سفر يونس هذا في ترجمته العربية المنقولة عن العبرية معنونًا - كما يجب أن تتوقع - لا باسم سفر يونس كما هو لفظه العربي، ولا باسم سفر يونا على أصله العبري، وإنما تجده معنونًا باسم (سفر يونان) على ما شاع به اسم هذا النبي عند المسيحيين العرب: (يونان). وبهذا الاسم (يونان) ستجيء الإشارة إلى مقتبساتنا من هذا السفر عند الضرورة.

والذي ينبغي التنبيه إليه في هذا السياق، هو فضل المسيحية الضخم على ديانة اليهود: لولا إيمان المسيحيين بهذا (الوحي) الذي في توراة الأنبياء والكتبة، واعتبارهم المسيح عليه السلام مكملًا ومتممًا لهذا (الناموس) الذي يمثله العهد القديم، ولولا حاجتهم إلى

استقصاء ما في العهد القديم من (بشارات) بمقدم المسيح وأوصافه وصفاته وإعجاز مولده إعمالًا لوصيته في الأناجيل: (فتشوا الكتب وهي تشهد لي)، بل قل اختصارًا لو لا اتكاء العهد الجديد على العهد القديم، لما قامت المسيحية بهذا الجهد الضخم في دراسة أسفار توراة الأنبياء والكتبة، وترجمتها، ونشرها في بقاع الأرض بكل اللغات، ولو ترك الأمر لليهود أنفسهم لما ضربوا فيه بسهم، لا لكسل فيهم، وإنما لأنهم (يضنون بالخير على غير أهله) في وهمهم، أي على العالم كله من دونهم، لأنهم وحدهم (شعب الله) لا حاجة به إلى غيرهم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وأنت بالطبع تحمد للمسيحية فضلها في خدمة أسفار اليهود، بحثًا وترجمة ونشرًا، إذ لولا المسيحية لبقيت تلك الأسفار حبيسة خزائنهم. ولكنك تحترز وأنت تقرأ أسفار اليهود في غير أصلها العبراني من شبهة تطويع الأصل لهوى المترجم في كل نص يراد منه الاستشهاد للمسيح أو لعقيدة التثليث، مثلما تحترز كل الاحتراز من شبهة (التشيع) في تفاسير القرآن والحديث. تحترز من المغالاة هنا وهناك، لأن المغالاة إسفاف، والإسفاف منزلق إلى الإثم الكبير.

* * * *

قال ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى». وهذا من تواضعه ﷺ، فقد قال الله عز وجل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1]، أي فضلنا كلاً بمأثرة. وقال في خاتم النبيين: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[2]، وقال فيه عز وجل أيضًا: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾[3]. حسبك أنه خاتم النبيين ﷺ، الذي ختمت به النبوة والرسالة، والذي يختم به هو الأعلى لا الأدنى، ولكنك تفهم أيضًا من هذا الحديث - فوق دلالته على تواضعه صلوات الله عليه - أن الأنبياء

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٧.

جميعًا سواء في (فضل النبوة) لوحدة الرسالة والقصد، ووحدة المُرسل جل وعلا. وتلمح في هذا الحديث أيضًا صدى قوله عز وجل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[1].

ولكن الله عز وجل يقول لخاتم النبيين: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2]، أي لا تكن أنت كصاحب الحوت ذي النون - والنون في العربية يعني الحوت - يونس بن متى عليه السلام الذي لم يصبر لحكم ربه فالتقمه الحوت وهو مليم - والمليم هو الذي أتى ما يلام عليه - حين ذهب مغاضبًا، أي هجر وتباعد: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]. وهو أيضًا يونس في قوله عز وجل لموسى وقد ولى مدبرًا ولم يعقب حين ألقى عصاه عن أمر الله فرآها تهتز كأنها جان: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[4]، أي يا موسى أنت معي آمن، فلا يخاف في حضرتي أنبيائي. ولكنه عز وجل علم أنه سيكون من يونس ما كان، أي سيفر يونس من وجهه عز وجل لا إليه سبحانه، فكان يونس بهذه (المغاضبة) ظالمًا مليمًا، أتى ما يلام عليه، ومن معاني الظلم في العربية أن تكون غير محق، تضع الشيء في غير موضعه، فلا يفر من وجه الله إلا ظالم، فما بالك بنبي وضع الله عز وجل عليه كنفه، أفيفر من كنف الله أحد؟ استثنى الله عز وجل من أنبيائه الذين لا يخافون في حضرته يونس الذي ظلم: ذكر ملامته، وذكر توبته، وعقب بمغفرته ورحمته، ولم يولد بعدُ يونس. فسبحان الذي ما فرط في الكتاب من شيء، الذي أحكم في القرآن كل قول قاله.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.
(٢) سورة القلم، الآيات: ٤٨ - ٥٠.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٤) سورة النمل، الآيتان: ١٠، ١١.

ولكن مفسري القرآن[1] تهيبوا القول بأن يكون في رسل الله من ظلم، فقال بعضهم إن الاستثناء بالذي ظلم استثناء منقطع، يعني إلا الذين ظلموا من عباده غير الأنبياء. وهذا ضعيف لا يتعمق معنى الآية، لأن خشية الله عز وجل وِقر واقر في قلب كل مؤمن، نبي وغير نبي، والنبي بهذا أقمن وأجدر، فلا يخشى الله حق خشيته إلا عالم، ولا عالم كنبي، وليس هذا هو الذي لام الله عليه موسى، ولكنه ليم لأنه وهو في كنف الله عز وجل خشي على نفسه من ثعبان فولى مدبرًا ولم يعقب، ونسي أنه في حضرته عز وجل آمن مؤمَّن، فذكره الله بها، فالمستثنى منه إذن في الآية هم الأنبياء حال كونهم في حضرته عز وجل، لا في عموم شأنهم وأحوالهم، والمستثنى هو يونس لأنه (غاضب) ففر من وجه الله عز وجل ولم يفر إليه سبحانه. أما الآخرون فقالوا إن الاستثناء لا شك متصل، أي أن من الأنبياء من ظلم، ولكنهم لم يخصوا بها يونس، وإنما عمموها في هفوات الأنبياء صلوات الله عليهم، من مثل غفلة آدم الذي نسي فأكل مما نهي عنه، وفتنة داود حين وقعت في قلبه امرأة صاحب جنده فأراده على تطليقها ليتزوج هو منها، وأيضًا يونس الذي أتى ما يلام عليه حين ذهب مغاضبًا، والصغيرة من النبي في حكم الكبيرة من غيره. وليس هذا أيضًا هو معنى هاتين الآيتين من سورة النمل، لأن مقصودهما كما مر بك هو اللوم على خوف النبي في حضرة الله عز وجل حيث الأمن الذي ليس فوقه أمن، لا خوف النبي من ذنب أتاه، وهذا لم يفعله يونس، فلم يفر من وجه الله عز وجل لذنب أتاه، وإنما كان الذنب الذي ظلم به هو هذا الفرار نفسه. وقال بعض المفسرين أيضًا إن (الذي ظلم) في الآية لا يبعد أن يكون هو موسى نفسه، يذكره الله بذنبه حين وكز ذلك الرجل المصري فقضى عليه، وهذا ضعيف ممعن في الضعف، لأنه يتأدى بك إلى معكوس الاستثناء في قوله عز وجل: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾، فيكون المعنى أنت وحدك يا موسى الذي تخاف في حضرتي غير آمن، لفعلتك التي فعلت، فلماذا لامه الله إذن على فراره مدبرًا لم يعقب؟ على أنك لا تعد موسى قاتلًا مرتكب كبيرة، فلم يرد قتل هذا المصري، وإنما قتله عفوًا بوكزة من يده في مدافعته عن رجل من قومه كاد المصري

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ١١ من سورة النمل.

في اقتتالهما أن يبطش بالذي (من شيعته)، ولكن موسى عد هذا القتل غير العمد إثمًا بليغًا: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، وعاهد موسى ربه وقد تاب عليه ألا يكون من بعدُ ظهيرًا لمجرم ولو كان من شيعته: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[2][3]. فقد تاب الله عز وجل على موسى ومحا عنه إثم هذه الفعلة وتأثمه منها الذي حاك في صدره: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾[4]، قبل أن يبعث موسى إلى فرعون بعشر سنين قضاها موسى في مدين. وتستطيع أن تقول أيضًا إن الفرار من ثعبان مبين كالذي صارت إليه عصا موسى أمر طبيعي في حق البشر وإن كانوا أنبياء، وليس هذا هو الذي ليم عليه موسى، وإنما ليم موسى لأنه (ولى مدبرًا ولم يعقب) يعني أدبر موسى فرارًا من هذا الثعبان لما وقع في قلبه من الخوف منه، وهذا طبيعي في حق البشر، ولكنه (لم يعقب)، أي لم يقفل راجعًا إلى ربه يلتمس الأمن من هذا الخوف عند السلام المؤمن المهيمن جل وعلا.

على أن يونس عليه السلام أقر بظلمه في قول الله عز وجل على لسانه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5]، وليس بعد هذا قول لقائل.

قد (ظلم) إذن يونس صلوات الله عليه. فكيف ظلم يونس؟

****

كانت نينوى - وتقع أطلالها اليوم قبالة مدينة الموصل شمال العراق - لا عاصمة الأشوريين وإنما عاصمة الشرق الأدنى القديم كله ما بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد. كانت أشور تحكم بابل، فهي عاصمة أشور وبابل، ولم يكن قد بزغ بعد نجم الفرس الذين

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٧.

(٣) راجع الآيتين ١٥، ١٦ من سورة القصص.

(٤) سورة طه، الآية: ٤٠.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

كان عليهم أن ينتظروا حتى الربع الأخير من القرن السادس قبل الميلاد. أما مصر فلم تعد لها اليد الطولى في أحداث الشرق الأدنى القديم منذ مهلك فرعون (رمسيس الثاني كما علمت) في خليج السويس أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بل استطاع (أسرحدُّون) الأشوري اقتحام مصر على عهد (طهرقا) (٦٨٩ - ٦٦٣ ق.م) وطارده حتى جنوبيها، ولقب نفسه ملك أشور وبابل ومصر، فأصبحت نينوى عاصمة العالم القديم كله دون منازع. ولكن هذه العظمة لم تدم طويلًا لنينوى، لأن بابل هبت من كبوتها فأسقطت أشور وفتحت عاصمتها نينوى حوالي سنة ٦٠٧ ق.م، فكان هذا هو آخر عهد نينوى بالعظمة، بل بالوجود كمدينة، فلم يبق البابليون منها إلا خرائب وأطلالًا.

وإلى نينوى هذه أرسل يونس عليه السلام كما تقرأ في العهد القديم: (وصار قول الرب إلى يونان بن أمَتَّاي قائلًا: قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صعد شرهم أمامي)[1]. ولكن يونان - أي يونس - شق عليه الأمر، وكأنما خشي على نفسه من مصاولة هذه المدينة العظيمة وفيها ملك جائر - كما فَرَقَ موسى من قبل من مواجهة فرعون في مصر فقال هو وأخوه هارون: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾[2] - على نحو ما تقرأ في العهد القديم: (فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب)[3]، فكان من أمره مع أصحاب السفينة ما تعلم: عصفت بهم الريح وهاج البحر هياجًا لم يعهدوا مثله، فظنوا أنه من ركابها ظالم آبق، واقترعوا على ركاب السفينة أيهم الظالم الآبق، فكان يونس، فألقوه في البحر، فهدأت الريح وسكن البحر، واستقامت لهم السفينة بعد خلاصهم منه. أما يونس فقد التقمه حوت كأنما كان ينتظره. ولكن الله أمر الحوت ألا يمس منه شعرة. ومكث يونس في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، وهو قائم يستغفر ويسبح.

(١) يونان ١/ ١ - ٢.

(٢) سورة طه، الآية: ٤٥.

(٣) يونان ١/ ٣.

حتى أمر الله الحوت أن يلفظه إلى البر سليمًا معافًى: (ثم صار قول الرب إلى يونان ثانية قائلًا: قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد لها المناداة التي أنا مكلمك بها)[1]، فذهب يونان من فوره إلى نينوى وقال لأهلها: (بعد أربعين يومًا تنقلب نينوى)[2]. ولكن أهل نينوى، على غير دأب الذين تبعث فيهم الرسل، آمنوا بيونس، وصدقوا وعيد الله على يديه، الملك والرعية، فرجعوا عما هم فيه من ضلالتهم: (ونادوا بصوم ولبسوا مسوحًا من كبيرهم إلى صغيرهم)[3]، وقالوا: (لعل الله يعود ويندم ويرجع عن حُموِّ غضبه فلا نهلك)[4]. (فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه)[5]. أما يونان فقد اغتم لهذا غمًّا شديدًا، وكأنه قال في نفسه فيم إذن كان هذا العناء؟ وفيم كانت بعثتي إلى هؤلاء والله يرق ويرحم؟ (فغم ذلك يونان غمًّا شديدًا فاغتاظ وصلى إلى الرب قائلًا آه يا رب، أليس هذا كلامي إذ كنت بعد في أرضي. لذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش لأني علمت أنك إله رءوف رحيم وبطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر، فالآن يا رب خذ نفسي مني لأن موتي خير من حياتي)[6]. ترى هل كان يونان يتمنى إيقاع الوعيد بأهل نينوى رغم توبتهم كيلا يقال أَوْعَد يونان فأخلف الله وعده؟ هذا هو ما يقوله لك السفر: (وخرج يونان من المدينة وجلس شرقي المدينة وصنع لنفسه هناك مظلة وجلس تحتها في الظل حتى يرى ماذا يحدث في المدينة)[7]. ثم تفهم من السفر أن الله عز وجل أراد أن يبرر ليونان سبب تجاوزه عن إيقاع العذاب بأهل نينوى: إنه الرحمة والشفقة منه تبارك وتعالى لا التوبة من جانبهم (فأعد الرب الإله يقطينة فارتفعت فوق يونان لتكون

(١) يونان ٣/ ١ - ٢.
(٢) يونان ٣/ ٤.
(٣) يونان ٣/ ٥.
(٤) يونان ٣/ ٩.
(٥) يونان ٣/ ١٠.
(٦) يونان ٤/ ١ - ٣.
(٧) يونان ٤/ ٥.

ظلًّا على رأسه لكي يخلصه من غمه[1]. ففرح يونان من أجل اليقطينة. ثم أعد الله دودة عند طلوع الفجر في الغد فضربت اليقطينة فيبست وحدث عند طلوع الشمس أن الله أعد ريحًا شرقية فضربت الشمس على رأس يونان فذبُل، فطلب لنفسه الموت وقال موتي خير من حياتي. فقال الله ليونان هل اغتظت بالصواب من أجل اليقطينة؟ فقال اغتظت بالصواب حتى الموت. فقال الرب أنت شفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربيتها، التي بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت. أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة[2] من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة؟)[3].

بهذا التبرير لتجاوز الله عن إيقاع العذاب بأهل نينوى بعد توبتهم، ينتهي سفر يونان في العهد القديم. وبغض النظر عن بعض العبارات التي تنبو عن أدب الحديث في جنب الله عز وجل، من مثل (الله يندم) - في الأصل العبراني (وَيِنَّحِمْ ها إلوهيم) من الجذر العبري (نَحَمْ) - التي تفرق منها أذن المسلم وإن ألفتها أسماع أهل التوراة، وبغض النظر أيضًا عن سمات في أسلوب هذا السفر تذكرك بأساليب كاتب سفر التكوين حتى تكاد تظن الكاتب في السفرين واحدًا، وتهبط بكتابة سفر التكوين إلى عصر متأخر عن أحداثه، كما مر بك في تضاعيف هذا الكتاب. بغض النظر عن هذا وذاك، فإن وقائع سفر يونان تتقارب كل التقارب مع قصة يونس في القرآن، ولكن ترتيب هذه الوقائع في السرد القرآني مختلف.

وهو اختلاف بالغ الخطورة، لأنه هو الذي يحدد لك كيف (ظلم) يونس، وفيم كانت ملامته.

* * * *

(١) ترى ما حاجته إلى ظل اليقطينة والكاتب يقول إن يونان أعد لنفسه مظلة جلس تحتها؟ الكاتب هنا يخلط في ترتيب الأحداث. وإنما كانت اليقطينة عقب أن نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم، لا بعد خروجه مغاضبًا من نينوى كما سترى.

(٢) الربوة في مصطلح اليهود عشرة آلاف، فهم مائة وعشرون ألفًا من نينوى.

(٣) يونان ٤/ ٦ - ١١.

يقول لك سفر يونان إن ملامة يونس التي استحق بها عقاب الحبس في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، كانت هي نكوله عن حمل أعباء الرسالة إلى أهل نينوى، أشفق منها وفر هاربًا من وجه الله عز وجل. ولا يفعل هذا نبي اختاره الله على علم.

ويقول لك القرآن إن ملامة يونس التي قذفت به إلى بطن الحوت هي أنه ذهب مغاضبًا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾[1]، أي أنه عليه السلام غضب فغاضب، وبديهي أنه لم يغضب من الله عز وجل لإنزاله الرسالة عليه فهجر الله وتباعد عنه، وهذا معنى المغاضبة في اللغة، وإنما المعنى أنه عليه السلام لم يصبر لحكم الله عز وجل في أهل نينوى، أي إمهالهم حتى يتوبوا ثم يرفع العذاب عنهم، ليكونوا مضرب المثل في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾[2]، ولكن يونس غضب من هذا، وكأنما ساءه عفو الله بمحض التسبيح والتوبة عن قوم أرسل لهدايتهم لا لإيقاع العذاب بهم، فخرج من المدينة مغاضبًا، أي هجر وتباعد، فكان من أمره في السفينة وفي بطن الحوت ما تعلم، كي يعلمه الله عز وجل أن التوبة والتسبيح هما وحدهما السبيل إلى الرحمة والعفو: حبسه في بطن الحوت لا ملجأ له من الله إلا إليه، يقر بذنبه، فيسبح ويستغفر، مثلما فعل قومه حين سمعوا وعيد الله على يديه، لم يصروا على ما فعلوا، وأيضًا لم يقنطوا. بهذا نفسه نجي يونس: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾[3]. كان مجيء يونس إلى قومه قبل التقام الحوت إياه، لا بعده كما تجد في سفر يونان. وكان إنبات اليقطينة عليه عقيب أن لفظه الحوت إلى البر مباشرة لحاجته إلى ظلها في العراء وهو سقيم، لا لينام مستروحًا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٢) سورة يونس، الآيات: ٩٦ – ٩٨.

(٣) سورة الصافات، الآيات: ١٤٣ – ١٤٨.

في ظلها ينتظر إيقاع العذاب بأهل نينوى ليتشفى فيهم كما يقص عليك الكاتب في العهد القديم، فقد صنع لنفسه من قبل مظلة يتظلل تحتها كما يروي الكاتب. وإنما احتاج الكاتب إلى هذا بعد أن خلط في أحداث القصة، وفاته درس الحوت الذي استنفده في عقاب يونس على رفضه الرسالة إلى نينوى - وهو محال في جنب رسل الله كما مر بك - فافتعل من عنده (درس اليقطينة) التي فرح بها يونان فرحًا شديدًا لا تدري لماذا، ثم أماتها في ليلة فحزن لموتها يونان أيضًا حزنًا شديدًا، بل واغتاظ لموتها حتى طلب لنفسه الموت، وأنت الذي تغيظك هذه المبالغات والتهاويل، كي يقول له الله في النهاية مسكنًا غيظه على اليقطينة التي أحبها حتى الموت إنه أقمن بالشفقة على عباده، مائة وعشرين ألف خلق من خلقه صنعهم بيديه، عدا بهائم كثيرة في المدينة، وكأنه عز وجل - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - يعتذر لنبيه عن إشفاقه على أهل نينوى، الذين رحمهم لكثرتهم لا لتوبتهم. فأين درس اليقطينة في هذا السفر من درس الحوت في القرآن؟ بل ما الحكمة من إرسال الرسل إذا كان الله يرحم العصاة في هذه الدنيا من أجل كثرتهم فلا يهلكهم بذنوبهم؟ بل هذا هو ما قاله يونان لله في ذلك السفر يبرر بها نكوله عن تلقي الرسالة إلى نينوى حين نكل، وكأنما يعاتب الله بها، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا: (آه يا رب! أليس هذا كلامي إذ كنت بعد في أرضي؟ لذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش، لأني علمت أنك إله رءوف ورحيم وبطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر. فالآن يا رب خذ نفسي مني لأن موتي خير من حياتي)[(١)]. يعني أن يونان لم يخطئ في فراره من تلك الرسالة لأنها عبث في عبث، فسيرحم الله في النهاية، كما كان عبثًا في عبث حبسه في الحوت. ولكنك لا تتوقف لتناقش يونان في هذا القول الذي قاله، فلا يقول نبي هذا الكلام، والذي في السفر من هذا وأمثاله لا يدخل في وحي الله على رسله، وإنما هو عبث انساق إليه قلم الكاتب.

أما قصة يونس في القرآن، فتجد مجملها في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ

(١) يونان ٤/ ٢ - ٣.

﴿الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]. والإمتاع في اللغة هو الاستبقاء، أي آمنوا فأبقينا عليهم ولم نهلكهم، فالإيمان يَجُبُّ ما قبله كما قال الصادق المصدوق ﷺ لمن شرط عليه العفو عما سلف من ذنوبه قبل إسلامه فقال له: «الإسلام يَجُبُّ ما قبله»، أي يسقطه، ولكن غلب (التمتع) في التنعم، وكلاهما (مراد) في الآية. أما (فمتعناهم إلى حين) فهي من إعجاز القرآن، لأن نينوى ضلت وأفسدت من بعد، فأرسل الله عليها البابليين فاستأصلوا شأفتها، مثلما بعثهم الله على بني إسرائيل بعد هذا ببضع سنين فدمروا أورشليم على أهلها.

وربما قيل لك: فماذا تقول في هذا السرد الذي في سورة الصافات الذي يفهم منه أن مجيء يونس إلى (مائة ألف أو يزيدون) - أي إلى أهل نينوى - قد كان بنص القرآن بعد انتباذ الحوت إياه (بالعراء وهو سقيم): ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[2]، قد التقمه الحوت إذن قبل أن يصدع بأمر الله فيذهب إلى نينوى منذرًا متوعدًا، تمامًا كما في سفر يونان، فماذا تقول في هذا؟ الرد بسيط. هذا المعترض يغفل مفتتح الآيات الإحدى عشرة من سورة الصافات التي تقص بعثة يونس، وهي: (وإن يونس لمن المرسلين)، ثم يستطرد النسق القرآني المعجز إلى ما كان من أمر يونس حين (أبق)، ليعود فيقص عليك ما كان من شأن القوم الذين كان يونس رسولًا إليهم قبل إباقه: كانوا مائة ألف أو يزيدون، وكأنه يرد على تساؤلك: إذا كان يونس من المرسلين، فإلى من أرسل يونس؟ إلى مائة ألف أو يزيدون! ثم ينتهي السرد المعجز لينبئك بمصير المرسل إليهم: آمنوا بيونس فمتعهم الله إلى حين: كي تظل هذه الحكمة واقرة في أذنك، لأنها الحكمة المقصودة من قصة يونس، كي تقارن مصير من كفر من الأمم بمصير من آمن. أما درس الحوت فهو

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٣٩ - ١٤٨.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٤٢ - ١٤٧.

موعظة للأنبياء من بعد يونس، لا لك أنت، فليس لك في هذا نصيب. وقد كان خاتم النبيين في قومه أرفق النبيين، لا يستعجل لهم قِطَّ العذاب، وقد لقي منهم أشد ما لقي نبي من قومه، فلا يزيد على أن يقول: «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**». رغم هذا فقد وعظ خاتم النبيين بموعظة يونس: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾(١).

كانت هذه بالضبط ملامة يونس: لم يصبر لحكم ربه، أي شق عليه قضاء الله في قومه برفع العذاب عنهم، فذهب مغاضبًا وأبق إلى الفلك المشحون، وقلما يقال (أبق) في العربية إلا في العبد الآبق من مولاه، وكان يونس هو هذا العبد الآبق من عفو الله عن قومه فضيق الله عليه في ظلمات البحر والحوت، حتى فهم الدرس، ثم أعاده إلى قومه هاديًا مرشدًا، يرجو لهم الرحمة ولا يطلب لهم الضيقة، فقد ضيق الله عليه من قبل في بطن الحوت: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾(٢).

والذي يجب أن تعلمه هو أن (يُونا) اسم نبي الله يونس عليه السلام في العبرية يعني بذات لفظه العبري أيضًا (الذي ظلم ولم يعدل) - أي (صِدِقْ) عبريًّا - التي جانس عليها القرآن قول يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣)، أي ما أنصف يونس في إباقه من رحمة ربه، يفسر بها أحد معنيي هذا الاسم العبراني (يونا)، كما سترى، وسبحان العليم الخبير.

* * * *

لفظة (يونا) في المعجم العبري معناها (الحمامة) الطائر المعروف. وعلماء التوراة على أن الاسم العبراني العلم (يونا) - يعني يونس - من هذا: يونس = حمامة.

والذي يجب أن تعلمه أن هذا الاسم العلم (يونا) اسم لم يتسم به قبل يونس أحد قط من

(١) سورة القلم، الآية: ٤٨.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

أعلام التوراة، فهو اسم غير مسبوق، وكأنه موضوع له بالذات فشا من بعد في بني قومه نسبة إليه، كما رأيت من قبل في يوسف وموسى وهارون.

أما الذي لا نعلمه أنا وأنت وعلماء العبرية وعلماء التوراة، فهو المعنى الذي قصده متى أبو يونس - وأصل (متى) هو (أمتاي) يعني عبريًّا (الأمين) قائل الصدق من (إمت) العبرية بمعنى الأمانة والحق والحقيقة - من تسمية ابنه (يونا): هل أراد معنى (الحمامة) أم أراد معنى آخر من هذا اللفظ (يونا)، يتطابق رسمًا ونطقًا في الخط العبراني مع لفظ (يونا) بمعنى (حمامة)؟

لست في هذا جادًّا بالطبع، ولكني أقرب لك المعنى الذي أريد أن أصل بك إليه: الوزن (يونا) وأمثاله في العبرية - المختوم بهاء خاملة لا عمل لها إلا إشباع المد بالفتح قبلها - هو زنة الفاعل على التأنيث، ولئن جاز في العلم المذكر التسمية بالمؤنث، فهو المؤنث اللفظي لا المعنوي، فتسمي ابنك مثلًا (حمامة) أو (نخلة) أو (شمس)، لا تنعته بمؤنث، وإنما تنظر إلى صفات الحمامة أو النخلة أو الشمس، على التشبيه، ولكن لا يجوز لك أبدًا تسمية المذكر بنعت مؤنث، فتسمي ابنك مثلًا (جميل)، ولا تسميه أبدًا (جميلة). وليس في العبرية قط نعت يطابق (يونا) في الرسم والنطق ويغايره في المعنى، إلا النعت المؤنث (يونا) يعني (ظالمة)، ومنه (عِير يونا)، يعني (قرية ظالمة) كالتي بعث فيها يونس، وبعث في مثلها الأنبياء من قبله.

لا يصح إذن في معنى العلم العبراني المذكر (يونا) إلا معنى واحد هو (حمامة).

ولكن القرآن المعجز، الأفقه بالعبرية من أهلها، ينظر إلى المعنى الآخر الذي في النعت المؤنث (يونا)، اسم الفاعل المؤنث من الجذر العبري (ينا)، أي (الظالمة) حين جانس على اسم (يونس)، (الحمامة التي ظلمت)، مشيرًا إلى إباق يونس حين أبق: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وأيضًا في قول يونس وقد أقر بظلمه في بطن الحوت:

(١) سورة النمل، الآية: ١١.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، التي تترجمها إلى العبرانية هكذا: كِي مِي يُونِيم أنِي![2].

كفاك بهذا إعجازًا في فقه العبرية دونه كل إعجاز، وسبحان الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

* * * *

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٢) كي = إن، مي = مِن، يونيم = ظالمين، أني = أنا (ضمير المتكلم)، وقد رسمت (مي يونيم، أي من الظالمين) مقطعة للتوضيح، وهي في أصلها العبري موصولة: (ميونيم).

(٤٩) أيوب

ليس (أيوب) عند بني إسرائيل بنبي، بل هو عندهم من الرؤساء الصديقين. تجد هذا في مفتتح (سفر أيوب) بالعهد القديم (كان رجل في أرض عَوْص اسمه أيوب. وكان هذا الرجل كاملًا ومستقيمًا، يتقي الله ويحيد عن الشر. وولد له سبعة بنين وثلاث بنات. وكانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة فدان بقر وخمس أتان وخدمة كثيرين جدًّا. فكان هذا الرجل أعظم كل بني المشرق)[1]، ثم يطنب الكاتب في غنى أيوب وتقواه، ثم ينزلق به القلم كما انزلق من قبل بأخيه الذي في سفر التكوين، فيصطنع أساليب قصاص اليونان في خرافات آلهة الأولمب، ويقول: (وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله[2] ليمثلوا أمام الرب، وجاء الشيطان أيضًا في وسطهم، فقال الرب للشيطان من أين جئت؟ فأجاب الشيطان الرب وقال: من الجَوَلان في الأرض والتمشي فيها، فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدي أيوب؟ لأنه ليس مثله في الأرض، رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر)[3]، وكأن الله يفاخر الشيطان بعبده أيوب. ويرد الشيطان بأن استقامة أيوب وتقواه ليستا من ذات نفسه، فقد أغناه الله وحفظه وبارك عمل يديه، ولو شدد الله عليه، وأزال نعمته وامتحنه في

(١) أيوب ١/ ١ - ٣.

(٢) يعني الملائكة في لغة هذا الكتاب وإخوته من قبل ومن بعد. وهو مجاز سقيم ضل به كثيرون. حتى قال اليهود (عزير ابن الله) ربما على مجاز القرب والنعمة، لا يدرون مغبة هذا القول لدى من جاء بعدهم، الذين أبدلوا من المجاز حقيقة. وتندهش كيف يجمع أهل الملتين من قارئي هذا السفر على أن بنوة الملائكة لله مجاز، وتصر إحدى الملتين على تحققها في المسيح: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

(٣) أيوب ١/ ٦ - ٩.

أهله، لسخط على خالقه، ويصاب أيوب في ماله وولده جميعًا، ولكن أيوب يصبر ويحتسب: (عريانًا خرجت من بطن أمي وعريانًا ثَمَّ أعود. الرب أعطى و الرب أخذ. تبارك اسم الرب!)[1]. ويعود الله فيفاخر الشيطان بعبده أيوب الذي امتحن بكل هذا فصمد للامتحان ولم يكفر. ولكن الشيطان لا ييأس، بل يستأذن الرب في إيقاع الأذى بأيوب في جسده: (ولكن ابسط الآن يدك ومس عظمه ولحمه فإنه في وجهك يُجَدّفُ عليك. فقال الرب للشيطان ها هو في يدك. ولكن احفظ نفسه. فخرج الشيطان من عند الرب وضرب أيوب بقرح رديء من باطن قدمه إلى هامته، فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس في وسط الرماد. فقالت له امرأته أنت متمسك بعد بكمالك؟ بارِكِ الله ومُتْ! فقال لها تتكلمين كلامًا كإحدى الجاهلات؟ أنقبل الخير من عند الله ولا نقبل الشر)[2]. ويسمع ببلاءات أيوب أصحابه فيجيئون لزيارته ويهولهم ما هو فيه، كما يهولهم أيضًا صبره واحتسابه، ولكن أيوب في تصابره يبدو لهم وكأنه يفاخر الله بصبره، ويذكر الله بأنه لا إثم فيه ولا ذنب حتى ينزل به كل هذا العذاب، فيذكرونه بأن الله يفعل ما يشاء، ويحاورهم ويحاورونه بحوار يطنب فيه الكاتب، يتفاوت متانة وعمقًا وجزالة، وترتفع المأساة إلى الذروة حين يطل الله على أيوب من السحاب، يعلمه الحكمة. وأخيرًا يرفع الله البلاء عن عبده أيوب، ويرد عليه ما أخذ منه ومثله معه.

* * * *

وقد ذهب بعض المفسرين، وذهب معهم أيضًا باحثون وكتاب، إلى أن أيوب رجل عربي. استدلوا على هذا بأن اسمه (أيوب) مشتق من الأوب والتوب، فهو التائب الآيب على المبالغة.

والصحيح أنه ليس نبي عربي من نسل إبراهيم إلا خاتم النبيين ﷺ كما مر بك. والعربية التي نعنيها هنا هي عربية اللسان، أعني عربية القرآن، فإسماعيل نفسه بهذا المعيار ليس بعربي،

(١) أيوب ١/ ٢١.

(٢) أيوب ٢/ ٥ - ١٠.

دليلك في هذا اسمه: يشمع إيل، العبراني، أي (سَمِع الله) أو (سميع هو الله) على ما مر بك في موضعه. بل أيوب عليه السلام من بني إسرائيل، شأنه شأن يونس وشأن الأنبياء من بعد داود وسليمان، أعني من الأسباط أبناء يعقوب، بدليل حرص اليهود على إدراج سفر أيوب ضمن أسفار توراة الأنبياء والكتبة (يضعونه في النص العبراني بين أسفار الكتبة لا الأنبياء). أما دليلك من القرآن على أن أيوب من ذرية الأسباط بني يعقوب أي بني إسرائيل، فهو النص في القرآن على أنه من ذريتهم، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[1]، ولا مبرر لاستبعاد أيوب وحده من زمرة أنبياء من نسل الأسباط بلا خلاف ذكروا معًا في نفس الآية.

أما أن أيوب عليه السلام نبي بنص القرآن، على خلاف قول أهل الكتاب فيه، فلورود اسمه في لفيف من الأنبياء ختم الحديث عنهم بقوله عز وجل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[2][3].

على أن (أيوب) ليست اسمًا عربيًّا من الأوب والتوب كما ظن مفسرون وباحثون وكتاب. فهو ممنوع من الصرف في كل القرآن لا لعلة إلا العجمة، ولو كانت (أيوب) عربية من الإياب والأوب، على مثال (قيوم) وأمثالها، لصرفت.

وقد أماتت العبرية الجذر العربي (آب/ يئوب)، واستعاضت عنه بمقلوبه العربي (باء/ يبوء). فليست (أيوب) عبرانيًّا بهذا المعنى الذي ظنه المفسرون والباحثون. وإنما معنى (أيوب) - وتنطق في العبرية (إِيُّوب) مكسورة الهمزة البادئة مشددة الياء مع إشباع

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٦٣، ١٦٤.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٩، ٩٠.

(٣) (اقتده) أصلها (اقتد) من الفعل اقتدى، جزم للأمر فحذفت ياؤه. والهاء فيه للوقف، وظيفتها تقصير المد بالكسر في الدال الخاتمة، ومنع الوقوف عليها بدال ساكنة.

المد بالضم لا بالواو - معنى آخر، بعيد كل البعد عن الإياب والأوب. وقد علم القرآن هذا المعنى الآخر ففسر به اسم (أيوب) كما سترى. وسبحان العليم الخبير.

****

في العبرانية الجذر (أَيَبْ/ يِئْيَبْ)، وهو ليس (آب/ يئوب) العربي، ولكنه مبدل من مادة (ويب) العربية التي أميت فعلها في العربية وبقي منه اسم الفعل فقط، أي (الوَيْب) بمعنى (الويل)، يعني حلول البلاء والشر. تقول منه في العربية: ويبٌ له! تريد: ويل له! لا فرق بينهما، ولكنها نادرة الآن، لا تعثر عليها إلا في المعاجم.

أما الفعل (أيب) العبري فهو حي في العبرية إلى الآن، ومعناه (شنأه)، (كرهه)، (أبغضه)، وأيضًا (ضاده) يعني كان له (ضدًّا)، أي عدوًّا مناوئًا، واسم الفاعل من هذا الفعل العبراني (أي) - بمد الكسر في الياء - يعني الشانئ المناوئ العدو، واسم المفعول منه: (أيوب) - بتخفيف الياء لا بتشديدها - يعني المكروه البغيض.

ومن المعاجم الإنجليزية من فطن إلى هذا المعنى، فقال في ترجمة (أيوب) *Loath* يعني البغيض المقيت.

وعلماء التوراة، وأيضًا علماء العبرية، يرون أن الاسم العبراني (إِيوب) - بكسر الهمزة وتشديد الياء ممدودة بالضم لا بالواو كما لو نطقت (جِيُّوم) *Guillaume* الفرنسية - مأخوذ من هذه المادة العبرية (أيب)، على المضعف المشدد (فِعَّل العبري وهو فَعَّل العربي)، فهو عندهم على زنة (فِعُّول) العبري - الذي يكافئ (فِعِّيل) العربي - والأصل فيه الدلالة على الفاعل، ولكنه في اسم (أيوب) جاء على الندرة بمعنى المفعول المشدد من (أيب) العبري، فهو البغيض الكريه المكروه، المشنوء المناوأ. أما إن استحييت مادة (الويب) العربية بمعنى الويل - كما نقول نحن - الذي شدد الويب عليه.

أما المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة - وهو من مراجع هذا الكتاب - وهو موضوع

بالإنجليزية كما مر بك، الذي يمثل وجهة نظر علماء التوراة، فهو يترجم (إيوب) العبرية إلى الإنجليزية بلفظة *Persecuted* يعني المضهود المضطهد. وقد جاءهم هذا الفهم من تغليبهم معنى العداوة على معنى الكراهة اللذين في (أيب) العبري، ففهموا (إيوب) بمعنى الذي ضايقه عدوه وشدد عليه، ربما لأنهم يقرءون في سفر أيوب أن الشيطان (ساطان العبري) ومعناها (العدو) كما مر بك، هو الذي أنزل بأيوب عذاباته، فهو المضهود من عدوه، أي من الشيطان. ولا بأس بهذا بالطبع، ولكنه يحوم حول المعنى ولا يصيبه في صميمه. فأنت تعلم أن لفظة *To Persecute* الإنجليزية تفيد في أصل معناها (الملاحقة) بالتشديد والتضييق والضر والأذى. ولكن المنظور إليه في (أيب) العبري ليس هو (الملاحقة) بالذات، وإنما هذا الضر والأذى.

صحيح أن العداوة من الكراهة قريب، لأن العدو شانئ مبغض. ولكن التأصيل اللغوي لا يصح على التقريب، وإنما يصح بالمرادف الدقيق. والذي يدلك على أن (أيب) العبري أصله من (وَيْب) العربي بمعنى الويل والضر والمكروه، أن المعجم العبري/ عبري (هَمِّلُّون هِحَدَاش لِتَنَاخ)، يعني (المعجم الحديث لألفاظ توراة الأنبياء والكتبة)، وهو من مراجعنا المتخصصة في هذا الكتاب الذي نكتب، يشرح مادة (صرر) - بمعنى الضر والضرر، أبدلت العبرية من ضادها صادًا لانعدام الضاد في العبرية - فيقول إن (صار) - ضار العربية - اسم الفاعل من (صرر) العبري هي (أويب) فاعل (أيب) العبري، وهذا يدلك بشهادة شاهد من أهلها على أن (أيب) العبري يجيء بمعنى الضر والأذى وإيقاع الشر أي (المكروه)، فهو الضرير المتأذي. وهذا هو أصل معنى مادة (وَيْب) العربية.

من هنا تقول آمنًا جازمًا مطمئنًا أن (إيوب) العبرية، اسم نبي الله أيوب عليه السلام معناها الضرير المضرور الذي (وُيِّب)، أي شدد (الويب) عليه.

أما القرآن المعجز فقد علم هذا كله قبل أن يعلمه غيره، ففسر اسم (أيوب) بالمرادف الدقيق في قوله عز وجل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ

﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾[1]. ولا يفوت القرآن وهو يفسر معنى هذا الاسم تقريظ (صبر أيوب) إمام المبتلين، فيعقب في الآية التالية مباشرة بقوله عز وجل: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]، يجعل لأيوب كفلًا من الصبر مع هؤلاء الذين صبروا مثله ولم يجزعوا، وحسبك صبر إسماعيل في البلاء المبين. وسبحان العليم الحكيم.

ولا يفوتنا نحن في سياق تفسير هذا العلم الأعجمي أيوب، التنبيه مرة أخرى إلى خطورة التعجل في تفسير هذه الأعلام من القرآن بالقرآن - على منهجنا في هذا الكتاب الذي نكتب - بقرينتي التشابه والتجاور فقط، فتقول مثلًا إن (أيوب) من (الأوب)، تقتنصها دون تحرز من قوله عز وجل في أيوب: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[3]، فتظن متعجلاً دون تثبت أن المراد هنا هو تفسير اسم أيوب بأنه (أواب)، وتعتقد أن اسم (أيوب) مفسر في القرآن بالتعريب، لأن الأيوب والأواب في العربية واحد، زنتا مبالغة من (آب/ يئوب). ولا يصح هذا، لأن سليمان أيضًا وصف في نفس السورة بذات العبارة: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[4]، وليست (سليمان) هي (أيوب) بالطبع. شرط التصدي للتفسير بالقرآن من القرآن في العلم الأعجمي هو أولًا استقصاء معنى الاسم الأعجمي في لغة صاحب الاسم العلم، ثم تمضي مستعينًا بهداية الله وتوفيقه في تلمس اللفظ أو العبارة اللذين يفسر بهما القرآن معنى هذا الاسم، فلا يصح في القرآن لمسلم أن يكون هجامًا.

اللهم ارزقنا الصواب واجنبنا الزلل، وباعد بيننا وبين اللغو في كتابك الكريم. فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله. اللهم قد أحسنت فيما مضى. فأحسن لي فيما بقي، لك وحدك الفضل والمن، ومنك وبك التوفيق.

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٣، ٨٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٥.
(٣) سورة ص، الآية: ٤٤.
(٤) سورة ص، الآية: ٣٠.

(٥٠) عزير

ورد الاسم (عزير) مرة واحدة في القرآن في قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[1]. وتقرأ (عزير) بالتنوين في قراءة عاصم، التي نقرأ بها في مصر، وتقرأ أيضًا ممنوعة من الصرف في غيرها لا لعلة العجمة فحسب وإنما أيضًا إرادة اختلاس الهمزة في (ابن) فتنطقها: عزيرُبن، كما تنطق: عمر بن الخطاب على سبيل المثال، تدغم هذا في ذاك، فيسمع منك: عمربنلخطاب. والرأي عندي - لا تعصبًا فالتعصب ممقوت - أن قراءة عاصم التي نقرأ بها في مصر أفصح وأبين، لأنها تجعل عبارتي (عزيرٌ ابن)، (المسيحُ ابن الله) على المبتدأ والخبر في قولي اليهود والنصارى، لا على البدل، والخبر يصدق ويكذب، أما البدل فهو إثبات محض، كما تقول عمر بن الخطاب، تنبئ سامعك بأن عمر، الذي هو ابن الخطاب، قال كذا وكذا أو فعل كذا وكذا، عالمًا أن سامعك يتفق معك في أن عمر هو ابن الخطاب. والقرآن بالطبع لا يتفق مع هذا القائل، وإنما يستنكر مقولته ويندد بها، فيقول: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾، أي ما لهم يلبس عليهم هذا الإفك، أي هذا الكذب. وقراءة عاصم كما ترى أقمن باستبعاد هذه الشبهة. على أن تنوين الأعجمي الذي يخف وزنه، مثل (عزير)، مسموع في العربية غير منكور.

وهذه الآية كما ترى من إعجاز القرآن. فهو ينبئك بأن مقولة النصارى في بنوة المسيح لله ليست بدعًا ابتدعوه، وليست أيضًا (كشفًا) كشف لهم عنه في الأناجيل التي بين يديك كما قالوا من بعد في تبرير الانتقاض على توراة موسى عليه السلام المتشددة في توحيد الواحد الأحد،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

وإنما هم في هذه المقولة مسبوقون، سبقهم بها كتبة العهد القديم، الذين تبذلوا وترخصوا فقالوا كما مر بك إن الملائكة أبناء الله، وإن آدم ابن الله (التي نقلها عنهم لوقا في إنجيله)، حتى رخص القول وابتذل، فلم يستنكف بعض اليهود أن يخلعوا على عزير المسمى في القرآن لقب (ابن الله) فيما يحكي القرآن عنهم. ربما قالوها تعظيمًا وتبجيلًا لا يدرون مغبتها فيمن جاء بعدهم، ولكنهما التعظيم والتبجيل المؤذنان بالسقوط في هاوية الكفر والهلكة.

بل ينبئك القرآن المعجز بأن اليهود والنصارى أيضًا، أي كلتا الملتين معًا، مسبوقتان بمقولتيهما هاتين، فهما تضاهئان مقولة قوم قد كفروا من قبل، ولا يقول القرآن المعجز هذا إلا وهو يعلم ما يقول. وقد ظن مفسرو القرآن الأوائل[1] أن المعنيَّ بالذين (كفروا من قبل) هم كفار قريش في قولهم إن الملائكة بنات الله، وإن اللات والعزى ومناة بنات الله، ولا يصح هذا لأن اليهود والنصارى لا يضاهئون مشركي قريش، وإنما يضاهئون بالذات (اليهود أولًا والنصارى من بعد) شرك المصريين، الذين أضاعوا عقيدة التوحيد الخالص قبل عصر التاريخ المدون واستبدلوا بها خرافات الكهنة، وخيالات الفلاسفة الذين كان آخرهم (أفلوطين) المصري الأسيوطي (وهو من أعلام القرن الثالث الميلادي) صاحب نظرية الفيض والانبثاق عن الذات الإلهية، وأيضًا تهاويل الأساطير، يكفيك منها أسطورة إيزيس وأوزوريس، التي تلمح الكثير من ظلالها في عقيدة التثليث. ويكفيك أيضًا أن أول من أصل هذه البنوة على مبادئ فلسفة (أفلوطين) المصري الأسيوطي، مصري آخر من الإسكندرية، هو أسقفها (أثناسيوس)، قال بها وناضل عنها حتى استصدر بها في مجمع نيقية عام ٣٢٥م مرسومًا من القيصر البيزنطي (قسطنطين)، يؤله المسيح على البنوة لله بعد ثلاثة قرون من رفع المسيح. نعم، قد كان مولد المسيح عليه السلام بغير أب معجزة كبرى، ولكنها معجزة لله عز وجل لا للمسيح، شأنها شأن خلق آدم من تراب، لا أب لآدم ولا أم بل هما معًا دون خلق السماوات والأرض: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[2].

---

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٣٠ من سورة التوبة.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥٧.

وأنت تعلم بيقين أن الله عز وجل هو صانع هذا الميلاد الإعجازي، فتعظم الفاعل ولا تعظم المفعول. إنه آية من آيات الله عز وجل يضربها للناس ليعرفوه بها ويعظموه، لا ليعظموا غيره وصنع يده: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1]. وكأنما كان عليه السلام يتنبأ بما سيقال من بعده فقال في الأناجيل التي بين يديك، يناجي ربه وقد دنت ساعة رحيله عن هذا العالم: (وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك، أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته)[2]، يريد بالحياة الأبدية الحياة الآخرة، لا نصيب فيها لأحد ممن أرسل إليهم إلا من آمن بالإله الواحد، الإله الحقيقي وحده، وبيسوع المسيح رسولًا منه لا ابنًا. ولا تظن أن المسيح في الكتاب المقدس هو وحده المرفوع إلى السماء حيًّا، فقد سبقه بها (إيليا) أي إلياس (الملوك الثاني ٢/ ١١ - ١٢)، ولا تحسب أيضًا أن المسيح في الكتاب المقدس هو وحده الذي أحيا الميت، فقد سبقه بها (إليشع) أي اليسع (الملوك الثاني ٤/ ١٧ - ٣٧)، ولكن اليهود لم يؤلهوا إيليا ولم يؤلهوا اليشع.

ولا تحسب أيضًا أن المصريين انفردوا بأساطير البنوة لله، فهذا قديم في خرافات من أشرك، قالت به عقائد الهند، وتغنت به أساطير الأولمب، وغير هذين في شرك الأقدمين كثير. ولا يقال لك إن القدم أصالة، فالوسواس الخناس أيضًا قديم. وإنما تأصل هذا القول عند من ابتدعه على تلك المناكحة بين السماء والأرض لاستيلاد الخلق، على مثال المطر والزرع، وهو قول شعراء يتبعهم الغاوون، فالماء من صميم مادة هذه الأرض[3]، من الأرض يخرج وإلى الأرض يعود. إن قلت كما يقول البعض إن قدم التثليث والبنوة لله وشيوعهما في عقائد الأقدمين إرهاص بالتثليث المسيحي ودليل على صحته، فقد قلت شططًا كمسيحي، لأنك تعدد أبناء الله، فلكل عقيدة من تلك العقائد ابن، فلا يعود المسيح ابن الله الوحيد في قول من قال.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

(٢) يوحنا: ١٧/ ٣.

(٣) سبق القرآن إلى هذه الحقيقة العلمية بقوله المعجز: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣١] أي: استخرج منها ماءها استخراجًا.

هؤلاء وأولئك - آباء هذه المقولة في أمم قد خلت من قبل - هم الذين يعنيهم القرآن بقوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾[1]. وسبحان العليم الخبير، فما عرف الناس هذا إلا في هذا العصر، بعد تأسيس علم مقارنة الأديان.

* * * *

أما (عزير) المسمى في القرآن فليس في العهد القديم الذي بين يديك (عزير) ادعى عليه اليهود تلك البنوة لله، أو لقبوه بها على مجرد التعظيم والتبجيل. وإنما الصحيح الذي نرجحه أن القرآن يحكي ههنا مقولة يهود غير مسطورة في أسفار العهد القديم الذي بين يديك، تناقلها اليهود بعد عودتهم من سبي بابل، وربما لهج بها يهود في مكة أو يثرب، بدليل أنهم لم ينكروا على القرآن قوله هذا في قومهم، بل تواروا من هذه المقولة خجلًا، فموسى بلا شك عندهم بهذه المقولة أولى من هذا العزير المسمى في القرآن. أما وفد نصارى نجران فقد جاهروا بمقولتهم في المسيح وجادلوا بها خاتم النبيين في مسجده ﷺ، لأن مقولتهم هذه هي صلب عقيدتهم، لو تراجعوا فيها قيد أنملة لما بقى لهم عذر في البقاء في مسيحيتهم، ولدخلوا في دين الله أفواجًا، شأن الكثرة الكاثرة من أقباط مصر، والجم الغفير من نصارى الشام. أما نجران و تغلب وأضرابها من العرب فقد قصرت بهم قبليتهم.

ولكن الذي نعنى به في مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب هو (عزير) نفسه، لا مقولة بعض اليهود فيه. الذي نعنى به هو معنى اسمه، ومن يكون في أعلام بني إسرائيل.

* * * *

(عزير) من بني إسرائيل بلا شك، لقوله عز وجل: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾، فهو منهم. وهذا الاسم حين ترده إلى أصله العبري، يجيء من الجذر العبري (عَزَرْ) المشترك في العبرية والآرامية والعربية على معنى العون والتأييد والنصرة. والقرآن لا يستخدم (عزر)

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

إلا في هذا المعنى وحده. أما (عَزَرَهُ) بمعنى (لامه)، ومنه يجيء التعزير بمعنى التأديب أو العقاب بما دون الحد في اصطلاح الفقهاء، فليس في الجذر (عزر) العبري من هذا شيء، وإنما هو فقط بمعنى نصره وأيده وأعانه، تمامًا كما في صنوه العربي المضعف (عزَّر) الذي تجده في قوله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1].

واسم الفعل في العبرية من هذه المادة، يعني العون والتأييد والنصر والنصرة، له صورتان: (عِزِرْ) - بكسرتين متتابعتين - ، (عِزْرا) - بكسر فسكون فراء ممدودة بالألف - أما اسم الفاعل منه، أي العازر الناصر المؤيد المعين، فهو (عزير) التي تشبه (عزير) التي في القرآن، ولكنها لا تنطق مثلها على زنة التصغير العربية (فعيل) مثل (عُمير) مصغر عمرو، (عُبيد) مصغر عبد، وإنما تنطق ياؤها على الإمالة مكسورة الزاي قبلها، كما لو نطقت (زِيد) العامية تريد (زَيْد) الفصحى، الاسم العلم.

وليس في أعلام العهد القديم من تسمى باسم الفاعل من (عزر) العبري، أي باسم (عُزير) هذه الممالة الياء مكسورة الزاي. فلا يقال إن القرآن عرب (عزير) هذه على (عزير) مفتوحة الزاي ساكنة الياء، زنة العربية (فعيل) مثل عُمير وعُبيد، كما وهم المستشرقون المنكرون على القرآن، الذين تفكهوا في هذا المقام سخرية من (عزير) الذي في القرآن لمجيئه على زنة التصغير العربية، التي أولع بها العرب حتى قالوا في تصغير فرعون: فُرَيٌّ[2] وإنما الذي في أعلام العهد القديم من مادة (عَزَر) العبري الثلاثي المجرد هو (عِزِر)، (عِزْرَا) تسمية بالمصدر واسم الفعل من (عَزَر)، أي (العَزر) بمعنى النصر والنصرة.

ولكنك لا تحتاج إلى تقصي كافة من تسموا في العهد القديم بهذين الاسمين (عِزر عِزرا)، كي تقع على أيهم (عُزير) المعني في القرآن، فليس فيهم جميعًا نابه الذكر غير خامل، إلا علم واحد، هو (عِزرا) صاحب السفر المعنون باسمه في العهد القديم، من أعلام القرن

(١) سورة الفتح، الآيتان: ٨، ٩.

(٢) انظر: *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص٢٥.

الخامس قبل الميلاد، كاتب شريعة الله، الذي قاد مسيرة اليهود في عودتهم إلى أورشليم من سبي بابل. والمروي عنه في مأثورات اليهود التي نقلها عنهم مفسرو القرآن الأوائل[1] أنه كان أحفظ الناس لتوراة موسى، يتلوها عن ظهر قلب أيام سبيهم في بابل، ويستنسخها من الذاكرة، فلما عاد بهم إلى أورشليم وطابقوا كتابته على نسخة عثروا عليها تحت أطلال هيكل سليمان الذي خربه البابليون من قبل، وجدوا كتابته مطابقة لتلك النسخة حرفًا بحرف، فقيل (عزير ابن الله).

ولئن كان الأصل في معنى الاسم العلم (عِزرا) أنه تسمية بالمصدر لا باسم الفاعل، أعني أنه بمعنى (نَصْر) لا بمعنى (ناصر)، فإن علماء التوراة يقولون لك إن المراد من التسمية ليس المصدر وإنما اسم الفاعل، فهو (عَزْر) بمعنى (عازِر)، أي أنه عبريًّا (عِزرا) بمعنى (عُزير) - المعربة على (عُزير) في القرآن -[2].

وقد مر بك من قبل أن القرن الخامس قبل الميلاد - قرن (عزرا) الكاتب - شهد غلبة الآرامية في ربوع فلسطين على عبرية التوراة، حتى كان جزء لا يستهان به من سفر عزرا هذا نفسه مكتوبًا بهذه الآرامية التي بات يتكلمها الناس، وحتى انبهمت توراة موسى على المتعبدين بها في نصها العبراني فلا يفهمون ما يتلى عليهم حتى يفسره لهم اللاويون والكتبة. وقد كان هذا بتأثير السبي في بابل حيث الآرامية لغة الحديث والكتابة، يعني لغة السادة. وما عاد سبي بابل إلى أورشليم بقيادة عزرا الكاتب إلا وقد رانت على ألسنتهم جميعًا رطانة آرامية، ولم يأت القرن الثالث قبل الميلاد حتى بات عامة إسرائيل آرامي اللسان، فتقطع جازمًا آمنًا مطمئنًا بأن هذه الآرامية قد كانت هي لغة المسيح ولغة إنجيله ولغة حوارييه وليس عبرية التوراة. وهذا يفسر لك فساد تلاوة الناس من أسفار هذه التوراة غير المضبوطة بالشكل والنقط، حتى جاء أمثال جماعة أهل الأثر (بَعَلي ماسورا) منذ القرن الثاني لميلاد المسيح يحاولون ضبطها بالشكل والنقط بعد أن فسدت ألسنة الناس. وهو يفسر لك أيضًا

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٣٠ من سورة التوبة.

(٢) المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، المرجع المذكور، ص٣٩٥، مادة (عَزَر).

استغراق هذه المحاولة ثمانية قرون كاملة حتى تمت في القرن العاشر الميلادي، لا لسبب بالطبع إلا اختلاف الناس عليهم، يعني لم يكن على (قراءتهم) إجماع، حتى كتب لهم النصر أخيرًا على منتقديهم فصارت لقراءتهم السيادة على ما عداها.

والذي يعنينا هنا من هذا كله هو أن اسم (عزرا) هذا العائد من سبي بابل، تأثر بدوره بهذه الآرامية التي فشت على ألسنة الناس وأقلامهم، فهو مختوم في الرسم بألف مد، لا بتلك الهاء الخاملة (العبرانية) التي ختم بها (عزرا) آخر، صِنْوُهُ في المعنى، أي على المصدرية من الجذر العبري: (عَزَر). هذه الصورة (الآرامية) المرسوم بها اسم (عزرا) الكاتب المعني، ربما توحي لك بآرامية العلم التوراتي الذي عاش مع سبي اليهود في بابل يتلو عليهم من توراة موسى ويفسر لهم باللسان الآرامي ما يغمض عليهم، أعني أن اسمه اتخذ في السبي صورة آرامية.

وقد مر بك أن أداة التعريف في الآرامية هي (ألف مد) يختم بها الاسم ولا تبدؤه وكأنها ألف المنصوب في العربية. فتقول الآرامية (مَلْكًا) تعني (الملك)، وتقول (كاتبا) تريد (الكاتب)، وتقول أيضًا (عازرا) - دون تنوين بالطبع في هذا كله - تعني (العازر) اسم الفاعل في الآرامية من (عَزَر)، فهو عربيًّا العازرُ الناصر، لا العزر والنصر. والذي يجب أن تعلمه هو أن الرسم (عزرا) لا يفهم آراميًّا إلا على معنى اسم الفاعل مزيدًا بأداة التعريف الآرامية (أي بألف المد في آخره)، ولا يفهم آراميًّا على المصدرية من (عَزَرْ) الآرامية، لأن مصادر الثلاثي المجرد في الآرامية تجيء على زنة (مفعال).

وقد مر بك أن جماعة (بعلي ماسورا) في ضبطهم نطق أسفار التوراة (أعني العهد القديم) بالشكل والنقط، ما كان لهم من سلطان على (أحرف) هذا النص المقدس، فما كان لهم بالطبع تغيير ألف المد في اسم (عزرا) الكاتب إلى الهاء الخاملة العبرانية، لأن عملهم كما تعلم اقتصر على (التشكيل) فقط. ولم يكن التشكيل عشوائيًّا بالطبع، بل هو متأثر بأستاذيتهم في عبرية التوراة، ينقونها مما علق بها من شوائب تلك الآرامية التي لحن بها الناس في قراءتهم النص المقدس. ومن هنا لا تحيل عليهم أن يجانسوا ضبط اسم (عزرا) الكاتب المختوم بألف المد الآرامية على صنوه، (عزرا) الآخر المختوم بالهاء الخاملة العبرانية،

فيئول نطق (عازرا) - ويرسم في الخط العبري/ الآرامي بغير ألف بعد العين أي (عَزِرا) - إلى نفس نطق سميه (عزرا) الآخر المختوم بالهاء الخاملة العبرانية، فيظن أنهما واحد في المعنى. وهذا يفسر لك لماذا استجاز علماء التوراة فهم معنى اسم (عزرا) هذا وسميه الآخر، على معنى اسم الفاعل من (عزر)، لا على المصدرية منه.

* * * *

أيما صح هذا أو ذاك - أعني آرامية اسم (عزرا) الكاتب أو عبرانيته - فالراجح عندي أن القرآن لم يأت بهذا الاسم (عزير) من فراغ، وإنما جاء به على نحو ما نطق به هذا الاسم يهود يثرب، الذين فهموا من هذا الاسم معنى اسم الفاعل من (عزر) العبري، فجاءوا به على الأصل العبري لزنة اسم الفاعل في العبرية (عزير) مضمومة العين مكسورة الزاي بعدها ياء ممالة.

ولكن العربية الفصحى، وأمها عربية القرآن، لا تعرف هذا الوزن - أعني (عزير) الممالة الياء - وإنما تعرفه فقط العربية العامية في نطقها أمثال (حسين)، (عبيد).

هذا الوزن العبري (عزير) الممالة الياء لا يتزن على أوزان العربية إلا إذا جئت به على أقرب الأوزان العربية إليه، وهو الوزن (فُعيل)، فتئول (عزير) الممالة الياء إلى (عزير) التي في القرآن.

جاءت إذن (عزير) في القرآن على التعريب لا على التصغير كما وهم أدعياء الاستشراق. وهو أيضًا تعريب مفسر لا يحتاج من القرآن إلى تفسير آخر لمعنى هذا العلم الأعجمي لوحدة المادة اللغوية المنحوت منها لفظ (عزرا) العبري/ الآرامي ولفظ (عزير) الذي في القرآن: غاية ما تفهمه من (عزير) إن حاولت فهمه عربيًّا أنه (العزر) مصغرًا فهو (عزير) جاء نطقًا ومعنى على مثال (نصر) و(نصير) الفاشيين في أعلام العرب. وقد صاغت العربية أسماء نادرة على (فعيل) لا تريد منه التصغير، أشهرها (لجين) التي تفهم منها معنى (الفضة) لا (الفضيضة). والاسم (عزير) في القرآن بهذا أشبه.

ومن إعجاز القرآن الذي لم يلتفت إليه أحد، أنه يحدد لك شخص (عزير) المعني بأنه (عزرا) الكاتب لا غيره. تستظهر هذا من قوله عز وجل معقبًا على (دعوى البنوة) التي أسبغت على عزير وعلى المسيح: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1]، يعني كانت البنوة المدعاة لصنفين: عزير (الحبر)، والمسيح عبد الله ورسوله. وليست (الحبر) هي العالم بإطلاق على ما شهرت به، وإنما هي أيضًا (الكاتب) يحبر كتابته، شأن كتبة التوراة، وأحبار اليهود هم حفاظ التوراة وكُتّابها. وقد كان عزير (أعني عزرا الكاتب) عند اليهود هو هذا الكاتب الحبر. ولم يكن عزرا عند اليهود كاتبًا فحسب، ولكنه أيضًا كاهن كاتب (كوهين سوفير)[2] بل هو الأستاذ المعلم: (وفي اليوم الثاني اجتمع رؤساء آباء جميع الشعب والكهنة واللاويين إلى عزرا الكاتب ليفهمهم كلام الشريعة)[3]، مهيبًا جليلاً: (ووقف عزرا الكاتب على منبر الخشب الذي عملوه له لهذا الأمر، ووقف بجانبه مَتّيا وشَمَع وعَنَيا وأُوريا وحِلْقِيًا ومَعْسِيا عن يمينه، وعن يساره فَدايا ومِيشَائِيل ومِلْكيًا وحَشُوم وحَشْبَدّانة وزكريا ومَشُلّام. وفتح عزرا السفر أمام كل الشعب، لأنه كان فوق كل الشعب)[4].

أما قائل هذا الكلام، نحميا صاحب هذا السفر المعنون باسمه ضمن أسفار العهد القديم، فليس نبيًا ولا كاهنًا، وإنما هو والي فارس على إقليم (اليهودية) في فلسطين الذي آلت إليه (مملكة يهوذا) بعد الاحتلال البابلي وورثته فارس فيما ورثت عن بابل. ورغم سلطان نحميا في أورشليم المستمد من سلطان فارس، تراه وهو يهودي مثل عزرا يقول عن عزرا إنه

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٢) راجع في هذا النصين العربي والعبراني: نَحَمْيا ٨/ ٩.

(٣) نحميا ٨/ ١٣.

(٤) نحميا ٨/ ٤ – ٥.

(فوق كل الشعب) يسمع له نحميا ويطيع. وما ذاك إلا لأن ملك فارس، أرتحشتا ملك الملوك، سمع لعزرا واستجاب لكل سؤله حتى لتكاد تظن أنه انخلع من دينه ودخل في دين عزرا: (عزرا هذا صعد من بابل وهو كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاها الرب إله إسرائيل، وأعطاه الملك حسب يد الرب إلهه عليه، كل سؤله)[1]، بل أعطاه تفويضًا على بياض: (من أرتحشتا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن الكاتب شريعة إله السماء الكامل، إلخ.)[2]، يقول فيه: (ومني أنا أرتحشتا الملك، صدر أمر إلى كل الخزنة الذين في عبر النهر إن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء فليُعمل بسرعة إلى مائة وزنة من الفضة، ومائة كُرٍ من الحنطة، ومائة بَثٍّ من الخمر، ومائة بَثٍّ من الزيت والملح من دون تقييد)[3]. ومن كانت هذه حظوته عند ملك الملوك: (قد صدر مني أمر أن كل من أراد في ملكي من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين، أن يرجع إلى أورشليم معك، فليرجع. من أجل أنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة إلهك التي بيدك، ولحمل فضة وذهب تبرع به الملك ومشيروه لإله إسرائيل الذي في أورشليم مسكنه. وكل الفضة التي تجد في كل بلاد بابل من تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلههم الذي في أورشليم. لكي تشتري عاجلًا بهذه الفضة ثيرانًا وكباشًا وخرافًا وتقدماتها وسكائبها وتقربها على المذبح الذي في بيت إلهكم في أورشليم. ومهما حسن عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقي الفضة والذهب فحسب إرادة إلهكم تعملونه. والآنية التي تعطى لك لأجل خدمة بيت إلهك فسلمها أمام إله أورشليم. وباقي احتياج بيت إلهك الذي يتفق لك أن تعطيه فأعطه من بيت خزائن الملك)[4]، أقول من كانت هذه حظوته عند الملك، بل من كانت الشريعة بيمناه والمال بيسراه وسلطان الملك من ورائه، فلا تستكثر عليه أن يلهج الناس بحمده وتعظيمه حتى الإغراق، والمغالاة كما مر بك إسفاف لا تؤمن مغبته. وقد حدث.

(١) عزرا ٧/ ٦.

(٢) عزرا ٧/ ١٢.

(٣) عزرا ٧/ ٢١ - ٢٢.

(٤) عزرا: ٧/ ١٣ - ٢٠.

شح العلم والعلماء في زمن عزرا الكاتب، فانفرد وحده بالكلمة في بني إسرائيل. لم يكن نبيًّا، نعم. ولكنه كان أخطر من نبي. فإلى عزرا هذا وحده يعزى النص المقدس الذي استنسخه من ذاكرته لتوراة موسى التي بين يديك الآن، والذي لا تبعد به أبعد من قرن عزرا الكاتب، القرن الخامس قبل الميلاد، بعد وفاة موسى عليه السلام بنحو سبعة قرون.

ترى إلى أي مدى صدقت ذاكرة عزرا، وكم حفظت أو ضيعت؟ علم هذا لله وحده. ألا ليت عزرا الكاهن الكاتب كان نبيًّا تأتمنه على وحي الله، معصومًا بعصمة أنبيائه في البلاغ والتبليغ عن الحق تبارك وتعالى. إذن لجاءتك توراة موسى عليه السلام بنفس نصها المسطور في الألواح! لا عليك. حسبك القرآن المصدق المهيمن وفيه الكفاية، الذي تعهد الله بحفظه كاملًا غير منقوص إلى قيام الساعة، لا يتحرف أو يتبدل في الصدور، ولا يتصحف على يد النساخ.

* * * *

ولا ينقضي القول في عزرا أو عزير قبل الإشارة[1] إلى ما قيل من أن عزيرًا هذا هو ذاك الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. جاء القرآن بهذه المعجزة الكبرى في الإماتة والإحياء، يمهد بها للآية التالية مباشرة (البقرة: ٢٦٠) في سؤال إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الله الموتى، فأمر بذبح أربعة من الطير ثم يجعل لحمها أخلاطًا يفرقها في قمم أربعة جبال ثم يدعوهن فيأتينه سعيًا، قد جمع الله كل جزء إلى جزئه، ثم نفخ فيهن الحياة. كانت كلتا المعجزتين أكبر من أختها،

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٢٥٩ من سورة البقرة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

ولكن المعجزة التي أراها الله إبراهيم كان شاهدها إبراهيم وحده، أما الأخرى فكانت (آية للناس)، لأن الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه عاد إلى قومه يحدث بها، لم تنل المائة السنون من نضارته شيئًا، فلا يستطيع تكذيبه من بلغ به الكبر من قومه، الذين عرفوا فيه ذلك الفتى يوم خرج من قريتهم على حماره هذا نفسه يحمل طعامه وشرابه فافتقدوه مائة عام. ومن الناس من تكون آيات الله عليه عمى، المكذب والمسف سواء، فقيل (ابن الله) كما يحكي مفسرو القرآن.

ولا يصح أن يقال إن عزرا الكاتب هو هذا الرجل - إن قلت إن عزرا الكاتب هو نفسه عزير المسمى في القرآن - فتكون قريته هي تلك القرية الخاوية على عروشها التي خربتها بابل، أي أورشليم، إذن لكانت ميتته في أورشليم نفسها، ولما صعد منها في سبي بابل وعاد إليها بقومه يوم عادوا إلى أورشليم من هذا السبي، أو لعاد قومه إلى أورشليم وما زال عزرا في الميتة التي أميتها مائة عام، لم يشهد معهم إعادة بناء الهيكل الذي جاءوا من بابل لإعادة بنائه فور عودتهم، وعزرا الكاتب لم يشهد فقط إعادة بناء هذا الهيكل، وإنما شارك في إعادة بنائه مشاركة القائد الرئيس، بل الممول عن أمر ملك فارس. ولو كانت تلك الآية الكبرى في عزرا الكاتب لما فاتت على اللاهجين بمآثره في سفري عزرا ونحميا على ما مر بك. بل ليس في العهد القديم كله، أو في الكتاب المقدس بشطريه، إشارة إلى شخص أماته الله مائة عام ثم بعثه.

وقد مر بك أن القرآن في (عزير) يكاد ينص بالاسم على عزرا الكاتب الحبر، في تعقيبه على دعوى البنوة لله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1]، فلا يترجح لديك قول بغيره.

ليس ما يمنع من أن يكون الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه رجلًا من غير بني إسرائيل لم يحيطوا به خبرًا، ولكنهم علموه من القرآن فاصطنعوه كدأبهم لأنفسهم ثم حدثوا بقصته

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(المليئة بالتهاويل في تفاسير القرآن) مفسري القرآن الآخذين عنهم، الذين وجدوا فيها المبرر لانزلاق اليهود إلى دعوى البنوة على عزير، ابن الله في قول من قال.

الصحيح أن الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه فكان من آيات الله كالفتية أصحاب الكهف، رجل لم يسمه القرآن، كما لم يسم أصحاب الكهف. وكل خبر في القرآن واقع لا محالة قد وقع. ولكن القرآن سرد الخبر وتكتم الاسم، فهو من غيب الله لا يخاض فيه، والله عز وجل بغيبه هو وحده العالم الأعلم.

* * * *

(٥١) لقمان

ورد اسم (لقمان) في القرآن مرتين اثنتين في سورة سميت باسمه. وليس له سمي أو نظير في أعلام الكتاب المقدس بشطريه، وإنما انفرد القرآن بذكره على غير سابقة في التوراة والإنجيل.

ولقمان حكيم من الحكماء، ليس بنبي، بل صديق أو ولي، قال فيه عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[1]. وقد شرف لقمان أي شرف بذكر اسمه في القرآن في سورة سميت باسمه، ولم ينل هذا الشرف من دون الأنبياء إلا مريم أم عيسى. بل قد شرف لقمان الشرف كله بالنص على وصاياه لابنه وهو يعظه في قرآن متلو يتعبد الناس بتلاوته إلى يوم القيامة. ربما لم تأت في القرآن بذات اللفظ الذي نطق به لقمان، ولكن يكفيه أن الله عز وجل أجراها على لسانه نابضة بلباب الحكمة: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2]، ظلم للفطرة، وظلم للنفس، وظلم للعقل، وظلم للحواس. وقوله: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[3]، لا ملجأ منه إلا إليه سبحانه. وقوله: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[4]. هذه الوصايا القصار الثقال ليست هي لباب الحكمة فقط، وإنما

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٦.

(٤) سورة لقمان، الآيات: ١٧ – ١٩.

هي جُمَّاع الإيمان والعمل الصالح، أثقلها في جنب الله عز وجل قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأثقلها في حق العباد وفي حقك أنت أن تأمر في مجتمعك بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهذا هو جماع القول في سياسة الدولة والمجتمع: تستقيم على ما أمرت به في كتاب ربك وسنة نبيك لا تحيد عنهما إلى غيرهما، فتكون كما أرادك الله أن تكون في قوله عز وجل للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]. أي جنديًّا لله في أرضه، يَطْعَمُ مِنْ رِزقه، ويعمل في طاعته، ويأتمر بأمره، والله من فوقك رقيب حسيب لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، فإما رضوان الله أو سخطه، نعوذ بالله من سخطه. بهذه الوصايا القصار الثقال، أثبت القرآن للقمان لباب الحكمة، وسبحان العزيز الحكيم: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2].

وقد مر بك من قبل من قول الله عز وجل انحصار النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم من بعد نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[3]، فليس نبي من بعد إبراهيم، ولا كتاب، إلا في نسل إبراهيم، لتمنيه على الله عز وجل حين عقد له لواء الإمامة يوم البلاء المبين، أن يجعل إمامة الناس في ذريته من بعده، فاستجاب له عز وجل، واستثنى الظالمين: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4]، أي هذا لك عليَّ عهد لا يدخل فيه من ظلم وأفسد، لا ينالهم ولا يصل إليهم. وقد نال هذا الشرف أنبياء أئمة: إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وجملة أنبياء بني إسرائيل، وختمت الإمامة بمحمد ﷺ خاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين. وليس نبي قص القرآن عليك نبأه إلا هؤلاء فيمن جاء بعد إبراهيم. أما شعيب الذي جاء بعد إبراهيم بنص القرآن، وليس من أنبياء بني إسرائيل بالقطع، على ما مر بك في موضعه، الذي نرجح أنه

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

حمو موسى كما يقول جمهور المفسرين، فالراجح أنه من بني إسحاق غير يعقوب، أو من نسل بني إبراهيم غير إسماعيل وإسحاق، فليس نبي من بني إسماعيل إلا خاتم النبيين.

ولكن القرآن لم يعد لقمان في عداد من تحدث عنهم من الأنبياء من ذرية إبراهيم، فتقول ربما كان نبيًّا ما بين نوح وإبراهيم، أو ما بين آدم ونوح شأنه شأن إدريس - وقد قال بتقدم لقمان على عصر إبراهيم مفسرون - أو تقول كما نقول ويقول الجمهور إن لقمان حكيم ليس بنبي، فليس هو بالضرورة من بني إبراهيم أو بني إسرائيل، بل تقول مصيبًا غير مخطئ إنه لو كان من أهل الكتاب لما سكت عنه أهل الكتاب، وقد خلا الكتاب المقدس بشطريه من ذكر لقمان.

ولعلك تتفق معي أن اقتصار القرآن في الحديث عن لقمان على موعظة لقمان لابنه دليل على أن لقمان لم يكن نبيًّا في قومه، وإنما كان رجلًا فاضلًا في أهله وذويه، آتاه الله الحكمة ولم يؤته النبوة، بلغ من حكمته أن يسجلها له الله عز وجل في قرآن يتلى، فهو حكيم الحكماء. وليس كل حكيم بنبي، وإن كانت الحكمة من أشراط النبوة، فليس نبي إلا حكيم. وإذا كان عز وجل قد حصر النبوة والكتاب من بعد إبراهيم في ذرية إبراهيم، فالحكمة من فضل الله عز وجل يؤتيها من يشاء، ليست قصرًا على ذرية إبراهيم. من هنا يتسع لك باب البحث عمن كان لقمان، لا تحصره في أمة بعينها، ولا تشترط أن يكون اسمه على أصله عبريًّا كالعبرانيين.

ولكنك تثبت للقمان ما أثبته له القرآن، أعني رتبة الصديق على ما تقدم ذكره في حواشي هذا الكتاب: قد خوطب لقمان على ملائكة الله عز وجل بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾![1] على الأمر منه عز وجل، والمخاطب على ملائكة الله عز وجل صديق وإن لم ينبأ، على القول الذي به نقول، شأن امرأة فرعون وامرأة عمران، وأم موسى وأم عيسى، رضي الله عنهم جميعًا ورضوا عنه.

ها قد اتسع أمامك باب البحث عمن كان لقمان. ولكن ماذا قالوا في لقمان؟

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.

أما المستشرقون المنكرون على القرآن[1]، فقد أسفُّوا أيما إسفاف في لقمان، لأنهم كما مر بك لا يتصورون أن يكون في القرآن شيء لم يتسقطه من أهل الكتاب أو أقاصيص أهل الكتاب. قالوا إن الاسم لقمان يجيء في العربية من الجذر (لقم) يعني (بلع)، فهو سمي ملك أدوم في سفر التكوين (بَالَع بن بِعُور)[2] - وأصله في العبرانية (بِلِع) على المصدرية واسم الفعل من الجذر العبري (بَلَع) بمعنى ابتلعه أو أتى عليه وأفناه - فجاء به القرآن على (لقمان)، أو هو (بِلْعَام بن بِعُور) - على زنة (فِعْلَام) من نفس الجذر العبري (بلع) - نبي من غير بني إسرائيل عاصر موسى عليه السلام (عدد ٢٢/ ٥). وقد تظن أن هذا جهد علمي يليق بمستشرقين علماء، والواقع أنهم اتكأوا فيه كدأبهم على أصحاب التفاسير والسير الذين ائتمنوا الرواة من أهل الكتاب، فقد قال ابن إسحاق إن لقمان هو بَالَع بن بَعُوراء - انظر تفسير القرطبي للآية ١٢ من سورة لقمان - وما كان لابن إسحاق أن يعلم علم بالع هذا إلا من رواته من أهل الكتاب الذين فطنوا إلى هذا الجناس المعنوي بين بالع ولقمان. أما بالع ملك أدوم فلا تحدثك التوراة عنه بشيء، حكيمًا استطارت حكمته أو غير حكيم. وأما بِلْعَام ابن بِعُور الذي عاصر موسى عليه السلام فقد كان عند اليهود (نبيًا لعانًا) استأجره بالاق بن صِفُور ملك موآب ليلعن له بني إسرائيل حتى ينكسروا أمامه في حربه معهم، ولكن الله كان يحول لعنات بلعام فترتد على جيش الموآبيين وحلفائهم[3]، ولو كان مفسرو القرآن وأصحاب السير يقرءون في أسفار هذه التوراة فعلموا حقيقة (بلعام) لأحجموا عن مساواته بلقمان الذي في القرآن.

قال هؤلاء المستشرقون أيضًا، إن موعظة لقمان لابنه شبيهة بما في أساطير السريان عن (أحيقار) - وهي (أخو الوقار) بمعنى ذي الوقار - الذي يعظ ابنه بما معناه: يا بني طأطئ رأسك وألن قولك وغض بصرك، فلو كان بيت يبنى بجهارة الصوت لبنى الحمار بيتين في

(١) راجع: *Joseph Horovitz*، المرجع المذكور، ص٢٩ - ٣١.

(٢) تكوين: ٣٦/ ٣٢.

(٣) راجع الإصحاح ٢٢ من سفر العدد.

يوم[1] وهذا ضعيف كما ترى، يدلك على مدى هزل هؤلاء المستشرقين، يأخذون وجه الشبه من نهيق الحمار في الموعظتين أما مطاطأة الرأس وإلانة القول وغض البصر، فهذا من الشائع المأثور الذي لا تخلو منه موعظة مرب، وليس هذا هو لب مواعظ لقمان، وإنما أدناها. على أن لقمان يأخذ على الحمار نكر الصوت، أما (أحيقار) السرياني فيقول إن جهارة الصوت شأن صوت الحمار، لغو لا طائل من ورائه.

على أن سوء التشبيه بين (أحيقار) السرياني ولقمان الذي في القرآن يكفي بذاته للمباعدة بينه وبين مقولة هذا القائل فتستبعد (أحيقار) السرياني كما استبعدت من قبل (بِلِع)، (بِلْعَام). قد استبعدهم أيضًا *Joseph Horovitz* الذي ننقل عنه هذا الكلام.

قالوا أيضًا فيما يرويه عنهم هذا المستشرق إن الاسم اليوناني (الكميون)، وشبهه (الكمان) ("*Alkman*"، "*Alkmaion*") فيه شيء من (لقمان) الذي في القرآن، مشيرين إلى تردد هذا الاسم اليوناني في (دوائر واسعة بالمشرق). وليس على هذا دليل كما عقب هذا المستشرق نفسه فقال إنه إن كان لا بد من يونانية (لقمان) فهو يؤثر الاسم اليوناني (لقيان) (*Lucian*) المحفوظة أقوال له في مدونات سريانية، مشيرًا إلى يسر تصحيف (لقيان) بالياء إلى (لقمان) بالميم في رسم المصحف، وهي فرية مضحكة مبكية لا يخجل من اصطناعها أدعياء الاستشراق الذين لا يحيلون التصحيف على المصحف الإمام يسدون بها الثغرة في تهافت حجاجهم مع القرآن، وكأنهم يقيسون المصحف الإمام على (توراة الأنبياء والكتبة) التي تراوحت عليها أقلام النساخ، فيفتضحون بجهلهم القديم بتاريخ القرآن، وجمع القرآن، وتدوين القرآن. ولكن هذا المستشرق يعود أيضًا فيستدرك على نفسه وقد أعياه البحث عن (لقمان) عند أهل الكتاب وعند السريان وعند اليونان، فيقول إنه ليس على هذا كله دليل، والراجح عنده في النهاية أن لقمان اسم عربي أصيل عرفه العرب قبل القرآن، فقد ذكره من

(١) ترجمة من عندنا لعبارة *Joseph Horovitz* الإنجليزية، وهي:
"My son. Lower thy head. speak softly and look down. For if a house could be built by means of a loud voice. the ass would be able to build two houses in one day".

شعرائهم أمثال طرفة والأعشى وزهير وامرئ القيس والمخبل وأفنون، وغيرهم، فضلًا عن أساطير العرب في (لقمان بن عاد)[1].

****

أما مفسرو القرآن[2] فقد تفاوتت أقوالهم في لقمان. وقد مر بك ما حكاه القرطبي عن ابن إسحاق في (بَالَع)، (بَلْعَام)، ولكن ابن إسحاق رحمه الله تكتم مصادره فلم ينص على (بلع)، (بلعام)، وإنما قال في المرتين (لقمان بن باعوراء)، وباعوراء - التي هي (بعور) في التوراة - تكشف مصادر ابن إسحاق بجلاء. وقال السهيلي كان لقمان نوبيًا من أهل إيلة (وما أبعد البون ما بين أرض النوبة وأرض فلسطين!)، وقيل أيضًا عن سعيد بن المسيب إن لقمان أسود من سودان مصر ذو مشافر (يعني عظيم الشفتين) وعظم الشفتين في هذه الرواية وأمثالها محاولة لتفسير معنى (لقمان) بأنه عظيم اللقمة، تلقامة تلقام - وهو فهم غير دقيق لأصل معنى الجذر العربي (لقم) كما سوف ترى - وقال وهب ومقاتل والزمخشري كان لقمان ابن أخت أيوب أو ابن خالته - وهي محاولة لتأصيل عروبة لقمان على عروبة أيوب في قول بعض المفسرين وهذا غير صحيح بناء على ما قلناه في تحليل اسم (أيوب) وأنه من بني إسرائيل على الصحيح - وقيل كان لقمان من أولاد آزر أبي إبراهيم، عمِّر ألف سنة فأدرك داود. وروي عن ابن عباس أن لقمان كان رجلًا حكيمًا بحكمة الله تعالى قاضيًا في بني إسرائيل أسود مشقق الرجلين ذا مشافر يعني عظيم الشفتين كما مر بك. فتعجب كيف يكون قاضيًا في بني إسرائيل نوبي أو من سودان مصر.

ربما تجد في هذا الإصرار على سواد بشرة لقمان دليلًا على أنه ليس من بني إسرائيل. ولكن سواد بشرته ليس مانعًا من أن يكون لقمان عربيًا من العرب، وعربية لقمان أليق بعربية اسمه. أما القول بأنه مصري أو من سودان مصر، أو من أهل النوبة، فليس ما يمنع من هذا بالطبع، فقد سكت القرآن والحديث الصحيح عن نسب لقمان في أمة بعينها. ولكن القول

(١) راجع هذا على: *J. Horovitz*، المرجع المذكور، ص٣١.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ١٢ من سورة لقمان.

مرسل ليس عليه دليل. ولا يصح أن يكون الاسم (لقمان) علمًا أعجميًّا من المصرية القديمة بالذات، لأن المصرية القديمة تفتقد حرف (اللام) - الحرف البادئ في (لقمان) - وتضع في موضعه حرف (النون)، وأحيانًا قليلة حرف (الراء)[1] ومن أمثلة ذلك في جذور المصرية القديمة المشتركة مع الساميات: اللام النافية ولام الملك ولام الاتجاه، المعبر عنها في المصرية القديمة بالحرف (نِـ) ولفظة (لُبّ) العربية العبرية الآرامية بمعنى القلب والفؤاد المعبر عنها في المصرية القديمة باللفظ (رِب) وغيره كثير.

وإذا كان (لقمان) قد أعيا المستشرقين والمفسرين البحث عمن يكون، وليس في القرآن والحديث الصحيح ما يدل عليه، فليس شخص لقمان هو الذي يعنينا بالدرجة الأولى في مباحث هذا الكتاب الذي نكتب، وإنما الذي نهتم له فحسب هو معنى هذا الاسم (لقمان) وتفسيره من القرآن بالقرآن، مقصدنا الأول في هذا الكتاب. والقرآن كما سوف ترى يفسر هذا الاسم على أصل عربي، فتقطع بعربية الاسم والشخص، وسبحان العليم الخبير.

* * * *

ليس معنى الجذر العربي (لقم) هو (البلع) كما يبدو لك للوهلة الأولى، وكما استشعر المفسرون الذين وصفوه بعظم الشفتين مجانسة على ما فهموه من معنى (لقمان). وقد ظنوه كما ترى زنة مبالغة من (لقم) فهو صنو (تَلْقام)، (تَلْقامة) يعني (عظيم اللقمة)، وهذا يحتاج إلى سعة الفم وغلظ الشفتين. وقد جرهم هذا الفهم على ما أرجحه أنا إلى التورط دون دليل في القول بسواده ونوبيته أو سودانيته، يعنون (زنجيته)، لشيوع غلظ الشفتين فيهم.

ولكن معنى (لقم) الرئيسي على أصله ليس كذلك، وإنما هو بمعنى سده فأحكم سداده حتى غص به. تقول من هذا: لقم الطريق، يعني سد فم الطريق على من يريد الخروج منه.

(١) انظر في افتقاد المصرية القديمة حرف اللام وإبداله نونًا أو راء: *A. Gardiner, p27 EGYPTIAN GRAMMAR* أما اللام النافية فهي في مثل قولك: لا أفعله، وأما لام الملك ففي قولك: لله المشرق والمغرب وأما لام الاتجاه فهي المبدلة من الحرف (إلى).

وأيضًا ألقمه حجرًا، يعني أسكته وأفحمه، والحجر هنا للتقوية، لأن (ألقمه) بذاتها كافية. وليست (لَقِم) بذاتها يعني (بَلَعَ) كما ظن ذلك المستشرق وأضرابه، وإنما اللقم هو الأخذ بجمع الفم، أعني ملء الفم، ويجيء البلع بعد ذلك. واللقمة هي ما يسد الفم سدًّا، أي التي تملؤه. ولا تزال (اللقمة) لقمة ما بقيت بالفم لا تجاوزه إلى (البلعوم). والتقم الطفل ثدي أمه، من هذا، فهو لا يبتلعه، ولكنه يأخذه بجُمَّاع فيه. ومن هذا أيضًا قوله عز وجل في يونس: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[1]، ليس معناها ابتلعه، كما تجد في بعض المعاجم ومنها (المعجم الوسيط) الصادر عن مجمع اللغة العربية بمصر، وإنما معناها أن الحوت أخذ يونس بملء فيه، أي كان يونس للحوت لقمة امتلأ منها فوه، ثم جاء الابتلاع بعد ذلك فصار في بطن الحوت، فهو مكظوم: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[2]، أي مضيق عليه مكتوم. حدث هذا في بضع ثوان، ريثما استجمع الحوت عضلات بُلعومه لابتلاع يونس بعد التقامه، فلا ابتلاع إلا بعد التقام. ولكنه التصوير الفني المعجز الذي عهدته في القرآن، لا يريد أن تفوتك اللحظة الهائلة: لحظة التقام الحوت يونس.

والعامية المصرية تبدل من قاف (لقم) في معنى الكَظَّة والاكتظاظ، كافًا، تقول منه بالعامية المصرية (اتلكمت)، (ملكوم) وأصلها الفصيح (ملقوم) والمعنى (كُظِظت) فأنا (مكظوظ)، لا (ابتلعت) ولا (مبلوع). كما تجد نظير هذا في تلك الحلواء الشامية، (اللكوم) - الملبن في مصر - وأصلها الفصيح (اللقوم) من اللقم، فهي (اللاقمة)، سداد الفم، وربما سداد النفس أيضًا من شدة حلوها.

أما العبرية والآرامية فقد أميت فيهما الجذر العربي (لقم) وإن بقيت أثارة منه بالمعنى الذي ذكرناه، السد والانسداد، في عبرية التوراة، وهي لفظة (لقُّوم) (سفر يشوع ١٩/ ٣٣) اسم موضع لسبط نفتالي، يفسر علماء التوراة[3] معناها من الجذر العربي (لقم) بمعنى سداد

(١) سورة الصافات، الآية: ١٤٢.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤٨.

(٣) انظر المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، المرجع المذكور، ص٤٤٩.

الطريق، فيقولون إن لقوم = الحصن، الحائل المانع.

* * * *

أما (الحكيم) في العربية فهي بمعنيين: الذي يحكم هوى نفسه أي الذي يعقل نفسه عن الهوى، والآخر هو الحكيم قائل الحكمة، يحكم قوله فيسد على سامعه منافذ القول، لا مقولة بعده لقائل، الذي أسكت خصمه وأرتج عليه، يعني سد فمه، أي ألقمه. ويقول العرب كظ فلان خصمه يعني ألجمه حتى لا يجد مخرجًا، وكظه بمعنى ألقمه.

وأصل معنى الجذر العربي: (حَكَمَ) هو المنع والصرف، ومنه (الحَكَمة) بفتحتين، تلك الحديدة في فم الفرس التي تلجمه بها فتحكمه عن السير على هواه، وأحكم الفرس يعني جعل للجامه حَكَمة. وأصل الحُكم والحِكمة من هذا. وكل معاني الحُكم والحِكمة متفرعة على هذا الأصل، مجازًا وتوسعًا، فتجيء الحكمة بمعنى العلم والفقه، لأن العلم شرط في الحكمة، لا حكيم إلا عالم قد أحكمه العلم عن اللغو، ويقال من الصمت حكمة، والمراد صمت العالم، لا صمت الجاهل، ويقال أحكمه بمعنى أتقنه، والأصل ضَبَطه، وهكذا.

والاسم (لقمان) في القرآن من هذا: إنه الحكيم قائل الحكمة، اللاقم سامعه، أوتي الحكمة، يعني فصل الخطاب، لا يملك سامعه على قوله تعقيبًا، فقد (ألقمه).

وليست (لقمان) - وهي عربية كما ترى - ممنوعة من الصرف في القرآن للعجمة وإنما منعت من الصرف للعلمية المزيدة بالألف والنون، شأنها شأن (عثمان) التي لا يختلف على منعها من الصرف أحد.

وإذا كانت العرب عصر تصنيف تفاسير القرآن لم تعرف في (لقمان) معنى الحكيم قائل الحكمة، فهذا كما تعلم من أساطير العرب في (لقمان بن عاد) لأن لقمان عند العرب قديم - بل متطاول القدم - فهو من العربية الأولى، عربية عاد قوم هود.

* * * *

قال عز وجل يفسر (لقمان) بالمرادف المطابق اللصيق: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[1].

فسر القرآن إذن (لقمان) بمعنى الحكيم قائل الحكمة. وقد غلب لفظ الحكيم على لقمان، حتى ليكاد يغني ذكر أحدهما عن الآخر، فهو علم عليها وهي علم عليه.

وأصل معنى الشكر في اللغة الامتلاء من ري أو سمن، ثم استعير للامتلاء من النعمة. ثم استعير من بعدُ لظهورها، وأيضًا إظهارها بعرفانها والثناء عليها. وهذا المعنى الأخير هو وحده المشهور المعروف المستعمل في العربية المعاصرة.

والشكور من الإنسان والحيوان والنبت، هو الذي تبدو عليه آثار النعمة لا يكتمها، وإنما يبديها ويحدث بها. وفي الآية التي تلوت توًّا جناس معنوي خفي بديع: أي لُقِّمت يا لقمان الحكمة حتى مُلِّئت منها، فعظ بها. فكانت عظات لقمان لابنه في القرآن لباب الحكمة. وسبحان العزيز الوهاب، يؤتي الحكمة من يشاء، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

والحمد لله رب العالمين.

* * * *

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.

الفصل التاسع

المصدق والبشير

تمهيد

يتناول هذا الفصل في ختام مباحث هذا الكتاب تفسير ما بقي أمامنا من العلم الأعجمي في القرآن، وهي عشرة أعلام: زكريا - يحيى - عمران - مريم - عيسى - الإنجيل - النصارى - الصابئون - المجوس - الروم.

والأعلام السبعة الأولى (زكريا، يحيى، عمران، مريم، عيسى، الإنجيل، النصارى) هي أعلام المسيحية. فزكريا أبو يحيى، ويحيى ابن خالة مريم، ومريم ابنة عمران هي أم عيسى، رضي الله عنهم جميعًا ورضوا عنه، أنبياء وصديقين، أما الإنجيل فهو وحي الله على عيسى، وأما النصارى فهم المسيحيون أتباع المسيح.

أما الأعلام الثلاثة الأخرى (الصابئون، المجوس، الروم) فهم من أعلام المسيحية قريب. فقد قيل في الصابئين إنهم بقية من أتباع يحيى بن زكريا عليهما السلام، وقيل غير ذلك. وأما المجوس فهي علم على أتباع ديانة فارس أو الزرادشتيين أتباع زُرَادِشت، ولعلك قرأت في الإنجيل أن مجوسًا رأوا في السماء نجم المسيح فجاءوا من بلادهم يحضرون مولده عليه السلام ويقدمون له (هدايا ذهبًا ولبانًا ومُرًّا)[1]. وأما الروم فالمعنيّ بها في القرآن هم البيزنطيون وقيصرهم هرقل عصر نزول القرآن، وقد تسمى بها البيزنطيون في آسيا الصغرى والبلقان لأن ملوكهم كانوا سلالة من قياصرة روما قبل انهيار الإمبراطورية الرومانية على أيدي القوط، بل قد كان من البيزنطيين من خلع اسم (روما) - عاصمة إيطاليا اليوم - على بيزنطة - وهي استامبول اليوم في تركيا - تحنانًا إلى ذكرى روما الأولى - روما يوليوس قيصر وأوكتافيوس أوجستس ومركس أنطنيوس - أيام مجدها القديم.

(١) متى ٢/ ١١.

ولم نجد أنسب من هذا الفصل موضعًا للحديث عن الصابئين والمجوس والروم في سياق تحليلنا معاني أعلام المسيحية وتفسيرها من القرآن بالقرآن، فقد جاء (النصارى) مجموعين إلى الصابئين والمجوس في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]. أما الروم فلأنهم الذين آل إليهم منذ القرن الرابع لميلاد المسيح صولجان المسيحية وسلطانها.

****

وليس من مقاصدنا المباشرة في هذا الكتاب الذي نكتب نقد المسيحية في صورتها التي نقضها القرآن من قبل، أعني عقيدة التثليث والخلاص بالمسيح، فادي البشر بدمه المسفوح على الصليب، فقد تكفل القرآن بالنقد والنقض معًا، وليس بعد القرآن مزيد لمستزيد، الذي جاء بها ناصعة بينة في جواب المسيح ربه يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا، إنك أنت علام الغيوب: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[2]، وقوله عز وجل، المتفرد بالألوهية والملك: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[3]، ويدخل في الملائكة المقربين جبريل روح القدس صلوات الله عليه، ثالث الثلاثة في عقيدة التثليث. من هنا تستظهر أن المسيحية يوم رفع المسيح ليست هي تلك المسيحية التي جادل بها أساقفة نجران خاتم النبيين، التي صيغت أصولها في المجامع، بدءًا بمجمع نيقية عام ٣٢٥م، بعد رفع المسيح بنحو ثلاثة قرون، الذي أله المسيح على البنوة لله، ثم أعقبه بنحو خمسين سنة

(١) سورة الحج، الآية: ١٧.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١١٦، ١١٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٢.

مجمع آخر فصل القول في ألوهية روح القدس جبريل، فاكتمل الثالوث الأقدس: الآب والابن والروح القدس، ثلاثة في واحد.

ولكن مقولة المسيحيين في المسيح هي التي تفرض نفسها على كل بحث لغوي صرف يريد تحليل معنى علم المسيحية الأكبر، عيسى ابن مريم صلوات الله عليه، كما سترى، وأيضًا لفظة (إنجيل)، لأن مقولة المسيحيين في المسيح هي التي صنعت التفسير اللغوي الشائع لهاتين اللفظتين: (عيسى) - (يِشوع) عبريًا - ، (إنجيل) المقول بيونانيتها ترتيبًا على يونانية الأناجيل.

والذي ينبغي التنبيه إليه فيما مضى من مباحث الكتاب وفيما سوف يلي، أننا حين يلجئنا موضوع البحث إلى النقد، فهو النقد الرصين، نريد به وجه الحق تبارك وتعالى، فنختصم المقولة ولا نشجب القائل، فالهدى هدى الله عز وجل، ولو شاء لهدى الناس أجمعين، ولله وحده الفضل والمن: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]. ومن فضل الله على المسلم أنه معصوم بعصمة الله عز وجل عن الخوض في مقام أنبيائه: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[2]، ولا تستقيم لغير المسلم مع المسلم حجة إلا بالخوض في نبوة خاتم النبيين.

ومن فرائد إعجازات القرآن في غيوب القرآن قوله عز وجل في الآية التي تلوت توًّا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3]، أي سيظل من هؤلاء وهؤلاء فرق يفصل بينهم الله يوم القيامة، يوم يجيء كل أناس بإمامهم.

أما أنبياء الله ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، فسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٣) سورة الحج، الآية: ١٧.

(٥٢) زكريا

(زكريا) عليه السلام نبي بنص القرآن لمجيئه على نحو ما مر بك من قبل في لفيف من ذرية يعقوب معقب عليهم بقوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾[١]، وإن كان في الأناجيل التي بين يديك مجرد كاهن: (كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أَبِيًّا وامرأته من بنات هارون واسمها إلْيصابات. وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولد إذ كانت إليصابات عاقرًا، وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما)[٢]، ثم يمضي الكاتب في قصة ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام - المرسوم في أصول الأناجيل اليونانية وترجماتها جميعًا (يوحنا) على ما سيجيء في موضعه - وإلى صلاح آل زكريا عليه السلام يشير القرآن بقوله عز وجل: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٣].

وقد كان إعجاز ميلاد يحيى لزكريا وقد بلغ به الكبر عتيًّا شبيهًا كل الشبه بمولد إسحاق لإبراهيم وسارة: كلتا المرأتين عجوز عاقر، وكلا الرجلين شيخ كبير، ولكن الفاطر المبدع الباري الذي لا يعجزه شيء يقضي ما يشاء ويفعل ما يريد. ولو شاء الله خَلْقَ يحيى على مثال آدم بغير أب أو أم لفعل، ولكنه أراد النسبة إلى زكريا، كما أراد من بعد في خلق عيسى النسبة إلى مريم، وأراد قبل هذا وذاك النسبة إلى آدم أبي البشر جميعًا، كيلا يضل أحد في دعوى

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٩.

(٢) لوقا ١/ ٥ - ٧.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٩، ٩٠.

البنوة لله عز وجل، ولم يغفل عنها لحظة عيسى عليه السلام في نفس هذه الأناجيل التي بين يديك، لا يسأم من تكرارها على سامعيه حتى باتت علمًا عليه: إنه ابن الإنسان - وهي في العبرية (بن أدام) - يعني آدمي من بني آدم. والقرآن لا يجيء بذكر مولد يحيى إلا ويعقبه بذكر مولد عيسى - ولوقا يفعل نفس الشيء في إنجيله - يمهد لإعجاز بإعجاز، فكلتا الولادتين آية تنقطع دونها رقاب البشر: إخصاب بويضة الأنثى بغير مُخْصِب، أو خلق هذه البويضة مُخْصَبة ابتداء، أو إخصابها بكلمة منه عز وجل نفخًا من روح القدس جبريل كالذي تجد في القرآن وفي الإنجيل، والأخرى شأنها شأن الاستحياء من عدم، في زوج زكريا، كما تجد في قوله عز وجل الذي تلوناه توًّا: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، يعني استحيينا فيها، وهي العجوز العاقر، آلة الحمل والولادة، وسبحان الخلاق العليم. فلما عجب زكريا من هذا، قيل له: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[1]، يذكره بخلقه وبالخلق الأول، وعن هذا يضل كثيرون، يعظمون المفعول ولا يعظمون الفاعل، ولم يكن هذا موقف لوقا في إنجيله، بل هو يعقب على مولد يحيى وعيسى عليهما السلام بتسابيح لله العلي القادر.

على أن أخبار زكريا في القرآن لا تقتصر على أبوته ليحيى، وإنما هو أيضًا كافل مريم عليها السلام على ما تقرأ في القرآن، وليس في الأناجيل التي بين يديك من هذا شيء، وهي أيضًا لا تقص عليك شيئًا من أنباء خدمتها في الهيكل، وقال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[2]، وسبحان علام الغيوب.

****

أما الاسم (زكريا) فيجيء في العبرانية من جزأين: زكر + يا - وينطق عبريًّا (زِخَرْيا) على ما مر بك من تحول النطق في العبرية بعد متحرك أو معتل من الكاف إلى الخاء - .

(١) سورة مريم، الآية: ٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

أما المقطع الأول (زَكَرْ)، فهو الجذر العبري (زكر) المكافئ في كل معانيه للجذر العربي (ذكر)، أبدلت ذاله زايًا. وأما المقطع الثاني (يا) فهو مختصر من (يهوا)، اسم الله عز وجل في العبرية.

على هذا يكون معنى (زكريا) هو (ذَكَرَ اللهُ) بالضم في لفظة (الله) على الفاعلية للفعل العبري (زكر)، أو هو (ذكر اللهَ) بالفتح في لفظة (الله) على المفعولية من (زكر)، لأن العبرية ليس فيها إعراب فلا تستطيع القطع بأيهما المراد. وقد اختار علماء أهل الكتاب - بغير موجب من نحو اللغة العبرية - الوجه الأول (ذكر الله) على معنى (الذي يذكره الله). وهم في هذا - أعني علماء المسيحية - ينظرون لا إلى أصل التسمية فقد تسمى بالاسم (زكريا) من قبل في العهد القديم كثيرون أشهرهم بالطبع (زكريا بن بَرَخِيًّا) صاحب السفر المعنون باسمه في توراة الأنبياء والكتبة، وإنما هم ينظرون إلى دلالة الاسم على المسمى المعني في العهد الجديد، الذي تمنى على الله الولد وقد بلغ من الكبر عتيًّا فذكره الله في وحدته وضعفه وشيخوخته فاستجاب دعاءه. وهذا جيد لا غبار عليه في حق زكريا المعني في الإنجيل وفي القرآن. ولكنه تحيز بغير موجب من نحو اللغة العبرية كما مر بك لأحد الوجهين دون الآخر. بل الوجه الثاني، أعني (ذكر الله) بالفتح في لفظة (الله) على المفعولية لهذا الذاكر، فيكون المعنى (ذاكرُ اللهِ)، أوجه وأبين في منطق اللغة العبرية - وأيضًا غير متعارض مع نحوها - لأنك في الوجه الأول تحتاج إلى تفسير (ذكر) من الله عز وجل على معنى (استجاب)، أما في الوجه الثاني فالفعل (ذكر) من هذا الذاكر يظل على أصل معناه، والتفسير بالأصل أولى من التفسير بالمؤول. على أن الوجه الثاني أيضًا (ذاكر الله) لا يبعد بك عن دلالة التسمية على المسمى في حق (زكريا) المعني في الإنجيل والقرآن، العبد الذاكر الخاشع لقوله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1]، يعني يجيء الذكر من العبد أولاً، يذكر الله فيذكره الله، لا يصح العكس في جنب الله عز وجل. وهذا بالضبط الذي حدث لزكريا. (ذاكرُ الله): ذكر الله فذكره الله، كما تجد في هذا الجناس المعجز: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[1].

(زكريا) إذن على القول الذي به نقول، يعني (ذاكرُ اللهِ).

وقد عرب القرآن (زكريا) طبق الأصل من صورتها الشائعة في الأناجيل اليونانية، وهي *Zacharia* (زَخَرِيَّا) - الذي تضاف في آخره سين الرفع اليونانية حال وقوعه مرفوعًا كما مر بك - خالفوا العبرية بفتح الزاي البادئة بدلًا من كسرها وشددوا الياء بدلًا من تخفيفها. وهو نفس النطق العربي لهذا الاسم في القرآن، لولا إرجاع الخاء العبرية كافًا على أصلها. فقد علم العرب من قبل أن خاءات العبرية كاف كلها فلا تكاد تجد لمعرباتهم من تلك اللغة لفظًا لم تبدل خاؤه كافًا.

ولكن العرب - أعني مفسري القرآن كما تجد في تفسير القرطبي للآية ٣٧ من سورة آل عمران - لم يفطنوا إلى أن (زكريا) من الذكر، فقالوا بعجمته ولم يتصدوا لتفسيره، أعني لم يفطنوا إلى أن الزاي البادئة فيه مبدلة من الذال، وتكتم عليهم معنى الاسم رواتهم من أهل الكتاب، وما كان لديهم من عبرية التوراة القدر الكافي لتحليل معاني أعلام التوراة والإنجيل. ورغم أن القرآن - على منهجنا في هذا الكتاب - فسر الاسم زكريا بأجلى بيان في موضعين اثنين كما سترى، فما كان لديهم هذا المنهج الذي هدانا الله إليه بفضل منه ونعمة، له وحده الفضل والمن سبحانه.

* * * *

فسر الاسم (زكريا) في القرآن مرتين: التفسير بالمشاكلة - وقد مر بك في مقدمة هذا الكتاب - تجده في قوله عز وجل: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[2]، وكأنها: ذَكَرَت رحمة ربك عبده ذاكر الله، لا تجد جناسًا أبين من هذا ولا أدق ولا أجمل. ولكن روعة النغم المصاحب لجلال المعنى المنظوم في الآية يأخذ بمجامعك، فتلتفت إلى

(١) سورة مريم، الآيات: ١ - ٣.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ١، ٢.

الجناس اللفظي فقط بين (ذِكْر)، (زكريا)، وتفوتك المجانسة المعنوية بين اللفظين التي استبانت لك الآن: زكريا = ذاكر الله. وسبحان العليم الخبير، القائل بكل اللغات.

أما في المرة الثانية فقد جاء الاسم (زكريا) مفسرًا بالمرادف الدقيق في قوله عز وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ﴾[1]. وكأنه عز وجل يقول: اذكر ربك يا ذاكر الله. والتفسير هاهنا بالمرادف كالشمس وضوحًا، وسبحان الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

والذي يجب التنبيه إليه في ختام الحديث عن نبي الله زكريا عليه السلام أن الصوم عن الكلام ثلاثة أيام سويًّا - وسويًّا يعني سليمًا معافى لم يفقد القدرة على الكلام بمرض أو آفة - أصاب زكريا فور بشراه بيحيى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[2]، وأن هذا العجز المؤقت عن الكلام استمر معه ثلاثة أيام فقط كما تقرأ في القرآن. وكان زكريا قد سأل ربه آية يعلم بها تحقق البشرى، أي تحقق حمل زوجته بالغلام المبشر به، والقارئ المتعجل يظن أن الآية هي إمساك زكريا عن الكلام. والصحيح أن الآية هي انفكاك لسانه في ختام الأيام الثلاثة، يعني لما حدث الحمل انفك لسانه. لا يصح القول الأول، لأن زكريا كان لا يزال قائمًا في المحراب لحظة أصابَهُ العجز عن الكلام، لم يخرج بعد إلى زوجه كي تحمل منه. وإنما حملت منه أثناء هذه الأيام الثلاثة الموقوتة له من الله عز وجل. وإلا لقلت إن الحمل حدث قبل أن يدعو ربه، وإن الله بشره بشيء حدث لا بشيء سيحدث. وهذا يضعف المعجزة فلا يعود لها معنى. مُنِيَ زكريا إذن بالعجز عن الكلام ثلاثة أيام فحسب، أوتي خلالها - وخلالها فحسب

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٣٨ - ٤١.

(٢) سورة مريم، الآية: ١١.

أيضًا - القدرة على الإنجاب، فقد عاد زكريا من بعدها مباشرة نفس الشيخ الذي كانه، الواهن العظم، البالغ من الكبر عتيًّا، لا ينجب من بعد، شاهدًا على إعجاز الله فيه وفي زوجه. هذا أوجه وأبين، ولكنك لا تقرأ مثله في التفاسير التي بين يديك، فهو من الجديد الذي منّ الله علينا به[1].

والذي في إنجيل لوقا بشأن هذا الصوم عن الكلام أن زكريا طلب علامة على تحقق البشرى فاختار له الملك آية العجز عن الكلام على وجه التأديب، لأنه لم يصدق البشرى التي زفت إليه. ويقول أيضًا إن هذا العجز عن الكلام استمر مع زكريا منذ أن خرج على قومه من المحراب وطوال حمل زوجته بيحيى حتى وضعته، أي تسعة أشهر لا ثلاث ليال، فلم ينفك لسان زكريا إلا يوم ختان يحيى، أي اليوم الثامن من مولده: (وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا. فأجابت أمه وقالت لا، بل يسمى يوحنا. فقالوا لها ليس أحد في عشيرتك تسمى بهذا الاسم. ثم أومأوا إلى أبيه ماذا يريد أن يسمّى. فطلب لوحًا وكتب قائلًا اسمه يوحنا. فتعجب الجميع. وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله)[2]. ولا يصح هذا لأن تحقق البشرى يكفي فيه حدوث الحمل، فلا معنى لإسكات زكريا من بعد حتى يولد يحيى، إلا إذا قلت كما قال لوقا إن هذا الصمت الجبري كان من الله عز وجل على وجه التأديب، لا على وجه التبشير، أو قلت مجانبًا الصواب إن زكريا ما كان ليؤمن بتحقق البشرى إلا أن تضع زوجته حملها بالفعل، غلامًا يختنه ويسميه.

ولكنك تستبقي من قول لوقا في هذا الموضع من إنجيله جملة على جانب كبير من الخطورة وهي: (فقالوا لها ليس أحد في عشيرتك تسمى بهذا الاسم)، يعني (يوحنا) ومصداقه من القرآن: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[3]، فتفهم

---

(١) شاهدك على هذا من القرآن قوله عز وجل: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] يعني لا تكلم فيهن الناس عجزًا عن الكلام، وإن كنت فيهن أيضًا (السوي) بغير آفة، حتى آفة الكبر.

(٢) لوقا ١/ ٥٩ - ٦٣.

(٣) سورة مريم، الآية: ٧.

- مسيحيًّا كنت أو مسلمًا - أن هذا الاسم المعطى لهذا المولود (يوحنا في الإنجيل أو يحيى في القرآن) اسم قد جاء على غير سابقة في أعلام العبرانيين.

وإذا علمت أن الاسم (يوحنا) - وأصله العبراني (يُوحَنَان) - اسم فشا في أعلام اليهود قبل مولد يحيى عليه السلام بقرون، عجبت كيف يعجب قوم زكريا من هذا الاسم (يوحنا) وهو فاش في أعلامهم، وقلت جازمًا مصيبًا غير مخطئ إن زكريا وزوجه إليصابات لم يقولا في تسمية ابنهما هذا الاسم (يوحنا) الذي عجب له سامعوه، وما كان لهم أن يعجبوا، وإنما قال زكريا وإليصابات اسمًا آخر أُمِر به زكريا في المحراب لحظة البشرى بيحيى واتفق عليه الزوج وزوجه منذ تحقق البشرى بحدوث الحمل وقبل مولد يحيى، وأصرا عليه في مواجهة إنكار السامعين عليهما.

هذا يفسر لك لماذا قال القرآن (يحيى) التي يعجب لها علماء المسيحية، ولم يقل (يوحنا)، رغم علمه القاطع بأن المسيحيين يقولون (يوحنا) ولا يقولون (يحيى)، بدلالة نصه على معنى (يوحنا) الذي لم يفطن إليه المفسرون.

* * * *

(٥٣) يحيى

اخترنا عنوانًا لهذا الفصل كما رأيت: (المصدق والبشير)، وهما أبرز أعلام هذا الفصل، وأيضًا أبرز أعلام المسيحية أجمع الذين نختتم بهم هذا الكتاب.

أما (المصدق) فهو يحيى عليه السلام، المصدق بعيسى الذي هو كلمة من الله، لقوله عز وجل في يحيى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

وأما (البشير) فهو المسيح ابن مريم، عيسى صلوات الله عليه، المبشِّر بخاتم النبيين، لقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[2].

وفي الأناجيل التي بين يديك أن مريم عليها السلام حملت بعيسى عُقَيب حمل خالتها المعجز بيحيى، فكان يحيى وعيسى ابني خؤولة متعاصرين، بعث يحيى أولًا ثم أعقبه عيسى، فشهد كل منهما للآخر بالنبوة، يعني كان يحيى مصدقًا بعيسى على نحو ما تقرأ في القرآن. ولكنك لا تقرأ في الأناجيل التي بين يديك بشارة من المسيح باسم خاتم النبيين صريحًا، محمدًا أو أحمد، وإنما تقرأ في الأصول اليونانية لتلك الأناجيل أن المسيح بشر بإنجيل الله (مرقس ١/ ١٤) *Kerusson to euaggelion tou theou* (لا بملكوت الله كما تقول الترجمة العربية في نفس الموضع كما مر بك). وأنت تعلم بالطبع أن *euaggelion* اليونانية (المحلاة

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الصف، الآية: ٦.

في النص اليوناني بالبادئة *eu* - ومعناها الخيرة) تفيد معنى (الرسول)، فتفهم كمسلم - على ما يأتي في موضعه - أن (إنجيل الله) الذي بشر به عيسى في هذا النص اليوناني ***euaggelion tou theou*** هو (رسول الله) الخيرة، أي صفوة الرسل وإمامهم، محمد بن عبد الله، الذي ختمت به النبوة والرسالة، صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه، وعلى كل من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ولكن الذي نتوقف عنده في هذا السياق هو إعجاز النبوءة التي تضمنتها البشرى بيحيى عليه السلام ولم يولد بعدُ عيسى ولم يُحمل به: إنها بشارة صريحة لزكريا بمولد عيسى عليه السلام، أسبق من بشرى جبريل لمريم بمولده، وأيضًا إنباء بأن محور رسالة يحيى هو التصديق بعيسى، كالذي كان، وسبحان علام الغيوب. ولا تفوتك تلك الصياغة المعجزة التي في قوله عز وجل ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فهو كلمة منه سبحانه، لا كلمة الله، ولا (الكلمة) على التعريف الذي يفيد الحصر، ، كما يخطئ فيها كثيرون، مسلمون وغير مسلمين، عرب وغير عرب، والفرق كما ترى بين المعنيين جد كبير.

* * * *

تجيء (يحيى) عربيًّا على مضارع المفرد المذكر الغائب من الجذر العربي (حيا)، فمعنى الاسم (يحيى) الذي في القرآن هو إذن - عربيًّا - (الذي يحيى).

وللجذر (حيا) العربي - ويرسم أيضًا (حَيَى/ يحيا) كما يرسم (حيا/ يحيا) - معنيان: المعنى الأول من الحياة نقيض الموت، تقول: لن أنسى لك هذا الصنيع ما حييت! يعني ما دمت حيًّا لم أمت. والمعنى الثاني للجذر العربي (حيا) من الحياء بالهمزة، أي الاحتشام. تقول بهذا المعنى الثاني: حييت منه، تريد استحييت وخجلت. وأصله - أي الحياء - من الانقباض والانزواء، ومنه قيل للأفعى حية، لأنها تنقبض حين تستدير على نفسها كهيئة القرص.

والراجح عندي أن حيا حياء لا حياة، مبدل من الجذر العربي الآخر (حوى) بالواو، الذي يقال منه: تحوت الحية، أي تجمعت واستدارت، فهي في الأصل (حَوْيَة) أبدلت (حية).

والذي يعنينا الآن هو: إذا كان الاسم (يحيى) في القرآن من الجذر (حيا) فبأي المعنيين هو، أبمعنى الحياء أم بمعنى الحياة؟

****

نص القرآن على أن الاسم (يحيى) من الحياء، لا من الحياة، بقوله عز وجل: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[1]، فهو عليه السلام الحيي بمعنى الحصور، أي الحيي الذي يحيا حياء.

ولفظة الحصور في اللغة لها وجهان: الذي يكف نفسه عن شهوة النساء مع وجود القدرة، والثاني هو المكفوف عن النساء بآفة تقطع فيه هذه الشهوة. ويحيى بالمعنى الأول، لا بالمعنى الثاني، لأنه الذي يحيا، والذي يحيا إنما يحيا حياء لا عجزًا، والعنين المجبوب لا يجد الشهوة أصلًا حتى يحيا ويعف. وما كان لنبي أن تكون به آفة، فما بالك بآفة يسميه الله بها فضلًا وتشريفًا، على ما مر بك من أن الله عز وجل هو الذي سمى، على غير سابقة سمعت في أعلام العبرانيين: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[2]. بل قد تقدمت على صفة (الحصور) في يحيى صفة (السيد)، في قوله عز وجل ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[3]، وما كانت الناس لتسوِّد عنينًا أو مجبوبًا، حاشا لأنبياء الله أن تكون. والذي قلناه الآن بمنطق اللغة فحسب، أي أن الذي يحيا إنما يحيى حياء، كاف بذاته لقطع دابر إسفاف الرواة - الذي حكاه[4] عنهم القرطبي رحمه الله في تفسيره الآية ٣٩ من سورة آل عمران - ولا عليك من إسفاف الرواة.

بل كان يحيى صنو عيسى عليهما السلام: كلاهما بعث في ريعان الشباب ورِئْيِهِ وحُسَيْنَاه. ولم يلبثا في قومهما إلا قليلًا حتى قبضهما الله إليه، لا زوج ولا أبناء، فقد شغلا بقصر

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

(٤) قالوا كان (إحليله) كالقذاة - والإحليل مجرى البول يكني به عن الفرج للرجل والمرأة - قاسوه على الناقة الحصور لا يقربها الفحل لضيق إحليلها خلقة. فأي خفة وأي إسفاف.

الرسالة عن هذا وذاك. وربما قلت إن الله شاء برحمته ألا تكون لأيهما ذرية يفتتن بها الناس، أو كي لا يقال إن اللاهوت في المسيح على قول من قال يمنع من إتيان النساء، فيقال له قد كان يحيى أيضًا على هذا المثال، أي كان يحيى وعيسى كلاهما حصورًا، لا يحيى وحده، وهذا مقطوع به عند المسيحيين جميعًا بلا خلاف، ودعك من تخرص المُجَّان بأقاصيص يحيى وسالومى، وخوضهم في المسيح والمجدلية، فهذا من عورات هذه الحضارة، التي تطاولت فاستباحت باسم (حرية القول) الاجتراء على مقام النبوة والنبيين.

هذا هو اسم (يحيى) عليه السلام في القرآن، عربي ليس فيه شبهة عجمة، جاء بصورة مضارع المفرد الغائب المراد منه اسم الفاعل كما جاءت يثرب ويزيد، فهو الحيي حياء. وقد عجب علماء المسيحية لمجيء القرآن بهذا الاسم، وهو عندهم (يوحنا) كما مر بك. ولكن (يوحنا) هذه نفسها أيضًا مُنْكرة عند آل زكريا أبي يحيى، الذين راجعوه في تسميته بالاسم يوحنا لأنه عندهم اسم لم يتسم به من قبل أحد في عشيرتهم كما يروي لوقا في إنجيله، وقد مر بك. وقد عجبت أنت أيضًا لإنكارهم هذا الاسم (يوحنا)، رغم فشوه في أعلام العبرانيين بصورة أخرى هي (يوحَنَانْ). وعلماء المسيحية يقولون لك إن (يوحنا) هي نفسها (يوحنان)، دليلك في هذا أنهم في ترجماتهم الأناجيل إلى العبرية لا يقولون قط (يوحنا)، وإنما يقولونها على أصلها العبري (يوحنان). وهم أيضًا يفسرون معنى (يوحنا) بنفس معنى (يوحنان)، البادئة المشتركة فيهما (يو) مختصر (يهوا) اسم الله في العبرية، أما (حنان) و(حنا) فهما كلتاهما مصدر من الجذر العبري/ الآرامي (حَنَنْ) - نفس الجذر العربي (حَنَّ) - والمعنى أنه (حنان من الله)، تمامًا كالعلم العبري الآخر (حنانيا)، أي: هو يو + حنان، قدم فيه اسم الله عز وجل على التعظيم.

ترى أكان عجب آل زكريا لهذا الاسم (يوحنا) لأنهم لم يدركوا أن (حنا) معناها (حنان)؟ كيف، وعندهم (حنا) بمعنى (حنان) - وترسم أيضًا في الترجمات العربية (حنة) - اسم خالة يحيى أم مريم عليها السلام؟

لا منطق في هذا القول بالطبع. وإنما كان عجب آل زكريا من هذا الاسم (يوحنا)، حين

أملته عليهم إلياصابات أم يحيى، أنهم سمعوه منها بنطق مغاير لم يطرق آذانهم من قبل: سمعوه (يُوحَنِّي) بالكسر في الياء على الإمالة، لا بالفتح، تمامًا كما أثبتها بالكسر في الياء كتبة الأناجيل في الأصل اليوناني *Ioannes* يُوَنِّس، لا *Ionnas* يُوَنَّس (السين في الحالتين هي سين الرفع اليونانية). ولا يصح لك العدول عن هذا النطق الإنجيلي الأصلي في لغته الأصلية، فهو العمدة في هذا الباب - أعني الأسماء الأعلام بالذات - فهم رواة المسيحية الأوائل، سمعوا أو عاينوا، بل قد كان منهم - لا سيما متَّى الحواري ومرقس تلميذ بطرس رئيس الحواريين - من عاصروا يحيى عليه السلام وسمعوا منه ونادوه. نعم، قد ذهبت حاء (يوحنِّي) في الرسم اليوناني، لأن اليونان لا يستطيعون الحاء، ولكن ما العلة في عدولهم عن المد بالألف إلى الإمالة بالكسر، وقد قالوا في يونس *Ionas* ولم يقولوا *Iones*؟ لا علة بالطبع إلا أنهم سمعوه هكذا: يوحني لا يوحنا.

أما الذي نتوقف عنده لنسبِّح معًا العليم الخبير القائل بكل اللغات، فهو أن (يوحني) هذه - التي تستطيع أن ترسمها أيضًا (يُحنِّي) - بالكسر على الإمالة في آخره لا بالفتح، تفيد في العبرية/ الآرامية معنى (الله أحصر) فهو الحصور التي في القرآن.

* * * *

في عبرية التوراة، وفي العبرية المعاصرة، وفي الآرامية أيضًا، الجذر (حنا) غير مشدد النون، تقول منه عبريًّا وآراميًّا على سبيل المثال: (حنا عَلْ عير) - (عير) يعني المدينة - أي ضرب عليها الحصار. فهو بمعنى حصره وصرَّاه وضيق عليه[1].

والمشدد من هذا (أي زنة فعَّل العربي) هو (حِنِّي) بكسر الحاء في العبرية وبفتحها في اللهجة الآرامية[2] التي غلبت على ألسنة الناس في ربوع فلسطين منذ ما قبل عصر المسيح بثلاثة قرون عل الأقل. والمعنى هو (شدد الحصر عليه).

(١) راجع هذا على المعجم (هملون هحداش لتناخ) عبري/ عبري، مادة (حنا).

(٢) راجع هذا الوجه في المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، المرجع المذكور، شروح على تصاريف الأفعال، في صدر الكتاب، ص٢١.

على هذا يكون معنى (يو + حنّي) - بإضافة (يو) مختصر اسم الله عز وجل في العبرية - هو (الله أحصر) بمعنى (الذي أحصره الله)، فهو الحصور التي في القرآن.

والذي يدلك على أن (يوحنا) لا تصح عبريًّا بمعنى (يوحنان) الاسم العلم الفاشي في أعلام العبرانيين، أن علماء العبرية المسيحيين لم يستجيزوا (يوحنا) في موضع (يوحنان) عندما ترجموا الأناجيل اليونانية الأصل إلى العبرية، بل رفعوا (يوحنا) ووضعوا في موضعه (يوحنان). أعني أنهم فهموا (يوحنا) بمعنى (يوحنان) فترجموا (يوحنا) إلى (يوحنان) عبريًّا بعبري، فهم قد قرءوها في النص اليوناني (يوحنّي)، فاستشكل عليهم المعنى كما استشكل من قبل على آل زكريا يوم أملته عليهم إليصابات على الحرف الذي سمعه زكريا من الملائكة في المحراب، فقربوه إلى (يوحنا) وترجموا (يوحنا) إلى يوحنان، العلم العبراني المألوف لهم، تمامًا كما فعل السريان في أناجيلهم التي ترجموها كما تعلم عن اليونانية مباشرة، ولكن المنطق السرياني يستسيغ (يوحنا) لختامها بألف المد، التي تبدو كأنها أداة التعريف الآرامية كما مر بك، فأخذوها على أنها ترخيم (يو + حنان + أ)، تؤول إلى (يوحننا) فإلى (يوحنا).

ولعلك تجد معنى الحصور الذي أحصره الله في قول المسيح عليه السلام: (فقال لهم ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطي لهم. لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم. ويوجد خصيان خصاهم الناس. ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات. من استطاع أن يقبل فليقبل)[1]. وهذا من معنى (يوحنّي) أي يحيى عليه السلام جد قريب، ولكن لم يلتفت إليه في تفسير معنى هذا الاسم أحد.

* * * *

ولكن القرآن المعجز الذي علم هذا كله من قبل، جاء بالاسم (يحيى) على الترجمة لمعنى الحصور الذي في (يوحنّي) التي في الأناجيل اليونانية. ولم يفته أيضًا معنى الاسم الشائع عند معاصريه: يوحنا = يوحنان = حنان من الله. فقال عز وجل: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ

(١) متى ١٩/ ١١ - ١٢.

بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾[1]، وقد فاتت على مفسري القرآن (حنانًا من لدنا) هذه التي هي طبق الأصل من (يوحنان) المبدلة من (يوحنا) فقد روى القرطبي في تفسيره للآية ١٣ من سورة مريم عن ابن عباس رضي الله عنه قوله: (لا أدري ما الحنان)، يعني لا يدري موضعها ووجه دخولها في الآية، أما أنت فلا أحسب أنها تفوتك الآن، بل ولا أظنها تفوتك أيضًا عبارة ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ في الآية، وهي من معنى يحيى الحيي الحصور قريب. وسبحان العليم الحكيم.

* * * *

(١) سورة مريم، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٥٤) عمران

(عمرانُ) المعنيُّ في القرآن هو والد مريم أم عيسى، يعني جدُّ المسيح صلوات الله عليه. ولكن الأناجيل التي بين يديك لا تَنُصُّ على اسم أبي مريم. والمشهور أنه مات قبل مولدها عليها السلام، فلم يشهد ولادتها ولم يُسمِّها، بل سَمَّتها والدتها كما تقرأ في القرآن، ولكن الله عز وجل يقول: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[1]، وزكريا هو أبو يحيى، زوج إليصابات، خالة مريم.

ولأن الأناجيل لم تحفظ لك اسم أبي مريم، لا تقول عمران، ولا تقول أيضًا باسم له غير عمران، فقد عجب أدعياء الاستشراق المنكرون الوحي على القرآن لقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[2]، فمن أين جاء القرآن باسم أبي مريم ولم تُسمه الأناجيل؟ لا بد قد شُبه له ولُبس عليه، لأن القرآن عند هؤلاء الأدعياء ليس متهمًا بالنقل عن أهل الكتاب فحسب ولكنه أيضًا - كَبُرت كلمة تخرج من أفواههم - مُتَّهم على الأخص بالخلط والتخليط: قد عَلِمَ محمد (ﷺ) باسم عمران أبي موسى وهارون في التوراة (واسمه عَمْرام في النص العبراني) فأسقط اسم عمران أبي موسى على أبي مريم، التي خلط من قبلُ بينها وبين (مِرْيام) ابنة عمران، أخت موسى وهارون، فقال على لسان قوم مريم أم عيسى عليهما السلام: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾[3] يحسبُها أختًا لموسى وهارون ابنَي عِمْران (عَمْرام في النص العبراني) وبين موسى وعيسى ثلاثة عشر قرنًا على الأقل. ولا يليق هذا بمستشرقين (عُلماء) يُظن بهم العلم وتفترض فيهم نزاهة البحث فيتتلمذ عليهم الناس، ناهيك بمن اتخذوهم أئمة مطلع القرن العشرين في مصر بالذات.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١٢.

(٣) سورة مريم، الآية: ٢٨.

فقد مر بك من قول لوقا في إنجيله، يَصفُ إليصابات زوجَ زكريا أبي يحيى وامرأته من بنات هارون واسمها إليصابات (لوقا ١/ ٥) ولم يقل أحد بالطبع إن إليصابات زوج زكريا أبي يحيى - التي يفصل بين حملها بيحيى وبين حمل مريم بعيسى ستة أشهر فقط كما سطر لوقا في إنجيله (لوقا ١/ ٢٦ - ٣٦) - كانت ابنة لهارون أخي موسى ابني عمران، لقول لوقا إن إليصابات كانت من (بنات هارون)، وإنما فَهِمَ أهلُ الإنجيل على الفور من عبارة لوقا (بنات هارون) هذا الذي استغلظ على أدعياء العلم فهمه من عبارة القرآن (أخت هارون) فهم يقرءون في سفر الخروج بالعهد القديم أن الكهانة جُعِلتَ ميراثًا في سِبط هارون أخي موسى، حتى صارت الهارونية عَلمًا على السالكين في سِلْك هارون، أصحاب الكهانة والسدانة.

ولا تستطيع أن تقول إن أدعياء الاستشراق المنكرين على القرآن قوله (أخت هارون) جهلوا هذا، فهم إما يهود وإما نصارى وإما ملحدون وُلِدُوا في إحدى هاتين الملتين، وإنما تقول جازمًا مصيبًا غير مخطئ، أنهم دلسوا عليك، فدلسوا على أنفسهم، وتلك من العالم بالذات زلة لا تغتفر، لأنها تمنعك من التتلمذ عليه وأخذ العلم عنه.

وقد كان أدعياء الاستشراق هؤلاء كلهم هذا العالم المدلس، كلما خاضوا في القرآن بقول أو أرادوا سوءًا بأهله. وكانوا يظنون أن عبثهم هذا بمنجاة أن يُفتضح، فقد جمعوا بين ضغنهم القديم على القرآن وبين الاستهانة بأهله، لا يرونهم أهلاً لحجاجهم أو تحقيق مقولتهم، ولكن الله عز وجل يُقيض لهذا القرآن إلى يوم القيامة من أهله في كل قرن من يَذُبُّ عنه، له الفضل والمنُّ، والحمد لله وحده.

وقد كان عُذر التلاميذ الذين افتتنوا بهؤلاء (الأساتذة) مطلع هذا القرن هو ضخامة الجُهد الذي بذله هؤلاء المستشرقون في أبحاثهم، إن أنكرت بعضه فلا تملك إلا أن تُجِلَّ بعضه، فأصابت التلاميذ الفُسولة، وقعدت بهم همتهم عن تتبع مقولة المستشرقين في مصادرهم. فلما شب التلاميذ عن الطوق، واستقلوا بأبحاثهم، كان الوقت قد فات، فقد ترسخت مقولة الاستشراق وتحصنت بما يشبه القداسة. وربما عز على الأشياخ في مجتمعك من بعد أن يراجعوا أنفسهم فيما نقلوه من قبل عن هؤلاء المستشرقين وكتبوه، بل وطنطنوا به في صدر

الشباب وزَهوه، وشِرَّته. بل لا تزال في مجتمعك بذرة من هؤلاء التلاميذ، ورثوا تعظيم الاستشراق، يحاجون عنه في الغث والسمين ويلتمسون لأهله العلة، ويدفعون عنهم ظن السوء والتُّهمة. وربما عز على هؤلاء ما نقوله الآن، وأبَوْا عليك اتهام المستشرقين المنكرين على القرآن قوله في مريم أم عيسى (أخت هارون)[1]، بالتدليس. ولكنك ما إن تُعْفي من تُهمة التدليس هذا المستشرق وأضرابه الذين أنكروا على مريم أم عيسى (أُخوة هارون)، حتى تُضطر اضطرارًا إلى اتهامه هو وإخوته بالجهل الفاضح، لأنه لم يفهم معنى (أخوَّة هارون) عند أهل التوراة الذين ينقل القرآن مقولتهم لمريم عليها السلام أم المسيح صلوات الله عليه. والجهل أهون من تعمد التدليس. ولكن الجهل من عالمٍ أو مُدَّعي علم يَصْرِفُك عن التلمذ عليه، أو الاعتداد بمقولته، إلا أن تُراجعه فيها، فترده إلى جادة الصواب إن أخطأ وتقبل منه إن أصاب. ولكنك لا تأخذ من هذا العالم أو مُدَّعي العلم شيئًا قط يقوله في القرآن، الذي يُحاج القرآن بالتوراة والإنجيل، ولا يعلم علم ما في التوراة والإنجيل.

بل لا يعلم هذا المدعي العلم علم ما في القرآن الذي تصدى لحجاجه، وإنما هم يأخذون منه نِتَفًا من هنا أو هناك كيفما اتفق، ولو قرءوا القرآن كما تجب قراءة القرآن لخجلوا من أنفسهم كيف ادعوا عليه الجهل بِبُعد ما بين موسى وعيسى عليهما السلام حتى يخلط ما بين مريم ابنة عمران أم عيسى وبين (مِرْيام) ابنة عمران أخت موسى وهارون، وهو يعلم أن رسول المسيحية جاء بالإنجيل بعد ما جاء موسى بالتوراة، فكيف يتعاصران. بل كيف يتعاصران وبينهما جم غفير من الرسل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[2] وقوله عز وجل في عيسى آخر رسل الله إلى بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ

(١) راجع قول المنكرين أُخوةَ هرون وأُبُوَّة عمران على سبيل المثال في *J. Horovitz* المرجع المذكور، ص ١٠، ١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[1] أي قفينا بعيسى ابن مريم ختامًا لجميع أنبياء بني إسرائيل، فكيف يكون موسى هو خاله؟

الذي يبلغ من فقهه بديانة اليهود أن يَعلم معنى (أخت هارون) ومدلولها في مصطلحات اليهود ومواضعاتهم، لا تستكثر على واسع علمه أن يُعلمك من قد كان أبو مريم أم عيسى عليهما السلام، عمران غير المذكور بالاسم في الأناجيل، قد قالها القرآن (عمران) ولم يقلها غيره، عالم الغيب والشهادة، أبصر به وأسمع.

ليس أمام المنكرين أُبُوَّة عمران لمريم عليها السلام أم المسيح صلوات الله عليه، إلا أن يأخذوا من القرآن اسم أبي مريم، فلا مصدر أمامهم في هذا غير القرآن، والقرآن - لو علموا - مصدرٌ أي مصدر، أو يأتوا لعمران جد عيسى عليه السلام باسم آخر، محررًا موثقًا، وإلا فليصمتوا هم والمنكرون أخوة هارون على مريم بعد نشر هذا الكتاب، صمتًا طويلاً.

من بين ما يستوقفك في القرآن - والذي يستوقفك في القرآن كثير - أنه لا يجيء قط باسم نبي من الأنبياء على النسب لأبيه، كأن يقول مثلاً: موسى بن عمران، وإنما يقول موسى فقط، أو هودًا فحسب، لا ينسب هذا أو ذاك، لأن النبي أشهر من أن يُعرف بأبيه، ولأن القرآن لا يهتم أصلاً للنسب، خلافًا لما تقرأ في العهد القديم، إلا أن تعلم من القرآن اسم الأب في سياق حديث الابن فيه نبي صِنْو أبيه، كما في داود وسليمان، وكما في إبراهيم وبنيه، إلا أن يريد القرآن الإدلال بعلمه وإعجازه، فيسمى لك (آزر) أبا إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[2]، وما كان أغناه عن (آزر) هذه، ولو أسقطها من سياق الآية لجاز، ولما اختل وزن أو نظم، ولكنه أراد منها إعلام أهل الكتاب ما لم يعلموه، أو يفسر لهم بها معنى (تارح) اسم أبي إبراهيم في سفر التكوين. ومن هذا أيضًا قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾[3]، لا يريد منها إلا الإدلال بعلمه وإعجازه، يُسمى لهم بها أبا مريم - جد عيسى عليه السلام - غير المذكور

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.

(٣) سورة التحريم، الآية: ١٢.

بالاسم في الأناجيل. أما المسيح عليه السلام فهو استثناء وحيد من كل هذا الذي قلناه: قلما يجيء به القرآن إلا منسوبًا إلى والدته (أمة الرب) مريم الصديقة (أخت هارون)، الهارونية، أي السالكة في سِبط هارون، الكهنة سَدنة هيكل الرب، فلا ينفك القرآن يقول: عيسى ابن مريم، حتى في خطاب الله عز وجل إياه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[1]. وما ذاك إلا على التشريف لمريم عليها السلام، التي صدقت بكلمات ربها يوم نفخ فيها جبريل، وإذكارًا بإعجاز مولد عيسى: أنه ابن مريم فحسب، لا أبَ له سواها ولا أم.

والذي أريد أن أصل بك إليه هو أن القرآن لا يدلك على اسم أبي موسى وهارون، المدعو (عَمْرام) في النص العبراني لأسفار التوراة، فلا تقطع من القرآن بلفظ هذا الاسم لو عرَّبه القرآن، أيجيء على أصله العبري في التوراة (عَمْرام)، أم يصير إلى (عمران) فيكون سميًّا لجد عيسى عليه السلام في القرآن؟ لا سبيل إلى هذا بالطبع من القرآن لأنه لم يسم أبا موسى وهارون.

ولكنك لا تتلبث طويلًا عند هذا، فقد قرأت من حديث المصطفى ﷺ تسمية أبي موسى وهارون: «وايم الله لو سمع بي موسى بن عمران لما وسعه إلا اتباعي!». فتوقن أن الاسمين واحد، عِمران التي في هذا الحديث، وعمرام التي في التوراة.

وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك بالفعل، فهل جاءت (عِمران) على ألسنة العرب تعريبًا للاسم العبراني (عَمْرام)، أعنى أن (عَمْرام) هي الأصل الذي جاءت منه عِمْران، أم العكس، أي أن (عِمران) هي الأصل الذي تحور على ألسنة العبرانيين إلى عَمْرام؟

إذا كانت عِمْران هي الأصل فهذا يعني أن عِمْران التي في القرآن عربية، تُفسر بالعربية وحدها. أما إذا كانت عَمْرام اسم أبي موسى في التوراة هي الأصل فهذا يعني أحد أمرين: إما أن عمران التي في القرآن عربية أيضًا يترجم بها القرآن عَمْرام التي في التوراة ومن ثم تفسر أيضًا بالعربية وحدها، وإما أن عمران التي في القرآن ليست عربية وإنما هي تعريب

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

لفظي لصنوها في التوراة (عَمْرام) فلا يتسنى تفسير عمران التي في القرآن إلا بفهم صِنْوها العبري (عَمْرام).

ولأن عمران جد عيسى عليه السلام في القرآن رجلٌ من بني إسرائيل، بل هو من سبط لاوي بالذات، سبط موسى وهارون ابني عمرام الذي في التوراة، فأنت تقطع بأن اسمه كان يلفظ بين أهله وعشيرته عمرام، لا عمران التي جاءت في القرآن إما على الترجمة وإما على التعريب، لهذا يتعين استقصاء وجوه معنى عمران العربية قبل الانتقال إلى فهم معنى عمرام، اسم أبي موسى وهارون، عند علماء العبرية وعلماء التوراة.

وردت (عمران) في القرآن ثلاث مرات فحسب، كلها في جد عيسى عليه السلام، لا في أبي موسى وهارون. وهي في المرات الثلاث لم تأت قط منفردة وإنما على الإضافة فحسب: (آل عمران)، (امرأة عمران)، (ابنة عمران). تجد هذا في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، سميع لدعوة إبراهيم في إمامة الناس من بعده، عليم بالصالح من ذرية إبراهيم لهذه الإمامة. وقوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2]، أي نذرت ما في بطني لخدمة الرب، خالصًا لهذه العبادة، فتقبل مني النذر الذي تعلم إخلاصي فيه، فأنت السميع لما أعلنت، العليم بما أسررت. وقوله عز وجل يزكي مريم عليها السلام مع امرأة فرعون مثلاً للذين آمنوا: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[3].

ولقد قال مفسرو القرآن[4] (إن (عِمران) عربية، مُنعت من الصرف فقط لزيادتها بالألف والنون، فهي من الجذر العربي (عَمَرَ) الذي تعددت أعلام العرب منه: عَمْرو (وأصلها

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٣، ٣٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٥.

(٣) سورة التحريم، الآية: ١٢.

(٤) راجع تفسير القرطبي للآية ٣٣ من سورة آل عمران.

(عَمْر) زيدت بالواو في الرسم لا في اللفظ فارقًا بينها وبين (عُمَر)، عُمَر (وهي زنة مبالغة من (عَامر)، عامر، عمارة، عمير، وأيضًا (عِمْران) هذه نفسها التي سمعت في أعلام العرب قبل القرآن، وفي العربية أيضًا الاسم العلم (عمَّار) (ومنه عمار بن ياسر رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين).

ولكن مفسري القرآن - ترتيبًا على عربية (عمران) - لا يفسرون لك معنى هذا الاسم العلم في العربية، شأنهم في كل علم عربي ورد في القرآن، لأنهم يفترضون فيك العلم بمعناه، تستخلصه من كافة معاني مادة ع / م / ر العربية، تنتقي منها الوجه الذي تشاء في تفسير الاسم (عمران) جد عيسى صلوات الله عليه. ربما قلت إنه من (العُمْر) بمعنى مدة الحياة، وربما قلت إنه من العُمران ضد الخراب، أو من المأهول نقيض القفر، إلى آخر ما تعلم من وجوه معاني هذه المادة العربية (عَمَر). ولكنك - وقد عَلِمْتَ أن عِمران التي في القرآن هي كُفءُ عَمْرام التي في التوراة - لا تستطيع أن تأخذ من (عَمَر) العربية في تفسير عمران التي في القرآن إلا بمعنى واحد فقط، هو المعنى الذي يشترك فيه هذا الجذر العربي مع صِنوه من نفس مادته في العبرية، أي الجذر العبراني (عَمَرْ)، وإلا امتنع عليك مقابلة عمران بعمرام.

هذا المعنى الوحيد الذي يلتقي فيه (عَمَر) العربي بصنوه العبراني (عَمَرْ) هو معنى واحد لسبب بسيط وهو أن (عَمَرْ) العبراني ليس له إلا معنى واحد وهو السدانة، والسادن هو خادمك الذي يُلازمك، استعيرت لخدمة المسجد أو المعبد خاصة.

أما أن (عَمَر) العربية تجيء بهذا المعنى، فحسبك قول الله عز وجل في نعْيه على مشركي قريش اعتدادهم - على كُفْرهم - بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1]، بعد أن مهد لها بقوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ

(١) سورة التوبة، الآية: ١٩.

﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[1]، أي لا تصح عمارة المسجد إلا لمؤمن بالله واليوم الآخر، متعبد فيه بما تعبده به الله، لا يخشى غيره، لا لمشرك مكذب باليوم الآخر، يشهد على نفسه بالكفر إذ يتعبد في الكعبة وما حولها لغير الله عز وجل وهو يدعى سدانة بيته. وقد تفاوت قول المفسرين الذي حكاه القرطبي رحمه الله في تفسيره لهذه الآيات الثلاث حول معنى عمارة المسجد: اقتربوا ولم يستوفوا. لم يفتخر كفار قريش بأنهم يؤمون المسجد الحرام للعبادة فيه كما تفهم أنت اليوم من عُمَّار المساجد (الملازمين الصلاة فيها) وليست العمارة هي إعمار المسجد أي كونه عامرًا بهم. وليست هي فحسب معاهدة المسجد والقيام بمصالحه، أو تعهده بالتنظيف والإصلاح والصيانة، هذا كلام مطول يجمعه قولك: (السدانة)، وهي بالذات التي تباهى بها كفار قريش، والسادن كما مر بك هو في الأصل خادمك الذي يلازمك، أو هو حاجبك الآذن كما في معجمك العربي، والمعنى الباقي في (عَمَر) العبراني هو هذا نفسه: (عُمِير) العبري (بالإمالة في الياء) يعني (الخادم)، جاءت منه عبرية التوراة بالاسم العلم (عُمْرى)، ملك من ملوك بني إسرائيل، وأصله (عُمْرِيًا) يعني (خادَم الله)، أي خادَمُ بيته، فهو السادن، وعُمِير العبري هي اسم الفاعل عبريًّا من (عَمَر) العبري، فهي مكافئ (عامر) العربي. ولئن كانت عبرية التوراة (والعبرية المعاصرة أيضًا) قد أماتتا (عَمَر) العبري في ثُلاثيه المجرد، فقد استبقتاه كلتاهما في صيغة (هِتْفَعِّل) (نظيره تفعَّلَه واستفعله العربية) فتقولان (هِتْعَمِّر) تعنيان تعبَّده وتخدَّمه وتمهَّنه، فتقطع بأن (عَمَر) العبري كان معناه في ثلاثيه الممات: خَدَمَ وعَبَد، وأن الاسم منه هو الخادم العابد. لا معنى له غير هذا من مختلف معاني (عَمَرَ) العربي.

(عَمرام) العبرية، اسم أبي موسى وهارون في التوراة من هذا لا من غيره - مع الاعتذار الواجب لعلماء العبرية وعلماء التوراة الذين ليسوا على هذا الرأي.

عَمَرام العبرية على القول الذي نقول به هي نفسها عِمران العربية جذرًا ومعنى: السَّادن، خادم المسجد أو المعبد.

وبما قلت: فكيف يجيءُ معنى السدانة والخدامة من الجذر العربي (عَمَر) وهو في أصل

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٧، ١٨.

معناه البقاء والحياة؟ وأقول لك إن العكس هو الصحيح: الأصل البعيد وراء كل معاني الجذر العربي (عَمَر) هو المُلازمة، التي تفسر كل ما تفرع عنه من معان: المُكث الذي جاء منه العُمْر بمعنى مدة الحياة، والسُّكنى التي تجيء منها عمارة المكان، والتَّعهد الذي تجيء منه عِمارة المال وتعميره، والقُبوع الذي يجيء منه اسم لباس الرأس مثل (العمارة) بمعنى (العمامة)، إلى آخر ما تعلم.

أما الذي قد لا تعلمه لندرته فهو أنه من مادة (عَمر) العربية هذه تجيء في العربية لفظة (العَمْر) بمعنى الدين والمِلّة، ومن هذه يجيء الاسم (عَمّار) بمعنى الكثير الصلاة والصوم، يعني المُلازم العبادة، فيكون العامر بمعنى العابد.

ومن هذه الملازمة استبقت العبرية (عُومِر) العبرانية[1] بمعنى الحُزمة والربطة كما استبقت أيضًا الفعل المضعَّف العبري (عِمِّر) بمعنى حَزَم.

أما علماءُ العبرية وعلماء التوراة فهم يقولون إن (عَمْرام) ليست لفظة وحيدة الجذر، لا من (عَمَر) ولا من غيره، وإنما هي اسم مزجي مركب من شِقَّين: عَمْ + رام، (عَمْ) بمعنى الشعب أو الأُمَة، (رام) بمعنى علا أو تعالى (فعلٌ ماضٍ) أو هي اسم الفاعل منه أي عَلِيٌّ أو مُتعالٍ.

من هنا فهم فريق منهم هذا الاسم على معنى الفاعل وفِعْلِه، فقالوا إن معناه هو (الشعبُ عَلا) أو (تعالى الشعبُ)[2].

أما الفريق الآخر فقد فهم الاسم على معنى المضاف والمضاف إليه فقال بل هو (شعبُ العلِيِّ)، يُريد (شعب الله)[3].

---

(١) وأيضًا (عَمِير) العبرانية بنفس معنى الحزمة، وربما جاءت من هذه (عَمار) العربية بمعنى الريحان، أي الحزمة منه. ولا عليك مما تقوله المعاجم من أنهم كانوا يحيون به الملوك قائلين: عمَّرك الله، أي حياك وأبقاك.

(٢) انظر المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، المرجع المذكور، ص ٦٠٤.

(٣) انظر: *WEBSTER 'S DICTIONARY. (Unabridged). op. cit.. Suppl.. Scripture Proper Names and Froeign Words. p. 87*.

وكلا الوجهين كما ترى مُفتعل، لأنهما كليهما لا يصلحان اسمًا لرجل، إذ ما معنى أن تُسمِّي ابنًا ولِدَ لك (شعبُ الله) أو (تعالى الشعب)؟

أهي النبوءة بأنه سيخرج من صلب عَمْرام الرجلُ الذي سيتعالى به الشعب، موسى الذي سيقود خروج بني إسرائيل من مصر ويصنع منهم (شعب الله)، أو هي محاولة تعظيم موسى عن طريق التفخيم في اسم أبيه؟

الملاحظة الأولى على هذا أن الاسم العلم عَمْرام لم يقع في أعلام العبرانيين قبل أبي موسى، وإن فشا من بعده في أعلام إسرائيل نسبةً إليه، وقد تزوج عمرام أبو موسى من (أم موسى) أيام محنة بني إسرائيل في مصر. وحتى إن سلَّمت بأن مولد عمرام وتسميته كانا سابقين على هذه المحنة، أي سبقا بسنوات انقلاب فرعون مصر عليهم، فلا يذهبن بك الظن إلى أن قوم موسى كانوا قبل هذا الانقلاب مباشرة - وهم ضيوف إن لم تقل دخلاء على أهل مصر - يستطيعون مباهاة المصريين بقولهم (تعالى الشعب) أو (الشعب علا) في وصف أنفسهم، فضلاً عن أن يتسموا بها في أبنائهم، آمنين ألا ينكر المصريون عليهم، أو في أقل القليل أن يتخذ المصريون من اسم هذا المولود الذي سيتعالى الشعب به مِزْحَةً يتندرون بها، فلم تكن العبرانية بعد قرون من مُقام بني إسرائيل في مصر طلاسم مطلسمة في آذان المصريين، وحتى إن بقيت طلاسم مطلسمة في آذانهم، فما كانوا ليعدموا من يُفسِّر لهم معنى هذا الاسم من بين خُلطائهم العبرانيين المتقربين إليهم بالمودة على حساب بني قومهم.

والملاحظة الثانية هي أن فكرة (شعب الله) لم تنبت في أدمغة بني إسرائيل إلا من بعد موسى، فكيف يُنْحت منها اسم أبيه؟

والملاحظة الثالثة هي أن اختلاف علماء العبرية وعلماء التوراة حول معنى هذا الاسم عَمْرام، وانقسامهم في تفسيره بين (تعالى الشعبُ)، (شعب الله) يدلانك على أنه ليس له أي تفسير معروف في مأثورات بني إسرائيل، على نحو ما مر بك من شغف كتبة التوراة بتفسير الأسماء الأعلام أو مناسبة التسمية، مثلما فسروا اسم موسى بن عمران، ولو كان للاسم

عَمرام تفسير مأثور، معلوم، مستقر عليه، لما انقسم في تفسيره علماء العبرية وعلماء التوراة، ولكنها اجتهادات لهم، كل يدلي بدلوه، لا تُلزمك.

ولم لا يُقال إن (عِم + رام) (مكسور العين في (عِمْ) يعني (مَع) يُراد بها (مع) العلي، أي (مع الله) لا (شعب الله)، يعني السالك مع الله (هوليخ عم رام عبريًّا) اختصرت إلى (عم + رام)، كما قالوا (عِمَّانُوئيل) أي الله معنا، ثم تحوَّرت كسرة العين إلى الفتح؟

تستطيع أن تقول هذا وأمثاله فلا تنتهي، ولكنك تتوقف عند عمرام بمعنى عِمْران، الملازم العبادة، أو السادن خادم المعبد، تستخلص معناه مباشرة من الجذر (عَمَر) دون حاجة إلى افتراض (مَزْجيَّات) لا داعي لها. وقد مر بك من قبل أنه حين يستعصى فهم لفظ في الساميات فلا بد من التماسه في أمِّها، أي في العربية، وقد عرف العرب (عِمْران) قبل الإسلام بقرون وتسموا به، لم ينقلوه عن العبرية المختلف فيها على معناه، دليلك في هذا أن يهود مكة ويثرب قالوا في اسم أبي موسى وهارون (عِمران) يعنون (عَمْرام) الذي في التوراة، عالمين أن اللفظين واحد، ودليلك فيه أيضًا وُرودُ هذا الاسم بالنون لا بالميم في كتابات *Lucian* وهو من أعلام القرن الثاني للميلاد، ووروده بالنون أيضًا في نقش حوراني باليونانية *Emranes* (عِمْرانس) (السين للرفع)، فتقطع بعربية (عِمران) كما قطع بها المستشرق الذي ننقل عنه هذا الكلام(١).

ولكن هذا المستشرق لا يريد الإقرار بأن (عمران) العربية هي الأصل وراء عمران التي في التوراة، وأن بني إسرائيل في مصر استعاروا (عِمران) من جيرانهم الساميين فآلت على لسانهم إلى (عَمْرام) مع وحدة الجذر والمعنى، وإنما هو يقول ما تفهم منه أن القرآن شاكل عِمْران العربي على عَمْرام العبري يظنهما واحدًا، لأن هذا المستشرق وأضرابه لا يحققون معاني الأسماء الأعلام، وإنما يهتمون فحسب للتقارب اللفظي، يظنون أن القرآن كدأبهم هُم يأخذ نِتَفًا من هنا ونتفًا من هناك دون تثبت، وفاتهم كما مر بك أن اليهود في مكة ويثرب قالوا هم أنفسهم (موسى بن عمران) ولم يقولوا (موسى بن عَمْرام).

(١) *Joseph HOROVITZ, OP.CIT., P.15*

على أن هذا المستشرق وإخوته يقعون رغم أنفهم، أو قل بتعسفهم النعي على القرآن، فيما ينقض دعواهم: إذا كانت عمران عندهم عربية الأصل من الجذر (عمى) (ولا يصح اشتقاقٌ في عمران إلا من عَمَر) فليس هي إذن (عَمْ+رام) العبرية المُفترض معناها (تعالى الشعب)، أو (شعب الله)، ومن ثم فليس الاسمان واحدًا، ولا وجه بالتالي للقول بأن القرآن يخلط بين عمران جد عيسى وبين عَمْرام أبي موسى وهارون.

ولئن كانت (عِمران) عربية، لا تدخل في مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب، فقد أدخلناها في مباحث الكتاب للرد على المستشرقين المنكرين الوحي على القرآن، من جهة، ومن جهة أخرى لأن القرآن الذي فسر الاسم عمران على المشاكلة مع عمرام الذي في التوراة لم يكتف بذلك، وإنما فسر معنى هذا الاسم أبين تفسير بالمرادف، بل قد جانس عليه في تفسير معنى الاسم (مريم)، فهو العامر العابد، وهي أَمَةُ الرب، وسبحان العليم الخبير القائل بكل اللغات.

قال عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]، والمنذور لله عز وجل محررًا، هي نفسها (عِمران)، الملازم العبادة، الملازم بيت الرب، وكأنها رضي الله عنها أرادت عِمران آخر سميًّا لزوجها عمران، وكأنها لو وضعتهُ ذكرًا لأسمته عمران على اسم أبيه، ولكنها رُزقت بالأنثى، مريم عليها السلام، فأسمتها بالمؤنث منه: مَرْيم، يعني أمة الرب.

وقال عز وجل أيضًا: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[2]، يعني كانت ابنة عمران صِنوَ أبيها، اسمًا على مُسمًّى، وهل القانت إلا العامر العابد عمران، وهل أَمَةُ الرب من هذا ببعيد؟

وربما قلت: وما وجه الإعجاز والقرآن عربي وعِمران عربية، فهو يُفسر عِمران على أصل معناها في لغته؟ وهذا صحيح.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٥.
(٢) سورة التحريم، الآية: ١٢.

ولكن الإعجاز الذي أريد أن أدلك عليه هو أن القرآن الذي عَلِمَ معنى (عِمْران) من العربية، يجانس عمران العربية هذه على (مريم)، أمة الرب، ومريم اسم آرامي بحت كما سوف ترى، فأي إعجاز وأي علم!

* * * *

(٥٥) مريم

(مَرْيم) أم عيسى عليهما السلام، اسم آرامي مَزْجيٌ مُرَخَّم، أصلُهُ: مَاري + أما، المقطع الأول يعني بالآرامية (الرَّبُّ)، والمقطع الثاني (أما) يعني بالآرامية أيضًا نفس ما تعنيه (الأَمَةُ عربيًّا، فاسمُها عليها السلام يعني (أَمَةُ الرب)، قُدِّم فيه المضاف إليه على المضاف، تعظيمًا لاسم الرب تبارك وتعالى، مثلما رأيت في (يُو + حَنَان) المُبْدَلَة من يُوحنًّا وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام. وكان حقه أن يُنطق: ماريأما، كاملاً، ولكن المزجية سهَّلت الهمزة، فأصبح: مَاريما، ثم رُخِّم بحذف ألف المد الخاتمة، فأصبح (مَرْيَم) طبق الأصل من نطقه اليوناني *Mariam* في الأناجيل اليونانية، وهو نفس نُطقه في القرآن.

أما (ماري) الآرامية بمعنى (الرب) فهي تجيء من اللفظة العربية (امْرُؤ) (تُنصب على (امْرأ) وتُجَرّ على (امْرِئ)، وأيضًا (مَرْءُ) ومن هذين يجيء المؤنث (امرأة) وأيضًا (مَرْأة) وأصل معنى (امرُؤ) العربية ليس هو مطلق الرجولة أو الذكورة، وإنما أصله من (السيادة)، ومنه جاءت (المروءة) يعني خلق السادة، أي الشهامة، فالمرأة يعني في الأصل (السيدة) مؤنث (مرء) بمعنى السيد، ولكن المَرْءَ والمرأة أميتتا بهذا المعنى في العربية، ولم تبق منهما إلا هذه الدلالة المبهمة على آحاد الناس: المرء مفرد الناس، والمرأة مفرد النِّسوة، لا يدلك على أصل ما كانا عليه إلا هذا المصدر منهما: المروءة.

وأما لماذا أماتت الآرامية لفظة (راب) بمعنى السيد الرب، واستعاضت عنها بلفظة (ماري) (وأيضًا (مار) بدون ياء) بمعنى الرب والسيد، فلأنها - أي الآرامية - أماتت (راب) بمعنى الربِّ واستبقت منها معنى (الرُّبُوِّ) أي الكِبَر والزيادة فآلت (راب) في الآرامية إلى معنى كبير أو عظيم، ومنها: (رَبْربان) الآرامية بمعنى الكبراء الأكابر، ومن

هنا لم تعد (راب) الآرامية صالحة للاستعمال بمعنى السيد الرب، لا في حق البشر، ولا في حق الله عز وجل من باب أولى، وقد خصصت الآرامية لفظة (ماري) (المختومة بالياء) لله عز وجل بمعنى (الرب) لا تُقال في غيره، وأفردت (مار) بدون الياء للسادة من البشر، ومن هذا: مَارْ مَرْقُس، يعني السيد مرقس، والمؤنث منه (مرت) بتاء التأنيث الآرامية، إن أضفت في آخره ألف المد التي هي أداة التعريف الآرامية كما مر بك، أصبحت مرتا، وهي بضم الميم أفصح آراميًّا) العَلَمَ الشائع في نساء المسيحيات، *Martha* ومعناه الحرفي من الآرامية هو (السيدة)، وربما ظن من لا يعرفون معنى الاسم (مريم) أنه من هذا، فيفهم من (السيدة مريم) أن (السيدة) هنا ترجمة لاسمها عليها السلام، والصحيح أنه أضيف إلى اسمها على التوقير والتبجيل لمقام تلك التي قال فيها عز وجل: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

على أن الآرامية - شأنها شأن العبرية - تستعمل لفظة (آب) (الأب المعروف) في الإشارة إلى الله عز وجل - تلك التي ضل بها كثيرون ممن لا يفقهون مجاز اللغات السامية - ولكن الآرامية - لغة المسيح عليه السلام مع عشيرته وحوارييه - تختم اللفظ بألف المد على التعريف، فتؤول إلى (أبَا)، أي الأب بمعنى الرب لا بمعنى الوالد الذي ولد، وتجوز أيضًا على النداء والمناجاة: ربِّي! لا يا أبي.

أما أن (الآب)، (الأب) معناها (الرب) في الآرامية والعبرية، فدليلك الدامغ فيه باختصار - وقطعًا للطريق على من قد يتعجلون فيتورطون في نقد مقولاتنا اللغوية في هذا الكتاب - هو ذلك العَلَمُ العبراني (أبِيَّاهُو) بن رِحُبْعام بن سليمان بن داود، الذي سبق مولده مولد المسيح بسبعة قرون على الأقل، وهو اسم مركب من شِقَّين (أبِي + يِهْوَا) (يهْوا هو اسم الله في العبرية من بعد موسى كما مر بك)، لا يصح أن تتصور ولو للحظة أن معنى الاسم الذي سماه به رِحُبْعام بن سليمان بن داود هو (الله أبِي) أعني أبي الذي ولدني، إذن لذبحه اليهود فور هذه التسمية على مَرْأى من أبيه، إن لم يذبحوا أباه معه، وإنما فهم اليهود

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

وأراد رِحُبْعام الأب بمعنى الرب في مصطلحهم، فالمعنى هو (الله ربي) لا (الله والدي) كما يفهمها علماء أهل الكتاب الذين لا يفقهون مجاز الساميات[١].

أما الدليل الثاني فهو قول المسيح عليه السلام في الأناجيل التي بين يديك: (إني أصعدُ إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم)[٢]. يُرادف الأولى بالثانية، أي أن أبي وأباكم هو إلهي وإلهكم، لا يريد بالطبع إني أصعد إلى والدي ووالدكم الذي هو إلهي وإلهكم، وإنما أراد إني أصعدُ إلى ربِّي وربِّكم الذي هو إلهي وإلهكم، كلانا مربوب لله عز وجل، والمأبُوُّ آراميًا وعبريًّا يعني المربوب عربيًا. لا تصح (الأب) عربيًّا بمعنى (الرب)، وإنما اضطرت الآرامية والعبرية إلى هذا المجاز لاستنفادهما لفظة (راب) في معان أخرى ليس منها (الرب) الإله، وهي معنى الكبير، الرئيس، الإمام، المُعَلم المُرَبِّي، أما العربية فهي لا تحتاج إلى هذا المجاز المُؤْذِنِ بالخَلْط والتخليط، وإنما تقول ربِّي، حين تريد (إلهي)، وتقول أبي، تعني (والدي الذي ولدني)، وقد فهم القرآن المعجز مُراد المسيح من قوله بالآرامية: (أبي وأبوهم) فلم يقُل على لسان المسيح (أبي وأبوكم) على الترجمة الببغائية، وإنما قال عز وجل على لسان عبده ورسوله عيسى ابن مريم في خطاب قومه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٣]، أي أن مَرْبُوبيَّة المسيح والبشر جميعًا لله عز وجل الواحد الأحد هي الصراط المستقيم، لا صراط غيره، عليك إذن كلما قرأت في الأناجيل لفظة (آب)، (أب) حين تُعَرَّف بالألف واللام، أو حين تُضاف إلى المسيح: (أبي) - وأن تعلم مسيحيًّا كُنْتَ أو مسلمًا أن المسيحَ غير ذي أب - أن المراد منها هو (الرَّبُّ)، (ربي) فتفهم منها ما أراده المسيح على وجه القطع واليقين، لا ما فهمه الذين ألهوا المسيح على البُنُوَّة لله عز وجل في مجمع نِيقية عام ٣٢٥ م فبنوا صَرْح مقولتهم في المسيح على خطأ لغوي بيِّن، لا يصح من عالم فقيه.

كان عُذْر الحواريين الذين كتبوا هذه الأناجيل أو كُتبت عنهم باليونانية، هو ظنهم أن

(١) انظر: المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، المرجع المذكور ص١.

(٢) يوحنا: ٢٠/١٧.

(٣) سورة مريم، الآية: ٣٦.

(الأب) تَصِحُّ بمعنى (الرب) في كل اللغات، لا في الآرامية والعبرية وحدهما، ووحدهما فقط، فكتبوها باليونانية *Pater* (نظير *Father* الإنجليزية بمعنى الوالد الذي ولد)، وعن هذه الأناجيل نقلت كل الترجمات، ولكن يشاء رَبُّك لهذه الكلمة اليونانية الأصل *Pater* (يعني الأب) ونظائرها في كل اللغات أن تكتسب بمحض الاستعمال على لسان المسيحي في بقاع الأرض - أيًّا كانت لغته - كل معاني القداسة الواجبة لله عز وجل وحده تقرؤها في وجه هذا المسيحي وهو يقرأ في صلاته:

(أبانا الذي في السماوات)، فتقطع بأنه لا يريد بها (أبانا الذي ولَدَنا) ولا (أبا المسيح الذي في السماوات)، وإما هو يَمثُل أمامك في صلاته رجلاً آراميًا - عبرانيًّا يريد بها ما كان يريده الرجل الآرامي - العبراني في زمن المسيح: الأبُ = الرّب، لا إله غيره.

وإذا كانت (الأب) تعني في حق الله عز وجل آراميًّا وعبريًّا - لسان المسيح عليه السلام ولسان قومه - الربُّ الإلَه فقط لا غير، لا الأبُ الوالد، فكيف جاز فهمها في المسيح وحده على معنى (أُبُوَّة) الله إياه؟ كيف يجيء المسيح بلفظة الأب فيما ترويه الأناجيل من قوله: (وأما أنت فمتى صُمْتَ فادهن رأسك واغسل وجهك، لكي لا تظهر للناس صائمًا بل لأبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء يُجازيك (علانية)[1] فلا يفهم السامع (المأْبُوُّ)[2] من لفظة (أبيك) في هذا الكلام إلا معنى (الرب)، أما إن سمعها من المسيح يناجي بها ربه: (أيها الآبُ نجِّني من هذه الساعة)[3]. فهذا السامع يفهم منها في حقِّ المسيح وحده لا الرب، وإنما الأب الوالد؟ لم يكن هذا بالطبع هو موقف كتبة الأناجيل اليونانية التي بين يديك ترجماتها، وإلا لأوقعت كتبتها في التناقض، ولكنه كان موقف الذين استعانوا بهذه الأناجيل اليونانية في تأليه المسيح على (البنوة) لله عز وجل في مجمع نيقية عام ٣٢٥م، بعد رفع المسيح بنحو ثلاثة قرون.

---

(١) متى ٦/١٧ - ١٨.

(٢) أباه يأبُوهُ إباوة يعني صار له أبًا، والمفعول منه (مَأْبُو). ومن هذا جاءت (الآب) لغة في (الأب): إنه (الآبي) الذي يأبو، رُخِّمت ياؤه.

(٣) يوحنا ١٢/٧.

نعم، قد أجرى الله على يد المسيح معجزات تنقطع دونَها رقاب البشر، كان أبرزها إحياء الميت. ولكن (اليشع) الذي في العهد القديم سبقه بمثلها، ولم يؤلِّه اليهود اليشع لأنهم علموا أن (الفاعل) في هذا الإحياء هو الله عز وجل لا نبيه اليشع. ورفع الله المسيح إليه جسدًا حيًّا لم يَمُت، ولكن (إيليا) الذي في العهد القديم سبق المسيح بمثلها، ولم يُؤَلِّه اليهود إيليا لأنهم يُؤلِّهون (الرافع) لا المرفوع. ولو قد اقتصرت معجزات المسيح على أمثال لها في العهد القديم لما كانت ثَمَّة حُجَّة البتة في شُبهة ألوهيته.

ولكن المسيح عليه السلام انفرد من دون الخلق جميعًا بمعجزة غير مسبوقة، هي ولادته لأم بغير أبٍ، فشبه لمن شُبِّه له أنها البُنُوَّة لله، وجاءت دعوى الألوهية ترتيبًا على هذه البنوة المُدَّعاة، ولم يفطنوا إلى أن الله عز وجل الذي يخلق ما يشاء ويختار، أي يخلق ما يشاء على الوجه الذي أراد، إنما أرادها آية للناس، وهو على أمثالها قادر في كل حين. وقد عجبت مريمُ عليها السلام حين جاءها جبريل بالنبأ، فذكَّرها جبريل بإعجاز الله في حمل خالتها بيحيى من قبل وقال: (لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله)[1]. فهمت مريم أن الله هو خالق هذا الجنين الذي في بطنها، فلم تُؤَلِّه المولود الذي ولدته. إنها معجزة من الله عز وجل يضربها آية للناس الذين يَمُرُّون على آيات الله عُميانا. فما الخلق من الأب والأمِّ معًا بأهون في إعجاز الخلق من ولادة عيسى بغير أب، ولكنه خَرْق العادة والإِلف، كي يلتفت الناسُ إلى إعجاز العادة و الإلف. ولا فضل في هذه المعجزة لجبريل أو المسيح، حتى تتأصل عليها ألوهية المسيح وجبريل، أو حتى يتميز أي منهما بميزة ترفعه عن أصل طبيعته وكينونته: جبريل ملك من ملائكة الله، والمسيح بشر ممن خلق.

والذي لا يلتفت إليه كثيرون أن هذه المعجزة، قبل أن تكون معجزة في المسيح، هي معجزة في مريم نفسها الوالدة العذراء لم يمسسها بشر، اجتمع فيها للمسيح الأب والأم معًا، فهي صِنْو المسيح في الآية والمعجزة ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[2].

(١) لوقا ١/ ٣٧. (٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

قال عز وجل في خطاب مريم على لسان جبريل يُسكّن من روعها ويقطع عليها عجبها لقضاء قضاه الله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[1].

وقالت مريم لجبريل: (هو ذا أنا أَمَةُ الرب، ليكن لي كقولك)[2]. كانت مريم عليها السلام اسمًا على مسمى، المصدِّقَة بكلمات ربها، المذعنة لقضائه فيها: إنها مريم، أَمَةُ الرب، مَاري + أمَا.

وقد عَلِم مفسرو القرآن[3] معنى هذا الاسم (مريم)، فقالوا إن معناه (خادم الرب) بلغة قومها، وخادم الرب هي نفسها أَمَةُ الرب. وهم لم يعلموا هذا من حديث أو سنة، فليس في صحيح الحديث من هذا شيء وإنما علموه من رُواتهم من أهل الكتاب، النصارى لا اليهود، السُّريان لا العبرانيين، لأن هذا الاسم (مريم) لا يصح تفسيره من العبرية بمعنى خادم الرب أو أمة الرب، لأن (ماري) بمعنى الرب ليست عبرانية، وإنما هي آرامية بحت (والآرامية هي السريانية لغة هؤلاء النصارى السريان)، والعبرانيون لا يفسرون بها اسم (مِرْيام) أخت موسى وهارون، وإنما يقولون كما مر بك إن (مريام) أخت موسى وهارون من المراء والمرية، فتقطع بأن هذين الاسمين ليسا واحدًا، وأن القرآن لا يخلط من ثم بين (مريم) أم عيسى وبين (مريام) أخت موسى وهارون كما وهم أدعياء الاستشراق المتطفلون على مباحث اللغة.

والذي تأخذه على الترجمة العربية لأسفار العهد القديم التي بين يديك هو أنها تَرْسُمُ الاسم (مريام) أُخْتَ موسى وهارون بالرسم (مَرْيم) فيظن القارئ، كما ظنَّ أدعياء الاستشراق من قبل، أنها سَمِيَّة (مريم) أم عيسى، وهو خطأ محض لا تقع فيه الترجمات الإنجليزية مثلاً التي ترسم اسم أخت موسى وهارون *Miriam* أي (مِرْيام)، بينما يُرْسَمُ بالإنجليزية اسم والدة عيسى عليهما السلام *Mary* (ماري)، لا شُبْهَة خلط بينهما.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢١.

(٢) لوقا ١/ ٣٨.

(٣) راجع تفسير القرطبي للآية ٣٦ من سورة آل عمران.

وأما لماذا لم يلتفت أدعياء الاستشراق إلى معنى اسم (مريم) أم عيسى عليهما السلام الذي قاله مفسرو القرآن نقلاً عن رواتهم السريان - وهو قاطع في آرامية الاسم مانع من عبرانيته - فيتعلمون من هذه التفاسير علم ما جهلوه أو خلَّطوا فيه من مثل خلطهم بين (مريم)، (مريام)، فذلك لأن آرامية الاسم (مَرْيَم) وعبرانية الاسم (مِرْيام) وبُعْدَ ما بين معنييهما من ثم، دليل على فساد مقولتهم في خلط القرآن بين مريم أم عيسى وبين مريام أخت موسى وهارون، ولأن صاحب الهوى الأحمق يُبْصر الحق ولا يراه، بل يشاء له نحسه ألا يتصيد من تلك التفاسير إلا أخطاء، وقع فيها المفسرون أو دُلِّست عليهم، من مثل قولهم بُعجمة فردوس وعدن وجهنم وإبليس والصراط وقسطاس - وقد مر بك - يتصيدها من تلك التفاسير وينسبها لنفسه فرحًا فخورًا ثم يختال بها على قرائه وتلاميذه المبهورين بعلمه، الذين ائتمنوه أن قد حقق وتثبت، فينقلون عنه أمثال أن القرآن نحت (قسطاس) من (جستيس) *Justice* لا من (قسط) العربية، فتعذرهم بجهلهم أن هذه اللفظة اللاتينية المُدعاة *Iustas* تنطق (يُوسْتَس) بالياء لا بالجيم، وأن الياء اللاتينية في هذه وأمثالها لم تتحور إلى الجيم في الإنجليزية والفرنسية والإيطالية (دون غيرها من اللغات الأوروبية) إلا بعد نزول القرآن بقرون، وأن لفظة (قِسط) أقدم في الساميَّات من مولد اللاتينية نفسها.

أما النحس الأكبر الذي وقع فيه هؤلاء المستشرقون - لم يتصيدوه من تفاسير القرآن وإنما استأثروا بشرف الوقوع عليه - فهو قولهم إن القرآن سمى مريم أم عيسى أختًا لموسى وهارون، بقوله على لسان قومها: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ فأخطأ القرآن وخلَّط! فتقطع بأنهم وهم أهل كتاب لم يقرءوا في (إنجيل لوقا ١/ ٥) قوله: إن إليصابات أم يحيى خالة مريم أم عيسى كانت (من بنات هارون)، لا يعني بالطبع أن إليصابات كانت ابنة أخي موسى وبينهما ثلاثة عشر قرنًا كما وَهِموا أن القرآن قد فعل، وإنما يعني أن إليصابات خالة مريم كانت (هارونية) من سبط هارون أصحاب الكهانة والسدانة في بني إسرائيل من بعد موسى، يعني (لاويَّة) خادم معبد، كالذي كانته مريم أم عيسى عليه السلام، أو تقطع بأن هؤلاء المستشرقين الذين ولدوا في اليهودية أو النصرانية لا يعلمون شيئًا من اللغة العبرية التي يتصدون للكلام في

أعلامها، أو لا يعلمون شيئًا من مواضعات اليهود ومصطلحاتهم كالذي عَلِمَه القرآن بقوله في مريم: يا أخت هارون! أو تقطع أخيرًا بأنهم علموا هذا وذاك ولكنهم تعمدوا التدليس عليك، حسدًا من عند أنفسهم. صحيح أن مفسري القرآن لم يصيبوا في فهم مدلول (أخت هارون) لأنهم لم يعلموا مدلولها في مواضعات اليهود ومصطلحاتهم، وجهله أيضًا رواتهم من أهل الكتاب أو تكتموه عليهم، ولكن مفسري القرآن لم يخوضوا في علم ما لم يعلموه، واكتفوا بأنها (صِنْو هارون في الصلاح)، ولكن ما عذر أولئك المستشرقين الأدعياء المتطفلين على مباحث اللغة وهم يهود أو نصارى؟

الراجح عندي - إن كان هؤلاء المستشرقون أبرياء بجهلهم - أن الذي جرَّهم إلى هذا هو اشتباه (مريم) عليهم بمريام، ولم يتثبتوا[1]، واشتباه (عِمران) عليهم - التي في القرآن - بعَمْرام أبي موسى ومريام في التوراة، فتأدَّوا من هذين إلى خطأ ثالث هو أن القرآن بقوله: أخت موسى، يخلط بين (مريامين)، لا بين (مَرْيم)، (مَرْيام).

ولو قد كانت لدى هؤلاء المستشرقين وتلاميذهم ذرة من تُؤدَة العالم وأناته، أو قل لو كانت لديهم مسحة من إنصاف العالم المدقق الذي يدَّعونه، لسجلوا للقرآن بقوله: يا أخت هارون، إعجازًا فوق إعجاز.

لم يعلم القرآن فقط مدلول (أخت هارون) في مواضعات اليهود ومصطلحاتهم، أي (الهارونية) اللاوية، (خادم الهيكل) الذي كانته أَمَةُ الرب، مريم ابنةُ عمران، أم عيسى صلوات الله عليه، وهذا بذاته إعجاز ولكن القرآن المعجز بواسع علمه يُجانس بأخت هارون هذه على (مريم)، أمة الرب آراميًّا، فيفسِّرُ بها هذا العلم الأعجمي بالمرادف القريب

(١) وقع في هذا الخطأ أيضًا، الذي نعيناه من قبل على المترجم العربي للكتاب المقدس، المترجم العبراني للأناجيل اليونانية، الذي يرسم بالخط العبراني في ترجمته اسم مريم أم عيسى عليه السلام بنفس رسم (مريام) أخت موسى وهرون، فيئول معنى الاسم عند قارئه العبراني إلى معنى المراء والمرية كالذي يفسر به علماء التوراة الاسم (مريام) ولا يصح عندك - مسيحيًّا كنت أو مسلمًا - أن تتسمى على هذا المعنى والدة المسيح.

من معناه في قوله عز وجل: ﴿قَالُوا يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾(١)، أي يا من اسمك أمةَ الرب، يا من أنت أخت هارون ساكنة المحراب، يا ابنة عمران وامرأة عمران العامر العابد، كيف فعلتِ ما فعلت؟ انظر معي إلى تصاعد التقريع في هذا النسق القرآني المعجز الذي لا يستطيعه إلا قائله عز وجل، واعجب معي للمتطاولين على هذا العِلْم المحيط.

فسر القرآن على منهجنا في هذا الكتاب الاسم الآرامي (مريم) - يعني أمة الرب - تفسيرًا مباشرًا بالمرادف اللصيق في قوله عز وجل: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾(٢)، وقوله أيضًا في مريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾(٣)، ومعنى (قَنَتَ) في اللغة العربية هو (ذَلّ له وخضع وانقاد) فهو العبد: قال عز وجل متحدثًا عن ذاته ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾(٤)، أي كل له منقاد ذلول وإن جحد وبطر، وقال عز وجل في خطاب أمهات المؤمنين: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾(٥) أي من تخضع لأمر الله ورسوله مهما شق وعظم، ووصف بها إبراهيم في البلاء المبين، يفعل ما يُؤمر وإن كان ذبح إسماعيل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾(٦)، وليس بعد هذا عبد قانت. وإنما استعير القنوت في التعبد لأن الإقرار بالعبودية هو لب العبادات جميعًا، وليس في الأمثلة التي سقتها لك من القرآن مثل واحد يُفهم فيه القنوت بمعنى (القنوت في الصلاة) أي العبادة، وإنما هو العبودية على معنى الطاعة والخضوع والانقياد.

وهل كانت مريم (أمةُ الرب) إلا هذا يوم بشِّرت بالمسيح فحملت به؟ رضيت بالتهمة

(١) سورة مريم، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

(٣) سورة التحريم، الآية: ١٢.

(٤) سورة الروم، الآية: ٢٦.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣١.

(٦) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

والظنة وهي أطهر عذراء لأن المولى هكذا شاء وقدر. قد علمت أنها أمةُ الرب، لا تملك من أمر نفسها شيئًا، قالت لجبريل أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك، فلما أجاءها المخاض إلى جذع النخلة توجعت كما يتوجع النساء، بل أكثر مما يتوجع النساء، وهي تلد ابنها وحيدة مُنْزَوِيَةً عن أهلها تتكتم أمرها خشية ألسنة الناس، عالمة أنها ما إن تنتهي أوجاع الولادة وتضع حملها حتى تنفجر التُّهمة الظالمة فتقتحمها أعين الناس وتقرعها ألسنة السوء، أو يرجموها بناموس التوراة، وإن كانت هي وابنها آية للناس: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[1]، هنا قرَّت عين مريم: ها هو جدول رقراق يجري ماؤه تحت قدميها ولم يك ثمة جدول. وهذا الجذع الأجوف الذي ألجأها المخاض إليه، ها هو يهتز ويربو وقد حَيَت النخلة، ما إن تضمه إليها حتى يتساقط جناه، قد عَلِمت مريم من قبل أن الله يأتيها برزقها في كل حين: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]. ولكن هل تُدرك أنت كم هي فرحة أم بمولود لها تضعه فيكلمها في قماطه؟ لا يناغيها وتناغيه فيُسرى عنها، ولا يناجيها فيذهب همها، ولا يبكي كما يبكي الرضيع، ولكنه ينطق ليطمئنها أنه هو الذي سيحمل عنها عبء مواجهة الناس يوم تأتي به قومها تحمله: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[3]، بدأ بأنه عبد الله، يعظ بها من سيغالون في تعظيمه، وقال برًّا بوالدتي، ولم يقل برًّا بوالديَّ ما قيل عن يحيى في نفس السورة قبله، يُخرس بها من سيفترون عليها البهتان، هنا خرست ألسنة السوء أمام المعجزة الكبرى.

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٢٣ – ٢٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٣) سورة مريم، الآيات: ٣٠ – ٣٣.

هذه الآيات من سورة مريم إعجاز في أنباء القرآن لا يعدله إعجاز، ولكنها فاتت على كتبة الأناجيل فلم يسجلوها، لأنهم اكتفوا بشهادة المجوس الذين جاءوا ليسجدوا للمسيح في المِذود، ويُقدموا له ولأمه هدايا؛ ذهبًا ولبانًا ومُرًّا، بين جُوق من الملائكة يُسبح ويهلل، وترانيم يصدح بها رعاة تصادف وجودهم، لا تدري من أين جاءوا، ولا من أوحى لهم بأن المولود مسيح من الله. كل هذا لا يفسر لك لماذا سكت قوم مريم على مريم يوم أتتهم برضيعها تحمله، ولماذا لم ينبسوا في مواجهة هذه الفضيحة بِبِنْت شَفَةٍ؟ نعم، قد قال لوقا في إنجيله (لوقا ٢/ ٨ - ١٩) إن مَلَكًا ظهر للرعاة، كما قال متَّى في إنجيله (متى ٢/ ١ - ٢) إن نجمًا ظهر للمجوس، ولكن من سيصدق الرعاة أو يُصدق المجوس؟ وقالت الأناجيل أيضًا (متى ١/ ١٨ - ٢٤) إنه لما بدت أعراض الحمل على مريم فكر خطيبها يوسف النجار في تخليتها سرًّا لولا أن تراءى له ملك الرب في حلم فبرَّأ مريم وصدَّق يوسف بالرؤيا وضم مريم إلى كنفه، ولكن من سيصدق يوسف؟ الأحرى أن يتهموه. بل هذا هو الذي يقصه عليك لوقا بالنص: (ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما يُظن ابن يوسف بن هالي..... إلخ)[1]، يدعم بها نسب المسيح إلى داود عبر يوسف النجار الذي من نسل داود، هذا النسب الذي أنكره المسيح من بعد، وما كانت به إلى هذا النسب من حاجة، فلا أب للمسيح إلا أمه مريم ابنة عمران. ليس هو من نسل داود وليس من سِبط يهوذا، بل هو من سبط والدته، وجده عمران، سبط لاوي، وكذبت نبوءة كاتب سفر التكوين على لسان يعقوب في اختصاص سبط يهوذا بالنبوة والملك، فكان أول ملوك بني إسرائيل شاؤول (طالوت) الذي من سبط بنيامين، وكذبت نبوءته أيضًا في ترذيل سبط لاوي، فكرم الله هذا السبط الذي جاء منه موسى وهارون، وخُتم خَيْرَ ختام بالمسيح ابن مريم، صلوات الله وسلامه على جميع رُسُله وأنبيائه، تورط إذن متى ولوقا في استمساكهما بتأصيل نسب المسيح إلى داود استنادًا إلى هذا الخيط الواهي عَبْرَ يوسف النجار خطيب مريم، وليس في عبارة لوقا: (وهو - أي المسيح - فيما يُظن ابن يُوسف ابن هالي.... إلخ) إلا تفنيد هذا النسب في

(١) لوقا: ٣/ ٢٢.

واقع الأمر، فما بالك بتكذيبه على لسان المسيح نفسه في الأناجيل؟ هذا التعلق بالنسب إلى داود يشوش على عذرية مولد المسيح صلوات الله عليه - وإن يكن من متَّى ولوقا بالطبع غير مقصود. ولكنه يُسجل لك ظن الناس ظن السوء بمريم وابنها عليهما السلام منذ مولده وقبل مبعثه صلوات الله عليه، فلماذا سكتوا على مريم ويوسف؟ الراجحُ عندي لا يصح غيره أن خطبة مريم ليوسف ما كانت لتحدث قبل حملها الإعجازي بالمسيح، لقول القرآن فيها: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[1] وإحصان الفرج هنا كناية عن التبتل والانقطاع لعبادة الله لا زوج ولا ولد، وما كان لبتول أن تقبل خطبة الرجال، لا يوسف النجار ولا غيره وإنما خطبها يوسف - خلافًا لقول الأناجيل - بعد حملها، وربما بعد ولادتها مُصدّقًا مؤمنًا بالآية والمعجزة، لتكون مريم وابنها في كنفه ورعايته لا غير، فهو أب بالتبني فحسب إن جاز التعبير.

أما لماذا خرست ألسنة السوء عن مريم وابنها يوم أتت به قومها تحمله، فلم تُزَنَّ بريبة، ولم يتعرض لهما الكتبة والفَرِيسيُّون بسوء، منذ مولد المسيح وحتى مبعثه، فلا مبرر لهذا من العقل والمنطق وأخلاق اليهود وناموسهم، إلا هذه المعجزة الكبرى التي سجلها القرآن العظيم وفاتت على كتبة الأناجيل فلم يُعْنَوا بتسجيلها، أعني كلام المسيح في المهد، ينطق وهو الرضيع بالبراءة القاطعة لوالدته عليها السلام، فتنقلب التهمة إلى شرف أي شرف، إعجاز الله فيها وفيه، وينقلب الغمز واللمز والتجريح إلى تسبيح وتهليل، وتتناقل الألسنة حديث الطفل المعجز من سيكون. ولكن الذي نطقت الملائكة بلسانه وهو في المهد فصيحًا بليغًا، يصمتُ من بعد حتى تأتي سنه لينطق كما ينطق الطفل. وتمضي به الأيام ويُنْسى ما كان كما يُنسى كل شيء بعد حين، إلا منه هو نفسه ومن خاصته وأهل بيته، وإلا من والدته عليها السلام التي أنبئت يوم حملها به أن الله جاعله آية لبني إسرائيل.

والذي ينبغي التنبيه إليه أن القرآن العظيم لا ينعى على اليهود قولهم البهتان في مريم عليها السلام، وإنما هو يُكَفّرهم بهذا القول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ

(١) سورة التحريم، الآية: ١٢.

بِغَيۡرِ حَقٍّ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾[1]، وإنما قال اليهود هذا البهتان على مريم بعد مبعث المسيح لا قبله، قاله منهم مكذبوه وشانئوه وطالبو دمه، يطعنون في نسبه طعنًا في نبوته، لُعِنوا بما قالوا.

ولكن الله عز وجل ما كان ليكفر قائلي هذا البهتان على مريم - وهو لا يتجاوز القذف - لمجرد قولهم هذا، وإنما كَفَّرهم الله عز وجل لأنهم شهدوا الآية المعجزة، ثم كفروا بما شهدوا وعاينوا.

لم يكن مولد المسيح الإعجازي سرًّا بين مريم وابنها، أو بين مريم ويوسف، أو بين مريم وخاصة بيتها، أو بين مريم وبين نبي الله زكريا أبي يحيى كافلها وراعيها، الشاهد لها بالرزق يأتيها به الملائكة في المحراب، وإنما استعلن الله بهذه الآية لبني قومها جميعًا ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ على لسان هذا المتكلم في المهد الذي نطق بنسبه الصحيح: (وبرًّا بوالدتي) ليس له والدٌ غيرها.

سَمِعَ الناس منه هذا وشهدوا وعاينوا، وما كان لهم بعد هذه الآية إلا أن يؤمنوا بما شهدوا وعاينوا، ولكنهم كفروا بها.

ومن يكفر بآيات الله فقد كفر بالله عز وجل.

هذا القرآن ينطق بالحق ويهدي للتي هي أقوم، فما ضرهم لو آمنوا به مصدقًا لما معهم، حفيظًا عليه، محقِّقًا مهيمنًا؟ ولكن ليس عليك هداهم، بل يهدي الله لنوره من يشاء، حين يشاء، وهو أعلم بالمهتدين.

أما أنت أيتها الصدِّيقة مريم، أَمَةُ الرب، فعليك صلوات الله وسلامه مع النبيين والصديقين والشهداء، وحَسُن أولئك رفيقًا.

* * * *

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٥٥، ١٥٦.

(٥٦) عيسى

عيسى هو الاسم المسمى به المسيح عليه السلام في القرآن، بينما هو في أصول الأناجيل اليونانية يجيء على *Iesou* (يسو) تضاف إليه السين في حالة الرفع وتضاف إليه النون في حالة النصب فيصبح *Iesous* أو *Iesoun* (يسوس أو يسون). والمجمع عليه أنه من العبرية يشوع. ذهبت عينها الخاتمة عند اليونان وانقلبت شينها سينا. ومن يشوع العبرية هذه جاء الرسم يسوع بالسين الذي تقرؤه اسما للمسيح في الترجمات العربية للأناجيل اليونانية الأصل، استئناسًا بأن الشين تنقلب إلى سين في العربية، غالبًا، وهذا صحيح بالنسبة إلى الاسم العبري يشوع بالذات لأنه من المادة العبرية يشع التي تكافئ وسع العربية.

والمحقق الثابت أن العرب لم يسمعوا من نصرانييهم هذا الاسم عيسى الذي جاء به القرآن، وإنما سمعوها منهم يسوع بالسين على اللفظ الذي ينطق به نصارى السريان تحولًا عن الشين التي في يشوع العبرانية إلى السين التي في *Iesous* اليونانية في أصول الأناجيل.

أما لماذا قال القرآن عيسى ولم يقل يسوع التي عرفها العرب اسما للمسيح، فهذا من فرائد إعجاز القرآن في أعلامه الأعجمية: لو قالها يسوع على ما شاعت به، لفهمها العرب من العربية على معنى الذي ساع من ساع يسوع سوعًا، يعني ضاع وهلك، ولم يهلك المسيح على الصليب كما يؤمن الذين شبه لهم، فما قتلوه وما صلبوه، بل توفاه الله رافعًا إياه إليه، أي توفاه بأن رفعه إليه، سليمًا معافى لم تهلك منه شعرة، ولم يخدش منه ظفر، جسدًا حيًّا ولم يزل، لا يموت إلا والساعة قريب، فهو من أعلام الساعة وأشراطها، ينزل في الناس بالحق الذي جاء به القرآن فيه ويصحح مقولة الذين شبه لهم، ثم يموت على دين خاتم

النبيين كما مات الرسل من قبله ليبعث معهم يوم يقول الأشهاد: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1].

وليس أصل معنى التوفى في اللغة هو الإماتة، كما يخطئ مفسرون، وإنما التوفى في أصل معناه، بل وفي معناه القرآني بالذات، هو الاستيفاء، أي الاستخلاص كاملًا غير منقوص، تقول منه: وفيته حقه، وتوفى هو حقه، يعني أخذه كاملا، ومن هذه قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2]، ومنه أيضًا: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾[3]. وإنما جاز التوفى بمعنى الإماتة لأن الموت مترتب عليه، أعني الذي مات إنما مات لأن الله توفى نفسه أي قبضها إليه، أي استخلصها من هذا الجسد. والذي في المسيح ليس من هذا، وإنما هو في المسيح على أصل معناه: التوفى بمعنى الاستخلاص كاملًا غير منقوص، دليلك في هذا قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[4] لو فهمتها بمعنى (إني مميتك ورافعك إلي) لما كان لكلامك معنى، فالله لا يرفع إليه جسدًا ميتًا، وهو أيضًا لا يرفع إليه نفسًا أميت جسدها بالتوفِّي، أي بتوفي النفس، وإنما هو يقبض الأنفس ولا يرفعها. وحتى إن سوغت لك نفسك هذا الفهم السقيم فقلت إن الرفع ههنا بمعنى القبض، فقد أمات الله إذن المسيح على هذه الأرض وقبض نفسه كما يقبض الله الأنفس، فماذا يبقى لديك من معنى الآية، وقد تقدمها مباشرة قول الله عز وجل: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[5] أي أرادوا صلبه وأراد الله بالمسيح شيئًا آخر؟ أفيصح أن يكون هذا الشيء الآخر هو أن يميت الله عيسى كيلا ينالوه حيًّا، وكأن المعنى لم يقتلوه ولم يصلبوه وإنما أمتناه نحن بأيدينا لا بأيديهم؟ فما الإعجاز في هذا؟ أفي هذا إنجاء وتخليص؟ وما قيمة هذا في جنب مكر الله عز وجل وتدبيره وهو خير الماكرين هذا

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

هراء بالطبع لا يصح أن تقع فيه إن وقعت على مثله. وخلاصة قول المفسرين في هذا[1] أن المسيح عليه السلام رفع بجسده ونفسه معًا، أي رفع جسدًا حيًّا، وأنه لم يزل كذلك، إلى أن يهبطه الله إلى الأرض ليموت عليها كما مات الأنبياء وكما يموت البشر وكل ذي نفس، لأن كل نفس ذائقة الموت كما أخبر القرآن. أما قولهم في التوفى ففريق على أنه بمعنى القبض، أي إني قابضك إليَّ ورافعك إليَّ، وكأن الرفع هو التوفي. وهذا من الحشو الذي لا يضيف جديدًا، فأنا وأنت ننزه القرآن عنه. أما الفريق الآخر الذي يصر على أن التوفي بمعنى الإماتة، فهو يقول إن في الآية تقديمًا وتأخيرًا، أي إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد ذلك، أي حين يعيده إلى الأرض مرة أخرى ليشهد على الذين خاضوا في عبده ورسوله. وليس هذا أيضًا - أي التقديم والتأخير - بمقبول، لأنه بعكس ترتيب الأحداث منذ الرفع إلى التوفي وبينهما فجوة اتسعت حتى يومنا هذا لحوالي عشرين قرنًا من الزمان والله أعلم متى تلتئم الفجوة، ولا يصح في هذا تقديم وتأخير، وإنما هو خلط وتخليط ننزه أنا وأنت القرآن عنهما: لا حيلة لمن أراد التوفي في الآية بمعنى الإماتة إلا أن يسلم بخطئه، إن وقع التوفي بمعنى الموت أولا على الترتيب الذي جاء به القرآن، فقد امتنع الرفع والتطهير، وإن افترض فيه تقديمًا يراد به التأخير، أي أراد معكوس الترتيب الذي في القرآن، فلا يصح له هذا إلا بافتعال لا يليق بجلال القرآن.

على أن هناك من قال كما نقول نحن إن التوفي في الآية هو بمعنى الاستيفاء على أصل معناه، ولكنه لم يوفق إلى استجلاء مراد القرآن من هذا الاستيفاء: قال إن الله عز وجل وقد رفع عيسى إليه حيًّا لم يمت، إنما استوفى عمره في الدنيا، أي استكمله له، أي استوفى حياته على الأرض بين الناس. ولا يصح هذا من وجهين، الأول أن المسيح المرفوع لم يستكمل حياته على الأرض. بل سيعود إليها ليستوفى ما بقى له من عمره. والوجه الثاني أن هذا القول لا يصح في اللغة، لأن المفعول في متوفيك هو المسيح نفسه، لا عمر المسيح ولا حياته، فالمستوفى (بفتح الفاء) الذي استوفاه الله هو المسيح لا عمر المسيح، واسيتفاء المسيح

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٥٥ من سورة آل عمران.

يعني استخلاصه مما أرادوه به، أي القتل والصلب فهو الإنجاء والتخليص، الذي فسره القرآن المعجز بقوله عُقَيب هذا مباشرة: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أسلك منهم كما يسل الحق من الباطل، وكما ينفض الوسخ عن الثوب. وقد ظن المفسرون - ولم يوفقوا - أن التطهير في الآية يعني إبراؤه من ذنب ما قالوه فيه، إله أو ابن إله، ولا يصح هذا أيضًا لأن قالة هذه المقالة ما كانوا قد ولدوا بعد، بل حتى إن سلمت كما يؤمن النصارى بأنهم قالوها وهو بين ظهرانيهم فما كانوا هم الذين طلبوا قتله على الصليب.

أما الذي لم يعلمه المفسرون جميعًا فهو أن القرآن المعجز يفسر بالتوفي، أي الاستنقاذ والتخليص، هذا الاسم العلم عيسى (يشوع عبريًّا) كما سترى، وسبحان العليم الخبير.

* * * *

ينص القرآن على أن الله هو الذي سمى المسيح ابن مريم، لا والدته وذووه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[1]، كما سمى الله يحيى من قبل لأبيه. والذي تلاحظه من هذه الآية في سورة آل عمران أن القرآن لا يسميه بالاسم عيسى فحسب، وإنما يلقبه أيضًا بهذا اللقب الذي غلب عليه من بعد: المسيح. وهو لا يسميه ويلقبه فحسب، وإنما هو أيضًا ينسبه: ابن مريم، إن أردت أن تدعوه بأبيه فلا أب له غيرها.

أما اللقب، المسيح (مشيح عبريًّا)، فمعناه في مصطلح اليهود الممسوح، يريدون الذي مسح بدهن البركة (زيت الزيتون)، أي الذي صب الدهن على رأسه، ملكًا كان أو كاهنًا أو نبيًّا، فيصير بهذه المسحة قديسًا، يعني صديقًا في لغة أهل القرآن وإن لغط بعض أهله في هذا العصر بالقديس والقديسين متابعة لأهل الكتاب الذين يقرءون لهم ولا قداسة ثم، وإنما هي الصديقية لا غير. وقد كانت هذه المسحة طقسًا من طقوس اليهود في كهنوتهم، يرسم بها الكاهن كاهنًا مثله، أو يرسم بها نبيًّا اعتمد الكهنوت نبوته، أو يرسم بها الكاهن

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

أو النبي ملكًا نصبوه على بني إسرائيل، أو يرسم النبي نبيًّا يخلفه في النبوة، فهي الرسامة، أي التنصيب في الكهانة أو الملك أو النبوة. وقد آل اللفظ في مجاز العبرية إلى معنى الصديق وإن لم يرسمه كاهن أو نبي، فهو المبارك. ومسحاء الرب، يعني أولياؤه ومباركوه. المسيح إذن عربية بلفظها فقط، ولكنها أعجمية بمعناها، رغم التقارب اللفظي الشديد بين مسيح العربية وبين مشيح العبرية – الآرامية، لغة المسيح ولغة أهله وعشيرته وحوارييه، لتخصيص معنى المسح بما ليس فيه عند أهل الكتاب، فينبهم عليك المعنى المراد من هذا الوصف، إلا إن كنت متضلعًا من مصطلحات اليهود العبرانيين، ناهيك بأن تكون لغتك غير سامية، فلا تدري ما المراد من *Messiah* أو *Messie*، والانبهام يؤدي إلى التوهم والتضخيم فتذهب بك التوهمات كل مذهب في مدلول لقب المسيح دون أن تدري أن قد خلت من قبله المُسَحَاء في بني إسرائيل بالألوف: إنه فحسب المبارك أو الصديق.

وقد فسر القرآن لفظ المسيح على معنى المبارك على لسان عيسى يوم أنطقه الله في المهد ليستعلن بنسبه ويتحدث بآلاء الله عليه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[١].

وتسمية القرآن عيسى ابن مريم بالمسيح يوم البشرى به لمريم، تفيد أنه مسيح من الله، أي مبارك منه جل وعلا، وإن لم يرسمه كاهن أو نبي، بل ولد مسيحًا، تلك التي غلبت عليه، تعرفه بها وحدها دون أن يسمى لك بالاسم عيسى أو عيسى ابن مريم، فهو المسيح بإطلاق. وهي في المسيح عيسى عليه السلام لا تجيء إلا معرفة بالألف واللام، دالة على علميتها فيه وحده، فهي اللقب الذي اختص به.

والذي يدلك على اختصاص عيسى ابن مريم صلوات الله عليه بلقب المسيح، اجتزاء القرآن في ثمانية مواضع اجتزاء مطلقًا عن الاسم عيسى بلقبه، المسيح، وهي: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾[٢]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾

(١) سورة مريم، الآيات: ٣٠ – ٣٣. (٢) سورة النساء، الآية: ١٧٢.

قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1]، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[2]، ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[3]، ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4].

والذي يستوقفك هنا أن هذه المواضع الثمانية بالذات هي الآيات التي شددت النكير على من قالوا إن المسيح إله على البنوة لله، وقد تعمد القرآن المعجز الاجتزاء فيها عن اسم عيسى بلقبه الملازم له، المسيح، لينبه من لم ينتبه إلى أن الممسوح يقتضي ماسحًا يمسحه، وأن المبارك يقتضي من يباركه وأن الذي هو من جوهر الله على قول من قال، لا يحتاج إلى هذه المسحة أو هذه البركة من الله بالذات، ناهيك بأن يحتاج إليها من غيره، أو أن يسعى إليها من غيره، أو أن يسعى إليها عند يحيى بن زكريا ليعمده [5] في ماء نهر الأردن شأن

(١) سورة المائدة، الآية: ١٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٥.
(٤) سورة التوبة، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٥) لا يشتبهن عليكم العماد والاعتماد هنا بمعاني الإقرار والإجازة، فالجذر عمد المعنى هنا ليس عربيًّا، وإنما هو من العبرية – الآرامية بمعنى وقف منتصبًا شأن المعتمد من يحيى الذي يغطسه في ماء نهر الأردن قائمًا. وقد أحسن نصارى مصر بقولهم الغِطَاس بدلًا من العماد، لأن الغطاس أدق في ترجمة *Baptizein* اليونانية. وقد قيل يحيى المغتسل بدلًا من يحيى المعمدان، وليس بشيء، والصحيح يحيى المغطاس.

الساعين إلى هذا العماد على يد يحيى، فلما التقى النبيان امتنع عليه يحيى بتواضع الأنبياء قائلًا له: (أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي؟ فأجاب يسوع وقال له اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمِّل كل بِرٍّ)[1].

وقد اعتل تلاميذ يحيى من بعد على تلاميذ المسيح باعتماد عيسى منه، ولم يعتمد يحيى من المسيح، فيحيى إذًا أرفع رتبة من عيسى وإلا لما احتاج إليه المسيح. ولكن الأناجيل ترد على هذا بأن عيسى لم يباشر مهام نبوته ولم يستعلن بها الناس إلا بعد مقتل يحيى: (وبعد ما أُسْلِمَ يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يَكْرِزُ ببشارة ملكوت الله ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل)[2]، وهذا منطقي تمامًا، فلا يصح لمن يدعوان بنفس الدعوة أن يشوش أحدهما على الآخر بنفس المقولة: (وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهود قائلا توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات)[3]، ولكن التاريخ لم يحفظ لك ما كتب تلاميذ يحيى في سيرة معلمهم مثلما حفظ لك في تلك الأناجيل ما كتبه تلاميذ عيسى في سيرة يحيى والمسيح معا. وقد حرص كاتبو الأناجيل - وكأنهم يردون على تلاميذ يحيى الذين ضاعت كتابتهم - حرصًا شديدًا على إثبات ما يعلى رتبة المسيح على ابن زكريا، وبالغوا في هذا إلى حد الإغراق، من مثل قولهم على لسان يحيى إنه ليس أهلًا لحمل حذاء عيسى (متى ٣/ ١١) ولا يجمل هذا بالأنبياء حتى في تواضعهم، بل هو اتضاع مقيت لا يليق البتة بمن اعتمد منه المسيح وشهد له بالنبوة ووصفه في تلك الأناجيل بأنه لم يقم في المولودين من النساء من هو أعظم من يوحنا (متى ١١/ ٩ - ١٢)، ولكنه يستدرك فيقول في نفس الموضع ولكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه، يعني نفسه في قول شراح المسيحية، وحتى إن سلمت هذا فلا يصح أن ترتب عليه أن يحيى ليس أهلًا لحمل حذاء عيسى، لأنه تصاغر يسلب يحيى نبوته، ولأنه لا يصح الاتضاع ويكرم إلا لله

(١) متى ٣/ ١٤ - ١٥.
(٢) مرقس ١/ ١٤ - ١٥.
(٣) متى ٣/ ١ - ٢.

عز وجل، فلا يصح اتضاع الأنبياء لغيره جل وعلا، ولا يصح أيضًا تفاخرهم على الناس أنبياء وغير أنبياء. وقد كان عيسى عليه السلام غاية في التواضع، يأبى على أتباعه أن يعظموه: وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجثا له وسأله أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية. فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحًا. ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله (مرقس ١٠/ ١٧ - ١٨). الذي يقول هذا لا تنتظر منه أن يعظم نفسه.

غالت الأناجيل إذن في تعظيم المسيح حتى أشرفت على المنزلق الخطر. ومن هذا حذر النبي الخاتم[١]: لا تفضلوني على يونس بن متى! فالنبوة من الله عز وجل، يرفع درجات من يشاء، والموحِي واحد، الفضل له والمن، فلا فاضل ولا مفضول.

وقد جرَّت هذه المغالاة في المسيح كما تعلم إلى شر كبير.

* * * *

أما الاسم عيسى فقد جاء في القرآن على الإبدال من يِشوع العبرية التي نطقها نصارى السريان للعرب على اللفظ يَسوع تبركا بسين يِشوع التي في الرسم اليوناني في أصول الأناجيل، واحتفظت بها الترجمات العربية فقالت هي أيضًا يسوع.

وأنت لا تظن بالطبع أن الملائكة يوم بشرت مريم بالمسيح كانوا يخاطبونها بهذا اللفظ العربي الذي في القرآن: اسمه المسيح عيسى ابن مريم وإنما خاطب الملائكة مريم بلسان مريم، أي بالعبرية - الآرامية، فيقولون لها بالعبرية مثلا: ويقرا شْمُو هَمَّشِيَح يِشوع بِنْ - مريم، أو يقولون لها بالآرامية: شْمِيْه مشِيحا يِشوعا بار - مريم، لم ينطقوها عيسى بالقطع، وإنما قالوها يشوع.

قد علم القرآن هذا، كما علم أيضًا أن نصارى العرب يقولونها يسوع. فلماذا تحول بها إلى عيسى؟

(١) وهو الأصغر في ملكوت السماوات كما قال المسيح، أي الأخير بعثة. فتأمل.

مر بك في تضاعيف هذا الكتاب أن القرآن يرفض التعريب حين يسيء التعريب إلى المعنى، أي حين تلتبس صورة الاسم في لفظه المعرب بلفظ عربي يغاير معناه معنى الاسم الأعجمي في لغة صاحبه، فما بالك بتعريب يفيد الضد من معناه؟

لم يرتض القرآن إذن هذا التعريب الذي وجده جاهزًا عند نصارى العرب ونصارى السريان: يشوع = يسوع. لأن يسوع هذه تعني في العربية السائع الهالك وما كان الله ليسمى المسيح بهذا المعنى المذموم يوم البشرى به. فلا يصح هذا في نبي مرسل من الله، بل لا يصح من آحاد الناس في مواليد الناس، وإلا لانقلبت البشرى إلى فاجعة. بل لا يصح هذا التعريب الببغائي أصلًا، لأن الله سماه بالعبرانية يشوع المراد منها العكس الصريح لمعنى السائع الهالك الذي في صنوها اللفظي يسوع عربيًّا.

ومر بك أن القرآن حين يعدل عن التعريب فهو يعدل عنه إلى الترجمة.

أفتكون عيسى هي الترجمة العربية لمعنى الاسم العبراني يشوع؟ فما معنى عيسى عربيًّا وهي لم تقع قط في كلام العرب؟

لا يصح اشتقاق عيسى عربيًّا إلا من فعل ثلاثي أجوف معتل الوسط بالواو أو بالياء، عاس/ يعوس أو عاس / يعيس. أما عاس/ يعوس بالواو فمعناه طاف بالليل، وعاس على عياله يعني كد وكدح عليهم، وعاس ماله يعني أحسن القيام عليه، وعَوِس يعوس عَوَسًا فهو أعوس، يعني دخل شدقاه عند الضحك. وأما عاس/ يعيس بالياء فالمستعمل منه أعيس (الزرع) أي لم يكن فيه رطب، تعيست (الإبل) يعني صار لونها أبيض تخالطه شقرة، فهي عيس. وليس في أي من هذه المعاني جميعًا - كما سترى - شيء يقارب، ناهيك بأن يطابق، معنى الاسم العبراني يِشوع، وأصله يِهوشوع، أي يِهوا خلاص، أي خلاص الله.

قال بعض الصوفية أيضًا إن عيسى تجيء من عسى، ذلك الفعل الناقص الذي يفيد الرجاء، فهو المرجو الذي فيه الرجاء. وفي هذا القول جمال كما ترى، ولكنه خطأ محض

من حيث اللغة، فلا تصح عيسى التي بالياء بعد العين إلا من فعل أجوف معتل الوسط بالواو أو الياء كما مر بك، ولا تجيء قط من فعل معتل الآخر فحسب كالفعل عسى. هذا الصوفي إن تمعنت، ينسق مقولته على تفسير النصارى لمعنى الاسم يشوع، التي يقولون إن معناها المخَلِّص الذي يكون به الخلاص. وهذا أيضًا - على الجانب المسيحي - تفسير صوفي يفسر الاسم، لا بمعناه في اللغة، وإنما بما يراد له أن يكون.

لم تجئ عيسى إذن في القرآن على الترجمة من يشوع، ولم تجئ أيضًا على التعريب لبعد ما بين الصورتين عيسى، يشوع (يسوع في الأناجيل العربية التي نطق بها نصارى العرب قبل القرآن). فمم جاءت عيسى؟

الصحيح أن القرآن لم يعتمد هذه الصورة المعربة يسوع التي نطق بها نصارى العرب، التي وجدها جاهزة عند نزوله، لأنها - إن حسبت عربية - تجيء من ساع/ يسوع يعني ضاع وهلك، فهو السائع الهالك، على الضد من معنى يِشوع العبرانية، خلاص الله أي الذي يخلصه الله وينجيه، لجاء القرآن بالاسم عيسى على غير مثال في العربية، مقلوبًا لاسم يسوع لإفادة عكس معناه: ليس هو السائع الهالك وإنما هو المخلص الناجي. وأصل المقلوب التام لاسم يسوع نطقًا هو عُوسَيْ (بفتح السين وسكون الياء) وليس من أوزان العربية، فعدل به القرآن إلى عيسى، زنة سيما، اكتفاء في القلب بدلالة نقل عين يسو الخاتمة من آخر الاسم إلى أوله. وبقيت عيسى أعجمية غير عربية، تمامًا كأصلها العبري يِشوع، يفسرها القرآن بالمرادف: يا عيسى إني متوفيك أي مستخلصك.

لم يتسم المسيح عليه السلام بالاسم يشوع على غير سابقة في أعلام العبرانيين وإنما تقدمه أكثر من يشوع، أول وأبرز من تسمى به قبله علم سبق مولد المسيح بنحو ثلاثة عشر قرنًا، هو يشوع بن نون فتى موسى في سورة الكهف، الذي خلف موسى على رأس بني إسرائيل. كان اسم يشوع بن نون في الأصل (عدد ١٣/ ٨) هوشيع، ولكن موسى عليه السلام لم يرتضه له فأبدله منه (عدد ١٣/ ١٦) الاسم يهوشوع، ثم تخفف يهوشوع فصار إلى يشوع

اختصارا[1]، وهذه الصورة الأخيرة يشوع هي المعتمدة في الترجمة العربية للعهد القديم (سفر يشوع) لاسم فتى موسى يشوع بن نون.

هذه الصور الثلاث: هوشيع - يِهوشوع - يِشوع، منحوتة كلها من الجذر العبري يَشَع (المبدل من وسع العربي)، ومعناه من الإيساع والسعة، مقصورًا في العبرية بالذات على معنى واحد، وهو الخروج من الضيق إلى السعة، يعني الخلاص والتخليص، وبهذه المادة العربية (الخلاص والتخليص) يترجم المترجم العربي للعهد القديم كل مشتقات مادة يشع العبرية في توراة الأنبياء والكتبة.

أما الصورة الأولى هوشيع (التي لم يرتضها موسى اسمًا لفتاه فأبدله منها يِهوشوع) فهي - أي هوشيع - تسمية بالمصدر من يَشَع بعد تعديته عبريًّا بالهاء (وهي التعدية بالهمزة في العربية) فيكون المعنى إيساع أي التخليص والإنجاء، فهو خلاص ونجاء.

وأما الصورة الثانية يِهوشوع فقد نحتها موسى عليه السلام من مقطعين عبريين هما: يِهو + شوع، الأول مختصرًا يِهوا، اسم الله عز وجل في العبرية منذ موسى عليه السلام كما مر بك، والمقطع الثاني شوع مصدر بمعنى السعة، أي الخلاص والنجاء، فيكون معنى هذا التركيب المزجي هو ((الله خلاص ونجاء)). أراد موسى عليه السلام بهذا التعديل الذي أدخله على اسم فتاه يشوع بن نون التنبيه إلى أن الله عز وجل هو الفاعل في هذا الخلاص وهذا النجاء، أي لست يا هوشع خلاصًا ونجاء، وإنما بالله عز وجل الخلاص والنجاء، فالله هو مخلصك ومنجيك.

ولأن الصورة الثالثة لاسم فتى موسى (أعني صورته بالرسم يِشوع) هي نفسها الاسم يِهوشوع مختصرًا كما يقول علماء العبرية وعلماء التوراة، فهي لا تحتاج إلى مزيد بيان: إنها نفسها يهوشوع التي نحتها موسى عليه السلام، الله خلاص ونجاء يعني الله مخلصه ومنجيه.

---

(١) راجع مادة يشع في المعجم العبري الآرامي لألفاظ التوراة، المعجم المذكور.

هذا هو معنى يِشوع عبريا، اسم المسيح عيسى عليه السلام: الله مخلصه ومنجيه. وهي من الله عز وجل تسمية على النبوءة، لأنه هكذا كان: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[1]. وقد تقدم.

ورغم أن علماء المسيحية يعلمون كما تعلم أنت الآن أن يشوع المسيح عليه السلام سمي لفتى موسى يشوع بن نون، وأن معنى يِهوشوع قبل اختصاره إلى يشوع هو الله خلاص ونجاء أي أن الله مخلصه ومنجيه، فقد نحوا منحى آخر في تفسير اسم يشوع المسيح من دون كل يشوع: قالوا إنه ليس من يِهوا + شوع، ولكنه يهى - يهى + شوع[2] يعني هو - يكون - خلاصًا أي هو المخلص الذي يكون به الخلاص، وهو تفسير مفتعل، لأن هذا بالذات هو الذي نعاه موسى على اسم فتاه هوشيع كما مر بك. ولو أريد للمسيح أن يكون بذات اسمه يشوع هو الخلاص والنجاء، تسمية بالمصدر، فهو المخلص المنجي، لسمي هوشيع على ما كان عليه اسم فتى موسى هوشيع بن نون قبل تعديله إلى يهوشوع التي آلت إلى يشوع كما يقول علماء العبرية وعلماء التوراة، دون الحاجة إلى افتعال إضمار يهى - يهى (أي هو يكون) قبل المقطع شوع.

ثم لماذا ينفرد يشوع المسيح بهذا الإضمار المخصوص (يهى - يهى) من دون كل يشوع سبقه أو تلاه؟ بل وما الدليل على هذا من التسمية؟ ألأن ملك الرب الذي ظهر ليوسف النجار في الحلم قال له: فستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم (متى ١/ ٢١)؟ فلماذا لم يسمه جبريل لمريم على أصل هذا المعنى هوشيع أي الخلاص، أو يسمه المخلص مباشرة أي موشيع زنة الفاعل؟ ولكن لم يلتفت أحد لقول الملَك ليوسف النجار عُقَيب هذا مباشرة: وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل هوذا العذراء تحبل وتلد ابنًا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا (متى ١/ ٢٢ - ٢٣). أفليست عمانوئيل هذه تعني الله معنا كما قال متى؟ فما معنى الله معنا؟ أليس معناها الله ناصرنا ومؤيدنا؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٢) راجع هذا التخريج في نفس المرجع، ص ٣٥٤ مادة يشوع.

ألا يقترب هذا كل الاقتراب من معنى يشوع التي أصلها يِهوشوع أي الله خلاصه ونجاؤه؟ ولكن اللاهوت المسيحي لا يرى هذا وإنما يرى أن هذا الطفل المبشر به هو نفسه الله، يولد من العذراء ويعيش معنا زمنا فهو نفسه الله معنا. وهذا هو التفسير بالعقيدة لا التفسير بمحض اللغة. على أن النبوة لم تقل إن الله سيعيش معنا، وإنما قالت تحمل العذراء وتلد مولودًا يسمونه الله معنا فحسب، لا أن الله سيجيء إلينا ليكون معنا. إذا قلت لك: الله معك! فلا يصح أن تفهم عني أن الله معك بذاته، أو أنك أنت من ذات الله، وإنما الذي تفهمه ببساطة أني أدعو لك الله أن تصحبك عنايته، لا أكثر ولا أقل، ولكن هكذا كان.

والذي يعنينا هنا في مقاصد هذا المبحث هو أن نعرف لماذا لم يُرِدْ علماء المسيحية - خلافًا لعلماء العبرية - أن يكون معنى الاسم يشوع في المسيح وحده هو نفس معناه في غيره، ناهيك بأول من تسمى به: يشوع بن نون، الذي سماه موسى عليه السلام بالاسم يِهوشوع المختصر من بعد إلى يشوع، التي فشت في أعلام العبرانيين من بعده، حتى سمي بها المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام.

أراد علماء المسيحية من المسيح أن يكون بذاته هو الخلاص هوشيع الذي يكون به الخلاص، فهو فادى البشر بدمه المسفوح على الصليب، لم يخلصه الله من الصلب كما في القرآن، فلا يصح أن يكون اسمه بمعنى الذي يخلصه الله وينجيه يِهوشوع.

أسقط علماء المسيحية إذن اسم الله يهوا المضمر في يشوع (التي أصلها يهوشوع أي يهوا + شوع كما مر بك)، فبقيت شوع فأضمروا قبلها - لا يهوا اسم الله في العبرية - وإنما يهى - يهى (أي: هو يكون) فأصبح معناه عندهم هو يكون الخلاص، يريدون هو المخلص المنجي، لا المخلَّص الناجي كما فسر القرآن هذا الاسم في قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1] يعني الله مستخلصك (وهي نفسها - عبرانيًا - يهوشوع التي جاء منها يِشوع اسم عيسى في الآية) أي مستوفيك كاملًا غير منقوص.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

لم ير علماء المسيحية ضيرًا في هذا الإبدال؛ لأن الابن عندهم من جوهر الآب، وإذن فهو هو. بل إن الكلمة (أي المسيح) كما قال يوحنا في إنجيله كان عند الله، وكان الكلمةُ الله (يوحنا ١/ ١). وقد كفَّر القرآن قالة هذه المقولة كما تعلم، وتبرأ منها المسيح عليه السلام في القرآن: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[١]. لم يدع إليها هو، ولم تقل له وهو بين ظهرانيهم، ولكنها قيلت بعده.

فلماذا وكيف، تبدل الناس قولًا غير الذي قيل لهم؟

* * * *

بعث عيسى عليه السلام ابن ثلاثين سنة [٢] رسولاً إلى بني إسرائيل حوالي سنة ست وعشرين ميلادية، وفلسطين يومئذ ولاية رومانية تحكمها روما مباشرة، وروما يومئذ والعالم القديم كله، وثنى مشرك، إلا بني إسرائيل، الشعب الذي يعبد الواحد الأحد منذ إبراهيم، وقد تندهش كيف يبعث الله الرسل إلى شعب موحد، بل وكيف يخصه بجم غفير من رسله وأنبيائه، فلا يكاد يخلو منهم جيل إلا وقد كان معه طبيب يطببه ويداويه. ولكنك تستدرك على نفسك فتقول أن داء العارف الجاحد أعتى من ضلالة حائر يلتمس من يهديه.

كانت رسالة المسيح إذن - شأنه شأن من سبقه - قاصرة على هذا الجيل الضال من بني الأنبياء الذين حار فيهم طب النبوة، لا تعدوهم إلى غيرهم من أهل الأرض وثنيين ومشركين. نص المسيح على هذا في الأناجيل بعبارة قاطعة لا تحتمل التأويل: (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)[٣].

لهذا، لم تكن رسالة المسيح إلى قومه رسالة إلى التوحيد، لأن دعوة التوحيد نداء واقر في

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

(٢) ولد عليه السلام على الراجح سنة - ٤م، ورفع سنة ٢٩م.

(٣) متى ١٥/ ٢٤.

سمع هذا الشعب من قديم، لا يحتاجون إلى من يدلهم عليه. وإنما كانت دعوته عليه السلام في قومه دعوة إلى توحيد من نوع آخر دأبوا على مخالفته والخروج عليه: التوحيد بين الظاهر والباطن، بين القلب والقول، بين الفكر والجوارح، بين الإيمان وبين العمل على مقتضى هذا الإيمان.

كان عليه السلام في دعوته - كما تنطق بهذا أقواله في الأناجيل - يبني على ما جاء به الذين تقدموه، موسى وإبراهيم، وما كان لك أن تنتظر غير هذا ممن قال ما جئت لأهدم الناموس والأنبياء، وإنما جئت لأكمل، ناهيك بأن تنتظر منه مقولة غير مسبوقة في توحيد الله عز وجل تضيف إليه عيسى وجبريل، كالتي صيغت من بعده مرحلة بعد مرحلة في المجامع، مجمعًا بعد مجمع، تثلم هذا التوحيد الخالص الذي جاء به موسى وإبراهيم، فتبعض ذات الواحد إلى آب وابن وملك.

والذي ينبغي التنبيه إليه، أيا كان الدين الذي به تدين، أن كلمة الرسول في لب العقيدة وجوهرها لا تؤخذ من فم الشراح، تلاميذ وغير تلاميذ، كهنوتا وغير كهنوت، وإنما تؤخذ من فم صاحب الرسالة نفسه، يقولها جلية بينة فيفهم عنه سامعوه مباشرة، دون وسيط، عالمهم وجاهلهم سواء، ثم يتناقلونها من بعده خلفًا عن سلف، اللفظة باللفظة، والحرف بالحرف، لأن النبي لم يقل لهم هذا الكلام من عنده وإنما من عند الذي أرسله، أي من الله عز وجل، لا يجوز فيه التبديل، ولا تجوز فيه الإضافة ولو بقصد التفسير والتوضيح: النبي الذي يحتاج فهمُ مقولته إلى تفاسير شراح يجيئون بعده بقرون، يتفقون ويختلفون، ويتجادلون ويتناظرون، ثم يقترعون بأغلبية الأصوات في المجامع أيهم المخطئ وأيهم المصيب، ليس بنبي، لأنه لم يحسن تبليغ الرسالة كما أنزلت إليه.

لم يكن هذا بالطبع حال المسيح عليه السلام، حاشاه أن يكون. الذي أبلغ فأدى. يكفيك من محكم قوله في تأصيل عقيدة التوحيد الخالص (لا إله إلا الله) قوله المحفوظ في الأناجيل التي بين يديك حين سئل عن أعظم الوصايا في توراة موسى فأجاب: إن أول كل

الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى. وثانية مثلها هي: تحب قريبك كنفسك[1]. ليس وصية أخرى أعظم من هاتين، فقال السائل: جيدًا يا معلم، بالحق قلت، لأنه الله واحد وليس آخر سواه. علم المسيح أن قد اطمأن قلب السائل فقال له: لست بعيدًا عن ملكوت الله، ولم يجسر أحد بعد ذلك القول الفصل أن يسأله[2] فقد جاء المسيح على دين موسى.

استحسن السائل قول المسيح، واستحسن المسيح تعقيب السائل فبشره بأنه من الجنة قريب وكأنه يزكيه لقومه، من كان له مثل إيمان هذا السائل فعمل به، فدخل الجنة: توحيد الله عز وجل والإحسان إلى الجار، ولو أحسن كل جار إلى جاره لكانت الحسنى في الخلق جميعًا.

بالتوحيد المطلق (لا إله إلا الله) قال المسيح كما رأيت من نص كلامه في هذه الأناجيل، وبالتثليث قال منتسبون إليه في المجامع، فأي الفريقين أولى بالاتباع؟

ولكنك لا تعدم من يقول لك إن التثليث أيضًا توحيد، لأن الآب والابن والروح القدس ثلاثة في واحد. إنهم ثلاثة أوجه للذات الإلهية أو ثلاثة أقانيم، تتمايز لنا نحن البشر، وتجتمع في الله الواحد. وليس هذا من وحي الله في شيء، وإنما هو من تهافت متفلسفة اللاهوت، يرقعون قولًا بقول، جرهم إليه القول بآب وابن وملك. وما كان بهم إلى هذا من حاجة لولا أنهم حكموا المتشابه في المحكم ولم يقيدوه به، ولولا إساءتهم فهم لفظتي الآب والابن العبرانيتين - الآراميتين كما سوف ترى.

---

(١) القريب ترجمة سقيمة للفظة *Plesion* اليونانية، صحيحها (الجار). من ذلك الوصية التي تقول: لا تشته امرأة قريبك، لا يصح أن يفهم منها سريان الحظر على نساء ذوي قرباك فقط، بل هي لا تشته امرأة جارك. وقد أحسنت الترجمة الإنجليزية فقالت *Neighbour* وحبذا لو تفعل الترجمات العربية.

(٢) راجع مرقس ١٢/ ٢٨ - ٣٤.

وهل أحكم من قوله عليه السلام يردد قول موسى في التوراة: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد؟ أفيقول هذا لمن سأله عن الوصية الأولى والعظمى، وهو يضمر في نفسه أنه وجبريل إلهان إلى جوار الله عز وجل؟ أليس قد وعد المسيح هذا السائل بالجنة إن مات على توحيد الله عز وجل؟ فماذا لو قيل لهذا السائل من بعد المسيح إن الله ثالث ثلاثة؟ أفيصدقهم هم ويكذب المسيح؟ فمن يضمن له الجنة بقولهم؟ أفالضمان عليهم؟ فكيف يترك ضمان المسيح إلى ضمانهم هم؟ بل من يضمن لهؤلاء القائلين الجنة وقد خالفوا الوصية الأولى والعظمى التي لقنها المسيح هذا السائل؟

بل علام اتكأ القائلون هذه المقولة؟ أفي الأناجيل الأربعة التي بين يديك قول واحد قاله المسيح ينص على أن الله ثالث ثلاثة، أو ينص على أن الثلاثة في واحد؟

وإذا كان الثلاثة واحدًا، فلماذا يقال أصلًا ثلاثة وهم في النهاية واحد؟

وإذا كان الله اثنين فقط في مقولة أصحاب مجمع نيقية عام ٣٢٥م، فلماذا، تثلث بإضافة جبريل بعد مجمع نيقية بخمسين سنة؟ وما شأن من قال باثنينية الآب والابن وناضل عنها وجادل بها ومات عليها قبل أن يتأله جبريل أيضًا؟

بل ما شأن موسى والنبيين من قبل ومن بعد الذين تقدموا المسيح وقد دعوا إلى التوحيد الخالص وماتوا عليه؟ أليسوا مع المسيح في الجنة؟ فلماذا تكتم الله التثليث عليهم وعلى من بعثوا فيهم فاستجابوا لهم وماتوا على ما دعوا إليه فدخلوا الجنة؟

أفقد ارتضى الله التوحيد الخالص من الخلق أجمع قبل عيسى، ثم أغلظ على الخلق من بعده فاشترط عليهم التثليث لدخول الجنة؟

وإذا كان القول بالتثليث هو وحده المدخل إلى الجنة كما يقول علماء المسيحية، فلماذا تكتمه المسيح على الناس؟ أفقد جاء ليضلهم عنه أم ليهديهم إليه؟

أفقد تكتمها على هذا السائل عن الوصية الأولى والعظمى، وأسرّها في آذان بعض تلاميذه ليستعلنوا بها للناس من بعده؟ أفهو النبي أم هم الأنبياء؟

وهب أنه أسرَّها لتلاميذه وحوارييه ليعلنوها للناس من بعده، فكيف لم يسجلوها هم أو الآخذون عنهم في هذه الأناجيل وقد كتبت كلها بعد رحيله، أو يحذفوا منها جواب المسيح على هذا السائل عن الوصية الأولى والعظمى: اسمع يا إسرائيل! الرب إلهنا رب واحد. وتعقيب السائل وقد اطمأن قلبه بهذا الجواب: بالحق قلت، لأنه الله واحد، وليس آخر سواه!؟ أليست هذه هي نفسها شهادة المسلم: (لا إله إلا الله)؟ فكيف خفيت على مجمع نيقية وعلى المجامع من بعد نيقية؟ بل كيف خفيت على أساقفة نجران في حوارهم ثلاث ليال مع خاتم النبيين في يثرب؟

هذا الذي أنكر أن يقال له (أيها المعلم الصالح) فقال: (ليس صالحا إلا واحد وهو الله)، الذي أبى أن يكون صالحا مع الله، كيف يظن به أنه الله أو إله مع الله؟

الذي قال: أيها الآب! كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذه الكأس[١]! ولكن ليكن لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت[٢]، الذي سجلت الأناجيل له هذا الكلام، الذي يبتهل إلى الآب (وهو الرب كما قد علمت) ويسأله ويدعوه ويستغيثه، ثم يفوض الأمر إليه ويذعن للمشيئة، كيف يقال إنه: (ابن الآب) وإنه والآب واحد، إله في الله، أو إله مع الله؟

هب أن المسيح صلب بالفعل وقبر ثم قام من قبره في اليوم الثالث كما يؤمن المسيحيون جميعًا، فلمن معجزة القيامة من بين الأموات؟ أللمقبور في قبره، الذي قال على الصليب: (يا أبتاه - يعني يا رباه كما قد علمت - في يديك أستودع روحي)[٣]، ولا فعل لميت، أم المعجزة لله الذي لا إله إلا هو الحي الذي لا يموت؟

ولماذا يؤله المسيح وحده بهذه المعجزة؟ أليس سيقوم الخلق جميعًا، برهم وفاجرهم، يوم القيامة لله الواحد القهار؟

---

(١) الكأس هنا كناية عن الموت على الصليب.

(٢) مرقس ١٤/ ٣٦.

(٣) لوقا ٢٣/ ٤٦.

ولماذا لم يؤله (لعازر) الذي أحياه عيسى بإذن الله فانشق عنه القبر وخرج يدب على قدميه مدرجًا في أكفانه؟ ولماذا لم يؤله أيضًا عيسى يوم (أحيا) لعازر؟

ولماذا أيضًا لم يؤله نبي الله اليشع (اليسع) والصبي الذي (أحياه) كما تقرأ في العهد القديم (الملوك الثاني ٤/ ١٧ - ٣٧)؟

ألأن المسيح ارتفع جسدًا حيًّا أمام أعينهم إلى السماء؟ فلماذا لم يؤله أحد نبي الله إيليا (إلياس) الذي تقرأ في العهد القديم (الملوك الثاني ٢/ ١١/ ١٢)، أنه ارتفع إلى السماء جسدًا حيًّا تحت سمع وبصر تلميذه نبي الله اليشع (اليسع)؟

نعم، ثمة فرق بين رفع إيليا ورفع المسيح: أخذ الله إيليا قبل أن يأخذه أعداؤه، لم يمسوه بسوء، أما المسيح في رواية الأناجيل فقد مكن الله منه أعداءه الذين يرفعوه على الصليب حتى الموت، ثم دفن، ليبعثه الله من بعد يطمئن تلاميذه، ثم يأخذه الله إليه. ولكن أيهما أليق وأكرم؟ أفي صلب الأنبياء كرامة؟ ناهيك بأن يقال إن المسيح إله أو ابن إله، فكيف يصلب (الإله) أو يترك (ابنه) للصلب على أيدي بشر ممن خلق؟

لا بد لهذا من علة، هكذا قال مؤلهو المسيح على البنوة لله: شاءت محبة الله الفائقة للبشر الذين عصوه ويعصونه منذ أبيهم آدم، أن يكفر عنهم بقربان يعدل جسامة هذا العصيان، فلم يجد قربانًا أكرم من المسيح يبذله فداءً للبشر، فضحى بابنه الوحيد فداء للخلق. وتستطيع أن ترد على هذا بقولك: فلماذا خلق الله جهنم للعصاة وهو ينتوي افتداءهم بالمسيح؟ وإذا كان المسيح قربانًا من ذات الله لله، فمن المضحى وهو نفسه الأضحية؟ وهل يكفر الله المعاصي بالقرابين شأن آلهة الأساطير أم يكفرها بالتوبة والطاعة؟ وهل كان الذين صلبوا المسيح يقدمون لله قربانًا، أم أن الله هو الذابح والذبيح؟ وإذا كان المسيح لم يضره هذا الصلب، ولم يفسد له جسد بل انبعث بجسده من قبره لم يمسسه سوء فبم كان الفداء؟ أليس قد شبه الله عليهم؟ وهل يليق بجلال الله عز وجل الذي وسع كرسيه السماوات والأرض أن يتحيز في جسد بشر، أو تكون له أم تحنو عليه وترضعه وتفطمه وتغذوه؟ ربما قيل لك

إن الله عز وجل إذا ارتضى أمرًا فعله، لا يحد من قدرته شيء، وما جاز لمردة سليمان في قماقمهم أهون على الله عز وجل، الذي اتخذ من مريم العذراء جسدًا تلبس به زمنا على الأرض، لا يعجزه تصريف ملكه من محبسه وتدبير ملكوته، لأنه سبحانه كلى القدرة، يتعاظم فلا تدركه الأبصار، ويتضاءل إن شاء فيتلبس بالنملة والهباءة. هذا من تلبيس إبليس، يزينه لأوليائه. أما أن قدرته عز وجل لا تحد، ما شاء فعل. فهذا مسلم مقطوع به في جنب الله عز وجل بمقتضى ذات ألوهيته. ولكنك تحيل على الله المحال، لأن المحال عدم، والعدم غير مقدور، يعني لا تتعلق به قدرة أو عجز. والمحال في حقه جل وعلا أن يكون إلهًا وغير إله، الخالق والمخلوق، أن يحده الزمان والمكان وهو خالق الزمان والمكان، أن يجلد ويصلب مريدًا بذاته العلية الذلة والمهانة وهو العزيز الجبار، أن يموت ولو للحظة الحي الذي لا يموت، أو يتضع لخلقه الكبير المتعال. ولماذا المحال؟ لأن محبته (الفائقة) للبشر قد غلبته؟ ألا لو ظن هذا البشر فسحقًا للبشر أجمع.

ثم من قال إن الله (شاء) افتداء البشر من معاصيهم بقربان من ذاته يقدمه إليهم لا بقربان منهم يقدمونه إليه ثم يقال إن الله ما شاء فعل؟ من قال إن الله (شاء) هذا؟ لا يصح الخبر بمشيئة الله إلا لنبي، ولا يجوز التزيُّد على الأنبياء، فما بالك بخائضين في ذات الله يتركون محكم القول إلى متشابهه؟ قد قال المسيح في هذه الأناجيل إنه يأتي بعده أنبياء كذبة كثيرون تعرفونهم من ثمارهم، أي بما يدعون الناس إليه، بل وقال بالنص: (ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات. كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب، أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة[1]؟ فحينئذ أصرح لهم أني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم)[2]. ليس من يربب المسيح بداخل ملكوت السماوات، وإنما يدخله (الذي يعمل إرادة

(١) القوات في مصطلح الأناجيل يعني الخوارق والمعجزات، وإخراج الشياطين يعني إبراء المجنون أو المصروع.

(٢) متى ٧/ ٢١ – ٢٣.

أبي الذي في السماوات)، يعني الذي يعمل مشيئة الله، الذي يأتمر بأمره وينفذ وصاياه، فكيف يُنْفِذ وصايا الله الذي يخالف أولى وصاياه: اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا رب واحد، أي الله واحد وليس آخر سواه، كما قال ذلك السائلُ المسيحَ عن الوصية الأولى والعظمى وأخذها من فم المسيح نفسه، لا يسأل عنها أحدًا بعده، فمات عليها، فدخل الجنة.

كان هذا كله بالطبع مثار جدل عنيف بين المسيحيين من بعد المسيح، مؤلهين وغير مؤلهين. وليس لديك شاهد على ما قاله غير المؤلهين بلسانهم، فلم يحفظ لك التاريخ إلا مقولة المؤلهة وحدهم، الذين استقرت مقولتهم بعد قرون من رفع المسيح، واتهم مخالفوهم بالهرطقة[1]، أن قالوا ليس الابن من ذات جوهر الآب، وطورد قائلو هذه الهرطقة وحرقت أناجيلهم فلم يعد لديك دليل مقطوع به من كتابتهم، كالشأن في تلاميذ يحيى بن زكريا عليهما السلام. ولكن الدليل على مقالتهم المخالفة لمقولة مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥م للفصل في الخلاف حول طبيعة المسيح بين المسيحيين أنفسهم هو مجمع نيقية نفسه، ولو لم يكن على طبيعة المسيح خلاف بين أتباعه لما كانت هناك حاجة أصلًا إلى انعقاد هذا المجمع وما تلاه من مجامع.

هذا يدلك على حكمة الله عز وجل من فتنة الناس بالمسيح: أغزر على يديه الآيات منذ أنطقه في المهد مولودًا بغير أب، وتتابعت على يديه المعجزات حتى إحياء الميت، ثم شبه لهم قتله على الصليب حتى لم تبق لأحد شبهة في أنه الذي مات، ليتراءى لهم من بعد جسدًا حيًّا يكلمهم ويؤاكلهم ثم يرتفع أمام أعينهم إلى السماء جسدًا حيًّا.

وقد مر بك في تضاعيف هذا الكتاب أن الله عز وجل يفتن الناس في هذه الدنيا بما شاء، وكيفما شاء، بل ويفتنهم بالملائكة رضوان الله عليهم كما رأيت من قبل في الفتنة بهاروت وماروت، ومر بك أيضًا أن الفتنة من الله عز وجل هي على أصل معناها في اللغة، اختبار وتمحيص، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة.

---

(١) الهرطقة *Hairesis* اليونانية من *Hairein* أي اتخذ أو تخير، صارت في مصطلح الكنيسة إلى معنى ابتدع أو قال في الدين كفرًا.

ولأن المسيح عليه السلام هو آخر رسل الله إلى بني إسرائيل، فقد شاءت حكمته عز وجل أن تكون الفتنة بالمسيح في شعب التوحيد منذ إبراهيم فتنة في هذا التوحيد نفسه الذي تعالوا به على جيرانهم من قديم، ولو كانت بعثة المسيح في شعب وثني يعدد آلهته لما كان لفتنتهم بالمسيح من معنى أن أضافوا ابنا جديدًا لكبير آلهة الأولمب وذراريه. بل أراد الله عز وجل التمحيص الأخير لصدق إيمان الذين استتاب موسى آباءهم من عبادة العجل في التيه. الذين قال لهم موسى: (اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد)[1]. فأجاب بها المسيح ذلك السائل عن الوصية الأولى في الناموس.

لا يستقيم هذا مع قول من قالوا الآب والابن واحد، ثم أضافوا إليهما من بعد جبريل، ثلاثة أوجه في ذات الواحد أو ثلاثة أقانيم. ترى ماذا يبقى من المسيح الذي عرفوه وقد فني في ذات الله وفني جبريل؟ ليس بعد هذا التشبيه تشبيه.

ليس هذا من قول المسيح في الأناجيل التي بين يديك، ومن ثم فهو لا يلزمك. فلا أحد يأخذ دينه من أفواه الفلاسفة أو الشعراء، وإنما يأخذه من فم صاحب الرسالة نفسه، المبلغ عن ربه، الذي قال في هذه الأناجيل يناجي ربه: (أنت الإله الحقيقي وحدك)[2]. هذا هو الأصل المحكم الذي تقيس عليه كل أقوال المسيح في هذه الأناجيل التي بين يديك وإن شبه لك بعضها أو اشتبه عليك.

ترى ما يقول المسيح في (مجيئه الثاني) لهؤلاء الذين شبه لهم؟ أينكر عليهم أن قالوا فيه ما لم يقل، أم يأخذهم بما استحفظهم إياه فنسوه؟

أما أمثال هذا السائل المسيح عن الوصية الأولى والعظمى: الله واحد وليس آخر سواه، فعضوا عليها بالنواجذ، أولئك الذين استمسكوا بالعروة الوثقى لا انفصام لها، فطوبى لهم وحسن مآب.

---

(١) تثنية ٦/ ٤.

(٢) يوحنا ١٧/ ٣.

كان موت المسيح على الصليب فتنة كبرى لمن شبه لهم وقوع الصلب على ذات المسيح، أعني جميع الذين شهدوا هذا الصلب: شانئو المسيح ومبغضوه وطالبو دمه، وأيضًا أنصاره ومحبوه الذين لو خيروا لافتدوه بأنفسهم وأبنائهم.

فأما شانئو المسيح ومبغضوه وطالبو دمه فقد أخذتهم العزة بالإثم أن قتلوا بأيديهم المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وتباهوا بها مستهزئين: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾[1]. وكم قتل اليهود من أنبياء العهد القديم، ثم ختموا بيحيى عليه السلام فيما تروي الأناجيل، فما قامت الدنيا وما قعدت، ولم يقل أحد في نبي قتل إنه أراد هذا القتل وسعى إليه وكان محور رسالته، يكفر به عن خطايا البشر أو يفتديهم بدمه، كما قيل في المسيح، وإنما قال أتباع النبي المقتول إنه مات شهيدًا، دمه على قاتليه.

وأما أنصار المسيح ومحبوه فقد كان موته على الصليب محنة لهم أي محنة، بل كان فاجعة كبرى لا تعدلها مصيبة: أفقد مات الذي قال لهم إن الله أرجأه إلى قرب انقضاء الدهر؟ هاهم يرونه بأعينهم يساق إلى الصلب مهانا، ثم يرفع على الصليب مثقوب اليدين والقدمين، ويسلم الروح مطعون الجنب، ليدفنوه بأيديهم. أفقد مات الذي أحيا الميت؟ فلماذا لم ينقذ هو نفسه من القتل على الصليب؟ نعم، قد قطعوا رأس يحيى قبله ولكن ابن زكريا ما أحيا ميتًا ولا أبرأ أكمه أو أبرص، ولم يقل لتلاميذه إنه لا يموت إلى قرب انقضاء الدهر كما سمعوا هم المسيح يقول. فلماذا تركه الله يموت؟ لم لم يقبل الله ضراعته: (أيها الآب، نجني من هذه الساعة)[2]. فلم يُنجِّه؟ لماذا يتركه يموت وهو يناديه: (إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟)[3]، أفقد مات المسيح لا يدري بأي ذنب يقتل؟ أو يموت يتساءل لماذا تركه الله يموت؟

كلهم شك فيه، كما قال لهم ليلة القبض عليه كلكم تشكون في الليلة (مرقس ١٤/ ٢٧). ترى لماذا شك التلاميذ في المسيح، وفيم كانت شكوكهم؟ أفي نبوته وقد علموا أن الأنبياء تقتل وتموت، وما رأس يحيى على طبق من الفضة ببعيد؟ أم شكوا في (ألوهيته) وقد علموا

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٧. (٢) يوحنا ١٢/ ٧.

(٣) متى ٢٧/ ٤٦.

أن الآلهة خالدة لا تموت، ففيم الفاجعة إذن في شبهة إله يموت؟

أما الذي لم يشك فيه أحد، تلاميذ وغير تلاميذ، فهو أن الذي مات على الصليب هو نفسه المسيح. لم يَرْتَبْ أحد ولو للحظة في أن المرفوع على الصليب ليس هو، وإنما هو يهوذا الذي أسلمه، شبه لهم.

كان التشبيه غاية في الإتقان، لا يستطيعه إلا خير الماكرين: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1].

* * * *

هذا المائت على الصليب ليس هو المسيح، يكفيك في هذا قول القرآن وليس بعده قول لقائل ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2]. أما إن أردت الدليل من هذه الأناجيل التي بين يديك، فهاك الدليل من قول المائت على الصليب: (إلهي، إلهي، لماذا تركتني!)[3]، وقد حرص متى على إثبات هذه العبارة في إنجيله بنصها الأصلي: (إيلى، إيلى، لما شبقتني) كأنه يؤكد للقارئ اليوناني أنها هكذا قيلت. وحرص أيضًا مرقس في إنجيله على إثبات نفس العبارة (إلهي إلهي لماذا تركتني) بنصيها الأصلي واليوناني (مرقس ١٥/ ٣٤) وإن تحول مرقس بلفظة (إيلى) (أي إلهي) العبرية - الآرامية إلى نظيرتها العبرية القح (إلوهي) (بمد الكسر في الهاء وسكون الياء بعدها) ولكن قلمه اليوناني لم يستطع الهاء فحذفها، فصارت (إلوى) التي ما زلت تقرؤها في الترجمات العربية محذوفة الهاء تبركًا بالأصل اليوناني[4]. وحرص الكاتبان كلاهما ألا يشتبه عليك مقصود المائت على

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٥٧، ١٥٨.

(٣) متى ٢٧/ ٤٦.

(٤) ليس في اليونانية حرف مخصوص للهاء، وإنما هي علامة نقط ترسم فوق حرف علة يبدأ الكلمة، ومن هنا لا تسمع الهاء من اليونان إلا هاء بادئة للكلمة، كما في هرطقة وأمثالها.

الصليب فتظن أنه أراد (إيليا) (إلياس عليه السلام) ولم يرد (إيلى) أو (إلوهى) (أي إلهي) فقال كلاهما إن قومًا من الحاضرين لما سمعوا العبارة ظنوا أنه ينادي إيليا (المرفوع حيًّا قبله في العهد القديم) كي يأتي ويخلصه، وكأنهما يقولان لك لا تخطئ الفهم كما أخطأ هؤلاء، بل كان المصلوب ينادي (إلهه)!

فطن لوقا ويوحنا - اللذان كتبا إنجيليهما بعد متى ومرقس - إلى خطورة هذا الذي أثبته متى ومرقس في إنجيليهما على دعوى ألوهية المصلوب: كيف يستغيث إلهه؟ أفللإله إله؟ بل كيف يستغيث من الصلب وهو يعلم أنه لهذا جاء ويُعَلِّمه؟

أما لوقا فقد حذف هذه العبارة من إنجيله وأثبت في موضعها: (يا أبتاه، في يديك أستودع روحي)[1]، وأما يوحنا فقد أسقط العبارة جملة ولم يثبت في موضعها شيئًا.

أما أنت فتفطن إلى أخطر مما خشيه لوقا ويوحنا: هذا المائت على الصليب، الذي يستغيث الله ولا مغيث، ليس بنبي. ولا عليك أن يقال إله أو ابن إله.

* * * *

على أن المقبوض عليه عشاء فصح اليهود فحوكم وأدين، ليس هو أيضًا المسيح. دليلك في هذا من الأناجيل عبارة ندت عنه وهو يحاكم، أثبتها متى في إنجيله وهو لا يدري مدى خطورتها في تحديد هوية الذي حوكم فأدين: (وأيضًا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان (يعني المسيح) جالسًا عن يمين القوة وآتيًا على سحاب السماء)[2] فكيف يكون الماثل أمامهم هو نفسه في عين الوقت الجالس عن يمين القوة الآتي في سحاب السماء؟ أليس قد أفلت اللهُ المسيحَ قبل أن يحاكم أو يصلب؟ أفهل تفوتك عبارة من الآن؟ تجد مثل هذا في لوقا أيضًا أكثر وضوحًا: (إن كنت أنت المسيح فقل لنا. فقال لهم إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبونني ولا تطلقونني. منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسًا عن

(١) لوقا ٢٣/ ٤٦.

(٢) ٢٦/ ٦٤.

يمين قوة الله. فقال الجميع أفأنت ابن الله. فقال: أنتم تقولون: إني أنا هو)[١]. مرقس وحده فطن إلى خطورة ما يخطه قلمه، فأسقط (منذ الآن)، وزيادة في الحيطة غير ما قيل في متى ولوقا في جواب الذي حوكم حين سئل هل هو المسيح. قال متى (قال له يسوع أنت قلت)[٢] وقال لوقا (أنتم تقولون)[٣]، وقال مرقس (فسأله رئيس الكهنة أيضًا وقال له أأنت المسيح ابن المبارك. فقال يسوع أنا هو)[٤]. أما يوحنا فقد أسقط هذا وذاك.

ترى هل رفع المسيح لحظة جاءوا يقبضون عليه وشبه لهم يهوذا الإسخريوطي[٥] فأخذوه مكانه؟ هذا هو ما يقوله لك إنجيل برنابا الذي ينكره المسيحيون، ولكنك تجد مثله في إنجيل مرقس ولم يمحصه أحد: (وللوقت وفيما هو يتكلم أقبل يهوذا - واحد من الاثنى عشر - ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ. وكان مُسْلِمه قد أعطاهم علامة قائلًا الذي أقبله هو هو. أمسكوه وامضوا به بحرص. فجاء للوقت وتقدم إليه قائلا يا سيدي يا سيدي. وقبله. فألقوا أيديهم عليه وأمسكوه. فاستل واحد من الحاضرين السيف وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. فأجاب يسوع وقال لهم كأنه على لصٍّ خرجتم بسيوف وعصي لتأخذوني. كل يوم كنت معكم في الهيكل أُعَلِّم ولم تمسكوني. ولكن لكي تُكْمَل الكتب. فتركه الجميع وهربوا. وتبعه شاب لابسًا إزارًا على عريه فأمسكه الشبان. فترك الإزار وهرب منهم عريانًا)[٦]. والذي يتعين التنبيه إليه في خصوص هذا النص الإنجيلي المعتمد عند المسيحيين كافة، هو أن التلاميذ هربوا جميعًا لحظة القبض على المسيح، فلا تصح لهم

---

(١) لوقا ٢٢/ ٦٧ - ٧٠.

(٢) متى ٢٦/ ٦٤.

(٣) لوقا ٢/ ٧٠.

(٤) مرقس ١٤/ ٦١ - ٦٢.

(٥) الإسخريوطي أصلها العبري (إيش قِريوت) يعني الرجل الذي من (قِريوت) اسم بلدة في اليهودية أو في أرض موآب، فهو المنسوب إلى هذه البلدة ومعنى اسمها عبريًا (قرى) جمع قرية، فهو يهوذا القروي. وقد تحرفت إيش قريوت على قلم الأناجيل اليونانية إلى إسخريوط.

(٦) مرقس ١٤/ ٤٣ - ٥٢.

شهادة على ما قاله المقبوض عليه للجند لحظة القبض عليه ولا على ما قيل له منذ لحظة القبض عليه، وما جرى له وما جرى منه أثناء المحاكمة التي جرت بين جدران مغلقة ولم تجر علنًا، وكذلك ما قاله وقيل له عند هيرودس ملك اليهودية من قبل الرومان أو عند والي روما بيلاطس البُنطي كالذي تقرأ في الأناجيل الأربعة المعتمدة - وهو ما يفسر لك اختلاف الكتبة الأربعة لهذه الأناجيل اختلافًا كبيرًا فيما بينهم حول ما قيل أو حدث. لا تقبل شهادتهم لا لأنك تُجَرِّحهم، وإنما لأنهم كانوا عن هذا غائبين، والغائب لا يعتد بشهادته. ربما قلت إنهم أو بعضهم على الأقل شهد الجلد والصلب اللذين وقعا علنًا، فتكتفي منهم بما سمعوا أو عاينوا منذ الجلد إلى الموت على الصليب. ولكنهم لم يسمعوا كل الذي قيل، دليلك في هذا تضاربهم فيما رووه، فتقطع بأنهم أكملوا ما لم يسمعوا، وكانت لكل منهم مصادره، وتفاوت قول الرواة، فتفاوتت أقوالهم. بل هناك ما تقطع بأنه لم يحدث، وإنما هو من قول الرواة، من هذا ومثله الحوار الهامس بين المائت على الصليب وبين زميليه، الذي انفرد به لوقا في إنجيله (لوقا ٢٣/ ٣٩ - ٤٢)، المختوم بقول المائت على الصليب للص التائب: الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس! أكان الثلاثة يتصارخون بهذا الحوار ليسمعه جمهور الحاضرين في الساحة مثلما صرخ المائت على الصليب لحظة أسلم الروح (يا أبتاه، في يديك أستودع روحي)، التي وقعت في سمع متى ومرقس بلفظ: (إلهي إلهي لماذا تركتني)؟ تصور أنت المسافة بين المرفوعين على الصليب وبين الجند، ثم بين الجند وبين الجمهور، واحكم بنفسك.

ولكن الذي نتوقف عنده هو هذا الشاب الذي رآه مرقس يتبع المقبوض عليه عريانًا إلا من إزار اتزر به، فأرادوا إمساكه، ولكنه ترك إزاره في أيديهم ليفر عريانًا. ترى من كان هذا الشاب الواقف مباشرة خلف المقبوض عليه؟ أكان من التلاميذ؟ كيف وقد هربوا جميعًا كما يروي لك مرقس[1]؟ أفكان من الجند؟ فكيف أرادوا إمساكه؟ أكان هو يهوذا، فكيف يهرب منهم وهو الذي جاء بهم؟ أكان عابر سبيل دفعه الفضول إلى السير في موكب الجند

(١) مرقس صاحب هذا الإنجيل هو تلميذ لبطرس الحواري، فهو ينقل عنه.

والمقبوض عليه مثلما يسير الناس في موكب الشرطة والجناة، فما خشيته من الجند وما خشية الجند منه؟ أفقد أمسكوا بالمتجمهرين جميعا؟ فلماذا يحاولون الإمساك به وحده؟ أليس لأنه استفز شكوكهم التصاقه بالمقبوض عليه وهيئته بزي اللابس إزارًا على عريه؟ أفقد لمسوا إزاره فسقط عنه أم جبذوه به فتفلت منه؟ وكيف يخرج من إزاره فيستفزهم عريه ولا يلحقون به؟ كيف انسل من أيديهم ولم يلاحقوه؟ أليس هو المسيح نفسه الذي حاجزت عنه الملائكة بعد أن ألقي شبهه على يهوذا المقبوض عليه لحظة (القُبْلة) لا تدري من قَبَّل من؟ ألم يأخذ الملائكة لباس عيسى فوضعوه على يهوذا، لم يبقوا له إلا إزارًا يأتزر به، ثم يتركه في أيديهم ليتلبس رداء من نور لا يبصره إلا ملائكة من نور، محجوبون عن أعين الناس؟ هكذا غاب الشاب عن أعين طالبيه الذين قبضوا على يهوذا مكانه.

ربما قيل لك إن من مأثور المسيحيين غير المسطور في الأناجيل أن هذا الشاب اللابس إزارا على عريه كان (يوحنا) التلميذ الذي كان المسيح يحبه. وليس بشيء لأن المكتوب في الأناجيل هو أن التلاميذ كلهم هربوا، لم يتبعه أحد منهم أو فكر في اتباعه، لم يتبعه أحد بعد هربهم ومضي الجند إلا بطرس الذي تبعهم من بعيد كما يقول لك متى ومرقس ولوقا. ولكن يوحنا يقول في إنجيله (وهو ليس يوحنا التلميذ المعني) إن بطرس لم يكن وحده، وإنما كان معه التلميذ الآخر (يريد يوحنا) الذي كان معروفًا عند رئيس الكهنة فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة (يوحنا ١٨/ ١٥)، ولا يصح أن يكون هذا والذي فر عريانًا هو نفس الشخص، إذ كيف يدخل عريانًا على رئيس الكهنة؟ وكيف يستعيد ثيابه ويلحق الموكب؟

هذه المعجزة الكبرى، معجزة تشبيه عيسى لطالبي دمه وقضاته ومحاوريه وللجمهور الذي شهد الصلب، لم يشاهدها من دون المسيح والملائكة أحد قط إلا واحد، هو يهوذا المشبه به. وكيف تُعَمَّى عليه والجند الذين جاء هو بهم وسار معهم وكلمهم وكلموه، يقبضون عليه لا يشكون لحظة أنه هو نفسه عيسى الذي دلهم عليه: خرج من صفوفهم ليقبل المسيح فتركوا المسيح وقبضوا عليه هو؟ أليس قد أحس يهوذا أنه لم يزل هو يهوذا ولكن الجند يرونه هو المراد القبض عليه؟ الذي أصبح صوته كصوته وهيئته كهيئته ويتكلم بمثل

كلامه، فيظن الجميع أنه هو هو، حتى التلاميذ الذين هربوا ظنًّا منهم أن قد أخذ معلمهم؟ ولكنه لا يزال هو يهوذا لا شبهة عنده في ذلك، فما بال الناس قد سحروا؟

هنا يدرك يهوذا المقبوض عليه عمق الفاجعة: أغواه الشيطان فشك في نبوة معلمه، وزين له الشيطان أن يمتحن صدق المسيح في دعواه النبوة فدل عليه خصومه وطالبي دمه. قال في نفسه إن كان نبيًّا فلن يمكنهم الله منه ويخلصه، وإن كان دعيًّا محتالًا فبئس جزاء المحتال الدعي، وقد احتاط هو – يهوذا – لنفسه وحظي عند الكهنة. ويفجع يهوذا بالذي كان: أهكذا يخلص اللهُ المسيح؟ أيخلصه ويوقعه هو في نفس المصير الذي أراده بمعلمه؟ أفقد أوقعه في الحفرة التي نصبها له؟ فمن ليهوذا بالذي يخلصه هو الآن وهو صفر اليدين مما أوتي عيسى، صاحب العجائب المعجزات؟ أفيقول لهم إنه ليس هو؟ فمن ذا يصدقه وهو هو عند كل من يراه أو يسمعه؟ ليس أمامه إلا أن يستسلم للمصير الذي أراده لمعلمه عساه يكفر بها عن عبث الشيطان به، ويرد سهمه في نحره. عساه بصمته يضيف تمويهًا إلى تمويه، فينجو المسيح بنفسه ويكتفوا هم به. عساه بافتدائه المسيح بنفسه أن تكتب له بها حسنة قد يمحو بها الله عنه إثم ما قد فعل. كانت لسانَ حاله عبارةٌ حفظها لوقا في إنجيله حين سئل: إن كنت أنت المسيح فقل لنا! قال إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبونني، ولا تطلقونني. ويمضون به ويمضي معهم، وفي أذنيه فقرة من مزمور لداود: (عَتَّا يَدُعْتِي كي هُوشِيع يِهْوَا مَشِيحو! (الآن عرفت أن الله مخلص مسيحه!)[1].

كيف خفيت هذه الفقرة السابعة من مزمور داود العشرين: (الله مخلِّص مسيحه)، على كتبة أناجيل جعلوا من مزامير داود نبوءات تحدث بسيرة المسيح ومصيره؟ أليس في هذه العبارة التي ترنم بها داود في المزمور (الله مخلص مسيحه)، التي هي بالعبرية (هوشيع يهوا مشيحو)، تحديد لاسم هذا المسيح الذي يخلصه الله؟ أليس هوشيع يهوا هي مقلوب (يهوشوع) اسم المسيح (يشوع)؟ فلماذا لم يفطنوا إليها، بل قل لماذا أسقطوها؟ أليس لأنها على الضد مما يريدون الاستشهاد به على خذلان الله مسيحه؟ بل قل كيف خفي

(١) مزمور ٢٠/ ٧.

عليهم معنى الفقرات من مزمور داود الحادي والتسعين التي أثبتها لوقا في إنجيله على لسان إبليس يغوي بها المسيح: (ثم جاء به إلى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل، لأنه مكتوب أنه يوصي بك ملائكته لكي يحفظوك، وأنهم على أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك)[1]؟ أليس إبليس يستشهد هنا للمسيح بفقرات من هذا المزمور؟ أليس في هذا دليل على أن لوقا يعتبر هذا المزمور في المسيح، فلماذا لم يلتفت لوقا إلى بقية ما قيل: (لأنك قلت أنت يا رب ملجئي، جعلت العلي مسكنك، لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك. لأنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك في كل طرقك. على الأيدي يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك. على الأسد والصل تطأ. الشبل والثعبان تدوس. لأنه تعلق بي أنجيه[2] أرفعه لأنه عرف اسمي. يدعوني فأستجيب له. معه أنا في الضيق. أنقذه وأمجده. من طول الأيام أشبعه وأريه خلاصي. (مزمور ٩١/ ٩-١٦)؟ أليس قد رفع الله المسيح قبل أن يصلب؟ أليس هكذا كان خلاص الله مسيحه؟ أكانت هذه في المائت على الصليب أم في الذي رفع؟

يهوذا وحده هو الذي علم وعاين. ولكن يهوذا لم يقل لأحد ممن شبه لهم.

كان يرجو بصمته أن يكتفي الله من عقابه بالإهانة والجلد، فمضى يحمل على كتفه صليبه وهو يردد: (اغفر لهم يا أبتاه، فإنهم لا يعلمون). نعم، لا يعلمون علم الذي يعلم، ولو علموه لشابت رءوسهم، أو لخزوا وذلوا أو لانفضوا من حوله وذهبوا يلتمسون المسيح الذي أفلت من أيديهم بآية من آيات الله. فليصطبر عليها. لا يئن وهم يثقبون بالمسامير يديه وقدميه، ولا يشكو وقد رفعوه على الصليب، ودماؤه تنزف، ونزع الموت يقترب. كانت ما تزال به نُضاضة من أمل في عفو الله وقد احتمل ما احتمل. ولكن الأمل ينطفئ بمجيء ملك الموت يتراءى ليهوذا على الصليب فيصرخ يأسًا هو أفظع الألم: (إلهي، إلهي! لماذا تركتني!).

(١) لوقا ٤/ ٩ - ١١.

(٢) فمم أنجاه؟ ناهيك أن تعلم أصل اللفظة في الأصل العبراني (أَفَلْطِهو) يعني (أُفَلِّته)، فمم أفلت المسيح؟

أفقـد غفـر اللـه ليهوذا فعلتـه؟ أفقد شـاء برحمته أن يحتسـبها له شـهادة؟ اللـه عز وجل بغيبه أعلم.

ولكنك تعلم الآن، وإن كنت غير مسلم لا يصدق بخبر القرآن ولا يعتد بأنباء القرآن، أن (يهوشوع) قد كانت في المسيح (يشوع) اسما على مسمى، فقد خلص الله مسيحه ونجاه: إنه (المخلَّص الناجي)، لا الخلاص أو الذي يكون به الخلاص كما يفسره علماء أهل الكتاب.

وسبحان العليم الخبير، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

* * * *

أما جثمان يهوذا الذي قبر، ففي إنجيل متى ما يفسر لك مصيره:

(وفيما هما ذاهبان إذا قوم من الحراس جاءوا إلى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكل ما كان (يعني أن المائت على الصليب قد قام من قبره الذي وجدوه خاليًا من جثمانه). فاجتمعوا مع الشيوخ وتشاوروا وأعطوا العسكر فضة كثيرة قائلين قولوا إن تلاميذه أتوا ليلًا وسرقوه ونحن نيام. وإذا سمع ذلك عند الوالي (أي: إذا افتضح كذبكم أو حاسبكم على غفلتكم عنه) فنحن نستعطفه ونجعلكم مطمئنين. فأخذوا الفضة وفعلوا كما علموهم. فشاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم)[1].

ما يدريك أن هذا بالضبط هو الذي حدث؟ ما دمت قد سلمت بأن المقبور هو يهوذا وليس المسيح؟ ولكن (السارقين) من اليهود يكتشفون المهزلة، فقد بطل التشبيه وعاد الجسد يهوذا الذي كان، فماذا يفعلون به، أفيعتلنون بفضيحتهم للناس أم يغيبون الجثمان بعيدًا عن القبر؟ ألقوا به من عل، ليظن أنه ندم فخنق نفسه كما قال متى، أو دفع بنفسه من حالق كما قال بطرس (وإذ سقط على وجه انشق من الوسط، فانسكبت أحشاؤه كلها)[2].

(١) متى ٢٨/ ١١ - ١٥.

(٢) أعمال الرسل ١/ ١٨.

ونحن لا نجادل الأناجيل في كيفية الصلب الذي كان، فالصلب واقع وقع لقول القرآن: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، أي حدث القتل وحدث الصلب، ولكنهما كانا في المصلوب الذي شبه لهم، لا في عيسى الذي رفع. ولا نجادل الأناجيل أيضًا في استشهادهم من المزامير على كيفية الصلب وما قاله المصلوب من مثل (ثقبوا يدي ورجلي)، (على ثيابي اقترعوا)، هذا كله في المصلوب، لا في شخصه. ولا يصح قصر (نبوءات المزامير) على المسيح وحده، بل منها ما هو في نجاته، ومنها في إيقاع الصلب على المشبه به، الذي أوقع به عند طالبي دمه فوقع إثمه على نفسه: (كرا جُبًّا، حفره، فسقط في الهوة التي صنع. يرجع تعبه على رأسه وعلى هامته يهبط ظلمه)[1].

ونحن أيضًا لا نجادل الأناجيل في أن المسيح تراءى لتلاميذه بعد الصلب، أعني بعد نجاته من الصلب، بل هذا هو الأقرب إلى الصواب، الأشبه بما في القرآن: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وقد مر بك أن التوفي في الآية من (الاستيفاء) بمعنى الاستخلاص كاملًا غير منقوص، وقع الاستخلاص أولًا ممن جاءوا للقبض عليه والمحاجزة بينه وبينهم على نحو ما قص عليك مرقس في إنجيله من حديث الشاب المؤتزر بإزار على عريه، الذي اختفى عن أعين طالبي الإمساك به فانسل من ردائه ولم يروه بعد. وما كان الله عز وجل ليرفع المسيح إليه إلا على أعين الحواريين، ليكونوا على رفعه شهودًا، كما سبق أن استشهد الله الحواريين على إنزال المائدة إليهم ليحاسبهم إن كفروا من بعد، حاشا الحواريين أن يكفروا بما استشهدهم الله عليه. وفي إنجيل متى أنه واعد الحواريين قبل محاولة القبض عليه في أورشليم، أي قبل القبض والصلب، أن يلتقي بهم في الجليل، وأن الأحد عشر (أي خلا يهوذا بالطبع) ذهبوا إليه في الجليل، ذهبوا وبعضهم شاك حتى بعد أن رأوه، مما يدلك على أن معجزة التشبيه شبهت عليهم أيضًا (متى ٢٨/ ١٦ - ١٧) أي كانوا ممن قال القرآن فيهم: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾[2]، وكان لابد للمسيح أن يرتفع

(١) مزمور ٧/ ١٥ - ١٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

إلى السماء أمامهم بعد أن كلمهم (مرقس ١٦/ ١٩) ليكونوا شهداءه على إعجاز الله في تخليص مسيحه.

أما ما قاله المسيح لهم قبل أن يرفعه الله إليه، فهو في الأناجيل التي بين يديك مقولة الذين شبه لهم شخص المصلوب، وهو أيضًا يتفاوت بتفاوت ما أراد الكاتب إثباته على لسان المسيح احتجاجًا لرأي الذي كتب، إن صدقت بإنجيل فقد كذبت بإنجيل، على ما ترى من قولهم على لسان المسيح في آية (يونان النبي) (يعني يونس عليه السلام) حين طلب منه الكتبة والفريسيون أن يروا منه آية فقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له إلا آية يونان النبي. ثم يمضي متى فيقول: (لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان (يعني المسيح) في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال)[1]. لا مفر لك إلا أن تقول إن متى أراد هنا الاحتجاج لصلب المسيح ودفنه في الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال يبعث بعدها حيًا. ولا يصح هذا لأن الذي صُلِب بإجماع الأناجيل الأربعة حتى متى نفسه، إنما مكث في قبره ليلتين فقط (الجمعة والسبت) وخرج منه فجر الأحد. ولا يصح أن يقال هذا أيضًا على التشبيه بما كان عليه يونس في بطن الحوت، لأن يونس لم يمت في بطن الحوت ولم يلتقمه الحوت جسدًا ميتًا كحال المصلوب. ولو تمهل متى والمستشهدون بقوله في (آية يونان) لما قالوها ولما نسبوها إلى نبي يوحى إليه لا يقول إلا حقًا. هذا ومثله كثير لا نتصدى له، لأنه يخرج عن مقاصد هذا الكتاب.

* * * *

على أننا نتصدى كما وعدناك لبعض تلك الشبه اللغوية الألصق بمباحث هذا الكاتب، والتي جرت في رأينا إلى ما جرت إليه، ولم يتوقف عندها أحد.

أول هذه الشبه، شبهة (نحوية)، وهي أن الإضافة دليل على المغايرة، يعني أن المضاف ليس هو المضاف إليه، بل هو غيره. إن قلت مثلًا (ملاك الرب) فهذا يعني أن الرب ليس

(١) متى ١٢/ ٤٠.

هو الملاك، والعكس بالعكس. فلا يتربب الملاك لأنه مضاف إلى الرب، كما رببوا (ملاك الرب) جبريل. كذلك إن قلت (ابن الله) فهذا دليل على أن (الابن) ليس هو (الله)، وأن (الله) ليس هو (الابن). وإن قلت مثلا في إبراهيم إنه (خليل الله) فليس معنى هذا أن إبراهيم هو الله، أن انتمى إليه بالخلة، بل يظل الله هو الله ويظل إبراهيم هو إبراهيم. وإذا قلت (نبي الله) فلا يصح أن تفهم أن للنبي شركًا في الإلوهية يستمده ممن أرسله. الإضافة دليل على المغايرة، إلا أن تكون الإضافة لغوًا، كأن تضيف الشيء إلى نفسه فتقول مثلًا (نهر النيل) وقد علمت من قبل أن النيل نهر اسمه النيل. وما أيسر أن تكتشف اللغو في هذه الإضافة، حين تقلب المضاف والمضاف إليه إلى مبتدأ وخبر فتقول: النيل نهر. إن صح لك هذا، وهو صحيح في (نهر النيل)، اكتشفت أن المضاف هو نفسه المضاف إليه، وأنهما معا عبارة عن ذات واحدة. ولكن لا يصح لك هذا من مثل (الرب ملاك)، (الله ابن)، (الله خليل)، (الله نبي)، لأن اللفظين متغايران، ليس الواحد هو الآخر.

على أساس من هذه الشبهة النحوية قال أصحاب مجمع نيقية، الذين أخطأوا من قبل فهم عبارة (بار – أبًا) بمعنى (ابن – الأب)، إن المسيح ابن لأب هو الله، وأسموه من بعد (ابن الله)، ورتبوا على هذا أن الابن من ذات جوهر الآب، وأنه والآب واحد، وهذا مرفوض بمنطق (النحو) وحده: من كان ابنًا لله فليس هو الله، ناهيك بأن تلد الآلهة أو تولد.

وكما أله مجمع نيقية المسيح على البنوة لله، وقع في نفس الشبهة النحوية المجمع التالي الذي أله جبريل على (الملائكية) لله، أن كان جبريل (ملاك الرب) النافث في مريم كما قال لوقا في إنجيله. وقد جانب هذا المجمع التوفيق جملة في تأليه جبريل على أساس من الأناجيل التي بين يديك، فليس فيها قط أيما شبهة في تأليهه كما وقعت الشبهة في المسيح بإساءة فهم عبارة (بار – أبا) كما سترى لأنه إن جاز لمجمع نيقية القول بأن المسيح هو (ابن الله الوحيد) ليُخْرج من البنوة لله (آدم) المسمى ابنًا لله في إنجيل لوقا هو الآخر، فليس بمستطاع القول بأن جبريل هو (ملاك الرب الوحيد) لأن ملائكة الرب أكثر من أن تحصى، ولا يعلم جنود ربك إلا هو، فلماذا يتخصص من دونهم جبريل بالتأله؟ وقد مر بك أن لفظة (الملاك) (وهي

ملاخ العبرية – الآرامية) معناها الرسول المرسل على المفعولية من الجذر العبري – الآرامي (لأخ)، يعني أرسله برسالة، فكيف يكون المفعول هو الفاعل، أو يكون المخدوم هو الخادم، أو يكون العبد هو السيد، أو يكون الرسول هو نفسه الذي أرسله؟ وقد قال المسيح في هذه الأناجيل بالنص: ليس عبد (يعني نفسه) بأعظم من سيده، وليس رسول بأعظم من الذي أرسله. وقال أيضًا: الآب أعظم من الابن. فكيف يقال إنه هو، المسيح أو جبريل. ولماذا اختير جبريل وحده من دون الملائكة ليكون هو من ذات جوهر الله؟ ألأن معنى اسمه كما مر بك هو (جبار الله) أو (رجل الله)؟ فماذا في (ميكائيل) الذي يقول إن معنى اسمه (الذي هو كالله)؟ أليس ميكائيل بها أولى؟ ولكن ميكائيل لم يكن هو النافث في مريم. وقد ظنوا – وقد ألهوا – (المنفوث) من قبل على البنوة لله – أن المنطق لا يستجيز أن يستعلي المنفوث على النافث، ولكن هل ألزمك أحد بتأليه المنفوث حتى تضطر إلى تأليه النافث؟

في مثل هذه الشبهة أيضًا وقع القائلون بتأليه مريم على المضاف والمضاف إليه، فهي (أمُّ الله) وإن سَمِعْتَها منهم (أمّ الإله) وكأنهم يخففون عليك من وقعها في أذنيك وكأن الإله غير الله – ولكنك لا تستطيع أن تقول (الله أم) أو (الإله أم) فيمتنع التظنن في أن مريم هي الله أو الإله بمقتضى النحو وحده، ناهيك بامتناع الأمومة والبنوة في حق الله.

وقد كان بالفعل أناس ألهوا مريم لمجرد أنها (أم عيسى) وقد ألهوه، فلا يصح أن تكون الوالدة أدنى من المولود. وقد أشار القرآن إلى هذا في نعيه على ما قيل في المسيح: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾[1]، ولكن (عبادة مريم) لم تستقر طويلًا بعد نزول القرآن، بل نبذت واستبقيت لمريم كرامة الأمومة لله *(mere de Dieu)*.

ولو أنصفوا لفعلوا نفس الشيء في باقي أفراد الثالوث الأقدس، فاستبقوا لعيسى كرامة النبوة والرسالة، واستبقوا لجبريل كرامة الملك المقرب، وأفردوا الواحد الصمد لا إله غيره بالربوبية لهذين وللبشر أجمع.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

ولكنك لا تهدي من أحببت. إن قارعتهم بالمنطق قالوا لك وهل يؤخذ الدين من أفواه المناطقة؟ هذا هو الوحي الذي توارثناه كابرًا عن كابر.

لا يؤخذ الدين من أفواه المناطقة. هذا صحيح. ولكن لا يصح في مقابله أن يقال ليس في الدين منطق. لأن الدين هو المنطق. وهل تعبد الله البشر من دون الخلق إلا به؟

والدين وحي الله على رسله، نعم. فهلا استمسكوا بما قال موسى وعيسى والنبيون من قبل ومن بعد، الله واحد، وليس آخر سواه؟

* * * *

أما الشبهة الثانية، فهي شبهة لغوية: ظنوا بلغتهم اليونانية (وقد علمت يونانية هذه الأناجيل) أن (آب)، (أبا)، (أبي) لا تعني في لغة المسيح إلا أبي الذي ولدني، وهي في لغة المسيح تعني (الرب) حين يقصد بها الله عز وجل.

لن أثقل عليك بالرجوع إلى معاجم اللغتين العبرية والآرامية لتستوثق مما أقوله لك أي لتقرأ فيها أن (الأب) في هاتين اللغتين تعني أيضًا الفاطر المبدع الباري، ولن أحيلك إلى قول المسيح في هذه الأناجيل اليونانية يكني فيها عن الرب بالأب وقد مر بك، ولن أستشهد لك بتسمية حفيد سليمان بن داود (أبيا هو) أي (الله أبي) على معنى الله ربي التي تسمى بها أيضًا ابن لهارون أخي موسى عليهما السلام، وليس لك أن تتصور قبول موسى هذا الاسم لابن أخيه، على معنى الله أبي، وهارون هو أبوه. وإنما هي (الله ربي) لا يصح غيرها في اسم لابن أخي موسى.

ولكني سأدلك على الشاهد اليقين الذي لا تصح فيه مماحكة من قول موسى عليه السلام نفسه في هذه التوراة التي بين يديك ترجمتها العربية التي أشرف على ترجمتها مسيحيون لا تشك في مسيحيتهم:

قال موسى في هذه التوراة التي بين يديك بلغته العبرية: هَا لِيهْوَا تِجْمِلُو - زُوت عام نَبال ولو حاخام؟ ها لو - هُو أبيخا، قانيخا، هُو عاسخَا ويخُونِينخا؟ (وترجمته العربية المعتمدة):

(ألرَّبَّ تكافئون بهذا يا شعبًا غبيًّا وغير حكيم؟ أليس هو أباك ومقتنيك، هو عملك وأنشأك؟)[1].

ليس بعد هذا دليل، وموسى نفسه يجانس الأب على الرب.

هذه هي الشبهة اللغوية الأولى. أما الشبهة اللغوية الثانية فهي ظنهم أن (بار) العبرية – الآرامية تعنى الابن المولود لأب، وهي تعني أيضًا بذات لفظها ورسمها في الخط العبري – الآرامي كما تقرأ في معاجم هاتين اللغتين: البار المبرور على معنى الصفي المختار. لا يفهم أيهما المقصود (البار أو الابن) إلا من السياق وحده. ومتى قد انتفت الأب بمعنى الوالد في حق الله عز وجل، وإنما هو (الرب)، فلا يصح لك أن تفهم من (بار – الرب) أنه ابن الرب وإنما تقول إنه (مختار الرب) حين تسمع بالآرامية (بار – أبا)، لأن (بار) العبرية – الآرامية هي من الجذر العبري – الآرامي (بَرَرْ) يعني اصطفى وتخير، فهو الصفي المختار.

ومن طريف ما تقرؤه في الأناجيل عبارة مرقس: (ولما رأى قائد المائة الواقف مقابله أنه – أي: المسيح الذي على الصليب – صرخ هكذا وأسلم روحه قال حقًّا كان هذا الإنسان (ابن الله)[2]، التي تجدها هي نفسها في لوقا: (فلما رأى قائد المائة ما كان، مجد الله قائلاً بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًّا)[3]. هذه المقابلة بين النصين في مرقس ولوقا تدلك بوضوح – والقائل هو القائل فيهما – على أن (بار) في مرقس فهمت بمعنى الابن، وفهمت على أصلها في لوقا بمعنى (البار).

عليك إذن أن تنحو نحو لوقا في هذا الفهم كلما قرأت (الابن) أو (ابن الله) في الأناجيل التي بين يديك حتى لا يستشكل عليك مراد المسيح عليه السلام منهما إن قالها أو خوطب بها أو قيلت فيه من بعده، فلن يستشكل عليك أن يكون المسيح عليه السلام صفي الله أو مختار الله، وهل أنبياء الله ورسله إلا أصفياؤه ومختاروه؟ فالحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

(١) تثنية ٣٢/ ٦.

(٢) مرقس ١٥/ ٣٩.

(٣) لوقا ٢٣/ ٤٧.

والأطرف من هذا في الدلالة على أن (بار) المعنية ليست هي الابن، وإنما هي (البار) على معنى الصفي المختار، هو اسم ذلك الشقي (باراباس) الذي أبى اليهود طالبو دم المسيح افتداء المسيح به حين عرض عليهم بيلاطس البنطي أن يطلق لهم المسيح ويصلب (باراباس) مكانه. والذي قد لا تعلمه أن أصل هذا الاسم (باراباس) - لا تندهش - هو (ابن الله) على قول من قال إن (بار) يعني ابن، (أبا) يعني الرب: (باراباس) في أصلها الآرامي هي (بار - أبا). وأنت بالطبع مسيحيًا كنت أو مسلمًا لا تستجيز أن يكون معنى اسم هذا الشقي باراباس هو (ابن الرب) أو (ابن الآب) أو (ابن الله). عليك إذن أن تفهم معنى الاسم (باراباس) على أنه (مختار الرب)، أسماه به أبوه يوم ولد تيمنًا وتفاؤلًا، ثم خاب فيه فأله.

* * * *

قال المسيح عليه السلام في القرآن يتشفع عند الله عز وجل للذين بدلوا بعده: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

لن تستطيع - مهما حاولت - أن تقول أبلغ من هذا القول الذي قاله المسيح في القرآن: لم يقل إنهم (عبيدك)، فأنت وما شئت فيمن خلقت، ولكنه قال (عبادك)، وكأنه يومئ إلى أنهم وإن خاضوا في جلال ذاتك فإنهم يريدون وجهك. افتتنوا بي حتى سفهوا، فارتفعوا بي عن ذليل مقامي منك إلى عزيز مقامك. وأنت القاهر فوق عبادك، إن تغفر لهم فأنت عليها قادر.

فماذا كان جواب العزيز الحكيم؟

قال يمتدح صدق المسيح في الذي قاله، ويتكتم على الخلق أجمع بماذا هو مجيبه: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2]، أي هذا لك يا عيسى ولمن صدق بك على الأصل الذي قلت لهم. وذر القضاء

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

لصاحب الملك: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾[1].

ألا هل بعد هذا بلاغ؟

فسبحان من بيده ملكوت كل شيء له الحمد وله الملك، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير.

* * * *

(١) سورة المائدة، الآية: ١٢٠.

(٥٧) الإنجيل

يضم (العهدُ الجديد) الذي يتعبد به المسيحيون قبيل نزول القرآن وإلى اليوم سبعة وعشرين سفرًا، وهي إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا، وهي تحكي سيرة المسيح وأقواله وأفعاله ووصاياه منذ أن ولد حتى رفع، فهي أشبه بالسيرة النبوية عند المسلمين. بالإضافة إلى ثلاثة وعشرين سفرًا أخرى أولها (أعمال الرسل) أي أعمال الحواريين ومن دخلوا في عدادهم بعد رفع المسيح، وينسب هذا السفر إلى لوقا أيضًا، صاحب الإنجيل الثالث المسمى باسمه. تجيء بعد ذلك أربع عشرة رسالة تنسب إلى بولس (وهو من غير الحواريين بل لم يشهد المسيح ولم يسمع منه)، ثم رسالة تنسب إلى يعقوب الحواري، واثنتان منسوبتان إلى بطرس رئيس الحواريين، وثلاث منسوبة إلى يوحنا الحواري، التلميذ الذي كان المسيح يحبه، وهو أصغر الحواريين سنًّا، وليس هو صاحب الإنجيل الرابع المسمى بهذا الاسم، بل هو سميّ له. ثم رسالة منسوبة إلى يهوذا الحواري (وهو غير يهوذا المتهم بخيانة المسيح). وأخيرًا (رؤيا يوحنا اللاهوتي)، وليس هو يوحنا الحواري على التحقيق. والأسفار الأربعة الأولى، أعني الأناجيل الأربعة، هي المعنية بلفظة الإنجيل على الإجمال، يكمل بعضها بعضًا وينقل بعضها عن بعض، متساوية في الحجية عند المسيحيين. فلم تحفظ لك الكنيسة إنجيلًا آخر للمسيح غير هذه الأربعة.

ويقول مؤرخو المسيحية إن الأناجيل لم تكن في الصدر الأول أربعة فقط، وإنما كانت بالمئات، نحو ثلاثمائة إنجيل، يروي كل ما شهد أو سمع، أو ينقل عمن شهد أو سمع، أو يقص ما يحتج به لمقولته في المسيح. ولكن الكنيسة – بعد استقرار عقيدة التثليث في

القرن الرابع - استبقت من هذه الأناجيل أربعة فقط، هي تلك التي بين يديك الآن، وحظرت ما عداها، الذي طورد وأعدم، لمخالفته بلا شك لمقولة الكنيسة في المسيح.

والمشهور أن مكتبة الفاتيكان احتفظت في خزائنها ببعض هذه الأناجيل المنكرة، المحظور تداولها بين الناس، وليس هذا بشيء وإن صح، لأنه ليس لك حجاج الكنيسة بالذي أنكرته من تلك الأناجيل. من هذه الأناجيل المنكرة عن الكنيسة الإنجيل المنسوب إلى برنابا الحواري كما يروي مكتشف هذا الإنجيل، الذي أنكرته الكنيسة غداة ظهوره في القرن الثامن عشر، ورمته بالزيف والانتحال، مكيدة كادها للكنيسة بعض خصومها وشانئيها. وليس لك أن تأخذ على الكنيسة إنكارها إنجيل (برنابا)، فهو يقول بمقالة القرآن في المسيح: إنه فحسب عبد الله ورسوله، ليس إلهًا أو ابن إله، بَشَّر صريحًا بخاتم النبيين، وأرادوا قتله على الصليب فشبه لهم، ورفعه الله إليه جسدًا حيًّا لا يموت حتى قرب قيام الساعة، فينزل في الناس ليقطع شبهة الناس فيه.

ولسنا من القائلين بحجية إنجيل برنابا في مواجهة الكنيسة؛ إذ ليس لك حجاج الكنيسة بما تنكره، بل كلا يولي الله ما تولَّى. فحسبك هذه الأناجيل الأربعة التي بين يديك، وفيها رغم كل شيء الكفاية كل الكفاية.

وبعد، فليس برنابا الحواري إلا راوية بين رواة، كلهم كتب بغير لغة المسيح، لا تدري عن أي أصل نقل، ولا تدري هل أخطأ في الترجمة أم أصاب.

* * * *

والذي ينبغي التنبيه إليه أنه ليس في هذه الأناجيل الأربعة إنجيل منسوب إلى حواري شهد وعاين، إلا إنجيل متى وحده، الأول في ترتيب أسفار العهد الجديد، إن قلت إنه (متى العشار) (واسمه في الأصل لاوي) المعدود بين الاثني عشر على ما تجد في إنجيله (متى ١٠/ ٣). أما كاتب الإنجيل الثاني، مرقس، فهو من تلاميذ بطرس الحواري، سمع منه ولم يشهد أو يعاين، شأن التابع والصحابي عند أهل الإسلام، وأما الإنجيل الثالث، لوقا،

فهو يفصح لك في مفتتح إنجيله عن أنه لم يشهد ولم يعاين: (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا في البدء معاينين وخدامًا للكلمة، رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق، أن أكتب إليك على التوالي أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمت به)[1]، فهو يوناني يكتب إلى يوناني، والمشهور أنه سمع من بولس الذي تعلم بشهادته هو أنه لم يسمع ولم يعاين، فلوقا إذن ناقل عن ناقل. وأما الإنجيل الرابع، يوحنا، فقد قالت الكنيسة إنه يوحنا الحواري (التلميذ الذي كان المسيح يحبه)، كتبه وقد أسن قرب ختام المائة الأولى لميلاد المسيح، سألوه في كتابته ليرد على (بدع ظهرت) تجحد لاهوت المسيح، أو تنكر أن قد كان للمسيح وجود قبل مريم أمه، أو تلاميذ ليحيى بن زكريا يغالون به تلاميذ المسيح، فاستجاب لهم وكتب هذا الإنجيل إثباتًا للاهوت المسيح خاصة [2]. وهذا يعني أن قد كان قبل كتابة هذا الإنجيل مسيحيون ماتوا مؤمنين بالمسيح رسولًا نبيًّا ليس إلها أو ابن إله. وقد أصرت الكنيسة على نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري دعما لشهادته التي تجهر بتأليه المسيح. وليس هذا بصحيح، لا لأنك شهدت الكاتب الذي كتب هذا الإنجيل، وإنما ببساطة لأن الكاتب ينهي إنجيله بما تفهم منه صريحًا أنه ليس هو يوحنا الحواري، وإنما هو ناقل عن يوحنا: (هذا هو التلميذ - أي: يوحنا - الذي يشهد بهذا وكتب هذا، ونعلم أن شهادته حق. وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة)[3]، إنه يؤمِّن على أستاذه لا أكثر ولا أقل، لأن الضمير في (نعلم)، (لست أظن)، قاطع الدلالة على المغايرة بين هذا المتكلم الشاهد ليوحنا وبين يوحنا المشهود له.

والذي ينبغي التنبيه إليه أيضًا أن هذه الأناجيل الأربعة لم يكتب أي منها بلغة المسيح العبرية - الآرامية، وإنما كتبت كلها ابتداء بلغة يونانية متأخرة عرفت باليونانية الكنسية

(١) لوقا ١/١ - ٤.

(٢) راجع هذا في: الكتاب المقدس، طبعة الفاتيكان العربية - بيروت - سنة ١٩٥١، حواشٍ على مجلد العهد الجديد، ص ٤٦٩ - ٤٩٧.

(٣) يوحنا ٢١/ ٢٤ - ٢٥.

لاحتوائها ألفاظًا وتراكيب لم تسمع من اليونان قبل عصر المسيح، من مثل إيفنجليون *euaggelion* يعني (الإنجيل) فارقليط *parakletos* التي تترجم في الأناجيل العربية بلفظة (المُعَزِّي)، وليس كذلك، وإنما هي (أحمد) أو (محمد) كما سوف ترى. ولا يصح ما قيل من أنه قد كان لهذه الأناجيل اليونانية كلها أو بعضها أصل عبراني نُقِلت عنه، وبالذات إنجيل متى الذي كتبه كما يقال لليهود في فلسطين، ولكن هذا الأصل فقد. لا يصح هذا القول ليس فقط لأنه لا عبرة بأصل مظنون قد فقد، وإنما أولا وبالأخص لأن متى بالذات، بل ومرقس أيضًا الناقل عن بطرس، ذكرا في إنجيليهما كما تعلم عبارات بلغة المسيح العبرية - الآرامية حرصا كلاهما على ترجمتها إلى اليونانية، ولو كانا يكتبان أصلًا بلغة المسيح لقارئ بلغة المسيح لما احتاجا إلى هذه الترجمة لأن قارئهما لا يحتاج إليها.

في هذه الأناجيل الأربعة إذن عناصر ثلاثة تحترز منها كل الاحتراز كيلا تسيء فهم ما نطق به المسيح الذي خاطب ربه في القرآن بقوله: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[1]، وهذه العناصر الثلاثة هي:

١- **عنصر الرواية**: أعني صدق الراوي فيما روى، فلا تأخذ إلا بما أجمع عليه الرواة الأربعة، أو بما لا يتناقض مع ما أجمع عليه الرواة الأربعة.

٢- **عنصر الترجمة**، أعني صحة الترجمة من لغة المسيح إلى لغة الأناجيل اليونانية، فتفهم (الآب) بمعنى (الرب) كما قالها موسى عليه السلام، وتفهم (الابن) بمعنى البار المبرور المتبرر أي (مختار الرب) لا ابن الرب، كما رأيت في تحليلنا لاسم ذلك اللص الذي رفض اليهود افتداء المسيح به، أعني (باراباس)، التي أصلها العبراني الآرامي (بار - أبا) يعني (مختار الرب) لا ابن الرب ولا ابن الأب.

٣- **عنصر الرأي**، أي القول الذي زاده الكاتب من عنده يفسر برأيه شيئًا من قول المسيح أو فعله، أو يستشهد من العهد القديم بفقرات ينتقيها لإثبات مقولته هو

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

في المسيح، مثلما مر بك في إنجيل متى من استشهاد في غير موضعه بيونس في بطن الحوت، أو يدبج بقلمه ديباجة يستعلن فيها برأيه هو في لاهوت المسيح كالذي تقرأ في مفتتح إنجيل يوحنا. ليس هذا من وحي الله على رسله، وإنما هو قول الكاتب، لا يلزمك.

تفعل هذا كمسلم يقرأ في هذه الأناجيل. أما الكنيسة فقد احتاطت لحجية المكتوب في هذه الأناجيل بالكلمة والحرف، فقالت بأنه وحي الله على كاتبيه بذات اللغة التي كتبوا بها، تنزل عليهم به الروح القدس ثالث الثلاثة في عقيدة التثليث، يعني جبريل صلوات الله عليه. وقالت أيضًا إن ما اختلفوا فيه يكمل بعضه بعضًا، كل إنجيل يقص ما وعى مما سمع. أما حين يصعب التوفيق بين النقيض ونقيضه من مثل (ابن الإنسان)، (ابن الله)، وهما (بار - أنَشَا)، (بار - أبا) الآراميتين، فعندئذ يقال لك: في المسيح ناسوت ولاهوت، أو (الكلمة صار جسدًا وحل بيننا)، أو يقال لك أخيرًا (عظيم هو سر التقوى)، يعني أن هذا فوق العقل، تؤمن به كما علمت، وتؤمن أيضًا بأن آباء الكنيسة الذين صاغوا لك (قانون الإيمان) القائل بأن الله ثالث ثلاثة، وبأن الثلاثة واحد أحد، إنما قالوا ما قالوه هم أيضًا بوحي من الروح القدس بعد رفع المسيح، فهم معصومون بعصمة الله عز وجل من الوقوع في الخطأ.

هنا يمتنع الجدل ويمتنع الحوار.

ولكنك تقول ما قاله الله عز وجل في القرآن: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[1]، أو تقول بقول القرآن: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2].



وقد قال نقاد أناجيل مسلمون إن (الإنجيل) المعنيّ في القرآن ليس هو تلك الأناجيل

(١) سورة الكهف، الآية: ١٧.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٦.

الأربعة المعتمدة وحدها عند المسيحيين يوم نزول القرآن، بل ثمة (إنجيل) آخر كتبه المسيح أو أملاه، ولكن أتباع المسيح أضاعوه.

وليس على هذا القول دليل، بل لديك من القرآن الدليل على عكسه، أعني أن القرآن ينظر إلى هذه الأناجيل الأربعة نفسها، التي فيها من وحي الله وفيها من قول الرواة، وأن الذي فيها من وحي الله على عيسى هو وحده المعنيّ بلفظة (الإنجيل) في القرآن، وما عداه ليس بإنجيل، لقوله عز وجل في هذا القرآن: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾[1]، وما كان الله ليعمي عليهم إنجيلًا غير الذي بين أيديهم، ولكنه طلب إليهم أن يتحروا ما أنزل الله فيه، وينبذوا ما زاد الرواة.

فكيف تميز أنت كمسلم بين ما قاله الله عز وجل في هذه الأناجيل الأربعة وبين ما زاد فيها الرواة؟ قد علمت أن الله عز وجل يخاطب الخلق على لسان أنبيائه، لا على لسان صحابة أو تابعين، ولا على لسان حواريين أو رواة الحواريين. فالذي قاله الله عز وجل في الأناجيل هو الذي نطق به المسيح نفسه مبلغًا عن ربه.

حيثما وقعت في الأناجيل على قول محكي عن المسيح أنه قاله، عليك أن تضعه بين قوسين، أو تخط تحته سطرًا، ودعك من الباقي، فليس هو من المسيح نفسه ضربة لازب، وإنما هو من قول الكاتب، يحتج به لمقولته في المسيح، لا يلزمك، لأنه ليس من وحي الله على رسله.

خذ مثلًا تلك الديباجة الفخمة المفخمة التي افتتح بها يوحنا إنجيله، المكتوب بعد رفع المسيح بما لا يقل عن ستين سنة في أقرب التقديرات، يحتج به لعقيدته في لاهوت المسيح: (في البدء كان الكلمة. كان عند الله، وكان الكلمة الله. هذا كان عند الله. كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه)[2]، ويمضي فيقول: (كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

(٢) يوحنا ١/ ١ - ٥.

آتيًا إلى العالم. كان في العالم، وكون العالم به ولم يعرفه العالم. إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله. وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه. الذين لا من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل ولكن من الله ولدوا)[1][2]. هذا الكلام العويص[3] المبهم المفخم الذي قاله يوحنا في مفتتح إنجيله - أيًا كان رأيك فيه - ليس من وحي الله على رسله، لأن قائله ليس المسيح، وإنما القائل ههنا هو يوحنا الكاتب، يستعلن بعقيدته في ألوهية المسيح، وأن الله والمسيح واحد (وكان الكلمة الله)، ناسيًا أنه سيقول بعد ذلك على لسان المسيح يناجي ربه: (أنت الإله الحقيقي وحدك)[4][5]، أفتأخذ بقول يوحنا وتترك قول المسيح؟

أما وقد استصفيت أقوال المسيح في هذه الأناجيل فخذ بأحسنها، كالذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، معيارك في ذلك ألا تترك محكم القول إلى متشابهه، بل تُحَكِّم المحكم في المتشابه فتقيده به، لا تُحَكِّم المتشابه في المحكم وتفسر المحكم بالمتشابه الذي يضطرك إلى قول المحال على الله عز وجل، كالذي قيل في مجمع نيقية وما تلاه من مجامع.

وليس عليك بعد ذلك حرج إن كنت مسلمًا يقرأ في هذه الأناجيل، فقد وضح لك الطريق، واستبان المنهج.

---

(١) يوحنا ١١/٩ - ١٣.

(٢) هذا مَثَل من كثير على أسلوب تلك الأناجيل في فهم البنوة لله (أي المؤمنون باسمه): ليست هي البنوة بمعناها المعروف، فضلا عن عمومها في (جماعة المؤمنين)، لا يختص بها المسيح وحده. فتأمل!.

(٣) لا يعتاص هذا الكلام إلا على بسطاء مكفوفين - كما يقال لهم - بِعُلُوِّه على مداركهم، وهو كما يعلم دارسو الفلسفة، مرقعات من فلسفات الإسكندرية وبالذات أفلوطين. وهذا يدلك على أن الكاتب ليس حواريًا، فقد مات الحواريون وتابعوهم قبل مولد أفلوطين.

(٤) يوحنا ١٧/٣.

(٥) هذا من نقائض يوحنا الكاتب. وقد قيل إن (لاهوت المسيح) الذي في إنجيل يوحنا منحول، نحله إياه نيقياويون يحتجون به لعقيدتهم. وهذا إن صح يفسر لك نقائضه.

والذي يعنينا بالدرجة الأولى في مقاصد هذا الكتاب الذي نكتب، هو معنى لفظة (إنجيل)، وقد قال علماء المسيحية إنها لفظة يونانية هي (إيفنجليون) *euaggeleion* معناها الحرفي هو الخبر السار أو البشارة. ولكن بشارة بمن أو بماذا؟ أهي بشارة بشيء حدث أم بشيء سيحدث؟ إن كانت بشارة بشيء حدث فهي المسيح نفسه الذي (تنبأت الكتب) بمجيئه، فهو البشرى التي تحققت. ولكن علماء المسيحية لا يقولون بهذا، وإنما يقولون إن البشرى هي بشيء سيحدث، وإن رسالة المسيح هي البشارة بهذا الذي سيحدث. فما الذي جاء المسيح يبشر به؟ أعني ما هو الخبر السار الذي جاء يعلنه للناس، فسميت به الأناجيل (إنجيلا)؟

قال علماء المسيحية إن الذي جاء المسيح يبشر به في هذه الأناجيل هو قرب (ملكوت السماوات): (من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يَكْرِز ويقول توبوا! لأنه قد اقترب ملكوت السماوات)[1]. هذه العبارة، ملكوت السماوات، وتجيء أيضًا بلفظ ملكوت الله، من العبارات الهائمة المبهمة في مصطلحات الأناجيل، استعصى فهمها حتى على الحواريين أنفسهم فما فتئوا يسائلون عنها المسيح وما فتئ هو يضرب لهم المثل تلو المثل في شرحها، حتى فهموا أخيرًا أنه يعني بها الحياة الآخرة، فريق في الجنة وفريق في السعير. إنها البشارة بقرب قيام الساعة. ولكن لماذا تسمى الساعة ملكوتًا، فيقولون في صلواتهم: (أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء فكذلك على الأرض)[2]؟ الذي يقرب لك المعنى إن كنت من أهل القرآن هو قوله عز وجل يوم يرث الأرض ومن عليها ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[3]. وربما كنى المسيح بلفظ (الملكوت) عن الجنة، فقال (أبناء الملكوت)، يعني الأبرار الداخلين في عفو الله ورحمته، المنعمين في رضوانه، أولئك (هم الوارثون) كما تجد في القرآن.

ولكن، كيف تصح البشارة بقرب قيام الساعة؟ قد كان يظن عصر كتابة متى إنجيله أن

(١) متى ٤/ ١٧.

(٢) متى ٦/ ٩ - ١٠.

(٣) سورة غافر، الآية: ١٦.

الساعة على الأبواب، لقوله في مرقس: (متى رأيتم هذه الأشياء صائرة فاعلموا أنه قريب على الأبواب. الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله)[1]، لا يلبث المسيح أن يرفعه الله إليه حتى يعود في مجيئه الثاني فتقوم الساعة. ولكن مضت القرون ولم تأت الساعة. وقد قال لهم المسيح في نفس الموضع: (وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب)[2]، وكفى بهذا إقرارًا من المسيح بأنه لا يعلم إلا ما عَلَّمه الله، أما الساعة فعلمها عند ربي، لا يجليها لوقتها إلا هو، كالذي تقرأ في القرآن. فكيف يبشر المسيح بشيء لا يعلم موعده. لم يبشر المسيح باقتراب ملكوت السماوات إذن، فقد مضت إلى اليوم قرون وقرون ولم تقم الساعة. بل لا يصح لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبشر بقيام الساعة. الأحرى أن ينذر بها ولا يبشر، فليست هي بالخبر السار إلا لمن ضمن الجنة، ولا يضمن أحد الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته، وإنما هو يرجو عفو الله ومغفرته، فكل عمل في جنب الله قليل. لم يقل المسيح: تهللوا! فالساعة قريب. وإنما قال: توبوا! فقد اقترب ملكوت السماوات. إنه هنا نذير لا بشير.

لم يبشر المسيح إذن بملكوت السماوات. إن فهمت ملكوت السماوات بمعنى قرب قيام الساعة، وإنما تستطيع أن تقوله أنه أنذر بها. وقد قالها يوحنا قبله بنفس عبارته: (توبوا! لأنه قد اقترب ملكوت السماوات)[3]. ومن ثم لا يصح اختصاص المسيح وحده بهذه البشارة، أعني النذارة، حتى يسمى بها وحي الله عليه (الإنجيل)، فلم يغفل عن قولها من قبل ومن بعد نبي.

قيل أيضًا إن بشارة المسيح هي البشارة بمغفرة الخطايا. يعني أنه جاء خلاصًا للبشر من خطاياهم. وليس بشيء، لقوله في مرقس: (اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا[4] بالإنجيل

(١) مرقس ١٣/ ٢٩ - ٣٠.

(٢) مرقس ١٣/ ٣٢.

(٣) متى ٣/ ٢.

(٤) **ليست هي كرز العربية يعني لجأ واعتصم، وإنما هي منحولة من الآرامية بمعنى صاح وصوت، فهو كاروز يعني نذير أي *Herald* الإنجليزية. وقد اختارتها الترجمات العربية في مقابل *kerussein* =**

للخليقة كلها. من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يدن)[1]، فليس هو إذن خلاصًا للبشر أجمع، وإنما الخلاص لمن آمن. وهذا صحيح فيه وفي سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. فليست هي إذن بشارة تتخصص به. وقد دعا بها يوحنا قبله: (كان يوحنا يعمد في البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا)[2]، فلا مغفرة إلا بالإيمان والتوبة، أتباع يحيى وأتباع المسيح في هذا سواء. وما العماد على يد يحيى أو عيسى إلا عهد على إخلاص التوبة.

ها قد استبان لك بالتحليل النقدي وحده أن محور رسالة المسيح عليه السلام ليس هو البشارة بقيام الساعة - إن فهمت ملكوت السماوات بمعنى يوم الحساب - فلا أحد يبشر بقيام الساعة ولا يطلبها في صلواته. وليس هو أيضًا (النذارة) بها، فهذا عام في كل نبي لا يختص به المسيح وحده. بل حتى إن فهمت ملكوت السماوات بمعنى الحياة الآخرة (الملك يومئذ لله)، فريق في الجنة وفريق في السعير، أو فهمت ملكوت السماوات بمعنى الجنة فقط، فلا يستقيم لك هذا أو ذاك، لأن التبشير بالجنة والتنفير من النار هو قول الأنبياء جميعًا لم يغفل عن قوله نبي، ولا يختص به نبي دون نبي، لا يصح أن تنفرد به رسالة المسيح فيتسمى به (إنجيله). ولا يصح أيضًا أن تكون رسالة المسيح هي (البشارة) بمغفرة الخطايا، فهذه هي بشرى جميع الأنبياء من قديم لكل مؤمن تاب وأناب فأسلم وجهه لله مخلصًا له الدين.

ولا يصح بالذات ما قاله اللاهوتيون من بعد في تأصيل نظرية البشارة بمغفرة الخطايا: قالوا بل من الخطايا مكتسب وأصلي. فأما المكتسب فهو الذي يجترحه البشر في هذه الدنيا ويصح تكفيره بالاستغفار والتوبة. وأما الخطيئة الأصلية فهي خطيئة يولدون فيها ولا حيلة لهم في دفعها لأنهم ورثوها ولم يجترحوها. إنها خطيئة أبيهم آدم يوم نسي فأكل من الشجرة

= اليونانية بمعنى أعلن وبشر *to proclaim*.

(1) مرقس ١٦/ ١٥ - ١٦.

(2) مرقس ١/ ٤.

المنهي عنها، فباء بإثمها البشر جميعًا، الذين يولدون في دنس هذه الخطيئة منذ أن طرد أبوهم من الجنة حتى مجيء المسيح (ببشارة) افتدائه البشر منها بدمه المسفوح على الصليب، لأن (الآب) لا يقبل قربانًا يعدل معصية آدم إلا دمًا زكيًّا لم يولد في دنس هذه الخطيئة، وهو المسيح، ابن الله الوحيد الذي ولد لخلاص العالم. ولا يصح هذا، ليس فقط لأن الله تاب على آدم وزوجه قبل إهباطهم إلى الأرض كما قال القرآن: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(1)، ليس لهذا فحسب، وإنما أولا وبالذات لأن الخطيئة لا تورث، بل كل امرئ محاسب فحسب بما قدمت يداه، لا يسأل بما فعل آباؤه، ولا يؤخذ بفعل ذراريه. وثانيًا لأن معنى هذه المقولة هو أن الأبرار قبل المسيح - وفيهم أنبياء الله ورسله وصديقوه - ماتوا كلهم في خطيئة آدم، لاحظ لهم في الآخرة. ولا يصح هذا أخيرًا وبالذات لأن المسيح لم يقله في هذا الإنجيل الذي بين يديك، ولا يجوز التزيد على أنبياء الله ورسله، ولا سيما في أمر هو عمود الدين عند أصحاب هذا اللاهوت.

وقد جودل أصحاب هذه المقولة بمعظم هذا الذي قلناه، فأحيط بهم. ولكنهم استدركوا على أنفسهم فقالوا إن الأبرار قبل المسيح - وفيهم أنبياء الله ورسله وصديقوه ومنهم مريم عليها السلام - يعفيهم الله بسبق الاصطفاء من وزر الخطيئة الأصلية فلا يولدون في دنس خطيئة آدم، وإنما تحمل بهم أمهاتهم حملًا بريئًا من هذا الدنس، يرقعون كما ترى قولًا بقول، فما صح لهم هذا ولا ذاك، لأنه متى فسدت المقدمات فقد فسدت النتائج.

* * * *

إذا كان المسيح لم يبشر بالساعة، ولم يبشر بمغفرة الخطايا مجانًا، ولم يبشر بنسخ الولادة في دنس الخطيئة آدم، فبماذا بشر المسيح إذن في إنجيله إذا كانت (الإنجيل) تعني يونانيًّا البشارة أو الخبر السار؟

يقول أهل القرآن إن بشارة المسيح إنما كانت بختام النبوات على يدي الذي يأتي بعده،

(1) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

لقول المسيح في القرآن ينص على هذه البشارة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1].

لا تقرأ هذا أو قريبًا منه في أناجيل متى ومرقس ولوقا، وإنما انفرد به (يوحنا) الذي جمع بين النقائض: أله المسيح جهرة في مفتتح إنجيله، وختمه بالنص على أن المسيح رفع ولم يقل بعد كل الذي يجب أن يقال، كما يتبين لك من قول يوحنا على لسان المسيح: (إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية)[2]. لم يرشد المسيح أتباعه إذن إلى (جميع الحق)، بل عليهم أن ينتظروا (الآخر)، متمم النبوات جميعًا، الذي يرشدهم إلى (جميع) الحق، فلا يبقى بعده من رسالات السماء شيء يقال.

هذه في الأناجيل هي شهادة عيسى للقرآن ولمحمد ﷺ قبل ختام النبوات به بعد ستة قرون من رفع المسيح، وهي بشارته بقائل جميع الحق. وهي كافية في ثبوت بشارة عيسى بخاتم النبيين، ولو قد تلبث عندها علماء المسلمين لكفتهم، ولكنهم أصروا على التماس اسم خاتم النبيين في الأناجيل صريحًا على لسان المسيح، وسيأتي.

على أن علماء المسيحية لم يسلموا لعلماء المسلمين بالذي قالوا، وهذا بديهي، وإلا لدخلوا ودخل معهم الخلق جميعًا في دين الله أفواجًا. وإنما يقول شراح المسيحية وعلماؤها ولاهوتيوها إن هذا الآخر الذي يأتي بعد رفع المسيح ليرشد الناس إلى جميع الحق، أي ليقول لهم ما لم يقله المسيح، لأنهم لا يستطيعون احتماله، الذي نعته المسيح بروح الحق، ليس هو بشرًا من أنبياء الله ورسله، وإنما هو (الروح القدس)، ثالث الثلاثة في عقيدة التثليث، يعنون ملك الله جبريل صلوات الله عليه. وهذا القول - إن تمعنت - مردود بما في إنجيل يوحنا نفسه الذي تجد فيه بالنص من كلام المسيح لتلاميذه قبل القبض

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

(٢) يوحنا ١٦/ ١٢ - ١٣.

عليه: (وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي. لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم. ولكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي (وهي الفارقليط *Parakletos* اليونانية). ولكن إن ذهبت أرسله إليكم)[1]، وهذا صريح في أن المسيح وهذا الآتي من بعده لا يتعاصران على هذه الأرض. لا بد من رفع المسيح أولًا قبل مجيء هذا الآتي. بينما تقرأ في يوحنا أن هذا الروح القدس كان معهم قبل رفع المسيح، بل إن المسيح نفخ فيهم هذا الروح القدس قبل ارتفاع المسيح: (ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس)[2]. وهو مردود أيضًا بأن (الروح القدس) عندهم إله (ولم يكن يوحنا يعلم بالطبع يوم كتب إنجيله أن جبريل سيتأله في الربع الأخير من القرن الرابع)، ولا يليق بإله ألا يتكلم من نفسه، بل ينتظر سماع ما يقال له ثم يقوله للناس، وإنما يصح هذا في أنبياء الله ورسله. يلقى إليهم وحيه فيتكلمون به، شأن محمد ﷺ وهذا القرآن. بل لا يصح في جبريل بالذات وإن لم يتأله جبريل، لقول المسيح في يوحنا: (ومتى جاء المعزي - وهي الفارقليط *Parakletos* اليونانية - الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي)[3]. لأن جبريل عليه السلام، ملك الله إلى أنبيائه ورسله قد سبق (انبثاقه)، لا ينتظر المسيح حتى يرسله من عند (الآب)، بل قد سبق انبثاقه مولد عيسى نفسه، لأنه النافخ في مريم، المؤيد للمسيح في المعجزات التي أجراها الله على يديه. ولو كان عيسى إلهًا بذاته لما احتاج إلى جبريل. ولو كان جبريل إلهًا بذاته لما احتاج إلى (السماع) من الآب ليتكلم بما يقوله له (آبا) من ذات جوهره. ولو بقي جبريل ملكًا على أصله لما جاز أن يكون هو المبشَّر به، لأن الملائكة لا تتنزل على تلاميذ، وإنما تتنزل على أنبياء، كالشأن في جبريل ومحمد، صلوات الله وسلامه على ملائكته وأنبيائه. وأخيرًا - وهو الفاصل الحاسم - فإن هذا الذي تنزل على التلاميذ يوم الخمسين (أي بعد خمسين يومًا من رفع المسيح كما تقرأ في سفر أعمال الرسل) لم يقل لهم

(١) يوحنا ١٦/ ٥ - ٧.

(٢) يوحنا ٢٠/ ٢٢.

(٣) يوحنا ١٥/ ٣٦.

شيئًا، لا من نفسه ولا سماعًا من الآب، كما قال المسيح في الآتي بعده، وإنما كان دوره هو تأييدهم ونصرتهم وإجراء العجائب على أيديهم كالذي تقرؤه في سفر أعمال الرسل. ليس هذا إذن هو الآتي بعد المسيح، الذي (شهد له)، وإنما الشاهد للمسيح هو هذا القرآن.

أما لفظة (الفارقليط) *Parakletos* التي سمَّى بها المسيح هذا الآتي بعده، فهي من اليونانية الكنسية التي لم تسمع قط من اليونان قبل عصر المسيح، يعني أنها منحوتة نحتا لتسمية هذا الآتي. وقد قال علماء المسيحية إنها يسهل اشتقاقها على المفعولية من الفعل اليوناني *Parakalein* بمعنى استغاثه واستنصره واستعانه فهو إذن المستغاث، المستنصَر، المستعان: أخذوا *Kalien* اليونانية بمعنى ناداه واستدعاه، وأخذوا المقطع اليوناني *Para* بمعنى إلي، حوالي، وكأنك تقول (هلم إلي!). ولا تزال *Parakalo*! في اليونانية المعاصرة تفيد معنى الطلب والرجاء (أرجوك!) هذا التفسير المسيحي للفظة الفارقليط *Parakletos* بمعنى النصير الشفيع، تفسير متأثر بالدور الذي اضطلع به (روح القدس) من بعد رفع المسيح من نصرة التلاميذ وتأييدهم بالعجائب التي أجراها على أيديهم على نحو ما تقرؤه في سفر (أعمال الرسل)، وإن لم يقل لهم شيئًا مما قال المسيح إنه سيرشدهم إليه، الذي يقول لهم (جميع) الحق، ومن ثم لا يتفق هذا التفسير مع دور هذا (الآتي) من بعد المسيح، لأنه ليس المعنى بها.

ولا شك أن يوحنا الكاتب لهذا الإنجيل حين نص على أن الفارقليط هو نفسه روح القدس جبريل: (وأما الفارقليط[1] الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم)[2]، كان متأثرًا بهذا الذي كان، فخلط قلمه بين (روح الحق)، (روح القدس) التي سمى بها الفارقليط مرة واحدة فقط في هذا الموضع وهي في كل المواضع الأخرى (روح الحق)، وليست روح الحق هي روح القدس كما ظن يوحنا المتأثر بالذي كان.

---

(١) تجد (الفارقليط) هذه بلفظ (المعزي) في الترجمات العربية المعاصرة على ما يأتي.

(٢) يوحنا ١٤/ ٢٦.

والذي ينبغي التنبيه إليه أن ترجمات الإنجيل بكل اللغات استبقت لفظة فارقليط على أصلها، تحاشيًا من التورط في ترجمة معناها إلى اللغة المترجم إليها، فقالت الترجمة العربية حتى أوائل هذا القرن (فارقليط)، وقالت الترجمة العبرانية (پِرَقْليط)، وقالت الفرنسية *le Paraclet*، إلخ. ولكن من اللغات الأوروبية من تصدت لهذه الترجمة فقالت الألمانية (المدافع) أو (الشفيع) المتشفع به *Fürsprecher* وتابعتها الإنجليزية على هذا المعنى فقالت (الناصح المشير) *Counsellor* وكأنها المحامي، وقالت الإنجليزية أيضًا (المعزي)، المواسي *Comforter* وأخذتها عنها الترجمة العربية المعاصرة فقالت (المعزى)، لا تجد اليوم غيرها في ترجمات الإنجيل العربية. وليس هذا كله بصحيح من حيث اللغة، لا سيما (المعزى)، وإنما هو التفسير بالعقيدة، لا التفسير باللغة، فليس في *Parakalein* اليونانية شيء من معاني العزاء والمواساة، وليس فيها أيضًا شيء من معاني الشفاعة والمدافعة والمشورة، وإنما هي - إن اشتققتها من *Parakalein* كما يقول علماء المسيحية - تعني فقط المستغاث المستنصر المستعان، أو الذي تتوجه إليه بالرجاء، على معناها الباقي في اليونانية المعاصرة.

أما علماء المسلمين فقد دلهم بعض السريان من قديم على أن (فارقليط) هذه تعني في اليونانية (أحمد) التي في القرآن اسمًا لخاتم النبيين الذي بشر به عيسى قومه في القرآن. فذهب بعض المفسرين إلى أن (الفارقليط) من أسمائه ﷺ. وقد جادل بها المسلمون أهل الكتاب إلى هذا العصر. وانتبه علماء المسيحية إلى خطورة هذا حين يقرؤه المسيحيون العرب الذين يعرفون على التحقيق معنى الاسم (أحمد) أو (محمد) في لغتهم العربية، ولا علم لهم بتلك اللغة اليونانية التي كتبت بها أصول الأناجيل وصيغت بها لفظة *Parakletos* هذه التي استبقيت على أصلها (فارقليط) في الترجمات العربية حتى أوائل هذا القرن العشرين، فلا يستطيعون لمقولة علماء المسلمين هؤلاء دفعا. قال علماء المسيحية[١] إذن إن *Parakletos* اليونانية لا تعني قط (أحمد) وإنما تعني (المعزي) فحسب، معقبين

(١) راجع الكتاب المقدس، طبعة الفاتيكان العربية، المرجع المذكور، حواش على مجلد العهد الجديد، ص ٥٠٠.

بأنها في الأصل اليوناني *Parakletos*، وليست *Periklitos*، (فليس في المتن شيء من معاني الحمد). وتوقفت ترجمات الإنجيل العربية عن استخدام لفظة الفارقليط، ووضعت في موضعها لفظة (المعزي) قطعًا للجدل حول شبهة معنى (الحمد) في الاسم على مثال ما فعلت الترجمة الإنجليزية *Comforter*.

هذا الدفع (اللغوي) بأن الفارقليط لا تعني أحمد، دفع متأخر بطبيعة الحال، لم يعرف قبل مبعث خاتم النبيين المسمى (محمدًا)، أو قل إنه لم يعرف قبل اطلاع الغربيين على معنى اسمه ﷺ، فهبوا لمنع اشتباه اسمه باسم ذلك الآتي بعد المسيح، الذي إن لم ينطلق هو لا يجيء. ولكن هذا الدفع لم يطفئ الشبهة، بل زادها اشتعالا: ها قد علم المسلمون أن في اليونانية (فريقليط) *Periklitos* بمعنى (أحمد) شبيهة كل الشبه بـ(فارقليط) *Parakletos* المثبتة في الأصل اليوناني، فلم لا تكون هذه هي تلك، تحرفت على قلم يوحنا الكاتب في إنجيله؟

على أن علماء المسيحية أصحاب هذا الدفع اللغوي لم يوفقوا، فليس معنى فارقليط *Parakletos* اليونانية هو (المعزي) كما مر بك وكما يعلم دارسو اللغة اليونانية، ولا معنى للإصرار على أن الفارقليط يعني المعزي. وليس بصحيح أيضًا أن *Parakletos* لا تعني (أحمد)، وأنها لو كانت أحمد لقيلت بلفظ *Periklitos*، بل *Parakletos* بذاتها ودون افتراض تحريف أو تحوير، تعني أحمد أيضًا، إن اشتققتها لا من *Parakalein* وإنما من *Parakleiein*، المقطع الأول *Para* بمعنى المبالغة وتجاوز الحد، والمقطع الثاني *kleiein* فعل بمعنى مجده وحمَّده فهو المحمود أكثر من غيره، شأن (أحمد) التي جاءت في القرآن، وفي هذا تعليل لمجيئها على (أحمد) لا (محمد)، لأن القرآن ينظر إلى المكتوب في الأناجيل اليونانية لا إلى ما نطق به المسيح بلغته، وليس في اليونانية صيغة (مُفَعَّل) التي في العربية والعبرية، وإنما فيها المقطع *para* الذي يفيد المبالغة وتجاوز الحد. والمحقق الذي لا يصح فيه جدل أن المسيح لم يقل فارقليط أو فريقليط، فهو لا يتكلم اليونانية، ولا يحدث تلاميذه بها، وإنما هي ترجمة من يوحنا الكاتب، لا تدري عما نقل، فلا تدري هل أخطأ أو أصاب.

هذا إن قلت أن (فارقليط) يونانية. ولكنك تستطيع أن تقول أيضًا - وهذا هو الذي أرجحه أنا - إن (فارقليط) ليست يونانية، وإنما هي عبرية - آرامية (برق + ليط) على ما نطق به المسيح بلغته ونقلها على حالها يوحنا الكاتب حسبما استقام له نطقها بلسانه اليوناني. الذي يدلك على هذا أن العبرية المعاصرة تستخدم (برقليط) هذه بمعنى المحامي، لا اسم عندها للمحامي غيره. وقد تقدم القول في تضاعيف هذا الكتاب أن لفظة (برق + ليط) العبرية - الآرامية معناها كاشف الغشاوة أو واضع الإصر، وهو نعته ﷺ في القرآن: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1]. والإنجيل المعني في هذه الآية هو بلا شك هذا الإنجيل اليوناني الذي بين أيديهم، فما كان الله ليعمى عليهم إنجيلًا آخر، وما كان القرآن ليقول إلا حقًّا، لأنه ههنا يتحدى أهل الكتاب بهذا الحق: إنه عندكم مكتوب في إنجيلكم فتلمسوه فيه، باسمه أو بنعته، لقوله عز وجل مباشرة بعد ذكر بشرى المسيح قومه بمحمد في الآية ٦ من سورة الصف: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

هذا قاطع في بشارة الإنجيل بخاتم النبيين ﷺ، سواء قلت إنه (الفارقليط) المتنازع عليها، أو قلت إنه قائل جميع الحق الذي لا يبقى بعده شيء يقال كما وصفه المسيح صريحًا في هذا الإنجيل الذي بين يديك.

هذه هي (البشارة) إن قلت إن (الإنجيل) يونانيًّا معناها البشارة.

على أننا لا نتلبث طويلًا عند هذا، فقد مر بك في تضاعيف هذا الكتاب أن رسالات الله عز وجل - من آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه - إنما تستمد الدليل على صدقها من ذاتها لا من خارجها، لا تحتاج إلى نبوءات وبشارات في الكتب السابقة كالذي ألح عليه كتبة الأناجيل الأربعة. القرآن غني عن ذلك، فلم يُبْقِ قولا لقائل من

(١) سوة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٢) سورة الصف، الآيتان: ٧، ٨.

بعده. ولو كان بعد خاتم النبيين نبي – وهذا من إعجاز القرآن في أنباء القرآن – لما عدم الناس نبيًّا جديدًا يقطع هذه الفترة المتطاولة – أربعة عشر قرنًا حتى الآن – التي لا سابقة لطولها في تاريخ الأديان بين نبي ونبي، لا شأن لك بالطبع بمن تطفل واقتحم فجاء بنفسه لم يرسله أحد، من أمثال تلك البهائيات والقاديانيات التي لم تأت بجديد إلا محاولة (المصالحة) بين اليهودية والنصرانية والإسلام، فضيعت على نفسها هذا وذاك.

على أن (الإنجيل) لا تعني يونانيًّا البشارة أو الخبر السار كما سوف ترى: هذا على شهرته غير صحيح.

****

المتفق عليه بين علماء المسيحية جميعًا هو أن (الإنجيل) تعريب (إڤنجليون) اليونانية *euaggelion*[1] مركبة من مقطعين: *eu + aggelion* الأول هو البادئة *eu* التي تفيد التقريظ والتحميد، والثاني *aggelion* قالوا إنه بمعنى (الخبر)، فهو (الخبر السار). وقد حرصت جميع الترجمات على استبقاء *euaggelion* على أصلها، فقالت الإيطالية *Evangelo* وقالت الفرنسية *Evangile* وقالت الألمانية *Evangelium*، إلخ، وقالت العربية (إنجيل) كما تعلم، وقال السريان (أنجليون) (التي حكاها عنهم القرطبي في تفسيره فرسمها بالكاف (أنكليون) لأن الجيم السريانية هي الجيم القاهرية، لا يصح عنده رسمها بجيم عربية القرآن). أما الإنجليزية فتصدت لترجمتها على ما شاعت به، فقالت *Gospel* (التي أصلها *good + spell*) بمعنى القول الطيب، تريد (البشارة). وأما الترجمة العبرانية للأناجيل اليونانية فقالت (بسورا) تعني البشارة حرفيًّا. وهذا يدلك على أن ترجمات الأناجيل جميعًا ومنها العربية والسريانية استبقت اللفظ اليوناني على أصله. فيما عدا الإنجليزية والعبرانية اللتين تصدتا لترجمته، فأخطأتا كلتاهما كما سترى.

---

(١) لا تنطق اليونانية حرف الجيم مشددًا، وإنما تحيل الأول في النطق نونا، ومن هنا ينطقون *gg* التي في *euaggelion* لا *gg* بل *ng* *(gg = ng)*.

هذا الخطأ الشائع الذي وقع فيه المترجمان الإنجليزي والعبراني منشؤه أنهما ترجما (المفهوم) الذي شاع، لا (الأصل) اليوناني في لغته اليونانية. لأن المقطع الثاني في هذه اللفظة (إن حسبتها يونانية) هو (أنجليون) *aggelion* وهو مأخوذ من (أنجليو) *aggelio* يعني (الرسالة)، اشتقاقًا من (أنجلوس) *aggelos* يعني الرسول المرسل (ويطلقها اليونان أيضًا على الملك واحد الملائكة ومنها *angel* الإنجليزية، مثلما تفعل العبرية والآرامية في (ملآخ) التي تستخدم بمعنى الملك واحد الملائكة وبمعنى الرسول واحد الرسل). (أنجليون) إذن معناها الرسالة لا الخبر. أما المقطع الأول *eu* فهو بادئة يحلى بها ما بعدها (أنجليون) فتفيد التقريظ والتحميد كما في *eu – genis* يعني حسن التربية فهو المهذب، وكما في *eu - geustos* يعني حسن المذاق، فهو السائغ الشهي، أو تفيد الخير كما في *eu – logia* أي قول الخير، يعني المباركة والتبريك، أو تفيد المبالغة في تحقق الصفة في الموصوف كما في *eu – pathis* يعني الشديد الحساسية، فهو الهش الرقيق. من هنا تتيقن أن هذا اللفظ اليوناني المركب (إڤنجليون) *eu – aggelion* ليس معناه الخبر السار أو الخبر الحلو أو الخبر الطيب، أو الخبر نعم الخبر، وإنما هو محض (الرسالة) حلاها كتبة الأناجيل بهذه البادئة eu التي تفيد التقريظ والتحميد، أو ما شئت من معاني هذه البادئة اليونانية على ما أوردناه آنفًا.

وربما قيل لك إن (الرسالة) من معنى (الخبر) قريب، وما يدريك أن كتبة الأناجيل أرادوا معنى (الخبر) فقالوا في موضعه (رسالة)؟ ولا يصح هذا، **أولا** وقبل كل شيء لأنك تأخذ القائل بما قاله لا بما أبطنه، **وثانيًا** لأن الذي لا يفرق بين معنى الخبر ومعنى الرسالة، لا يفقه من أمر لغته شيئًا، فلا تأتمنه على شيء مما كتب في هذه الأناجيل **وثالثًا** لأنهم لو أرادوا الخبر الطيب أو الخبر السار لقالوا ببساطة *kalo neo* (مفرد *kala nea* اليونانية مكافئة *good news* الإنجليزية)، ولما تمحلوا هذه الصيغة المخصوصة *euaggelion* التي لم تسمع قط من اليونان قبل المسيح، **ورابعًا**، وهو الفاصل الحاسم، لأن (إڤنجليون) *euaggelion* هذه لو كانت تعني يونانيًا البشارة أية بشارة، أو الخبر السار أي خبر سار، لصلحت في اليونانية بهذا

المعنى في غير اسم (إنجيل المسيح)، ولكنها جمدت في الاستعمال علمًا على ما جاء به عيسى، لا تصح في غيره كما يعرف علماء تلك اللغة.

لن تحتاج بالطبع إلى أن أدلك على الفرق بين معنى الرسالة ومعنى الخبر: الرسالة تقتضي (مُرسِلًا)، (رسولًا)، (مرسلًا إليه)، والخبر لا يحتاج إلى أي عنصر من هذه العناصر الثلاثة، فقد ينتقل الخبر بذاته، وقد ينتقل ممن يحرص على إخفائه فيذهب لمن لا يعنيه الخبر ولا يأبه به. والرسالة لا تتضمن خبرًا بالضرورة، بل بالأحرى طلبًا أو تكليفًا، وهي في الغالب الأعم تشترط ردًّا، ولكنها في أقل القليل تنتظر (استجابة). وليس الخبر أو النبأ من هذا كله في شيء.

وقد استشعر المترجم العربي حرجًا من إضافة (الإنجيل) إلى الله في مثل قول مرقس: (وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يَكْرِزُ بإنجيل الله)[1]، فقالت ترجمة الفاتيكان العربية (يكرز بإنجيل ملكوت الله)، أضافت من عندها لفظة (ملكوت) فاصلًا بين الإنجيل والله. أما ترجمة الكنيسة الأرثوذوكسية المصرية فقالت (يكرز ببشارة ملكوت الله)، رفعت (إنجيل) ووضعت في موضعها (بشارة) وأضافت هي أيضًا لفظة (ملكوت) فاصلًا بين (البشارة) (التي هي الإنجيل) وبين (الله). أما حين جاءت لفظة (الإنجيل) منفردة في الفقرة التالية مباشرة: (ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل)[2]، عندئذ تركت لفظة (الإنجيل) على أصلها في الترجمتين. هذا التحرج من إضافة (الإنجيل) إلى الله ناشئ عن فهمهم الإنجيل بمعنى الخبر السار أو البشارة، ولا يصح أن تكون لله بشارة؛ لأن عيسى هو المبشر، لا الله، أو هو الكاروز أي البشير النذير آراميًّا. ولو قد فهموا (إنجيل) بمعنى (الرسالة) على أصلها اليوناني، لاستقام الفهم واستقامت العبارة (يكرز برسالة الله).

ولولا أنني لا أقول بيونانية لفظة (إنجيل) على ما سيأتي بيانه، لقلت لك إن المعنى في

(١) مرقس ١/ ١٤.

(٢) مرقس ١/ ١٥.

عبارة مرقس (يكرز بإنجيل الله) يعني (يبشر بإنجيل الله)، هو البشارة التي في الأناجيل بمقدم محمد ﷺ، فتفهم من عبارة مرقس لا (يبشر بإنجيل الله) وإنما (يبشر برسول الله).

ولكنني لا أحتاج إلى هذا، لأنني أقول بأن المعنى بعبارة (ملكوت الله) التي في مرقس وأمثالها: (قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله)(1) هو (رسول الله) تسمية بالمصدر على المبالغة والتفخيم، لأن (ملكوت) عبريًا وآراميًا كما يعرف علماء هاتين اللغتين (مع إبدال كافها خاء في النطق لا في الرسم) تعني (الرسالة) لا (المُلْك)، فلا يبعد أن تشتبه على كتبة الأناجيل بلفظة (مَلِكُوت) المكسورة اللام بدلًا من فتحها، والتي تعني المُلْك والمملكة، فترجموها باليونانية حيثما وردت بلفظة *(Basileia)* يعني (المملكة) التي حسنتها الترجمات العربية فقالت: (مَلِكُوت). فقد أراد المسيح إذن أن الزمان كمل واقترب مجيء الرسول الخاتم. تجد مثل هذا في قولهم في صلواتهم: (أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك) أي فليأت رسولك، قائل جميع الحق، خاتم النبوات. عليك كلما قرأت في هذه الأناجيل لفظة (الملكوت) منسوبة إلى الله عز وجل أن تفهم منها مباشرة رسول الله محمدًا ﷺ: إنها (أنجلوس) اليونانية في هذا الموضع بالذات *Aggelos* لا المملكة والملكوت *Basileia*. عندئذ يستقيم الفهم وتستقيم العبارة. لن يقبل هذا بالطبع علماء المسيحية، وإلا لآمنوا من قبل بالقرآن وبمحمد ﷺ. ولكنني أقوله لك أنت كمسلم يقرأ في هذه الأناجيل ويريد أن يقع فيها على حقيقة وحي الله على عيسى، أقرب ما يكون إلى ما نطق به المبشر بخاتم النبيين.

عليك فقط أن تفهم الأب بمعنى الرب، والابن بمعنى البار أو الصفى المختار، وأن الملائكة التي في الأناجيل تجيء أحيانًا بمعنى الرسل، وأن الملكوت حين يبشر بمجيئه واقتراب زمانه إنما هو (رسول الله) محمد ﷺ، وأن تفهم لفظة *euaggelion* (الإنجيل) إن حسبتها يونانية لا بمعنى البشارة أو الخبر السار، وإنما بمعنى (الرسالة) أو (الرسول)، لا سيما أن زيادة النون في (أنجليو) التي أصبحت (أنجليون) تنسخ الاسمية على المصدر وتردها إلى الاسمية على الفاعل، فهي أقرب إلى الرسول منها إلى الرسالة.

(1) مرقس ١/ ١٥.

أما وقد وضح لك أن (إڤنجليون) *euaggelion* لا تعني البشارة، وإنما تعني يونانيًا (الرسالة)، وهو المعنى الذي يقلب مفهوم (البشارة بمغفرة الخطايا) عند علماء المسيحية رأسًا على عقب، فليس أمامنا وأمامهم إلا القول بأن (الإنجيل) ليست في الأناجيل على الترجمة للفظ قاله المسيح بلغته، وإنما هي على أصلها العبري - الآرامي الذي نطق به المسيح، جاء في صورة يونانية.

نعم. هذا هو القول الذي به نقول: ليست (إنجيل) يونانية، وإنما هي عبرانية، كما سترى.

* * * *

كان عيسى يتقن عبرية التوراة كما كان ينطقها موسى وهارون، صلوات الله عليهم أجمعين. وهذا من تعليم الله عز وجل إياه: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[1]، فكان يجادل بالتوراة في الهيكل علماء التوراة وهو بعد حدث يافع. وهذا من آيات الله فيه، فقد فسدت عبرية التوراة على ألسنة الناس في فلسطين وآلت إلى رطانة آرامية على ما مر بك في تضاعيف هذا الكتاب. وهو أيضًا الذي نعنيه بأن لغة المسيح، ولغة (إنجيله) أيضًا، عبرية - آرامية، يختلط فيها هذا بذاك.

وقد وضح لديك الآن أن لفظ (البشارة) (وهي بسورا عبريًا) لا يصح اسما لوحي الله على عيسى، ولا يصح أيضًا لفظ (الرسالة) (وهي ملآخوت عبريًا وآراميًا)؛ لأن الرسالة هي منصبه عليه السلام، لا وحي الله عليه، وإلا لتساوى في الاسم التوراة والإنجيل والقرآن، التي هي أعلام على وحي الله على موسى وعيسى ومحمد كل على حدة صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا. ومن ثم لا تصح (أنجليون) *aggelion* اليونانية، سواء أخذتها كما يقولون بمعنى البشارة أو كما نقول نحن بمعنى الرسالة، ولا معنى وراء هذين للفظة (أنجليون) اليونانية، اسما لوحي الله على عيسى. هنا تقطع بأن (أنجليون) اليونانية ليست يونانية، إن كانت هي اسم وحي الله على عيسى كما سماه الله أو سماه المسيح.

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

لا يبقى لديك إذن إلا أن (أنجليون) هذه لفظة بلغة المسيح، اسم لوحي الله على عيسى، نقلها كتبة الأناجيل على أصلها بالخط اليوناني كما سمعت من المسيح نفسه، أخذوها على العلمية المجردة فلم يحتاجوا إلى تمحيص معناها في لغة المسيح، ولم يفسروها للقارئ مثلما فسروا (طاليثا قومي) (قومي يا صبية)، (إيلي إيلي لما شبقتني) (إلهي إلهي لماذا تركتني) وغيرهما، فبقيت لفظة (إنجيل) - كما بقيت التوراة وبقي القرآن - على أصلها في كل اللغات.

إن صح هذا - وهو الصحيح الذي لا يصح غيره بعد كل الذي قلناه ولأنك لا تتصور أن يتسمى وحي الله على عيسى اسمًا علمًا بغير لغة المسيح - فما هي تلك اللفظة العبرانية التي نطق بها المسيح في تسمية (إنجيله) فآلت عند كتبة الأناجيل اليونانية إلى (أنجليون) اليونانية؟

قد علمت أن اليونان يهمسون الهاء فلا تكاد تبين، وأنهم أيضًا لا يستطيعون تشديد الجيم، فيستبدلون من الجيم الأولى نونًا، يكتبون *gg* وينطقون *ng*.

ومرّ بك أيضًا في تضاعيف هذا الكتاب أن أداة التعريف في العبرية هي (ها)، تحذف ألفها عند الوصل ويشدد ما بعدها بديلًا من حذف الألف، كما تحذف أنت في العربية اللام من أداة التعريف (ال) وتشدد ما بعدها في مثل (الشمس) فتقول (أشمس). مثال ذلك في العبرية (تورا): لا يقال عند التعريف (هاتورا) بل (هَتُّورا).

وهكذا يفعل العبرانيون في مثل لفظة (جليون) حين تزاد فيها أداة التعريف: لا يقال (ها جليون)، وإنما يقال (هجليون).

فكيف تنطق أنت (هجليون) العبرية هذه إن كنت يونانيًا يهمس الهاء، ولا يشدد الجيم؟ تسقط الهاء، وتضع موضع الجيم المشددة الحرفين نج، ومن ثم تؤول عندك (هجليون) العبرانية أولا إلى (أجليون) بإسقاط الهاء، ثم إلى (أنجليون) بتغيير الجيم المشددة (ج) إلى (نج)، فتكتب *aggelion* وتنطق *angelion*.

هذا هو بالضبط ما فعله كتبة الأناجيل اليونانية حين أرادوا نطق (هجليون) العبرانية التي سمعت من المسيح في تسمية (إنجيله)، فقالوا (إنجليون) *aggelion*.

أما البادئة (إفـ) *eu* التي ألصقوها بـ (أنجليون) فأصبحت (إڤنجليون) وهي *euaggelion* التي تقرؤها في الأناجيل اليونانية، فهي على التقريظ والتحميد لوحي الله على عيسى، كما يقول المسلم على التمجيد في القرآن: (القرآن الكريم)، (القرآن العظيم)، ونحو ذلك. دليلك في هذا أن السريان حين أخذوا عن اليونان اسم الإنجيل لم يقولوا (إفـ + أنجليون)، وإنما أسقطوا هذه البادئة تمامًا، وقالوها مباشرة على ما حكاه الثعلبي (أنجليون).

أما (جليون) العبرية هذه فهي زنة (فعلون) العبرانية من الجذر العبري (جلا) على معنى التجلية والجلاء والتبيين، كما قالوا من (يثر) يِثرون (حمو موسى) وكما يقولون من (علا) العبرانية (عليون) على المبالغة في العلو والتسامي.

وفي العبرية المعاصرة (جليون) أخرى هي هي رسمًا ونطقًا، معناها (الصحيفة)، ومنها (جليون أشوم)، أي صحيفة الاتهام، يعني (بيان) التهم المسندة.

وفي عبرية التوراة أيضًا (جليون) مثلها ((وقعت في سفر أشعيا بصورة الجمع، أي (هجليونيم)))[1]، معناها (المرآة)، لأنها الجالية المجلوة.

ومن طريف ما ذكره (إنجيل برنابا) الذي أنكرته الكنيسة، قول المسيح لتلاميذه يصف إنجيله وكأنه يفسر التسمية: (حينئذ قال التلاميذ حقًّا إن الله تكلم على لسانك، لأنه لم يتكلم إنسان قط كما تتكلم. أجاب يسوع: صدقوني إنه لما اختارني الله ليرسلني إلى بيت إسرائيل أعطاني كتابًا يشبه مرآة نقية نزلت إلى قلبي حتى إن كل ما أقول يصدر عن ذلك الكتاب. ومتى انتهى صدور ذلك الكتاب من فمي أصعد عن العالم. أجاب بطرس: يا معلم هل ما تتكلم الآن به مكتوب في ذلك الكتاب؟ أجاب يسوع: إن كل ما أقوله لمعرفة الله ولخدمة الله

(١) راجع العهد القديم في نصه العبراني، أشعيا ٣/ ٢٣. وأيضًا النص العربي، حيث تجد مرآة مجموعة على (مرائي) لا (مرايا)، وكلاهما جمع تكسير صحيح.

ولمعرفة الإنسان ولخلاص الجنس البشري إنما هو جميعه صادر من ذلك الكتاب الذي هو إنجيلي)[١][٢].

ليس بعد هذا بيان في تفسير معنى (إنجيل) عبريًّا على لسان صاحب الإنجيل: إنه (الكتاب - المرآة)، (هجليون) المرآة الجالية المجلوة. ولا يقدح في استشهادنا بإنجيل برنابا أنه إنجيل أنكرته الكنيسة، فلا مدخل ههنا لإقرار الكنيسة أو إنكارها؛ لأن خصوم إنجيل برنابا أنفسهم يعترفون لكاتب هذا الإنجيل - أيًّا كان كاتبه - بأنه فقيه من فقهاء العبرية، ضليع متضلع من عبرية التوراة خاصة، حتى اتهموه بأنه يهودي أسلم[٣].

الإنجيل إذن هي (هجليون) العبرية من الجلاء والتبيين، آلت على قلم كتبة الأناجيل اليونانية إلى (أنجليون).

وعلى معنى الجلاء والتبيين، فسرت لفظة (إنجيل) في القرآن كما سترى.

فسبحان العليم الخبير، القائل بكل اللغات، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

* * * *

وردت لفظة (الإنجيل) في القرآن اثنتي عشرة مرة، هي: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾[٤]، ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾[٥]، ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾[٦]، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾[٧]، ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾[٨]، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ

(١) برنابا ١٦٨/١ - ٥.
(٢) إنجيل برنابا، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر، ١٩٥٨، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.
(٣) إنجيل برنابا، المرجع المذكور، مقدمة المترجم: (الدكتور خليل سعادة)، ص (٢٢).
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤٨.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٦٥.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٤٦.
(٨) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

ﱡﭐ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﱠ[1]، ﱡﭐ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﱠ[2]، ﱡﭐ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﱠ[3]، ﱡﭐ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِ ﱠ[4]، ﱡﭐ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ ﱠ[5]، ﱡﭐ وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ ﱠ[6].

وأول ما تستظهره من هذه الآيات أن (الإنجيل) كتاب منزل، شأنه شأن التوراة والقرآن، ليس مجرد بشارة أو رسالة، لا تصح فيه معاني (أنجليون) اليونانية إن حسبتها يونانية، وقد مرَّ بك نقضنا ليونانية (إنجيل)، وإنما هو مجمل وحي الله على عيسى، فيما بقي لك منه مما حفظته الأناجيل وصدقت فيه، أعني الذي صدقه القرآن والحديث الصحيح، ولا عليك مما ضاع منه، فحسبك القرآن المصدق المهيمن وفيه الكفاية. وليس معنى (الكتب المنزلة) أنها أنزلت (مكتوبة) في قراطيس، وإنما المعنى أنها مكتوبة عند ربك في اللوح المحفوظ، يتنزل بها ملائكة الله على عباده الذين اصطفى.

وثاني ما تستظهره من هذه الآيات أن (الإنجيل) نُزِّل على ذات القوم الذين أُنزلت فيهم التوراة من قبل، قلما يجيء إلا على الإلصاق بالتوراة قبله أو على التجاور مع هذه التوراة التي أنزل الله على موسى مقصودًا بها بنو إسرائيل، فهو (مُلْحَقٌ) على الأصل، تكملة لوحي الله على بني إسرائيل. وقد قالها المسيح بالنص في هذه الأناجيل: (ما جئت لأهدُم الناموس والأنبياء، وإنما جئت لأكمل)، فلا يصح أن يقال إن الإنجيل ناسخٌ للتوراة، وإنما هو وهي واحد، وإنما الإنجيل جلاء وتبيين، على أن المسيح عليه السلام جاء رحمة لليهود،

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٥) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٦) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

يخفف عنهم بعض الذي شدد الله عليهم، ريثما يجيء الرسول الخاتم، الرحمة المهداة للخلق أجمعين، فهو من هذا الوجه موطئ لخاتَم النبيين.

وثالث ما تستظهره من هذه الآيات أن (الإنجيل) الذي فيه هدى ونور، فيه أيضًا شريعة أحكام، لقوله عز وجل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾، وفي هذا لفتة بليغة إلى حظر الاعتداد بغير ما في الأناجيل من وحيه عز وجل، فلا عبرة بقول يقال من بعد رفع المسيح، كالذي قيل بإسقاط الخِتان واستحلال الخنزير(١)، فلا وحي يتنزل على تلاميذ.

أما معنى لفظة (إنجيل) التي في القرآن، فقد قال المفسرون(٢)، إنها عربية من (النَّجْل) بمعنى الأصل، فالإنجيل على هذا القول أصلٌ لعلوم وأحكام، وقيل هو من نجلت الشيء إذا استخرجته، فالإنجيل مستخرج به علوم وحكم، فقد استخرج الله به دارسًا من الحق عافيًا، وقيل من التناجل بمعنى التنازع، لتنازع الناس فيه، وليس هذا كله بشيء لما مر بك من عبرانية (إنجيل)، وحكى الثعلبي فأصاب أنه في السريانية (إنكليون) (يُريد (إنجليون) بالجيم القاهرية). ولكن المفسرين لم يقعوا على معنى (أنجليون) السريانية هذه، فلم يتصدوا لتفسيرها، لم يقولوا بشارة، ولم يقولوا أيضًا رسالة، وهذا يدلك على أن معاصريهم من نصارى السريان، وفيهم من برع في الترجمة إلى العربية من اليونانية عبر السريانية عصر تفاسير القرآن، لم يُحققوا أصل لفظة (أنجليون) هذه لا يونانيًا ولا سريانيًا، وإلا لذكره (الثعلبي) الذي حكى عنه القرطبي قوله بسريانية هذه اللفظة (أنكليون). وهو يدلك أيضًا على أن التفسير الذي نقوله نحن بِردِّ لفظة (إنجيل) إلى العبرانية (هَجِّليون) على معنى الجلاء والتبيين، الكتاب - المرآة، الجالية المجلوة، تفسير جديد غير مسبوق، هدانا الله إليه بفضل منه ونعمة، له الفضل وله المن وحده.

والذي ينبغي التنبيه إليه أن القرآن لم يُعرِّب (إنجيل) على الأصل العبراني الذي نقول به:

---

(١) قالها بولس، وأيده فيها بطرس، لرؤيا رأياها كما تقرأ في سفر أعمال الرسل بعد رفع المسيح، واستفظعها برنابا الحواري كما تقرأ في مُفْتتح إنجيله المُنكر من الكنيسة.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ٣ من سورة آل عمران.

(هجليون)، وإنما عربه ناظرًا إلى صورته اليونانية الشائعة على ألسنة الخلق جميعًا عصر نزول القرآن: (أنجليون)، فقال (الإنجيل)، وبقيت (الإنجيل) أعجمية تحتاج من القرآن إلى تفسير على منهجنا في هذا الكتاب.

فبماذا فسر القرآن (إنجيل)؟ فسره بأدق مرادف وأبينه: إنه (البينات)، أي (الجليات الواضحات)، وليس أقربَ من هذا إلى العبرانية (جليون) الجلي المجلو. جاء بها القرآن بلفظ الجمع لإفادة إنزال الإنجيل على المسيح تباعًا، شأن القرآن، لا شأن التوراة المنزلة على موسى دفعة واحدة في الألواح.

لم يفسر الإنجيل في القرآن بالترادف على التجاور، وإنما رفع القرآن لفظة (إنجيل) من الآية ووضع في موضعها (البينات)، وكأن (البينات) من أسمائه، وهذا أبلغ في تفسير القرآن بالمرادف.

قال عز وجل في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[1].

وقال عز وجل يُجانس البينات على إنجيل: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[2]، ومثلها بذات نصها في نفس السورة (البقرة: ٢٥٣)، وأما الحاسمة القاطعة في أن (الإنجيل؟ هو المعني بلفظ (البينات) فقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[3]، يصف فيها عيسى (البينات) التي جاء بها بأنها الحكمة وبيان الذي اختلفوا فيه، لا يصح فهم البينات في هذه الآية بالذات بمعنى المُعجزات التي أجراها الله على يديه بتأييد من روح القدس، وإنما هي وحي الله على عيسى الذي في الإنجيل، إذ لا يصح وصف المعجزات بأنها (الحكمة) أو بأنها (بيان الذي اختلفوا فيه). وقد أوتي عيسى أمرين: البينات، أي الإنجيل، ثم المعجزات التي **(أيده الله**

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٣.

فيها بروح القدس)، لا يصح الخلط بين هذا وذاك، وقد فسر القرطبي في تفسيره الآية ٨٧ من سورة البقرة لفظ البينات بأنه الحجج والدلائل، وهذا جيد، فليس وحي الله على رسله إلا هذا، ولكنه لم يعلم معنى (الإنجيل) في أصله الأعجمي (هَجِّلْيُون) الجَلي المَجْلُوُّ، ولو علمه لما تردد في تفسير البينات بالإنجيل نفسه، كتاب الله على عيسى.

ولكن، كيف تطلب من أهل التفسير على عهد القرطبي رحمه الله في القرن السابع الهجري أن يعلموا علم ما لم يعلمه أهل الإنجيل أنفسهم حتى كتابة هذا الكتاب الذي نكتب: معنى لفظة (إنجيل) في أصلها العبراني الذي نطق به المسيح عليه السلام؟

هذا الفضل من الله، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، والحمد لله رب العالمين.



(٥٨) النصارى

(النصارى) في القرآن ومفردها ((نصراني)) هم أتباع المسيح عليه السلام، نسبة إليه، لنعته في الأناجيل بأنه (يسوع الناصري)، أي الذي من (الناصرة)، وهي بلدة في الجليل شمالي فلسطين نشأ فيها المسيح، فيقال (الجليلي)، (الناصري)، وقد كانت تقال فيه من خصومه على التحقير والاستهانة، لأنه (لا يأتي من الجليل شيء صالح)، ولكن يشاء ربك بهذا الجليلي المبارك أن يستطير ذكر الجليل والناصرة خفاقًا في العالم، ولولاه لما كان للناصرة في العالم ذكر.

كان الأوروبيون قبل شيوع النصرانية فيهم يومئون إلى المسيح عليه السلام بأنه ذلك الرجل الذي من الناصرة استخفافًا، يريدون الحط من شأنه ومن شأن أتباعه، فاصطبغ اللفظ عندهم بصبغة الذم، وعندما فشت النصرانية فيهم ودخلوا هم أنفسهم في دين (الناصري)، أنفوا أن يقال فيهم نصارى من تلك الناصرة، وآثروا الانتساب إلى المسيح نفسه، فقالوا (مسيحي)، (مسيحيون)، أتباع هذه (المسيحية) التي جاء بها المسيح.

لم يكن هذا هو تاريخ لفظة نصارى ونصراني في المشرق، فقد تمسك أتباع المسيح في فلسطين بالانتماء إلى هذا الناصري الذي من الناصرة، بل قل وجدوا فيها شرفًا لا يعدله شرف، يتحدون به المعرِّض والمستهزئ. ومن فلسطين شاعت اللفظة في كل شبه الجزيرة على أتباع المسيح، لا يُقال إلا نصارى، ونصراني، يعتنق (النصرانية) منسوب إلى هذا الناصري المُبارك، صلوات الله عليه.

وقد ظلت لفظة نصارى ونصرانية علمًا على أتباع هذا الدين عند جميع الناطقين بالعربية

حتى أوائل هذا القرن العشرين، خاصتهم وعامتهم، نصارى وغير نصارى، لا تعرف غيرها ألسنتهم وأقلامهم. ولكن، ما إن غُلب هذا الشرق العربي على أمره تحت وطأة الغزو الأوروبي الكاسح ماديًّا وفكريًّا منذ أواخر القرن التاسع عشر، وفشت في الناس لوثة التطبع بطباع الغالب، واطَّلع (المثقفون)، أو قل أدعياء الثقافة، على تاريخ لفظة (النصراني) في (الغرب) حتى أنفوا منها هم أيضًا، فأمسكوا عن إطلاقها على أتباع المسيح، واستبدلوا منها (المسيحي)، (المسيحية) لا تكاد تسمع اليوم غيرهما في موضع (نصراني) ونصارى، ونصرانية، حتى بات يقع اللفظ - أعني نصراني ومشتقاتها - في سمعك غريبًا، وربما جَفَلَ منه (المسيحي) حين يسمعه منك. وما ذاك إلا لأن فكر هذا الشرق العربي المغلوب على نفسه وعقله وفكره، بات فكرًا مترجمًا، ينطق بما يسمع لا بما يُحس: يقرؤها *Christian* أو *Chrétien* فيقول (مسيحي)، ولو وقع فيما يقرؤه بلسانهم على *Nazarene* أو *Nazaréen* لقال (نصراني)، غير مبال، ولو فطن وفطنوا لأدركوا أن المسيح والناصري سواء، كلاهما منسوب إلى المسيح الناصري، عيسى ابن مريم صلوات الله عليه. لا مسيح سواه.

والذي ينبغي التنويه به أن العبرية المعاصرة لم تفعل ما فعله العرب بلغتهم فلا تزال العبرية تقول (نوصري)، (نوصريم) (وأيضًا (نصراني)، (نصرانيم) تعني النصراني والنصارى، وتقول أيضًا: (نَصْرُوت)، تعني النصرانية دين المسيح.

أما القرآن فقد قال: (النصارى) على أصل ما نطق به أصحاب الملة أنفسهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾[1].

وقد علم مفسرو القرآن[2]، كما علم العرب جميعًا قبل نزول القرآن بستة قرون - أي منذ نشأة النصرانية، أن لفظة (النصراني) هي نسبة إلى بلدة (الناصرة) بالشام التي جاء منها المسيح، وانتسب إليها أتباعه، ففسروا لفظ (النصارى)، (النصراني) في القرآن على هذا المعنى، الذي أصبح علمًا على دين المسيح، لا مجال للقول بغيره.

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ٦٢ من سورة البقرة.

على أن بعض المفسرين[1] حاولوا اشتقاق لفظ (النصارى) من النصر والنَّصْرة، ربما لأن (النصارى) تصلح جمعًا لـ (نَصير)، مثلما تقول (نَدَامى) في جمع (نديم)، فَهُمُ (الأنصار)، الذين انتصروا للمسيح، فسعوا في نشر دينه بعد أن رفعه الله إليه، وربما أيضًا تنسيقًا على قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[2] فهم النصارى، أنصار الله.

ولا يصح هذا من وجهين: الأول أنه لو كانت نصارى بمعنى أنصار لكان المفرد (نصير) أو (أنصاري) لا (نصراني)، التي وردت في القرآن مرة واحدة في قوله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[3]، والثاني الذي لم يعلمه هؤلاء المفسرون الذين لا يعرفون العبرية والآرامية - لغة الحواريين أتباع المسيح - أن الحواريين حين قالوا: (نحن أنصار الله) التي في القرآن، لم يقولوها بالعربية، وإنما قالوها بلغتهم هم، فلم تقع في عبارتهم مادة (نَصَرْ) العبرية الآرامية، لأن (نَصَرْ) عبريًّا وآراميًّا ليس هو بمعنى (نَصَرَ) العربي من النَّصرِ والنُّصْرَة كما سترى، فلا يصح افتراض تطابق المعنى بين (نصارى)، (أنصار).

على أن نُصرة الله عز وجل لا تصح في تسمية ملة بعينها دون غيرها من الملل، كي تختص بها النصرانية فحسب، وإنما الانتصار لله عز وجل فرض على كل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وقوله عز وجل في خطاب المسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[4] لا يصح بالطبع فهمه على أنه دعوة للمسلمين إلى الدخول في النصرانية ترتيبًا على أن النصارى هم أنصار الله على قول هذا القائل، وإنما هي دعوة إلى الاقتداء بالذين قالوا نحن أنصار الله ثم عَمِلوا بها فكانوا أنصار الله، لا يصدق هذا في كل الذين قالوا: (إنا نصارى)، وإنما هو فحسب فيمن قالها واصطبر عليها فكان من أهلها، حَوَاريًّا وغير حواري، نصرانيًّا وغير نصراني.

(١) راجع القرطبي في نفس الموضع.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.
(٤) سوة الصف، الآية: ١٤.

ليس أنصار الله من صحابة عيسى - من صدق منهم ما عاهد الله عليه فعمل بها واصطبر عليها - إلا كأنصار يثرب، رضي الله عنهم جميعًا ورضوا عنه.

ولئن كانت (النصراني) في أصل اشتقاقها نسبة على الموضع، أعني إلى تلك (الناصرة) التي بالشام التي نشأ فيها المسيح فسمي المسيح الناصري، فليس مفهوم لفظة (النصراني) كذلك، وإنما هي نسبة إلى المسيح نفسه، فهي نسبة إلى (الناصري، لا إلى (الناصرة)، ومن هنا يفترق مفهوم (الناصري) عن مفهوم (النصراني) التي لا تصح إلا في أتباع المسيح، وإن لم يكن (النصراني) ناصريًّا من أهل الناصرة.

والذي تتوقعه من القرآن - وفق منهجنا في هذا الكتاب - أن يُفسر لفظة النصراني والنصارى لا على التبعية للمسيح الناصري، فهذا مفهوم معلوم لكل عربي يتلو القرآن أو يتلى عليه القرآن، وإنما الذي تتوقعه من القرآن أن يفسر (النصراني) ومشتقاتها على أصل مادتها التي نُحِتَت منها في لغة المسيح العبرية - الآرامية، فيفسر لك معنى (الناصرة) ذاتها المنسوب إليها الناصري، أعني أن يفسر لك مادة (نصر) العبرية الآرامية، التي اشتق منها اسم (الناصرة).

فماذا تعني مادة (نَصَرْ) عبريًّا وآراميًّا؟ ليست هي النَّصْرُ والنُّصرة كما في العربية، وإنما هي بمعنى حرس وحَفِظ وراقب ورعى، فهي كُفء (نَطر) العربي بالطاء. ومن شواهد هذا، تقرأ في سفر أشعيا: (في ذلك اليوم غَنُّوا للكَرْمِة المُشتهاة، أنا الرب حارسها)[1] - تجد حارسها في الأصل العبراني (نُصِرَاه). فكأن (نُصِير) (زنة الفاعل عبريًّا من (نَصَرْ) العبري) يعني (الناطور) التي في شطر بيت المتنبي: (نامت نواطير مصر عن ثعالبها). وتجيء الرعاية أيضًا في (نصر) العبري بمعنى المراعاة والتقيد والالتزام والاتباع، ومنها: (نُصِرْي بريتو)، يعني (حفاظ عهده)، أي عهد الله وميثاقه، يعني المتبعون وصايا التوراة الذين يُراعون تعاليمها.

(١) أشعيا ٢٧/ ٢ - ٣.

وبهذا المعنى الدقيق، الاتباع والمراعاة، حُفاظ العهد، فسر القرآن الأصل الأصيل للفظة (النصارى) الذي في مادة (نَصَرْ) العبري. وسبحان العليم الخبير.

وردت لفظة (النصراني) على المفرد مرة واحدة في القرآن كما مر بك. وجاءت لفظة (النصارى) على الجمع أربع عشرة مرة في القرآن. وليس في أي من هذه المرات الخمس عشرة تفسير لأصل مادة النصراني والنصارى.

ولكنك تجد هذا التفسير جليًّا بينًا في قوله عز وجل يصف أتباع عيسى ابن مريم: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1]. أي ما كتبنا عليهم من هذه الرهبانية التي ابتدعوها إلا ما كان منها يُراد به ابتغاء رضوان الله. ولكنهم لم يرعوا هذه (الرهبانية) حق رعايتها، أي لم يحسنوا ابتغاء رضوان الله بها، فكأنهم أهدروها، ولم يرعوها وهي (لوْ نَصِرُوها) (عبريًّا).

ليس بعد هذا بيان، فأي إعجاز وأي علم.

ولا ينقضي القول في مبحث (النصارى) قبل التصدي لتأصيل معنى لفظة (الحواريين) التي سمى بها القرآن صحابة عيسى عليه السلام. وخلاصة قول المفسرين في هذا[2] - ولم يوفقوا فيه - هو اشتقاقها من (الحَوَر) على معنى البياض، واخترعت في تأييد هذا روايات لا سند لها في المصادر المسيحية، فقيل لبياض ثيابهم (وليس بلازم) وقيل كانوا (قصَّارين) صنعتهم تبييض الثياب (وليس بصحيح) وقيل كانوا صيادين (وهذا وإن صح لا يوجب التزام الثياب البيض) وقيل على المجاز لبياض قلوبهم أي نقاء سريرتهم (ولا يصح هذا في حق يهوذا الإسخريوطي بالذات الذي وشى بالمسيح). وقيل أيضًا إن الحواري هو الصاحب

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ٥٢ من سورة آل عمران.

الناصر. لقوله ﷺ: «لكل نبي حَوارِيٌّ، وحَوارِيَّ الزُّبَير»! وهذا الحديث وحده كاف في امتناع تأصيل معنى (الحواري) على (الحَوَر) بمعنى البياض، بياض الثياب، أو تبييض الثياب أو الاشتغال بصيد السمك، فلم يكن الزبير بن العوام رضي الله عنه هذا أو ذاك، ولا على المجاز من بياض القلب ونقاء السريرة، لا لِمَغْمَزٍ - معاذ الله - في بياض قلب الزبير رضي الله عنه ونقاء سريرته وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وإنما لأنه واحد من كثير من صحابة رسول الله بيض القلوب أنقياء السريرة فلا يصح أن ينفرد وحده بلفظ الحواري على هذا المعنى، ولا يصح أيضًا انفراده وحده بالتسمية على معنى الصاحب والناصر وصحابة رسول الله رضي الله عنهم جميعًا كانوا كلهم هذا الصاحب الناصر، فضلاً عن أن الصُّحبة والنُّصرة لا مجال لاشتقاقها من الحَوَر على معنى البياض.

الصحيح أن (الحواري) مشتقة من حار / يحور، بمعنى رجع، ومنه في القرآن: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾[1]، أي ظن الكافر أنه ليس براجع إلى ربه، وعلى هذا المعنى، قيل لولد الناقة منذ ولادته إلى أن يفطم وينفصل: (حُوَار) بضم ففتح، لأنه يلازم أمه لحاجة الرضاع، لا يبعد عنها قدر رمح في لهوه ومراحه حتى يثوب إليها، أي (يحور)، فهو (حُوار). (الحواري) إذن منسوب إلى هذا (الحُوار) على المماثلة، لأن صحابة عيسى عليه السلام كانوا فتية أيفاعًا، شأن الزبير رضي الله عنه يوم أسلم، وكانوا يلازمون (مُعَلِّمَهُم) لا يفارقون، يرتضعون منه نفحات علم النبوة.

أما لماذا لم يقل القرآن (التلاميذ) (*Mathetai*) اليونانية في أصول الأناجيل المترجمة إلى كل اللغات بلفظ (التلاميذ)، وهي في الترجمة العبرية (تَلْمِيذيم)، وانفرد وحده بتسميتهم (حواريين) ولماذا أيضًا عدل القرآن عن ضم الحاء في (حُوار) الناقة إلى فتحها في (الحواريين)، فهذا وذاك من إعجاز القرآن العلمي الذي لم يفطن إليه أحد، وامتن الله علينا به سبحانه فضلاً منه ونعمة.

---

(١) سورة الانشقاق، الآية: ١٤.

في العبرية الآرامية (لغة المسيح وحوارييه) اللفظ الآرامي (حَڤار) بالفاء المثلثة ويجمع آراميا على (حڤارين)، ومعناه الصاحب الرفيق المخالل (ومنه (حڤرون) العبرية اسم مدينة الخليل)، وهو في العبرية إلى الآن (حڤير) وتجمع على (حڤريم) بنفس المعنى، الصحبة والرفقة والخلة، على التصغير، أي (الصويحب). وكل هذا يكتب في الخط العبري – الآرامي بالباء المنطوقة فاء مثلثة على ما مر بك من قواعد النطق في هاتين اللغتين. وليس أقرب في علم الصوتيات من الانتقال بتلك الفاء المثلثة الآرامية التي في (حڤار)، (حڤارين) إلى الواو العربية فتقول (حوار)، (حوارين).

والقرآن كما تعلم لا يترجم عن يونانية الأناجيل التي لم ينطق بها المسيح وحواريوه، ولكنه يترجم عن (الأصل) الآرامي الذي تنادى به أصحاب عيسى عليه السلام، فيقولون ويقال لهم بالآرامية (حڤارين) (وعلى النطق العربية حوارين)، أما كتبة الأناجيل فقد آثروا النسبة إلى (المعلم)، فكتبوها *Mathetai* أي التلاميذ. وهم لم يفعلوا ذلك على الراجح عندي تواضعًا منهم، وإنما تسجيلًا للواقع وخطابا للقارئ اليوناني بما يفهمه ولا يشتبه عليه، لاختلاط معنى *Philos* و*Syntrophos* إلخ. في اليونانية بمعان أخرى لا تنطبق على الصاحب الملازم: (حڤار) الآرامية، فضلًا عن أن (التلاميذ) أدل في اليونانية على معنى (المصاحب لطلب العلم) الذي كانه صحابة عيسى عليه السلام، أي حواريوه.

(الحواريون) إذن في القرآن تعريب مفسر للفظة (حڤارين) الآرامية (التي تنطق حوارين عربيًا)، جاء بها القرآن منسوبة على المماثلة إلى (حوار الناقة)، على ما مر بك من معناه، فأضاف ياء النسب في آخره فأصبحت (حُواري)، وعدل عن ضم الحاء إلى فتحها فأصبحت (حَواري)، التزاما لأصلها الأعجمي.

وسبحان العليم الخبير، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

* * * *

(٥٩) الصابئون

وردت لفظة (الصابئين) في القرآن ثلاث مرات، هي بترتيب ورودها في المصحف:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[3].

والقرآن في الآيتين الأوليين، التي في (البقرة) والتي في (المائدة) يخاطب أربع فرق: المسلمين - اليهود - النصارى - الصابئين، فقد علمت أن الذين هادوا هم اليهود، أما (الذين آمنوا) فهي اصطلاح قرآني يراد به أمة محمد ﷺ، لأنهم الذين آمنوا به وبالنور الذي أنزل معه، أي هذا القرآن، فهم أهل القرآن، فهي على الصفة، لا على المدح، في هذا السياق بالذات وفي أمثاله في القرآن، يعني أنهم المسلمون، لا أكثر ولا أقل، برهم وفاجرهم. لذلك اشترط القرآن في الآيتين على أهل الفرق الأربع جميعًا - ومنهم المسلمون - لنيل الأجر والدخول في رضوان الله - شرطين: الإيمان بالله وباليوم الآخر، ثم عمل الصالحات،

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ١٧.

شرطان متلازمان، لا يغني أحدهما عن الآخر، ولا يقبل شطر دون شطر، فليس الإيمان بالذي يكتن في السرائر، وإنما هو الذي تصدقه الجوارح من قول وعمل، لا إيمان بغير عمل على مقتضى الإيمان، ولا عمل يصح إن لم ترد به وجه الله عز وجل واليوم الآخر. لم يستثن القرآن من هذين الشرطين أنبياء الله ورسله، وهم المؤمنون سريرة ضربة لازب، فخاطبهم الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1].

وليس معنى هذا أن القرآن يقر أهل الكتاب والصابئين على ملتهم وقت نزوله أو أنه يسلم لمعاصريه من أهل الكتاب والصابئين وتابعي هؤلاء وهؤلاء إلى يوم القيامة بصواب ما هم عليه، أو أنه يترك لهم الخيرة من أمرهم إن شاءوا دخلوا في الإسلام وإن شاءوا بقوا على ملتهم، والكل ناج، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا.

هذه سفسطات وأغاليط لا تنفع المحتج بها من غير أهل القرآن يوم يقوم الحساب لأنه يومئذ يحتج بآية أو آيتين من القرآن الذي أنكره هو من قبل وجحده، ومات وبعث على إنكاره وجحوده، شأنه شأن من يتقدم إلى مصرف بحوالة ينكر هو توقيع صاحبها، فلا يصرف له شيء، إن لم يضبط بتهمة التدليس. الذي يصدق بخبر القرآن في آية أو آيتين فقد لزمه القرآن كله. والذي يكفر بحرف واحد من القرآن فقد كفر به كله، فلا أحد يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، كالذي نعاه القرآن على بني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2]. وإذا كان هذا كذلك، وهو كذلك بالفعل، أفليس في القرآن: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3]؟ أليس يأمر الله في القرآن الخلق أجمع باتباع خاتم النبيين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

ﭐلْأُمِّيِّ ﭐلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1]؟ فما جزاء من يفرق بين الإيمان بالله وبين تصديق رسوله؟ استمع إلى قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[2]. قد قالها خاتم النبيين: «**وايم الله لو سمع بي موسى بن عمران لما وسعه اتباعي**». وقال أيضًا وهي الحاسمة القاطعة: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لم يؤمن بي إلا دخل النار**».

وقد علمت أن القرآن اشترط على هذه الفرق الأربع جميعًا لاستحقاق ثواب الله ورضوانه، الإيمان بالله واليوم الآخر وإتيان الصالحات. ومر بك أنه لا يصح إيمان بغير عمل، ولا يصح عمل بغير إيمان. ومن ثم تقطع بأن أهل هذه الملل الثلاث، اليهود والنصارى والصابئين – من سمع منهم بخبر القرآن ولم يأبه به – فقد افتقدوا بعد القرآن شرطي الإيمان والعمل الصالح، فلا إيمان بالله عز وجل لمكذب برسول الله، ولا يصح عمل بغير هذا الإيمان.

فمن المخاطب إذن من أهل هذه الفرق الثلاث بهاتين الآيتين التي في سورة البقرة والتي في سورة المائدة؟ إنهم اليهود والنصارى والصابئون الذين لم يصل إلى أسماعهم نبأ البلاغ الخاتم: الذين تقدموه ولم يهل بعد زمانه، أو الذين أعقبوه فحيل بينهم وبينه أو تقطعت بهم الأسباب. فلا إلزام بغير تكليف، ولا تكليف بغير بلاغ.

على أن هذا أيضًا لا يعفي أهل هذه الملل الثلاث، الذين حيل بين أسماعهم وبين نبأ القرآن، ومن واجب تصحيح إيمانهم بالله واليوم الآخر بتنقيته مما لم تجئهم به رسلهم، لا يقال ثالث ثلاثة وعندهم في الإنجيل أن الله واحد وليس آخر سواء، ولا يقال نحن أبناء الله وأحباؤه لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة وعندهم في التوراة من الوعيد ما ترتعد له الفرائص وتشيب الرءوس.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٥٠، ١٥١.

أما الآية الثالثة – التي في سورة الحج – فهي تختلف عن الأوليين بأنها تضيف إلى الفرق الأربع، المسلمين واليهود والنصارى والصابئين، فرقتين أخريين هما المجوس والذين أشركوا.

وقد ترتب مباشرة على دخول المجوس والذين أشركوا في هذه الآية، ارتفاع الوعد بثواب الله ورضوانه لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا، ليحل محله الوعيد بيوم الفصل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[1]، يوم يجيء كل أناس بإمامهم، أي يشهد عليهم رسولهم وكتابهم فيحاجون بوحي الله عليهم، الذي حفظوه، والذي أضاعوا منه أو نسوه، ولم يفت القرآن المعجز – وقد دخل المجوسي والمشرك – أن يدحض دعوى المحتج بالمشعوذ والعراف والكاهن، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

أما لماذا ارتفع بدخول المجوسي والمشرك في الآية الوعد بثواب الله ورضوانه لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا، فلأنه لا رجاء عند الله عز وجل لمشرك، والمجوسي أيضًا كذلك لأنه (ثنوي) كما سوف ترى في موضعه، يتقرب بالعبادة لإلهين، إله الخير وإله الشر، الضار والنافع، يضرب هذا بذاك.

وربما قيل لك إن النصراني أيضًا مشرك، لأنه يعدد آلهته، فيقول ثلاثة. وهذا صحيح في ظاهره، غير صحيح في جوهره، لأن المشرك يعبد آلهة متفرقة، متضادة الإرادة، متعاكسة الفعل، يغيظ هذا بذاك، ويستعين على هذا بذاك، ويسترضي هذا بقربان لذلك، أما (الثالوث) عند النصراني فهو وحيد الإرادة، وحيد الفعل، المسيح عنده يصنع مشيئة (أبيه) الذي في السماوات، والروح القدس جبريل لا يتكلم من عنده وإنما يتكلم بما يسمع من الآب، والصلاة عند النصراني صلاة للآب، لا لعيسي ولا لجبريل: (أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء فكذلك على الأرض!)، والتقرب بالابن تقرب إلى الآب، و(موهبة) الروح القدس نعمة من الآب، وخلق السماوات والأرض وما بينهما خلق الآب، والملكوت ملكوت الآب، فهل بقي لعيسى وجبريل شيء

(١) سورة الحج، الآية: ١٧.

أم هما ذات الآب؟ بل قل هل بقي من عيسى وجبريل شيء وقد فنيا أخيرًا في ذات الآب الذي انبثقا منه ليعودا إليه؟ هذا اللاهوت أخطأ الطريق إلى تبجيل عيسى وتعظيم جبريل، فوقع في المحال على الله عز وجل، والمحال على عيسى وجبريل، وما ذاك إلا لأنه تصدى لما لا يحسنه، فليس هو بالواقف عند وحي الله على عيسى شأن المؤمن المذعن، وليس هو أيضًا بالمتفلسف الجيد الذي يحكم مقولته فلا يقع في المحالات. هذا اللاهوت خائض في ذات الله عز وجل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، بل الأدلة من وحي الله عز وجل كلها ضده، ولكن ليس ثم إن تمعنت، جحود لذات الله أو إنكار، فالله الذي يعبده النصراني هو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط والنبيين من قبل ومن بعد، ولكن اللاهوت وقع في الإثم الغليظ فأضاف إليه عيسى وجبريل، ظانًّا أنه يكرم بها عيسى وجبريل، فأضاع عيسى وجبريل. هذه الأغلوطة التي وقع فيه هذا اللاهوت اعتاصت عليه هو نفسه قبل أن تعتاص على من زينها لهم. فما برح يرقع قولًا بقول: إنه يريد التوحيد، لا يملك القول بغيره، فالله واحد وليس آخر سواه، ولو قال غير هذا لذبح القائل قبل أن يقوم من مقامه، ولكنه يريد أيضًا تأليه عيسى وجبريل، شأن الرومان من تأليه عظمائهم وملوكهم بعد رحيلهم، وكأنه مضطر إلى هذا لا يستطيع منه فكاكًا، فلا تدري ما الذي اضطره إليه. إنها معضلة بلا شك، فماذا فعل اللاهوت مجمعًا بعد مجمع؟ أدمج عيسى وجبريل في ذات الله عز وجل فلم يعد لهما خارج ذات الله وجود، فاحتفظ بمقولة التوحيد في وجه المنكرين عليه، أو هكذا ظن، ثم أخرج من ذات الله عز وجل عيسى وجبريل يعملان الأعمال في زي نبي وملك. أفليس الأنبياء رسل الله؟ وأليس الملائكة جند الله؟ فما حاجة الله إلى التزيي بزي عيسى وجبريل؟ أسئلة لا تجد لها جوابًا عند النصراني المؤمن الذي لا التواء فيه. بل هو يحترز كل الاحتراز من مناقشتها بعقله الذي لا يحتمل كل هذا الخلط والتخليط: إنه فحسب يعبد الآب الذي في السماوات، ويحب المسيح، ويعظم الروح القدس، على القرب من الله عز وجل قربًا يعلو على فهم البشر، ويترك التفصيل والتقعيد لأصحاب هذا اللاهوت. وقد علم القرآن هذا من قبل أن يعلمه غيره فقال في خطاب أهل الكتاب مريدًا النصارى بالتحديد:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[1]، خاطب النصارى بيا أهل الكتاب، يذكرهم بكتاب موسى الذي يتعبدون به، وفيه الله واحد وليس آخر سواه، فكيف تقولون ثلاثة وإلهكم هو إله موسى؟ ويذكرهم أيضًا بأن قائل هذه المقولة كافر، وتوعد المصر عليها بالعذاب الأليم يوم يأتي كل أناس بإمامهم: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]. وينبههم أيضًا إلى أن هذا التوحيد المثلث غير مقبول، عبث عابث لا طائل من ورائه إلا الوقوع في الشرك الغليظ، يضاهئون به قول قوم قد كفروا من قبل، فضلوا وأضلوا. أما الذين تولوا كبره من قبل، ففي النار هم فيها خالدون.

هنا تجد في الله رجاء للنصراني المؤمن الذي لا التواء فيه – لا لأصحاب هذا اللاهوت – إن هو نزه ذات الله عز وجل عما لا يليق بجلاله، وأصم أذنيه وقلبه عن سفسطة أصحاب اللاهوت، والله يهدي من يشاء بقرآن وبغير قرآن، وهو أعلم بالمهتدين.

* * * *

والذي تستنبطه من هذه الآيات الثلاث، فتقطع به جازمًا آمنًا مطمئنًا، هو أن دخول الصابئين في معية اليهود والنصارى في الآيتين الأوليين التي في سورة البقرة والتي في سورة المائدة – الداخلين في الوعد بثواب الله ورضوانه لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا – يفيد أن الصابئين هم من اليهود والنصارى قريب، إن لم يكونوا بعض

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

هؤلاء وهؤلاء (صبؤوا) عليهم. أعني أنهم يعبدون ذات الإله الذي عبده إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط والنبيون من قبل ومن بعد، الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت، الله الذي لا إله غيره. وإلا لما جاز دخولهم مع اليهود والنصارى في جملة المؤمنين بالله واليوم الآخر، وثبوت الوعد للصابئين - من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا - بثواب الله ورضوانه، لم يرتفع في الآية الثالثة، التي في سورة الحج، إلا بدخول المجوس والذين أشركوا.

وتلاحظ أيضًا من النسق القرآني في الآيات الثلاث جميعًا، توسط الصابئين بين اليهود والنصارى في الآيتين الثانية والثالثة، التي في المائدة والتي في الحج، حيث قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾[1]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾[2]، بينما هم يجيئون بعد اليهود والنصارى مباشرة في الآية الأولى، التي في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾[3]، فتستخلص من توسط الصابئين بين اليهود والنصارى في الآيتين الثانية والثالثة أن (الصابئين) فرقة من اليهود، سبقوا النصارى في الصبوء (أي الخروج) على توراة موسى القاطعة بتوحيد الله عز وجل لا ولي من دونه، لا (ابن) ولا (روح قدس)، وتستخلص من مجيئهم بعد اليهود والنصارى في الآية الأولى أن الصابئين أخلاط من هؤلاء وهؤلاء، أي من الصابئين من قد كانوا من قبل نصارى، أو أن عقائد الصابئة تجمع نِتَفًا من عقائد اليهود ونتفًا من عقائد النصارى.

وربما استوقفك ما استوقف النحاة من قبل، أعني تعليل ارتفاع لفظ (الصابئون) في الآية ٦٩ من سورة المائدة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ﴾، وهو في موضع نصب، عطفًا على اسم (إن) الذي انتصب به (الذين آمنوا)، وقد علمت أن القرآن لا يخالف (ظاهر) النحو إلا لعلة. يعني أن ارتفاع لفظ (الصابئون) على خلاف ظاهر النحو، مقصود. وقد

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الحج، الآية: ١٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

علمت أن الآية التي في المائدة، التي ارتفع فيها لفظ (الصابئون) على خلاف ظاهر النحو، هي آخر الآيات الثلاث نزولًا، لأن سورة (المائدة) هي من أواخر القرآن نزولًا، نزلت قطعًا بعد (البقرة) وبعد (الحج). والرأي الذي به أقول هو أن ارتفاع لفظ (الصابئون) في الآية التي في (المائدة) جاء ليلفت النظر إلى واقع تاريخي مقطوع به وهو أن (الصابئين) هم بعض الذين هادوا، سبق وجودهم نشأة النصرانية، أعني أنهم فرقة من الذين هادوا، لا فرقة من الذين قالوا إنا نصارى، وإن دخلت في عقائدهم من بعد عقائد نصرانية، أو دخل في زمرتهم من بعد نصارى (صبئوا) على نصرانيتهم. ومن هنا تعلل ارتفاع لفظ (الصابئون) وهو في موضع نصب، بأنه ارتفاع على (القطع)، يعني على الاستدراك، كما لو قيل (إن الذين آمنوا والذين هادوا - والصابئون منهم - والنصارى، إلخ). والارتفاع على القطع هو التعليل الوحيد المقبول عند النحاة لتفسير مجيء الاسم مرفوعًا وهو معطوف على غير مرفوع. (الصابئون) إذن تجيء في الآية التي في سورة المائدة رفعًا على الابتداء بعد القطع، فلا يجوز تفسير الآية إلا به. وهذا عندي من دقيق القرآن في تحديد هوية (الصابئين) كما سترى.

****

يجيء الجذر العبري (صبا) (ويهمز قبل ضمائر الرفع في (صبئو)، (يِصبئو) وأمثالهما) في أصله بمعنى (احتشد). بينما يجيء كفؤه العربي (صبأ، يصبأ، صبوءا) بمعنى برز وانتقل وخرج، وأيضًا هجم (وهذا الأخير باق في معاني (صبا) العبري). وغير بعيد عن هذا صبا / يصبو / صَبْوا، صبى / يصبى / صباء، العربيان بمعنى مال إليه وحن واشتاق، وتقول من (صبأ) العربي أيضًا (صبأت النجوم) يعني طلعت.

ومن (صبا) العبري بمعنى احتشد وهجم، يجيء الاسم (صبا) (ويجمع عبريًا على ((صِبؤوت)) بمعنى الجيش والجند. وكثيرًا ما تلتقي في الترجمة العربية للعهد القديم بعبارة (رب الجنود) التي أصلها العبراني (إلوهي هِصِّبؤوت)، مرادًا منها الله عز وجل، فلا تفهم على التحقيق - مسلمًا كنت أو أهل كتاب - المعنى المقصود من تلك (الجنود).

والذي يقرب لك المعنى – إن كنت من أهل القرآن – قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1]، يعني (ملائكة) الله عز وجل، وهم جنده تبارك وتعالى.

استعارت العبرية إذن لفظ (الجند) لمعنى (الملائكة)، تضع هذا في موضع ذاك. وفي العبرية كذلك (صِبؤوت هَشّمايم) يعني (جند السماء) يعني الملائكة أيضًا.

وكما استعارت العبرية لفظ الجند لمعنى الملائكة، استعارته أيضًا لمعنى (الأجرام السماوية) أي الشمس والقمر والنجوم[2]. هذا الخلط بين (ملائكة) السماء ونجومها يدلك بمحض اللغة على اختلاط عقيدة اليهود بديانة البابليين عبدة الكواكب، الذين (يشخصون) أجرام السماء فيجعلون منها آلهة، مثل (مردوخ) (المريخ على الراجح كما مر بك)، رقباء وحفظة، أو عتاة مردة، أو يجعلون منها في أقل القليل كائنات عاقلة مريدة، مؤثرة فعالة. من هذا في تراث أهل الكتاب تسميتهم إبليس (كوكب الصبح) *Lucifer* يعني (كوكب الزهرة)، وإبليس في عقائد أهل الكتاب كان رئيس الملائكة قبل سقطته في عداوة آدم. ويكفيك هذا مثلًا على توحيدهم بين الملائكة والكواكب. وهذا عندي هو أصل الاعتقاد بالتنجيم وبتأثير النجوم عمومًا ما دامت كائنات مشخصة مريدة فعالة، تضر وتنفع، لا ما يقال لك اليوم بتأثيرها جذبًا أو إشعاعًا في محاولة مغلوطة لتأصيل عقائد باطلة.

ومما يدلك على عقائد البابليين عصر إبراهيم عليه السلام – وقد علمت أنه نشأ ببلدة (أور الكلدانيين) بنواحي بابل جنوبي العراق – ما يحكيه القرآن عن إبراهيم قبل أن يهديه الله إليه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾
فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾
فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3]، وقوله:

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٢) راجع المعجم (هملون هحداش لتناخ) عبري / عبري، المرجع المذكور، مادة (صبا)، الصفحة رقم ٤٩٢.

(٣) سورة الأنعام، الآيات: ٧٦ – ٧٩.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ يعني أن شركهم كان عبادة الكواكب. والذي ينبغي التنبيه إليه أن (الكواكب) في عربية القرآن - لا في عربية المعاجم العربية الحديثة - تشمل أجرام السماء جميعًا، نجمًا وغير نجم، المضيء بذاته والمستضيء بغيره، كما تستظهر من قوله عز وجل: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾[1]. ومجيء الكواكب بصورة الجمع في هذه الآية يمنع من فهمها بمعنى القمر وحده وما في حكمه، أعني الأجرام السماوية (الترابية) التي تضيء ليلًا بانعكاس ضوء الشمس عليها، وإنما الكواكب هنا تعني هذا وذاك، فتدخل فيها النجوم النيرات خاصة.

وقد كان لعقائد البابليين تأثير بالغ القوة في ديانات الشرق الأدنى القديم، لا عبرة بالذي يحكم في بابل، الآراميين أو الأشوريين أو الفرس، وقد اتسع نطاق هذا التأثير في العصر (الهليني) بعد غزوة الإسكندر المقدوني، فتسللت عقائد البابليين إلى أوروبا ذاتها، حيث اختلط الحابل بالنابل، واستطاع هذا الفكر البابلي أن يغزو العقيدة المسيحية في قرونها الثلاثة الأولى. وتكونت من مرقعات هذا الفكر البابلي ملل ونحل، أشهرهم (الغنوصيون) (من *gnosis* اليونانية ومعناها (المعرفة) يعني معرفة الحكمة، وهي معرفة (لَدُنِّية) كما يقول المتصوفة، تهبط على أصحابها من (فوق) فيوضًا، والغنوصية بلا شك ترجمة يونانية لمذهب (المَنْدَعِيِّين) *Mandaeanism* أي المعرفيين، وهي من الآرامية (يداع) يعني (عرف) والمصدر (ميدع)، (مندع) فهو (مندعيًّا) أي (المعرفي)، وقد مر بك غلبة الآرامية على أقطار الشرق الأدنى كله منذ القرن الثالث قبل الميلاد. وقد عانت المسيحية كثيرًا من هؤلاء الغنوصيين في بواكير نشأتها، فدانت بالغنوصية أو اتهمت بها طوائف مسيحية عديدة، طاردها المسيحيون من بعد بسيف قيصر بيزنطة الذي آل إليه منذ القرن الرابع سلطان المسيحية وصولجانها، وكان طبيعيًّا أن تلجأ فلولها إلى تخوم نفوذ بيزنطة، حيث (الفرس) أعداء القيصر، فيتجمعون في جنوبي العراق حيث كانت (بابل).

هذه الفرقة المسيحية (المندعية) أي المعرفية (أعني الغنوصية إن آثرت اللفظ اليوناني

(١) سورة الصافات، الآية: ٦.

الشائع في كتب الفلسفة)، تسميها الكنيسة باسم (مسيحيي القديس يوحنا)، ليس هو بالطبع يوحنا الحواري أو يوحنا صاحب الإنجيل الرابع، وإنما هو يوحنا بن زكريا، يعني بقية من تلاميذ يحيى عليه السلام.

ولا شك أن هذه الملل والنحل التي أضافت إلى وحي الله عز وجل ما لم ينزل به سلطانًا، خلطت سيئًا بصالح، تأخذ نتفًا من هنا ونتفًا من هناك، فأضاعت الأصل وجاءت بمسخ مشوه. مثلما فعلت تلك الفلسفات المتهافتة التي نشأت في مدرسة الإسكندرية فجمعت بين أساطير اليونان وأباطيل البابليين، تحاول صهرها في بوتقة فكر أرسطو وأفلاطون فتكون النتيجة المحتومة فكرًا شائهًا غير متماسك، تلخصه لك فلسفة أفلوطين الأسيوطي الإسكندري.

وتستطيع أن تقول إن عقيدة نيقية التي استمدت من عقائد المصريين في أسطورة إيزيس، لم تبرأ رغم نضالها الضخم ضد (هرطقات الغُنوصيين). من تأثير بابلي قديم، يؤله النجوم، أو الملائكة، أي الوجهين شئت في فهم (صبا) العبرية - الآرامية، عندما ارتأت، بعد رفع المسيح بثلاثة قرون ونصف قرن، تأليه جبريل (النجم - الملك).

أما تلك الفرقة (الغنوصية) المنسوبة إلى يحيى بن زكريا، فقد وفدت في بابل على سلالة من بني إسرائيل تسموا بالصابئة من قبل، وسرعان ما اختلط هذا بذاك.



فقد مر بك أن نبوخذ نصر ملك بابل اجتاح أورشليم وهدم هيكل سليمان أوائل القرن السادس قبل الميلاد (٥٨٦ ق. م) وجعل أهلها أثلاثًا: ثلث في القتلى، وثلث استبقاه في أورشليم، وثلث أخذه سبيًا رجع به إلى بابل. فكان أول جلاءات بني إسرائيل. قضاء قضاه الله في بني إسرائيل جزاء وفاقًا، مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى

بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾[1]، أي كان هذا عقابًا على ظلمهم وإفسادهم. وكم بغى اليهود وأفسدوا من بعد سليمان على نحو ما تقرأ في كتبهم (العهد القديم: الملوك الثاني - أخبار الأيام الثاني): نبذوا عهد الله وراء ظهورهم، فاستحلوا ما حرم الله، واستعان بعضهم على بعض بعبدة النجوم والأوثان، وسجدوا لغير الله، وطاردوا أنبياء الله، بل وقتلوا أنبياء الله. كان منهم زكريا بن بَرَخِيًّا، الذي ذبحوه بين يدي المذبح في الهيكل، فكانت النازلة الكبرى في دينهم هدم هذا الهيكل على رءوسهم، واقتلاعهم من أورشليم، وسبيهم في بابل، وبقي منهم من استبقاه البابليون في أورشليم يلطم على أطلالها وينوح، أو يطلب التقية فيتقرب إلى الغزاة بالمودة، وزاغ منهم من زاغ فشاركوا الغزاة عبادتهم وأضاعوا كتاب الله.

أما سبي بابل، أسارى نبوخذ نصر، فقد كان منهم من نجع فيه تأديب الله عز وجل فعكف على توراته، يستمسك بالعروة الوثقى، مؤمنًا بعدل الله عز وجل فيما أجراه على قومه، الذي جره بنو إسرائيل على أنفسهم بنبذهم هذه التوراة، لا مهرب من الله إلا إليه. وكان منهم أيضًا - كما تتوقع - الفريق الآخر، الذي يلتمس الرفعة بالذلة، فيرتضي الدنية في دينه، لينال الحظوة، فلاينوا واستلانوا، وكان لهم ما تمنوا، بل كان منهم من تسلل إلى بلاط الملك فكان بعض خدامه وحجابه وأعوانه، على ما رأيت في قصة (مردخاي) الذي دفع بابنة أخيه (إستير) إلى أحضان الملك غير مبال متعللًا بأنه يستنقذ بها شعب بني إسرائيل في بابل من مكيدة كادها لهم عند الملك كبير بلاطه، فصارت بها (إستير) بطلة من أبطال اليهود، ليس هذا فحسب، بل سجل لها العهد القديم هذه البطولة في سفر باسمها في (الكتاب المقدس). والذي يجب التنبيه إليه أن هذا الاسم (مُرَدِخاي) معناه بالبابلية الآرامية (المريخي) عابد كوكب المريخ، وهذا يدلك على أن سبي بابل كان منه فريق استهوته عبادة البابليين، عبدة الكواكب، لا يأنف من الاعتزاء باسمه إلى بعض آلهتهم.

وليس معنى هذا الذي قلناه، أن هذا الفريق المنافق من سبي بابل ارتد عن توراة موسى

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٤، ٥.

إلى عبادة البابليين، وإنما معناه أنهم مزجوا بتوراة موسى شيئًا من عقائد البابليين، عبادة الكواكب، أو تعظيم الكواكب، أو في أقل القليل الاعتقاد بتأثيرها وأنها فعالة.

* * * *

وقد مر بك أن الملك أذن من بعد لعزرا الكاتب بالعودة بهذا السبي إلى أورشليم لإعادة بناء الهيكل الذي هدمه من قبل نبوخذنصر. وقد عاد عزرا بلفيف فقط من هذا السبي ولم يعد بهم جميعاً، لقول الملك في رسالته إلى عزرا: (كل من أراد في ملكي من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع معك إلى أورشليم فليرجع)[1]. وقد حرص عزرا في سفره على تعيين العائدين معه إلى أورشليم بأسمائهم وأنسابهم. ولم يسم بالطبع الذين لم (يريدوا) الرجوع معه، الذين آثروا مصالحهم في بابل على الرجوع إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل.

بقيت إذن باقية من هذا السبي في بابل. وكان لا بد مما ليس منه بد. فقد تسللت إلى عقيدة التوراة القاطعة بتوحيد الله عز وجل لا ولي من دونه، التي يدين بها هؤلاء الذين آثروا بابل على أورشليم، تأثيرات بابلية تعظم النجوم - أو الملائكة إن شئت - فجمعوا بين توحيد الله عز وجل وبين الاعتقاد بتأثير النجوم.

والذي يجب أن تعلمه أن البقية الباقية من (الصابئين) في العالم لا تزال تعيش إلى الآن في جنوبي العراق، حيث كانت (بابل).

إنهم إذن سلالة من (الذين هادوا) صبئوا عليهم. والصابئ في العربية يعني الخارج على ملة آبائه، الذي انتقل من عبادة قومه إلى عبادة لم يعرفوها.

ولا ينفع توحيد الواحد الأحد من عبد معه غيره، مهما عظم جرمه، أو مهما بلغ قربه من الله عز وجل، فكل ما عدا الله خلق من خلقه، لا معبود سواه، ولا توسل إليه إلا به، ولا ولي من دونه.

---

(١) عزرا ٧/ ١٣.

أما اسمهم بلغتهم، فهو (صِبائيين) (آراميا)، (صِبائيم) عبريًّا، نسبة إلى (صبا) العبري - الآرامي يعني (النجم - الملك)، والنسبة إليه في الآرامية (صبائي) والجمع (صبائيين)، وفي العبرية (صبائي) والجمع (صبائيم).

إنهم (النجوميون) أو (الملائكيون)، عباد الكواكب أو عباد الملائكة.

وإلى هذا الخلط في مجاز العبرية - الآرامية بين الملائكة والنجوم في مادة (صبا) العبرية - الآرامية، يرجع فيما أرى تفاوت مفسري القرآن في عبادة الصابئين، فريق يقول عباد الكواكب وفريق يقول عباد الملائكة، لتفاوت من ترجم معنى (صبا) العبري - الآرامي لمفسري القرآن من رواتهم الآخذين من أفواه الصابئة هؤلاء أنفسهم.

* * * *

اختلف مفسرو القرآن[1] في عبادة الصابئين فقالت طائفة إنهم فرقة من أهل الكتاب (وهو الصحيح كما مر بك)، وقالت طائفة هم قوم يشبه دينهم دين النصارى (وهذا يؤكد لك اختلاط الصابئة بمسيحيي القديس يوحنا الغنوصيين أو المندعيين المعرفيين) قبلتهم مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح (وقد علمت أن العهد القديم ينسب نوحًا إلى بابل)، وقيل دينهم يتركب من اليهودية والمجوسية لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم (وهذا يدلك على تأثر بعض الصابئة بدين سادتهم الفرس قبل الإسلام)، وقيل بل قوم يعبدون الملائكة يصلون إلى القبلة ويقرءون الزبور ويصلون الخمس (وليس بعد هذا تخليط ولكن الراوي ينقل بلا شك عن صابئة يتملقونه في أرض الإسلام).

وانتهى القرطبي رحمه الله إلى أن خلاصة القول فيهم عند أشياخه هو أن الصابئين موحدون يعتقدون تأثير النجوم وأنها فعالة، وهذا كفرهم.

هذا الخلط في أقوال رواة مفسري القرآن بين عبادة الصابئين النجوم وبين عبادتهم الملائكة، ناشئ، بلا شك عن ازدواج معنى (صبا) العبري - الآرامي لدى أصحاب الملة

(١) راجع تفسير القرطبي للآية ٦٢ من سورة البقرة.

الذين نقل عنهم الرواة تفسير عبادتهم، طائفة تقول للراوي النجوم وطائفة تقول الملائكة، وهم في حقيقة الأمر يعنون شيئًا واحدًا، لأن الملك عندهم نجم والنجم ملك.

قد جمع الصابئون إذن بين عبادة إله موسى وبين عبادة تلك النجوم التي في بابل، جند السماء أو (صبؤوت هشمايم) في العهد القديم، وقد زين لهم التخفيف من غلظة عبادة النجوم التى نعاها آباؤهم على بابل فألبسوا تلك النجوم ثياب الملائكة وفي وهمهم من مجاز عبرية العهد القديم أن النجم والملك واحدًا: (صبا)، (صبؤوت).

وقد كفَّر الملائكة في القرآن من عبدوهم وتبرءوا منهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[1].

وههنا يلتقي الصابئة بالنصارى الذين جمعوا إلى عبادة الله عز وجل عبادة روح القدس جبريل صلوات الله عليه وعلى ملائكة الله أجمعين.

أما (الصابئون) التي في القرآن فهي عربية بلا شك، زنة جمع الفاعل من الجذر العربي صبأ / يصبأ / صبوءا، يعني انتقل، أي انتقل من عبادة آبائه إلى عبادة لم يعرفها آباؤهم. وقد قيلت لمحمد ﷺ وصحابته على الاستنكار من مشركي قريش، فقيل صبأ محمد، وصبأ عمر، إلخ. يعني خرج خاتم النبيين وأتباعه على عبادة قومهم مشركي قريش. وقائلها يقولها على الذم ولا يقولها قط على المدح، صح قول القائل أو لم يصح. وهو لم يصح بالطبع في خاتم النبيين المبعوث لهداية الخلق، ولكنه يصح في الصابئين، صابئة بابل، الذين صبئوا بعبادة النجوم أو الملائكة على توراة موسى.

وقد تقول فلماذا يفرد القرآن (الصابئين) بهذا الاسم، وقد صبأ من قبل ومن بعد كل خارج على دين القيمة، الذين تبدلوا قولًا غير الذي قيل لهم؟

مر بك أن العرب تقول من (صبأ) العربي: صبأت النجوم، يعني طلعت، من صبأ بمعنى برز، كما يقولون صبأ ناب الصبى يعني انشقت عنه لثته، فالصابئ بمعنى البارز البازغ. وعباد

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٤٠، ٤١.

النجوم لا يعظمونها وهي في محاقها، وإنما يعظمونها وهي صوابئ، على ما مر بك من قول إبراهيم عليه السلام في القرآن: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾[1].

على أن (النجم) في العربية تسمية بالمصدر من الجذر العربي (نجم) بمعنى ظهر وبزغ، فهو الذي (نجم) يعني الذي بزغ وصبأ، فالناجم والصابئ واحد حين تعني بهما نجوم السماء، ولكن العربية اشتقت اسم النجوم من مادة (نجم) واشتقته العبرية - الآرامية من مادة (صبا).

من هنا تستطيع أن تقول إن (الصابئين) هم الذين يعظمون نجوم السماء وهي صوابئ: يصبئون إليها كلما صبأت.

احتفظ القرآن بلفظ (صبائيين) الآرامي أو (صْبَائيم) العبري على ما أسمى به الصابئون أنفسهم، فجاء به على التعريب المفسر: إنهم الصابئة، أصحاب النجوم الصوابئ.

وفى هذا التعريب المفسر أيضًا إضافة ومزيد بيان: ليسوا هم عباد النجوم بإطلاق شأن البابليين مخترعي هذه العبادة، ولكنهم الذين (صبئوا) بعبادتها على توراة موسى.

وسبحان العليم الخبير.

****

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٧.

(٦٠) المجوس

وردت (المجوس) مرة واحدة في كل القرآن، بين (النصارى) و (الذين أشركوا) في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1] وقد مر بك.

وهي من الأعجمي المعرب الذي نطق به العرب حوالي القرن الثالث الميلادي قبل نزول القرآن بأكثر من ثلاثة قرون، فهي ليست من معربات القرآن، وإنما هي من مواضعات العرب أنفسهم، يصفون بها جيرانهم الفرس عبدة النيران، وقد أجمع المفسرون[2] على عجمة هذه اللفظة، إلا من شذ منهم فقال على الذم والتحقير إن الميم في (مجوس) مبدلة من النون فهم (نَجُوس)، توصلًا إلى وصفهم بالنجاسة، وربما كان هذا القائل ينظر إلى قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[3]، وهذا عام في كل مشرك، فلا يصح اختصاص المجوس به حتى يسموا على معنى (نجوس). وهو لا يصح أيضًا لأنه لم يسمع من العرب (مجس) بمعنى (نجس). ولا يصح أخيرًا لأن (مجوس) لفظة فارسية بلا مراء كما سترى - إن اعتبرت الميم فيها أصلية لا زائدة - لا أصل لها في العربية لأنه لا أصل لمادة (مجس) الثلاثية في اللغات السامية الثلاث: العربية والآرامية والعبرية.

ومع ذلك، أي على الرغم من فارسية هذه اللفظة في أصلها، فهي تصلح من العربية ذاتها وصفًا للمجوس بعبادتهم، إن أخذتها على المفعولية من الجذر العربي جاس يجوس

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٧.

(٢) راجع تفسير القرطبي للآية ١٧ من سورة الحج.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

جوسًا وجوسانًا، وهو التردد بين الشيئين، وأجاسه يعني جعله يجوس، وأيضًا جاس به، فهو (مجوس) على معنى (مجوس به). ولب عقيدة المجوس كما تعلم هو التردد بين إلهين، إله الخير وإله الشر، يغدو المجوسي عليهما ويروح. ولكن لم يفطن العرب إلى هذا يوم سموا المجوس مجوسًا، فلم يكن لهم علم بما وراء عبادة النيران، ومن ثم لم يفطن إليه أيضًا المفسرون.

والذي ينبغي التنبيه إليه أن لفظة (المجوس) ليست اسم جنس يطلق على شعب أو أمة أو جيل من الناس، كما تقول المصريون والبابليون والفرس والهنود. فلا يجوز على سبيل المثال إطلاقه على شعب إيران اليوم بحسبانهم سلالة من هؤلاء الفرس الذين كانوا أول شعب غير عربي يعتنق الإسلام فيسهم في بناء، حضارته إسهامًا ذا شأن. لا يجوز هذا ليس لأن آباء هؤلاء الإيرانيين أسلموا فحسن إسلامهم وكان منهم أئمة أمثال أبي حنيفة النعمان أقدم أئمة الفقه الأربعة، وإنما أولًا وبالأخص لأن (المجوس) ليست اسم الشعب الذي انحدروا منه وإنما اسم (الملة) التي كانوا عليها قبل إسلامهم، يعني كانوا (فرسًا) قبل أن يكونوا (مجوسًا)، بل لم تكن المجوسية هي الملة التي خلقهم الله عليها، وإنما طرأت عليهم المجوسية حوالي القرن السادس قبل الميلاد، جاءهم بها (زرادشت)، فهم الزرادشتيون (أتباع زرادشت، ولكن (الزرادشتية) لم يكتب لها انتشار خارج حدود موطنها عدا الذي أبق من أتباعها إلى الهند عقيب الفتح الإسلامي فرارًا بملتهم (وهم آباء طائفة *Parsee* (فارسي) التي لا تزال إلى اليوم في الهند يتعبدون النيران في معابد لهم)، ولذا شاعت لفظة المجوس عند العرب علمًا على الفرس أنفسهم، ووصفًا لهم بملتهم.

وقد وقعت لفظة (المجوس) بمادتها في حديث المصطفى ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**». وهذا قاطع حاسم في أن المجوسية دين لا جنس. وبهذا المعنى أيضًا وردت لفظة (المجوس) في القرآن: إنهم إحدى الفرق الست (المسلمون واليهود والصابئون والنصارى والمجوس والذين أشركوا) يفصل الله بينهم يوم القيامة.

على أن (المجوس) أتباع هذه الديانة لم يسموا أنفسهم (مجوسًا) على الرغم من فارسية هذه اللفظة، وإنما أسماهم بها العرب قبل الإسلام، تسمية للديانة باسم كهنوتها.

ولم تقع هذه اللفظة الفارسية في عبرية التوراة إلا مرة واحدة فقط، في عبارة وحيدة وردت في سفر إرميا الذي عاصر السبي البابلي: (ودخل كل رؤساء ملك بابل وجلسوا في الباب الأوسط، نَرْجَل شَرَاصَر وسَمْجَرْنَبُو وسَرْسَخِيم رئيس الخصيان ونرجل شراصر رئيس المجوس وكل بقية رؤساء ملك بابل)(١). وليست هي رئيس المجوس كما ترجمها المترجم العربي لأسفار العهد القديم متأثرًا بلفظة (المجوس) التي في القرآن، وإنما هي في الأصل العبراني لسفر إرميا (راب - ماج) أي (الماج الكبير) يعني كبير كهنة هذا الكهنوت الفارسي الزرادشتي الذي واحده في الفارسية القديمة (ماجو)، (ماجوس). ورغم وقوع كاتب هذا السفر في خطأ تاريخي بين، هو إقحامه رئيسًا لكهنة الفرس بين (رؤساء ملك بابل) في بلاط ملك بابل على عهد نبوخذ نصر ولم تكن بابل قد سقطت بعد في أيدي الفرس حتى يكون للفرس كهنوت في بلاط بابل، فالذي يعنينا هنا أن لفظة (ماج) العبرية المأخوذة من الفارسية (ماجو) لا تعني عنده (المجوس) أتباع زرادشت وإنما هي تعني فقط واحد هذا الكهنوت (الزرادشتي). وهذا (الماج) هو أيضًا الذي تجده على لسان متى في إنجيله: (ولمّا ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود. فإننا رأينا نجمه في المشرق وجئنا لنسجد له)(٢). وقد جاء لفظ (مجوس) هذا في الأصل اليوناني بصيغة الجمع *magoi* على الجمع من *magos* (السين فيه زائدة للرفع) وهي الصورة اليونانية للفظة (ماج) العبرية المأخوذة من (ماجو) الفارسية. ورغم أن متى أخطأ هنا نفس الخطأ الذي وقع فيه كاتب سفر إرميا من قبل بخلطه بين كهنة بابل عبدة النجوم (فإننا رأينا (نجمه) في المشرق) وبين كهنة المجوس أتباع زرادشت عبدة النيران فالذي يعنينا هنا أن *magos* اليونانية لا تعني عنده وعند اليونان واحد المجوس أتباع زرادشت

(١) إرميا ٣٩/ ٣.
(٢) متى ٢/ ١ - ٢.

كما يقول العرب، وإنما هي تعني فقط - ولا تزال تعني في كل لغات الأرض عدا العربية وحدها - (الماج) واحد الكهنوت الزرادشتي لا غير. ورغم أن العبرية المعاصرة استعارت من العرب لفظة (مجوس) بعد تشيين السين كدأبها، فقالت (مجوش)، (مجوشيم)، فهي لا تعني بها واحد المجوس أتباع الملة، أو واحد الفرس عبدة النيران وصفًا للفرس بملتهم كما يقول العرب، وإنما تعني بها نفس الذي أراده منها إرميا ومتى من قبل: الـ (ماج) واحد كهنوت المجوس، أي على أصلها عند الفرس لا على مجازها العربي الذي بات علمًا على أهل الملة جميعًا، كهنوتًا وغير كهنوت.

وهذا يدلك على أن العرب انفردوا بتسمية المجوس مجوسًا، على معنى أهل الملة أجمع، لم يستعيروها من يهود أو يونان أو نصارى، وإنما أخذوها مباشرة على الراجح عندي من أفواه عرب الحيرة الواقعين من قديم في دائرة نفوذ فارس.

أما (ماجو) الفارسية هذه، فمعناها في تلك اللغة (ذو الحول والحيلة)، اسم غلب على رتبة من هذا الكهنوت الزرادشتي برعت في الإتيان بالعجائب حتى نسبت إليهم الخوارق. ومن هذا الجذر البعيد تجيء في الألمانية ′مثلًا *mögen* و *Macht* (وهما في الإنجليزية على الترتيب الفعل *May* والاسم *Might* على معنى القدرة والاستطاعة). ومن (ماجوس الفارسية) أيضًا واحد هذا الكهنوت ذي الحول والحيلة ولدت في اللغات الأوروبية جميعًا اللفظة الإنجليزية *Magic* ونظائرها ومشتقاتها في أخواتها الأوربيات بمعنى السحر الذي يعتمد على الحيلة فيخلب اللب، لا *Sorcery* ونظائرها في اللغات الأوروبية بمعنى السحر الذي يعتمد على الجن والأرواح الشريرة. ولعله قد كان من حيل أولئك الكهنة المجوس تلك النيران التي لا تنطفئ في معابدها وأصلها - كما لعلك حدست الآن - سحابات غاز تتسرب من أرض تعج ولا تزال بالنفط الخام.

ورغم انقطاع الصلة بين معنى الحول والحيلة في (مجوس) على أصلها في لغة أهلها وبين مضمون العقيدة الزرادشتية الثنوية التي تتعبد لإلهي الخير والشر، فقد وفق العرب

كل التوفيق - دون أن يدروا - في تسمية المجوس مجوسًا. إذ ليس لديك شيء من تعاليم زرادشت (الحقيقي) الذي تنتسب إليه هذه الملة، إلا هذه الأڤستا *(Avesta)* ومعناها النص الأصلي) التي شرع في كتابتها أو تجميعها هذا الكهنوت في الربع الأول من القرن الثالث الميلادي بعد ثمانية قرون من وفاة زرادشت وانتهوا من تدوينها في القرن السابع الميلادي، لا تدري على وجه اليقين ما الذي في الأڤستا من قول الكهنة والذي فيها من قول زرادشت. ومن ثم يقتضي الإنصاف - وإن لم يتعمده العرب في هذه التسمية - نسبة أصول الملة إلى هذا الكهنوت نفسه، لا إلى معلمهم.

ولعله لن يفوتك وقد علمت الآن أن الأڤستا كتاب دونه الكهنوت الزرادشتي ما بين القرنين الثالث والسابع الميلاديين، لم ينزل على نبي لهم، زرادشت أو غير زرادشت، مبرر آخر يضاف إلى ما ذكرناه في مبحث (التوراة) يقطع بامتناع إدخال (المجوس) ضمن أهل الكتاب المعنيين في القرآن، أي اليهود والنصارى فحسب، لا عبرة بمن يقول العكس.

****

تقول عقيدة (الأڤستا) التي يدين بها المجوس، إن هذا الكون تحكمه قوتان، الخير والشر، أو النور والظلمة. الأول (هُرْمَزْدا) (وأصلها من الفارسية القديمة (أهورا + مزدا) أي إله الخير، والثاني (أَهْرِمَن) (وأصلها أَهْرِي + من) يعني روح الشر. لا تزال بينهما المغالبة والمدافعة، جولة هنا وجولة هناك، والشر أغلب، حتى ينتصر الخير في النهاية. والإنسان الذي زج به في هذا الصراع - أي هذا العالم - لا يدري علة ما يدور من حوله، إذ ليس هو طرفًا فيه، فهو صراع بين عمالقة. ولكن الضربات تكال له من حيث لا يحتسب، في ظلام دامس لا يدري من أين يؤتى، فهو يصانع هذا الإله وهذا الإله، يدرأ الواحد بالآخر: الأخيار يستعينون هرمزدا على أهرمن، والأشرار يستعينون أهرمن ليكف أذاه عنهم ويحقق أهواءهم.

وربما قلت إن الأشرار أحصف وأحكم، لأنهم لا يريدون ما وراء هذه الحياة الدنيا فقد علمت أن الشر أغلب، وأن إله الخير أو النور (هرمزدا) لا يحقق انتصاره الحاسم إلا في نهاية

العالم. ولكن الأفستا تضع جائزة للأخيار: (الكمال والخلود) في حياة أخرى ينتقلون إليها بعد الموت، لا مكان فيها للشر والأشرار.

ولأن هرمزدا إله الخير مرموز إليه بالنور، كما يرمز بالظلمة إلى روح الشر أهرمن، فقد كان لا بد من تعظيم الشمس والقمر، ضياء يطرأ الظلمة ونورًا يخفف من حلكة الليل. وهاهنا فقط نقطة الالتقاء في مظاهر العبادة بين البابليين عبدة النجوم والكواكب وبين المجوس عبدة النور والنيران. وليست عبادة النيران التي شهر بها المجوس إلا شيئًا من هذا: إنها الاستضاءة، أي استحضار (الإله النور) الذي يطرد (الظلمة) أي روح الشر أهرمن. ولا يصلح في هذا بالطبع الاستعانة بضوء مصباح ثابت اللهب، بار لا بد من نار تتأجج فتبعث (الحياة) في هذا الصراع المحموم بين هرمزدا وخصمه اللدود أهرمن.

وتستطيع أن تقول أن المجوس أحرزوا بعض (التقدم) على الذين أشركوا، ليس فقط لأنهم اجتزءوا بإلهين اثنين عن العديد الذي لا يحصى من آلهة الشرك، ولا لأنهم صنفوا الآلهة في جبهتين، جبهة الخير وجبهة الشر، الضار والنافع، وإنما أيضًا وبالأخص هذا التنظير الذي استحدثوه في عبادات الشرك ليجعلوا لها مغزى، فقالوا بهذا (الصراع) بين إله الخير وإله الشر، يغالبه حتى يغلبه في نهاية العالم.

ولكن المجوس بتجميعهم قوى الشر في واحد، جعلوا من أهرمن عملاقًا لا يغالب لا بد لهم من تعظيمه حتى يكف أذاه عنهم إن ضعف هرمزدا عن نجدتهم أو تباطأ.

أما الذين أشركوا فهم يتعاملون مع آحاد آلهتهم فرادى، يضربون هذا بذاك، فضلًا عن أنهم لا يشخصون الخيرية أو الشرية في إله دون إله، ليس من آلهتهم خيِّرٌ بذاته أو شرير بذاته، بل الكل يقبلون الرشوة، أي الأتاوات والقرابين. والكل أيضًا خرب الذمة، لا يبالي إلا بمن يزايد عليه فيدفع أكثر. إنهم إن تمعنت جند مرتزقة لا آلهة تعبد، خدام لا سادة، ولا خير بالذات ولا شر بالذات، وإنما هما الضر والنفع الفرديان ههنا والآن تختار لنفسك ما يحلو وبيدك الميزان، لا حاجة بك إلى هرمزدا أو أهرمن.

المجوس إذن هم الثنوية، فرقة من الفرق الست يفصل الله بينهم يوم القيامة.

ومن إعجاز القرآن في أنباء القرآن أنه يلخص لك في الآية ١٧ من سورة الحج عبادات الخلق جميعًا عصر نزوله وإلى يوم القيامة، لا تخرج عن هذه الفرق الست ملة من الملل، متدرجًا بهم من الذين آمنوا، أصحاب التوحيد الخالص، إلى الذين أشركوا أصحاب الآلهة المتعددة المتضادة، يحجرونها أوثانًا وأصنامًا، أو يتمثلونها في (قوى الطبيعة)، المياه والرياح والأفلاك والنجم والشمس والقمر، والبراكين والصخر والشجر والجبل، إلى آخر ما تعلم. ولا مخرج عن هذا بالطبع (المبطلون) الذين يقولون ليس البتة من إله بل هو العالم السائر بذاته، بمحض قوانينه، التدافع والتضاد والتفاعل، لأن إله هؤلاء المبطلين هو هذا (العالم) بكل أشتاته، ومن يهن الله فما له من مكرم.

بين هذين الطرفين – الذين آمنوا والذين أشركوا – تجيء على التتابع الفرق الأربع: اليهود الذين هادوا ثم لم يهودوا، والصابئون الذين (ملأكوا) النجوم ثم جعلوها بينهم وبين الله وسائط، والنصارى الذين وحدوا ثم ثلثوا ثم قالوا ثلاثة في واحد، والمجوس الذين ثنوا فقالوا بإلهين اثنين على التضاد والتعاند.

وهو ترتيب تنازلي للفرق الست، من قمة التوحيد إلى حضيض الشرك.

والذي قضى على الثنوية والمعددة، أي على المجوس والذين أشركوا، بالحرمان من وعد الله دون وعيده – على ما مر بك في مبحث الصابئين – هو غفلتهم جميعًا عن مبدأ الخلق والإيجاد، الذي لا يصح فيه إلا خالق غير مخلوق، واحد أحد تفرد بالألوهية لتفرده بالملك، الرازق المانع، الضار النافع، المنشئ المعيد. ولكن الثنوي والمشرك اكتفيا بالعالم عن صاحبه، أي بالمصنوع عن الصانع، وإن كانت كل ذرة في أحياء هذا الكون وجماده تنطق بالذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي أحكم فأمضى، القاهر فوق خلقه، لا ينازع سلطانه. كان أجدر بهذين – الثنوي والمشرك – وقد غفلا عن الخالق المالك واكتفيا بهذا العالم عن صاحبه، ألا يلتمسا غيره، آلهة من هذا العالم تلاعبهم ويلاعبونها. ولكن هذا أيضًا

من آيات إعجاز الخالق فيمن خلق، الذي فطرهم على فطرة لا يملكون منها فكاكًا: التماس (الإله) الذي يدينون له بالعبادة، حتى المبطل الذي قال ليس البتة من إله وهو محكوم بقوانين هذا العالم، يسير في إسارها ولا يملك الخروج عليها، فيؤله العالم.

أولئك الذين استحبوا العمى على الهدى، فحقت عليهم الضلالة.

****

لا شك أن فكرة الصراع بين الخير والشر فكرة ورثتها الأفستا عن شعراء اليونان، الذين استهوتهم (مأساة) هذا الصراع الخالد المزعوم بين الخير والشر، يلونونها لك ألوانًا، ويحبرونها تحبيرًا، ويشخصونها لك حتى لتكاد تتوهم معهم أن في هذا الكون قوتين فاعلتين لا ثالث لهما، الخير والشر، ندان متصارعان، لا هم لأحدهما إلا إيقاع الضر بك، ولا شغل للآخر إلا السعي في دفع الأذى عنك، وكأن ليس في الكون إلا أنت، لعبة يتقاذفانها. وتبلغ المأساة عندهم ذروتها بانتصار قوى الشر قدرًا مقدورًا، ويتوارى الخير مثخنًا بجراحه، يستجمع قواه لجولة قادمة، وقلما يكون الظفر من نصيبه.

ومع أن الفلسفة والتفلسف من مقاصد في هذا الكتاب، فلا بأس بقسط منهما لاستقصاء مدلول الخير والشر في أفهام الناس. فعند الذين آمنوا حق الإيمان يجيء الخير والشر بمعنى البر والإثم: البر هو إتيان ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه والإثم هو اجتراح ما نهى الله عنه وتعطيل ما أمر الله به. والخير والشر عند هؤلاء أيضًا، إن أخذته بمعنى الضر والنفع، أي النعمة والنقمة، ليسا هما بذاتهما هذه أو تلك، وإنما هما معًا ابتلاء من الله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1]، من شكر في النعمة وصبر في النقمة فهو خير له، ومن بطر في النعمة وجزع في النقمة فهو شر له، ولكنه يسأل العافية، لقوله ﷺ وهو يناجي ربه: «**إلا يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي**». وهذا هو منتهى الحكمة، لأن الغاية الأولى والعظمى لا غاية غيرها هي رضوان الله عز وجل، فالخير والشر بيده تبارك

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

وتعالى، ولأن يرضى الله عنك في النعمة وأنت شاكر غير بطر أهنأ لك من أن يرضى الله عنك في النقمة صابرًا محتسبًا، قد جمعت في الأولى خير الدنيا وخير الآخرة. فلا شك أن الراحة أهنأ من التعب، والفرح أهنأ من الحزن، واللذة أهنأ من الألم، واليسر أهنأ من العسر. ولكن الله عز وجل أعلم بالذي هو خير لعبده المؤمن، فيبتليه بالذي هو خير له، القمينة نفسه بالصبر عليه نعمة أو نقمة، لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[1].

أما عند غير هؤلاء، فالخير والشر عند عامة الناس هما الضر والنفع، يعني مباهج هذه الحياة الدنيا أو مصائبها، مثل الغنى والفقر، والصحة والمرض، والقوة والضعف، والرفعة والضعة، والنصر والهزيمة، والسعادة والشقاء، واللذة والألم، والاستمتاع بالأهل والولد والصديق أو المصيبة في الأهل أو الولد أو الصديق، إلى آخر ما تعلم من خيرات هذه الدنيا وشرورها. أولئك هم أصحاب العاجلة، لا يفطنون إلى ما وراء هذه الحياة الدنيا، الذين نسوا الغاية من وجودهم فيها: لم يجيئوها للتلذذ والتنعم، وإنما جاءوها ليفتنوا فيها، ثم ليشهد كل على نفسه بما قدمت يداه. قال عز وجل في أصحاب العاجلة: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[2]. أصحاب العاجلة أقمن أن يضحوا بالخير الأعظم رضوان الله عز وجل، ليشتروا به في هذه الدنيا ثمنًا قليلًا، قد غفلوا عن أن متاعها متاع الغرور، فالموت آت والحساب قريب، والساعة كلمح البصر أو هي أقرب.

ومن الناس أيضًا فلاسفة شعراء، الخير والشر عندهم قضاء أعمى، بل هم بالأحرى لا يرون في هذا العالم إلا شرًّا سواء في هذا (الشر الكوني) من أمثال القحط والفيضان والمجاعات والزلازل والبراكين التي تهلك الحرث والنسل، أو (الشر الاجتماعي) المتمثل

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ١٨ – ٢٠.

في إفساد الطغاة البغاة الظلمة. نسي هؤلاء أن هذا العالم مسير بقوانينه الطبيعية والاجتماعية، كل شيء فيه بقدر، أي موزون بميزان، مقصود متعمد، سلاسل أحداث يركب بعضها رقاب بعض، ويفضي بعضها إلى بعض. إن سخطت على (الشر الاجتماعي) أي الظلم والإفساد، فلا تنس أنهما بفعلك أنت ظالمًا كنت أو مظلومًا: إن كنت الظالم فما عليك إلا أن تكف النفس عن الظلم والإفساد. وإن كنت المظلوم المبغي عليه فلأنك تخاذلت وجبنت عن نصرة الحق والعدل أو تموت دونهما شهيد الحق والعدل. أما (الشر الكوني) الذي لا ترى غيره في هذا العالم، الذي تسميه كوارث طبيعية تهلك الحرث والنسل، فهو فعل (الكون) في نفسه، لا سائل ولا مسئول، بل يهلك الله بعض الناس بذنوبهم أو يتخذ منهم شهداء، ويري الخلق آياته، لتتعظ أنت وتعتبر. ولكنك أيضًا جاحد، تغمط حق هذا (الكون) عليك وأنت بعض ترابه، المنعم في خيراته، تجأر في الضراء، والسراء ملء حياتك. وما كان الله ليصنع هذا العالم على حسب دماغك، وإنما جاء بك إلى هذا العالم على ما هو عليه ليفتنك فيه، وما أنت فيه بمخلد، فلا تتبطر وابتغ إلى الله سبيلًا. قال عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾[١].

ثمة أيضًا فلاسفة يرون، لنكد فيهم، أن هذا العالم ليس هو أفضل العوالم الممكنة، يعنون أن الله كان يستطيع خلق هذا العالم أكثر كمالًا وأقل نقصًا، فالخير والشر عندهم بمعنى الكمال والنقص. ولا بأس بهذا بالطبع إن أريد به التنويه بقدرة الله عز وجل اللا متناهية على الخلق والإبداع، لا حدود لكلماته تبارك وتعالى. بل لا شك أن جنات عدن التي عرضها السماوات والأرض أفضل من هذا العالم بما لا يقاس، كما أخبر عز وجل. ولكن هذا القائل وأمثاله لا يقصدون هذا، وإنما ينصبون أنفسهم نقادًا لإعجاز الله في خلقه فيقولون إن هذا العالم الذي نعيش فيه ليس مبرأ من النقص، بل مليء بعيوب كان يمكن تلافيها، بل لا يخلو من أوجه خلل تشوه النظام، ثم يتطاولون والكفر ملء أشداقهم بأنه لا يصح الاستدلال بهذا العالم على خالقه إن كان ثمة خالق، لأن الناقص لا يخرج من الكامل. وتستطيع بالطبع أن ترد بأن هذا القائل

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

أعمى أو جاهل، وأن ما يراه هو نقصًا بضآلة علمه وكلال بصره ليس إلا محض الكمال والجمال والإحكام، على مقتضى مقصوده عز وجل، وأن هذا القائل بحاجة قبل غيره إلى قراءة القرآن وإن لم يكن من أهل القرآن، ليستدل على إعجاز الخالق فيما خلق، فليس في الكتب السابقة من هذا شيء، وليتوقف طويلًا عند قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[(١)]. ونقول له أيضًا من القرآن: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[(٢)]. ولكنك تعلم أن على قلوب هؤلاء غشاوة، فتختصر الطريق وتقول لهذا القائل: إن لم يعجبك هذا العالم فلتخرج منه. وما هو بخارج. فليس له بعد هذا العالم عالم. إلا النار وبئس مثوى الظالمين.

وتستطيع أن تقول إن هذا العالم لو خلا من أحيائه فكان كوكبًا قفرًا كغيره من كواكب السماء، لما كان ثمة معنى لخير أو شر. فما شأن بركان يثور في كوكب الزهرة، أو زلزال تنقصف له الجبال في زحل؟ بل ما شأن ما وقع على هذه الأرض نفسها حقبًا متطاولة وهي تتشكل وتتهيأ لاستقبال الأحياء عليها: لا خير ولا شر بالطبع، فليس هناك كائن يدرك ويحس، يتقي الضر ويتحرى النفع. بل ليس ثمة ذات تعقل خيرًا أو شرًّا. الإنسان هو وحده المعني بالخير والشر.

وتستطيع أن تقول أيضًا إن الخير والشر نسبيان، أي محكومان بالغاية والمآل، ما هو خير لهذا فهو شر لذاك، فالموت جهادًا في سبيل الله عز وجل خير لا شك فيه، بل هو الخير، والموت صدًّا عن سبيل الله أو إعلاء لباطل شر لا شك فيه، وكلاهما موت.

الذين آمنوا بالله عز وجل حق الإيمان، ثم اتقوه حق تقاته، هم وحدهم الذين فهموا حقيقة الخير والشر،إذا أمرهم صدعوا، وإذا نهاهم انتهوا: الخير في طاعته عز وجل، والشر في معصيته.

(١) سورة الملك، الآيات: ١ – ٤.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١١.

وهم أيضًا أصحاب اليقين الثابت أن خالق كل شيء هو نفسه خالق كل فعل، لا فاعل في كونه غيره، ولا ولي من دونه، يبتليهم بالخير والشر فتنة، وإليه يرجعون.

أما أصحاب الأفستا فقد لبس عليهم إبليس أن يتقوا بأسه، لأنه رب الشرور في هذا العالم، فنصبوه إلهًا.

* * * *

وربما قيل لك أفليس (أهرمن) هذا عند المجوس هو نفسه (إبليس) في عقيدة المؤمنين بالواحد الأحد. وأليس (هرمزدا) إله الخير عندهم هو نفسه الله عز وجل، فماذا تنكر من عقيدة المجوس؟

لا مقارنة البتة. في المجوسية لا خالق ولا مخلوق، بل العالم مسرح لا يعرف صاحبه لمباراة بين ندين وفدا عليه، يتواثبان ويتغالبان، وباقي الخلق نظارة، يتقربون إلى هذا أو ذاك بالهتاف، أي بالخضوع والعبادة.

ما كان الخاسئ الذليل، يوم خرج من الجنة مذءومًا مدحورًا، ليطمع من بني آدم في مثل هذا: أن يكون له نصيب في عبادتهم، إلهًا مع الله، أو يتصوروه لله ندًّا يصاوله، ويبادله الضربات.

كان منتهى أمله يوم انتصب لعداوة آدم وبنيه - ليس في جعبته سهم إلا الإيهام والتلبيس - أن يصيبهم ببعض سخط الله عليه، فلا يجد الله أكثرهم شاكرين: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[1]، وإذا هم يجعلونه كفوًا لله عز وجل، ويتوجونه (أمير الظلام) رئيسًا لهذا العالم إلى نهاية العالم.

أفقد كان إبليس يطمع في أفضل من هذا وقد علم من قبل أنه مقضي عليه، لا حظَّ له في الآخرة إلا العذاب الأكبر؟

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٤ - ١٧.

هذه (الأفستا) وثيقة استسلام للشيطان في هذا العالم يفعل فيه ما يريد.

كان عصر تدوين الأفستا وما قبله وتلاه، عصر شقاء وآلام طحنت في نفوس الناس كل أمل في خلاص قريب. ولو أنصفوا لعلموا أن هذا الشر من أنفسهم، والبغاة هم، والطغاة منهم، والعلاج بأيديهم. ولكن قعدت بهم همتهم، فجلسوا في الظل ينتظرون (المخلص)، ويؤثرون السلامة في التسليم للباطل، بحجة زينوها لأنفسهم: تلك حرب بين الخير والشر، بين النور والظلام، بين هرمزدا وأهرمن، لا ناقة لنا فيها ولا جمل، فلينتصر هرمزدا لنفسه أو يدع، ولن ينتصر هرمزدا إلا في نهاية العالم.

تجد قريبًا من هذا في الفكر الإنجيلي الذي ينتظر مجيء الملكوت: (أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء فكذلك على الأرض) (إن فهمت الملكوت بمعناها في الأصل اليوناني *Basileia* أي المُلْك والمملكة) أي قد انفرد الشر، إبليس أو أهرمن، بالملك والمشيئة في هذا العالم حتى مجيء الملكوت في نهاية العالم، وكأن ليس لله على هذه الأرض مشيئة. وقد ردَّ القرآن على هذا بقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[1]. تجد أيضًا في الأناجيل أثارة من تعظيم إبليس في تسميته (رئيس هذا العالم)[2]، وفي الإشارة إليه بعبارة (سلطان الظُّلْمة)[3]، وهي قريبة من وصف أهرمن روح الشر أمير الظلام.

أفاستقت الأناجيل من الأفستا أم استقت الأفستا من الأناجيل؟ لا هذا ولا ذاك، بل شاعت في الناس فكرة (الخلاص المجاني) لا الخلاص بأيديهم هم، أي الخلاص بمخلص، لا الخلاص بالإيمان والعمل الصالح.

* * * *

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.

(٢) يوحنا ١٤/ ٣٠، ١٦/ ١١.

(٣) لوقا ٢٢/ ٥٣.

ليس الخير والشر ذاتين حتى تجسدا في آلهة أو غير آلهة بينهما صراع ونزال، بل هما معًا فعلك أنت، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. الخير بالذات هو الإيمان والعمل الصالح، والشر بالذات هو الكفران واجتراح السيئات. والصالحات هي ما أمرت به في وحي الله على رسله، والسيئات هي ما نهاك عنه هذا الوحي. وليس بعد هذا في الحياة الآخرة إلا رضوان الله أو سخطه.

وليس للشيطان صراع مع الله عز وجل، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. وإنما صراع الشيطان معك أنت، يضلك عن سبيل الله، فيعميك عن الحسنة ويزين لك السيئة، حتى إذا قضي الأمر راح يبكت أولياءه الذين ينحون عليه باللائمة يوم الحساب، فيقول لهم ما قاله القرآن على لسانه: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]، يعني أنه كافر بما أضلهم به، ينكر أن يكون ثمة إله مع الله. وكفى بهذا حسرة وتحسيرًا.

هذا الفكر الصبياني، أعني تصورك الله عز وجل طرفًا في صراع أو نزال بين الخير والشر - وإن جمَّلته الأفستا بانتصار الله (هرمزدا إله الخير) في نهاية العالم - فكر مريض، بل هو كفر صراح، ليس لأن هذا العالم كما يراه المتفائلون خير كله أو كما يراه المتشائمون شر كله، بحيث ينعدم التضاد فيمتنع الصراع، وإنما أصلًا وبالذات لأن الفاعل الأوحد في هذا الكون كله، النافذة فيه مشيئته، هو الله عز وجل وحده، له الخلق والملك والأمر، لا يقع في ملكه شيء دق أو عظم إلا بإذنه، يعني بعلمه وتمكينه وإنفاذه، إن شاء أمضى وإن شاء منع، لا حول ولا قوة إلا به.

أما أنه عز وجل لا حول ولا قوة إلا به، فهذا لأنه تبارك وتعالى هو المخول الممكن، لا يقع فعل في هذا العالم إلا بوسائط وأدوات هو خالقها ومالكها ومانحها، يؤتيها من يشاء من خلقه وينزعها ممن يشاء، حتى البصائر والجوارح.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

وهي كما تعلم وسائط وأدوات مسخرة ذلول بتمكين الله عز وجل إياك: لا تعصاك قدماك إن مشيت بهما إلى طاعة أو معصية، ولا تعصاك يد بطشت بها باغيًا أو مددتها لتقيم معوجًا، ولا يمتنع عليك لسان أسكته أو أنطقته حقًّا أو باطلًا، ولا يمتنع عليك مال وضعته في معروف أو ولغت به في منكر، ولا يمتنع عليك سلطان مكنت فيه أن تسخره في إعلاء كلمة الحق والعدل أو تعيث به في الأرض فسادًا تركب رقاب الناس ظلمًا وعلوًّا بل لا يمتنع عليك عقلك إن استهديته فهداك أو استغويته فغواك، ولا يمتنع عليك ضميرك إن استيقظته فسمعت له وأطعت ولم تحكم فيك هواك. أنت ههنا فاعل مريد ذو اختيار، ممكن فيما مكنك الله.

ولكن هذا كله - التمكين والإنفاذ - معلق بمشيئته عز وجل إن شاء أمضى وإن شاء منع: لا تتحقق للخلق في هذا الكون مشيئة إلا مشيئة شاء لها الله أن تتحقق، يعني لا يخرج فعل الخلق من حيز الفكر إلى حيز التحقق إلا بإمضاء الله عز وجل، على الوجه الذي أراده تبارك وتعالى. وهذا هو الفهم الجيد لقوله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1]، يعني لا (يتشيأ) شيء مما شئتموه إلا بتشيئة الله عز وجل إياه.

فهل بقيت للخلق في هذا الكون إرادة؟ نعم، وبها وحدها أنت المحاسب المسئول: إرادة الخير الذي علمك الله في وحيه على رسله، تصر عليه وتبذل في سبيله قصارى جهدك، واتقاء الشر الذي نهيت عنه في وحي الله على رسله، تكف النفس عنه وتجاهده بما في وسعك. يعني أن تكون جنديًا لله عز وجل في أرضه، تستهديه وتستعينه وتتوكل عليه. ولا عليك بما يحدثه الله من بعد: شئت وشاء الله، والله عز وجل بالغ أمره.

وربما قال لك المعاند: وهل بقي لي فعل في ظل هذا القهر العام؟ فماذا لو أردت الخير ولم يرد لي الله أن أريده؟ ماذا لو أردت الهدى وشاء لي الضلال؟ بل ماذا لو أردت طاعته واجتناب معصيته وأراد هو لي عصيانه والفسوق عن أمره؟ فهل لي من الأمر شيء؟

(١) سورة الإنسان: الآية: ٣٠.

هذا القائل يغش نفسه، يجادلك أنت بها ولا يجادل ربه. فقد علم هو من قبل أنه ما أراد الخير قط واستعان الله عليه إلا أعانه، وما طلب الهدى مخلصًا قط إلا ثبت الله عليه قلبه، وما دخل مخلصًا في طاعة قط فأخرجه الله منها إلى معصية.

إنما يقول هذا الذين يجترحون السيئات بعد أن يجترحوها، يزينون لأنفسهم سيئات ما عملوا. وهذا أقبح الفسوق والعصيان، لأن قائله لا يكتفي بركوب المعصية ولكنه أيضًا يستزيد من الإثم فينسب الأمر بالمعصية لله عز وجل، لا لنفسه وإبليسه. وهو افتراء على الله عز وجل يراد به معذرة إبليس وأولياء إبليس. بل هي نفسها مقولة إبليس يوم فسق عن أمر ربه في فتنة الأمر بالسجود لآدم فحقت على إبليس اللعنة لمحض عصيانه، لا لخطئه في تفضيل نفسه على آدم، فما كان الله ليحاسب أحدًا من خلقه بضآلة علمه وكلال بصره، وإنما هو يحاسبه بطاعته أو بعصيانه قال إبليس لما حقت عليه اللعنة: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]. تجد إبليس ههنا ينسب ضلالته إلى الله عز وجل، يعني أن الله كان يريد منه عصيانه فأغواه عن طاعته. ولو كان إبليس مصيبًا في قوله لكان مطيعًا لله في عصيانه، وكأنه قيل له: آمرك بالسجود يا إبليس فاعصني، أو اسجد يا إبليس ولا تسجد، أي الأمرين فعلت فأنت في طاعتي! وهذا هو العته بعينه. وإلا لكان إبليس مستحقًّا ثواب الله بعصيانه، لا الطرد واللعن والإياس من رحمة الله كما أخبر القرآن.

وقد علمك الله من نبأ إبليس ليكشف لك أمره كي تتعظ بمصيره إن كنت من عباد الله المخلصين الذين ليس لإبليس عليهم سلطان، لا لتردد قوله وتحذو حذوه وتأتم به، شأن الذين اتبعوه من الغاوين فكان موعدهم جهنم أجمعين، يحمل إبليس لواءهم إلى النار وبئس القرار.

---

(١) سورة الحجر، الآيات: ٣٩ – ٤٣.

والذي ينبغي التنبيه إليه لا يمل من ترديده، أن الذين أكرمهم الله بوحيه لا يرون الخير خيرًا لخيرية فيه، ولا يرون الشر شرًّا لشرية فيه، وإنما الخير بالذات صار عندهم خيرًا لأنه المأمور به، والشر بالذات صار عندهم شرًّا لأنه المنهي عنه. والله عز وجل عند هؤلاء مؤتمن، لا يأمرهم إلا بما هو خير لهم، ولا ينهاهم إلا عما هو شر لهم. من هنا استقر عند الذين آمنوا حق الإيمان، أي عباد الله المخلصين الذين لا حيلة لإبليس معهم، أن الخير كل الخير في الطاعة، وأن الشر كل الشر في المعصية. قد سلموا بقوله عز وجل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]. إنه إسلام الوجه لله، تصدع بأمره مريدًا غير كاره، تستهديه وتستعينه وتتوكل عليه. أولئك جند الله قد اختاروا قائدهم.

هذا القائل (ليس لي من الأمر شيء) منافق لا يعبد الله مخلصًا له الدين. لو أراد الخير لالتمسه في الطاعة، ولو أطاع الله حق طاعته يسارع في أمره لأمن الضلالة، فالله عز وجل لا يخادع الذين آمنوا به حق الإيمان ولا يضل جنده، ليس لأن الذي بيده ملكوت كل شيء لا يملك الهدى والضلال، وإنما فحسب لوعده عز وجل: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[3]. يعني أن نقطة البداية هي الكفر أو الإيمان، وهي لك وحدك لقوله عز وجل: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾[4]. وما بعدها مترتب عليها، الذين كفروا يزيدهم الله ضلالًا إلى ضلالتهم: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾[5]، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾[6]، والذين آمنوا يزيدهم الله هدى إلى هداهم كما مر بك. وهو عز وجل لا يزيدهم هدى فحسب، وإنما هو أيضًا (يؤتيهم تقواهم)

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٥) سورة فاطر، الآية: ٣٩.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٠.

كما رأيت في الآية ١٧ من سورة محمد، أي يسلحهم بما به يتقونه، أي الإخبات والخشية، لا يخشون إلا إياه، ولا يتقون سواه، فلا يضلون من بعد.

هذا هو مقطع الفصل في فهم قوله عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[١]، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[٢]، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٣] وأمثالها في كل القرآن، الذي تشابه على المتفلسفة وأهل الكلام فخاضوا، وهو مقيد بما تلوناه عليك آنفا، مفسر بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٤]. وفي هذا القدر كفاية، والحمد لله.

أما أنت بالذات أيها القائل (ليس لي من الأمر شيء) فأنت وما قلت: ليس لك من الأمر شيء، إلا أن ترعوي فتندم وتتوب، ليس لك إلا هذا، وإلا فقد حقت عليك الضلالة.

* * * *

يترتب على ما تقدم أن إبليس، أو الشيطان، أو (أهرمن)، أو ما شئت من أسمائه، لا فعل له في هذا العالم إلا ما استمهل الله من أجله لا يملك غيره، أي الغواية والإضلال، لا سلطان له إلا على الذين اتبعوه، فهو وهم في سواء جهنم.

والذي ينبغي التنبيه إليه لا يمل من ترديده، الذي يذهل الناس عنه في خضم هذه الحياة وصخبها، أن هذه الدنيا ليست بدار شقاء أو دار نعيم، وإن شقي فيها بعض الناس أو نعموا، وإنما هي (دار الفتنة)، أي الاختبار والتمحيص، كلهم مفتون مختبر ممحص بما أوسع له الله أو ضيق، رفعه أو خفضه، عافاه أو أسقمه، سره أو أحزنه، أعطاه أو حرمه، بسط له في الرزق أو أمسك. ليس في هذا أو ذاك خير أو شر، فما جئت هذه الدنيا لهذا أو ذاك، وإنما

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٧.
(٣) سورة المدثر، الآية: ٣١.
(٤) سورة القلم، الآية: ٧.

جيء بك إليها لتفتن بهذا أو ذاك فتخرج منها بما عملت فيها إلى دار البقاء. إن فهمت الخير والشر بمعنى النفع والضر في هذه الدنيا فأنت مخطئ، إلا نفع أو ضر ينفعك أو يضرك في دار البقاء.

على أن النفع والضر بمفاهيم هذه الدنيا هما أيضًا بيد الله عز وجل: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[1]. بل هما معًا على سواء ابتلاء من الله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2] قد شهد كل على نفسه وقامت البينة: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[3]. يفتن الله من شاء بالنعمة، ويفتن من شاء بالنقمة، والمقصود في الحالتين هو الفتنة، أي الاختبار والتمحيص.

وهو عز وجل أيضًا يفتن بعض خلقه ببعض خلقه: فتنة القوي بالضعيف وفتنة الضعيف بالقوي، فتنة العالم بالجاهل وفتنة الجاهل بالعالم، فتنة المظلوم بالظالم وفتنة الظالم بالمظلوم، وفتنة الذين آمنوا بالذين كفروا، وفتنة بني آدم بإبليس.

وينفرد إبليس في هذه الحياة الدنيا من دون الخلق جميعًا (ولا تنس أن إبليس خلق من خلق الله) بأنه فاتن غير مفتون. فقد هلك إبليس من قبل في فتنته بآدم يوم فسق إبليس عن أمر ربه فتأبى على السجود، لا فتنة له من بعدها يُفْتَتَن بها، فقد تمحص واختبر وحوكم وأدين قضاء غير مردود، لا يملك الإتيان بصالحة تخفف عنه العذاب، لأن الله عز وجل لا يجري الصالحات على يد كافر مصر على عصيانه قد باء بالإثم الأكبر - عصيان الله عز وجل في حضرته كفاحًا دون وسيط[4] فلا تزيده فتنته الخلق في هذه الدنيا إثمًا على إثمه ولا تزيده عذابًا وهو محكوم عليه بأشد العذاب. ما هو بنافع أولياءه وما هم بنافعيه،

(١) سورة يونس، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٤) (كفاحًا) يعني مواجهة، ودون وسيط يعني دون توسط ملك أو نبي أو رسول، فإبليس عصى وهو معاين، لا يملك التعلل بتكذيب وسيط.

بل هو وهم سواء في النار، قد أرجأ الله عذابه إلى يوم يبعثون، ليكون بعض أدواته عز وجل في فتنة الخلق بالخلق اختبارًا وتمحيصًا. وقد تمنى إبليس على الله هذه المهلة عالمًا أنها لا تجديه شيئًا بعد ما حقت عليه اللعنة التي لا فكاك منها، وكأنه أراد ألا يسبق أولياءه إلى النار وإنما يدخلها مع الداخلين يحمل لواء العصاة. فكان له ما تمنى. وقد كان الله عز وجل، في تمحيص عباده بالخير والشر في هذه الدنيا غنيًّا بالطبع عن هذا الدور الذي تمناه إبليس لنفسه، فالله عز وجل قادر على فتنة الخلق بما شاء وكيفما شاء، وقد فتن إبليسَ نفسه بغير إبليس. ولكنه عز وجل - رحمة بعباده - شاء أن يكون (رئيس فتنتهم) عدوًّا افتضح عندهم بعداوته لأبيهم آدم: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾[1]، إضعافًا لكيده، وفضحًا لفتنته، فيصموا الأذن عن وسواسه، إلا الذين يختانون أنفسهم، فلا عذر لهم عند الله عز وجل بعد الوحي ولا معذرة.

إبليس في هذه الدنيا كالذى مات فانقطع عمله، مات يوم لعن. وإنما الذين يستحيونه هم الطوافون على قبره، المتعبدون في ضريحه، النافخون في رماده لتحرقهم ناره.

* * * *

وإذا كان لا فعل لإبليس في هذه الدنيا إلا الغواية والإضلال، فهو أيضًا فعل غير نافذ فيك إلا باستجابتك أنت إليه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾[2]، واستجابتك هي فعلك أنت، لا وزر فيها على إبليس، بل أنت بها وحدك المسئول المحاسب. لا تتمحك بإبليس وقد حذرك الله منه، ولقنك الاستعاذة بالله منه، وعلمك الله إن زللت فضللت بإبليس كيف تستغفر وتتوب، وسن لك العبادات التي تجعلك على ذكر من ربك لا يغيب، فتأمن الفتنة والضلال، وطمأنك بأنه لا سلطان لإبليس إلا على الذين يتولونه، لا سلطان له على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[1].

هذا (الشرك) المعني في الآية ١٠٠ من سورة النحل، هو تعظيم إبليس، اتقاء بأسه واستجداء رضاه، الذي لا يملك لك ولا لنفسه ضرًّا أو نفعًا، إلا ما شاء الله الذي خلقك وخلق إبليس وخلق السماوات والأرض وما فيهن من دابة، فتترك تقوى الله إلى اتقاء إبليس، وتترك عبادة الله الواحد الأحد إلى عبادة إبليس الذي وضعه الله أسفل سافلين: أهنت نفسك فأهانك الله، ومن يهن الله فما له من مكرم.

هذا (الشرك) - الذي هو عبادة تلك المجوس أصحاب هرمزدا وأهرمن - هو أيضًا شرك كل متقٍ غير الله، وكل متوسل بغير الله، وكل متوكل على غير الله، إنه شرك الذي يدعو من دون الله ما لا يضر ولا ينفع، بل يدعو من ضره أقرب من نفعه: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾[2].

ومن إعجاز القرآن في بيان القرآن - بعد تسمية الفرق الست الباقية إلى يوم القيامة - تبكيته الذين يعبدون مع الله إلهًا آخر وكل له ساجدون، فيحصر معبوداتهم في دائرة لا يخرج عنها مألوه ألهوه. قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[3]. ترى في هؤلاء الذين أهانهم الله، عبدة الملائكة والأنبياء، وعبدة إبليس، وعبدة الشمس والقمر، وعبدة النجوم والكواكب، وعبدة الصخر والجبل والشجر، وعبدة البقر والبهائم، وكل له داخرون.

****

(١) سورة النحل، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٣) سورة الحج، الآيتان: ١٧، ١٨.

مر بك أن عبادة المجوس هي التردد على إلهين، هرمزدا وأهرمن، يغدو المجوسي عليهما ويروح، فهو (الجائس)، من جاس / يجوس / جوسًا وجوسانًا، يعني الذاهب الجائي. وهو أيضًا (مجوس) به على المفعولية، لأن جوسانه ما بين هرمزدا وأهرمن إنما كان بتلبيس إبليس، فهو في هذا الجوسان ملبوس لبس عليه، كما يقال (مسعود) والمراد سعيد. ولكن العرب لم تنظر إلى هذا المعنى حين أسمت المجوس مجوسًا، وإنما أسمتهم باسم كاهنهم، (ماجوس) الفارسية، لا تدري أصل معناها في لغة الفرس، وهو ذو الحول والحيلة كما مر بك، تريد عبدة النيران، لا علم للعرب بما وراء هذه العبادة.

ولأن (المجوس) ليست من معربات القرآن، بل نزل القرآن وهي من معربات العرب أنفسهم، تواضعوا عليها في تسمية جيرانهم الفرس عبدة النيران، فلا تصح نسبتها إلى القرآن حتى يقال إنها جاءت فيه مفسرة بالتعريب، بل لا يصح هذا أصلًا لأننا كما تعلم اشترطنا في التفسير بالتعريب اتحاد الجذر في اللفظ والمعنى بين لغتين من ذات الفصيلة اللغوية كالذي بين اللغات السامية، وليست الفارسية منها حتى يقال إن الجوس والجوسان - إشارة إلى تردد المجوسي أو جوسانه بين هرمزدا وأهرمن - تصح مقابلًا للفظة (ماجوس) الفارسية التي معناها ذو الحول والحيلة. بل لم يرد العرب هذا حين قالوه، فضلًا عن أنهم لم يريدوا بها (ماجوس) واحد كهنوت المجوس كما يقول الفرس، وإنما أرادوا بها أهل الملة جميعًا كهنوتًا وغير كهنوت.

اللفظة إذن من مواضعات العرب أنفسهم، استقر معناها عندهم على ما وضعوها له قبل نزول القرآن بأكثر من ثلاثة قرون، لا تعتجم عليهم. وما كان القرآن ليفسرها لهم بأصل معناها في لغة الفرس - الحول والحيلة - وقد نقل العرب هذا اللفظ عن أصل معناه عند أصحابه. لهذا لم يفسر القرآن لفظة (المجوس) بأي من أدوات التفسير المعول عليها عندنا في منهج هذا الكتاب.

ولكن القرآن المعجز لم يفته أن يقول لك من هم المجوس بمحض عبادتهم، فخاطبهم

بقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[1]. والمخاطب ههنا هم المجوس بلا مراء، فلا ثنوية إلا المجوس، وسبحان علام الغيوب.

* * * *

(١) سورة النحل، الآية: ٥١.

(٦١) الروم

وردت الروم مرة واحدة فحسب في كل القرآن، في سورة افتتحت بهم فسميت باسمهم (الروم). قال عز وجل: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وهذه الآيات الست كما سترى، من فرائد إعجازات القرآن في نبوءات القرآن.

ولكن علماء القرآن الذين طالما استدلوا بهذه الآيات على إعجاز القرآن في نبوءات القرآن، لم يوفوا هذه الآيات حقها من الإعجاز، لأنهم تابعوا قدامى المفسرين[2] الذين احتفلوا لتحقق النبوءة بانتصار الروم في بضع سنين من نزول الآيات - والبضع هو من الثلاثة إلى ما دون العشرة، وقد تحققت النبوءة بالفعل، فتوقفوا عند هذا ولم يلتفتوا إلى أن الآيات لا تحتفل لانتصار الروم من بعد هزيمتهم، فلله الأمر من قبل ومن بعد، ولكنها تُوَقِّتُ للمسلمين يوم انتصارهم في بدر، يوم ينصر الله المؤمنين فيفرحون بنصره، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

****

أما (الروم) المعنيون في الآيات، فهم الروم البيزنطيون، أصحاب القسطنطينية (إستانبول من بعد أو الآستانة)، الناطقون باليونانية، لا الروم الغربيون، أصحاب روما، الناطقون

(١) سورة الروم، الآيات: ١ - ٦.

(٢) راجع تفسير القرطبي لهذه الآيات من سورة الروم.

باللاتينية. فقد انهارت إمبراطورية الروم الغربية نهائيًّا بسقوط روما في أيدي القوط عام ٤٧٦م، ولم يعد من (الروم) عصر نزول القرآن مطلع القرن السابع الميلادي سوى روم المشرق، أعني روم (بيزنطة) التي ورثت مجد روما القديم وخلفتها على أقاليمها في مصر والشام، بالإضافة إلى أراضيها الأصلية في البلقان، وآسيا الصغرى (الأناضول).

ولأن حكام بيزنطة كانوا سلالة من قياصرة روما عند انقسام الإمبراطورية عام ٣٩٥ م إلى غربية في روما وشرقية في بيزنطة، فقد تسمى الملوك البيزنطيون أيضًا باسم القياصرة (المأخوذ من اسم قيصر كما تعلم): قيصر في روما وقيصر في بيزنطة. وما إن سقطت روما في أيدي القوط وآل فيها الحكم إلى أقوام من غير الروم، حتى بات قيصر بيزنطة وحده هو القيصر، وباتت بيزنطة، أو القسطنطينية، الوريث الشرعي لمجد روما القديم. بل باتت بيزنطة هي (روما)، ليس فقط في أعين البيزنطيين أنفسهم، الذين لم يتردد بعضهم في إطلاق اسم روما مجازًا على عاصمتهم وإنما أيضًا وبالأخص في أعين أهل الأقاليم التابعة الذين لم يروا في انتقال تبعيتهم من روما إلى بيزنطة سببًا يدفعهم إلى تعديل مسمى الدولة التي يخضعون لها: إنهم القيصر وولاة القيصر، وهم أيضًا (الروم)، لاتينيين بالأمس أو بيزنطيين اليوم، أصحاب (روما الأولى) أو أصحاب (روما الثانية). إنهم (الروم) في كل حال.

لهذا كان العرب عصر نزول القرآن يقولون (الروم) يعنون (اليونان). بل ما زلت تسمع في العربية العامية لفظة (الرومي) في موضع (اليوناني). بل لم تعرف العربية الفصحى (اليونان) واليوناني إلا منذ العصر العباسي في سياق ترجمات فلاسفة (اليونان) إلى العربية. على أن العرب كانوا يتوسعون فيطلقون اسم (الروم) على سكان شمالي البحر الأبيض المتوسط (بحر (الروم) عند قدامى الجغرافيين العرب)، فهم إذن الأوروبيون بوجه عام.

ورغم ذلك كله، فإن لفظة (الروم) هي في أصلها نسبة إلى (روما) بلا جدال، سواء أردت روما التي في إيطاليا، أو (روما) الثانية التي على ضفاف البسفور، أي بيزنطة المعنية في الآيات. ويتعين من ثم عند التماس التفسير القرآني للفظة (الروم) على منهجنا في هذا الكتاب التماس معنى (روما) هذه في لغة أهلها، وسيأتي.

أما الطرف الآخر في (المُغَالبة) المشار إليها في الآيات فهم الفرس، الذين لم تسمهم الآيات، اكتفاء بذكر عدوهم اللدود الغالب يوم يفرح المؤمنون بنصر الله، ولاستفاضة شهرة هذا الصراع الأزلي بين قطبي العالم القديم: كسرى وقيصر.

كانت الحرب بين هاتين الدولتين سجالًا بين كسرى وقيصر، يدال من الروم للفرس ليدال من الفرس للروم، في صراع طال أمده، منذ بدأ اليونان ينازعون الفرس - ورثة بابل وأشور ومصر - سلطانهم في هذا الشرق الأدنى القديم. استمر الصراع - جولة هنا وجولة هناك - منذ غارة الإسكندر في الربع الأول من القرن الرابع قبل الميلاد نحو ألف سنة حتى أواسط القرن السابع الميلادي، حيث أنهى (المؤمنون) الذين تتحدث عنهم الآيات هذا الصراع بقضائهم قضاء باتًّا على دولة الفرس، وطردهم الروم البيزنطيين، طردًا باتًّا أيضًا، من مصر والشام، ليغزوهم من بعد في آسيا الصغرى ويناجزوهم حتى أبواب القسطنطينية، لينفردوا وحدهم بالسيادة المطلقة على أراضي طرفي النزاع معًا في هذه المنطقة من العالم.

كان هذا الصراع بين الفرس والروم، يقتل بعضهم بعضًا ويثخن بعضهم في بعض، الذي طال أمده حتى شهد مبعث خاتم النبيين، مقدمة ضرورية لهزيمتهما معًا في وقت واحد، على أيدي (حفنة) من العرب يقلون عنهما عددًا وعدة بما لا يقاس، فيفعلون بالفرس في سنين قلائل ما لم يستطعه الروم في ألف سنة، ولا يكتفون بهذا وإنما يفعلون بالروم، أيضًا وفي نفس الوقت - هذا الذي طالما تمناه الفرس ولم يتحقق لهم: القضاء البات على أطماع الروم في الشرق الأدنى كله وحصارهم في عقر دارهم لا يخرجون منه إلا مناوشات لا طائل من ورائها. ورغم هذا كله، فأنت بإزاء معجزة فذة من معجزات التاريخ، لا تملك أن تغمط أولئك الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه أقدارهم. كانوا رجالًا أفذاذًا لم يشهد التاريخ أمثالهم من قبل ومن بعد.

وتستطيع أن تقول أيضًا - من الناحية الإستراتيجية البحت - إن كرة الروم على الفرس كما تنبأت الآيات، أي عودتهم إلى اقتطاع سورية وفلسطين ومصر من نفوذ فارس، أعني عودة الدولتين إلى تقاسم السيادة على أرض الشرق الأدنى القديم، العراق في أيدي الفرس، ومصر

والشام في أيدي الروم، هيأت مسرح الصراع المقبل بينهما وبين العرب، تهيئة مواتية للذين آمنوا، أفضل بما لا يقاس مما لو بقي الفرس في مواقعهم بمصر والشام يوم بدأ الفتح العربي لهذه الأقطار، يغالبون الفرس وحدهم عليها. كان العرب عندئذ - لو بقي الفرس في مصر والشام - سيلاقون عدوًّا واحدًا متماسكًا متراصًّا، تخضع جيوشه لقيادة فارسية موحدة في كل من العراق والشام ومصر، لا عدوين متناحرين يتربص كل منهما بالآخر - الفرس والروم - لا يأبه أي منهما بانتصار العرب على خصمه اللدود، ناهيك بالشماتة والاشتفاء.

وإلى هذا تشير الآيات بقوله عز وجل: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، أي كانت هزيمة الروم أمام الفرس، لينتصر الروم من بعد عليهم، بقضاء منه عز وجل وتدبير، لأمر هو بالغه، والله بالغ أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * * *

والذي غفل عنه أكثر من تكلموا في تفسير هذه الآيات فلم يوفقوا إلى فهمها على وجهها، أن (النصر) في اللغة هو العون والمظاهرة والتأييد، ليس هو بذاته كما يظن الأكثرون الفوز والفتح والغلب، وإنما هو العون والتأييد المؤديان إلى الفوز والغلب. ومن هنا تفهم عبارة (نصر الله) حيثما وقعت في كل القرآن بمعنى تدخله عز وجل بمدد من عنده، ملائكة وغير ملائكة، لنصرة فريق وتخذيل فريق، فتنقلب على الفور موازين القوى لصالح الفريق الذي (نصره الله)، يعني أيده وأعانه، فينتصر الذين كان نصر الله في معيتهم ليكونوا هم الغالبين.

ومن دقيق القرآن أنه حين تحدث عما كان بين الفرس والروم: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾[١] استخدم مادة (غلب) ولم يستخدم مادة (نصر)، لأن الغلب هنا وهناك كان بأمر الله، أي بقضائه وتدبيره: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[٢]، ولم يكن بانتصاره عز وجل لفريق على فريق، أي بتدخله عز وجل

(١) سورة الروم، الآيات: ١ - ٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤.

لصالح فريق ضد فريق، بمدد من عنده، ملائكة وغير ملائكة. وإلا لقلت إن الله كان مع الفرس يوم غلبوا الروم، يعني كان راضيًا عن الفرس ساخطًا على الروم، ثم سخط على الفرس ورضي عن الروم فانتصر للروم عليهم. ولا يصح هذا لأن الله عز وجل لا يجوز عليه البُداء، (يبدو) له الأمر فيمضيه، ويبدو له العكس من بعد فيمضيه، إن صح هذا في البشر – وهو مذموم لأنه تذبذب بين النقيض ونقيضه – فهو محال في حق العزيز الحكيم. وقد كان الفرس مجوسًا يوم كانت الكرة لهم، وكانوا مجوسًا أيضًا يوم كانت الكرة عليهم. وكان الروم أيضًا أهل كتاب يوم غلبهم الفرس المجوس، وبقوا أهل كتاب يوم أديل لهم من الفرس. أما حين تحدثت الآيات عن (نصر الله) فهي تريد انتصار الله عز وجل للمؤمنين الذين يفرحون بنصره. والمؤمنون كما مر بك في مبحث (الصابئين) اصطلاح قرآني يراد منه (المسلمون) أهل القرآن لا أهل الكتاب. وإنما ينتصر الله عز وجل لجنده فحسب، أي للذين آمنوا.

والأصل في هذا أن الله عز وجل الذي لا ينصر باطلًا على حق، لا ينصر باطلًا على باطل، وإنما هو ينتصر فحسب للحق على الباطل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(١). يعني لا يتعلق (نصر الله) حين ينسب الله النصر إليه تبارك وتعالى إلا بانتصاره عز وجل لجند هو قائدهم، أي بانتصاره للذين آمنوا. وقد انتصر الفرس من قبل، فلا يقال الله نصرهم، وانتصر الروم من بعد، فلا يقال قد نصرهم الله على الفرس، وإنما يقال – في المرتين – الذي قالته الآيات: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾(٢). لم ينهزم الفرس لأنهم مجوس أصحاب هرمزدا وأهرمن، ولم ينتصر الروم لأنهم نصارى أهل كتاب يربون المسيح وجبريل، فالكفر كما تعلم ملة واحدة، وكلتا العبادتين عند الله باطل. وليس الباطل عند الله درجات بعضها دون بعض، بل الكل باطل، لا (يؤازره) الله بنصره، وإنما (يقضي) فيه قضاءه.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فليس أهل الكتاب – يهود ونصارى – بأولياء للذين

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤.

آمنوا حتى يفرح المؤمنون - كما تنبأت الآيات - بنصر الله يوم ينتصر الروم على الفرس المجوس كما توهم المفسرون. بل قد نهى الله الذين آمنوا عن توليهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، يبين لك عز وجل علة النهي عن توليهم، أي لأنهم أولياء بعض، يعني أولياء بعض عليك، لا تستنصر بإحدى الطائفتين على أختها، ولا تستنصر بطائفة منهما على عدو لك، فلن يصدقوك الولاية، بل هم معًا عليك، لا يألونك خبالًا. ومن يتولهم فقد ظلم، لأنه صار في معيتهم وبات منهم، فلا يهديه الله سبيلًا، والله لا يهدي الظالمين.

هذا النهي عن تولي أهل الكتاب من إعجاز القرآن في توجيهات القرآن، فلم يعرف التاريخ قديمه وحديثه - بل وحديثه بالذات - موقفًا انتصر فيه أهل الكتاب للمسلمين على عدوهم، وإنما هم ينتصرون لعدو المسلمين عليهم، أو ينتصرون لبعض المسلمين على بعض نكاية فيهم جميعًا، وإذكاء للفرقة بينهم، ليفشلوا وتذهب ريحهم وأنت تعلم بالطبع أن توجيهات القرآن للذين آمنوا توجيهات عاملة، ماض فيهم حكمها إلى يوم القيامة، لا تخص عصر التنزيل فحسب، بل انطباقها على هذا العصر أظهر وأبين.

لن أذهب بك بعيدًا، فعندك من هذا في الانتصار لعدو المسلمين عليهم، مثل فلسطين. وعندك من هذا في الانتصار لبعض المسلمين على بعض، مثل حرب البسوس بين العراق وإيران. وعندك من هذا في التحريش بين المسلمين تم التحريق عليهم. مثل حرب النفط في الخليج التي أتت على الأخضر واليابس في أرض المستغيث والمستغاث منه على السواء. المستجير بهم كالمستجير من الرمضاء بالنار، تحرقك كما تحرق أخاك المسلم الذي استنصرت بهم عليه، حليف الأمس وحليف اليوم، لا يرعون فيهما إلًّا ولا ذمة، فلا يبالون أين يصبون نيرانهم هنا أو هناك، يتبرون ما علوا تتبيرًا، فينسفون الفريقين نسفًا ويدمرون عليهم. وتدفع أنت[2] ثمن هذه النيران التي أحرقوا بها دارك ودار أخيك، وتدفع له أيضًا أجر

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) (أنت) في هذه الفقرة وما بعدها هم أنا وأنت وهو، أي المسلمون أجمع.

تعمير ما خربوه بأيديهم، بل وتدفع أيضًا نفقات جيش الاحتلال الذي استدعيته ليفصل بينك وبين أخيك، فما جاءوا لتحرير الكويت كما قد تظن أو لصد العراق، فقد استنفدوا أغراض التفويض الذي استصدروه لأنفسهم بتحرير الكويت وتجاوزوه إلى تركيع العراق، وما زالت قوات لهم ماضية في احتلال العراق ونحن نكتب ما نكتب، بحجة تأمين جيشهم في جنوبي العراق، وما خفي كان أعظم وإن كان قد بَرِح الخفاء. وليس بعد هذا غفلة. ولولا أن نخرج عن مقاصد هذا الكتاب لزدناك[1].

وليست آفة المسلمين اليوم أنهم تشرذموا دولًا، فالقرآن لم يستبعد هذا ولم يؤثمه، لقوله عز وجل: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]. افترض القرآن في (أخوة المؤمنين) انقسامهم طوائف، يعني دولًا، وافترض في هذه الدول قتالًا بين دولة ودولة، كما حدث بين العراق وإيران، ثم بين العراق والكويت، وافترض فيهم أيضًا باغيًا ومبغيًّا عليه. ولكنه افترض قبل هذا وذاك وجود (الجماعة) التي تنتصر للمبغي عليه وترد بالقسط والعدل على الباغي، أي (الجماعة) المأمورة في هاتين الآيتين بإقامة القسط والعدل. التي تحمل غيرها على الفيء إلى أمر الله. وقد غابت هذه (الجماعة) كما تعلم في حرب العراق وإيران، بل قد ظاهر مسلمون لا تشك في إسلامهم هذا العراق الباغي على إيران، معتلين بشعوبية جاهلية تقسم المسلمين إلى عرب وأعاجم، قد نسوا قوله عز وجل آنفًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، لا فرق في هذه الأخوة بين مسلم ومسلم، بل الكل في (أخوة المؤمنين) سواء. وما أسرع ما استدار الباغي على حلفاء الأمس، فحسبك الله ونعم الوكيل.

وإنما صار المسلمون اليوم إلى ما صاروا إليه لفقدانهم الإحساس بأنهم وحدهم من دون

(١) نكتب هذه الفقرة في استقبال شهر رمضان سنة ١٤١١ هـ (١٦/ ٣/ ١٩٩١ م) ولم تنته فصول المأساة بعد.

(٢) سورة الحجرات، الآيتان: ٩، ١٠.

الخلق (أمة)، الجامع بينهم هو الإسلام وحده.

وليس الإسلام شعارات وبطاقات هوية، ولكنه تحكيم القرآن والسنة في كل شأن من شئون حياتك، لا تأخذ نتفًا من هنا ونتفًا من هناك - كالذين يكتفون بإقامة الحدود وتغليظ الحجاب على استحياء في هذا وذاك - وإنما هو أولًا وبالأخص تحكيم القرآن والسنة تحكيمًا باتًّا في (القرار السياسي) الذي يحدد مسار المجتمع وغاياته وأهدافه، ويحدد ولاءاته وانتماءاته.

الذي يؤثمه القرآن هو غياب هذه (الجماعة) المأمورة وحدها في هاتين الآيتين بإقامة القسط والعدل، العاملة بأمر الله في مجتمعاتها، تعرف ما هو، فتحمل غيرها من المجتمعات المسلمة على أن (تفيء إلى أمر الله).

ولم تعد في المسلمين اليوم (الجماعة) المؤهلة لهذا الدور، لأنه لم يعد في المجتمعات المسلمة اليوم مجتمع واحد يحكم حقًّا وصدقًا بالكتاب والسنة، يعني أولًا وآخرًا يحكم القرآن والسنة في (قراره السياسي) داخل المجتمع المسلم وخارجه، ناهيك بمن يرجمون الداعين إلى هذا أو يصمونهم بالرجعية والتخلف.

الذين لا يرتضون تحكيم الكتاب والسنة في أنفسهم بحجة أن الاحتكام إلى الكتاب والسنة رجعية وتخلف، لا يقبل منهم التصدي للكلام بالإسلام في نزاع كلا طرفيه مسلم. وإنما يحتكم المسلمون اليوم في أنزعتهم إلى بطانة من غيرهم لا يألونهم خبالًا، قد نبذوا من القرآن - فيما نبذوا - قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[1].

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١١٨ - ١٢٠.

هذه البطانة، الذين لا يألونك خبالًا، الذين تحبهم ولا يحبونك، الذين إن تمسسك حسنة تسؤهم وإن تصبك سيئة يفرحوا بها - إن لم يكونوا هم الساعين فيها المعينين عليها - الذين لا يودون إلا إعناتك وتعنيتك، هم هؤلاء الأوروبيون - الأمريكيون شرقًا وغربًا، ورثة الروم الذين في القرآن بالدم والفكر والتوجه جميعًا. شهدت هذا في مواطأتهم إسرائيل عليك، وما زلت تشهده، ولن تزال. حتى تواضعت أحلامك فبات منتهى أملك وقد سلمتهم أمرك أن يردوا عليك جزءًا فحسب من فلسطين التي غصبوك عليها، متشفعًا لديهم بتلك (الشرعة الدولية) التي أعملوها فيك بهمة لا تعدلها همة يوم تداعوا عليك في الخليج كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها[1]. وهيهات هيهات. إنها شرعتهم هم، ليس لك فيها نصيب. ما زلت تحلم حتى تفيق. ولن تفيق حتى يرد الله عليك بصرك. ولن يرد الله عليك بصرك حتى تفيء إلى إسلامك، أي تفيء إلى (أمر الله)، وإلا فما أنت بمسلم.

وإذ لم تعد مسلمًا إلا شعارات وبطاقات هوية، فانتصر بمن شئت وما تشاء. قد خلى الله بينك وبين قوانين النصر والهزيمة، تفعل فيك فعلها، لا يؤازرك بنصره. وليتك وقد خُلِّيت لما اخترت، تعمل في إطار هذه القوانين فتتلمس أسباب النصر والغلبة، ولكنك لا تقلد غالبيك الذين فتنت بهم إلا في هزلهم ولهوهم ومباذلهم، لا شأن لك بجدهم وعلمهم وصنائعهم.

قال عز وجل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، أي قد تكفل الله بنصر الذين آمنوا حقًّا وصدقًا فعملوا بإيمانهم. أما أنت فقد أسلمت ولم تؤمن.

وإذا كان الله عز وجل لا ينصر المسلمين اليوم لأنهم فحسب يخالفون عن أمره، فما ظنك بمن توهم أن الله كان في نصر نصارى الروم على مجوس الفرس، وكلا الفريقين من

---

(١) كما تنبأ ﷺ. والحديث بتمامه: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها**» (أي كأنكم وليمة يدعو بعضهم بعضًا عليها). قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**لا. بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم كغثاء السيل**». (يعني كثير لا خير فيه). ولو رأيت احتشادهم عليك في الخليج حتى حثالتهم وأراذلهم لما حسبت هذا الحديث إلا فيه.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.

غير جنده؟ قد قالت الفرس: هرمزدا وأهرمن، وقالت الروم: آب وابن وملك.

لم ينتصر الله للفرس على الروم يوم كانت الغلبة للفرس، ولم ينتصر أيضًا للروم يوم تحققت نبوءة القرآن بِكرَّة الروم عليهم. ولكنه عز وجل - في المرتين - أعمل في كلا الفريقين قوانين النصر والهزيمة، فانتصر الذي اتخذ للنصر عدته، وانخذل الذي قصر وتوانى. أي أنه عز وجل خلى بين الفريقين وبين تلك القوانين، ولم (يتدخل) لنصرة فريق على فريق، فيقلب موازين القوى لصالح أولئك الذين كان نصره في معيتهم، كما فعل مع المسلمين في (بدر).

* * * *

بل إن الله عز وجل الذي نصر المسلمين في بدر وهم أذلة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1] يعني وهم مستضعفون لا يملكون من أسباب الفوز إلا هذا الإيمان الذي استحقوا به (نصر الله) على عدو يتفوق عليهم بالعدد والعدة، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم - القادر عليها في كل حين - لم ينصر هؤلاء المسلمين أنفسهم يوم أحد، وفيهم رسول الله، بل خلى بينهم وبين قوانين النصر والهزيمة، لا لشيء إلا لأن فريقًا منهم - والمعركة دائرة وبوادر النصر تلوح - أطمعتهم الغنائم: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[2] فتركوا مواقعهم وخالفوا عن أمر رسول الله، وكانت العاقبة التي تعلم: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3]. قال عز وجل في أولئك الذين كانوا يوم أحد سببًا في هزيمة جند الله وجند رسوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[4]. وإنما وسعهم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

حلم الله وغفرانه رحمة منه عز وجل فلم يهلكهم بذنبهم، بل استتابهم من زلتهم، لا يعصون نبيهم من بعد. وكانت (أحد) هي الموعظة والعبرة.

قال عز وجل يحذر الذين يخالفون عن أمر رسول الله الذي هو أمره تبارك وتعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

والذي حدث في (حنين) قريب من هذا وإن اختلف السبب: كانت الهزيمة في أحد عاقبة العصيان، أي عاقبة المخالفة عن أمر رسول الله، وكانت الكسرة الأولى في حنين عاقبة الاستنصار بغير الله، أي الاستنصار بالعدد والعدة، قالوا: لن نغلب اليوم من قلة! يعني أنهم في كثرة من العدد ووفرة من العدة، لا يحتاجون إلى مدد من الله. فحجب الله عنهم نصره وخلى بينهم وبين قوانين النصر والهزيمة، لأنه عز وجل غني عمن استغنى بنفسه. ولكنه لقنهم بها درسًا لا ينسونه من بعد.

قال عز وجل يذكر بنصره الذين آمنوا إذ هم مستنصرون به، ويبكتهم بخذلانه إياهم يوم استغنوا بأنفسهم: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[2].

ولو راجعت سجل هزائم المسلمين وانتصاراتهم على مدى التاريخ منذ عصر النبي ﷺ إلى هذا العصر وإلى ما شاء الله، لما وجدت إلا هذين السببين وراء هزائمهم: الاستنصار بغيره عز وجل أو النكول عن أمره. عندئذ ينخلع (المسلم) من صفة (المؤمن)، الطاعة والتوكل. وإنما يتكفل الله عز وجل بنصر (المؤمنين) فحسب.

انظر إلى بديع قوله تبارك وتعالى يشترط (الإيمان) على الذين آمنوا أنفسهم، كي يكون الله في نصرتهم: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3]: قد علم أنه يخاطب الذين آمنوا، ولكنه يشترط

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

عليهم الاستمساك بهذا الإيمان والعمل به، وإلا فلينتصروا لأنفسهم بأنفسهم إن استطاعوا.

تستظهر من هذا أن الله عز وجل لا ينتصر لجند، أي لا يمدهم بمدد من عنده، إلا جندًا هو قائدهم. لا ينتصر لروم أو فرس، ولا ينتصر لعرب أو عجم، بل ولا ينتصر للمسلمين أنفسهم، وإنما ينتصر فحسب للمؤمنين (الذين آمنوا)، لا يصح فهم عبارة (نصر الله) في كل القرآن إلا بهذا المعنى وحده.

* * * *

وإذ قد تقرر هذا، فلا يصح فهم قوله عز وجل في الآيات الست من مفتتح سورة الروم ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ على أنه - كما توهم مفسرون - فرح المؤمنين بانتصار الروم على الفرس، وإنما النصر المبشر به نصر آخر، تتنبأ به تلك الآيات للمؤمنين - أي المسلمين - على عدوهم، مشركي قريش، فيفرح المؤمنون بنصر الله إياهم.

دليلك في هذا - فوق ما تقدم - تعقيبه عز وجل على هذه البشرى بقوله: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، ولا معنى للرحمة هنا في انتصار يحرزه الروم على الفرس، وإنما كانت رحمته عز وجل بالمؤمنين، يوم قلب موازين القوى لصالح هؤلاء المستضعفين في بدر.

أما القاطع الحاسم، فهو تعقيبه عز وجل يؤكد وعده: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، فليس لروم أو فرس وعد عنده عز وجل، وإنما الوعد للمؤمنين الذين آمنوا.

ولا يصح أيضًا - كما توهم مفسرون - فهم (الوعد) على أنه وعد للمؤمنين بتحقق نبوءة القرآن بانتصار الروم على الفرس فيفرح المؤمنون. في مواجهة المنكرين الوحي على القرآن. بأن القرآن صَدَق. هذا تافه لا يعتد به. فقد ظل مشركو قريش على تكذيب القرآن بعد تحقق النبوءة بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، وما كان ليعجزهم أن يقولوا في محمد ﷺ: عراف يرجم بالغيب صدف.

(١) سورة الروم، الآية: ٦.

ولا يصح أخيرًا قول من قال إن المسلمين اغتموا لهزيمة الروم من الفرس لأن الروم أهل كتاب والفرس مجوس عبدة نيران أشبه بقريش عبدة الأوثان، الذين تهللوا لانتصار الفرس وعدوه انتصارًا لآلهة الشرك، أمثال آلهة قريش، وأن الآيات نزلت لتبشر المسلمين بأن فرحة قريش لن تدوم، فسينتصر الروم من بعد على الفرس، ويومئذ (يفرح المؤمنون) وتغتم قريش. هذا الكر والفر بين الفرس والروم لغو يتنزه القرآن عن إنزال آيات فيه، فضلًا عن أن يحتفل له، ناهيك بأن يكون قضية تشغل بال النبي ﷺ في مكة، بل ما كان ﷺ لينحاز إلى روم أو فرس، وكلاهما عدو للذين آمنوا. لو صح هذا لتحالف المسلمون مع الروم على الفرس، ولكن المسلمين الذين أجهزوا من بعد على الفرس، لم يفلتوا الروم.

الصحيح أن موقف عرب شبه الجزيرة من المعارك بين الفرس والروم كان موقف المتفرج لا موقف المشارك، لا تستثني من هذا إلا مناذرة الحيرة في العراق، موالي فارس، وغساسنة الشام، موالي الروم، وكلاهما على دين النصرانية، الغساسنة على مذهب قيصر بيزنطة آنذاك وأصحاب الحيرة نساطرة يخالفونهم في المذهب، ومن هنا تفهم حلف الغساسنة مع الروم، ولواذ المناذرة بالفرس، أعداء القيصر. أما قريش وغيرها من قبائل العرب فما كانوا يرون مصلحة لهم في هذا أو ذاك، وإنما وقفوا موقف المتفرج على حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، إلا لهو الحديث وتزجية الفراغ، ذلك الترف السياسي الذي ينعم فيه المتبطلون، شهود مباراة بين فريقين لا تكتمل لذتهم إلا بالتشجيع لهذا الفريق أو ذاك. وتستطيع أن تقول إنه قد كان من سادة مشركي قريش من كان هواه مع المناذرة موالي فارس، هللوا لانكسار الروم، أي هللوا لانتصار حزب المناذرة على حزب الغساسنة، وكلا الفريقين نصارى كما مر بك، لا مجوس ولا أهل كتاب. بل لم تكن حرب الفرس والروم أصلًا حرب تنصير أو تمجيس، وإنما كانت حربًا على السيادة والنفوذ في الشرق الأدنى القديم. دليلك في هذا أن الفرس يوم انتصروا لم يسعوا إلى نشر المجوسية في مصر والشام، وأن الروم لما انتصروا لم يسعوا في تنصر أعدائهم المجوس.

وتستطيع أن تقول أيضًا إن هذا الفريق من سادة قريش الذين هللوا لانكسار الروم - كما تقرأ

في كتب السيرة وكتب التفسير - أرادوا أن يغيظوا بها النبي وصحابته جادين أو هازلين: لو كان إله السماوات والأرض، إله محمد وإله المسيح، هو الإله الحق، أفكان ينكسر أمام آلهة النيران؟ يخلطون بين ثالوث النصارى وبين الواحد الأحد لا إله غيره، ويظنون ظن الجاهلية في تصورها (آلهة) تمشي على الأرض تحارب عن أتباعها، فهو صراع بين (الآلهة) لا صراع بين البشر.

لم يكن هذا بالطبع موضوع (الرهان) بين أبي بكر رضي الله عنه وبين هذا النفر من سادة قريش عقب نزول هذه الآيات من سورة الروم، أعني رهانه مشركي قريش على انتصار الروم من بعد على الفرس في بضع سنين من نزول الآيات. فلست ترتضي للصديق رضي الله عنه أن يغتم لانتصار آلهة النيران على ثالوث النصارى، أو أن يراهن على أن (الآب والابن والروح القدس) أقوى شكيمة من (هرمزدا وأهرمن). هذا عبث يتنزه عنه أبو بكر. وإنما قال هذا مفسرون منسقون مقولتهم على أن بعض الشر أهون من بعض، ومن ثم فبعض الكفر أهون من بعض. ولا تصح هذه (النسبية) في الدين بالذات. لأن الكفر كما تعلم ملة واحدة. وقد كفر القرآن عباد المسيح وجبريل كما كفر عباد هرمزدا وأهرمن، فلا ينتصر الله لهذا الفريق أو ذاك. تسمع قريبًا من هذا ممن أفتاك أواسط هذا القرن بالوقوف مع الغرب (المسيحي) ضد الشرق (الملحد)، وكلاهما عدو للذين آمنوا. وهو كما ترى تنسيق على ما قاله المفسرون من قبل في تأصيل فهمهم تلك الآيات من سورة الروم، أي أن بعض الكفر أهون من بعض. وهو خطأ محض. فموقف المسلمين من غير المسلمين واحد لا متلون: إنهم سلم لمن سالمهم، حرب على من حاربهم: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾[1][2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧.

(٢) إقحام الدين في السياسة محظور كما تعلم في نظم الحكم العلماني التي تقول لك: لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين. ولكنها تستجيز لنفسها ما تحظره عليك، فتتلفع بعباءة الدين حين تريد تأصيل مواقف سياسية تقررت، على مقولات دينية بنت المناسبة ليتها محصت. هذا فحسب هو القدر المسموح به في تلك النظم لكلمة الدين في القرار السياسى: إنه تطويع الدين للسياسة لا تطويع السياسة للدين، فبئس للظالمين بدلا.

وإنما راهن أبو بكر مشركي قريش الذين هللوا لانكسار الروم على صدق قوله عز وجل: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾[1]، ولم يزد. وقد صدقت النبوءة بتمامها كما تعلم، وربح الرهان أبو بكر.

* * * *

الفهم الصحيح لهذه الآيات الست من سورة الروم هو أن الله عز وجل يعد جنده الذين آمنوا - وهم يومئذ قليل مستضعفون في الأرض - بالنصر على عدوهم مشركي قريش نصرًا ما كان أحد من الذين (لا يعلمون) كما وصفتهم الآيات، يحسبه ممكنًا بأي معيار أردت، لولا أنه وعد من الله عز وجل لا يخلف الله وعده. وحددت الآيات لموعد هذا النصر علامة: ينتصر المسلمون يوم يبلغهم نبأ انتصار الروم على الفرس في بضع سنين من نزول الآيات. لم تقل الآيات (ينصر الله المؤمنين في بضع سنين) كيلا يقال إنه وعد على التراخي في أي يوم شئت خلال تسع سنين (والتسعة أقصى غاية البضع)، ولكنها وقتت لانتصار المسلمين على عدوهم موعدًا ربطته بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين من نزول الآيات، غير مقصود من الحديث عن المعارك بين الفرس والروم إلا هذا وحده.

وأنت تعلم بالطبع أن رابطة السببية معدومة تمامًا بأي معيار أردت بين انتصار يحرزه هرقل قيصر بيزنطة على كسرى أبرويز ملك الفرس وبين أول انتصار يحرزه الذين آمنوا على مشركي قريش. بل الحدثان منفصلان كل الانفصال في المكان، منفصلان كل الانفصال في المقدمات والنتائج. لم يكن كسرى حليف قريش ولم يكن قيصر حليف الذين آمنوا، ولم تكن مكة أو المدينة داخلتين في إستراتيجية الحرب بين الفرس والروم، حتى يكون ثم مجال للقول برابطة التداعي بين الحدثين، يؤذن وقوع أولهما بوقوع الثاني. أعني أن النبوءة بوقوع الحدث الأول وهو انتصار الروم على الفرس، لا تتضمن بذاتها النبوءة بوقوع الحدث الثاني وهو انتصار الذين آمنوا في بدر، تضمن السبب للنتيجة. وإنما هما نبوءتان منفصلتان، تجمع

(١) سورة الروم، الآيتان: ٣، ٤.

بينهما نبوءة ثالثة، هي التنبؤ بتزامن تحقق النبوءتين الأولى والثانية.

وهذا هو لب الإعجاز في هذه الآيات، الذي يتحدى به القرآن منكري الوحي عليه. لو وقفت النبوءة عند (توقع) انتصار الروم على الفرس في بضع سنين لقيل حكيم حصيف، قدر أن الحرب بين الفرس والروم كر وفر، كالعهد بالحرب بين كسرى وقيصر، جولة هنا وجولة هناك، وأن كرة الروم على الفرس لن تتأخر بحساب الزمن سوى بضع سنين، يضمد فيها قيصر جراحه، ويستجمع قواه، ويعيد تنظيم فلول جيشه، ويعبئ حشوده، طالما أن القسطنطينية عاصمة الروم وقلب الإمبراطورية صمدت لهجمات الفرس وردتهم على أعقابهم. ليس هذا تنبؤًا يحتاج إلى وحي، وإنما هو تقدير حصيف يستطيعه خبراء الإستراتيجية العسكرية في كل العصور، بل ما كنت لتعدم من يقول به من العرب أشياع الروم في شبه الجزيرة، بل ما كنت لتعدم بين قادة جيوش الفرس أنفسهم من يحسب حسابه ويعد العدة لمواجهته.

ولو قد توقفت النبوءة - من جهة أخرى - عند التنبؤ للذين آمنوا بالنصر على مشركي قريش في غد قريب، بضع سنين، والمسلمون يومئذ في قبضة قريش تنكل بهم وتسومهم العذاب ألوانًا، لا أمل لهم في مغالبة قريش، إلا رجاء أن تكفكف قريش أذاها، لقلت إنها نبوءة جريئة بكل المقاييس، لا يتورط في مثلها من خبراء الإستراتيجية أحد. ولكنك تفوتك خصوصية النبوءة التي في هذه الآيات، فالقرآن من قبل سورة الروم ومن بعدها لا يخلو من مثلها، أعني لا يخلو من موعدة المسلمين بالنصر على عدوهم في غد قريب: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1]، أما هذه الآيات من سورة الروم فهي تُوَقِّت موعد هذا النصر على الجزم والتأكيد: (وعد الله لا يخلف الله وعده). ومع ذلك فما كنت لتعدم بين كفار قريش من يقول لك: وماذا في هذا؟ صحت النبوءة أو لم تصح، رجل (يعني محمدًا ﷺ) يستنهض همة أتباعه، فيمنيهم الأماني، ويعدهم بالمحالات.

ولكن النبوءة التي في الآيات لم تتوقف عند هذا أو ذاك، ولكنها تنبأت بتزامن وقوع حدثين منبتي الصلة والأسباب، الأول وهو انتصار الروم على الفرس في بضع سنين، حدث

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

محتمل غير مستبعد بمنطق مسار الصراع بين ندين متكافئين تدور الحرب بينهما سجالًا، يدال لهذا من ذاك، فتقول جازمًا مطمئنًا إن الكرة التي كانت اليوم للفرس ستكون في الغد للروم غير بعيد. أما الحدث الثاني، وهو انتصار المسلمين على مشركي قريش (في بدر)، فالتنبؤ به يوم نزلت الآيات تنبؤ بالمحال في منطق الناس، خبراء وغير خبراء، لا يتورط في مثله عراف أو كاهن. وأبعد من هذا وذاك التنبؤ بتوقيت واحد لوقوع هذين الحدثين المنفصلين، الممكن والمستحيل. لم تقل الآيات ينتصر الروم في بضع سنين، وينتصر المؤمنون أيضًا في بضع سنين، كي تستجيز أن ينتصر الروم في خلال خمس سنين مثلًا وينتصر المؤمنون في خلال سبع سنين، أو العكس، والخمس والسبع كلتاهما داخلتان في (البضع)، ولكن الآيات تقول ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾، يعني ينتصر المؤمنون يوم يبلغهم نبأ انتصار الروم على الفرس، لا قبل ولا بعد. وقد حدث، فأي إعجاز وأي علم.

الوحيد الذي فهم النبوءة على وجهها يوم أنزلت الآيات هو بالطبع الصادق المصدوق ﷺ، ولكنه لم يفسرها لصحابته على معنى التزامن بين انتصار الروم في بضع سنين وبين (اليوم) الذي يفرح فيه المؤمنون بنصر الله، كما تستطيع أنت اليوم تفسيرها وقد تحققت النبوءة. وإنما فطن إلى هذا من فطن من المسلمين والمفسرين من بعد بدر. وكانت هذه حكمة بالغة: لو فهم المسلمون النبوءة على وجهها وبتوقيتها يوم أنزلت الآيات لتهاونوا في مجاهدة قريش، ولقعدوا يتسقطون أنباء المعارك بين الفرس والروم، ينتصر المسلمون يوم ينهزم الفرس. وهذا يفسر لك لماذا اقتصر رهان أبي بكر على انتصار الروم في بضع سنين ولم يزد. وهو يفسر لك أيضًا احتفال المفسرين بربح أبي بكر الرهان وصدق نبوءة القرآن بانتصار الروم في بضع سنين، دون أن يلتفت أكثرهم إلى جوهر الإعجاز في نبوءة هذه الآيات: توقيت يوم انتصار المسلمين في بدر، يوم السابع عشر من رمضان في السنة الثانية

ومما تقرؤه في كتب التفسير (ومنها تفسير القرطبي) أن جبريل عليه السلام نزل يوم بدر فأنبأ النبي بانتصار الروم على الفرس. هنا تفهم ما فهمه ﷺ من هذه البشرى، ينتصر المسلمون يوم ينتصر الروم على الفرس، فما أن فارقه جبريل حتى خرج يستنجز ربه ما وعده

في تلك الآيات من سورة الروم، وأكب في الدعاء حتى سقط عنه رداؤه: «**اللهم نصرك الذي وعدتني!**». وجاء نصر الله الذي كان فاتحة كل نصر يحرزه المسلمون من بعد، وصدق الله وصدق رسوله.

أما المفسرون الذين لم يربطوا بين انتصار الروم وبين توقيت النبوءة لانتصار يحرزه المسلمون على قريش، وفاتهم من ثم جوهر الإعجاز في تلك الآيات، فقد اضطروا إلى تعليل (فرحة المؤمنين يومئذ بنصر الله) بأنها الفرحة لانتصار أهل كتاب على مجوس، وهو خطأ محض كما مر بك، لا سند له من قرآن أو سنة، ولكنه كان التكأة التي يتكئ عليها الذين يفتونك اليوم بموالاة أهل الكتاب على غيرهم، مهما لقيت منهم أو شقيت بهم.

وأما المفسرون الذين التفتوا إلى هذا الربط بين انتصار الروم وبين انتصار يحرزه المسلمون على عدوهم، فقد تفاوتوا في تحديد الغزوة التي انتصر فيها المسلمون يوم انتصر الروم على الفرس، لأنهم لم يعنوا بتحديد التواريخ الدقيقة لسجل المعارك بين الفرس والروم، كي يطابقوه على سجل المعارك بين المسلمين وبين قريش، فمن قائل إنها غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة (وهو الصحيح كما سترى)، ومن قائل إنها غزوة الحديبية سنة ست، وهذا يتعارض مع قوله عز وجل: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ أي دون العشر، وما بين نزول سورة الروم وغزوة الحديبية حوالي ثلاث عشرة سنة، ولكن قائل هذا لم يتلبث، وربما زعم أن البضع السنين هي من موعد رهان أبي بكر قريشًا، وهو تخريج سقيم يناقض نص الآيات، فلا تلتفت إليه.

والذي لم يتلبث عنده أيضًا هؤلاء المفسرون هو قوله عز وجل: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾، يحدد مكان الموقعة التي انهزم فيها الروم من الفرس والمعنية في الآيات، والذي سيكون هو نفسه في بضع سنين مكان الموقعة التي سيدال فيها للروم من الفرس، لقوله عز وجل: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾، أي غلبوا في أدنى الأرض وسَيَغْلِبُون في أدنى الأرض أيضًا في بضع سنين من نزول الآيات. هذا هو الفهم المباشر لعبارة القرآن بمنطق اللغة العربية التي تجتزئ عن ذكر ظرف المكان في الشق الثاني

بسبق النص عليه في الشق الأول حين مكون ظرف المكان في الشقين واحدًا، ولا سيما حين تكون مادة الفعل في الشقين هي نفسها (غُلِبت)، (سَيَغْلِبون)، والمسند إليه في الشقين واحد (الروم)، وذلك كراهية التكرار الذي هو حشو لا فائدة فيه. من ذلك قولك: (جئتك في دارك بالأمس، وسأجيئك غدًا) فتفهم مني مباشرة أني سأجيئك غدًا في دارك أيضًا لا في غيرها، وإلا لنصصت لك على المكان الآخر الذي سأجيئك فيه غدًا. بهذا وحده يكتمل فهم النبوءة بانتصار الروم على الفرس – المتزامن مع انتصار يحرزه المؤمنون فيفرحون به – فهمًا محددًا في المكان والزمان: في أدنى الأرض، وفي بضع سنين. أما إن تركت المكان غفلًا في النبوءة، فعندئذ تحتار في اختيار الموقعة من بين مواقع انتصر فيها الروم على الفرس بعد نزول الآيات، أهي انتصارهم على الفرس في مصر، أم الشام، أم في الأناضول، أم في أرض الفرس نفسها. ومن ثم يتفاوت قولك في تحديد الموقعة المتزامنة التي انتصر فيها المسلمون على عدوهم. على أن هذا الفريق من المفسرين اختلف أيضًا في مدلول (أدنى الأرض)، التي فهموها بمعنى (أقرب الأرض)، فمن قائل إنه أقرب الأرض إلى الفرس، ومن قائل أقرب الأرض إلى الروم، ومن قائل أقرب الأرض إلى العرب. هنا لا تدري على وجه اليقين أي مكان تعنيه الآيات بقولها (غلبت الروم في أدنى الأرض) فتحتار في اختيار الموقعة المعنية في سلسلة معارك الفرس والروم التي انتصر فيها الفرس على الروم، وتخبط خبط عشواء في تحديد التاريخ الذي تبدأ منه البضع السنين.

مفتاح فهم النبوءة على وجهها هو فهم معنى (أدنى الأرض) التي في الآيات لأنها هي التي تحدد لك مكان الموقعة المعنية في الآيات بين الفرس والروم كرًّا وفرًّا، الأولى والثانية، فتقطع بيقين لا شك معه بمبدأ ومنتهى الفاصل الزمني بينهما، الداخل في إطار المهلة المضروبة في القرآن لموعد كرة الروم على الفرس، الذي هو نفسه موعد انتصار المسلمين في بدر كما سترى. ولم يوفق المفسرون إلى فهم مدلول (أدنى الأرض) رغم أن منهم علماء في اللغة العربية، فتشبثوا بأن معنى (الأدنى) هنا هو (الأقرب) من دنا يدنو فهو دان، لا معنى له غير هذا. ولكن (الأدنى) كما يعلم هؤلاء المفسرون ويعلم علماء العربية

جميعًا لا تجيء فقط بمعنى أفعل التفضيل من دنا يدنو فهو دان، أي قريب، وإنما تجيء أيضًا على معنى الأسفل الوطيء. لا يقول العرب في أفعل التفضيل من (الدون) الأدون، وإنما يقولون (الأدنى)، وكأنها (الأدنأ) من دنؤ يدنؤ فهو دنيء، سهلت همزته. ومن هذا تجيء (الدنيا) التي نعيش فيها، مؤنث (الأدنى). ليست هي من القرب والدنو، وإنما هي من السفلية والتحتية والوطاءة، يعني التي أهبط إليها آدم. وقد استخدم القرآن لفظة (الأدنى) بالمعنيين كليهما، فجاءت على معنى الأقرب في مثل قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾[1]، أي أقرب. وجاءت بمعنى الدون والأدنأ في مثل قوله عز وجل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[2]، أي الأرذل لا الأقرب بالطبع، وفي قوله عز وجل: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾[3]، يعني أقل أي دون. بل إن القرآن يستخدم أحيانًا مادة دنا يدنو نفسها لا بمعنى قرب، وإنما بمعنى هبط، في حديثه عن تنزل جبريل بالوحي: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[4]، لا يصح فهمها بمعنى قرب فتدلى. واستخدمها أيضًا على معنى التحتية والدونية في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[5]، يعني يرخينها إلى أسفل، وليس يقربنها من أجسادهن. الأدنى تجيء أيضًا بمعنى الوطيء الهابط قطعًا. والوطيء في اللغات العبرانية والآرامية والكنعانية هي (كنعان)، التي تجد أثارة منها في مادة (كنع) العربية حين تقول: (كنعت الشمس إلى المغيب) أي مالت.

لم يوفق المفسرون إلى هذا المعنى الآخر في عبارة أدنى الأرض، لأنهم لم يعلموا أن القرآن يستخدم هذه العبارة لا على الصفة، وإنما على العلمية: إنها ترجمة القرآن المعجز لاسم فلسطين بلغة أصحاب الأرض (الكنعانيين) قبل أن يكون لبنى إسرائيل في فلسطين

(١) سورة النساء، الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٧.
(٤) سورة النجم، الآية: ٨.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

وجود. إنها (كنعان) أو (إرص كنعان) (أرض كنعان)، يعني (الأرض الوطيئة). وسبحان العليم الخبير القائل بكل اللغات، الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

****

نزلت تلك الآيات من سورة الروم ما بين السنتين السابعة والسادسة قبل الهجرة (٦١٤م - ٦١٥ م)، فهي تشير بالقطع إلى تلك الموقعة التي انهزم فيها الروم أمام الفرس على أرض فلسطين سنة ٦١٤ م، وكانت فاتحة لهزائم الروم أمام الفرس في سورية، وفى مصر وليبيا (سنة ٦١٩ م)، وتراجع الروم في الأناضول حتى أسوار القسطنطينية. ومفهوم الآيات المباشر أن (البضع السنين) - أي ما دون العشر - تحسب منذ بدء صولة الفرس على الروم سنة ٦١٤ م إلى مبدأ كرة الروم عليهم: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾، يعني لن تتأخر كرة الروم على الفرس إلى أبعد من سنة ٦٢٤ م قبل اكتمال عشر سنين، متوافقة مع نصر الله الذي يفرح به المؤمنون في بدر يوم السابع عشر من رمضان سنة ٢ هـ (إبريل سنة ٦٢٤ م). والثابت تاريخيًا أن الروم قبعوا وراء أسوار القسطنطينية حتى سنة ٦٢٢م، لم يخرجوا لمناجزة الفرس إلا يوم خرج هرقل بجيشه في تلك السنة في أول حرب صليبية عرفها التاريخ، وهو يرتدي المسوح ويرفع صورة مقدسة للعذراء، تهلل له أجراس الكنائس، وتدوي من خلفه صلوات وترانيم، تدعو له بالنصر على الفرس المجوس، واستعادة المدينة المقدسة أورشليم، واسترداد (عود الصليب) الذي استلبه المجوس يوم استولوا على أورشليم[1]. لم يكن الرجل قديسًا يؤازره الله بنصره على الفرس المجوس كما توهم مفسرون، أو كما تصوره لك بعض كتابات مؤرخي المسيحية، فقد علم الذين قرعوا لمخرجه الأجراس وشيعوا جيشه بالصلوات والترانيم أن نكاح المحارم زنا صريح، وقد نكح هرقل (مارتينا) ابنة أخته فاستولدها تسعة بنين وبنات، وصحبته في حملاته وغزوا ته، ولكنها سياسة الملوك في استنهاض الهمم بالدين. لا تستثار نخوتهم لشأن من شؤون الدين إلا لهذا، يعصون الله ويتبجحون فيسألونه النصرة.

(١) (عود الصليب) هو إحدى قطعتي الخشبة التي يظن أن قد كان صلب المسيح عليها.

لم تكن أمام هرقل يوم خرج لمناجزة الفرس سنة ٦٢٢ م سوى سنة وبضع سنة من المهلة المضروبة في الآيات لكرة الروم على الفرس في بضع سنين تبدأ من سنة ٦١٤ م كما مر بك. ولكن المعارك بين الروم والفرس طالت بين كر وفر حتى حقق الروم نصرهم الحاسم على الفرس في فبرا ير سنة ٦٢٨م على أرض الفرس نفسها، فسلم لهم الفرس بالسيادة على أراضي الروم في آسيا الصغرى وفى الشام ومصر وما يليها، وأعادوا إليهم (عود الصليب). وليست هذه بالطبع هي الموقعة المعنية في الآيات. وإن توافقت مع غزوة الحديبية سنة ست هجرية كما قال مفسرون - أولًا لأنها تجاوزت المهلة المضروبة في القرآن بسنوات أربع، إن قلت بها فقد خطأت القرآن، أعني لم تحسن الفهم عنه، لأن القرآن يريد مبدأ كرة الروم على الفرس لا منتهاها، كما أراد مبدأ صولة الفرس على الروم سنة ٦١٤م لا منتهاها سنة ٦٢٢م. وثانيًا لأن القرآن يريد معركة بعينها بين الفرس والروم يغلب فيها الروم الفرس مثلما غلبوهم في أدنى الأرض منذ بضع سنين. أعني معركة تدور على أرض فلسطين. ورغم اضطراب المؤرخين في تحديد التواريخ الدقيقة لمعارك الفرس والروم منذ سنة ٦٢٢م، فالثابت تاريخيًّا أنه قد كانت للروم على الفرس كرتان، انتهت أولاهما بدخولهم أرض الفرس سنة ٦٢٤م ثم تراجعوا إلى الأناضول. وكر الفرس عليهم حتى ألجئوهم إلى ضفاف البوسفور سنة ٦٢٦م، ولكن كرة الفرس كانت تشبه صحوة الموت، فما لبث الروم أن كروا عليهم كرتهم الثانية التي انتهت بانتصارهم الحاسم في فبراير سنة ٦٢٨م. ولا شك أن القرآن يعني كرة الروم الأولى التي انتهت سنة ٦٢٤م لا كرتهم الثانية، دليلك في هذا من القرآن (البضعُ السنين) محسوبة ابتداء من سنة ٦١٤م كما مر بك إلى أوائل سنة ٦٢٤م ميلادية على الأكثر (سنة ٢ هـ) قبيل انتصار الذين آمنوا في بدر يوم ١٧ رمضان سنة اثنتين للهجرة (إبريل سنة ٦٢٤م). وقد حفلت كرة الروم الأولى بانتصارات للروم على الفرس في القوقاز وأرمينيا والأناضول حتى نهر الفرات، وفى أرض الفرس نفسها حتى تبريز، ومنها الذي يعنينا هنا استعادة القدس أواخر ٦٢٣م أو أوائل ٦٢٤م، **قبيل انتصار المسلمين في بدر** (إبريل ٦٢٤م).

هذه النبوءة التي ربطت بين انتصار الروم على الفرس في أدنى الأرض وبين انتصار الذين آمنوا في بدر، أي بين الممكن والمستحيل في منطق الناس، هي نبوءة بغيب محض، لا يستطيعها إلا علام الغيوب.

فسبحان عالم الغيب لا يظهر على غيبه أحدًا، إلا من ارتضى من رسول.

❋❋❋❋

أما لفظة الروم التي تعنينا في مباحث هذا الكتاب، فهي كما مر بك نسبة إلى (روما) الأصلية التي في إيطاليا وإن انتسب إليها البيزنطيون المعنيون في القرآن.

وأنت تعلم بالطبع أن (روما) الأصلية في لغة أهلها اللاتين تكتب وتنطق *Roma*، ولكن الذي لا تعلمه إن كنت لا تعرف اليونانية، لغة البيزنطيين المعنيين في القرآن، فهو أن روما هذه نفسها في لغة اليونان تكتب وتنطق (رومي) *Romi*. وقد حار اللغويون في تفسير أصل معنى (روما) *Roma* في لغة أهلها، إذ لا اشتقاق لها ترد إليه في لغة اللاتين، فقيل إنها منحوتة من لغة أهل إتروريا، قوم في إيطاليا سكنوا قديمًا تُسكانيا وجزءًا من أمبريا على الساحل الغربي من إيطاليا، بادت لغتهم. وفى أساطير الرومان أن روما بناها حوالي ٧٥٣ قبل الميلاد الأخوان رومولوس وريموس، فربما جاء اسم روما على النسب إلى هذين. وهذا عند اللغويين لا يقدم ولا يؤخر، لتعذر تفسير اشتقاق هذين الاسمين كذلك من اللغة الإترورية.

ولكن القرآن المعجز يفطن إلى ما لم يفطن إليه أولئك اللغويون، فيدرك منذ أربعة عشر قرنًا أن تحول اليونان في لغتهم باللفظ *Roma* الإتروري إلى *Romi* اليونانية لم يأت من فراغ بل أرادوا إصابة المعنى الذي أراده الإتروريون من لفظة Roma في لغتهم، وهو القوة وشدة البأس. ذلك أن (رومي) *Romi* اليونانية كما تعني اسم مدينة روما تعني أيضًا في اليونانية بذات حرفها ولفظها (القوة وشدة البأس).

قال عز وجل يجانس على (الروم) ذوي القوة وشدة البأس، يفسر معناها بالتقابل والترادف معًا وفق منهجنا في هذا الكتاب: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾[1]، يعني غُلب الشديد القوي وسيغلب أيضًا، يكرر مادة الغلب في شأنهم ثلاث مرات، فعل القائل المتثبت، المتمكن مما يقول.

لم يكن هذا موقف أصحاب المعاجم الذين تصدوا مؤخرًا لتفسير معنى (روما) الإترورية، تنسيقًا على (رومي) اليونانية، فقالوا متظننين غير متثبتين (?) ***Rome = strength***[2] (روما = القوة؟) يتبعون تفسيرهم بعلامة استفهام، فعل المتردد الذي لا يقطع بيقين. أما القرآن الذي قالها قبل أن يقولوها بأربعة عشر قرنًا فهو يقولها قولة العارف المتيقن.

ألا فسبح معي العليم الخبير، القائل بكل اللغات، الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

والحمد لله رب العالمين.

* * * *

(١) سورة الروم، الآيات: ١ – ٣.

(2) WEBSTER'S DICTINARY (UNABRIDGED). 2nd edition. 1978. Supplements. Scripture Proper Names & Foreign Words. p. 96.

في ختام البحث

الخاتمة

الحمد لله وَلِي النِّعَم: استهديناه فهدانا، واستعناه فأعان.

بدأنا أول سطر في هذا البحث أوائل شوال سنة ١٤٠٩ هـ (مايو سنة ١٩٨٩م)، وفرغنا منه بفضل الله وعونه وتوفيقه في أواخر رمضان سنة ١٤١١ هـ (إبريل سنة ١٩٩١م) أي في عامين اثنين، بل في عامين لم يكتملا إن استبعدت نحو ستة أشهر صرفتنا خلالها عن هذا البحث صوارف لا تخلو من مثلها شواغل هذه الحياة. وكان متوسط ساعات العمل اليومي في البحث والكتابة والمراجعة نحوًا من أربع ساعات. وليس هذا بكثير على بحث بهذه الضخامة، وموضوع بهذه الجدية، ناهيك بما يقتضيه الكلام في كتاب الله عز وجل من تؤدة وأناة، ومن تحرز وتثبت. ولكنه توفيق الله تبارك وتعالى، له الحمد في الأولى وفي الآخرة.

ولئن كان الجهد المبذول في هذا الكتاب شاقًّا مضنيًا، فما شقينا به البتة، بل قد سعدنا به ونعمنا، بل قل كان لنا لذة لا تعدلها لذة: صُحبة القرآن، والجلوس إليه، والتمعن فيه. وكان نعيمنا الأعظم لحظة يمن الله علينا باستجلاء إعجاز القرآن في تفسيره معنى هذا العلم الأعجمي أو ذاك، أو بانكشاف وجه جديد في فهم آيات من القرآن لم يفطن إليه قدامى المفسرين وأنت تعلم بالطبع كيف تدمع العين ويخشع القلب لحظة يقال لك وجه من وجوه إعجاز هذا القرآن لم تعلمه من قبل، فما بالك بالذي ينكشف له قبس من هذا الإعجاز بفضل من الله ونعمة فيعاين هذا الإعجاز كفاحًا أول مرة؟ تلك لحظات قصار ثقال، كنا فيها وجهًا لوجه مع فتوح الباري جل جلاله، نقبس من فيوض آلائه: القلب يرجف في جلال كنفه، تسبيحًا وتحميدًا، والقلم يجري بما شاء له الله أن يجري، والدموع ملء المآقي.

ما ذقت نعيمًا في هذه الدنيا كالذي عشته وأنا أكتب في ظل تلك اللحظات القصار الثقال، وما زال مذاقه يملأ كل وجداني، يُغالبني الحنين إليه بين الفَيْنَة والفينة، فأعاود قراءة ما كتبه في لحظات التجلي، أستروح جلالها وجمالها، فيجيش القلب، وتدمع العين، وتتجدد النعمة.

وما أعظمه من أجر في هذه الدنيا لقاء عمل ما أردته إلا خالصًا لوجهه عز وجل، أبتغي به رضوان الله في الآخرة، طامعًا في جزيل ثوابه، وواسع رحمته، وكريم عفوه وغفرانه، أستقيلك رب من عثرات قلم لا يخلو من مثلها قول البشر، وأبوء إليك سبحانك بنعمة التوفيق فيما وفقت إليه.

****

أما فكرة البحث نفسها فقد لاحت لي منذ عشر سنين سبقت الشروع فيه، عشتها في مدينة جنيف بسويسرا أثناء عملي بالأمم المتحدة هناك، كانت الفكرة تومض وتخبو، تغدو وتروح، وربما سنحت لي أمثلة من (إعجاز القرآن في أعجمي القرآن) طرحتها على إخوة زُملاء، من أهل الفضل والعلم والفكر والأدب، كانوا لي نِعْمَ الظهير في كتابة هذا البحث. منهم الذي دفعني إلى الكتابة دفعًا وليس لي بالكتابة سابق عهد، ومنهم الذي يسعى معي على قدميه إلى المكتبات نقلب رفوفها بحثًا عن المراجع شديدة التخصص التي يرتكز عليها هذا البحث[1] بل وتطوع فأمدني بذلك المعجم النفيس في ألفاظ (توراة الأنبياء والكتبة (هَمِّلُّون هِحَداش لَتَناخ) عبري / عبري، المطبوع في إسرائيل، ليكون لي على مقولات هذا الكتاب شاهد من أهلها. وكان منهم أيضًا الذي حدثني عن كتاب أعيد طبعه لمستشرق يتصدي للعلم الأعجمي في القرآن[2]، ينبهني إلى أنني قد أكون مسبوقًا فيما أنوى أن أكتب، يخشى أن يكون قد سبقني إليه هذا المستشرق، ولكن علمي بخبيئة أهل الاستشراق حين يتكلمون في القرآن منعني من تصور مستشرق يكتب في إعجاز القرآن غير مؤمن بأنه وحي الله على عبده

(١) كان من بين أصحاب تلك المكتبات المتخصصة يهودٌ تَوَجُّسوا منا، وحاولوا التعمية علينا، تشككًا في مقاصدنا، ولكن صاحبي الذي يجيد العبرية حدثهم بها فأزال هواجسهم.

(2) J. HOROVITZ, Jewish Proper Names and Derivaties in the Koran.op. cit.

ورسوله محمد ﷺ. القرآن في آذان هؤلاء وقر، وعلى أعينهم عمًى. ولكني صابرت النفس على قراءة الكتاب، وما إن فرغت منه حتى أدركت أنه من أنفس المراجع المضادة لمقولات هذا البحث، لأنه يُلخص أبلغ تلخيص مقولة الاستشراق في أعلام القرآن، لا حاجة بك معه إلى غيره، إن أردت الاطلاع على غثاثة أولئك المستشرقين وفساد طويتهم حين يتكلمون في القرآن، وقد أغلظنا على هذا المستشرق وإخوته في تضاعيف هذا البحث، فكان لا بد من الإشارة إلى مؤلفه في حواشي هذا الكتاب وإدراجه في قائمة مراجعه.

كانت صحبة جنيف، الذين أدين لهم بالمودة والعرفان ما حييت، هم أول قُرَّاء هذا البحث، فقد حرصت على إقرائهم إياه تباعًا حتى اكتمل. وكان حماسهم البالغ لما أكتب، وتقريظهم الذي أعرف وزنه، وإلحاحهم الدءوب عليَّ بالإسراع في نشره فور الفراغ منه، دافعي إلى الخروج بهذا البحث على جمهور لم يقرأ بعد شيئًا لكاتبه.

* * * *

على أن تلك السنوات العشر التي قضيتها في جنيف قبل البدء في كتابة هذا البحث، لم تمض عبثًا. فقد كان في ذهني مشروع كتاب في تأصيل مفهوم الحكم بالإسلام في المجتمع المسلم، قطعت فيه شوطًا يقرب من ثلثيه أو نصفه، ثم أرجأت المضي فيه، نزولًا على نصح أولئك الإخوة الزملاء، إلى أن أفرغ من هذا الكتاب الذي بين يديك.

ولأن موضوع البحثين واحد - كتاب الله عز وجل - فقد شُغلت طيلة تلك السنوات العشر بشيء واحد لا أعدوه إلى غيره إلا لمامًا، وهو تدارس القرآن في كتب التفسير، أبدئ فيها وأعيد، فأقع على الدُّرِّ الثمين، وأصطدم أيضًا بما هو دون ذلك، الذي تلقاه الخلف عن السلف دون تمحيص.

فأنت تعلم بالطبع أن علم التفسير يحتاج ممن يتصدى له إلى جملة علوم. أولها بإطلاق علوم اللغة العربية وعلم الحديث. وثانيها التاريخ، وثالثها العلوم الطبيعية والاجتماعية، ولكنه يحتاج أيضًا ممن يتصدى له إلى القدرة على تحقيق النصوص التي يستشهد بها من

خارج القرآن والحديث الصحيح عن الصادق المصدوق ﷺ، في مصادرها المدونة بلغة الأصل الذي كتبت به، فلا يسمع لرواة أهل الكتاب - الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني كما وصفهم الحق تبارك وتعالى - دون تمحيص، وإنما يحقق ما يُروى له في مصادره الأصلية، أي في التوراة والإنجيل. ولم تكن على عصر تفاسير القرآن ثمة ترجمة عربية للتوراة والإنجيل كما تجد لهما اليوم ترجمات بكل اللغات، ولم يكن من أهل التفسير من يستطيع قراءة التوراة والإنجيل في نصهما الأصلي. العبراني واليوناني، فيمحص ما يلقيه إليه رواة أهل الكتاب ليعلم أن قد صدق الرواة أم كذبوا ودلسوا، أو اخترعوا بغية لهو الحديث. ومن هذه تلك الإسرائيليات التي دسها صغار رواة أهل الكتاب من يهودَ على أهل التفسير وانخدع بها لفيف منهم، لا يخلو منها كتاب من كتب التفسير مهما جل قدر صاحبه، فيضل به القارئ العام غير المتخصص، إلا من عصم ربك. وقد جرني هذا إلى تدارس (الكتاب المقدس) بشطريه - التوراة والإنجيل - في ترجماتهما العربية، ثم إلى مراجعة هذه الترجمة حين يُعضل فهم وجه الصواب فيها، على الأصل العبراني للتوراة، والأصل اليوناني للإنجيل.

كنت - دون أن أدري - أعد لمادة هذا البحث الذي بين يديك، وأجمع أدواته. ولكن العبرانية - أعني عبرية التوراة لا العبرية المعاصرة - واليونانية الكنسية - لغة الأناجيل - لا تكفيان وحدهما في تأصيل مقولات هذا البحث، بل لا بد من دراسة الآرامية - لغة أهل فلسطين على عصر المسيح - وأيضًا المصرية الهيروغليفية التي لا بد منها في تحليل أسماء بعض أعلام القرآن، كما رأيت في موسى وفرعون ومِصر وسيناء. وقد أكرمني الله عز وجل منذ الصبا بشيء لا أحسبه اليوم إلا إعدادي لكتابة هذا البحث بالذات، وهو شغفي الذي لم أبرأ منه بعد بالدراسات اللغوية، الأمر الذي يسر لي العلم بعدة لغات، عِلْم الباحث لا علم المتكلم ذَرْب اللسان. وكانت هذه نعمة من الله عز وجل، أتاحت لي الغوص في تلك اللغات - ومنها بائد - التي احتاجت إليها مباحث هذا الكتاب.



ولأن مقولة هذا الكتاب - القائلة بأن القرآن يفسر أعلامه الأعجمية في سياق الآيات بالترادف والتقابل والتعريب والترجمة والمشاكلة والسياق العام - مقولة جديدة غير مسبوقة، لا أعلم أحدًا لمح إليها من قبل، ناهيك بأن كتب فيها، فلن تجد بالطبع مراجع لهذا البحث في كتب سبقت. وإنما الأسانيد الأساسية لهذا البحث هي المراجع اللغوية فحسب، أي المعاجم المتخصصة. وقد عنيت في انتقاء هذه المراجع بما هو متاح منها في الأسواق، تيسيرًا على القارئ والناقد والخَصْم، ممن يودون التثبت من مقولات هذا الكتاب أو التصدي لها.

وقد اجتزأت من تفاسير القرآن بأوسعها في هذا العصر انتشارًا، وهو أيضًا أحكمها وأشملها، أعني تفسير الإمام القرطبي رحمه الله (الجامع لأحكام القرآن) الذي نتمنى ألا يخلو منه بيت مسلم، وفي هذا التفسير أيضًا فضيلة، هي اهتمامه بالتأصيل اللغوي، الذي يكمل النقص في معاجم اللغة العربية الحديثة المنتشرة في الأسواق، وأهمها بالطبع (المعجم الوسيط) الصادر عن مجمع اللغة العربية بمصر.

أما كتب الحديث النبوي الشريف، فإني أرشح لك (صحيح مسلم) (بشرح النووي)، تجتزئ به عن غيره من كتب الصحاح الستة، ليس فقط لأنه رائج في المكتبات، وإنما أيضًا لأنه أخصر الصحاح بإطلاق فتأمن الزيادة والتزيد، وهو أيضًا - فيما تضمنه من حديث المصطفى ﷺ - أدقها متنًا وأضبطها إسنادًا، إن استشهدت منه بحديث فقلت: خرَّجه مسلم! فقد كُفيت. على أننا في هذا الكتاب لم نُرد الاستكثار من الحديث، بل كان همنا الاستشهاد للقرآن بالقرآن نفسه، على ما يجدر ببحث في (التفسير القرآني) للعلم الأعجمي في القرآن.

أما القرآن كتاب الله عز وجل، فلديك مصحفك والحمد لله. وإني لأعوذ بوجهه الكريم أن يُجنِّب هذا البحث هنات الطباعة في لفظ أو حرف من كلام الله عز وجل. وقد عُنيت في إيراد الآيات بذكر اسم السورة ورقم الآية، كي تراجعها معي على مصحفك فلا تتصحف عليك[1].

---

(١) تصحف عليك اللفظ يعني تَحَرَّف، لخطأ في رسمه أو في ضبطه بالشكل والنقط.

ولا تفوتني الإشارة إلى (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) للأستاذ فؤاد عبد الباقي رحمه الله، الذي يدلك - بكلمة واحدة تحفظها من الآية - على رقم الآية واسم السورة في كتاب الله عز وجل، فلا يستغني عنه دارس للقرآن في هذا العصر الذي شح فيه حفاظ القرآن عن ظهر قلب، جزاه الله عن أهل القرآن خيرًا.

هناك أيضًا - على الجانب الآخر - التوراة والإنجيل، ولديك في المكتبات ترجماتهما العربية المعتمدة من السلطة الدينية المختصة. وتستطيع أيضًا - إن أردت - الرجوع إلى نصهما الأصلي العبراني واليوناني، وقد أثبت لك في قائمة المراجع اسم الناشر واسم المكتبة.

وقد عُنيت في كل نص استشهدت به من (الكتاب المقدس) بشطريه - أعني التوراة والإنجيل - بذكر رقم الإصحاح ورقم (الآية). والإصحاح من التوراة والإنجيل يعني في مصطلح أهل الكتاب ما تعنيه (السورة) عند أهل القرآن، وهو أيضًا من معناها قريب[1]، فهو مصدر من الصحة لا بمعنى السلامة من المرض والآفة، وإنما هو بمعنى الكمال والبراءة من النقص، فهو المكتمل غير مزيد فيه أو منقوص منه. أما (الآية) فقد استعاروها من مصطلحات أهل القرآن، وليست هي أصلًا بآية، وإنما هي السطر أو البيت في القصيد ونحوه *verse* أو هي العبارة أو الجملة المتكاملة، ولكنه تشبيه لا بأس به، يقرب المعنى إليك، كما يقربه إلى أهل الملة القارئين بالعربية لا يعرفون غيرها.

* * * *

وقد كان من شأن اختيارنا تفسير الأعلام الأعجمية في القرآن بترتيبها التاريخي، لا بترتيبها على حروف الهجاء، اهتمامنا برسم الإطار التاريخي لصاحب الاسم العلم والتعريف به، وكان هذا ضروريًّا لتحليل معنى الاسم العَلَم الذي فُسِّر به في القرآن، فهو يحدد لك اللغة التي صيغ منها الاسم الأعجمي العلم، كما رأيت في الاسم (موسى)، وهو أيضًا يحدد لك مناسبة التسمية وانطباقها على المُسمى، كما رأيت على سبيل المثال في الاسم (إبراهيم)

(١) السورة اسم فعل بمعنى مفعول، من سَارَه يَسُوره يعني ضرب عليه سورًا، فهي المُسَوَّرة.

الذي لا تستطيع بعد قراءة هذا الكتاب أن تفسر معناه بما فسَّره به القرآن: (إمام الناس) لا (أبو جمهور كثيرين) كما يظن علماء العبرية وعلماء التوراة.

وقد عرجنا أيضًا في سياق البحث على موضوعات وقضايا ربما يظنها القارئ المتعجل دخيلة على مباحث الكتاب، وهي منه في الصميم، ومن ذلك على سبيل المثال شرح عقيدة المسيحيين في المسيح، فما كان يُمكن تفادي هذا الشرح إن أردت تحليل الاسم (عيسى) (يشوع العبرانية التي أصلها (يِهُوشُوَعْ) ولفظة (إنجيل) (التي رددناها إلى (هَجِّلْيُون) العبرانية بمعنى المرآة الجالية المجلوة) بحيث لا يصح لك بعد قراءة هذا الكتاب إلا أن تفسر الاسم (عيسى) بما فسره به القرآن: المُخَلَّص الناجي، لا المُخَلِّص المُنَجِّي كما يظن أصحاب الإنجيل، وإلا أن تفهم من لفظة (إنجيل) أنه المرآة الجالية المجلوة، أي (البينات) كما قالها القرآن، لا البشارة أو الخبر السار كما يظن عامة أهل الكتاب، وقد أفضت في هذا شرحًا وتعقيبًا، كما أفضت في غيره من مباحث الكتاب، لأني أحببت أن أوفر على من يتصدون لانتقاد مقولات هذا الكتاب مؤونة الكر والفر، فحرصت على أن أسد عليهم مقدَّمًا منافذ القول: بذلت في هذا قُصاراي، وما أدعي الكمال، فالكمال لله وحده، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

ولئن كان هذا البحث يتناول واحدًا وستين اسمًا علمًا - أعجميًّا أو مُشتبهًا في عجمته - فقد تناولنا بالتفسير أيضًا أعلامًا أخرى غير منصوص عليها في القرآن، عرضت لنا في سياق البحث، وكان تناولها ضروريًّا في الإطار التاريخي لصاحب الاسم العلم، ومن ذلك الاسم (حواء) أم البشر والاسم (يوكابد) أم موسى، والاسم (مِريام) أخت موسى وهارون، وغيرها، كما تناولنا بالتفسير أيضًا ألفاظًا عربية من مثل (أخت هارون)، (السامري) (ذي الأوتاد)، (الحواريين)، (أدنى الأرض)، وغيرها كثير، مما فات معناه على جميع المفسرين، وهُدينا إليه بفضل من الله ونعمة.

إلى هذا وذاك ترجع ضخامة هذا البحث، وإليه يُعزى أيضًا تفاوت حجم فصوله فيما بينها. بل قد شغلت فصوله الثلاثة الأولى تُمهد لمباحثه نحوًا من خُمْس حجم الكتاب،

ولكنها كما رأيت كانت ضرورية للدخول في مباحثه، على الأقل بالنسبة للقارئ العام غير المتخصص في موضوعه، على أننا حاولنا التخفيف من صرامة هذا التمهيد الجاف بطبيعته، فبثثنا فيه قسطًا من المرح، وشيئًا من التفكه، وكثيرًا من التشويق.

* * * *

أما انطباق منهج هذا البحث على نتائجه، فهو بفضل الله عز وجل الانطباق التام: لا تنتهي من قراءة هذا الكتاب إلا وقد سلمت معي بمقولته الأساسية، وهي أن القرآن لم يترك علمًا أعجميًّا، ورد به إلا وقد فسر معناه بإحدى أدوات التفسير الستِّ المستخدمة في مباحثه، ولا تفرغ منه أيضًا إلا وأنت تسبح معي العليم الخبير، القائل بكل اللغات، ومنها البائد المنقرض.

لم يخرج عن فرضية هذا البحث إلا لفظ واحد، هو (المجوس) التي لم تفسر في القرآن بأي من أدوات التفسير الست على منهجنا في هذا الكتاب، وقد بينا لك السبب في مبحث (المجوس).

أما الاسم (هامان) قرين فرعون موسى ورئيس كهنة آمون فيما نقول نحن، الذي تراوحنا فيه بين الترجيح واليقين، أهو في القرآن على الترجمة لاسم هذا الرجل أو لقبه بمعنى (عظيم الهامة)، أو هو تعريب غير مفسر من المصرية القديمة (ها + أمان) (هَوَّة آمون) يعني (المدلف إلى آمون)، فمرد توقفنا فيه يرجع كما مر بك في مبحث (هامان) إلى انعدام النظير الذي تقيس عليه مما عُرِف من تاريخ (فرعون موسى) وهو ما نرجو أن تجلّيه الأيام.

أما فرائد إعجاز القرآن في تفسير أعلامه الأعجمية على منهج هذا الكتاب، فهي عديدة: أعظمها بإطلاق عِلْمُ القرآن وقت نزوله بما لم يعلمه مخلوق حتى أواسط القرن التاسع عشر لميلاد المسيح وأوائل هذا القرن، من مثل موسى وفرعون ومصر وسيناء بلغة آل فرعون،

وثانيها في الترتيب مخالفة القرآن أهل الكتاب في تفسير معاني أعلامهم، من مثل آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وعيسى وأيضًا (إنجيل): أخطأ أصحاب اللغة وأصاب القرآن.

* * * *

وقد دأب لفيف من علماء القرآن في هذا العصر على التصدى لكل قائل بوجه من وجوه إعجاز القرآن (العلمي)، أعنى سبق القرآن إلى هذه (النظرية) أو تلك مما ينكشف للعلم الحديث، يخشون أن تنهار (النظرية) فينهار وجه الإعجاز، فكم انتقل العلم بنظرياته في القرون الثلاثة الأخيرة من النقيض إلى النقيض. وقد بالغ بعضهم في هذا فرد القول بأن في الآية الكريمة: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾[1]، ما يشهد لدوران الأرض حول محورها قبل أن يقولها جاليليو ويحاكم من أجلها في أوائل القرن السابع عشر، وهي الآن قانون لا يشك فيه أحد: آثروا الوقوف عند ما قاله القدامى المفسرون فقالوا هذا من مشاهد يوم القيامة، وأهملوا تعقيبه عز وجل: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ الذي لا يقال في مشاهد يوم القيامة. هذا التحرز وإن حسنت النيات، مرذول، لأنه يطمس أعظم ما في القرآن: دليل العلم ودليل القدرة، الشاهد له عصرًا بعد عصر بأنه الحق من الحق نزل: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[2]، على أن هذا اللفيف من علماء القرآن - حسني النية - الذين يضربون على أيدي (العلميين) المعاصرين المسلمين ليزجروهم عن التفسير، العلمي (للآيات) العلمية (في القرآن بغير ما فسرت به في كتب التفسير حتى عصر القرطبي في القرن السابع الهجري، لا يقفون من قدامى المفسرين هؤلاء نفس الموقف، بل يغضون الطرف عن اجتهادات أولئك المفسرين القدماء في فهم تلك الآيات العلمية في القرآن بحسب التصور(العلمي) الذي تحقق لهم في عصرهم. ولم يقل أحد إن انهيار قول المفسرين القدماء في تفسير هذه الآية أو تلك من الآيات العلمية في القرآن، قد نال من هيبة

(١) سورة النمل، الآية: ٨٨.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

القرآن، فلا قداسة لقول إلا قول الله وقول رسوله: سقط التفسير القديم الذي صيغ في حدود التصور العلمي السائد في عصر هذا المفسر أو ذاك، وحل محله تفسير أصح منه، يُطابق ما ارتقى إليه العلم. لا تثريب على هذا أو ذاك.

والذي ينبغي التنبيه إليه أن تفاسير القرآن في كل عصر، إنما يعكس كل منها علوم عصره، أعني (حالة العلم) في العصر الذي كُتبت فيه. ومن عجائب القرآن في مقولاته (العلمية) تلك الصياغة التي اتسعت لكل التفاسير في كل عصر بمفهوم العصر، يأخذ كل عصر بحظه من فهمها، وهي مع ذلك صياغة غاية في الدقة، لا يرقى إلى إحكامها قول بشر، وليس الإعجاز (العلمي) في القرآن هو فحسب سبقه إلى هذه الحقيقة العلمية أو تلك، وإنما هو أيضًا وبالأخص انطباق مقولة القرآن على كل مقولة يكتشفها العلم، أو (يصححها) العلم، لا تستطيع البتة مهما تقدم العلم وتبدلت النظريات أن تُخطئ القرآن في مقولة علمية واحدة قال بها، وإنما تُخطئ تفسيرك (القديم) لهذه المقولة التي في القرآن: ما إن تنبذ مقولة علمية اكتشف العلم خطأها حتى ترجع إلى تفسيرك (القديم) فتكتشف خطأ هذا التفسير الذي تعجلت فيه، وتندهش كيف فاتك هذا اللفظ أو ذاك، أخطأت وأصاب القرآن، كلام الله القديم.

هذا الإعجاز الدائم المستمر، دليل العلم الكلي المطلق، إعجاز يعظ به الله الذين آمنوا في كل عصر إلى قيام الساعة، فيزيدهم إيمانًا. أما الذين يُجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، فذرهم في جهالتهم، وما لهؤلاء نكتب هذا الكتاب.

****

أما هذا الوجه الجديد من إعجاز القرآن الذي فتح الله علينا به في هذا الكتاب، فهو الإعجاز (المعجز)، لأنه إعجاز محسوم، مقطوع به، لا يستطيع المعاند له دحضًا.

قد يجوز في مقولات القرآن العلمية أن يتصدى لك الجاحد المكابر فيقول لك: ومن أدراك أن مقولة القرآن التي صدقت في الماضي والحاضر ستصدق أيضًا في المستقبل وباب العلم مفتوح، وربما ينكشف للعلميين غدًا قول جديد يُناقض مقولة القرآن؟

مثل هذا لا يجوز على مقولات هذا الكتاب الذي بين يديك، فلفظة (فرعون) على سبيل المثال (پرعا) في المصرية القديمة) التي تعنى عند علماء المصريات (البيت الكبير) (أو (الصرح) كما فسرت في القرآن) لا يمكن أن تعنى غدًا أو بعد غد وإلى قيام الساعة شيئًا آخر غير البيت الكبير أو الصرح، أو أن المصريين القدماء يمكن أن ينقلوا هذا اللفظ عن معناه في لغته، كما يحدث في غيرها من اللغات، فقد انقرض المصريون القدماء وبادت لغتهم، قد انتهى الأمر، وأصبحت مقولة (فرعون = الصرح =) حقيقة علمية لا تقبل التعديل إلى قيام الساعة، كحقيقة دوران الأرض حولَ مِحورها التي عاينها رواد الفضاء مثلما عاينوا الليل الذي ينسلخ منه النهار. وقد قالها القرآن (فرعون = الصرح) قبل ثلاثة عشر قرنًا من يوم كانت اللغة المصرية القديمة، والتاريخ المصري القديم طلاسم مطلسمة، لم يأخذ من أهل التوراة أن معناها (الملك) كما وَهِمُوا، بل قد علم القرآن منذ متى كَنَّى المصريون القدماء عن ملوكهم بلقب (فرعون) فخص بها فرعون موسى وحده، لم يُسم بها فرعون إبراهيم أو فرعون يوسف كما قال كتبةُ التوراة، وإنما قال (الملك) ولم يكتف القرآن بهذا بل حدد لك من هو الفرعون المعني، فقال: (فِرْعَوْنُ ذو الأوتاد).

هذا هو دليل العلم الكلي المطلق، ليس إلى نقضه من سبيل.

والحمد لله رب العالمين.

* * * *

اللهم اجعل هذا العمل خالصًا لوجهك، نافعًا لعبادك، تهدي به من تشاء إلى صراطك المستقيم.

الإسكندرية في ٢٧ رمضان سنة ١٤١١ هـ - ١٢ إبريل سنة ١٩٩١م

* * * *

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: القرآن والحديث

- المصحف الشريف.
- صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب الشعب، القاهرة.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، وقد صدر في طبعات متعددة تزخر بها المكتبات، فاختر أيها شئت.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، مطابع الشعب، القاهرة.

ثانيًا: التوراة والإنجيل (الكتاب المقدس بشطريه: العهد القديم والعهد الجديد)

- الكتاب المقدس، ترجمة الفاتيكان العربية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، فبراير ١٩٥١.
- الكتاب المقدس، ترجمة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية، دار الكتاب المقدس بمصر، طبعة العيد المئوي (١٨٨٣ - ١٩٨٣).
- تُورا نَبيئيم وكتوبيم (توراة الأنبياء والكتبة)، الأصل العبراني مصحوبًا بترجمة إنجليزية:
  - *The Holy Scriptures of the OLD TESTAMENT. Hebrew and English. London. The British and Foreign Bible Society.*

- هابريت هِحَداشا (العهد الجديد)، ترجمة عبرانية عن الأصل اليوناني للأناجيل، تطلبه من:

- *Trinitarian Bible Society. 217 Kingston Road. London sw 19 3 NN. England.*

- العهد الجديد في أصله اليوناني مصحوبًا بترجمة إنجليزية بينية حرفية:

- *The RSV Interlinear Greek - English NEW TESTAMENT by Alfred Marshall. Regency Refernce Library. Zondervean Publishing House. Grand Rapids. Michigan. USA.*

ثالثًا: معاجم عامة ومتخصصة:

- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر.

- المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت.

- معجم وبستر (الكبير) في اللغة الإنجليزية:

- *Webster's New 20th Century Dictinary of the English Langusge (Unabridged). second edition. 1978.*

- معجم لاروس الثنائي فرنسي / عبري - عبري / فرنسي:

- *Nouveau Dictionnaire Hebreu - Francais / Francais - Hebreu (LAROUSSE). Librairie LAROUSSE. Paris. Imprimé en Israel. 1986. par Achiasaf Publishing House. Tel-Aviv.*

- هَمِّلُّون هِحَداش لَتَناخ (المعجم الحديث لألفاظ توراة الأنبياء والكتبة)، عبري/ عبري، دكتور صْفِي راداي وبروفيسور حَايِيم رابين، القدس، ١٩٨٩، تطلبه من:

- *Yehoshua Orenstein. "Yavneh" Publishing House Ltd.. and Keter*

Publishing House Jerusalem Ltd.. P.o.b. 7145. Jerusalem. (May be ordered under its English name "The New Bible Dictionary". Dr. Zvi Raday & Prof. Chaim Rabin).

- المعجم التحليلي العبري الآرامي (لألفاظ التوراة) (مفسرة بالإنجليزية):

- *The Analyitacl Hebrew and Chaldee Lexicon. Benjamin Davidson. Regency Reference Library. Zondervan Publishing House. Grand Rapids. Michigan. USA.*

رابعًا: مراجع لغوية:

- في اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية):

- *A.Gardiner. Egyptian Grammar. Oxford University Press. London. 3rd edition. revised. 1966.*

- في اللغة الآرامية:

- *Franz Rosenthal. Grammaire d'Araméen Biblique. Beauchesne. Paris. 1988.*
- *Wm. B. Stevenson. D.Litt. Grammar of Palestinian Jewish Aramaic. 2nd Edition. 1987. Clarendon Press. Oxford.*

- في عبرية التوراة:

- *R. K. Harrison. Biblical Hebrew. Teach Yourself Books. 1986. Richard Clay. The Chaucer Press Ltd., Bungay. Suffolk. Great Britain.*

- في يونانية الأناجيل:

- *Alfred Marshall. New Testament Greek primer. Academie Books Zondervan Publishing House. Grand Rapids. Michigan. USA.*

- في اليونانية المعاصرة:

- *S. A. Sofroniou. Modern Greek. Teach Yourself Books. Random House Inc., 201 East 50th street. New York. NY 10022.*

خامسًا: مراجع متفرقة:

- تاريخ اللغات السامية، أ. ولفنسون، دار القلم، بيروت.

- مصر الفرعونية، أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٩.

- معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية، دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٨.

- العبري من الأعلام والمشتقات في القرآن (بالإنجليزية):

- *J. Horovitz. Jewish Proper Names and Derivatives in the Koran. Geog Olms Verlagsbuchhandlung. Hildesheim. Germany.*

إلى غير ذلك مما أشرنا إليه في حواشي الكتاب ولم نذكره هنا.

* * * *

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
النصارى	٣٨١
الصابئون	٣٨٩
المجوس	٤٠٥
الروم	٤٢٩
في ختام البحث	**٤٥٣**
قائمة المراجع	**٤٦٧**
فهرس الموضوعات	**٤٧٣**

****

من إصدارات دار الميمان

الحرب والحرابة

والبغي والإرهاب

بقلم

سماحة الشيخ

محمد الحبيب ابن الخوجة

الأمين العام لمجمع الفقه الإسلامي سابقًا

من إصدارات دار الميمان

علماء نجد خلال ثمانية قرون

تأليف الشيخ

عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح البسام
(١٣٤٦هـ - ١٤٢٣هـ)
عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة

أشرف على المراجعة والطباعة

بسام بن عبد الله البسام

من إصدارات دار الميمان

الفِقهُ المختار

مِنْ كَلامِ الأَخْيارِ

تأليف الشيخ

عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح البسام

(١٣٤٦هـ - ١٤٢٣هـ)

عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة

رحمه الله

أشرف على المراجعة والطباعة

بسام بن عبد الله البسام